الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة باتنة 1

كلية العلوم الإسلامية
قسم أصول الدين

نيابة العمادة لما بعد التدرج
والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الظاهرة الدينية في الفكر المعاصر

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في العلوم الإسلامية

تخصص: مقارنة الأديان

إعداد الطالبة:
أسماء بن سبتي

إشراف الأستاذ الدكتور:
مرزوق العمري

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
د/ عبد الحكيم فرحات	أستاذ ومحاضر	جامعة باتنة 1	رئيسا
د/ مرزوق العمري	أستاذ ومحاضر	جامعة باتنة1	مقررا
د/ زهرة لحلح	أستاذ ومحاضر	جامعة الأمير – قسنطينة	عضوا
د / بشير قادرة	أستاذ ومحاضر	جامعة باتنة 1	عضوا
د/ عبد الرزاق بالعقروز	أستاذ ومحاضر	جامعة سطيف 2	عضوا
د/ شريف طاوطاو	أشتاذ ومحاضر	جامعة خنشلة	عضوا

السنة الجامعية: 1438/ 1439هـ – 2018/2017 م

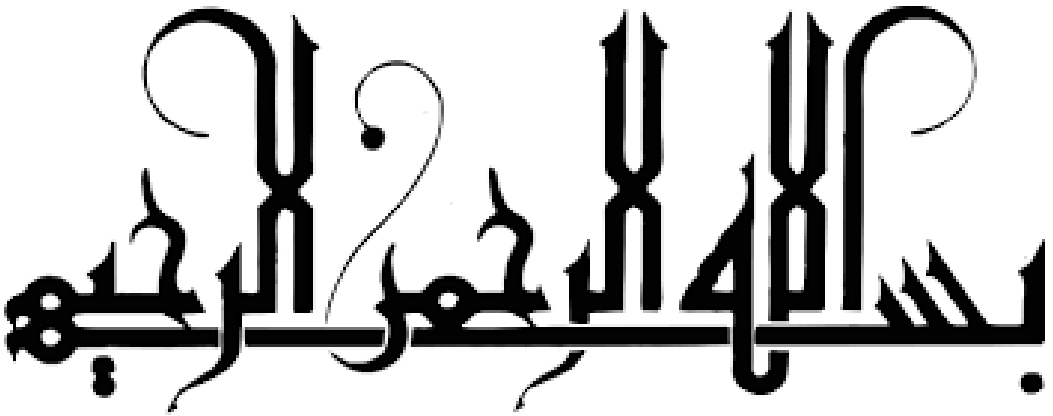
بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

وفاء لأمي وأبي رحمهما الله

وإلى زوجي، وأبنائي : عبد الرحمن وإبراهيم عبد الشكور، وعبد الصبور، وعبد المغيث

حفظهم الله ورعاهم

وإلى خالتي وسائر إخوتي وأخواتي

وإلى علماء الأمة والوطن

شكر وتقدير

الحمد لله الذي وفقني لهذا، فما توفيقي إلا بالله

ثم الشكر للأستاذ المشرف وسائر أساتذتي ومعلمي ..

وكل من علمني حرفا

أو أسعفني بالدعاء يوما

مقدمة

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على البشير النذير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

موضوع الدراسة :

كانت الأديان والمعتقدات دائما ولا تزال أهم الموضوعات التي شغلت وتشغل بال الكثير من العلماء والباحثين، فالاهتمام بالفكرة الدينية ظل واضحا من عهد الإنسان الأول وإلى يومنا هذا، الأمر الذي أسفرت عنه بقايا مدافن وكهوف إنسان العصر الحجري وآثاره الأركيويوجية من منحوتات، ودمى .. وبدا واضحا لدى شعوب الأديان الوضعية القديمة في آثارها الدينية من كتاب (الموتى) عند المصريين القدامى أو كتاب (الفيدا) عند الهنود أو الكتب الدينية عند البوذية .. أو تماثيل الآلهة التي اعتقدها البابليون (بعل وعشتار..) والسومريون (أنو وأنليل)، وكذا الفرس (أهورامزدا)، والهنود (برهما، سيفا وبوذا ..) ..

فالحديث عن العقائد الدينية البشرية شأن قديم، والذي ثبت هو تدوين قدماء الفراعنة والإغريق لعقائدهم ودياناتهم، وعادات حياتهم، في قراطيس البردي، وجدران المقابر والمعابد، كما خلفوا تماثيل منحوتة، وأجسادا محنطة، وقصص ودواوين شعر أسطورية ... بل وتم التفاضل والمحاكاة في العقائد وأسماء الآلهة والمعبودات .. بين تلك شعوب، وما ذلك إلا لولع الإنسان بالفكرة الدينية، واندفاعه لإجلائها والتعبير عنها رسما ونحتا وكتابة ..

إلا أن الاهتمام كان ينحصر لدى كل ديانة على حدة، رغم الدور القليل للرحالة والشعراء المؤرخين في وصف الأديان المختلفة والمعبودات الدينية : أمثال (هيرودوت) (توفي القرن 5 قبل الميلاد)، و(هوميروس) بديوانيه (الإليادة والأوديسة)، وفي كل ما مضى لم يكن الحديث عن الأديان مفردا، بل كان يساق عرضا ضمن شؤون الحياة المختلفة...كما غلب عليه الطابع الأسطوري في سرد مغامرات الآلهة وأنسابهم .

أما عن الدراسة التي تختص بالدين وبالظاهرة الدينية بوجه عام، فنلمح ذلك في أبحاث كل من (سقراط) و(أفلاطون) و(أرسطو) في أواخر القرن الخامس وأوائل الرابع قبل الميلاد بتأكيد هؤلاء على سبب أول أزلي للكائنات، وأن العقائد والفلسفات بدأت نقية نبيلة ثم تنازلت.. إلا أن الفلسفة اليونانية فترت خلف أفلاطون، وسرعان ما تدهور حالها وآلت إلى الشك، ثم الأبيقورية (341-270ق.م) وبقايا الرواقية (ق3 قبل الميلاد).. ثم فسح المجال لأقلام الكتّاب من الرومان بعد ذلك في وصف الديانات والشعائر والعبادات مع (شيشرون) في (طبيعة الألوهية) أوائل القرن الأول قبل الميلاد..

فالبحث في الظاهرة الدينية إلى هنا لم يتسم بالبحث الجاد، والأمر سيان بالنسبة لأصحاب الديانات السماوية بعد ذلك، فمن خلال تعاليمها وكتبها المقدّسة؛ لا نلحظ اهتماما بشأن الأديان الأخرى، سواء على صعيد الفكر الديني اليهودي أو المسيحي .. بل إن المسيحية ظلت لقرون عدة تعد البحث في الأديان –بل وفي المسيحية ذاتها– ضربا من التجديف والهرطقة، إلا ما نلمحه من أقلام المنافحين عن الديانة المسيحية، والمناوئين للديانات الوثنية والفلسفات المعارضة، من ذلك القديس (أوغسطين) (في 354- 430م) بمؤلفه في الفلسفة الدينية وهو : (المدينة الإلهية) .. أما عدا ذلك فقد مضى العصر المسيحي منشغلا بالجدل بين المذاهب المسيحية .

أما بالنسبة للإسلام وعلماء الإسلام فلم تُثر أي مشكلة أمام دراسة الأديان ومواجهتها، سواء من ناحية تعرّفها أو نقدها، سيما أن القرآن الكريم أورد بين دفتيه ذكرا لأديان عدة غابرة أو سائدة، من ذلك دين الصابئة والنصارى والمجوس والذين أشركوا.. قال تعالى **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** (سورة الحج الآية 17) .

ومن خلال هذا تنبه المسلمون إلى دراسة الأديان قاطبة.. لما سلطه الإسلام من ضوء الإشارة إلى احترام الآخر واعتبار كافة الأديان ومعتنقيها، إضافة لأهمية نقدها، ومن هنا اضطلع جهابذة هذا الفن في القرون الأولى للحضارة الإسلامية وإن تنوعت الأسماء والمناهج؛ فمن الملل والنحل، والرد على المخالفين والنصارى، إلى الآراء والديانات .. على أن الهدف السامي المشترك كان الدعوة إلى الإسلام بإبراز تميزه وأفضليته بين الأديان، فتضافرت جهود علماء المسلمين في دراسة الأديان ونقدها، أو المقارنة بينها .. ومن علماء هذه الفنون نذكر: النوبختي (ت 350ه/961م) في (الآراء والديانات)، القاضي عبد الجبار (ت 969ه/1025م) في (الفرق بين الأديان)، عبد القاهر البغدادي (ت429ه/ 1037م) في (الفرق بين الفرق)، ابن حزم الأندلسي (456ه/1064م) في (الفصل في

الملل والأهواء والنحل)، والشهرستاني (548ه/ 1153م) في (الملل والنحل)... وهي جهود اتسمت جلّها بالريادة والدقة العلمية والواقعية والموثوقية إما وصفا وتأريخا أو تحليلا ومقارنة أو نقدا ومجادلة وردا.. أسهمت كلها باستقلال وصف الأديان، وبالتقدم الفكري، رغم كونها جهودا فردية .

أما عن الفكر الغربي يومها، فقد تزامنت دراسة الدين مع ما يسمى بحركة التنوير والإصلاح الديني، الذي طال الكنيسة ومعتقداتها منتصف القرن السادس عشر، وذلك لاعتماد فلسفة الأنوار العقل والإستقراء والنقد، وحتى التجريب في دراسة الظواهر، بما في ذلك الأديان كلها سيما المسيحية، وأما قبل هذا، فإن الحديث عن الدين واللاهوت هو ضرب من الغيبيات التي هي حكر على الكنيسة ورجالها، وهذه الأخيرة وسمت باللامبالاة بالدراسات الدينية .

وعموما فقد اجتذب هذا الانفتاح التنويري مشارف القرن العشرين وبالأحرى أواخر القرن التاسع عشر أقلام عدد من الأعلام الذين أولوا الظاهرة الدينية اهتمامهم، لتتسم دراسة الأديان بالعلمية والجدية بداية من المتخصص في اللغات الألماني (فردريك ماكس مولر) Max Müller(1823-1900م)- الذي تنبه إلى آثار الظاهرة الدينية وصبغتها لمختلف نواحي الحياة .. وكذا أمثال : فريزر (1845- 1941م)، (وليم جيمس) William James (-1910م) (تايلور) Taylor (-1917م) و (دوركايم) Durkheim (1858- 1917م) .. وذلك من خلال فروع شتى للمعرفة كعلم الظواهر (الفينومينولوجيا)، وتاريخ الأديان ومقارنتها أو النقد التاريخي، وكذا الفلسفة، وعلم اجتماع الدين أو علم النفس الديني، إضافة لعلم أنتربولوجيا الدين...إلخ، ولا يخفى أهمية تلك المناهج والأفرع العلمية في فهم الأديان وطبيعتها، وازدهرت دراسة الأديان وتباينت المداخل والتسميات فمن (علم اللاهوت)، و(الإلهيات)، إلى (دراسة الأديان) أو (علم الأديان)، (تاريخ الأديان)، و(مقارنة الأديان) ... وظل المجال يتسع في دراسة الدين إلى أن مهَّد لكل من الهيرمينوطيقا والتفكيكية، مما أثار تحديات نزع القداسة وإشكالية تاريخانية النصوص الدينية، وزعزعة مكانة التفسيرات التقليدية للنصوص ...

والحق أن دراسة الأديان قد تلونت ومعطيات كل عصر، أو حسب اختلاف اهتمامات الدارسين، وبعد أن كان همُّ العلماء بداية هو التتبع الخاص للأديان والملل كلا على حده، بالتعرف على نشأتها وتاريخها ووصفها، وما يتعلق بها من عقائد وعبادات ومقدسات.. تطلع هؤلاء بعد ذلك إلى التقصي عن أصول الأديان على كثرتها واختلافها، باستقراء المتشابه والمشترك بينها، واستخلاص مبادئها، مما يكشف عن ماهيتها وجوهرها، وينم عن خلود الظاهرة الدينية، مما يدفع للتساؤل عن منبعها وعن العلاقة بين مظاهرها المختلفة، وكذا العلاقة بينها وبين الإنسان .. والذي ميزها أكثر —حديثا- هو

تبنيها البعد الإنساني للظاهرة الدينية والبحث عن صلب وأساس كل المعتقدات الدينية للإنسان، بصرف النظر عن البيئة والزمان ..مما لزم التوغل في قاع التاريخ البشري أو ما قبل التاريخ .

وعموما فقد نمت دراسة الأديان نموا واسعا وسريعا في عصرنا خاصة مع توظيف العلماء والباحثين مناهج الفينومينولوجيا والأنتربولوجيا والفيلولوجيا .. لغرض تحري الموضوعية أكثر ودراسة الظاهرة الدينية كما هي، كما تنوعت وسائل البحث لتشمل علوما وتكنولوجيات جديدة وعديدة كعلم اللغات، وعلم الآثار، وعلم طبقات الأرض والحفريات، وعلم الوراثة، وعلم التشريح والفيزيولوجيا، والفيزياء النووية وفيزياء الفلك ... ناهيك عن أدق العلوم كعلم الأحياء المجهري، وعلم الرياضيات الإحيائي، وعلم أحياء الخلية، وعلم الكيمياء الحيوية.. وهذه أو تلك وغيرها تجتمع كلها على مقاربة الظاهرة الدينية، بتفسيرها وإرساء أسسها الكلية، وهو طابع يوائم ما يتميز به هذا العصر؛ عصر العلم وانفتاح العولمة والحداثة، ثم ما شهده من انعطاف في المعايير نحو ما بعد العلمانية وما بعد الحداثة .. وما أفرزه ذلك من حواجز بين العلم الحديث والقضايا الغيبية والغائية..، وكذا تناقضات ضرورة الحريات والتعددية الدينية والإنسانية المفتوحة، إزاء الاحتكارات الدينية والتعصب والجمود القومي، أو تناقضات العودة الجامحة إلى الدين والتدين في مقابل موجات التيار التحرري الإلحادي الجديد .. كل ذلك مما كان له بالغ الأثر في إقصاء البعد الروحي للإنسان، ويستدعي التساؤل عن مصير الدين..

ولذا فإن موضوع الدراسة (**الظاهرة الدينية في الفكر المعاصر**) يُجلى ببساطة أكثر من خلال مصطلحاته؛ فـــ(ا**لظاهرة**) : الأمر ينجم بين الناس ويعم، ومصطلح (ا **لدين**) : هو اسم لكل ما يعتقد أو يتعبد به، ومنه فإن عنوان الأطروحة الموسوم بـــ (**الظاهرة الدينية في الفكر المعاصر**) يفهم بأنه سعي لمعالجة منهجية لماهية الدين بصورته الكلية، لا بصورة جزئية منقطعة، أو مخصوصة لهذا الدين أو ذاك، بل بالتأصيل لنزعة التدين وإثبات خلودها وتوأمتها للإنسان، واستقراء خصائصها العامة، ثم ملاحظة صيرورتها ومساراتها الفكرية والحضارية في واقعنا المعاصر .

أهمية الدراسة :

يستمد موضوع الدراسة أهميته من أهمية تعاطي الظاهرة الدينية مع مجال الفعل الإنساني، ف عبر الحقب التاريخية للإنسان نجد أن الفكرة الدينية م شاعة بين جميع الشعوب والأقوام التي بادت وسادت، البدائية أو المتحضرة .. فما من قوم عاشوا وبادوا دون أن يتدينوا، فلا غرو من الاهتمام بملابسات الظاهرة الدينية . فالدين أحد أبرز مكونات الهوية الإنسانية، وفي فهم أصل الظاهرة الدينية وفحواها، فهم لأصل الحياة ومعناها، وفهم لعلاقة الإنسان –هذا الجرم الصغير– بالكون فسيح

الأرجاء، ومن خلاله النظر الدقيق للكون وللحياة، كي يدرك الإنسان مغزى حياته، ومن أين يستمد قيمته ومعناه، بعيدا عن هذا العالم المادي، وكيف يجدد تصوره الصحيح والمتكامل عن الدين وعن نفسه والوجود، وحينها تبعث فيه الحياة من جديد.

ذلك أن سيطرة العلم وسطوته الهائلة على شتَّى مناحي الحياة وما قطعه من أشواط في سبر أرجاء الكون، مما جعل الحياة يومنا هذا تكتسي صبغة مادية، إلا أن التصميم والتعقيد المعجز للحياة شلَّ أية محاولة للعلم في تفسير أصل الحياة أو نشأتها، بل إن نتائج العلم المبهرة في مختلف الميادين والتخصصات والجزئيات، وما كشف عنه من أسرار الذرة إلى المجرة.. تتآلف شاهدة على أنه لابد لهذا الكون خالقا مبدعا، وإذا وقف المرء إزاء هذا تذوق مزايا الإيمان بالله وترسخت فطرة التدين النقية لديه تعميقا وتثبيتا، ولأنَّ الدين أحد أهم العوامل الفاعلة و المحركة للجنس البشري ، ففي فهم الدين والتدين، فهم للآخر ومن ثم تبيُّنُ لواقع الحضارات والثقافات المعاصرة ومواقفها، من خلال مبلغ الأديان عندها وما تمثله،.. وليس هذا فحسب بل يحدث اكتشاف للذات في ضوء اكتشاف الآخر، فيقوم الإيمان على الاقتناع والثقة لا مجرد التسليم والإتباع الموروث، ولا يتسنى ذلك إلا من خلال الدراسة الموضوعية للظاهرة الدينية في محاولة لتفسيرها في أغلب تشعباتها وأبعادها .

فدراسة الظاهرة الدينية في واقعنا المعاصر هو في الحقيقة دراسة وفهم لواقعنا مترامي الأطراف الفكرية والعلمية والثقافية والحضارية..، وذلك لتسلل الفكرة الدينية وإن خفت إلى شتى خبايا الحياة شئنا أم أبينا، سيما أمام ما يجتاح عالمنا من أبجديات العولمة ومبادئ العلمانية وما ترفعه من شعارات التنوير والحداثة، وهلم جرًّا ... جعلت الأعناق تشرئب لدين عالمي كامل تطمئن إليه .

أسباب اختيار الموضوع : لقد دفعني إلى الاهتمام بهذه الدراسة أسباب عديدة منها :

- طبيعة التعاطي مع الظاهرة الدينية، فرغم تعدد زوايا النظر إلى هذه الظاهرة، إلا أنها في غالبها تجزّئها، ولا تقدم طرحا شاملا لها، أو تحيلها إلى حد أدنى لا يعكس حقيقتها .

- إنسانية معظم المناهج والفلسفات التي ترصد الظاهرة الدينية، بل ومادتيها التي تجعل من الدين عرضا زائلا، أو غيبا بعيدا لا مناص منه، كما تتأرجح بين التهوين من شأن الظاهرة الدينية أو تفسح المجال للمذاهب والفلسفات كي ترتقي إلى مصاف الأديان .

- التوتر الثقافي والفكري الذي يعيشه العالم يومنا هذا سيما منذ حوادث 11 سبتمبر2001م، ولا يخفى على أحد ما ينسب للأديان والتدين والتبريرات والتفسيرات الدينية من أثر في ذلك، إذ

على أساسه تساق القيم والعلاقات أو الخلافات والعداءات الفكرية والثقافية بين الشعوب والأمم والحضارات والأديان.. مما يبعث على إعادة النظر والتفكير الجاد في الظاهرة الدينية .

- التحريض المتواصل على الإسلام بعد 11 سبتمبر 2001م، وانتشار الأجواء المعادية للإسلام والمسلمين في الغرب مما يحتم إعادة النظر في التجاذبات بين العالم الإسلامي والغربي سيما تلك التي بنيت على رؤى دينية .

- قابلية المجتمعات الغربية اليوم واستعدادها لسماع الحقائق واختبارها وتمحيصها، لما شاع في أوساطها من حيوية فكرية وحريات دينية، عكس ما كانت عليه قبل، سيما أمام تسارع العلوم وانسياب المعلوماتية، لكأن العالم لمحة صغيرة، مما يدفع إلى تفحص الأديان والسؤال عن أيها يكون الدين الصحيح؟

إشكالية الدراسة : بناء على ما سبق تتبلور إشكالية الدراسة وفق جملة من التساؤلات الرئيسية تضم تساؤلات أخرى جزئية :

- ما هي أوجه النظر للظاهرة الدينية، وهل أفلحت في تحديد أو الإحاطة بماهية هذه الظاهرة؟

- وما هي الاتجاهات الحديثة في تفسير نشأة الظاهرة الدينية، وما هي أدواتها في مهمّة الكشف عن أصولها؟

- ما هو منبع الدين الأول أو مصدره، وما العلاقة بين الدين الأول وباقي مختلف الأديان؟ بل ما العلاقة بين هذا الدين وجبلّة الإنسان؟

- ثم ما الذي تحتاجه الظاهرة لاستكمال وجودها وبنيتها لأن يطلق عليها ظاهرة دينية؟

- وما الذي يربط الظاهرة الدينية بأشكال وظواهر نراها منتشرة، أجلاها الوثنية والسحر، وأيهما يكون الأصل ومتى يشكل الآخر الفرع؟

- ما الذي تمثله الصيغة الثنائية (الدين والتدين)؟ وما هي أبعاد التدين في واقعنا المعاصر؟

- ما التجاذبات بين الظاهرة الدينية والعلم والفكر الإلحادي المعاصر؟ وهل يقدر الإلحاد على إلغاء فطرة التدين في الكيان البشري؟

- ما هو مدلول عودة سؤال الدين حول الحداثة؟

أهداف البحث : يرمي البحث إلى مجموعة أهداف منها :

- تسليط الضوء على الأديان والمظاهر الدينية في عموميتها من منطلق كونها ظاهرة إنسانية .
- الخلوص إلى آليات حديثة تمكننا من طرح جديد للظاهرة الدينية، تمكن من دراستها دراسة علمية موضوعية .
- إزالة الحواجز بين العلم الحديث والبنى الفكرية الدينية بوضع أسلوب علمي في النظر للأديان.
- مناهضة الفكر التطوري والإلحادي، ونقد مضامينه وجذوره الواهية، وكذا بيان أثره بالنسبة لأهل الأديان والعالم كافة، وللإسلام خاصة .
- تقويض دعائم الفلسفة المادية والفكر المادي في تفسير الظواهر الإنسانية أو الكونية، ونقضه من خلال وأد أسسه وركائزه العلمية، بل ودحض قسيمته الأولية (مفهوم المادة) .
- تعزيز مبدأ الإيمان بالغيب وهو ما تقوم عليه الظاهرة الدينية، وتأكيد تجلياته وآثاره في الواقع ومن ثم إيجاد حلول للأزمة الروحية الحاضرة التي يعيشها إنسان عصر الحداثة وما بعدها .
- شرح كيف تحولت الاكتشافات العلمية في القرن العشرين إلى منظور يرسخ الإيمان والتسليم بوحدانية الخالق .

الدراسات السابقة : إن تعدد وتشعب أهداف البحث وإشكالاته هو مما دفعني إلى العودة إلى الدراسات السابقة وهي كثيرة وأهمها حديثا مما سعى لتسليط الضوء على إنسانية الدين بعامة منها : أعمال كل من الفيلسوف اللاهوتي (رودلوف أوتو) (Rudolf Otto) (1869- 1937م) في (فكرة القدسي)، الذي كشف عن الظاهرة الدينية كشفا رمزيا، فدرس العلاقة بين الرموز الدينية والحقائق، وعبر بوضوح عن فكرة جوهر الدين بالحضور الدائم للمقدس، وهو ما حفز (مرسيا إلياد) (Mircea Eliade) (1907- 1986م) بكتابه (المقدس والمدنس) الذي اعتمد دراسة الظواهر العامة للدين كما هي وحسب سلمها.. وسار على منواله (فراس السواح) في كتابه (دين الإنسان).. كما اطلعت على محاضرة ألقاها الدكتور (محمد أركون) في جامعة البلمند-شمال لبنان- 2002 بعنوان (الظاهرة الدينية بعد حادثة 11أيلول)، وغير ذلك من الكتب والمراجع .. وأفضل ما يدلى به في هذا المجال كتاب : الدين لـــ (عبد الله دراز) (1894-1958م)، وهو كتاب مركزي حول

مسائل فلسفة الدين وتاريخه، إلا أن الموضوع قيد الدراسة يتميز عن غيره من الدراسات بتركيز الاهتمام بالظاهرة الدينية في وقتنا الحاضر .

منهج الدراسة : أما عن المنهج المتبع : فنظرا للطبيعة الشمولية التشعبية للموضوع، فقد اقتضى البحث منهجا متنوعا :

- **المنهج التحليلي** : عند تقصي واستعراض التعريفات الغزيرة المتعلقة بماهية الظاهرة الدينية لغة واصطلاحا، وتحليلها واستقراء المشترك بينها للخلوص لأمر جامع، وكذا عند بسط وجهات النظر المتعلقة بتفسير الظاهرة الدينية ونشأتها، واستخلاص النتائج في كل حين، وكذا الأمر عند تقصي مصدر الدين من خلال ما تجمع لنا من بحوث ودراسات أو نظريات، وتتبع أقدم مظاهر الدين والتدين عند الإنسان . وكذا عند تتبع أصول الفكر الإلحادي المادي المعاصر واكتشاف جذوره التاريخية .

- **المنهج الوصفي** : عند وصف الظاهرة الدينية من جوانبها النفسية والاجتماعية، وفي كيفية وصف القرآن الكريم والكتب المقدسة (العهد القديم والعهد الجديد) لحالة لإنسان الأول وتدينه، وكذلك عند الإبانة عن وظائف الدين ودوره في الحياة ... وتظهر ضرورة المنهج الوصفي كذلك عند المقاربة للتدين في الواقع المعاصر، سواء على الصعيد الإسلامي أو الغربي، بتتبع أبعاد التدين وأنماطه ورصده كما في الواقع، والتدليل على الظاهرة الدينية والتعبير عنها كمّيا ورقميا للكشف عن مدى تواجدها في الواقع، وحجم تفاعل البشر معها، واستخلاص النتائج العامة المتعلقة .

- **المنهج النقدي المقارن** : إبان التماس الفرق والاختلاف الواسع في وجهات النظر في مفهوم الظاهرة الدينية وماهيتها وملاحظة ما يجمعها أو يفرقها . وكذلك عند استطراد أهم مظاهر الأديان في العالم، من معتقدات ومقدسات وممارسات وشعائر ونصوص وغيرها من المكونات، الأمر الذي يعمل على فهم أعمق لأساسيات وأركان الأديان، وملاحظة ما يجمع أو يفرق غالبها، أو يظهر التأثر في المظاهر الدينية أو انتقالها، أو توارثها أو توالد بعضها عن بعض .. عبر التاريخ البشري وإلى يومنا هذا . ثم تكون المقارنة أيضا عند ملاحظة ما يربط الظاهرة الدينية ببعض الظواهر المشوبة الأخرى لأجل تمييز الظاهرة الدينية وإنصافها . وكذلك عند المفارقة بين الدين والتدين برد الأمور إلى نصابها، لما ينبني عن ذلك من آثار .

المنهج الاستدلالي : وكان للاستدلال على أصالة النزعة الدينية في النفس الإنسانية، وذلك من خلال معطيات وبراهين عدة؛ كالإثباتات التاريخية، والدعائم العقلية، والمنبهات نفسية.. وكذا نتائج الأبحاث والإحصائيات، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأقوال العلماء والحكماء، والمختصين في مناحي مختلفة لدراسة الظاهرة الدينية..

والأمر سيان عند الاستدلال على وجوب الإيمان بالقادر الحكيم بإيراد الأدلة العلمية (كسجل الحفريات والأدلة الجينية، والفيزياء الكوانتية ..) لوأد المنظور العلمي المادي الملحد ومزاعم الداروينية، وإيراد أحدث الحقائق وما وصلت إليه اكتشافات القرن العشرين في تفسير نشأة الكون.. ثم التعقيب على ذلك كله بالآيات الجامعة لخلق السماوات والأرض منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة في القرآن الكريم.. وكل ذلك للتدليل على الحاجة للتفسيرات الغيبية لخلق الكون .

وبناء على هذا توزع منهج الدراسة على أربعة مناهج أساسية هي المنهج الاستقرائي التحليلي، المنهج الوصفي، المنهج النقدي المقارن، المنهج الاستدلالي .. إلا أن هذه المناهج المتعددة تتداخل عادة وتجتمع عند دراسة جزئية من جزئيات الظاهرة الدينية أو معالجة إشكالية من إشكاليات الدراسة، فيتطلب الأمر استقراء الملاحظات والخصائص، ووصفها وتحليلها بتفسيرها ونقدها وتقويمها أو مقارنتها بجزئيات أخرى وذلك ديدن البحث في غالب الأحيان .

صعوبات البحث :

تتمثل هذه الصعوبات في أمرين أساسيين : أحدهما فيما يتعلق بالظواهر التي اقترنت بظهور الإنسان إذ هي بحر يصعب سبر أغواره، فكل ما بين أيدينا هو بقايا الأمم الغابرة من مدافن ومقابر، وهياكل وتماثيل، وجداريات كهفية، وأسفار ... يصعب فهمها وتفسيرها، والثاني فيما يتعلق بحاضرنا، فتقل المصادر تلك التي تختص بموضع بحثنا تحديدا؛ دراسة الظاهرة الدينية في واقعنا، وإن اهتمت بالدين فأغلبها ترتبط بالصعيد الإجتماعي أو السياسي...

خطة البحث : وفي رحلة نأمل أن يكون زادها العلم والفكر والموضوعية بني البحث على ثلاثة أبواب تضمنت سبعة فصول، لها مقدمة وخاتمة، أتبعت بملاحق وفهارس .

أما الباب الأول فعنون بـــ : **ماهية الظاهرة الدينية** ، واتسع لثلاثة فصول، الأول خصص لـــ : **مفهوم الدين لغة واصطلاحا** ، وتضمن مبحثين، تناول الأول مفهوم الدين في اللغة العربية والقرآن الكريم، وكذا دلالة الدين في اللغات الأجنبية، وفي مبحثه الثاني تقصيت المفهوم الإصطلاحي للدين عند علماء المسلمين، وعلماء الفلسفة، علماء الاجتماع وعلم النفس . أما الفصل الثاني فكان حديثا:

في نشأة الظاهرة الدينية وفيه مبحثان، أولهما عرض للاتجاهات الحديثة في منشأ الدين بجانبيها التطوري والتأليهي، والثاني هو نقد لتلك الاتجاهات بما فيها النظريات التطورية والتأليهية، إضافة للاتجاهات الثانوية، وتقويم للاتجاه التطوري التقدمي في نشأة الدين . أما الفصل الثالث فهو لكشف : **مصدر الدين وأصالة التدين** ، وله مبحثان؛ الأول في تقصي مصدر الدين من خلال المعطيات الأركيولوجية والشواهد الكتابية، والمبحث الثاني هو لإثبات أصالة النزعة الدينية وبيان وظائفها، وفيه حديث عن الفطرة الدينية ومنبهاتها، وكذا تتبع لوظائف الدين ودوره . وهنا ينقضي الباب الأول .

ويليه الباب الثاني بعنوان : **أنتربولوجيا الظاهرة الدينية** ، وكُوّن من فصلين، أما الفصل الأول فيضم **بنية الظاهرة الدينية**، ويتحدث المبحث الأول فيه عن أركان الدين من المعتقدات والمقدسات والشعائر والكتب والنصوص المقدسة، وأما المبحث الثاني فهو لعناصر الدين المكملة من الأخلاق والشرائع والأساطير . وأما الفصل الثاني من الباب الثاني فهو عن **الدين وعلائقه**، وخصص مبحثه الأول عن الدين ومظاهر الوثنية، وسواء الوثنية في العالم القديم أو وثنية العالم قبيل الإسلام، وأما المبحث الثاني فموضوعه الدين والسحر وهو لبيان حقيقة السحر وأنواعه، ثم طرح لجدلية الدين والسحر .

وأما الباب الأخير فتضمن **المقاربات المعاصرة للظاهرة الدينية** ، وفصله الأول هو لـــ : **مقاربة الدين والتدين والواقع المعاصر**، واشتمل مبحثين أحدهما مقاربة للتدين في الواقع الإسلامي المعاصر، وفيه فهم للدين والتدين، وأنماط التدين في الواقع الإسلامي المعاصر، والمبحث الآخر مقاربة للتدين في الواقع الغربي المعاصر، متضمنا دراسة للمسيحية والعلمانية في سياق التاريخ الغربي، وأعقبه الوضع الديني في الغرب . والفصل الثاني من الباب الثالث فعنوانه : **الظاهرة الدينية والفكر الإلحادي المعاصر**، ويتفرع عنه ثلاث مباحث؛ المبحث الأول وهو لمقاربة الدين والعلم والفكر الإلحادي المعاصر، وفيه مقاربة لتاريخ المفهوم وسماته، وكذا مطلب للعلم بين الدين والإلحاد، والمبحث الثاني فهو لأدلة الفكر الإلحادي المعاصر ودحضها، وفيه حديث عن نشأة الكون والحياة ومعناها، وتفصيل عن التطور البيولوجي والداروينية، والمبحث الأخير فهو أدلة للخلق والإيمان، ويتضمن قضية خلق الكون، بتناول نظرية الانفجار الأعظم، وكذا الفيزياء الكوانتية ونقد مفهوم المادة .

وتوّجت الدراسة بخاتمة حوصلت نتائج البحث، وأتبعت بملاحق وفهارس تهدي القارئ . سائلين الله أن يصلح أعمالنا ويباركها ويشرح صدورنا بفيض الإيمان به، إنه نعم المولى ونعم النصير .

الباب الأول

ماهية الظاهرة الدينية

الفصل الأول : مفهوم الدين لغة واصطلاحا

الفصل الثاني : في نشأة الظاهرة الدينية

الفصل الثالث : مصدر الدين وأصالة التدين

الباب الأول : ماهية الظاهرة الدينية

فعلى اعتبار الدين ظاهرة إنسانية مرتبطة بوجود الإنسان وتاريخه فإن كلمة الدين كلمة تداولها الشرق والغرب، وعمّت التاريخ البشري وسائر لغاته ولهجاته، فكلٌ يدعي أن له دينا، ومما يعقد الأمر أن كل أمة لها معنى للدين يختلف باختلاف خصائص ذلك الدين ومظاهره ومعتقداته ومقدساته، ولذلك فقد تعددت تعريفات الدين ومفاهيمه باختلاف ألسنة وألوان الأمم والشعوب، بل إننا قد لا نجد في الأمة الواحدة اتفاقا واضحا على تعريف الدين وتحديد مفهومه، وبتعدد زوايا النظر إلى مفهوم الدين فإننا لا نطمح إلى إيجاد تعريف واحد أو موحد أو الاعتراف به، ولكننا سنعمل على بسط وجهات النظر، وتفحصها .. من أجل التمكن من صياغة تعريف عساه يكون ملما بأشتات الظاهرة الدينية وأنماطها، يكون لنا مرجعا يستدل به وسياجا نحوط به دراستنا من التفلت ويهيئ لصياغة تعريف اصطلاحي للدين ..

وكما اجتهد العلماء في البحث عن كنه الظاهرة الدينية وفهم ماهيتها، فقد اجتهدوا كذلك في تقصي أصولها وصبر أغوارها، وبالتالي البحث عن السر الكامن وراء تواجدها وتعدد أشكالها وتنوعها عبر التاريخ الإنساني وعن كيفية نشوءها بادئ الأمر .. وكذلك سعوا لكشف بواعثها ودوافعها الخفية التي دائما ما جعلتها تطفو إلى السطح كظاهرة فريدة تفرض نفسها مهما ران عليها من معتريات الحضارة أو معاول الزمن ...

الفصل الأول

مفهوم الدين لغة واصطلاحا

المبحث الأول : مفهوم الدين في اللغة

المبحث الثاني : المفهوم الإصطلاحي للدين

الفصل الأول : مفهوم الدين لغة واصطلاحا

إن الوقوف على تعريف المصطلحات عند خوض غمار كل دراسة أو بحث أو موضوع من الموضوعات يكاد يكون حتما لازما، فتعريف المصطلح يعد خطوة منهجية هامة تحدد الإطار العام للدراسة وماهيتها، وباعتبار صلب موضوع بحثنا (الظاهرة الدينية) فإنه لابد أولا من وضع تعريف للدين يجلي جوانب الدراسة ويحوطها من أن تتداخل مع غيرها من الظواهر، ويهيئ لصياغة تعريف اصطلاحي ... وحتى لا نتيه منذ البداية فإن أول ما نقوم به هو أن نلجأ إلى اللغة وما تقدمه المعاجم، وما دونه اللغويون من وجوه الاستعمال لهذه المادة .

المبحث الأول : مفهوم الدين في اللغة

وهنا نهدف إلى التفرس في معاني لفظ الدين ودلالاته ليس في اللغة العربية فحسب، بل كذلك في بعض اللغات الأجنبية مما يخدمنا وله علاقة في فهمنا للظاهرة الدينية من نظرة المجتمعات والثقافات لها على أصعدة مختلفة ومتمايزة ..

المطلب الأول : مفهوم الدين في اللغة العربية والقرآن

كان لفظ الدين من الألفاظ التي أخذت حصة الأسد في معاجم اللغة العربية، فما من معجم إلا وأدلى بدلوه فزاد أو أنقص، ونبه إلى ما فهمه من دلالة اللفظ ومعناه في لغة العرب :

يقول (ابن فارس) (395 – 329ه) (941 - 1004م)[1] في معجم مقاييس اللغة :" الدال والياء والنون أصل واحد إليه يرجع فروعه كلها، وهو جنس من الإنقياد والذل" [2] وحكى أهل اللغة (دِنْتُهُ بِفِعْلِهِ دَيْنا) بفتح الدال، و(دِينا) بكسرها وقيل الدَيْن؛ المصدر، والدِين بكسر الدال؛ الاسم [3]، وبالنظر إلى المعاجم اللغوية العربية فإنها تناولت لفظ الدين من وجوه عدة :

---

1 – ابن فارس : أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين، المتوفى سنة395ه من أئمة اللغة والأدب، من تصانيفه : مقاييس اللغة، والمجمل، جامع التأويل، حلية الفقهاء... قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان (ينظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 2001م، ج17، ص103) .

2 – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح : محمد هارون، دار الفكر،1979م، ج2، ص 319 .

3 – ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت : دار بن حزم،1423ه، ص 43 .

فمما ورد في أساس البلاغة : لـ(لزمخشري) (ت 538ه) 1 دين : دان فلان بدين خزيمة، ورجل دين ومتدين، ودينته : وكلته إلى دينه، ودنت وادنت و استدنت : استقرضت، ودنته وأدنته ودينته : أقرضته، وداينت فلانا: عاملته بالدين، وتداينوا، وفلان دائن ومديون، ودنته بما صنع : جزيته (كما تدين تدان) ومنه يوم الدين، والله هو الديّان، وقيل هو القهّار: من دان القوم؛ إذا ساسهم وقهرهم فدانوا له، ودانوه : انقادوا له، وقد دين الملك، وملك، وهم دائنون لفلان، ودين له، وانشد لـــ(عبد المطلب)(ت 578م)[2] :

إنّا أناسٌ لا ندين بأرضِنا   عضّ الرسولِ ينظرُ أمِ المرسلِ

ولفلان مدين ومدينة؛ أي عبدٌ وأمةٌ، ويقال : ابن المدينة، ودينته أمرك : ملكته إياه ، وداينته: حاكمته (كان علي ديّان هذه الأمة بعد نبيها) أي قاضيها 3 .

ومفهوم الدين هنا مرتبط بالمداينة أي المقايضة، وكما نلاحظ هو مفهوم متعلق بالمعاملات الدنيوية البحتة بين الناس وهو غالبا ما يشير إلى معنى المحاسبة والجزاء إضافة إلى معنى القهر والسياسة والحمل والإكراه على الطاعة، فأغلب معاني الدين عند (الزمخشري) تشير إلى المفهوم السياسوي للدين وهو ما يتضمن الخضوع و الانقياذ والمحاكمة والجزاء على الفعل .

وجاء في لسان العرب لـ (ابن منظور): (ت 711ه)[4] دين : الديَّان من أسماء الله عز وجل معناه

1- الزمخشري : هو محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري، كنيته أبو القاسم، ولد بخوارزم عام 467ه، تتلمذ عن الأصفهاني (ت 507ه)، ومن شيوخه النيسابوري (ت 526 ه)، كان واسع العلم ومن مصنفاته : أساس البلاغة، أطواق الذهب في المواعظ والخطب، الأنموذج في النحو، الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل ...توفي عام (538 ه) (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج20، ص151) .

[2] – عبد المطلب : (نحو عام 480م -45ق ه، 578م) اسمه شيبة الحمد، وهو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة، جدُّ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لأبيه، وحصل له شرف تربيته وكفالته بعد وفاة أمه صلى الله عليه وسلم (ابن هشام، السيرة النبوية، مؤسسة علوم القرآن، ج1، ص1) .

[3]– الزمخشري، أساس البلاغة، تح : محمد بابل عيون السود، ط 1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1419ه، 1998م، ج2، ص 305- 306 .

[4]– ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (630ه – 711ه) (1232م – 1311م) الإفريقي المصري، أديب ومؤرخ وعالم الفقه الإسلامي واللغة العربية، يعد من نسل رويفع بن ثابت الأنصاري، أشهر مؤلفاته: معجم لسان العرب، مختار الأغاني في الأخبار والتهاني، مختصر بغداد... (الزركلي (خير الدين) الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م، ج7، ص108) .

الحكم القاضي، وسئل بعض السلف عن (علي بن أبي طالب)[1] فقال : "كان ديان هذه الأمة بعد نبيها"؛ أي قاضيها وحاكمها، والديّان : القهار ، وهو فعّال من دان الناس أي قهرهم على الطاعة يقال دنتهم فدانوا؛ أي قهرتهم فأطاعوا ومنه شعر (الأعشى الحرمازي)[2] يخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا سيد الناس وديّان العرب "، وفي حديث (أبي طالب) قال له عليه السلام " أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب "؛ أي تطيعهم وتخضع لهم، والدين: واحد الديون؛ معروف، وكل شيئ غير حاضر دين، والجمع أدين مثل أعين وعيون، ودنت الرجل : أدنته، أعطيته دينا إلى أجل قريب . ويقال رأيت فلانا دينه إذا رأى به سبب الموت، ويقال : رماه الله بدينه أي بالموت لأنه دين على كل أحد، والدِين الجزاء والمكافأة، ودِنته بفعله دينا؛ جزيته، وقيل الدَيْن المصدر، والدِين الاسم، ودَاينته مداينة، ودَيَّانا، كذلك أيضا، ويوم الدين يوم الجزاء، وفي المثل : كما تدين تدان؛ أي كما تجازى، يعني تجازى بفعلك وبحسب ما عملت، وقيل كما تفعل يفعل بك .

والدين كذلك : الطاعة، وقد دنته ودنت ودنت له، أي أطعته، والجمع : الأديان : يقال: دان بكذا ديانة، وتدين به فهو دين ومتدين، ودينت الرجل تديينا إذا وكلته إلى دينه . والدين : العادة والشأن، وتقول العرب، ما زال ذلك ديني وديدني : أي عادتي، وفي الحديث : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله "[3]، قال أبو عبيده : دان نفسه؛ أي أذلها، استعبدها، وقيل حاسبها4 .

---

[1] - علي بن أبي طالب : (599م- 661م) (رضي الله عنه) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القُرشي ابن عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وصهره، من آل بيته، وكافله حين توفي والديه وجده، وأحد أصحابه، هو رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأبو الحسن والحسين ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وسلم (ينظر ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تح : علي محمد بجاوي، ط 1، بيروت : دار الجيل، 1412ه، ج4، ص564 - 569) .

[2] - الأعشى الحرمازي : هو أبو شيبان الحرمازي، أعشى بني حرماز، يقال له: الأعشى واسمه عبد الله بن الأعور، وقيل عبد الله بن الأطول، الحرمازي المازني من بني مازن بن عمرو بن تميم، أحد الشعراء، وذكر أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وأنشد بعض الأبيات (ينظر ابن كثير، البداية والنهاية، ط 6، بيروت : مكتبة المعارف، 1410ه، 1990م، ج5، ص73) .

3 - عن أبي يعلى شداد بن أوس -رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال ": "الكيس من دان نفسه..." الحديث أخرجه الترمذي، في كتابى : فة القيامة والرقائق والورعـــ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (638/ 4)، رقم (2459)، وابن ماجه : كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد(2/1423)، رقم (4260) (وأبو يعلى شداد بن أوس من خيار أصحاب رسول الله من الأنصار، توفي سنة ثمان وخمسين للهجرة،) .

4 - ابن منظور، لسان العرب، ط5، بيروت: دار صادر، ج3، ص443.

فمفهوم الدين عند (ابن منظور) مرتبط بمعنى الخضوع والإكراه والاستعباد من جهة كما أن له مفهوم الإتباع طوعا إلى غاية أن يصير الفعل عادة وشأنا وديدنا، إضافة لما له من مفهوم السياسية والجزاء والكياسة الذي يتضمن شقّي المحاسبة و المكافأة على الفعل . فالدين عند (ابن منظور) ليس دائما ما يكون بالإكراه والإجبار والقهر بل هو أيضا ما ألزم المرء به نفسه من الأمر والعادة أو ما حمل نفسه به على الإتباع والطاعة، فهو بهذا يشير لمفهوم الدين الذي يتضمن معنى التدين .

وأما عن (الفيروزآبادي) (729ه-817ه)[1] في القاموس المحيط فقد جاء عنه : الدين : ماله أجل كالدينة بالكسر، ولا أجل له كالقرض، والموت، وكل ما ليس حاضرا . أدْيُن ودُيون ودِنْته بالكسر، وأدَنْته : أعطيته إلى أجل وأقرضته، ودان هو أخذه، ورجل دائن ومدين ومديون ومدان .. وأدان، واستدان، وتديّن : أخذ دينا، ورجل مديان: قرض كثيرا، ويستقرض كثيرا . والدين بالكسر: الجزاء، وقد دِنته بالكسر دينا، وقد دِنت به بالكسر: العادة والعبادة والمواظب من الأمطار أو اللين منها، والطاع كالدينه بالهاء فيهما، والذل والداء والحساب، والقهر، والغلبة، والاستعلاء، والسلطان، والملك، والحكم والسيرة، والتدبير، والتوحيد، واسم لجميع ما يتعبد الله عز وجل به، والملة، والورع، والمعصية، والإكراه، ومن الأمطار ما يعاهد موضعا فصار له ذلك عادة، والقضاء، ودنته : أديته خدمته وأحسنت إليه وملكته، ومنه المدينة للمصر ...

والديَّان : القهار والقاضي، والحاكم والسائس، والمحاسب والمجازى الذي لا يضيع عملا بل يجزي بالخير والشر، والمدين : العبد وفي الحديث كان النبي صلى الله عليه وسلم على دين قومه : أي على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في حجهم ومناكحهم وبيوعهم وأساليبهم، وأما التوحيد فإنهم كانوا قد بدلوه والنبي لم يكن إلا عليه . ودان بدين : عز وذل، وأطاع وعصى، واعتاد خيرا أو شرا، وأصابه الداء، وفلانا حمله على ما يكره وأذله، ودينه تديينا : وكله إلى دينه ...[2] فإضافة لمعنى القهر والجزاء نجد عند (الفيروزآبادي) مفهوم الدين الذي فيه إشارة لكل ما يعتاد الناس عليه و يتعاهدوه من حسن أو قبيح، خيرا كان أو شرا، وعلى هذا نجده أقرب لمعنى العبادة والتعبد مما يتطلب المواضبة وملازمة الفعل .

---

1 – الفيروزآبادي : أبو الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم الشيرازي الفيروز آبادي ولد بفارس (729ه)، صاحب اللامع المعلم، العجاب، الجامع بين المحكم والعباب، والقاموس المحيط، والقاموس الوسيط... أقبل على التصنيف في علوم مختلفة كاللغة والتفسير والحديث، والتاريخ والفقه...توفي سنة (817ه) أخذ عنه جهابذة زمانه كابن حجر، وابن عقيل، والأسنوي (الزركلي، الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002م، ج7، ص146) .

2 – الفيرزآبادي، القاموس المحيط، تح : محمد نعيم العرقسوسي، ط8، الرسالة، 1426ه، 2005م، ص 1198.

ويقدم (ابن عربي)1 في كتابه فصوص الحكم (ت 638ه) : ثلاث مفاهيم لغوية للدين هي : الدين بمعنى الجزاء، والدين بمعنى الانقياد، والدين بمعنى العادة2 .

وبهذا العرض لما جاء في أساس البلاغة، لسان العرب والقاموس المحيط... نكون قد بسطنا المفهوم اللغوي لكلمة (دين) غير أن ما يلفت الانتباه في هذه المعاجم هو ما أشار إليه (عبد الله دراز)3 وجعله يضيق ذرعا بالمعاجم العربية؛ إذ هي لا تبتّ بقول فصل في مثل هذه المفاهيم ذات الشأن، وعاب في كتابه المسمى ب (الدين) سوء الترتيب وكثرة الخلط، والاختلاف وكثرة المعاني التي نكاد لا نخرج منها بطائل، و كذا الإعادة وعدم رد كل طائفة من المعاني المتشابهة إلى أصل واحد يجمعها، حتى يخيل للقارئ أنه يصح له أن يستعملها فيما شاء من المعاني المتباعدة، بل المتناقضة 4، الأمر الذي خوَّل لأحد كتاب دائرة المعارف الإسلامية من المستشرقين من أن يدلي برأي يقول فيه "ذكر فقهاء اللغة من العرب في مادة دين معاني مضطربة..."[5] .

إلا أن العلاّمة (دراز) وجد عند التمحيص أنه على كثرة اختلاف المعاني فإن الواقع حين النظر للكلمة ووجوه تصريفها، يلمح من وراء هذا الإختلاف الظاهر تقاربا شديدا بل صلة تامة في جوهر المعنى؛ فمرد الاختلاف أن الكلمة المراد شرحها ليست كلمة واحدة بل تتضمن ثلاثة أفعال بالتناوب، وبيان ذلك : أن كلمة (الدِّين) تؤخذ تارة من فعل مُتعدٍ بنفسه: (دانه يدينه)، وتارة من فعل متعدٍ

---

[1]- ابن عربي : أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد العربي ولد سنة 506ه بشرق الأندلس، من أكبر فلاسفة الإسلام، وسلطان العارفين وشيخ المحققين، له من المؤلفات ما يزيد عن ستمائة، مؤلف فقد جلها، و لم يبق إلا النزر منها، أهمها : الفتوحات المكية، فصوص الحكم ...توفي عام 638ه بدمشق (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة (الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون المتصوفون)، ط3، بيروت :دار الطليعة، 2006م، ص32) .

[2]- ينظر ابن عربي، شرح فصوص الحكم من كلام الشيخ الأكبر ابن عربي، تح: محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت، 1405ه/ 1985م، ص 96، 97 .

[3]- محمد عبد الله دراز (1894م-1958م) علم من أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، له الحظ الأوفر في علوم الإسلام، كما نهل من علوم أوربا الشيء الكثير أنتدب لتدريس التفسير بكلية دار العلوم، واللغة العربية بالأزهر، حصل على عضوية جمعية كبار العلماء في 1949م، من أعماله كتابي التعريف بالقرآن، والأخلاق في القرآن اللذين نال بهما شهادة دكتوراه الدوله من جامعة السوربون بفرنسا عام 1947م إضافة إلى كتبه النبأ العظيم ، الدين ، وأبحاثه : أصل الإسلام، بين المثالية والواقعية، المسؤولية في الإسلام ... (ينظر الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج6، ص246)

[4]- ينظر عبد الله دراز، الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الاديان)، الكويت : دار القلم، ص30 .

[5] - ينظر هوتسمان، أرنئولد، باسيت وهارتمان، دائرة المعارف الإسلامية، تح : إبراهيم خورشيد، أحمد الشنتاوي وآخرون، ط1، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1418ه، 1998م، جزء 9، ص368 .

باللام: (دان له)، وتارة من فعل متعدٍ بالباء: (دان به)، وباختلاف الاشتقاق تختلف الصورة المعنوية التي تعطيها الصيغة، وبعد هذا يتضاءل التفاوت بين المعاني :

- فمن فعل متعد بنفسه : نقول دان يدينه : أي ملكه وحكمه وساسه ودبره، وقهره وحاسبه، وقضى في شأنه وجازاه وكافأه...وهذا الاستعمال يدور على الملك والتصرف .
- ومن فعل متعد باللام : نقول دان له، ويراد بها أطاعه، وخضع له، فالدين هنا هو : الخضوع والطاعة والعبادة والورع . وتارة :
- من فعل متعد بالباء : يقال دان به : أي دان بالشيء معناه أنه اتخذه دينا ومذهبا، واعتقده أو اعتاده، أو تخلق به، فالدين على هذا هو: المذهب و الطريقة والسيرة . 1

وعلاقة المعنى الأول بالثاني جليّة حيث يقال (دانه فدان له) أي (حكمه وساسه وملكه وقهره) بالمعنى الأول (فخضع له وأطاعه) بالمعنى الثاني، وملازمة المعنى الثالث للمعنى الأول والثاني واضحة؛ فما يدين به المرء نفسه من العادة والمذهب له من السلطان والقهر ما يجبره على الانقياد والطاعة . وهي معاني كلها متلازمة مترابطة يتبع بعضها لبعض .

وعند إحصاء الاستعمالات المشروحة في المعاجم العربية وتتبع المعاني المتقاربة والمتقابلة للفظ (الدين) بمشتقاته المختلفة فإننا نجمع المعاني اللغوية ذات الدلالات الآتية :

1-الحكم والقاضي: ومنه الديّان : القهّار ومنه قوله تعالى **{ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ }** (سورة يوسف الآية 76).

2-الجزاء والحساب والحكم : ومنه (كما تُدِينُ تُدَان)، وبيت الحماسة :

إذا مَا رَموْنا رَميْناهُم ودِنَّاهم مِثْل ما يقْرِضُونا

ومثله البيت و لم يبْق سِوى العُدْوا نِ دِنَّاهُم كَما دَانُوا

3-السياسة والقهر والغلبة والاستعلاء : ويستدل عليها بالدائن : السائس، ومنه قول ذي الإصبع[2]:

لاه ابنُ عمِّك لا أُفْضِلْت في حسبٍ فينا ولا أنت دَيَّاني فتخْزُوني

---

[1] - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص30- 31 .

[2] - ذي الأصبع العدواني : هو حرثان بن محرث بن الحارث بن ربيعة بن ثعلبة ...بن عدوان؛ فهو ينتمي إلى قبيلة عدوان، أحد الشعراء والحكماء في العصر الجاهلي وسمي ذي الإصبع لأن له أصبعا زائدا في رجله، وقيل لأن الحية نهشت أصبعه وقطعته، وأيضا هو من المعمرين إذ تجاوز عمره المئة عام بكثير ، وكانت إحدى بناته وهي أُميمة شاعرة أيضا، من أقواله الخالدة وصيته لابنه أسيدا قبل موته (أبي الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية، 1935م، ج3) .

أي لست بقاهر فتسوس أمري .[1]

4 - **الدّيْن : القرض** : يقال داينت الرجل؛ إذا عاملته دينا أخذا أم إعطاء. وهو من قياس الباب المطرد لأن فيه كل الذُّل والذِّل . قال:

أَدَانَ وأنْبَأَهُ الأوَّلُونَ   بِأَنَّ المُدَانَ مَلِيٌّ وَفِيّ

5 - **الدين :كل ما له أجل، وما ليس له أجل** : كالموت ، وليس بحاضر.

6 - **العادة والشأن والعبادة** : فلأن النفس إذا اعتادت شيئا مرت معه وانقادت، وينشدون في هذا : كدِينِك من أمِّ الحويرثِ قبلها وجارتِها أمُّ الرّبابِ بمأْسلِ . فالمعنى القريب هنا كدأبك .

7 - **الدِّين : بمعنى الطاعة والخضوع** ومنه قول الشاعر (وكان الناس إلاّ نحن دِينا)[2] وقول (عمرو بن كلثوم) (ت 584م)[3] :

وأَيّامٍ لَنَا غُرٍّ طوالٍ   عَصِينا الملك فيها أن نَدِينا[4]

8 - **المعصية والإكراه** : ومنه قولهم (يا دِين قلْبك منْ سلْمى وقد دِينا) فمعناه يا هذا دين قلبك؛ أي أُذِلّ، وقد دِينا؛ أي حمل على ما يكره .[5]

9 - **الدين : الحكم والسيرة والملك والنظام**؛ ومنه قوله جلّ ثناؤه **{ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ }** (**سورة يوسف الآية76**) ؛ أي في نظام وحُكم ومُلك الملِك .

10 - **الدين بمعنى الذل** : يطلق الدين على الذل أحيانا، والمدين (العبد)، والمدين (الأمة) كأنهما أذلهما العمل، والمدينة (الحاضرة) كأنها مفعلة سميت بذلك لأنها تقام فيها طاعة ذوي الأمر. وقيل : ربتْ وربى في حِجْرِها ابنُ مدينةٍ يظلُّ على مسْحاتِهِ يترْكلُ[6]

11 - **الدين؛ الحال** : كقول القائل:

يا دَارَ سلْمى خَلاءٌ لا أكلِّفُها   إلا المَرانَةَ حتى تَعْرِفَ الدِّينا .

---

[1] - ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مصدر سابق، ص 42-43 .

[2] - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج2، ص319 .

[3] - عمرو بن كلثوم : عمرو بن كلثوم التغلبي، أبو الأسود، وهو شاعر جاهلي مجيد من أصحاب المعلقات، من الطبقة الأولى، ولد في شمال الجزيرة العربية في بلاد ربيعة وتجوّل فيها وفي الشام والعراق توفي عام584م (أبي الفرج الأصفهاني، الأغاني، مصدر سابق، ج11، ص54) .

4 - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ص443 .

[5] - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج2، ص119 .

[6] - المصدر نفسه، ص 319 .

والمرانة اسم لناقته، فمعناه لا أكلفها إلا المرانة، حتى تعرف الدِّين : أي الحال والأمر الذي تعهده [1]، و سُئِل أعرابي عن شيء فقال : (لو لقيتني على دِينٍ غير هذا لأخبرتك) أي على حال غير هذا . [2]

وجملة القول في ذاك التنوع في تلك المعاجم هو ما انتهى إليه الدكتور (دراز) في هذا " أن كلمة الدين عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا وانقيادا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرا وسلطانا، وحكما، وإلزاما، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبر عنها والمادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد، فإن الاستعمال الأول للدين هو إلزام الانقياد، وفي الثاني هو التزام الانقياد وفي الثالث هو المبدأ الذي يلتزم الانقياد له"3 .

ومع ذلك فإن للبعض رأي آخر في أصل كلمة دين؛ إذ يرى الشيخ (مصطفى عبد الرازق (18815م-1947م)[4] أن أكثر المعاجم اللغوية تجمع لفظ دَيْن ولفظ دِين في مقام واحد باعتبار أنهما من مادة واحدة، لكنه يرى أن صيغة دَين أجدر بأن تكون أصلا لصيغة دين فإن فَعْلا في العربية أكثر استعمالا من فِعْل وأدنى إلى البساطة وسهولة الاستعمال، ومما يزيد الأمر رجحانا في نظره أن كلمة دين تطلق في بعض مدلولاتها على كل شيء غير حاضر، ويتسآءل : " أفليس من المعقول أن تكون كلمة دِين بمعنى ملة، مأخوذة من كلمة دين بمعنى الشيء غير الحاضر؟ فإن أساس الأديان كلها الإيمان بأمر وراء هذا الموجود المحسوس الحاضر" دون أن ينفي ذلك استعمالها عند العرب بمعاني مختلفة كالطاعة والحساب والجزاء، والقضاء والحكم، والحال والعادة... [5] ولا شك أن ما ذهب إليه مصطفى مصطفى عبد الرازق فيه حصر لمعنى الكلمة في معنى واحد، خاصة بعد ما رأيناه من معانٍ متعددة ومتنوعة، وقد اقترن كل ذلك بالدليل والترجيح من كلام العرب وأشعارهم .

أما عن العلاقة بين كلمة الدَّين بفتح الدال والدِّين بكسرها، هو معنى اللزوم؛ هذا المحور الذي تدور عليه كلمة الدين بفتح الدال، والفرق بينهما هو أن أحدهما يتضمن إلزاما ماليا، والآخر يقتضي

---

[1] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج2، ص 320 .

[2] – ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، مصدر سابق، ج1، ص43.

[3]– عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص31 .

[4] – مصطفى عبد الر ازق : (1885م- 1947م) هو مفكر و أديب مصري، و عالم بأصول الدين و الفقه الإسلامي، يعتبر مجددا للفلسفة الإسلامية في العصر الحديث، وصاحب أول تاريخ لها بالعربية، ومؤسس المدرسة الفلسفية العربية التي أقامها على الإسلام .تولى الشيخ وزارة الأوقاف ثماني مرات، وكان أول أزهري يتولاها، واختير شيخا للأزهر في 1365 م، من مؤلفاته : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، فيلسوف العرب والمعلم الثاني، الدين والوحي والإسلام ... (الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج7، 231)

5 – مصطفى عبد الرازق، الدين والوحي والإسلام، ط ، القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2014، ص 22- 23 .

إلزاما أدبيا، ومن سنن اللغة العربية أنها حين تفرق بين الحسيات والمعنويات من جنس واحد، قد تكتفي بتغيير يسير في شكل الكلمة مع إبقاء مادتها كما هي مثل العوج والعِوج والخلق والخُلق... ليكون الأولى هو ما رآه الدكتور (دراز) من جمع شتات المعاني المتناثرة في رباط واحد يشمل اشتقاقاتها المختلفة من تعدي الكلمة بنفسها أو باللام، أو بالباء، لتدور كلها حول معاني الإلزام والانقياد، مع ما يتبعه من الخضوع والطاعة من صاحب الدين بدينه وينقاد له إرضاء لمن يدين له أو يدين به .

والذي يبدو جليا من وفرة اشتقاقات هذه الكلمة وكثرة استعمالاتها مما لا يدع مجالا للشك هو مدى أصالتها بكل معانيها في اللغة العربية، لا كما خُيِّل لبعض المستشرقين أو زعمه غيرهم من أنها دخيلة أو معربة عن اللاتينية، أو العبرية، أو الفارسية وذلك ظن مفاده أنها لفظة تشكلت نتيجة عملية إحلال لاستعمالات ودلالات الكلمة اللاتينية (Religion)، وأن المعاني المضطربة التي أوردها فقهاء اللغة أساسها كلمات ثلاث قائمة برأسها :

1 - كلمة آرامية عبرية بمعنى حكم .
2 - كلمة عربية خالصة بمعنى العادة والديدن، تمتّ هي والكلمة الأولى إلى أصل واحد .
3 - كلمة فارسية مستقلة تمام الاستقلال معناها الملة .

وأكثر من ذلك، فإن بعضهم ينكر وجود لفظ دين عربيا أصيلا، وأن لفظ دين الفارسي كان مستعملا عند العرب منذ الجاهلية (دين)، وذهب إلى أن المعنى (عادة أو ديدن) قد اشتق منه، لينفوا بهذا وجود كلمة عربية خالصة بمعنى الدين، وإذا عورض باستعمالها عند العرب في الجاهلية رد ذلك إلى أن أصلها فارسي [1]، ويواصل المستشرق فيقول : "وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الاضطراب إلى وقوع مفسري القرآن في مصاعب لا تنتهي، وشاهد ذلك أنهم حين تعرضوا لتفسير آية { **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** } (سورة الفاتحة : الآية 3).. انظر تفسير (البيضاوي)(ت 685ه) [2] و(الرازي)(544-

---

[1] - ينظر هتسمان، أنتولد .. وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، عثمان، ط1، دار الكتاب اللبناني، 1981م، ج9، ص368 .

[2] - البيضاوي : هو الإمام القاضي المفسر ناصر الدين أبو سعيد أو أبو الخير عبد الله بن أبي القاسم البيضاوي ، الشيرازي الشافعي، ولد بمدينة البيضاء بفارس، وإليها نسبته، ولا تعلم سنة ولادته تحديدًا والغالب أن مولده أوائل القرن السابع الهجري، وهو فقيه وأصولي شافعي، ومتكلم ومحدث ومفسر ونحوي، امتاز بتصانيفه البديعة المشهورة منها : التفسير المسمى بأنوار التنزيل وأسرار التأويل، منهاج الوصول إلى علم الأصول، الغاية القصوى في دراية الفتوى ... توفي بتبريز في سنة 685 هـ الموافق عام 1292 م وقيل: سنة 691 هـ (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج20، ص182) .

604ه)[1] و(الطبري) (224ه - 310ه)[2] حاروا حيرة شديدة في التماس ما يؤدي بهم إلى هذا المعنى ...على أننا يمكن أن نرد آيات القرآن جميعها إلى معنى أو آخر من معاني هذه الكلمات الثلاث التي ذكرناها آنفا"[3].

ويرد على كلام هؤلاء أنه بالرجوع إلى المفسرين الذين وصفهم كاتب مادة دين بأنهم (حاروا حيرة شديدة في التماس ما يؤدي بهم إلى أن معنى الدين في قوله جل ثناؤه { **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** } (سورة الفاتحة الآية 3) المقصود به الحساب والجزاء) . يقول (البيضاوي) (ت 691ه) في تفسيره (يوم الدين) : "ويوم الدين يوم الجزاء، وقيل الدين؛ الشريعة، وقيل الطاعة، والمعنى يوم جزاء الدين، وتخصيص اليوم بالإضافة إما لعظمته أو لتفرده تعالى بنفوذ الأمر فيه [4]، وفي التفسير الكبير (مفاتيح لغيب) : "قوله (مالك يوم الدين)؛ أي مالك يوم البعث والجزاء" 5، وفي تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان: "...والمراد بالدين في الآية الجزاء، أي جزاء أعمالهم بالعدل" 6 ...

بل إننا نجد اتفاق كل المفسرين على كون دلالة كلمة الدين في الآية ال ثالثةمن سورة الفاتحة {**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**} (سورة الفاتحة الآية3) تدل على معنى الحساب والجزاء[7]، وأنهم عبروا عن تفسير

---

1 - الرازي : هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي البكري ابن العلامة ضياء الدين عمر، الطبري الأصل، الرازي المولد، لقب بفخر الدين الرازي، الفقيه الشافعي، ، ولد في 544هجري، اشتغل ف علم الأصول والفقه، وعلم الكلام والفلسفة والطب..ومن تصانيفه (التفسير الكبير) (تاريخ الذهبي)...توفي سنة 604 هجري (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج21، ص501) .

2 - الطبري (224ه -310ه) (838م- 923م) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبي جعفر الطبري، مؤرخ ومُفسر وفقيه صاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ ، ومن مؤلفاته :تفسيره المسمى بجامع البيان عن تأويل القرآن، تاريخه (تاريخ الأمم والملوك)، صريح السنة ... (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مدر سابق، ج14، ص268) .

3 - ينظر هتسمان وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، ج9، ص 368 .

4 - ناصر الدين البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، بيروت : دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ج1، ص28 .

5- فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، ط1، بيروت : دار الفكر، 1401ه، 1981م، ج1، ص 240 .

6- الشنقيطي، تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان، ط 1، السعودية : دار الفضيلة، 1426ه، 2005م، ج1، ص 32 .

7- ينظر الطبري، تفسير ، تح: أحمد ومحمود شاكر، دار المعارف، ج 1، ص156. وينظر فخر الدين الرازي، التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، ط 1، بيروت : دار الفكر، 1401ه، 1981م، ج1، ص 240 . و ينظر الشنقيطي، تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان، ط 1، السعودية : دار الفضيلة، 1426ه، 2005م، ج1،

الدين بالحساب والجزاء في منتهى الوضوح والبيان، واستدلوا على ما ذهبوا إليه بلغة العرب وشواهد من أقوال الصحابة والتابعين، والذي يبدو أن كتّاب دائرة المعارف لاحظوا اختلاف المفسرين حول قراءة (مالك، وملك) فتوهموا أن المفسرين اضطربوا واحتاروا في تفسير يوم الدين بالحساب والجزاء، وهذا ما لم يحدث، فكلام المستشرقين لا يقوم على أي معيار علمي، وأن الأمر لا يعدو أن يكون نزعة شعوبية تسعى لتجريد العرب والعربية من فضيلة البيان التي هي من أعز المفاخر.[1]

والجليّ الذي يتبادر إلى الذهن فور الإطلاع على غزارة الاستعمالات المشروحة والمتنوعة لهذه المادة والواردة في أمهات معاجم اللغة العربية هو تعدد وتنوع استعمالاتها منذ العهود القديمة، ليكون ما ذهب إليه المستشرقون ظلٍ باطلا وبعيدا كل البعد؛ إذ كيف يعقل أن تتوافر استعمالات متعددة لمعنى عند قوم لم يوجد له لفظ للجذر عندهم ! فالذي غاب عن هؤلاء المستشرقين هو ما تحمله العربية من خصائص لغوية، وما تتميز به من جزالة وبلاغة ودقة في المعاني والأضداد .

وخلاصة نصل إلى أن كلمة (الدين) أصيلة في اللغة العربية، ومعانيها جلّها تدور حول مفهوم الطاعة والخضوع والانقياد، و يكون تِبعا لاستشعار قوة قاهرة حاكمة قاضية، محاسبة ومدبرة .

وبعد التتبع للفظ الدين في معاجم اللغة العربية، ننطلق لنرى معاني اللفظ في القرآن الكريم، ولأن القرآن خطاب صيغ باللفظ العربي فإن استعماله للألفاظ إنما يكون حسب استعمالاتها ودلالاتها في اللغة العربية، إلا أن استعمال القرآن لعادات العرب في الحديث لا يلغي وجود عادات خاصة بالنص القرآني بحيث لا تخرج أبدا أو تناقض عادات العرب؛ الأمر الذي أشار إليه العلامة (الطاهر بن عاشور)[2] (1879م- 1973م) في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير) قائلا : "فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معان من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ، في أقل ما يمكن من المقدار، بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها"... "فمختلف المحامل التي تسمح بها كلمات

ص32 . وينظر اسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1419ه، 1998م، ج1، ص 47، 48 .

[1] – فرج الله عبد الباري أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، ط 2، كفر الشيخ : مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا، 1422ه، 2002م، ص 28، ص 27- 28 ، 31 .

[2] – محمد الطاهر بن عاشور : (1879م – 1973م) عالم وفقيه تونسي تعلم بجامع الزيتونة ثم أصبح من كبار أساتذته، ارتقى إلى رتبة الإفتاء في 1932م، أختير لمنصب شيخ الإسلام المالكي، ثم أصبح أول شيخ لجامع الزيتونة إلى غاية 1956م، أشهر أقرانه شيخ الأزهر الراحل محمد الخضر حسين، و من آثاره التحرير والتنوير، موجز اللغة، تحقيقات وأنظار في الكتاب والسنة ... (الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج6، ص174) .

القرآن وتراكيبه وإعرابه، ودلالته... إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السياق حمل الكلام على جميعها"1 . فإذا كانت كلمة دين تدل أساسا في اللغة العربية على معنى الحساب والجزاء، فإن الاستعمال القرآني لهذه الكلمة – لا شك – يحيلنا على معاني أخرى جديدة .

يُعدُّ لفظ الدين من الألفاظ الأساسية المفتاحية في القرآن الكريم، وقد جاء استعمال النص القرآني لكلمة دين لما يزيد عن سبعين مرة، وذلك في سياقات واشتقاقات متعددة، ويمكننا أن نتتبع أهم هذ ه الاستعمالات فيما يلي :

1– الدين : الحساب والجزاء : حيث يتفق المفسرون على كون دلالة كلمة (الدين) في الآية ال ثالث من سورة الفاتحة **{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}**(سورة الفاتحة الآية3) تدل على معنى الحساب والجزاء : جاء في تفسير القرآن العظيم لـــ (ابن كثير) (ت 774ه) 2 : "ويوم الدين يوم الحساب للخلائق، والدين الجزاء والحساب"3 . والدين بهذا المعنى مشترك مع الدلالة اللغوية، ومن الآيات التي توافق نفس المعنى في القرآن :

–الدين في الآية **{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}** (سورة النور الآية 25) .

أي مجزيون وفي الآية { أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ} (سورة الصافات الآية 53) . ومحاسبون أي مقضي علينا بالبعث وحاسبون .

–وفي الآية { **وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}** (سورة الانفطار 17) .

–وفي الآية { **فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}** (سورة الواقعة 86) ...4

---

[1] – محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ج 1، ص93، ص97 .

[2] – ابن كثير : هو أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي النسب المتوفى سنة 774ه، دمشقي الدار، كان مقرئا متقنا، وراوية للحديث موثوقا، كما كان مفسرا ومؤرخا معروفا، من مؤلفاته : تفسير القرآن العظيم، البداية والنهاية، جامع المسانيد، أحاديث التوحيد ... (ينظر ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية، 1349ه، ج1، ص17، وينظر في مقدمة ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت : مكتبة المعارف، 1410، 1990م، ج1، ص 3) .

[3] – إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، ط 1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1419ه، 1998م، ج1، ص47، 48.

[4]– ينظر حسن عز الدين الجمل، مخطوطة الجمل(معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م، ج2، ص137.

2- الدين : الطاعة والإذعان : ويطلق الدين اعتبارا للطاعة والانقياد للشريعة { **إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ**} (سورة آل عمران الآية19) وكذا {**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** } (سورة النساء الآية125) أي الطاعة، وكذا : {**وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ**} (سورة النساء الآية 146) أي طاعتهم لله، وكذا {**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ** } (سورة النساء الآية 171) فذلك حث على إتباع دين النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذا في الآية {**قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي** } (سورة الزمر الآية 14) أي طاعتي وعبادتي، ومثلها الآية { **قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**} (سورة الزمر الآية 11)[1] ...

3- الدين : العقيدة ؛ أي ما يدين به الإنسان و ما يتعبد به، كما في قوله تعالى { **وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ** } (سورة التوبة الآية 29) أي لا يعبدون الحق . {**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** } (سورة البقرة الآية217) . وفي الآية {**وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ** }(سورة البقرة الآية217){ **وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ** }(سورة آل عمران الآية 24)، ويدخل في مفهوم الاعتقاد بالدين مفهوم الطاعة الذي قبله؛ إذ أن الاعتقاد يتطلب الخضوع والذل والطاعة .

4- الدين : التشريع : وقد ورد مصطلح الدين بمعنى الشريع في مواضع عدة من القرآن، من ذلك : (الآية 83 من سورة آل عمران):{ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ** }، أي شريعته، وكذا الآية { **وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**} (سورة البينة الآية 5) . وكذا الآية {**مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** } أي طاعته وشريعته {يوسف الآية 76}، وجاء بمعنى التشريع أيضا : (سورة النور الآية 2)، (سورة الفتح الآية 28)، (سورة الصف الآية 9) ...

ويوضح (ابن عاشور) سياق الدين بمعنى الشريعة بقوله : "والدين حقيقته في الأصل الجزاء، ثم صار حقيقة عرفية يطلق على مجموع عقائد وأعمال تلقاها رسول من عند الله ويعد العاملين بها بالنعم والمعرضين بالعقاب، ثم أطلق على ما يشبه ذلك مما يضعه د هلمء الناس من تلقاء عقله فتلتزمه طائفة من الناس، وسمي بالدين لأنه يترقب من متبعيه الجزاء عاجلا أو آجلا" [2]. فالشريع يوجب الطاعة ويترتب عنه الجزاء .

5- الدين كدين : إذ هناك في القرآن من السياقات التي ورد فيها لفظ الدين كدين، بحيث لا يمكن تأويله أو تعويضه بلفظ آخر مشابه، أو مرادف أو مشترك، ومن هنا يكون فهمها ومعناها يحتمل كثير من تلك المعاني السابقة أو مجموعها، أي ما تحمله الكلمة من معنى، ومن ذلك معنى الدين الذي

[1] - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح : عبد الله التركي، ط 2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384ه، 1964م، ج8، ص 242- 243 .

[2] - ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج32، ص 147

قد يفهم من الآية : {**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ** }(سورة الشورى الآية 13) فالمقصود بالدين هنا أصول الدين وعقائده . وقد يتجوز فيطلق لفظ الدين على الفروع الخاصة كما في الآية {**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** } (سورة البينة الآية 5).

إلا أننا نجد في القرآن معنى خاصا للدين ألا وهو :

6- الدين : الإسلام : و من المعاني التي اختص بها القرآن؛ الدين بمعنى الإسلام بوجه عام ، وهو الأمر الذي هتف به جميع الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام، والذي يعني عبادة الله وحده لا شريك له، كما جاء به الأنبياء من قبل محمد صلى الله عليه وسلم، وهو بمعنى إخلاص الدين والعبادة لله مثال ذلك جليا في قوله جلّ ثناؤه { **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا**} (سورة الشورى الآية 13) وكما في قوله { **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ** } (سورة البينة الآية 5) ...[1]وفي قوله {**أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ**} (سورة آل عمران الآية 83) ...

كما قد يقصد بدين الإسلام الوارد في القرآن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، أي مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم، أو التي استنبطت مما جاء به[2]، ومن ذلك الآية {**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**} (سورة التوبة الآية 33)، حيث تتفق جلّ التفاسير على أن المقصود بالدين هاهنا؛ الأمر الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، يقول الرازي : "دين الحق ؛ هي الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة، وإظهاره على الدين كله أي : على سائر الأديان "، وكذا في الآية {**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ** } (سورة آل عمران الآية 85)، يذكر (الطبري) في تفسير هذه الآية: "أي ومن يطلب غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين الباخسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل، وذكر أن أهل كل ملة ادعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين، لأن من فرائض الإسلام الحج فامتنعوا"[3].

وأهم الملاحظات التي نخرج بها عن مفهوم الدين في القرآن :

---

[1] - ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، ج7، ص 208 ، وينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص176 .

[2] - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 176 .

[3] - ابن جرير الطبري، تفسير الطبري، مصدر سابق، ج3، ص241 .

1- يجدر الإشارة إلى أن لفظ الدين أيا كان إطلاقه وسياقه في القرآن فإنه لابد يسوق وراءه العديد من المعاني المترامية للدين، ولا يقتصر على معنى واحد، كما سبق وأن أشرنا إلى ما نبّه إليه (الطاهر بن عاشور) في مقدمته للتحرير والتنوير، و لنرى مثال ذلك مع ما أورده (الرازي) في تفسيره مفاتيح الغيب في معنى كلمة (دين) في قوله تعالى في الآية {**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** } من (سورة الكافرون الآية 6) : حيث أورد عدة أقوال لمعنى لفظ الدين في هذه الآية :

الأول : قول (ابن عباس) : لكم كفركم بالله ولي التوحيد والإخلاص له .

والقول الثاني : أن الدين هو الحساب أي لكم حسابكم ولي حسابي .

القول الثالث : لكم جزاء دينكم ولي جزاء ديني.

القول الرابع : الدين : الحد، مثل قول {**وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ**}(سورة النور الآية2) .

القول الخامس: الدين؛ العادة : لكم عادتكم المأخوذة من أسلافكم، ولي عادتي المأخ وذة من الملائكة والوحي[1] . فالرازي أعطى للدين في هذه الآية معنى شموليا استخدم فيه معظم المعاني السالفة .

2- إن الاستعمال القرآني للفظ الدين يحيلنا إلى كثير من المعاني الجديدة، علاوة على تلك الأصلية منها، وهذه الدلالات تفهم من خلال السياق القرآني، وكلمة دين وما تتميز به من مرونة الإشارة إلى ذلك العدد الواسع من الدلالات تناسبت وتجاوبت مع ما تطلبه الخطاب القرآني من المعاني إذ إنها جوزت استعمالات جديدة في النص القرآني، ولكن لم تنكرها اللغة العربية .

3- مفهوم الدين في القرآن اتسع ليشمل كل ما يعتقد أو يتعبد به، فهو يؤكد أن الدين هو المعتقد أيا كان مصدره أو نوعه حقا كان أم باطلا، موافق ا لما جاء به القرآن أو مخالفا، فكل ذلك سمّاه القرآن دينا، و لم يحصرها في مفهوم الدين الذي صدّر له وهو دين (الإسلام)، فلم يقْصِ القرآن من مسمّى الدين تلك التي لم تستند لوحي منزل أو نبي مرسل، أو تلك التي استندت إلى العقل كالديانة الطبيعية، أو الوثنية التي تتخذ من التماثيل آلهة، بل وحتى الخرافية التي تعتمد الأساطير والأوهام ..!

4- كما أن معنى الدين في القرآن شامل لمناحي الحياة الدينية والدنيوية، وحتى الأخروية، فكلمة (دين) في القرآن تقوم مقام نظام بأكمله، فبداية من إثبات وجود سلطة قاهرة عليا ح اكمة، يدين لها الأفراد وتدينهم، ثم يكون الإذعان لتلك السلطة بالطاعة والخضوع والانقيا د والإخلاص، ويتحقق ذلك كله وفق نظام فكري وعملي تضعه تلك السلطة الحاكمة، وهو عين عقائد وشرائع ذلك الدين،

[1] - ينظر الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج32، ص 147 .

ليكون الدين في الأخير بمعنى المكافأة التي يكافئها الديّان جزاء إتباع ذلك النظام والإخلاص له عقابا أو حسابا في يوم الدين .

فمعاني الدين في القرآن يكمل بعضها بعضا ، لذلك فهي تشكل معالم نظام كامل ، متكامل ومتين .

وحريٌّ بنا فيما يلي أن نتطلّع لمعاني لفظ (الدين) في اللغات الأجنبية لنتتبع دلالاتها اللغوية فنرى إن كانت بمثل وفرة نظيرتها في اللغة العربية .

المطلب الثاني : دلالة الدين في اللغات الأجنبية

-الدين في الفرنسية Religion - وفي الإنجليزية Religion - وفي اللاتينية Religio

عادة ما تترجم الكلمة العربية الأصل (الدين) إلى الكلمة ذات الأصل اللاتيني رليجيون / Religionكما تترجم الأخيرة إلى الأولى، ولذالك فعند البحث عن دلالة الدين في اللغات الأجنبية فإننا في الحقيقة نبحث عن الدلالة اللغوية للفظ اللاتيني الأصل رليجيون /(Religion) الدين وديني ودينية ...كلها تعود للجذر اللاتيني (religio)، وفي العالم القديم وفي القرون الوسطى كان يفهم أن الجذر اللاتيني (religio) يؤدي معنى : فضيلة العبادة فردية، المصدر الفعلي للمعرفة...1 إلا أن الأصل الفعلي لهذه الكلمة يعدّ غامضا، فقد اختلف في الجذر اللاتيني لها أهي من الجذر (ligio) أم هي من الجذر (ligare)، فالتفسير الكلاسيكي لها يحتمل أنه يعود لما ذكره (شيشرون)(Marcus Tullius Cicero) (43 ق.م)[2] من أنها مشتقة من معنى الربط (le ligare)، ومعظم التفاسير التي تعزى إلى (شيشرون) ترى أن كلمة الدين مشتقة من (*lego*)

1- Peter Harrison, The Territories of Science and Religion, London : University of Chicago Press, 2015, p8.

2 - شيشرون : ماركوس توليوس كيكرو (Marcus tulius cicero)، الفيلسوف والكاتب الروماني والخطيب المميز والشهير، ولد سنة (106قبل الميلاد)، صاحب إنتاج ضخم يعتبر نموذجا مرجعيا للتعبير اللاتيني الكلاسيكي، أشهر أعماله: فن الخطابة، عن الجمهورية، في طبيعة الآلهة، عن القوانين...، قيل أن له ما يزيد عن مائة خطبة، توفي عن عمر يناهز 63 عاما، عام (43 ق م) (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص409).

الربط والتي قد تعني"قراءة"(read) أو" إعادة مرة أخرى" (again)، وقد تعنى "اختيار" (choose) و"التكرار"(go over again) و"النظر بعناية "(consider carefully)[1]...

فقد كان مما كتبه (شيشرون) في كتابه (عن القوانين) أن جعل كلمة (religio) مشتقة من فعل (relgare) أي (relier) بمعنى ربط وأوثق ثانية، إذ يرى أن :"الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله"2 . ومنذ ما كتبه (شيشرون)، ذهب أغلب المتقدمين إلى ردِّ معنى كلمة دين إلى مادة تفيد معنى الربط الشامل لربط الناس ببعض الأعمال من جهة التزامهم لها وفرضها عليهم، ولربط الناس بعضهم ببعض، ولربط البشر بالآلهة [3]. فبذلك أضاء (شيشرون) قبسا هاما من جوانب الدين، وهو تلك الصلة التي يحققها الدين بين الإنسان وإلهه . كما أن هناك اشتقاقا آخر يجعل كلمة religio مشتقة من relegere أي قطف أو التقط[4] .

أما العلماء المحدثون أمثال (توم هاربر)(Tom harpur)(ولد 1929م)[5]، و(جوزيف كامبل) (Joseph campbell) (1904-1987م)[6] يفضلون اشتقاقها من (ligare) بمعنى

---

[1]- Tom harpur, The Pagan Christ(recovering the lost light), Toronto: Thomas allen,2004 , Wikipedians, Religion, http://en.wikipedia.org/w/boo:religion.p4

2- نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص34 .

3 - مصطفى عبد الرازق، الدين والوحي والإسلام، مصدر سابق، ص14 .

4 - نقلا عن جاكليين لاغريه، الدين الطبيعي، تر: منصور القاضي، ط 1، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993م، ص8 .

5 - توم هاربر : القس الكندي والمؤلف والمذيع، الصحفي، واللاهوتي توماس وليام "توم Harpur"، من مواليد 1929م، خريج جامعتي تورنتو، وأكسفورد، وهو من دعاة نظرية أسطورة المسيح ؛ أي أن فكرة يسوع لم تكن موجودة ولكن هو شخصية خيالية أو أسطورية ، وهو مؤلف لعدد من الكتب، منها : لأجل المسيح (1993م)، الحياة بعد الموت (1996)، والوثنية المسيح (2004م)...

6 - جوزيف كامبل : (1904- 1987م)، إمريكي الجنسية، خريج جامعة كولومبيا، المثيولوجي، الكاتب والمحاضر الذي اشتهر لعمله في الأساطير المقارنة و مقارنة الأديان، وشمل عمله العديد من جوانب التجربة الإنسانية . وغالبا ما لخص فلسفته التي كتبها بعبارته: "اتبع النعيم الخاص بك "، من مؤلفاته مفتاح الهيكل العظمي(1944)، والبطل ذو ألف وجه(1949) .. (John Arthur Garraty, Mark Christopher Carnes, American Council of Learned Societies, American national biography, Oxford University Press, 1999 ; V4) .

أوثق وربط، وربما (ligare) بمعنى الإعادة (again) ، أو (ligare) بمعنى إعادة الاتصال (to reconnect,) على غرار ما كتب (أوغسطين)(354-430م)[1] و غيره من كتاب القرون الوسطى، كما أشاروا إلى أن الكلمة قد تجمع بين المعنيين[2].

فكلمة (رليجيو) (religio) في اللغة اللاتينية القديمة تدل في غالب استعمالاتها على معنى الشعور بحق الآلهة مع الخشية والإجلال[3].. فقديما عرف الدين بمعنى "احترام ما هو مقدس، و تقديس الآلهة"[4] و"التزام، العلاقة بين الرجل والآلهة "[5] أما المفهوم الحديث للدين، والذي يرمز لمجموعة متميزة من المعتقدات أو المذاهب فهو استخدام مستحدث للكلمة في اللغة الإنجليزية..، ففي القرن السابع عشر ومنذ انقسام العالم المسيحي خلال الإصلاح البروتستانتي، ومع عصر الاكتشافات والاستعمار مما أدى إلى الاتصال بالثقافات الأجنبية غير الأوربية[6].

ووفقا لما قاله اللغوي (ماكس موللر) في القرن التاسع عشر "أن جذر الكلمة الإنجليزية (الدين) المشتق من اللاتينية القديمة في الأصل كان يستخدم فقط بمعنى " تقديس الله، التأمل الدقيق فيما هو إلهي، التقوى" الأمر الذي برز عقب اجتهاد (شيشرون) [7]؛ أما عدا ذلك فإن العديد من الثقافات

---

1 - أوغسطين : (354م-430م) القديس أغسطينوس ،كاتب وفيلسوف من أصل نوميدي لاتيني، ولد في طاغاست (نوميديا)، يعد أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية ، تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغسطيني ، تأثر فكره اللاهوتي والفلسفي بالرواقية والأفلاطونية والأفلاطونية المحدثة (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص117) .

2- Tom harpur, The Pagan Christ, p4

3 - مصطفى عبد الرازق، الدين والوحي والإسلام، مصدر سابق، ص 14 .

4 - Harper Dougl, Online Etymology Dictionary, www.etymonline.com , 2001,2015,"religion".

5- Oxfor University Press, Shorter Oxford English Dictionary,6th Edition, 2007, p7 .

6- Peter Harrison, The Territories of Science and Religion, p8 .

7- Max Müller, Natural Religion (the Gifford lectures), London , New York: Longmans, Green, and Co, 1898, p33.

الأخرى في أنحاء العالم بما في ذلك مصر وبلاد فارس والهند فإن ما يعرف بالدين القديم اليوم قد أطلق عليه كلمة (قانون) (law)"[1].

ويمكن القول أن معنى كلمة (religion) في اللغة الانجليزية أو الفرنسية ...وغيرها من اللغات الأوربية له خلفيته التاريخية لدى من يتحدثون اللغة الانجليزية أو غيرها ....وعلى هذا فإن كلمة (religion) باللغة الانجليزية ليس من السهل ترجمتها إلى لغات أخرى، وكذلك المصطلحات التي تطلق في الثقافات المختلفة، لا يجوز لنا ترجمتها بسهولة إلى المصطلح الانجليزي (religion)[2]. فهل نحن الآن بحاجة إلى أن نثبت أن الدين يسود كل الأمكنة، وله مكان في نفوس كل البشر، من أجل أن نجد له معنى في كل الثقافات واللغات!!

وعلى كلٍ فإن الذي يظهر أن العديد من اللغات لها من الكلمات التي يمكن ترجمتها لمعنى (الدين)، ولكن بالنظر إلى استخدامها فإننا نجد الأمر مختلفا نوعا ما، مثال ذلك :

– في اللغة السنسكريتية* نجد كلمة (دارما) (dharma) تترجم أحيانا في مقابل (الدين) وهي قد تعني (القانون) [3]، ولكن عندما يتحدث الهندوس عن (دهارما) فغالبا ما يستعملون عبارة (سانتان دهارما) لتدل على دينهم، والترجمة الحرفية لهذه العبارة هي (الدين الخالد)، ولكن (دهارما) تدل على مفاهيم أخرى أيضا ضمن معانيها، فالدهارما تصف النظام الكوني وكيفية وصف الأشياء بحس ديني واجتماعي، وطبيعي، فيقول الهندوس مثلا إن كل شخص له (الدهارما) الخاص به وفق موقعه في الحياة، فالدهارما للطالب مثلا يشير إلى المذاكرة (والبقاء من دون زواج)، والدهارما لربة مترل متزوجة هي إنجاب الأطفال وتربيتهم، فلكل شخص الدهارما الخاص به

---

1 - Max Müller. The science of religion, London :new spattis woode, 1870, p 28.

2 – مالوري ناي، الدين : الأسس، تر: هند عبد الستار، ط1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009م، ص35 .

* - السنسكريتية : هي لغة قديمة في الهند وهي لغة طقوسية للهندوسية، والبوذية، والجانية، ولها موقع في الهند وجنوب شرق آسيا مشابه للغة اللاتينية واليونانية في أوروبا في القرون الوسطى، والسنسكريتية هي إحدى الاثنتين وعشرين لغة رسمية للهند، تدرس في الهند كلغة ثانية، كما أن بعض البراهمنيين – وهم الوعاظ من الطبقة العالية – يعتبرونها لغتهم الأم . إذ يسمح فقط لكهنة البراهما بقراءة النصوص السنسكريتية...

3 - Kuroda toshio, trs :jacquelline, The Imperial Law and the Buddhist law, Japanese Journal of Religious Studies,1996 , p 23, 3-4 .

حسب موقعه في الأسرة وحسب مهنته ووظيفته، سواء كان جنديا أو تاجرا أو حدادا أو نجارا...وهكذا فربما نجد توافق بين كلمة (religion) وما يسميه الهندوس (دهارما) (dharma)، إلا أنهما ليسا الشيء نفسه [1] . ولكن بالنظر لاستعمالات كلمة (دهارما) في اللغة السنسكريتية، نرى أنها تقترب من معنى المواظبة والمعاهدة ولزوم الأمر في اللغة العربية، وهو ما أشرنا إليه من أوجه استعمالات لفظ الدين في لغة الضاد .

- أما في جنوب آسيا فنجد (طلب الغفران) و(التكفير من خلال التقوى) (الطقوس العملية) هي ما يقابل كلمة الدين[2] .

- وفي اليابان فإن (القانون الإمبراطوري) و(القانون البوذي) تعادل مفهوم الدين[3].

- وفي العبرية نجد واحدة من المفاهيم المركزية التي تقابل معنى (الدين) و هي: (هلخا) (halakha) وتترجم أحيانا باسم (قانون) الذي يوجه الممارسة الدينية والعقدية والعديد من جوانب الحياة اليومية، فممّا يلاحظ أنه لا يتم التمييز بوضوح بين الهويات الدينية والقومية، أو العنصرية العرقية في التقاليد اليهودية[4].

- وفي اللغة الصينية فقد استعير في القرن العشرين لفظ تسونغ جياو (zōng jiào (宗教) كموافق للفظ (religion) بمعنى (الدين)، و في اللغة الصيينية تسونغ جياو *zōng jiào* (宗教) تشير إلى معنى : "فكرة التعليم من أجل المجتمع" أو تعليم العشيرة [5]. كما نجد الدين يعرف باللغة الصينية أنه "حالة كبرى، ومهمة محترمة، وهو يتضمن ثلاث معان : التعليم والتربية والتنوير (التثقيف)"[6]. فالدين على هذا هو مرادف للتعليم الذي يفيض أثره على المجتمع .

---

[1] - مالوري ناي، الدين : الأسس، مصدر سابق، ص36 .

[2] - Kuroda toshio, trs :jacquelline, The Imperial Law and the Buddhist law, Japanese Journal of Religious Studies, p 23, 3-4.

3- المصدر نفسه، ص3-4، 23 .

4- Hershel Edelheit, Abfaham J. Edelheit, History of Zionism (A Handbook and Dictionary), Boulder, CO: Westview Press, 2000, p3. AnpMax Müller. The science of eligion, p28

5- Vincent goosaert,david palmer, linvention des religion en chine moderne, pari :gallimard filioessais, 2007, p188

[6]- http://www.amtb.org.tw/jkfs/jkfs.asp?web_choice=7&web_amtb_index=31

وهذا الاختلاف الواسع بين اللغات والثقافات يجعلنا نتساءل عن أيٍ من المعاني نتحدث حين نطلق لفظ الدين، فهل عن معنى (religion) أم عما تشير إليه (dharma) أم (تسونغ جياو) ...؟ وما يحير أكثر، ما ذهب إليه البعض من أنه لا يوجد في الكثير من الثقافات مقابل واضح يمكن ترجمته إلى لفظ دين أو (religion) الانجليزية . مثلا يشار إلى أن قبائل السكان الأصليين لأمريكا ليس لديهم مقابل في لغتهم لكلمة دين ككيان مستقل [1] . إلا أن المؤكد أن كل الناس لديهم في حياتهم إذا اقتربنا منها، وتمعنا فيها ما يمكن أن نطلق عليه لفظ دين، حتى وإن لم يطلقوا هم هذا اللفظ عليه، ومنه فحتى لو لم يكن لكلمة دين أي مقابل في العالم، فقد يكون لمدلولاتها مقابل[2].

أما عن معنى كلمة (رليجيون religion) بالمفهوم العام الحديث للدين فإن ذلك ما نلمسه من خلال أهم المعاجم والموسوعات العلمية الغربية :

يوصف لفظ روليجيون / Religion بكونه تعبيرا عن "تركيب من المعتقدات والممارسات الطقوسية، والمطالب الأخلاقية وذلك ضمن نسق أو نظام مرتبط بالله أو آلهة"[3]. و جاء في موسوعة أديان العالم؛ والتي بنت تعريف الدين كما جاء في قاموس أكسفورد حيث دين ؛ جمع أديان، وديانة، ويعرف المعجم كلمة رليجيون/ Religion بطريقة حياة الرهبان المبنية على النذور والقرابين، وبأنها نظام أو قانون ويعني نظام عقيدة، وعبادة لـــ قوة إلهية، وهي اعتراف بقوة إلهية مستحقة للعبادة،كما يقدم المعجم الكلمة على أساس أنها تعبير عن التزام (بقسم أو نذر مثلا) يربط الإنسان بالله، فنجد من مرادفات كلمة (Religion) مؤسسة رهبانية، التقي، الورع، المتدين، مذهب، عقيدة ، مجتمع عقيدة،... وكذا طقوس وأعياد دينية ، و ديني : تعني طريقة حياة الرهبان المبنية على الطقوس والأعياد الدينية [4].

وبناء على هذا تعرِّف الموسوعة الدين على أنه : "التسليم أو الاعتراف بوجود قدرة متحكمة فوق بشرية، وخصوصا الإله ذ ا الطبيعة الواعية، وهذه القدرة تدّعى الحق في طاعتها" [5] وليس في هذا

1 – مالوري ناي، الدين : الأسس، مصدر سابق، ص37 .

2 – المصدر نفسه، ص 38 .

3- A Dictionary of the Bible. W. R. F. Browning. Oxford University Press, 1997.

4- Oxfor University Press, Shorter Oxford English Dictionary, p1054 .

5- Geoffery parrinder, wordd religions : from ancient history to the present, 1985, p 9

التعريف تحديد لطبيعة تلك القدرة فوق البشرية وماهيتها، كما لم يقل التعريف إن كانت هذه القدرة هي التي خلقت الإنسان أم أن الإنسان مخلوق بغيرها، وهل هي خالقة بوجه عام أم هي مخلوقة بدورها ...كما أشار التعريف إلى أن طاعة هذه القدرة هي طاعة اختيارية وليست ملزمة، كما لم يبين لنا على ماذا تطاع هذه القدرة ... 1 .

أما إذا انتقلنا إلى قاموس الميراث الأمريكي إذ يقول بأن الدين هو"الإيمان في، والخضوع لقوة أو قوى خارقة للطبيعة، والتي تعتبر خالقة ومتحكمة في الكون" [2]، فالتعريف ربط الدين بالإيمان بخالق الكون والمتحكم فيه، إلا أنه لم يعرف بهذا الخالق، فهو تعريف لم يأت بجديد .

وكذا نجد قاموس وبستر الموسوعي المطول بتعريفه الذي يأتي على النحو التالي : "الدين هو مجموعة معينة من المعتقدات الأساسية والممارسات التي يتفق عليها بصفة عامة عدد من الأفراد أو الطوائف مثل الديانة المسيحية ..." 3 فالدين حسب التعريف مجرد نشاط اجتماعي تتفق عليه فئة معينة فحسب، وتحقق لهم الرضا ... وهو تعريف متأثر بالديانة المسيحية .

وفي الموسوعة البريطانية يأتي تعريف الدين على أنه : "علاقة الإنسان بما يعتبره مقدس ا، أو جدير ا بالتقديس من مطلق أو روحي أو إلهي، وهو يظهر عموما في تعامل الناس إزاء قلقهم حول مصيرهم بعد الموت"4 .

وجاء في موسوعة الدين : "وباختصار يمكن القول أن الثقافة تتضمن تقريبا كل ما هو ديني... فالدين بمعنى تنمية الخبرة بالتجربة الثقافية، على مختلف المستويات والأصعدة، للتوجه نحو نوع من التسامي والرقي الذي من شأنه أن يشكل قاعدة وطاقة تكفي الإنسان حياته كلها، يتم بناؤها زيادة أو نقصانا بالتميز في أنماط السلوك وفق التعمق في الخبرات الثقافية . الدين هو تنظيم الحياة وفق

[1]- محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين ولهذا هم يرفضون الحوار، ط 1، القاهرة : مطبعة وهبه، 1424ه، 2004م، ص22 .

2- The American heritage , Dicctionary of the english of the engllish language , 5 edion , houghton mifflin, harcourt, 2014,nd p 9

[3]- نقلا عن محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص23 .

4 - The editions of encyclopedia britannica, 2014, www, Britannica com .

الخبرات العميقة للتجارب، ليأخذ مظهره النهائي والأوضح تبعا للثقافة المحيطة" [1] . فالدين حسب هذا؛ هو سعي من المرء لترقية وتثقيف نفسه من خلال التجارب والخبرات الحياتية، ولعل في هذا ما يتضمن معنى التدين والتهذيب، ولكن اعتبار الدين خلاصة لتجربة الفرد العملية في الحياة، لا شك أن فيه توسيع لمجال الدين إلى حد قد يترع عنه القداسة والتتريه مما يحوله إلى نوع من الثقافة الشمولية.

أما قاموس موسوعة كتاب العالم : فإنها تعترف بصراحة بأنه لا يوجد تعريف بسيط للدين يمكن أن يصف الأديان الكثيرة الموجودة الآن في العالم ، و لم تزد الموسوعة في تعريف الدين لديها عن ثلاث أو أربع كلمات هي: "الدين ؛ الاعتقاد في إله أو آلهة" 2 فهي ترى الدين من منظور الغالبية العظمى يعتبر مجموعة من الاعتقادات والطقوس والممارسات والعبادات التي تدور حول إله أسمى... ونحن نلاحظ أن كلا التعريفين السابقين واسعان وبلا قيود البته .

ومجمل القول لما جاء في التعريفات الحديثة، أن كلمة (رليجيون rqeligion) تطلق على معان ثلاثة :

-أولها : نظام اجتماعي لطائفة من الناس يؤلف بينها إقامة شعائر موقوتة، وتعبد ببعض الصلوات، وإيمان بأمر هو الكمال الذاتي المطلق، وإيمان باتصال الإنسان بقوة روحانية أسمى منه، حالّة في الكون أو متعددة، أو هي الله الواحد .

-ثانيا : حالة خاصة بالشخص مؤلفة من عواطف وعقائد ومن أعمال عادية تتعلق بالله .

-ثالثا : احترام في خشوع لقانون أو عادة أو عاطفة [3].

هذا عن أهم المعاجم والموسوعات العلمية الأجنبية التي تلخص فهم الآخر للدين، وما يثير الانتباه بداية هو ما نلمحه من وراء التعريفات الغربية اللغوية أو المعجمية للفظ religion ؛ أنها تنحو نفس المنحى فيما يتعلق بالأصل اللغوي لكلمة (دين) فمعظم الدارسين قد أرجعوا اشتقاق هذه الكلمة إلى المصدر اللاتيني ! وكأن لا وجود لهذه اللفظة إلا في الحضن اللاتيني، وأغلب ما يحال إليه هو أنها مشتقة من الفعل اللاتيني religare أي relier والتي تعني ربط وأوثق، أو أن أصل الكلمة يرجع

---

[1] - Winston King. Encyclopedia of Religion. Ed. Lindsay Jones, First Edition, Religion Vol. 11. 2nd ed. Detroit: Macmillan Reference USA, 2005. p7692-7701.

[2]- محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص 21.

[3] - مصطفى عبد الرازق، الدين والوحي والإسلام، مصدر سابق، ص 15 .

إلى الفعل اللاتيني religere بمعنى العبادة المصحوبة بالرهبة والخشية والاحترام ..أو غيرهم ممن لم يخرجوا عن الأصل اللاتيني؛ الأمر الذي حصر معناها وضيقه في إطار العلاقة التعبدية .

وعموما فلفظ (Religion) في المعاجم الغربية تعبير عن تلك الاعتقادات والطقوس التعبدية التي تربط علاقة الإنسان بقوة خارقة قد تتمثل في إله أو آلهة . وهي تشير بالضبط إلى تلك الحياة الخاصة من حياة الأفراد أو الجماعات والتي تتعلق خصوصا بمجال المقدس والممارسات التعبدية والعقائدية، وما يلاحظ إضافة؛ أن المعاجم الغربية لا تعرِّف الدين بمفهومه الشمولي العام، وإنما هي تعرف الدين باعتباره نظاما تعبديا يختاره الإنسان، مما يجعله ينطبق على مفهوم (الديانة) .

وعلى هذا نجد أن اللغة العربية في ثرائها، واتساع دائرة اشتقاقاتها، تفرز لدينا لفظتين يمكن مقابلتهما للفظ (religion) الأجنبي الغربي، ألا وهما لفظتي : "دين" و " ديانة" ! أما في غير اللغات الأوربية فإنه في الغالب يشار إلى معنى الدين بكلمة (قانون) -كما رأينا-، وقصد به النظام السائد والقائم، ولفرط الالتزام به والتبعية له عدّ دينا، وهذا ما نجد مثيله في اللغة العربية...فمما ورد في الكليات لأبي البقاء { **مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ** } (سورة يوسف الآية 76) أي في نظام ومُلْك مِلِك مصر أو في قضاء المِلِك[1]، إضافة إلى معاني الربط والتزام العلاقة ...

ويمكننا أن نلمس الفرق جليّا بين معنى (الدين) في اللغة العربية وفي القرآن عما يقابله من لفظ (religion) عند الغرب؛ فبينما يرمز لفظ (religion) في أغلب استعمالاته إلى مجال مخصوص من حياة الأفراد والجماعات ألا وهو مجال المقدس والروحي والعقدي، فإن كلمة دين في اللغة العربية تتصل بالمجال الدنيوي والاستعمالات العامة كالمداينة؛ بمعنى المقايضة والتمليك، و التديّن بمعنى الذل والانقياد، وكذا القهر والإكراه، وجلّ معاني الحساب والجزاء ... إضافة إلى أنها تشير إلى مجال العادات والعبادات والاعتقاد ...

أما بالنسبة لما ورد في نص الكتاب المقدس من إطلاقات لكلمة دين، فإننا نجد قاموس الكتاب المقدس في شرحه لكلمة دان، يدين، دين ، الدينونة : تطلق هذه الكلمات على حكم الله على الناس بحسب أعمالهم : والعديد من النصوص التي تشير لهذا المعنى [2]. وحسب الكتاب المقدس فقد أعطيت الدينونة للرب يسوع المسيح، فهو الديّان الذي يقف أمامه جميع البشر لكي يعطوا حسابا عن أعمالهم

---

[1] - أبو البقاء الكفومي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ط 2، بيروت : الرسالة ناشرون، 1419ه، 1998م، ص328، 329 .

2 - إنجيل (متى 7: 2)(متى 23 : 33) (متى23: 14)وسفر الجامعة (جا 11 : 9) (جا12: 14) و(أعمال الرسل 24 : 25) سفر إشعيا (إش 3: 13) (34: 5) وإنجيل يوحنا (يو 3 : 19) (يو 5: 22) (يو12: 31)، إنجيل مرقس (مر 3: 29) (مر12: 40) سفر الرؤيا (رو2: 2) (رو2: 3) (رو 2: 5) (رو5: 18)..

في الجسد خيرا كانت أو شرا 1 مثال ذلك ما ورد في النصوص [2]. فالدين يأتي في الكتاب المقدس بمعنى الحكم والجزاء، فالله هو الديّان بمعنى القاضي والحكم كما جاء في النصوص (ديّان كل الأرض)[3] و(ديّان الجميع)[4] (الديّان العادل)[5] وبمعنى الجزاء كما جاء في (لا تَدينوا لكي لا تُدانوا)[6]، (من أنت الذي تدين عبد غيرك، هو لمولاه يثبت أو يسقط)[7] كما ورد (وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين)[8] 9 .

أما عن كلمة الدين (religion) وورودها في الكتاب المقدس بمعنى العقيدة، فإن الغريب أنه لم يأت ذكر ذلك في الكتاب المقدس، فلم ترد كلمة دين إلا في سياق معنى الدينونة أو الحكم أو يوم الدين (Day of judgment) فقط، وعليه يمكن القول أنه لا يوجد ذكر ولا معنى للدين من منظور الكتاب المقدس للديانتين اليهودية والمسيحية !! 10 . فتعريف الدين وذكره هو من كثير من الأمور التي أهملت أو أسقطت من الكتاب المقدس، فهل هذا دليل على أنه لا فائدة من تعريف الدين أم أنه لا أهمية للدين أصلا من وجهة نظر الكتاب المقدس؟ !

وإضافة لذلك نلحظ أن مفهوم الدين في اللغة العربية أوسع مما عرف به في الكتاب المقدس، فقد لاحظنا أن مصطلح الملة في اللغة العربية؛ باعتبار ما يشير إليه من سمة الطابع الجماعي، هو ما قد يوافق مفهوم كلمة (religion) في الفكر المسيحي باعتبار إشارته إلى الجماعة تتفق على معتقد ما أو طقوس معين، أما عن الكتاب المقدس ومفهومه للدين (بالدينونة) فإن خير ما يوافقه في معاني اللغة العربية هو معنى الجزاء والحساب .

---

[1]- بطرس عبد الملك، جون ألكسندر، إبراهيم مطر وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، القاهرة: دار الثقافة، 1995م، ص 382 .

2 - سفر صموئيل1 (24: 15)، المزامير (مز50: 6) وسفر (رؤيا 2 : 16) و رسالة2 إلى تيموثاوس (تي 4: 8) .

3 - سفر (تكوين 18 : 25) .

4 - رسالة إلى (عبرانيين 12 : 23)

5 - رسالة (2 تيموثاوس 4 : 8)

6 - إنجيل (متى 7 : 1)

7 - سفر (رؤيا 14 : 4)

8 - إنجيل (يوحنا 16 : 11)

9- ينظر بطرس عبد الملك، جون ألكسندر، إبراهيم مطر وآخرون، قاموس الكتاب المقدس، القاهرة : دار الثقافة، 1995م، ص 383 .

[10] - ينظر محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص 28 .

ورغم ما أسردناه من المعاني اللغوية للفظ (الدين) مما أحصيناه مما ورد في المعاجم والموسوعات، سواء في اللغة العربية أو غيرها من الدلالات الأجنبية إلا أنه إذا أطلق الناس لفظ (الدين) لا يقصد به معظم تلك الاستعمالات للفظ الدين في اللغة وربما لم يعننا منها إلا قليلا، فالمفهوم اللغوي لا يعطينا المعنى الذي يريده الناس عند إطلاق لفظ (الدين)، غير أن العلاقة الوطيدة بين المفهوم اللغوي وما يتعارفه الناس من اصطلاح ربما هي ما سيسعفنا الآن؛ إذ لا يمكن فصل الدلالة ا لعرفية عن الدلالة اللغوية بحال من الأحوال ، فالمفهوم الإصطلاحي يعتمد على بعض المفاهيم اللغوية للألفاظ والحدود، والاصطلاح معنى للفظ يحتمله لغة .

فالذي يلاحظ أن غالب تلك الاشتقاقات والمعاني اللغوية كلها إنما تكشف عن جذر المعنى وأصله، ولا تصوره في حقيقته المتداولة في عرف الناس واصطلاحهم؛ فإذا كان (الدين) مشتقا من ثلاثة أفعال متعدية تؤول كلها إلى معنى الخضوع والطاعة في اللغة العربية مثلا...فإ نه ليس كل خضوع أو انقياد هو في العرف تديّنا كما أنه ليس كل رأي أو مذهب أو عادة وخلق يسمى دينا، فما هي العناصر الجوهرية التي تميز الدين أو الظاهرة الدينية، والسلوك الديني عن سواه ؟ لنجملها فيما يسمى بالمفهوم العرفي أو التعريف الإصطلاحي .

المبحث الثاني : المفهوم الإصطلاحي للدين

مما لا ريب فيه أن تحديد المفهوم الإصطلاحي للدين إنما يكون عقب استقصاء جميع النحل والأديان وإجلاء خصائصها ومقارنتها ببعضها، واستنباط المشترك بينها، وهو أمر يكاد يتعذر، وإذا كانت وظيفة تقصّي الأديان والمقارنة بينها واستنباط خصائصها والمشترك بينها بغرض وضع تعريف شامل يستوفي شروطها متعذرة الآن ونحن لا نزال في بداية البحث و لم نتطرق لأي من الديانات أو نستعرضها، فليس في وسعنا إلا أن نستعرض ما وسعنا من تعريفات من سبق من العلماء لكلمة (دين) سواء المسلمين أو ما وضعه الغربيون لما يقابلها من لفظ ((religion)... لننظر فيها ونرى مدى اتساعها واستيعابها لما نعرفه من الأديان .

المطلب الأول : المفهوم الإصطلاحي للدين عند علماء المسلمين

برع علماء العرب والمسلمين في عرض مفاهيم المصطلحات وشرح الألفاظ وتعريفها وإبراز دلالاتها حتى أنهم أفردوا لذلك مصنفات عدة، فمنذ أواخر القرن الثاني الهجري حين وجه (أبو عبيده)(ت210ه)[1] عنايته إلى شرح ألفاظ القرآن وتعبيرها في كتابه (مجاز القرآن) فتح بذلك بابا كان مغلقا، فتبعه كثيرون منهم ممن عرض للمفاهيم والمصطلحات ليكون مفهوم الدين من أهمها[2] .

فعن (جابر بن حيان)[3] (ت 197ه/813 م) في كتابه الحدود يقول : "إن حد علم الدين أنه صور يتحلى بها العقل ليتعلمها فيما يرجى الانتفاع به بعد الموت" [4] والملاحظ هنا أن جابر لا يعرف

[1]- أبو عبيدة : الإمام العلامة البحر أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت210ه) التيمي، تيم قريش أو تيم بني مرة، عد من علماء البصره، أخذ عن عمرو بن العلاء (214ه)؛ النحو والشعر والغريب، وعن أبي الخطاب الأخفش (ت149ه) ...وقد عاصر الأصمعي (ت 216ه) .. نقل الرواة أن تصانيف أبي عبيدة كانت تقارب المائتين، لم يصل أغلبها، ومنها : مجاز القرآن، وغريب القرآن ، معنى القرآن ، إعراب القرآن ... (ينظر الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج9، ص446- 447) .

[2]- سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان، الهرم : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000م، ص14 .

[3]- جابر بن حيان : هو جابر بن حيان بن عبد الله الأزدي، عالم (كيميائي وفيلسوف..) مسلم عربي، ويعد أول من استخدم الكيمياء علميا في التاريخ، ومن مؤلفاته : أسرار الكيمياء، نهاية الإتقان، أصول الكيمياء، كتاب المعجزات، ميدان العقل ، عاش في الكوفة في القرن الثاني الهجري/ الثامن ميلادي وتوفي نحو (200ه/815م)... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص254) .

[4]- جابر بن حيان، مختار رسائل جابر بن حيان، تصح : بول كراوس، ط 1، القاهرة: مكتبة الختانجي، 1354م، ص 101- 102.

الدين وإنما يعرف علم الدين، إلا أننا يمكن أن نستخلص معنى الدين عنده على أنه اختيار للعمل بالشريعة التي يرجى الانتفاع بها دينا ودنيا وبعد الموت .

وعن (ابن عربي) في كتابه فصوص الحكم (ت 638 ه) بعد أن قدم المفاهيم اللغوية الثلاثة للدين و هي : بمعنى الجزاء، والانقياد والعادة[1] يقسّم الدين من الوجهة الشرعية إلى دينين؛ دين عند الله، ودين عند الخلق، حسب قوله : "الدين دينان؛ دين عند الله وعند من عرفه الحق تعالى، فالدين الذي عند الله؛ هو الذي اصطفاه الله وأعطاه الرتبة العليا على دين الخلق، وهو قوله (إن الدين عند الله الإسلام)[2]، أما القسم الثاني؛ الدين الذي عند الخلق الذي اعتبره الله، يقول (ابن عربي) : فالدين كله لله وكله منك لا منه إلا بحكم الأصالة قال الله تعالى : (ورهبانية ابتدعوها) وهي النواميس الحكمية التي لم يجئ الرسول المعلوم بها في العامة من عند الله بالطريقة الخاصة المعلومة في العرف، فلما وافقت الحكمة والمصلحة الظاهرة فيها الحكم الإلهي في المقصود بالوضع المشروع الإلهي، اعتبرها الله اعتبار ما شرعه من عنده تعالى" [3]. هذا عما ذكره ابن عربي في كتابه (فصوص الحكم)، فماذا عما جاء به في فتوحاته ؟

يقدم (ابن عربي) في فتوحاته المكية تفسيرا لقوله تعالى **{ملك يوم الدين}** (سورة الفاتحة الآية 4) فيقول : إن الملك هو من صح له الملك بطريق الملك... والملك على الحقيقة هو الحق تعالى، المالك للكل ومصرفه ويوم الدين يوم الجزاء، وقد شرح قوله عز وجل **{أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}** (سورة الزمر الآية3) فقال : هو الدين المستخلص من أيدي ربوبية الأكوان[4] .

ويقول (الجرجاني) (ت 814ه)[5] في التعريفات : "الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم، الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار، فإن

---

[1]- ينظر ابن عربي، شرح فصوص الحكم من كلام الشيخ الأكبر ابن عربي، تح: محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت، 1405ه/ 1985م، ص 96، 97.

2 - المنصدر نفسه، ص94 .

3 - المصدر نفسه، ص95 .

[4]- ابن عربي، الفتوحات المكية، تح: عثمان يحيى، ط 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1405ه، 1985م، ج1، ص 198، ج2، ص 84، ج6، ص 187 ..

[5]- الجرجاني: علي بن محمد علي الشريف الجرجاني الحنفي، متكلم وفيلسوف مسلم ، ولد بجرجان بالشمال الشرقي لإيران سنة 740ه، لقب بالسيد الشريف، وكان من تلاميد قطب الدين الرازي، توفي بشيراز سنة 816ه/ 1413م، أشهر مؤلفاته: التعريفات، تفسير الزهراوين، حاشية الكشاف (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص258) .

الشريعة من حيث أنها تطاع تسمى دينا، ومن حيث أنها تجمع تسمى ملة، ومن حيث أنها يرجع إليها تسمى مذهبا، وقيل الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منسوب إلى الله تعالى، والملة منسوبة إلى الرسول، والمذهب منسوب إلى المجتهد"1 .

كما ورد في تعريف إخوان الصفا [2*] أن الدين "شيئان اثنان أحدهما الأصل وملاك الأمر، وهو الاعتقاد في الضمير والسر، والآخر هو الفرع المبني عليه القول والعمل في الجهر والإعلان" 3 فالدين حسب هذا هو ظاهر وباطن .

وأشهر تعريف تداوله الإسلاميون وصاغوا على منواله واتخذوا منه تعريفا اصطلاحيا للدين، فهو ما أورده (التهانوي) (ت 1191ه) 4 في كتابه (كشّاف اصطلاحات الفنون) حيث يرى أن "الدين وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل "5، وهذا يشمل العقائد والأعمال ويطلق على كل ملة كل شيء، وقد خص الدين بالإسلام كما قال تعالى : (إن الدين عند الله الإسلام) ويضاف إلى الله تعالى لصدوره عنه وإلى النبي صلى الله عليه لظهوره منه وإلى الأمة لتدينهم وانقيادهم ...وقد يعبر عنه بعبارة أخرى فيقال : هو وضع يسوق ذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات، وهو ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، فإن الوضع الإلهي هو الأحكام التي جاء بها نبي من الأنبياء ... و يجيء بما يتعلق بذلك في لفظ الملة وفي لفظ الشرع"6.

1- الجرجاني، معجم التعريفات، تح : محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة، ص92، 93 .

* - إخوان الصفا : الاسم الجماعي الذي عرفت به فرقة إسلامية فكرية، لمع نجمها في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي، وضمت زيد بن رفاعه، وأبا سليمان البستي، والمقدسي...أهم ما صدر عنهم مشروع جماعي أخذ شكل موسوعة في إحدى وخمسين رسالة في المنطق والفلسفة، والروحانيات ..(ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص45)

3- إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، بيروت : دار صادر، ج7، ص 244 .

[4]- التهانوي : محمد بن علي القاضي محمد حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهناوي، كاتب وعالم، صاحب موسوعة كشاف اصطلاح الفنون 1158ه، ومن آثاره : سبق الغايات في نسق الآيات، وأحكام الأراضي... ويرجح أنه توفي عام 1191ه (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، 258) .

[5] - التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، تح: رفيق المعجم، علي دحروج، ط، مكتبة لبنان1996م، ص814.

6- المصدر نفسه، ص 814 .

وقد لخصه (عبد الله دراز) بقوله :"الدين وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقاد وإلى الخير في السلوك والمعاملات"[1] ولم يضف دراز العبادات إلى جانب الاعتقادات ! ولعله رآها داخلة ضمن السلوك العام مع الله أو مع الناس .

وبالتأمل في تعريف (التهانوي) يلاحظ : أن الدين –حسبه- إلهي المصدر متجاوز للإنسان وموجه لفئة العقلاء باختيارهم، لأجل امتثال الأوامر، وترك النواهي ، لتحقيق السعادة الأبدية والقرب من رب البرية .

وقال (أبو البقاء) (ت1094ه / 1683م)[2] في كلياته معرفا الدين بأنه : "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات قلبيا كان أو قالبيا (أي معنويا أو ماديا) كالاعتقاد والعلم والصلاة"[3] .

ويعرفه (محمد عبده) (1849م – 1905م)[4] في تفسيره المنار :"وضع إلهي يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم، لا كسب له فيه ولا صنع، ولا ينتقل إليه بتلق ولا تعلم"[5] . والذي يظهر من التعريف أنه حديث عن الوحي والنبوة .

---

1 - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص31 .

[2]- أبو البقاء الكفومي : هو أيوب بن موسى الحسيني الكفومي (ت1094ه / 1683 م) صاحب الكليات، كان من قضاة الأحناف، عاش وولي القضاء في تركيا، وبالقدس، وبغداد ، وعاد إلى استانبول فتوفي بها ، وله كتب أخرى باللغة التركية (الزركلي، الأعلام، ج2، ص38) .

[3]- أبو البقاء الكفومي، الكليات، مصدر سابق، ص 443 .

[4]- محمد عبده : (1266ه- 1323ه) (1849م – 1905م) عالم دين وفقيه ومجدد إسلامي مصري، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي والإسلامي، التحق بالأزهر عام 1866م، وحصل على شهادة العالمية في سنة 1877م، عمل مدرسا بدار العلوم 1879م، شارك في ثورة أحمد عرابي ضد الإنكليز 1882م، ثم عمل بالقضاء 1889م، ثم عين مفتيا للديار المصرية عام 1899م، أسس جمعية إحياء العلوم العربية لنشر المخطوطات عام 1900م، أهم مؤلفاته : رسالة التوحيد، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، العروة الوثقى...أهم تلاميذه محمد رشيد رضا، حافظ إبراهيم، عز الدين القسام ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص417، وينظر الزركلي، الأعلام، مصدر سابق، ج6، ص252)

[5]- محمد عبده ومحمد شيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط 2، مصر القديمة : مطبعة المنار، 1350ه، ج2، ص69 .

ويقسم (محمد إقبال) (1877م- 1938م)[1] من خلال كتابه (تجديد الفكر الديني في الإسلام) الحياة الدينية إلى ثلاث أطوار : يمكن وصفها بطور الإيمان و طور الفكر و طور الاستكشاف. والحياة الدينية في طور الإيمان بالنسبة لمحمد إقبال صورة من نظام يجب على الفرد أو الأمة بتمامها أن تخضع لأمره خضوعا مطلقا، ومن غير تحكيم العقل في تفهم مراميه البعيدة، أو غايته القصوى ...[2] فالإيمان على رأيه هو تقبل كامل غير مشروط وبدون تكلف بإعمال العقل في فهم معراه .

وبمثل ذلك أشار (فراس السواح)(ولد1941م)[3] في كتابه (دين الإنسان) إلى أن الإيمان هو إحساس أولاني متمكن من السيكولوجيا الإنسانية، قوامه مواجهة فريدة مع قوة شمولية منبثة في هذا العالم ومتصلة به فقدت استقلالها عنه، إنه المقدس الكلي وقد صار ماثلا في النفس التي تختبر حضوره بكليتها، في معزل عن أي موقف عقلاني نقدي . ومنه يتضح ترابط الإيمان بالجانب النفسي، فهو شعور متمكن من النفس الإنسانية، وناتج عن تجربة وجدانية مع قوة شمولية يضفي عليها ثوب المقدس، فيلزم التصديق بها بعيدا عن المسطرة العقلية النقدية [4]. كان هذا رأي ميثولوجي حول قضية الإيمان، والتي تنطلق من فرضية كون هذا الشعور مجرد انعكاس نفسي، بعيدا عن أي تأمل عقلي .

---

1 - محمد إقبال : (1877م- 1938م) كاتب هندي مسلم، كتب بالأردية والفارسة، رحل أوروبا وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ في ألمانيا، وكان هذا الشاعر والفيلسوف واللغوي والقانوني والسياسي والمربي في آن معا..مفكرا من الطراز الأول، ومنظرا للفكر الإسلامي الحديث، خلف وراءه نتاجا هائلا بلغت آثاره عشرون كتابا في الاقتصاد والسياسة والفكر والفلسفة، منها رسالة المشرق، الفتوحات الحجازية .. تدعو آثاره إلى تأويل السنة، وقراءة القرآن قراءة جديدة مع التمسك بالتوحيد (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص49) .

2 - ينظر محمد إقبال، تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: عباس محمود العقاد، ط2، دار الهداية، 2000م، ص 214 .

3 - فراس السواح : كاتب سوري ولد في مدينة حمص/سورية عام 1941م، يبحث في الميثولوجيا وتاريخ الأديان كمدخل لفهم البعد الروحي عند الإنسان ، من أهم مؤلفاته، مغامرة العقل الأولى 1978م، لغز عشتار 1985م، الأسطورة والمعنى 1997م، مدخل إلى نصوص الشرق القديم، لغز عشتار... (ينظر فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ط13، دار علاء الدين، 2002م، ص199)

4 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني)، ط4، دمشق : دار علاء الدين، 2002م، ص25 .

وذكر الدكتور (محمد الحسيني إسماعيل) (ولد1940م)1 في كتابه (الحقيقة المطلقة الله، الإنسان والدين) معرفا الدين من المنظور الإسلامي بأنه : "البلاغ الصادر عن الخالق المطلق لهذا الوجود (ويشمل ذلك كوننا هذا والأكوان الأخرى الموازية أو المتركبة معه) لتعريف مخلوقاته (بما في ذلك الإنسان) به (كمالات وفعل) وتعريف هذه المخلوقات بالغايات من خلقها، وحتمية تحقيق هذه المخلوقات لهذه الغايات" 2 . فالدين على هذا هو منهاج الخالق الصادر عنه لغرض التعريف به، وتحديد غاياته من الخلق .

ويرى (حسن حمصي)(ولد 1935م)[3] في هذا الباب أن الإيمان حسب الإسلام تسليم كامل بعد اقتناع العقل السليم، إنه تصديق وجداني يشحذ القناعة الشخصية ويصقلها، وهو معين لا ينضب يملأ قلب المحب الصافي، فيمد قنديل الفكر السليم بزيت الحقيقة المطلقة [4] . وهذه الرؤية ترى أن التصديق العقلي أولا ثم يليه التصديق القلبي، فهي تدافع عن عقلانية الحقيقة الإيمانية وعدم مخالفتها للمنطق .

وكل من (محمد إقبال)، (محمد الحسيني إسماعيل) و(حسن حمصي)، يعرف الدين من خلال المنظور الإسلامي، فنرى حديثهم عن الإيمان الصادق الذي يشحن الهمم، ويطمئن القلوب، وعن البلاغ الصادر من الله للإنسان... ففي هذا تعريف للدين من حيث هو عقيدة راسخة لها الأثر في تكييف الخلق والسلوك .

وأهم ما يقال عن تعريفات العلماء والمفكرين الإسلاميين هو أنها – في الغالب- محاولات لتفسير الخبرة الدينية في ظل تأثيرات وظروف تاريخية متغايرة، وفي سمات اجتماعية مختلفة، لكنها على كثرتها واختلافها فإنها لابد أن تعترف بإثبات الظاهرة الدينية ووجودها ضمنا . كما أن المتفحص لهذه

1- محمد الحسيني إسماعيل : المهندس محمد الحسيني إسماعيل، ولد بدقهلية بمصر في 1940م، ترقى في الجيش المصري إلى رتبة نقيب 1966م ثم لواء في 1978م، حصل على دراسات عليا في الآلات الكهربية 1974م والدكتوراه في المحركات الخطية 1983م، ودكتوراه أخرى في الكهرومغناطيسية بالولايات المتحدة الأمريكية 1978م ... وحاصل على وسام الجمهورية من الدرجة الثانية، كما أنه من أصحاب الخبرة والدراية في مجال مقارنة الأديان وله عدة مؤلفات منها : الدين والعلم وقصور الفكر البشري، والسقوط الأخير، وتاريخ الصراع على السلطة ...

[2] – محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص 29 .

[3] – حسن حمصي : من مواليد دمشق عام 1935م، حاصل على مرتبة الأستاذية من جامعة أم درمان الإسلامية علم 2000م، ألف في مجال القصص التاريخية(قصص من التاريخ: الدين الحق، فأين الله ..)، وفي مجال التحقيق (بشرى الكئيب بلقاء الحبيب)، والمعاجم المفهرسة، والحديث النبوي، وكذا البرامج التلفزيونية ...

[4] – حسن حمصي، الإيمان بالله (سلسلة شعب الإيمان)، دمشق : دار الرشيد، 1395ه، 1975م، ص 32 .

التعريفات يجها متقاربة، تتفق في نظرتها للدين، وتنطلق من مفهوم الدين الصحيح أو لما ينبغي أن يكون عليه الدين؛ إذ هي تشترك ابتداء في عبارة (وضع إلهي) أي من عند الله، وهذا يعني اقتصارهم على الدين المنزل من عند الله، وفي هذا إلغاء لكل دين غير موحى به، **وهذا لا شك تضييق للمفهوم وحصرٌ لمسمّى الدين بالأديان المنبثقة من الوحي الإلهي .**

فإذا ما انتقلنا إلى البحث عن مفهوم الدين عند الفلاسفة والأنتربولوجيين وعلماء الاجتماع ... الذين سبقوا في دراسة الظاهرة الدينية وتأملها، أمكننا أن نرى إن كانت تتفق مع ما أورده علماء المسلمين، أو ما جاء في المعاجم اللغوية من معان ومفاهيم للدين، أو أنها تنفرد برؤية فلسفية خاصة .

المطلب الثاني : مفهوم الدين عند علماء الفلسفة و الأنتربولوجيا

بداية يجدر التنبيه على أنه ليس من اليسير فصل علماء الفلسفة عن علماء الأنتربولوجيا، ولا التمييز بين أولئك وعلماء الاجتماع، نظرا للتداخل والتكامل بين تلك العلوم، مما أسفر عن ثلة متميزة في هذا العلم وذاك، كأن يكون الواحد منهم أنتربولوجيا حاذقا وعالم اجتماع بارع، علاوة على أنه فيلسوف مقتدر... والأمر سيّان عند علماء المسلمين وعلماء الغرب، وليس ما نقوم به بهذا الصدد من فصل إلا لغرض التمييز وسهولة الترتيب ... وفيما يلي نورد بعض التعريفات التي نسبت للدين باعتباره مصطلحا فلسفيا، وذلك ما نستنبطه أولا من بعض المعاجم الفلسفية العربية ثم ننظر فيما صاغه بعض الفلاسفة والأنتربولوجيين عن الدين.

أدرج المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية تعريفا للدين كالآتي : "دين (religion)؛ مجموعة من معتقدات وعبادات مقدسة تؤمن بها جماعة معينة، تسد حاجة الفرد والمجتمع على السواء، أساسه الوجدان وللعقل مجال فيه" . ونجد في المعجم تعريفا ينسب إلى (الفارابي) (874-950م)[1] وهو فيلسوف مسلم من القرن العاشر للميلاد في كتابه (الملة) يقول فيه : "الدين والملة يكادا يكونان اسمين

[1]- الفارابي : هو أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرحان الفارابي، ولد عام 260ه/ 874م في فاراب إقليم تركستان، فيلسوف مسلم، كان له قوة في صناعة الطب، ويعود له الفضل في إدخال مفهوم الفراغ في الفيزياء، تأثر به كل من ابن سينا وابن رشد، وهو شارح مؤلفات أرسطو المنطقية، توفي في دمشق عام 339ه / 950م، وضع عدة مصنفات كان أشهرها كتاب إحصاء العلوم، له أمؤلفات في الفلسفة منها كتاب الزمان، كتاب المكان، منطق الفارابي... كما أن له مؤلفات في الموسيقى والمنطق، والسياسة والاجتماع ... (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج15، ص417- 418) .

مترادفين .. الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار، فالشريعة من حيث تطاع تسمى دينا، ومن حيث تجمع الناس تسمى ملة"[1].

كما أورد المعجم تعريفا منسوبا إلى (لجرجاني) : "الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول صلى الله عليه وسلم" [2]، فالدين هنا فهم لما جاء به الرسول، وينظر المعجم للدين من حيث هو نظام متكامل بين الجماعة والفرد وشامل للوجدان والعقل .

وجاء في المعجم الفلسفي لـ (جميل صليبيا)3 : يطلق الدين عند فلاسفتنا القدماء على وضع إلهي يسوق ذوي العقول إلى الخير، وللفظ الدين في الفلسفة الحديثة معان : الدين جملة من الإدراكات والاعتقادات والأفعال الحاصلة للنفس من جراء حبها لله وعبادتها إياه، وطاعتها لأوامره، والدين أيضا هو الإيمان بالقيم المطلقة والعمل بها، كالإيمان بالعلم أو الإيمان بالتقدم، أو الإيمان بالجمال، أو الإيمان بالإنسانية، ففضل المؤمن بهذه القيم كفضل المتعبد الذي يحب خالقه ويعمل بما شرعه، لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بما يتصف به من تجرد وحب وإخلاص وإنكار للذات، وإذا أطلق لفظ الدين على الملة دل على جماعة معينة من الناس هدفها تمجيد الله وعبادته، والدين أيضا مؤسسة اجتماعية تضم أفرادا يتحلون بالصفات الآتية :

- قبولهم بعض الأحكام المشتركة، وقيامهم ببعض الشعائر .
- إيمانهم بقيم مطلقة وحرصهم على توكيد هذا الإيمان وحفظه .
- اعتقادهم أن الإنسان متصل بقوة روحية أعلى منه مفارقة لهذا العالم، أو سارية فيه كثيرا أو موحدة4 . فالدين حسب هذا المعجم هو الإيمان بالله، وكذا الإيمان بالقيم المطلقة والعمل بها ويكون التفاوت فيه بقدر التفاوت في التجرد والإخلاص في الإيمان والطاعة أو العبادة...ويحصل ذلك كله نتيجة تعلق النفس بالله .

---

1 - أبو نصر الفارابي، كتاب الملة ونصوص أخرى، تح : محسن مهدي، ط2، بيروت : دار المشرق، 1991م، ص5 .

[2] - الجرجاني، التعريفات، مصدر سابق، ص92 .

[3] - جميل صليبيا (1902- 1976) كاتب وفيلسوف عربي، قدم أطروحة في فلسفة ابن سينا وأطروحة في نظرية المعرفة، منحته جامعة باريس درجة الدكتوراه في 1927م، انتخب عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق، أهم مؤلفاته : تاريخ الفلسفة العربية، المعجم الفلسفي ... (ينظر الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق، ج 12، ص184، وينظر جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982م)

[4]- جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، بيروت : دار الكتاب اللبناني، 1982 م، ص 572 .

وبالنسبة لمعجم الفلسفي ل ـــ (مراد وه به)1 فالدين يعبر عن العلاقة بين المطلق في إطلاقه والمحدود في محدوديته، وبهذا يتصف أي دين بما يأتي :

– الاعتقاد في مطلق .
–تحديد علاقة الفرد بهذا المطلق .
–ممارسة شعائر وطقوس معينة2 . فالدين توجه وجداني من العابد للمعبود وفق شقي الاعتقاد بالوجدان، والتمثل بالشعائر .

هذا بالنسبة لأهم ما جاء في المعاجم الفلسفية العربية، ومفاده أن **الدين هو جملة الإدراكات والمعتقدات التي تنظم علاقة المحدود بالمطلق، إن على مستوى الفرد أو المجتمع ، والشعائر والطقوس التعبدية هي ما يترجم هذه العلاقة وينظمها .**

فأغلب التعريفات الواردة في المعاجم الفلسفية تعبر عموما عن مدى التناغم بين المحدود والمطلق وانسجامه معه والتعلق القلبي والعقلي به، مع ما نلحظه من عدم تحديد لماهية المطلق، مما يدخل فيه كل ما يراه المتعبد مطلقا، وهو مما جعل التعريفات عمومية وفضفاضة من جهة، ومن جهة أخرى نجدها تنظر للدين باعتباره نظاما تعبديا ينتظم الفرد من خلاله في مجتمع أو جماعة، وقد عبر عنه خصوصا بمصطلح (الملة) وفي ذلك تضييق لمفهوم الدين؛ الأمر الذي يبدو أنه يتوافق مع ما يرد في المعاجم والموسوعات الغربية الأجنبية من تعريفات للدين (religion) باعتباره نظاما أو مجتمع عقيدة أو نظاما مرتبطا بالله .

وفيما يلي نضيف مجموعة من تعريفات الفلاسفة والأنتربولوجيين الغربيين المتداولة في حقل دراسة الدين، والتي طمحت إلى الإحاطة بالظاهرة الدينية ، علّنا نجد فيها ضالتنا من تعريف أنسب وأدقّ للدين .

فقديما ورد أن : "الدين هو الاهتمام بطبيعة ما هو أسمى (من الإنسان) تسمى إلهية وتقديم عبادة لها"[3]، هذا ما كتبه (شيشرون) (Marcus tulius cicero) (ت43 قبل الميلاد) في كتابه (عن

---

[1]– مراد وهبه : هو مراد جبران، ولد عام 1926م، في أسيوط بمصر، بروفيسور وأستاذ الفلسفة بجامعة عين شمس، وعضو في مجموعة من الأكاديميات والمنظمات الدولية، مؤسس ورئيس الجمعية الدولية لابن رشد والتنوير عام 1994م، من مؤلفاته الأصولية والعلمانية، قصة الفلسفة، مستقبل الأخلاق ...
[2]– مراد وهبه، المعجم الفلسفي، ط1، القاهرة : دار قباء الحديثة، 2007م، ص317 .
[3] – نقلا عن جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص8 .

القوانين)، إذ يرى أن : "الدين هو الرباط الذي يصل الإنسان بالله" 1 ومنذ (شيشرون) غالبا ما جرى الإصرار على العلاقة المزدوجة المدونة في أي دين علاقة عمودية للناس بالألوهية ومستقيمة للمؤمنين فيما بينهم، وقد تم القبول في سبيل التبسيط ودون البت في أهمية النسبية لكل من هذه العناصر، بأن كل دين يتضمن :

1 مجموعة معتقدات أو فرضيات تتعلق بالإله أو الآلهة، وما هي عليه ، وما تنتظر من الإنسان، والمصير الذي تحتفظ له به .

2 مجموعة قواعد ممارسة فردية وجماعية، تشكل التعبد الواجب للإله .

3 تجمعا من الناس يتقاسم هذه المعتقدات وهذه الممارسات (كنيسة) .[2]

ويرى (هوبز)(Thomas Hobbes) (1588- 1679م)3 أنه لا ثمار للدين إلا في الإنسان وحده، ومنه فإن بذرة الدين هي أيضا موجودة في الإنسان فقط، وهي تقوم على صفة مميزة، أو على الأقل على درجة عالية من هذه الصفة، لا وجود لها في المخلوقات الحية الأخرى [4] والدين عنده ينشأ نتيجة جهله بالأسباب وخوفه مما هو غير مرئي، والدين في نظر (هوبز) نوعين : دين من وضع البشر؛ هم من زرعوا بذور الخوف وغذوها ورتبوها تبعا لابتكارهم، و دين من عند الله؛ حيث تنمو بذرة الدين بتوجيه من الله وأمر الأنبياء، والأول جزء من السياسة البشرية، والثاني سياسة إلهية. [5] فالدين عند (هوبز) خاصية بشرية، تكون بذرته نتيجة توجيه من الله أو لأسباب أخرى ابتكرها واضعو الأديان .

---

[1]- عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 34 .

[2]- جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص8 .

[3]- توماس هوبز : (1588- 1679م) عالم رياضيات، وفيلسوف إنجليزي، يعد أكبر فلاسفة القرن السابع عشر بإنجلترا، اشتغل بالفلسفة والأخلاق والتاريخ والقانون ... أحد مؤسسي فلسفة السياسة الحديثة القائمة على العقد الاجتماعي، عمل هوبز في سنواته الأخيرة ترجمة شعرية للإلياذة والأوديسة، كما حرر سيرة ذاتية منظومة شعرا، ومؤلفا تاريخيا حول البرلمان الطويل (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص708) .

[4]- توماس هوبز، اللفياثان (الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة)، تر: ديانا حرب وبشرى صعب، ط1، أبو ظبي: دار الفارابي، 1432ه، 2011م، هبة أبو ظبي للثقافة والتراث، ص 114 .

[5]- ينظر المصدر نفسه، ص 119- 120.

ويقدم (هيجل)(Georg Wilhelm Friedrich Hegel)[1](1770- 1831م) مفهوما جديدا للدين فيقول :" أن الدين هو الوعي بما هو حق في ذاته ولذاته مقابل الحقيقة الحسية المتناهية"[2] فأساس الدين هو علاقة الروح بالروح، والدين وحده هو الحقيقة الحقه، أي واقعية الوعي الذاتي، وهو وحده المعرفة الحقة بشكل مطلق[3]، كما أنه يرى أن الدين هو النطاق الذي تحل منه كل ألغاز العالم، وتجد المتناقضات معناها... ويظن (هيجل) أنه اكتشف أن : "الدين هو ذلك النطاق للحقيقة والراحة الأبدية والسلام الأبدي"[4]، فهيجل يرى أن الدين ذو بعد روحي مطلق ومعرفي بحت .

ويقول (شلير ماخير) Friedrich shleir macher (1768- 1834م)[5] وهو لاهوتي ودارس أديان في كتابه (مقالات عن الديانة) : "إن الدين هو شعور باللانهائي واختيار له، وما نعنيه باللانهائي هنا هو وحدة وتكامل العالم المدرك، وهذه الوحدة لا تواجه الحواس كموضوع، وإنما تنبي عن نفسها للمشاعر الداخلية، وعندما تنتقل هذه المشاعر إلى حيز التأملات، فإنها تخلق في الذهن فكرة الله، إن الخيال الفردي هو الذي يسير بفكرة الله، إما نحو المفارقة والتوحيد، أو نحو نوع غير مشخص للألوهية، يتسم بوحدة الوجود"... وهو يقول أيضا : "قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة"[6]، فهذا الاتجاه يقوم على فكرة (الألوهية)، إلا أن بعض الباحثين يرى أن فكرة التعريف تتمحور حول الأديان التي تضع في بؤرة معتقدها كائنات روحية من مختلف الأنواع، كأرواح الموتى والأرواح الحالة في مظاهر الطبيعة المختلفة، والتي لا تنضوي تحت مفهوم الآلهة المعتاد.

---

[1]- هيجل : فريدريك هيجل (1770- 1831م) فيلسوف ألماني، يعتبر هيجل أحد أهم الفلاسفة الألمان لكونه أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ، من أعماله : المدخل إلى علم الجمال، محاضرات في تاريخ الفلسفة ... وامن أهم مقالاته (الإيمان والعلم)، و(حول المنهج العلمي للقانون الطبيعي) (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص721) .

[2] – هيجل، محاضرات فلسفة الدين (مدخل إلى فلسفة الدين)، تر: مجاهد عبد المنعم، ط 1، القاهرة: دار الكلمة، 2001م، ج1، ص23 .

[3]- ينظر فردريك هيجل، محاضرات فلسفة الدين، مصدر سابق، ص 13- 23 .

[4]- المصدر نفسه، ج1، ص23 .

[5] – شلير ماخير: (1768- 1834) ألماني لاهوتي ودارس أديان، يعتبر هو المؤسس الفعلي للتراث الهرمونطيقي الحديث (روني إيليا ألفا، موسوعة أعلام الفلسفة، مؤسسة الرسالة،1422ه، 2001م، ج2، ص21) .

[6]- Friedrich shleir macher, Discours sur la religion, paris : 1799, p112.

ويعالج (رودلوف أوتو) (Rudolf Oto) (1869-1937م)[1] وهو لاهوتي، وباحث في فينومينولوجيا الدين، في كتابه (فكرة المقدس) بشكل أوسع الفكرة نفسها التي تقدم بها (شلير ماخير) حول وجود وعي بالقدسي مغروس في النفس الإنسانية، وهو يرى أن القدسي فقد معناه الأولي، وتحول إلى جملة من التشريعات الأخلاقية والسلوكية، أما الحالة الأصلية للوعي بالقدسي، فتجربة انفعالية غير عقلية هي أساس الدين، وتنضوي هذه التجربة على مجابهة مع قوى لا تنتمي لهذا العالم المادي، تعطي إحساسا مزدوجا بالخوف والانجذاب في آن واحد، والانقياد الإيجابي لهذه التجربة فكرا وعملا، هو الذي يكون الدين، ويطلق (رودلوف أوتو) على الإحساس بحضور الآخر المختلف كليا تعبير "الإحساس النيوميني"، والذي يعني تجلي الألوهية، كما تعني قوة أو إرادة الألوهية، وهو يرى أن هذا العنصر النيوميني في التجربة الدينية هو حالة أولانية للوعي، وهو البنية الأساسية لكل التجارب الدينية [2]. فالذي يراه (أوتو) أن الدين جزء لا يتجزأ من الطبيعة الإنسانية، وهو إحساس مغروس في الوعي الإنساني، بل هو تجلي الألوهية الكامن في النفس الإنسانية .

ويرى (هربرت سبنسر) Herbert spencer (1820- 1903م)3 في خاتمة كتابه (المبادئ الأولية)؛ إن الأديان على قدر اختلافها في عقائدها المعلنة تتفق ضمنيا في إيمانها بأن وجود الكون هو سر يتطلب التفسير "، ولذا فإن الدين بالنسبة لسبنسر هو :"الاعتقاد بالحضور الفائق لشيء غامض وعصي على الفهم"[4]. فالدين إذن هو إدراك لما يفوق العلم ويتجاوز العقل .

---

[1] - رودلوف أوتو : (1869- 1937م) فلسوف ولاهوتي ألماني ولاهوتي لوثري ، يعد في الغرب من طلائع الخبراء في مجال علم النفس الديني، ومن أكبر المختصين في الظواهر(فينومينولوجيا) الدينية، حصل على الدكتوراه الفخرية في 1915م، أصاب شهرة واسعة عندما نشر كتابه عن الحرام (1917م)، واتبعه بتركيب واسع عن تاريخ الاديان : روحانية الشرق وروحانية الغرب، كما أن من أهم مؤلفاته فكرة القدسي (1917م) (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص109) .

[2] - ينظر فراس السواح، دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني)، ط4، دمشق : دار علاء الدين، 2002م، ص28 .

[3]- هربرت سبنسر : (1820- 1903م) هو فيلسوف بريطاني يعد وأحد من مؤسسي علم الاجتماع الحديث، اشتهر بنظرية عن التطور، أهم مؤلفاته كتابه السياسي "الرجل ضد الدولة" وله أسس علم الحياة، مبادئ علم النفس، مبادئ علم الاجتماع، معطيات الأخلاق، الأستاتيكا الاجتماعية ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق،ص356)

4- Herbert spencer, First principles, london : williams and norgate, 1910, p27 .

ويدور (تعريف ماكس موللر) (Max Muller) (1822- 1900 م)[1] الفيلسوف ومؤرخ الأديان الألماني، حول الفكرة نفسها فيقول في كتابه (نحو علم للدين) : "إن الدين هو كدح من أجل تصور ما لا يمكن تصوره، وقول ما لا يمكن التعبير عنه، إنه يتوق إلى النهائي، هو حب الله" [2]، فالدين حسب موللر هو تصورات ومشاعر بين الخالق والمخلوق لا أكثر. أي أن الدين تصور لأمر خارجي بعيد المنال حِسّا، يعجز المرء حتى عن تصوره، فالدين عنده ضرب من المعجزة و الخيال .

وبالنظر إلى تعريفي كل من (هربرت سبنسر) و(ماكس موللر) نرى أنهما تعبير عن الفطرة الدينية والإحساس الفطري بوجود الخالق، فالتعريفان هما انعكاس للانفعال الذاتي والفطري بمقام الألوهية في أعماق النفس البشرية . ولهذا نجدهما يتسمان بالغموض والبعد عن الإدراك العقلي، خاصة وأنهما يجعلان من الدين أمر ينقطع دونه العقل، كما أن ممن عارض تعريفي سبنسر و موللر...؛ أولئك الذين لا يرون أن الدين متعلق بأمر الغيب، إذ أن هذا الأخير أثره يتفاوت في أدوار التاريخ الديني، وقد وجدت عصورا تضاءلت فيها فكرة الغيب، بل هناك ممن يرون أنه من المحقق أن معنى الغيب الذي لا يعقل ليس فطريا، ولا أمرا مركوزا في طبع الإنسان، و لم يظهر في تاريخ الأديان إلا منذ عهد حديث، ولأجل ذلك لم يوجد في أديان الأمم الساذجة، وقد لا يوجد في بعض الأديان الراقية .
وكذا الأمر عند تعليق مسمىّ الدين بالخارق للطبيعة، فعند استحضار ما يقابله وهو النواميس؛ نجد أنها أمر مستحدث ووليد الأمس، فالدين على هذا أقدم من أن نعلقه بفكرة الخارق للطبيعة . [3]

وأما عن تعريف الدين بمعنى الألوهية، الأمر الذي لمحناه في تعريف شيشرن، وكذا شلير ماخير...وغيرهم فهناك من أنكره؛ ورأى أن به تخرج أمورا كثيرة هي دينية بالبداهة كأرواح الموتى وأرواح الآخر المتعددة؛ والتي هي موضع تنسك واحتفالات تعبُّد موسمية للعديد من الأمم، وهي ليست آلهة بالمعنى الحقيقي . وفي المقابل لم يوافق البعض على حذف مبدأ الإلهية من تعريف الدين، حين رأوا أنها قوام حقيقة الدين، وركن أصيل في تحقق ماهيته .

---

[1] - فردريك ماكس موللر (1823- 1900)، مستشرق ألماني، أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير، وأوفد إلى الهند ، من مؤلفاته (كتب الشرق المقدسة) ، لقب بأبو الديانات المقارنة (الزركلي، الأعلام، مصدرسابق، ج 16، ص362، وينظر مجموعة من العلماء، الموسوعة العربية الميسرة، ط 1، بيروت : المكتبة العصرية، 1431ه، 2010م، ج20، ص101).

[2] - Max Muller, Origineet Devloppement de la religion, paris : creinrald, 1879, p128

[3] - ينظر مصطفى عبد الرازق، الدين والوحي والإسلام، مصدر سابق، ص 16 .

ومن هنا ر أى (إدوارد تايلور) (Edward Tylor) (1832- 1917م) 1 وهو مؤسّس الأنتربولوجيا في بريطانيا، أن التعريف الأشمل ينبغي أن يستبدل مفهوم الآلهة بمفهوم الكائنات الروحية؛ الأكثر عمومية، يقول (تايلور) في كتابه (المدنيات البدائية) : "الدين هو الإيمان بكائنات روحية"2، والمقصود بالكائنات الروحية عند (تايلور)، هو كائنات واعية، فتلك قوى وخصائص تفوق ما لدى البشر، ويدخل في عداد هذه الكائنات كل أنواع الأرواح والعفاريت والجن، التي تفترض الذهنية البدائية تداخل عالمها بعالم البشر، كما يدخل في عدادها أيضا الآلهة بالمعنى المعتاد للكلمة، وبما أن هذه الكائنات ليست قوى غفلة عمياء، بل تتمتع بالوعي والإرادة، فإن العلاقة معها تتميز بمحاولة التأثير عليها واستمالتها للوقوف إلى جانب الإنسان، سواء بالكلمات المناسبة أو بالذبائح والتقدمات..[3] و لم يرض عن هذا التعريف نفرٌ أيضا، إذ به تخرج أديان كثيرة خلت من فكرة الكائنات الروحية كما خلت من فكرة الإله .[4]

وهنا يأتي (جيمس فريزر) (James Frazer) (1854- 1941م)5 الأنتربولوجي البريطاني المعروف، ليقدم تعريفا مكملا لتايلور، يقول (فريزر) في كتابه (الغصن الذهبي) : " ... وعليه فإننا نفهم الدين على أنه عملية استرضاء وطلب عون قوى أعلى من الإنسان، يعتقد أنها تتحكم بالطبيعة والحياة الإنسانية، وهذه العملية ينطوي تحتها عنصران، واحد نظري والآخر تطبيقي عملي، فهناك أولا الاعتقاد بقوى عليا، يتلوه محاولات لاسترضاء هذه القوى، ولا يصح الدين بغير توفر هذين العنصرين، ذلك أن الاعتقاد الذي لا تتلوه ممارسة هو مجرد لاهوت فكري، أما الممارسة المجردة عن

---

[1]-إدوارد بيرنيت تايلور : Edward Burnett Tylor (1832- 1917م) أنتربولوجي انكليزي، كان أستاذا للأنتروبولوجية بجامعة أكسفورد (1896- 1909م)، أهم كتبه :"الثقافة البدائية"، و"الأنثربولوجيه" (ينظر مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية الميسرة، مصدر سابق، ص920).

[2] - Edward Tylor, Primivite Culture, Researches into the devlopment, London : John Murry, Albemariestreet, 1871, p 181

3- EdwarTylor, Primivite Culture, p182.

[4] – ينظر مصطفى عبد الرازق، الدين والوحي والإسلام، مصدر سابق، ص17 .

[5]– جيمس فريزر James George Frazer (1854- 1941م) هو السير جيمس جورج فريزر، ألف كتابه الشهير (الغصن الذهبي) 1890م، وهو عبارة عن دراسة في السحر والدين، وله أيضا : "الطوطمية والزواج بغير ذوي القربى"، و" الطوطمية" (ينظر مقدمة كتاب جيمس فريزر، الغصن الذهبي، تر : محمد زياد كبة، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث كلمة، 2011م، ص8- 9) ().

أي اعتقاد فليست من الدين في شيء"1 . وما أضافه فريزر هو الجانب العملي التطبيقي من الدين وهو ما لا يصح الدين إلا به، فبالنسبة لـ(إدوارد تايلور) و(جيمس فريزر) فإن الدين مجرد مجاملات لاسترضاء الآلهة عن طريق الطقوس والممارسات . إلا أننا نلمح من (فريزر) سعي لإضافة الجانب السلوكي إلى الجانب الاعتقادي للدين، رغم أنه قصر الجانب التطبيقي على محاولة استرضاء القوى .

وبهذا لم يعد أيٌّ مما ذكر من التعريفات التي علّقت أمرها على الغيب أو المطلق أو الخارق، أو الإلهي وكل ما هو غير مرئي، تعريفا شاملا ولا كاملا، إلا أننا بدأنا نلمح توجها واهتماما بالجانب العملي؛ أي التعبدي من الدين، بعد أن كان الدين لغزا غيبيا حبيس التصور والشعور والاعتقاد فحسب.

فهذا (إيميل برنوف) (Emile Burnnouf) (1821- 1907م)2 يقول في كتابه (علم الديانات) : "الدين هو العبادة، والعبادة عمل مزدوج : فهي عمل عقلي به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبي أو انعطاف محبة، يتوجه به إلى رحمة تلك القوة " [3]، فالدين يتحقق بانسجام العقل والقلب معا من أجل التوجه إلى قوة سامية فيما يسمى بالعبادة . وفي هذا الإطار ينظر (رادكليف براون) R.C.Brawn للدين على أنه التعبير بشكل أو بآخر عن حالة الإحساس بالاعتماد والتبعية لقوى خارجة عن أنفسنا، ويرى من ذلك أن التعبير الأساسي عن هذا الإحساس هو الشعيرة[4] .

وكذلك يقول (ريفيل) (Réville)(1826-1906م)[5] في (مقدمة تاريخ الأديان):"الدين هو توجيه الإنسان سلوكه وفقا لشعوره بصلة بين روحه وبين روح خفية يعترف لها بالسلطان عليه

---

[1]- James Frazer, The Golden Bough : Astadyin magic andreligion, wildsidebpriss : 2010, p57

[2] - إيميل لويس برنوف : (1821م-1907م) (Émile-Louis Burnouf)، فرنسي، خبير بالهندية والسنسكريتية، والهلنستية الفرنسية، أتى بأطروحة عن مبادئ الفن عند أفلاطون، وأطروحة لاتينية عن عبادة نبتون، وهو مؤلف لقاموس (اللغة السنسكريتية –اللغة الفرنسية) عام 1863م، كما إن من أعماله تاريخ الأدب اليوناني 1869م، أسطورة أثينا 1872م، في الأساطير اليابانية1875م، في الدراسات الدينية (علم الديانات) 1885م ...

[3] - نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 35 .

[4] - نقلا عن محمد بيومي، علم الاجتماع الديني، الإسكندرية : دار المعرفة، 1981م، ص 177.

[5] - ريفيل (Albert Réville) اللاهوتي الفرنسي، المتخصص في تفسير الكتاب المقدس، والتاريخ الديني .. ومن أعماله : مقدمة في تاريخ الأديان، محاضرات حول أصل ونمو الدين ...

وعلى سائر العالم، ويطيب له أن يشعر باتصاله بها" [1] فريفيل يقر بوجود قوى روح خفية غير إنسانية هي من يؤطر حياة الإنسان ويوجه سلوكه من خلال القوانين والتوجيهات، مع إقراره بسلطانها. فريفيل هنا يجمع بين المستوى الشعوري والمستوى السلوكي للدين .

ويقول (ميشيل ماير)(Michel Mayer)(1823م-1905م)[2] في كتاب (تعاليم خلقية ودينية) : الدين هو جملة العقائد والوصايا التي يجب أن توجهنا في سلوكنا مع الله ومع الناس وفي حق أنفسنا"[3]. فبقوله عن الدين هو جملة العقائد والوصايا فهو بذلك يقف بالدين عند مستوى الاعتقاد، ولكن باعتباره الدين موجها للسلوك الإنساني فإنه يمكن القول أنه مع كل من (ريفيل) و (ميشيل) كأننا بدأنا نلمح توجُّها نحو جانب الأخلاق كأثر فعلي للدين .

فهذا (كانط) (Im manuel kant)(1724- 1804م)4 يعرف الدين في كتابه (الدين في حدود مجرد العقل) قائلا : "الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية" 5 فكانط يقدم تفسيرا أخلاقيا للدين، ويضع الدين الأخلاقي على رأس تفسيره للظاهرة الدينية، فلا فرق بين الدين والأخلاق، ويكون ذلك بالاعتماد على العقل في فحص الوحي على ضوء المفاهيم الأخلاقية، وأثره الأخلاقي إذ يرى أن : "الغرض النهائي من قراءة الكتب المقدسة أو فحص مضمونها هو جعل الناس أخيارا" ، ويقول : "إن الرقي الأخلاقي هو ما يؤلف الغاية الحقيقية لكل دين، وذلك في حدود العقل" 6. ونحن نلحظ هنا بوضوح تأثر (كانط) بمفاهيم عصر التنوير وتح كيمه العقل والأخلاق.

---

[1] - نقلا عن فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص24

[2] - ميشيل ماي (1823م-1905م) الحاخام الفرنسي، من أعماله : دروس التاريخ المقدس1881م، تعليمات خلقية ودينية 1885م ...

[3] - نقلا عن فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص25 .

[4]- إيمانويل كانط (1724- 1804م) (Im manuel kant) فيلسوف ألماني، و أحد أهم فلاسفة عصر التنوير في القرن 18 الذين كتبوا في نظرية المعرفة ، ما وراء الطبيعة، والمنطق ، نظرية الإدراك الحسي، أهم مؤلفاته : نقد العقل الخالص، نقد المنطق العملي، نقد القدرة على التحكم ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص513)

[5] - إيمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، تر: فتحي المسكيني، ط 1، الكويت : جداول للنشر والتوزيع، 2012م، ص 241 .

[6] - المصدر نفسه، ص 100- 105 .

ويقول الأب (شاتل)(Chatel) (1795-1857م)[1] في كتابه (قانون الإنسانية) :"الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق : واجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه"[2]، وعلى هذا فالدين يترتب عليه إلزامات ووظائف متعددة يتعين على المرء القيام بها لدى انتسابه لدين معين . وحسب هذا التعريف لم يعد أمر الدين متوقفا على إيمان الفرد أو عبادته أو أخلاقه فحسب، بل نرى مهمة أخرى للدين؛ هي ربط الفرد بالجماعة والتزامه نحوها .

وهنا يأتي (جويوه) (Guyau)(1854-1888م)[3]، قائلا في كتابه (لادينية المستقبل) : "الديانة هي تصور المجموعة العالمية بصورة الجماعة الإنسانية، والشعور الديني هو الشعور بتبعات لمشيئات أخرى يركزها الإنسان البدائي في الكون". [4] والجماعة عند (جويوه) تطمح لأن تتمثل في المجموعة الإنسانية العالمية .

ويقول (سلفان بريسية) (sylvain perisse)[5] في كتاب (العلم والديانات) : "الدين هو الجانب المثالي في الحياة الإنسانية" [6] ليكون الدين حسب هذا بمثابة المثل والأحلام التي يسعى الإنسان لتحققها وتمثلها في واقعه . فبالدين يسعى الإنسان إلى المثال والكمال في حياته، ولعلنا بهذا قد عدنا بالدين إلى جنح التصورات والخيال !!

---

[1] - شاتل : (François-Ferdinand Châtel) (1795-1857)، وهو الكاهن الكاثولوكي الفرنسي، مؤسس الكنيسة الكاثولوكية الفرنسية في 1831م التي نسبت إليه، من أعماله : قانون الإنسانية، التعليم المسيحي، الربوبية أو الدين الصحيح ...

2- Chatel, le code de l' hmanite ou l' huminite' ramenee' a la connaisance de vrai Dieu et veritable socilisme, 1 edition , paris chez l'auteur, 1838, p 98

[3] - جويوه : (1854-1888) Guyau, Jean-Marie الفيلسوف والشاعر الفرنسي، تأثر بنيتشه، من أعماله : الأدب المسيحي، الأخلاق الإنجليزية المعاصرة، لادينية المستقبل...

4- Guyau , L'irréligion de l'avenir (étude sociologique), 1887, p 1-3

5 - سلفان بريسيه : (Sylvain Périssé) فرنسي، من أعماله كتاب العلم والدين عبر القرون، مؤتمر حول البرونزية، المراجل البخارية...

6 - نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 35-36 .

المطلب الثالث : مفهوم الدين عند علماء الاجتماع وعلماء النفس

إن دراسة علم الاجتماع للدين وسعيه لفهم الظاهرة الدينية أصبحت من الجهود العلمية ذات الشأن، حيث ذهب العديد من علماء الاجتماع، إلى اعتبار الدين ظاهرة اجتماعية، بل كان الدين نقطة محورية في فكر معظمهم، مما أدى إلى بزوغ (علم الاجتماع الديني)، وكذا الأمر بالنسبة لعلماء التحليل النفسي، ولعل أهمية وضع تعريف للدين هو أول ما استرعى اهتمام هؤلاء، فخاضوا كما خاض غيرهم في السعي لتعريف الدين والإحاطة بالظاهرة الدينية، ويكفينا هنا أن نستعرض تعريفات لأهم رواد هذا المجال .

فهذا العلاّمة (ابن خلدون) (1332- 1406م)[1]؛كرائد لعلم العمران (علم الاجتماع) بإجماع العرب والغرب، وواضع أسسه بلا منازع، يتحدث عن الأثر الكبير للدين في تقوية الدولة وتزويدها بقوة إضافية إلى جانب القوة التي تولدها العصبية، بما يؤدي إليه من استئصال للتطلعات الشريرة ومشاعر الغيرة المتبادلة، وخلق مشاعر التضامن وتحقيق وحدة الصف [2]، قائلا : "إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء، لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم، وهم مستميتون عليه..."[3].

1 - ابن خلدون (1332- 1406م) : اسمه عبد الرحمن بن محمد بن حمد ابن خلدون أبو زيد ولي الدين الحضرمي الاشبيلي، فيلسوف ومؤرخ عربي أندلسي، تونسي المولد، عاش بعد تخرجه من جامع الزيتونة في مختلف مدن شمال إفريقيا، وقد حاز ابن خلدون على تقدير الغرب بسبب فلسفته وقدرته على ترجمة التاريخ الإسلامي وقدرته على توثيقه، فهو مؤسس علم فلسفة التاريخ، ويعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث، وأبا للتاريخ والاقتصاد، وكان له إسهامات عديدة في علم التربية، له مصنفات في التاريخ والحساب والمنطق غير أن له مؤلفا هو من أهم مؤلفات الفكر الإنساني : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وهو يقع في سبعة مجلدات وأولها المقدمة وهي المشهورة بمقدمة ابن خلدون الذي ألفه في عام 1377 ويتناول فيه كل ما يتعلق بالشريعة والتاريخ والاقتصاد والاجتماع والسياسة والطب والعمران ، وتطور الشعوب (ينظر جورج طرابيشي، ابن خلدون، مصدر سابق، ص21).

2 - صلاح الدين بسيوني رسلان، السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، WWW .Kotobàrabia.comص 8 .

3 - ابن خلدون، المقدمة، بيروت : دار الفكر، 1431ه، 2001م، ص198 .

فالاجتماع الديني عند (ابن خلدون) يضعف قوة العصبية، ويقضي على عوامل الصراع بعد أن يجمع الناس تحت لواء عقائده، ويؤلف بينهم تحت كنف الإله والأنبياء والمرسلين [1] وبالنظر لما قاله فإننا نرى أنه يركز على ما يحققه الدين من لحمة بين الأفراد، ليرتقي بهم إلى مفهوم الجماعة، ثم ليكونوا دولة ذات قوة ومنعة، فلابن خلدون نظرة ثاقبة لمفهوم الدين، فهو لا يتوقف على ما يعقد عليه المرء قلبه، أو لما يزاوله من أعمال وعبادات فحسب، بل هو أصل لنشأة الدولة وأساس قيامها، وشرط ضروري لها .

فهذا العالم الفرنسي (أوجست كونت) (1798- 1851م) (Auguste Comte) 2 الذي عُدّ مؤسس علم الاجتماع الغربي وزعيم الفلسفة الوضعية الغربية، يرى من خلال فلسفته أن قوانين العلم التجريبي تغني عن الإيمان بالله إذ يقول : "إن الاعتقاد في ذوات عاقلة أو إرادات عليا لم يكن إلا تصورا يخفي وراءه جهلنا بالأسباب الطبيعية، وأن العالم الطبيعي لا يُبقي فراغا يسده الاعتقاد بوجود إله، ولا يُبقى سببا يدفعنا إلى الإيمان" [3]... وانتهى (كونت) إلى رفض الدين كلية، ولكن سرعان ما نجده يتناقض مع نفسه، ويقر بضرورة الدين الجوهرية للمجتمع لما يوفره من استقرار وتوازن للمجتمع وتماسكه فيقول بأن الدين هو"خاصية الجنس البشري" ، ليقوم بوضع دين جديد أسماه (دين الإنسانية) ..![4] وانطلاقا من فلسفته الوضعية؛ جعل الدين الوضعي أو عبادة الإنسانية أساسا في قيام المجتمع الإنساني، فصارت كلمة دين عنده لا تعني إلا اتحاد الأفراد في الحب والانسجام التام بين العقل والقلب والدين، فحلت فكرة الإنسانية بديلا للإله، فهي أعظم ما يستحق التقدير والعبادة، والإنسانية الوضعية هي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور الفكر البشري بعد المرحلة اللاهوتية والميتافيزيقية5 .

---

[1] – صلاح الدين بسيوني رسلان، السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، 35- 38، ص95.

2- أوجست كونت (1798- 1857م)، عالم اجتماع وفيلسوف فرنسي، أعطى الاسم المعروف لعلم الاجتماع، ويعد مؤسس الفلسفة الوضعية، يعتبر تلميذا للفيلسوف الفرنسي سان سيمون، أهم مؤلفاته : محاضرات في الفلسفة الوضعية، و نظام في السياسة الوضعية (ينظر روني إيليا ألفا، موسوعة أعلام الفلسفة، ط1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1992م، ج2، ص301- 302) .

[3] – محمود مزروعة، مذاهب فكرية معاصرة (عرض ونقد)، ط1، 2004م، 231-255 .

[4] – المصدر نفسه، ص231 .

[5]– ينظر المصدر نفسه، ص 231–255 وينظر مصطفى الخشاب، أوجست كونت، ط 1، مطبعة لجان البيان العربي، ص 140، 145.

فالدين حسب (أوجست كونت) لا يشكل إلا مرحلة من مراحل همجية الفكر البشري التي يجب تخطيها، ولا شك أن نظرة (أوجست كونت) هذه؛ هي وليدة مجتمع ساد فيه الإلحاد والمادية ، فمن خلال نظرته الإلحادية رفض (كونت) الدين بداية ثم لجأ إلى وضع دين جديد يوافق وضعيته المادية؛ فجعل الإنسانية هي المعبود الأعظم، متجاهلا كل غيبي و لم يؤمن إلا بما تثبته العلوم التجريبية .

ولدى اكتشاف (إيميل دوركايم) (Emile Durkheim) (1858- 1917 م) 1 لدور الدين، من خلال ما يلعبه في حياة ومواقف وسلوك الأفراد والجماعات ، ولذلك نجده سنة 1912، يكتب بحثا هاما حول الموضوع، عنونه بـــ Les formes élémentaires de la vie religieuse الأشكال الأولى للحياة الدينية) يعرف فيه الدين بقوله في كتابه ذاك : "هو نظام متسق من المعتقدات والممارسات التي تدور حول موضوعات مقدسة، يجري عزلها عن الوسط الدنيوي، وتحاط بشتى أنواع التحريم، وهذه المعتقدات والممارسات تجمع كل المؤمنين والعاملين بها في وحدة معنوية تدعى كنيسة" [2] ويقلل (دوركايم) في هذا التعريف من شأن المعبود و فكرة الإله، أو فكرة الخالق بالنسبة للدين، حيث لم يقل بطبيعة الأشياء المقدسة، وعوضها بكل ما هو مقدس، كما أن فكرة المقدس عنده ترتبط أساسا بجانب التورُّعات والمحرمات، كما أن تأثر (دوركايم) بالمسيحية واضح وجلي في التعريف، فالدين عنده هو الشكل المنظم، والمؤسساتي للمقدس .

وبقول مشابه يعرف (سالمون ريناك) (Salamon Reinack) (1858- 1932م)3 الدين في كتابه (العلم والديانات) بأنه :"مجموعة من التورُّعات التي تقف أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا"[4]فهو لا يرى من الدين إلا مجموعة قيود ومحرمات، و قد رأى البعض أنه تعريف هو للكفر أقرب منه

---

[1]- إيميل دوركايم (1858- 1917) فيلسوف فرنسي، يهودي الديانة، و يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، أبرز آثاره : في تقسيم العمل، وقواعد المنهج السوسيولوجي... (مجموعة من العلماء، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، بيروت : دار الطليعة، 1983م، ص183) .

2- Emile Durkheim, les Formes elementaires de la vie reigieuse, paris : lespresses de France, 1968, p 65

[3]- سالمون ريناك : (Salomon Reinach) (1858-1932م) عالم الآثار الفرنسي، من أعماله : أبولو والدليل المصور لتاريخ الفن عبر العصور 1907م، التاريخ العام للأديان 1909م، لمحة تاريخية موجزة للمسيحية1922م، الطوائف والأساطير والأديان..

(Ève Gran-Aymerich, in Dictionnaire biographique d'archéologie (Reinach Salomon), paris CNRS Éditions, 2001, p568- 570)

4- Salamomon Reinack, Orpheus hestoire Grenerale des religion, paris : alcidepicard, editeur, 1902, p 4

للإيمان، فقد حذف سالمون فكرة الإله، أو الخالق من الدين، بل وجعل من الدين قيودا مفروضة على الإنسان مما يوحي بضرورة التخلي عنه، كما لا نفهم من وجهة نظر (ريناك) من الذي فرض هذه القيود، أهو الإنسان نفسه أم أن قوى أخرى علوية هي من فرضت هذه القيود 1 .

ورغم أن (ريناك ودوركايم) لا يعالجان الدين إلا من خلال وظيفة واحدة ألا وهي وظيفة الردع والجزر، إلا أنهما بهذا يكشفان لنا عن وظيفة أخرى من أهم وظائفه وهي ضبط تصرفات المتدينين، فالدين حسبهما بمثابة شرطي الضبط ، وله دور في إنتاج المعايير الجماعية والوعي الاجتماعي، ملم يضمن ويحقق الاندماج الاجتماعي ، إلا أن أهم ما يؤاخذان عليه هو تجريد الدين من فكرة الإله، فهما بهذا يساويان بين الأديان والمذاهب الفكرية والفلسفية المختلفة .

ذهب (دوركايم) ومن شاكله إلى إبعاد أصل فكرة الألوهية بكل معانيها من تعريف الدين، محتجين بذلك بأن هناك في الشرق أديانا كالبوذية والجينية ... قد خلت من فكرة الإله، ورأوا أن فكرة تأليه (بوذا) و(جينا) إنما هي فكرة دخيلة على الدين الأصلي القديم، إلا أن الأمر الذي أثبته مؤرخو الأديان، أن الأديان التي ذكرت لم تنكر وجود الآلهة الهندية المسماة "أندرا" و"أجني" ...كما أن لها نظريتها الخاصة حول مصير الإنسان وعن الحياة وآلامها، وأما الأمر الذي اختلف فيه فيعود لكونها آلهة تعبد أم لا، وأغلب الظن أن الديانات المذكورة لم تستحق أن تدرج في جدول الأديان، إلا منذ دخلتها فكرة التأليه، أو على اعتبار أنها كذلك منذ البداية[2] .

أما (ماكس فيبر) (Max Weber) (1864- 1920م)3 فإن معظم ما قام به من دراسات اجتماعية وتحليلات فلسفية، هي بشكل مباشر أو غير مباشر اشتغال نقدي حول معنى الدين، ووظيفته في حياة الأفراد أو الأمم، وذلك لكون تحديد مفهوم الدين، يتبوأ مكانة أساسية وجوهرية في الإشكالية العامة التي اتخذها (ماكس فيبر) منطلقا لإنجاز دراساته الاجتماعية والفلسفية، فرغم أنه من أشهر فلاسفة عصر التنوير والعقلانية إلا أننا نجده من خلال كتابه (الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية) ينحاز لدور الدين، وقد عد البعض كتابه هذا من الدراسات التي يمكن أن تدخل ضمن

---

[1]- محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص 25.

[2] - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص39- 40 .

3- ماكس فيبر : (Maximilian Carl Emil Weber) ألماني عالم في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة ومؤسسات الدولة، وهو من أتى بتعريف البيروقراطية، ومن أشهر أعماله كتابه : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، وكذلك : السياسة كمهنة ..(ينظر الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة، 1999م، ج14، ص847، وينظر لوران فلوري، ماكس فيبر، تر : محمد علي مقلد، ط1، دار الكتب الجديدة المتحدة، 2008م)

علم الاجتماع الديني، وينطلق (فيبر) في فهمه للدين من اعتقاده أ ن السلوك الديني هو الذي ينظم العلاقة بين الوجود الإنساني وبين القوى فوق الطبيعية، ويتكز مفهوم الدين عند (فيبر) على التمييز بين نوعين من أنواع فهم الدين : الفولكلوري من جهة، و العقلاني الأخلاقي من جهة ثانية، والذي يركز عليه في الحداثة الدينية هو العقلاني البروتستانتي ... ثم هناك بعض المفاهيم الجزئية والفرعية لتشكل المفهوم العام للدين كمفهوم الروح والإحيائية وغيرهما، وأخيرا لا يجد (ماكس فيبر) غضاضة في إضفاء صفة العقلانية على الدين في صبغته البروتستانتية مجنبا نفسه الحكم على التجربة الدينية بحكم عام هو الوثوقية والرضا الانفعالي .

أما عن علماء التحليل النفسي فنجد (فرويد) (Sigmund freud)(1856- 1939م)[1] له موقف خاص من الدين حيث يقول في كتابه (مستقبل وهم) : " إن الأفكار الدينية تنبع من نفس الحاجة التي تنبع منها سائر فتوحات الحضارة ومنجزاتها : ضرورة الدفاع عن النفس ضد تفوق الطبيعة الساحق، وإلى ذلك يضاف دافع ثان هو الرغبة الملحة الآسرة في تصحيح نواقض الثقافة، تلك النواقض التي تترك وقعا أليما في النفس" [2]، فالدين دفاع عن النفس ضد القوى الداخلية والخارجية، ويقول : "الأفكار الدينية معتقدات، توكيدات تتعلق بوقائع العالم الخارجي أو الداخلي، وعلاقاته، وهذه المعتقدات تعلمنا أشياء لم نكتشفها بأنفسنا وتتطلب من جانبنا فعل إيمان"[3] .

فالدين حسب (فرويد) ينبع من عجز الإنسان في مواجهة قوى الطبيعة في الخارج وقوى الغريزة في الداخل بغرض الدفاع عن نفسه والشعور بالأمان، بل إنه يذهب إلى أكثر من ذلك بقوله : " فهذه الأفكار التي تطرح نفسها على أنها معتقدات ليست خلاصة التجربة أو التبعية النهائية للتأمل والتفكير، وإنما هي توهمات وتحقيق لأقدم رغبات البشرية وأقواها وأشدها إلحاحا، وسر قوتها هو قوة هذه الرغبات"[4]. فعلى هذا فالدين مجرد انعكاس نفسي يجسد تجارب الإنسان، فحيث أن الدين نشأ في المراحل المبكرة لتطور الإنسانية حين كان الإنسان عاجزا عن استخدام عقله تجاه القوى الداخلية والخارجية، فلجأ إلى الدين وقوى خارجية يتوهمها، كما يلجأ الطفل لأبيه متوهما حكمته وقوته

---

[1]- سيغموند شلومو فرويد : (1856- 1939م) طبيب الأعصاب النمساوي، ذي الأصل اليهودي، والذي أسس مدرسة التحليل النفسي وعلم النفس الحديث، من مؤلفاته مستقبل وهم، قلق في الحضارة، موسى والتوحيد، السلوك ..(ينظر مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق، ج14، 498) وينظر (Freud, Cinq leçons sur la psychanalyse, Paris, Payot, 1965, p. 34-35)

2 - سيغموند فرويد، مستقبل وهم، تر: جورج طرايشي، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1973م، ص 30 .

[3]- المصدر نفسه، ص40 .

[4]- المصدر نفسه، ص 41 .

وتوهمه ملاذا له أمام عجز الطفولة، وظل الإنسان يعود إلى مرحلة الدين كما يعود الإنسان إلى طفولته، وهو يسعى لإرضاء تلك القوى كما كان يسعى لإرضاء أبيه واجتناب نواهيه، فما الدين إلا تكرار لتجربة الطفل النفسية، وعلى هذا فالدين حسب (فرويد) مجرد وهم لا وجود له في الواقع.

وبمثل ذلك يؤكد (إريك فروم) (Erich Fromm) (1900-1980م)[1] من خلال كتابه (الدين والتحليل النفسي) على أن الدين هو إجابة عن أسئلة وجودية مقلقة لا بوصفها فعلا من أفعال الإيمان، بل للهرب من شك لا سبيل إلى احتماله، فالفرد لا يتخذ هذا القرار تعبدا بل بحثا عن الأمن والاطمئنان. وانطلاقا من هذه الآراء لـــ(فروم) يتضح أن الإيمان هو بحث عن الاطمئنان والسكينة النفسية .

أما تعريف (يونج) (Carl Gustuf Jung) (1875-1961م)[2] فيأتي مشتركا بينه وبين كثير من اللاهوتيين، ويمكن تلخيصه في أن جوهر التجربة الدينية هو الخضوع لقوى أعلى من أنفسنا فيقول : "الدين هو الملاحظة الدقيقة المتحوطة لما أسماه (رودلوف أوتو) ببراعة : الخارق للطبيعة، أي وجود دينامي أو لا أثر يسببه فعل جزائي من أفعال الإرادة، بل على العكس هذا الوجود يمسك ويتحكم في الذات الإنسانية، وهي دائما ضحيته أكثر من أن تكون خالقة له"[3]. فالدين -حسب (يونج) — طابع انفعالي غير عقلاني يجد المرء نفسه تحت سلطان هذا الإحساس الديني، فهو واقعة نفسانية، لا تنشأ عن إرادة أو تصميم مسبق بل على العكس هو غير قادر على توجيهه أو التحكم به[4] .

---

[1] - إريك فروم : (Erich Fromm) (1900-1980م) عالم نفس وفيلسوف إنساني ألماني أمريكي، من أعماله : الهروب من الحرية1941م، التحليل النفسي والدين 1950م، اللغة المنسية1951م ...
(Funk Rainer. Erich Fromm: His Life and Ideas, Translators Ian Portman, Manuela Kunkel. New York: Continuum International, 2003, p13)

2- كارل جوستاف يونج : (1875- 1961م)، عالم نفس سويسري، ومؤسس علم النفس التحليلي، من أوائل طلاب فرويد، استخدم مصطلح الليبيدو(وقصد به طاقة الدوافع الكلية النفسية)، وله نظريته في اللاشعور الفردي والجمعي (الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق، ج22، ص659).

3 - يونغ، الدين في ضوء علم النفس، تر: نهاد خياطة، دمشق، 1988م، ص27 .

4 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص31 .

وقريبا من ذلك نجد تعريف (وليم جيمس) (William James)(1842- 1910م)[1] الفيلسوف والسيكولوجي الأمريكي، للدين بأنه : "الأحاسيس والخبرات التي تعرض للأفراد في عزلتهم، وما يقود إليه من تصرفات، وتتعلق هذه الأحاسيس والخبرات بنوع من العلاقة يشعر الفرد بقيامها بينه وبين ما يعتبره إلهيا"[2].

وبالنظر إلى التعريفات المنسوبة لعلماء التحليل النفسي، نجد عموما أنها تستخف بالدين وبفكرة الإلهية، ولا ترى وجودا للدين إلا في أذهان ومخيلة البشر ! أو على أقل تقدير أنه تجربة فردية لا عقلانية لا سبيل لملاحظتها من الخارج . فالدين إثر ذلك نتيجة التناقضات النفسية التي تضطر الإنسان لأن يصدق بالدين وبالإله، أو أنه هو ذاته الإحساس الذي يخضع الإنسان له اضطرارا وكرها، ورغم ذلك فإن هذه التعريفات ليست إلا توكيدا واعترافا بالخضوع الديني، والشعور بالتبعية الكامن في أسرار النفس الإنسانية .

هكذا نكون قد عرضنا لمفهوم الدين لدى علماء وفلاسفة ولاهوتيي الغرب، إضافة إلى علماء الاجتماع والأنتربولوجيا وكذا علم النفس، والذي يظهر من الاختلاف الواسع في وجهات النظر إلى الدين والتباين في زوايا الدراسة فهو أمر يبدو متوقعا، شأن الدين في ذلك هو شأن سائر الظواهر الإنسانية الحيوية عامة، التي يختلف تعريفها ويتعدد باختلاف الناظر وتعدد زوايا النظر، فهي بذلك تتطلب منظارا شموليا للكشف عن ماهيتها بكل موضوعية ودقة .

وأهم ما نستنبطه من هذه التعريفات :

1- إن هذه التعريفات ليست بتعريفات جامعة ولا مانعة؛ إذ هي لم تضع أي شرط رئيسي يمنع من انضواء غير الأديان تحتها، كما أنها لم تجمع جلّ الأديان تحتها ؛ فلم تشملها بالوصف ، وربما رجع ذلك إلى عدم الاعتماد على الاستقراء الشامل للأديان ، وفي المقابل نجد من هذه التعريفات من ضيق من دائرة الدين تضييقا شديدا، حتى عدَّه أمر صعب المنال ولا يمكن تصوره إلا من قبل العلماء

---

1 - ويليم جيمس : (1842- 1910م) فيلسوف أمريكي، ومن رواد علم النفس الحديث، وهو فيلسوف الحرية له كتبا في علم النفس الحديث وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الديني والتصوف، والفلسفة البراغماتية .. الحرية، من ذلك : الإرادة، الاعتقاد، مبادئ علم النفس، البراغماتية ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص266)

2- William James, the varieties of religion experience, the library of America Longmans, Gream &Co, 1902,p21

والفلاسفة الأفذاذ، مثال ذلك تعريف (سبنسر) وتعريف (ماكس موللر(فاللانهائية الواردة إذ ذاك يخرج بها غالبية المشبهة والمجسمة من الأديان ...

2- إن ما تجتمع عليه تلك التعريفات رغم اختلافها أنها تتضمن دائما فكرة الغيب الذي تخضع له القلوب ولا تدركه العيون، فكل الأديان تقر ضمنا أو صراحة بالتوجه والاعتراف لذات غيبية هي علة الوجود ومصدر الحوادث كلها، ينسب لها الإنسان التدبير والاختيار وكذا القوة والقدرة، وتستوجب ألوان التنزيه والعبادة والتقديس، ويعبر عن تلك القوة أحيانا بالإله، أو آلهة شتى، أو اللانهائي، أو المطلق، أو الخارق للطبيعة، وما وراء الطبيعة ... ولعل ذلك نتيجة التفكير في مبدأ الإنسان ومصيره، والبحث في علل الظواهر والكائنات ومآلها، الأمر الذي ارتأت الأديان جميعها للإجابة عنه حقا أو باطلا .

وأما وصفنا للقوة المقدسة بالذات فهو لتمييزها وفصلها عن سائر ما يقدسه البشر ويُخضع له من المعاني* أو القوانين**، أو غيرها من التصورات المبهمة والأفكار المجردة، فالمتدين يهدف بتقديسه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان، وإن عبرت عنها الأذهان فهي تشير إلى ذات مستقلة، قائمة بنفسها، ليست مجرد عرض من الأعراض أو لقب من الألقاب[1] .

3- كما نجد أن هذه التعريفات في معظمها تغلّب جانبا على آخر؛ فمن مؤيد للعقل والمعرفة، ومن منوه بالأخلاق، ومن مشيد بالجانب الروحي والعقدي من الدين على حساب جانب آخر نلمح ذلك جليا في تعريف (هيجل) حين غلب المعرفة والروح على جانب العبادة والسلوك، ومن اعتداد (كانت) بالأخلاق، ويبلغ الأمر مداه حين يغيب في التعريف جزء لا مناص منه في تعريف الدين؛ الأمر الذي نجده مع (ريناك) و(دوركايم) حين ألغيا مفهوم الألوهية من الدين !

4- كما أن من هذه التعريفات ما يقدّس الدين ويقر بحقيقة تواجده كظاهرة، ومنها ما ينكره ويستخف به ويقلل من شأنه، والسبب في هذا وذاك إنما يعود إلى : التأثر الواضح لهؤلاء؛ كل بدينه أو لما عايشه من أديان إما مسايرة أو رفضا ونقدا لواقعه، فغالب التعاريف جاءت متأثرة بالديانة المسيحية وبعضها باليهودية، أو في المقابل مناهضا للمسيحية مما يأتي موافقا لمبادئ الإلحاد والمذاهب الفكرية الغربية السائدة، أو أي شكل من أشكال التعصب الديني أو الإيديولوجي- كما رأينا- بل وحتى النظريات والمناهج الدينية والفلسفية، أو القانونية أو السياسية أو الاجتماعية، وكذا الاعتداد

* - المعاني : كتقديسنا لمعنى الشرف، والعرض والحرية، والكرامة ...

** - القوانين : ما نخضع له من قوانين الكون وسننه الثابتة .

1 - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 40 .

بالعلم أو العقل ... نوجز ذلك في قول (ماكسيم رودنسون)[1](1915- 2004م) :"بأن الغربيين ميَّالون بطبعهم إلى الحكم على جميع الأديان بحسب النموذج الذي اعتادوا على استعماله، وهو النموذج المسيحي"[2] .

5- تنوعت التعريفات عند العلماء تبعا لتوجهاتهم ورؤاهم ومنحاهم الفكري، فبعضهم عدّه ظاهرة نابعة من ذات الإنسان ونفسه، والآخر رآه ظاهرة اجتماعية نابعة من صميم المجتمع فجرده من المعاني الغيبية... وعلى العموم فإننا نلمح من خلال التعريفات السابقة ثلاث اتجاهات هامة كانت كامنة وراء تلك الرؤى والتعريفات للدين :

- الاتجاه اللاهوتي أو الروحي : وهو الأغلب، والذي يفسر الدين على أنه خضوع وطاعة لقوى عليا، سواء كانت آلهة أو أرواح أو كل ما هو لاهوتي ولا محدود .

- الاتجاه الاجتماعي السوسيولوجي : ويذهب إلى تعريف الدين على أساس الطابع الاجتماعي القائم على اتحاد واتفاق الأفراد على شعائر وطقوس وممارسات منظمة يتجهون بها إلى جهة عليا، وأوضح مثال لهذا تلك التعريفات التي يميل أصحابها إلى تكريس الواجبات والأخلاق والعلاقات بين الأفراد كأساسيات للدين، وتنظر للمجتمع على أنه مؤسسة اجتماعية ودينية، ومن ذلك (إيمانويل كانط) و(أوجست كونت) ...

- الاتجاه النفسي : وهي تلك التي تنطلق من متطلبات وحاجات الإنسان النفسية والغريزية كالخوف من المجهول والقوى الخارجية أو حتى رغباته الكامنة في اللاشعور... فترى أن الدين انعكاس لحياة الإنسان النفسية .

6- كما أن ما يلاحظ على هذه التعريفات أنها تتدرج في المستوى الذي ينبثق منه الدين ويؤثر من خلاله؛ فهناك :

- من التعريفات التي نجدها تقف بالدين عند مستوى الشعور الديني، فيأت تعريف الدين على ذلك بمعنى الخضوع الوجداني وإيقاع للنبض الداخلي للإنسان، فتنظر للدين باعتباره إحساسا محتوما مكنونا داخل النفس البشرية . وأمثال من ذهب إلى ذلك (ماكس موللر) و(ماكس رافيل)، (شلير

---

[1] - ماكسيم رودنسون : (Maxime Rodinsone,) (1915-2004م) المستشرق والمؤرخ وعالم الاجتماع الفرنسي، ينحدر من عائلة يهودية، نال عدة شهادات منها شهادته في اللغات الشرقية، وأخرى في علم الاجتماع، والدكتوراه في الأدب، اهتم بتاريخ الأديان وخصوصا بالدين الإسلامي، ومن مؤلفاته : سحر الإسلام، الماركسية والعالم، الإسلام سياسة وإيمان... (مجموعة من العلماء والباحثين، الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق، ج10، ص49)

2- Maxime Rodinsone, Lislam Poliique et croyance, librairie artleme fayard, 1993, p30

ماخير)، (هربرت سبنسر)... و(كانط) الذي يلخص رأي هؤلاء بقوله: " إنه لا ينبغي لنا البحث عن الدين خارجا عنا، بل في داخلنا" [1] فيمكن التعبير عن هذا المستوى بالمستوى الأساسي القاعدي؛ الذي لا مجال للإنسان أن يداريه .

– وبعد أن كان الدين مجرد إحساس وشعور مشتّت، وغريزة مكنونة تتأجج داخل الوجدان، نجده يتبلور إلى اعتقاد راسخ يخالط قلب المرء وعقله، يتمسك به مقتنعا بضرورته فيظهر على شكل قناعات فكرية وعقائد واضحة، جاهزة ربما للإفصاح عنها، ويتأتى ذلك من خلال الفهم والتفكر والتدبر أو من خلال المحاكاة والتقليد لا غير . ويظهر مثل ذلك في تعريف ميشيل مايير..

– ثم نجد من يصل بالدين إلى المستوى العملي التطبيقي للأحاسيس الشعورية والأفكار المعتقدة، وظهر ذلك في الشعائر الدينية والممارسات الطقوسية والأنماط السلوكية، وقد كان هذا المستوى محط العديد من الدارسين لماهية الدين؛ الأمر الذي يلاحظ من خلال تعريف (شاتل)، (إيميل برنوف)، و(ريفل)، وعند هذا المستوى يظهر الدين باعتباره ظاهرة اجتماعية، فالمستوى العملي هو المظهر الخارجي للدين ولباسه المادي الملموس الذي يمكن من دراسته ومعاينته .

ورغم أن الدين لا يظهر إلا عند الممارسة الفردية أو الجماعية، إلا أن دراسة الدين باعتباره ظاهرة اجتماعية صرفة هو في الحقيقة مجازفة في حق الدين ذاته، فرغم أنه لا يمكن تصور الدين إلا من خلال الممارسة السلوكية، فالحق أن الشعائر والطقوس المجردة هي ليست من الدين في شيء، فكذلك المشاعر والعقائد التي لا تحوطها السلوكات والأفعال هي غرائز وأفكار مهددة بالتلاشي والأفول. وذلك لتداخل جوانب الدين وتعددها، فهو قد يكون ظاهرة نفسية، أو يشكل ظاهرة فلسفية فكرية ... وعلى هذا نجد من المنظرين من يجمع بين مستويين أو أكثر في تعريف الدين، ومثل ذلك فعل (رافيل) حين جمع بين المستوى الشعوري والمستوى السلوكي، كما جمع (فريزر) بين المستوى الاعتقادي والمستوى التطبيقي ورأى (دوركايم) أن الدين نظام من المعتقدات والممارسات ...

وعلى هذا يمكن القول إن التعريفات الغربية للدين ليست جامعة ولا مانعة، بل هي تعريفات قاصرة وغير محيطة ومتحيزة .

وإذا كان الأمر على هذا النحو من العوز والقصور والاختلاف والتحيز للأديان بالنسبة لغالبية تعريفات العلماء والفلاسفة فإنه ومن خلال التفرس في تلك التعريفات التي أسردناها سواء الإسلامية منها والغربية، وسيّان بين تلك التي نسبت للفلاسفة أو علماء الاجتماع أو علماء النفس... يمكننا أن نستنبط من مجموعها العناصر الرئيسة التي يتكون منها الدين، علنا نركب منها حدا متكاملا لمفهوم الدين، تلك العناصر التي رأينا أنها قد تجتمع جلّها أو بعضها في تعريف دون آخر، كما قد يركز

[1] – إبراهيم زكريا، كانط أو الفلسفة النقدية، القاهرة : مكتبة مصر، 1972م، ص218 .

الباحث في الظاهرة الدينية على جانب ويهمل آخر، وباستقصاء التعريفات يمكننا أن نحصي عناصر الدين التالية، ونصل إلى الجدول الآتي :

العنصر	المصطلح أو ما يشير إليه في التعريف
1- عنصر الاعتقاد	-الاعتقاد في الضمير والسر، العقائد والوصايا، نواميس، معتقدات، توكيدات، إدراكات -الاعتقاد، الإيمان، عقائد معلنة، الاهتمام، الوعي، كدح من أجل التصور، الاعتراف...
2- عنصر الذات الغيبية	-الله، إله، آلهة، الخالق، المطلق، حق في ذاته، إرادات عليا -ما هو أسمى من الإنسان، قوى أعلى من الإنسان، قوى خارجة عن أنفسنا -الكائنات الروحية (الأرواح، العفاريت، الجن...)، قوى روحية، قوى روح خفية غير إنسانية، ذوات عاقلة، مشيئات أخرى، الخارق للطبيعة، الغامض والعصي على الفهم . -اللانهائي، ما لا يمكن تصوره، النهائي، وحدة الوجود...
3- عنصر العمل التطبيقي	-العبادة، الطاعة، الأحكام، الأعمال، واجبات، تدين، القول والعمل، قواعد ممارسة، نظام من الممارسات، السلوك -عبادات مقدسة، الشعائر، الشعيرة، طقوس، الذبائح والتقدمات
4- عنصر الصلة والرباط والعلاقة	-الحب لله وطاعته، التعبد، خضوع وتمجيد، تسليم، إنعطاف محبة، الرباط الذي يصل بالله، العلاقة بين المطلق والمحدود، تحديد علاقة الفرد بالمطلق، الشعور بالصلة، العلاقة -الاتصال بقوة روحية، محاولة التأثير والاستمالة، محاولة استرضاء، وطلب عون
5- عنصر التقديس	-إصطفاه ، الرتبة العليا، الجانب المثالي -المقدس الكلي، موضوعات مقدسة، أوامر إلهية، تورعات
6- عنصر الشعور الديني	-إحساس أولاني، الأحاسيس والخبرات، السيكولوجيا، حالة الإحساس بالاعتماد والتبعية -شعور، الشعور الديني، تصديق وجداني، شعور بالحاجة والتبعية، الشعور بتبعات
7- عنصر الغاية	-حب الله، الخير الذاتي، الصلاح في الحال و الفلاح في المآل، الرقي الأخلاقي -الإجابة عن الأسئلة الوجودية، الهرب من الشك -تحقيق لأقدم الرغبات النفسية
8- عنصر الجماعة	-الملة، الديانة، كنيسة، المؤمنين والعاملين، أصحاب العقول

	-الجماعة، الجماعة العالمية، الجماعة الإنسانية، تجمع الأمة، أصحاب العقول
9- عنصر المصدرية	-وضع إلهي، منسوب إلى الله -أساسه الوجدان والعقل، انعكاس نفسي
10- عنصر الواسطة	-البلاغ، الرسول صلى الله عليه وسلم، على لسان واحد منهم، الرسول

وباستثناء العناصر التي تعبر عن نمط مخصوص من الأديان كعنصر الواسطة والغاية والمصدرية بالنسبة للإسلام مثلا، وكذا عنصر الملة والجماعة كما في المسيحية، فإننا نصل إلى أغلب العناصر التي صاغ الباحثون على أساسها تعريفاتهم تكون مجتمعة كالآتي :

1 - عنصر الاعتقاد 2- عنصر الذات الغيبية 3- عنصر العمل التطبيقي والممارسات

4- عنصر التقديس 5- عنصر الشعور الديني 6- عنصر الصلة والرباط والعلاقة

وبضم هذه العناصر إلى بعضها يتشكل لدينا **مفهوم الدين بأنه : الاعتقاد بذات غيبية، جديرة بالتقديس والعبادة، وهذا الاعتقاد أصيل في النفس الإنسانية وباعث على الخضوع و المناجاة،** أو كما عرفه (عبد الله دراز) في كتابه (الدين) "هو الإيمان بذات إلهية، جديرة بالطاعة والعبادة" قائلا إن "الدين هو الاعتقاد بوجود ذات أو ذوات غيبية علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد ا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد" ، هذا بالنظر إلى الدين من حيث هو حالة نفسية، أما من حيث هو حقيقة خارجية : "فهو جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات تلك القوة الإلهية، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادتها" [1] . فـ(عبد الله دراز) يعرف الدين من وجوه عدة، فأولا يعرفه من حيث كونه علاقة عقدية روحية بين مخلوق وخالق مدبر، ثم ينظر للدين من حيث هو حالة نفسية؛ فيراه علاقة إيمانية تبعث على الطاعة والعبادة، ثم يعرفه باعتباره حقيقة خارجة؛ فيراه نواميس وقوانين نظرية تحدد صفات القوة الإلهية وكذا تحدد كيفية التعبد لها.

وختام ما يقال هنا، أن ما ظهر لنا من الاختلاف الواسع في وجهات النظر إلى الدين ، والتباين في زوايا تعريف الدين لهو أمر يبدو متوقعا، شأن الدين في ذلك شأن سائر الظواهر الإنسانية الحيوية عامة، التي يختلف تعريفها ويتعدد باختلاف الناظر و بتعدد زوايا النظر، فهي بذلك تتطلب منظارا شموليا للكشف عن ماهيتها بكل موضوعية ودقة، الأمر الذي حمل كثيرين على القول بأن (عبد الله دراز) قد وفق إلى حد ما في إخراج تعريف شمولي للظاهرة الدينية .

[1] - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص52

الفصل الثاني

في نشأة الظاهرة الدينية

المبحث الأول : الاتجاهات الحديثة في منشأ الدين

المبحث الثاني : نقد الاتجاهات الحديثة في منشأ الدين

الفصل الثاني : في نشأة الظاهرة الدينية

إن مما أثبته التاريخ وعلم الآثار أنه كلما أوغل المرء في الماضي التاريخي للإنسان سواء في الأحقاب الزاهرة أو في المراحل البدائية لتطور الحضارات، وجد سطورا من الفكرة الدينية، ولقد أظهر علم الآثار دائما بقايا آثار خصصها الإنسان القديم لشعائره الدينية، ولقد سارت هندسة البناء جنبا إلى جنب مع الفكرة الدينية التي طبعت قوانين الإنسان بل علومه، فمن كهوف العبادة في العصر الحجري إلى عهد المعابد الفخمة، ولطالما ولدت الحضارات من رحم المعابد كمعبد سليمان أو الكعبة [1] .

وعلى هذا فدراسة تاريخ الأديان هي في الحقيقة دراسة لتاريخ الإنسان نفسه، وتفسير الحس الديني وتطوره قد خضع لنفس التطور الذي خضع له الإنسان في بداية تواجده وفي تطوره عبر مراحل حضارته المتتابعة والمختلفة، ومن هنا نشأت الديانات وكثرت منذ أن دبَّ الإنسان على ظهر الأرض، وظهر معه السحر والشعوذة والقرابين، وكذا الطقوس والعبادة، فكانت الأساطير والخرافات والخوف من الطبيعة والقوى الخفية، مما يزخر به تاريخ الإنسانية في الشرق والغرب، مما أدى إلى ظهور الديانات البشرية باختلافها وتنوعها.

ولقد اجتهد العلماء في تفسير الظاهرة الدينية وتحديد الصورة الأولى للدين وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وفي محاولة الكشف عن كيفية نشأة الدين في الأغوار السحيقة لتاريخ البشرية، وعن السر الكامن وراء تعدد الأديان، وتنوعها، وعن دوافع التدين إلى الآن... طرحت المناهج الحديثة مجموعة من النظريات التي بحثت في نشوء الدين، وقد تعددت وتفرعت النظريات، ويحسن التفصيل في هذه الاتجاهات والنظريات بالفحص والنقد وفق ما يلي :

---

1 - مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، ط 1، الجزائر: دار الوعي، 1434ه، 2013م، ص69 .

المبحث الأول : الاتجاهات الحديثة في منشأ الدين

يفهم من كلمة (منشأ) الدين هنا؛ الصورة التي ظهرت فيها الأديان أول ما ظهرت إلى الوجود، فالأولية هنا أولية زمانية مطلقة، تقترن بظهور الإنسان على هذا الكوكب [1]. ولتحديد أصول الديانات في نشأتها الأولى ظهرت النظريات وتعددت المذاهب وتشعبت منذ نهاية القرن الثامن عشر، وقد كان المنهج المتبع آنذاك هو التنقيب عن أديان الأمم القديمة أو أديان الأمم المعاصرة غير المتحضرة، على اعتبار أن الحياة الإنسانية الأولى استطاعت أن تحفظ صورا من حياتها في قبائل متعددة منتشرة في أستراليا وأمريكا وأفريقيا وآسيا [2]، وقد غلب على هذه النظريات التوجه الإنساني (نسبة للإنسان) الذي انضوى تحته عدد لا حصر له من النظريات، وهذه اتخذت منهجا تطوريا، كما أن هناك ما يقابلها من الاتجاه التأليهي (نسبة للإله)، وهذان الاتجاهان هما الشطر الرئيسي في دراسة نشأة الأديان، ويضاف إليه زمرة من النظريات الثانوية :

المطلب الأول : الاتجاه التطوري في منشأ الدين

وهو الاتجاه التقدمي التطوري في تاريخ الأديان، وأصحابه قد حلوا المشكلة في ضوء تحليل بارع لتطور الحياة الإنسانية نفسها من الأدنى إلى الأسمى، فكما أن التطور يسود الحياة البيولوجية للإنسان فإنه يسود أيضا حياته العقلية، إذ أن الكائن ينتقل طبقا لقانون التطور من ماهية أدنى إلى ماهية أسمى، فمن الأولى أن يتطور في حياته الفكرية، وأن تنتقل من طور إلى طور حتى تصل إلى كمالها النسبي، فما زال في مراتب الكمال المطلق درجات لم تصل الإنسانية إليها بعد، والدين عندهم ناحية من النواحي الإنسانية الفكرية، بدأ مع الإنسانية في سذاجتها وتطور معها في درج الحياة حتى وصل إلى كماله الحالي[3]. فأصحاب فلسفة التطور على اختلاف مشاربهم كانت لهم رؤية تفسيرية لنشأة الدين وتطوره ترتبط أكثر ما ترتبط بالأنتربولوجيا ودراسة تاريخ البشرية [4]، ومن أهم زعمائها (داروين)

---

[1] – عبد الله دراز، الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، مصدر سابق، ص114 .

[2] – ينظر المصدر نفسه، ص114، وينظر علي سامي النشار، نشأة الدين (النظريات التطورية والمؤلهة)، مصر: مكتبة الخانجي، 2005م، ص1 .

[3] – علي سامي النشار، نشأة الدين (النظريات التطورية والمؤلهة)، مصدر سابق، ص3 .

4- سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان، مصدر سابق، ص47 .

Charles Darwin(1809- 1882م)[1]، (جيمس فريزر)، و(إدوارد تايلور).. كما أسفر هذا الاتجاه عن عدة مدارس ونظريات مفسرة لأصل الدين نذكر أهمها :

أولا – النظرية الأرواحية (الأنتربولوجية) : هذه النظرية الحيوية قرَّرّها (تايلور) في كتابه الشهير (المدنية البدائية) (primivite culture) الصادر عام 1871م، إلا أن أكثر النظريات الأنتربولوجية قِدما هي نظرية الفيلسوف الأنجليزي (هربرت سبنسر) في كتابه (مبادئ علم الاجتماع)، حين رأى أن البشرية قد مرت في مراحلها الأولى بزمن لم تعرف خلاله الدين، ثم بدأ الدين بالتكون عندما أخذت الجماعات البشرية بتقديس أرواح زعمائها الراحلين، وتحولت أرواح هؤلاء الأسلاف المبجلين تدريجيا إلى آلهة، تمركز الدين حولها وابتدأ بها، وعلى هذا النحو أسس (سبنسر) نظريته في أصول الدين؛ والتي ترى بأن الدين عند الإنسان قد ابتدأ مع ظهور الآلهة[2] .

والمهم؛ فلقد ألهم أصحاب هذه النظرية الحيوية أو حيوية المادة أبحاثهم في الموت والأحلام عند البدائيين، فانتهوا إلى عبادة الأرواح والأسلاف، فخلصت لنا نظرية عُدَّت من أدق النظريات في الحياة الروحية البدائية . وليس المقصود بالروح هنا مبدأ الحياة الحيوانية أي تلك الروح التي تقوم عليها وظائف النمو والحس والحركة، بل المقصود نوع آخر أسمى هو مبدأ حياة التفكير والإرادة المنظمة، والعاطفة والضمير، وبالجملة مبدأ الحياة العاقلة الرفيعة، وكل أحد يستطيع التمييز بين هذين النوعين، ويدرك أن هذه الروح هو خاصة الإنسانية، ذو كيان مستقل عن ذلك الروح المشترك بين الإنسان والحيوان[3] .

ويقوم هذا المبدأ الحيوي على ثلاث نقاط : – نشأة فكرة النفس(الروح) الإنسانية – عبادة النفس الإنسانية (عبادة الأرواح الدينية) – عبادة الأرواح أصل عبادة الطبيعة .

1) فعن نشأة فكرة النفس الإنسانية : والمقصود ها هنا نشوء فكرة الروح عن ظاهرة الأحلام؛ إذ إن الإنسان البدائي يُرى في مكان لا يتواجد فيه حقيقة، وكذا رؤيته وتحدثه لأشخاص آخرين ربما

---

[1]– داروين : (Charles Robert Darwin) تشارلز روبرت داروين عالم تاريخ طبيعي بريطاني ولد في إنجلترا عام 1809 في شرو سبوري لعائلة إنجليزية علمية وتوفي في 1882، والده هو الدكتور روبرت وارنج داروين، وكان جده (ارازموس داروين) عالماً ومؤلفاً بدوره، اكتسب داروين شهرته كمؤسس لنظرية التطور 1838م، والتي يدور حولها معظم مؤلفاته ومن ذلك : أصل الأنواع، أصل الإنسان ... (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج9، ص141)

[2]– ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين)، ط 1، لبنان : الأهلية للنشر والتوزيع، 1998م، ص84، وينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص313، ص207 .

3– ينظر عبد الله دراز، الدين، ص128، وعلي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص 2 .

يكونوا قد فارقوا الحياة فعلا، ودفنهم بيديه، كل هذه التجارب المتكررة ألهمت البدائي أن الإنسان كائن مزدوج من (جسم وروح)، هذه الروح من السهل أن تنفصل عنه عند الموت ليصبح ملاكا طيبا أو شريرا [1]، كذلك حالات عدم الإدراك المؤقت بالإغماء والسكتة والنشوة، تؤكد بشكل أوضح افتراض مبدأ أن الحياة والشعور قد تترك الجسم مؤقتا[2].

فالأحلام هي أهم ما تعلقت به دهشة الإنسان الأول، فلقد بهت لهذه الأعاجيب التي يراها في نومه، وفزع فزعا شديدا حين شهد في رؤاه أشخاص أولئك الذين يعلم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة[3]. يقول (وول ديوانت)[4] في قصة الحضارة : "مثل هذه الأحداث التي كانت تصادف الإنسان البدائي في حياته، أقنعته بأن كل كائن حي له نفس أو حياة دفينة في جوفه، يمكن انفصالها عن الجسد إبان المرض والنوم والموت"[5].

فحسب (تايلور) فإن أقدم شكل للدين يقوم على الإيمان بوجود الأرواح والأشباح، وأن فكرة إزدواجية الإنسان إلى جسم وروح تكونت لدى الإنسان البدائي من خلال مراقبة الأحلام .

ومفاد النظرية الأرواحية :

–أن في الوجود كائنات عاقلة سواء أكانت في الأصل أرواحا إنسانية استقلت عن أبدانها أم كانت منذ بدايتها أرواحا مستقلة كالجن والملائكة، أم كانت أرواحا أعلى من ذلك أو أسمى.

–أن هذه الكائنات الغيبية المزودة بتلك القوى الخارقة قد تتصل بعالم النفس أو عالم الحس من الحياة الإنسانية، وتترك فيه أثرا من آثارها العجيبة، ومن هنا نشأت عقيدة التأليه، في مرحلتها الأولى معتمدة على تجربة الأحلام، والتفسير البدائي لها مستدلا بذلك على بقاء أرواح الموتى، إذ عد البدائي الحلم انتقالا حقيقيا لروح الشخص المرئي في المنام، فيرى حقيقة على شكل طيف[6].

---

[1] - Edward Tylor : Primivite Culture, V1, p529

2 - Harbert spencer : First principles, V1, p205 .

3- وول ديوانت، قصة الحضارة (نشأة الحضارة)، تر: زكي نجيب محمود، بيروت: دار الجيل، م 1، ج 1، ص100.

4- ويليام جيمس ديورانت : (1885م-1981م) فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب قصة الحضارة والذي شاركته زوجته أريل ديورانت في تأليفه، حصل على جوائز منها : وسام الحرية الرئاسي1977م ، وجائزة بوليتزر لكتاب غير خيالي عام 1968م(ول ديورانت، الموقع الرسمي للمكتبة الشاملة) .

5- وول ديوانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص 100 .

[6]- علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص 33- 36 .

وعلى غرار التفسير البدائي لظاهرة الأحلام، فإذا كانت أرواح الأموات تجيء إلى الرائي في المنام كما تجيء أرواح الأحياء، دلّ ذلك على بقاء أرواح الموتى واستمرار اتصالها بالأحياء وتمكنها من نفعهم وضرِّهم فاقتضى الأمر التقرُّب إليها لتجنب أذاها واستمرار عطفها[1].

2) نشأة فكرة عبادة أرواح الأسلاف : وهي المرحلة الثانية من مراحل نشأة العقيدة الإلهية، وهي تتمثل في عبادة أرواح الكواكب والعناصر الطبيعية، فنتيجة لما أوْلته النظرية الأرواحية من أهمية لعالم الأرواح، فإن الإنسان البدائي وجد نفسه أسيرا لهذا العالم الخيالي نظرا لما تمتلكه الروح بعد الموت من قدرة فائقة على التحكم في أمور عدة كالصحة والمرض، والخير والشر... ولذا فإنه من الحكمة التوفيق في استرضائها والتقرب لها بالذبائح والصلاة، فلهذا أسست القرابين والشعائر الدينية [2]. خصوصا وأن الأمر يتوقف على حجم الآثار التي ترجع للميت وخصوصا أجداد الميت وأسلافه ومن كان لهم شأن إبان حياتهم كالكهان والسحرة ...

فبالنسبة للنظرية الأرواحية فإن عبادة الأجداد هي أول عبادة عرفتها البشرية، فكانت طقوس الجنازة ثم العروض والقرابين والذبائح لتلبية حاجات الموتى، بل إن هذا المبدأ الحيوي الذي نسب للروح من شأنه أن يؤول في نهاية المطاف إلى تأليه للأجداد والموتى [3]. وفي عام 1851م نشر الفيلسوف البريطاني (هربرت سبنسر) مقالته الشهيرة حول دور معتقد الأرواح في تكوين الدين، وهي المقالة التي أسست لنظرية المانيزم (Manism) في تفسير الدين، ومفادها أن الآلهة الأولى التي عبدها الإنسان لم تكن في حقيقة الأمر إلا زعماء أو سحرة متميزين استمرت قواهم فعالة في محيط الجماعة بعد موتهم، وجرى تأليههم بعد أجيال من موتهم وأقيمت لهم فروض العبادة[4] .

كما نشر (سبنسر) في عام : 1862 كتابه المعروف بـــ(المبادئ الأولى) وفيه أعاد صياغة فكرته نفسها فيقول : "كما تثبت السجلات والتقاليد القديمة، فإن الحكام والزعماء الأوائل قد اعتبروا شخصيات إلهية، كما اعتبرت أوامرهم ونواهيهم والأعراف التي استنوها في حياتهم، بمثابة شرائع مقدسة فرضها على الناس خلفاؤهم الذين رُفعوا أيضا إلى المرتبة نفسها، وعُبدوا إلى جانب سابقيهم، وبذلك تم تشكيل مجتمع الآلهة الأولى، بحيث أخذ الزعيم الأقدم دور الآلهة الأكبر من تلاه دور الآلهة الأدنى"[5] . **فحسب (سبنسر) فإن عبادة الأسلاف هي منشأ العقيدة الإلهية، حيث تشكلت الأفكار**

---

[1] – علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص36– 37 .

[2] – Edward Tylor : Primivite Culture, V2, p143

3 – المصدر نفسه، ص326– 555 .

[4] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص 206 .

[5] – المصدر نفسه، ص207 .

الأفكار الدينية تدريجيا مع تحول الأسلاف إلى آلهة، إلى تشكل مجتمع الآلهة برئاسة الإله الأكبر إلى غاية مفهوم الإله الواحد، أما قبل هذا فلم تعرف البشرية الدين .

3)فكرة نشوء عبادة الطبيعة عن عبادة أرواح الأسلاف : حيث أسقطت النظرية الأرواحية الإزدواجية التي نسبتها للإنسان (جسم وروح) فكذلك الأمر بالنسبة للهيئات الجسمية، فإن ثمَّ ازدواجية من نفس النوع غير أن مجال عملها مختلف، ففي الأشياء تعتبر الروح هي السبب المنتج لكل ما يجري من ظواهر للعالم المادي، كحركة النجوم وإنبات النبات، وانتشار الحيوان...فهذه هي المرحلة الأولى للإنتقال من عبادة الأسلاف إلى عبادة الطبيعة .

أما عن سبب التمديد من عبادة الأجداد (الأسلاف) إلى عبادة الطبيعة فإن (تايلور) يرجع ذلك إلى أن البدائي مثله مثل الطفل يصعب عليه التمييز بين الكائنات الحية والجمادات، وفسَّر ما يراه من حركة هذه المظاهر بالأرواح التي سكنتها، ولذلك وسع البدائي مفهوم الروح التي افترضها في الكائنات الحية، لتشمل عالم الطبيعة، فقرن عبادة الأسلاف بعبادة مظاهر الطبيعة، فالبدائي يرى أن الشجرة التي تجيئ في اللهب الذي يأتي ويذهب مثله كائنا حيا، وعليه فكلاهما تعتبر كائنا خارقا . وبحكم هذه الروح الحالة في الكائنات الطبيعية وجد الإنسان نفسه وجها لوجه في مواجهة التبعية للطبيعة، وأنه بحاجة للأرواح للمساعدة في التأثير على الطبيعة واسترضائها بالعروض والقرابين، فهذه الحاجة إلى الروح انتهت إلى عبادة الطبيعة[1] .

فحسب (تايلور) فإن التمديد من عبادة الأسلاف إلى عبادة الطبيعة هو نتيجة قلة الفطنة لدى الإنسان البدائي، وهو يوافق (هربرت سبنسر) في ظواهر الإستحياء ومبدأ حيوية الطبيعة، لكنه لا يوافقه في تعليل الاستحياء، فالمنظّران يتفقان على تفسير المرحلة الأولى؛ بأن فكرة الروح تعتمد في جوهرها على تجربة الأحلام، وعلى التفسير البدائي لهذه التجربة من أن الحلم انتقال حقيقي لروح الشخص المرئي؛ بينما نجد لهما في تفسير المرحلة الثانية مذهبين، فالذي عند (تايلور) مؤسس النظرية؛ أن العقلية البدائية فيها من سذاجة الطفولة ما يقصر بها عن التمييز بين الجماد والحيوان، وأما (سبنسر) فإنه يرفض هذا التفسير بحجة أنه لا ينطبق على نفسية الطفل، ولا على نفسية الحيوان، فضلا عن العقلية البدائية، ويرجح أن عبادة الطبيعيات ليست نتيجة التباس عقلي كما زعم (تايلور)، بل هي وليدة التباس لغوي[2].

---

1 - علي سامي النشار، نشأة الدين، ص 36-37، ويَنظر Edward Tylor : Primivite Culture, V1, p326-555

[2] - يَنظر عباس محمود العقاد، الله (كتاب نشأة العقيدة الإلهية)، منشورات المكتبة العصرية، ص 11، وعبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص134.

فعبادة الأرواح تمَّ انتقالها لعبادة الحيوان والنبات والنجوم عن طريق الخلط في الأسماء، فإعطاء المولود اسم حيوان أو نبات أو نجم...أو أي من الظواهر الطبيعية، وبمرور الوقت ونتيجة التباس أو لغموض في اللغة شديد ينتقل الاسم إلى الكائن الطبيعي وبالتالي تتم العبادة للسلف، ويتم ترحيلها للحيوان وجميع الظواهر الطبيعية [1]، وفي هذا يقول (برجسون) [2] : "والواقع أن الطبيعة قد وهبت الإنسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه، تلك هي الوظيفة الأسطورية أو الملكة الخرافية التي بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خيالية، هذه الشخصيات قد تكون (أرواحا) بادئ الأمر ثم تتحول إلى آلهة فيما بعد" [3]، ولقد أثرت النظرية الأرواحية على أجيال عديدة من الباحثين قبل أن يضعف أثرها بعد منقلب القرن العشرين، وقد وصف تايلور نظريته بأنها نظرية الحد الأدنى في تعريف الدين[4] . **وحسب مفهومي (سبنسر) و(تايلور) فإن الإحيائية مرتبة بدائية دنيا في التطور من الشرك (الإحيائية) إلى التوحيد .**

ثانيا– النظرية الطبيعية : وهي النظرية الرئيسية الثانية ذات المنهج العقلاني، وقد جاء أصحابها من صفوف الباحثين في أديان الحضارات الكبرى، لا من صفوف علماء الأنتربولوجيا، أمثال الألماني (ألبرت كوهن) [5] (Adalbert Kuhn) عام (1859)، والفرنسي (ميشيل بريل) [6] (Michel Breal)؛ نشر نظريته بفرنسا عام (1863م)، وبعدها (ماكس موللر)(F :Max Muller؛ مؤرخ الأديان الألماني، كمسؤول أخير عن صياغتها [7]، فهو أبرز من قدم لهذه

---

[1] – ينظر علي سامي النشار، نشأة الدين، ص 37، و ينظر Harbert spencer : First principles, p447

[2] – برجسون : (Henri Bergson) (1859–1941م) فيلسوف يهودي فرنسي، من أهم فلاسفة العصر الحديث، حصل على جائزة نوبل للآداب عام 1927م، حاول أن ينفذ القيم التي أطاح بها المذهب المادي، ويؤكد إيمانا لا يتزعزع بالروح، من مؤلفاته : فكرة المكان عند أرسطو، المادة والذاكرة، التطور الخلاق، الطاقة الروحية ... (ينظر الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج4، ص867)

3 – عمارة نجيب، الإنسان في ظل الأديان، ط5، القاهرة : المكتبة التوفيقية، 1976، ص 31 .

[4] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص207 .

[5]– ألبرت كوهن : (Franz Felix Adalbert Kuhn) (1812–1881م) العالم اللغوي الألماني والفولكلوري، أسس مدرسة للأساطير المقارنة، إستنادا إلى فقه اللغة المقارن، من أعماله : أقدم تاريخ الشعوب الهندواربية 1845م ..

6 – ميشيل بريل : (Michel Breal) (1832–1915م) فيلولوجي فرنسي، من مؤلفاته : دراسة أصول الدين الزرادشتي 1862م، أسطورة أوديب1864م، خليط من الأساطير واللغة 1882م ...

[7] – Max Muller, Comparative Mithilogynanessay , london :Routledge, 1909, p47 .

النظرية بطريقة أكثر منهجية، حتى ارتبط المذهب باسمه، ففي عام 1856م أصدر (ماكس موللر) – العالم اللغوي، والرائد في مجال الدراسات الفيدية [1] والفلسفية والأساطير المقارنة، وكذا الدين المقارن– مقالته عن مبادئ النظرية في أكسفورد وفق كتابه (الأساطير المقارنة) [*] حيث عرض فيه نظريته في نشأة الدين، وهو يرى أن الدين يقوم على التجربة، ويستمد كل سلطته من التجربة الحسية[2].

و(ماكس موللر) هذا مولع بدراسة اللغات وبعائلاتها اللغوية، ومواطنها الأصلية، وأماكن انتشارها واللهجات المتفرعة عنها، وعوامل تطورها، بل وقواعدها، حيث انتهى إلى استطلاع غالب اللغات في أنحاء العالم المتحضر. وقد اهتم (ماكس موللر) بعلاقة اللغة بنمو وتطور الأساطير والأديان، وهو يرى أن فقه اللغة وما تحتويه من أسماء ومفاهيم، خصوصا الدينية منها كأسماء الآلهة هو ما يؤدي إلى فهم الأديان الأصلية كعلاقة المسيحية وما تحتويه من مفاهيم : إيلوهيم، يهوه، والمسيح وعلاقتها باللغات السامية التي أصبحت تدعى باللغات الآرية بمعنى الكلمة، فبالنسبة إلى (موللر) فإن أصل اللغة والدين واحد، ويرى أن الأديان كاللغات هي كذلك نتيجة لنمو تاريخي طويل، وقد تحتفظ ببعض آثار الدين القديم، حتى في أحدث الأشكال الحديثة التي يمر بها [3] . ومن خلال محاضراته التي ألقاها في في جامعة (غلاسكو) في بداية عام 1890م، يعرف الدين الفيزيائي (الطبيعي) باعتباره عبادة قوى الطبيعة، ويركز انتباهه على دراسة الفيدا؛ الكتاب المقدس للديانة البراهمية، لغرض دراسة التطور الطبيعي لمفهوم الله كإله أسمى للعالم[4].

فمن دراسة الفيدا تساءل (موللر)عن أسماء الآلهة الواردة فيها أهي أسماء عامة أم مشتركة؟ إذ أن أغلبها دالة على الظواهر الأساسية للطبيعة، كالإله أجني؛ فهو اسم لواحد من الآلهة الدينية في الهند (إله النار) ولا يزال استخدامه في الفيدا بهذا المعنى، مما يدل على أن هذا المعنى كان بدائيا، وقد حفظ في اللغات الهندوأوربية كاللاتينية (iGNiS) والليتوانية (ugni)، وبالمثل الإله (أودياووس) الذي يعني (السماء مشرقة)، فالعلاقة بين اللغة السنسكريتية في الإله (أودياووس) واليوناني(زيوس)

---

1 – الدراسات الفيدية : وهي المتعلقة بدراسة الفيدا؛ الكتاب المقدس للديانة البراهمية .

* – عرض ماكس موللر عمله (في الأساطير المقارنة) (comparative religion) عام (1856م)، وترجم للفرنسية عام (1878م) تحت عنوان (سباق وتطور الدين) (origine devlopment de la religion) وطبع بعنوان (الدين الطبيعي) (natural religion) عام (1889م) و(الدين الفيزيائي) (phisical religion) و (أنتربولوجيا الدين) (1892م) و(التصوف أو النفسية الدينية) (1893م) .

2- Max Muller, Natural Religion, V2, p147 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص119–120 .

4 – المصدر نفسه، ص119- 120 .

و(زيوأعلى) في اللغة الألمانية، ومثل هذا يثبت أن هذه الكلمات تشير لنفس معنى الألوهية، وقد اعترف بذلك معظم الشعوب الهندوأوربية [1]. فالعلماء المهتمون بشكل أكبر بهذه النظرية ألهمتهم الديانات الوثنية ومقارنة الأساطير المختلفة للشعوب الهندوأوربية، وملاحظة التشابه بينها خاصة في أسماء الشخصيات الأسطورية، إلى أن هناك أصلا مشتركا لهذه الأساطير مما يشير إلى دين بدائي حقا، اشتقت منه هذه الأشكال والأساطير المتنوعة، الأمر الذي أسفرت عنه دراسة الفيدا كأقدم النصوص الدينية في اللغات الهندوأوربية[2] .

فأسماء الآلهة هي في الغالب أسماء لتلك القوى الطبيعية العظيمة، كالسماء والنار، وهذه الأسماء بعينها تتشابه حروفها في سائر اللغات الهندوأوربية، فموللر ينظر إلى العناصر الطبيعية المختلفة مثل الحرائق، والرياح العاصفة على أنها أدت إلى الدافع الديني في الثقافات القديمة، حيث تم اكتساب هذه العناصر تدريجيا لطابع الألوهة والقداسة بعد تجريدها ببطء من المفهوم والطابع المادي، وهذا التطور في مفهوم الألوهية الطبيعية يؤدي إلى الكشف عن الكائن الأسمى الذي يدعوه (موللر) باللانهائي، فهيئات وقوى الطبيعة كانت أول ما أله من الأشياء، وهي أول ما ألهب الشعور الديني في أذهان البشر[3]، يقول موللر:"للوهلة الأولى اصطدم الإنسان البدائي الأول بعالم الطبيعة، فكانت الطبيعة هي المفاجأة الكبرى بالنسبة له، فهي مبعث الرهبة والعظمة...حتى أنها سميت بالمعجزة الطبيعية، إذ أنها كانت ميدانا واسعا ومفتوحا لمشاعر الدهشة والخوف، وهي التي أعطت الدافع الأول للتفكير الديني"..." فهذه الطبيعة الواسعة الأرجاء والفضاء الممتد، وهذا النهر الذي ينبثق...فالطبيعة وحدها القادرة على أن توقظ فينا هذا الإحساس، والشعور بقوة اللامتناهي المحيطة بنا، ومن هنا اشتقت الأديان"[4].

أما عن كيف تم تأليه المظاهر الطبيعية، وكيف تم التطور الفكري من النظر المجرد في مشاهد الطبيعة إلى التفكير في تلك الكائنات الطبيعية، على أنها آلهة، إذ أن الديانة بمعناها الحقيقي لا توجد إلا حيث يوجد اعتقاد بكائنات روحية عاقلة فعالة، يُتوجه إليها بالعبادة، وإذا كنا قد رأينا أن النظرية الأرواحية وجدت حلا لهذا الإنتقال نتيجة عدم قدرة البدائي على التمييز بين الأحياء والجماد فبالنسبة

1- Max Muller, Natural Religion, V2, p120- 119 .

2 – المصدر نفسه، ص196- 210 .

3 – Max Muller, physicul religion (The Gifford Lectures), London : Longmons, Green and co, 1891, p119-120 .

4 – Max Muller, Natural religion , p138-196 .

لماكس موللر فإن ذلك يقع من خداع اللغة [1]، فإذا فهمنا بوضوح أنه لا يمكن الفصل بين الفكرة واللغة، وبعد معرفة اكتشاف المفاهيم كالروح، والألوهية ...نفهم مباشرة كيف جاءت الروح من الشمس، والألوهية من السماء... ولكن السؤال عما هي العلاقة بين مفاهيم الروح والألوهية...، وبين مفاهيم الشمس والسماء..؟ يجيب (ماكس موللر) أن ذلك باستخدام الاستعارة في الشعر القديم، حيث اعتبر الشعراء أن الشمس والقمر والسماء رسوما متحركة تثبت لها الشخصية والألوهة...وهذه الاستعارة لا يزال أثرها في لغتنا إلى الآن[2] .

فبالنسبة لموللر فإن خداع اللغة هو سبب التحول من النظر المجرد في مشاهد الطبيعة إلى تأليهها وعبادتها، ويكون ذلك نتيجة وصف المظاهر الطبيعية بأفعال إنسانية، كقولنا الشمس تطلع، النهر يجري، وبمرور الوقت أثبتت هذه المجازات وكأنها كائنات مشخصة، فتحولت فيما بعد إلى أسماء بحد ذاتها للآلهة المسؤولة عن هذه الأفعال فظهرت بذلك الآلهة والأساطير، وللأمر علاقة بالبنية اللغوية للغات الهندية، حيث اكتسبت المصطلحات صفة القداسة والمطلق الإلهي [3]. **فبناء على النظرية الطبيعية تتلخص إمكانية وضع مفهوم أعلى للألوهية من خلال الظواهر الطبيعية، والكشف عن الكائن الأسمى الذي يدعوه (موللر) باللانهائي .**

إن ما يجمع النظريتين الطبيعية والأرواحية على رأي (فراس السواح) أن كلتيهما تنتمي إلى زمرة الاتجاه العقلاني، فهما تُطرَحان على أنهما أقوى المعبريْن لهذا الاتجاه والمؤسسين له في مقابل الاتجاه العاطفي غير العقلاني، والموقف العقلاني الذي تقوم عليه الأرواحية هو أن الدين قد نشأ في تفسيره على عدد من المفاهيم الذهنية التي تكونت نتيجة التفكر والتأمل، وأما النظرية الطبيعانية فيظهر موقفها العقلاني في تفسير (موللر) الذي يؤكد على أن الاعتقاد الديني لا يتضمن عنصرا لا يقوم على الإدراك الحسي والتصور المسبق [4]، وقد قوبل هذا التوجه العقلاني بالنقد من أولئك الذين لم يروا في الدين موقفا فكريا عقلانيا، و أبرز أولئك (إيميل دوركايم) ممهدا في ذلك لفكرة العقل الجمعي ونظريته عن (الطوطم) .

---

[1] - Max Muller, the science of thought, london : longmans, Green and go, 1887, p 77 .

[2] - Max Muller, Physicul religion, p306 .

[3] - ينظر المصدر نفسه، ص303-375 .

[4] - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص313، 314 .

ثالثا– النظرية الطوطمية [*] (النظرية الإجتماعية) : وهي تنتمي للشق الثاني من المذهب التطوري التقدمي، إلا أنها لا تحمل منهجا عقلانيا، بل تضم في طياتها تيارا جمعيا، ذهب أصحابه إلى جمعية الدين، وهؤلاء تمثلهم المدرسة الفرنسية الاجتماعية في أواخر القرن العشرين، وقد هاجموا أصحاب النظرية الفردية هجوما عنيفا، حيث راعتهم فكرة العقل الجمعي، ورأوا فيها رمزا للدين أو بمعنى أدق ذهبوا إلى أن الدين رمز لها، وعلم على وحدتها [1]. فالدين على رأي هؤلاء ظاهرة اجتماعية لا يمكن إهمالها، فالمجتمع هو منشأ الدين، وهو واضعه لغرض التماسك والتعاون الاجتماعي بين أفراد المجتمع والحفاظ على الرابطة الاجتماعية بين الأفراد . وعندها نتساءل ما الطوطم؟ وما أنواعه؟ وما هي الطوطمية ؟

كتب (فريزر)؛ "الطوطم موضوع مادي يحيطه البدائي باحترام تطهُّري لأنه يعتقد بوجود علاقة خاصة تماما بين شخصه بالذات وبين كل موضوع من ذلك القبيل، والعلاقات بين الإنسان والطوطم متبادلة، فالطوطم يحمي الإنسان، والإنسان يظهر احترامه للطوطم في صور شتى" [2]، والطوطم بصفة عامة حيوان من الحيوانات التي يؤكل لحمها، وغير مؤذ أو بالعكس خطر، مهاب الجانب، وفي النادر الأندر نبات أو قوة طبيعية (مطر، ماء..) تربط بينه وبين الجماعة برمتها صلة خاصة، والطوطم هو في المقام الأول سلف العشيرة، وفي المقام الثاني؛ روحها الحامي وولي نعمتها، الذي يبعث إليها بالنبوءات، والذي يعرف أولادها، ولا يفترسهم حتى وإن كان عظيم الخطورة على أولاد العشائر الأخرى، وعلى هذا فإن من يكون لهم طوطم واحد يكون عليهم التزام مقدس بالامتناع عن قتل أو إتلاف طوطمهم بالكفّ عن أكل لحمه أو التمتع به بأي صورة أخرى، وأي انتهاك لهذا الالتزام يستتبع... آليا العقاب، والصفة الطوطمية مباطنة لا لحيوان مفرد بعينه، ولا لموضوع مفرد بعينه (من نبات أو قوة طبيعية) بل لجميع الأفراد التي تدخل في نوع الطوطم، وبين الحين والآخر تقام احتفالات يكرر فيها أعضاء الجماعة الطوطمية أو يحاكون برقصات طقسية حركات طوطمهم وخصائصه [3] .

يتناقل الطوطم وراثيا بموجب عمود الأب والأم على حد سواء، ومن المرجح أن التناقل بموجب عمود الأم كان هو الأول في الزمن، و لم يحل محله التناقل بموجب عمود الأب إلا في طور متأخر،

* – الطوطم : أصلها (بالأجيبوا odoodeman) واللفظة توحى بمعنى القرابةفي اشتقاقها من لفظة (دودم) التي يستعملها أفراد قبيلة مثل قبيلة أوجيبوا (إحدى القبائل الهندية الكبيرة في أمريكا الشمالية من عرق ألغونكين، وكانوا يسكنون في المناطق قرب بحيرة هورون)، وأدخل إلى اللغة بلفظ (Totem) .

1 – علي سامي النشار، نشأة الدين (النظريات التطورية والمؤلهة)، مصدر سابق، ص3.

2 – james frazer, Totemissm and Exogamy, p54 .

3 - يُنظر سيقموند فرويد، الطوطم والحرام، مصدر سابق، ص10، ويُنظر james frazer, Totemissm and Exogamy, p53

والتبعية للطوطم هي بمثابة الأساس في جميع الالتزامات الاجتماعية المترتبة على الفرد، وهي تتخطى من جهة أولى التبعية للقبيلة، وتنزل من الجهة الثانية بقرابة الدم في مرتبة ثانوية[1] .

وفي معظم القبائل الأسترالية نجد في العشيرة اثنين من السمات الرئيسة التي تميزها : على الأفراد الذين تربطهم العلاقة، ألا يتعاملو مع العلاقات الأخرى، وهؤلاء يربطهم نفس الاسم، وهم الأمهات والآباء وأبنائهم وبناتهم والأعمام وآبائهم، فتكون بمثابة الأسرة الواحدة، واسعة أو ضيقه حسب حجم العشيرة، ويظهر ذلك في التعاون في الواجبات المترلية، من الثأر والحداد، والالتزام بعد الزواج...وكل عشيرة لها طوطم خاص بها، والطوطم يستخدم للإشارة إلى جماعة العشيرة، على أن يرمز أيضا لكل من أعضائها . والكائنات التي تكون بمثابة الطوطم تسمى في الغالبية العظمى بأسماء النبات أو الحيوان، ونادرا ما نجد اسما من الأشياء غير الحسية كالغيوم والمطر والبرد، والقمر والصقيع، والصيف والشتاء وبعض النجوم والرعد والنار والدخان ... وقد يحدث أن يكون الطوطم ليس الكائن كله، ولكن جزء من الكائن وهو نادر جدا في القبائل الأسترالية كالذيل مثلا[2] .

ويعتقد (فرويد) أن الطوطم هو صورة يرمز لها الإنسان إلى الأب الذي يهابه الأبناء ويمقتونه لشدة بأسه وقوته فيثورون عليه ويأكلونه [3]. ويرى (دوركايم) أن الطوطم رمز للعشيرة يهابه الفرد ويمقته ومن هنا كان مقدسا ونجسا في آن معا، لشدة سلطانه عليه سلطانا لا يغلب ولاستبداده استبدادا يحرج الصدر...وأن الشعور الديني في أساسه الأول هو ما كان يشعر به الفرد إزاء أولي الأمر في جماعته الذين بيدهم السلطة[4] . ويقول (وول ديوانت) في قصة الحضارة : "فلا تكاد تجد حيوانا في الطبيعة كلها من الجعل (الجعران) المصري إلى الفيل عند الهندوس، لم يكن في بلد ما موضع عبادة باعتباره إلها، فهنود أوجبوا (Ojibwa) أطلقوا اسم (طوطم) على حيوانهم الخاص الذي يعبدونه، وعلى العشيرة التي تعبده، وعلى كل عضو من تلك العشيرة، ثم جاء علماء الأجناس البشرية فأخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسما على مذهب (الطوطمية) الذي يدل دلالة غامضة على أية عبادة لشيء معين، وعادة يكون الشيء المعبود حيوانا أو نباتا تتخذه جماعة ما موضع عبادتها، ولقد وجد أنواعا مختلفة من الطوطم في أصقاع من الأرض ليس بينها رابطة ظاهرة من قبائل الهنود في شمال أمريكا إلى أهل أفريقا وقبيلة (درافيد) (Dravians) في الهند، وقبائل أستراليا، ولقد أعان الطوطم باعتباره شعارا دينيا على توحيد القبيلة التي ظن أعضاؤها أنهم مرتبطون معا برباطه أو هبطوا جميعا من

---

[1] - يُظر ينظر سيقموند فرويد، الطوطم والحرام، مصدر سابق، ص10، و يُظر james frazer, Totemissm and Exogamy, p53

[2] - Emile Durkheim, les Formes elementaires de la vie religieuse, p86

3 - Sigmund Freud, Totem and Taboo , london , new york :ISBN, p 201.

4 - Emile Durkheim, les Formes elementaires de la vie religieuse, p86

سلالته، وأصبح الطوطم باعتباره شعارا أو رمزا علامة مفيدة تدل على ما بين البدائيين من قربى، وتميزهم بعضهم من بعض[1].

وفي معظم الحالات كان الطوطم محرما لا يجوز لمسه، ويجوز أكله في بعض الظروف على أن يكون ذلك من قبيل الشعائر الدينية، فهو بذلك يرمز إلى أكل الإنسان لله أكلا تعبديا، وقبيلة (غالا) في الحبشة تأكل السمكة التي تعبدها في احتفال ديني رصين، ويقول أبناؤها: "إننا نشعر بالروح تتحرك فينا، إذ نحن نأكلها" وكم كانت دهشة المبشّرين إذ هم يبشّرون بالإنجيل لقبيلة (غالا) أن وجدوا بين هؤلاء السدج شعيرة شديدة الشبه بالقداس عند المسيحيين ![2]

ولا يرتبط الطوطم لا بالأرض ولا بموضع بعينه، فأعضاء الطوطم الواحد يمكن أن يحيوا متفرقين عن بعضهم بعضا في وئام مع الأفراد التابعين لطوطم مغاير، كما يمكن أن نجد ثلاثة أنواع من الطواطم الأساسية هي : طوطم العشيرة؛ الذي ينتقل من جيل إلى آخر، والثاني هو طوطم الجنس؛ وهو الذي يميز الرجال عن النساء، والآخر هو الطوطم الفردي [3]، والفارق هو أن طوطم العشيرة جمعي ووراثي، بخلاف الطوطم الفردي فهو اختياري، ويعد طوطم العشيرة هو الأهم، إذ على أساسه تكون ديانة العشيرة[4].

وقد يضاف إلى هذه الطواطم الطوطم العام؛ أو طوطم الاتحاد، وهو طوطم عام يتحد حوله مختلف العشائر في المجتمع الواحد، وهو العلم الذي يحمل في القتال، ويدافعون عنه، ويضعون على رؤوسهم بعضا من أجزائه وأعضائه، ويعتقد أبناء العشيرة أن بينهم وبين الطوطم روابط سلف وأصل مشتركة، وأنهم ينحدرون من صلب طوطمهم . وإذا كان الطوطم هو منشأ الدين البدائي فإنه كذلك يعد مصدرا لسائر الاتجاهات الفكرية في الديانات المعاصرة؛ الأمر الذي أشار إليه (وول ديوانت) في قصة الحضارة قائلا :"ثم أخذ الطوطم يتطور على مرِّ الزمن في صور علمانية فكان من التمائم والشارات كهذا الذي تتخذه الجمعيات التي تعمل على الإخاء بين الناس، أو هذه الحيوانات الخرساء التي تصنعها الأحزاب السياسية عندنا اليوم لتمثيل رسوخ القبيل أو صخب البغال، وكانت الحمامة والسمكة والحمل في رمزية العقيدة المسيحية إبان نشوئها بقايا القديم في تمجيد الطوطم، بل إن الخنزير الوضيع كان يوما طوطما لليهود السابقين للتاريخ"[5] .

1 - وول ديوانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، م1، ج1، ص105 .

2 - المصدر نفسه، ص107.

3 – james frazer, Totemism and exogamy, p54

4 - سيقموند فرويد، الطوطم والحرام، مصدر سابق، ص 136 .

5 - وول ديوانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص105 .

وأما عن النظرية الطوطمية فصاحبها عالم الاجتماع الفرنسي (إيميل دوركايم) وهو يعتبرها أقدم ديانة، ويعترض على أطروحات الاتجاه العقلاني، وتقوم نظريته على التفسير المجتمعي لفكرة المقدس، معتقدا بأن الشرط الأساسي لكل اعتقاد ديني هو تقسيم الأشياء إلى مقدس ودنيوي، وبالتالي نشوء الدين على السلطة، وأن أصل الظاهرة الدينية هو المجتمع وماله من تأثير أبوي سلطوي، قوي على الفرد، وإحساس الفرد بالاعتماد المطلق على المجتمع، فالألوهية ليست إلا إسقاطا خارجيا لإحساس الفرد بهذا الحضور الكلي للمجتمع، ثم يأتي الإيمان بخلود الروح، واستمرارها نتيجة لإدراك الفرد لنسبية وخلود الجماعة، فالمجتمع على اعتبار (دوركايم) لا يعبد إلا نفسه [1]. ومن خلال كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية)، الذي صاغ فيه نظريته عن الطوطم، سنة 1912م، يمكن أن نستشف نظرته للدين، وتاريخ صياغة النظرية الطوطمية، وأسس الطوطمية وطقوسها...

يعرض (إيميل دوركايم) تاريخ ظهور الطوطم، كالآتي : "لم يظهر الطوطم كمصطلح في الأدب إلا في أواخر القرن 18، وكان أول من استعمل المصطلح هو الكاتب الهندي؛ (لونج) [2] في كتابه (رحلات وأسفار مترجم هندي)، الذي نشر بلندن عام 1791م، مقتبسا إياه عن قبائل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية، وظل الاعتقاد لقرن من الزمن أن المصطلح أمريكي حتى كشف في أستراليا عن أشكال مماثلة حينها أدرك الباحثون أنهم إزاء نظام يتصف بالعمومية "[3].

ثم ظهرت دراسات على يد (ماك لينان) (Mac linnan)(1827-1881م)[4] العالم الأسكتلندي، في سلسلة مقالات بعنوان الطوطمية عام (1870م) ربطت التاريخ العام للبشرية بالطوطمية، بل ذهب أبعد من ذلك، إذ جعل الطوطمية مصدر كل أديان الشعوب المتقدمة، فمددت الطوطمية إلى عبادة الحيوانات والنباتات [5]. وفي 1877م كتب (لويس مورغان) (Morgan)[6] في في كتابه (المجتمع القديم) عن الطوطمية، وأشار فيه إلى شيوعها في قبائل الهنود من أمريكا الشمالية

---

1 – ينظر وول ديوانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، م1، ج1، ص4، وفراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص212 .

2 – جي لونج : (G lung) رحالة وكاتب هندي، أول من استعمل مصطلح الطوطم في كتابه المنشور بلندن سنة 1791م (رحلات مترجم هندي وأسفاره)..

3– Emile Durkheim, les Formes elementaires de la vie religieuse, p86.

4 – ماك لينان : (Mac-Lennan) (1827-1881)، حقوقي ومؤرخ بورجوازي اسكتلندي، من أنصار نظرية القبيلة، حيث يرى أنها أول خلية اجتماعية، مؤلف بحوث في تاريخ الزواج والعائلة ومن مؤلفاته : الزواج البدائي ...

5– Emile Durkheim, les formes élémentaires De la vie Religieuse, p86.

6 – لويس هنري مورغان : (Morgan) (1818-1881م) أنتربولوجي أميركي، مادي، أرَّخ للمجتمع البدائي ، وله دراسة مشهورة بعنوان (المجتمع القديم، مباحث في خطوط التقدم البشري من الوحشية، عبر الهمجية إلى الحضارة) . (Daniel Moses Noah, The Promise of Progress: The Life and Work of Lewis Henry Morgan, Columbia : University of Missouri Press, 2009).

والوسطى، واستمرت البحوث وبخاصة من طرف (المكتب الأمريكي للأثنولوجيا) في 1887م، وساهم بجزء مهم في تقدم هذه الدراسات، مما مكن (فريزر) من دراسة الطوطمية، وإصدار كتاب صغير له بعنوان (الطوطمية)، رغم أنها كانت دراسة وصفية بحته، ظهرت للمرة الأولى في شكل مختصر في الموسوعة البريطانية[1] .

ثم رسم (فريزر) صورة عامة للطوطمية كدين وكنظام اجتماعي في كتابه (الغصن الذهبي) الذي نشر بلندن عام 1890م، ثم جاء مؤلفه الضخم في أربعة مجلدات بعنوان (الطوطمية والزواج الخارجي) في (1910م)، وفي السنوات الأخيرة اكتشف بأن عددا من القبائل الأسترالية التي تدين بالطوطمية، وتجعل منها عقيدة دينية أساسية كالأروتا، اللوريتشا، يورانيا) ...[2] ووفق هذه الاكتشافات التي تمت في أستراليا رأى (دوركايم) أن أستراليا هي الأرض الأكثر ملائمة لدراسة الطوطمية، فكانت هي المجال الرئيسي لملاحظاته، حيث صرف جهده لدراسة الدين من خلال اختبار حالة خاصة ودراستها بشكل مركز وأعم ألا وهي الطوطمية الأسترالية، وكان ذلك في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية)، ولا تزال تكتشف إلى اليوم مؤسسات طوطمية ليس لدى الأوستراليين وحدهم، بل كذلك لدى هنود أمريكا الشمالية، ولدى شعوب الأرخبيل الأوقيانوسي، وفي الهند الشرقية، ولدى الكثير من أقوام أفريقا.. بيد أن بعض الآثار والبقايا التي يعتبر تأويلها، تتيح أن يفترض أن الطوطمية وجدت أيضا لدى الشعوب الآرية والسامية البدائية في أوربا وآسيا، مما حمل علماء كثيرين على أن يروا في الطوطمية مرحلة ضرورية وعامة في التطور البشري[3] .

وقد رأى (دوركايم) أن الطوطمية دين وليست نظاما اجتماعيا فحسب، بل اعتبرها مصدرا أساسيا لسائر الاتجاهات الفكرية في الديانات المعاصرة، وهو يصنفها بأنها أقدم الأديان لاتصالها بالتكوين الاجتماعي، حيث نجد مفهوم الطوطمية لديه بأنها نظام ينوب مناب الدين لدى بعض الأقوام البدائية أو أستراليا وأمريكا وأفريقا، ويقدم المبادئ للتنظيم الاجتماعي، فنجد لدى الأستراليين بدلا من جميع المؤسسات الدينية والاجتماعية التي تعوزهم نظام الطوطمية، فالقبائل الأسترالية تنقسم إلى جماعات أصغر حجما هي العشائر التي تحمل كل عشيرة منها اسم طوطمها[4] .

ولفت الأسكتلندي (ماك لينان) (Mac Lennan) الانتباه منذ عام 1869م إلى ظاهرة الطوطمية التي كانت تعد إلى ذلك الحين من الطرائق، وأنه فعل ذلك مفصحا عن رأي مؤداه أن الكثير من العادات والأعراف القائمة في مجتمعات قديمة وحديثة شتى ينبغي أن تعد بقايا ومخلفات من

1- Emille Durkheim, les formes élémentaires De la vie Religieus, p86.

2 - ينظر المصدر نفسه، ص86 .

3 - المصدر نفسه، ص86، وينظر سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان، مصدر سابق، ص59

4- المصدر نفسه .

العصر الطوطمي، ومنذ ذلك العصر أقر العلم بأهمية الطوطمية بكل مداها واتساعها، فعلى رأي (لينان) أن الطوطمية ليست دينا فحسب بل الملهم لعدة معتقدات وطقوس وجدت آثارها في الأديان المتقدمة، ومنذ عام 1900م صاغ (س رايناخ) (Reintach)[1] دستور الطوطمية في إثني عشر بندا، وهو أشبه ما يكون بتعليم لمبادئ الديانة الطوطمية[2] .

وكذلك يشير (فرويد) إلى أن الطوطمية هي أول صيغة للدين بقوله: "الحق أن الطوطمية يمكن أن تعد فعلا صيغة أولى للدين في تاريخ البشرية، وقد أكد في كتابه (الطوطم والحرام) أن الطوطمية تمثل مرحلة طبيعية في كل حضارة [3]، ورأى (فريزر) أن الطوطمية دين ونظام اجتماعي، وكتب في أول مؤلفاته (الطوطمية) (Totemism) يقول : "والطوطمية عبارة عن نظام من صلات وثيقة وتشابه خصال بين الإنسان وشيئ معين من الأشياء الطبيعية أو الاصطناعية، وعادة ما يكون ذلك نباتا أو حيوانا..."[4] ويعرفها على أنها "علاقة وثيقة يفترض وجودها بين مجموعة متقاربة من البشر، وبين نوع من الأشياء الطبيعية" [5]، وتعرف هذه الأشياء على أنها الطوطم لتلك المجموعة البشرية..وكذلك أكد (فريزر) أن العلاقة بين الفرد وطوطمه هي أبدا علاقة صداقة وقربى، بلغت فيها المساواة أو التشابه حد التمام، ومصدر الطوطمية عند (فريزر) هو جهل الإنسان البدائي بالأبوّة حيث يعتقد الفرد أنه هو الشيئ نفسه (الطوطم) سواء أكان حيوانا أم نباتا أم غير ذلك، الذي ولج رحم أمه في لحظة الحمل وخرج منه ساعة الولادة[6] .

ومن أهم مبادئ الطوطمية نذكر بعضا مما صاغه (س رايناخ)(Reintach) في مؤلفه (العبادات والأساطير والديانات) لعام 1900م :

1 - لا يجوز أكل بعض الحيوانات أو قتلها، ويربي البشر أفرادا من هذه الأنواع الحيوانية ويحيطونها بالرعاية .

2 - أن الحيوان الذي يموت في حادث ما يكون موضوعا للحداد ويحاط بمثل التكريم الذي يحاط به فرد من القبيلة.

---

[1] – س . رايناخ : صاحب كتاب (العبادات والأساطير والديانات) عام 1900م الذي نشر فيه مبادئ الطوطمية في إثني عشر بندا .

2- Emille Durkheim, les formes élémentaires De la vie Religieus, p86 وينظر سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان، مصدر سابق، ص59 .

3 – سيقموند فرويد، الطوطم والحرام، مصدر سابق، ص131 .

4 – James frazer, Totemism and Exogamy, london : Macmillan, 1910, p53

5 – ينظر المصدر نفسه، ص53 .

[6] – سيقموند فرويد، الطوطم والحرام، مصدر سابق، ص132 .

3 - أن التحضير الغذائي لا يطال بعض الأحيان سوى جزء معين من حجم الحيوان .

4 - عندما تدعو الضرورة إلى قتل حيوان من الحيوانات التي تصان في العادة يعتذرون منه، ويسعون بجميع السبل والحيل إلى التخفيف من انتهاك الحرام أي القتل .

5 - حينما يضحى بالحيوان قدسيا يبكي في احتفال رسمي .

6 - يطلق الأفراد والقبائل على أنفسهم أسماء حيوانات طوطمية [1] . وغير ذلك من التقاليد والعادات التي ترمي إلى تبجيل لحم الحيوان الطوطم وجِلده، واسمه، وصورته ووشمه... إضافة للاعتقاد بحماية الطوطم للعشيرة وأفرادها والدفاع عنها، والتنبؤ بمستقبلها، وتولي إرشادها، وهم يرون في كثير من الأحوال أنهم مرتبطون مع الحيوان الطوطم بروابط أصل مشتركة، وغيرها من البنود التي تنظم علاقة أفراد العشيرة بالطوطم .

أما عن أصول الطوطمية، وكيف توصل البدائيون من البشر إلى تسمية أنفسهم بأسماء الطوطم، فقد ورد ذلك في أقوال عديدة، فهذا (ماك لينان) الذي يدين له العالم باكتشاف الطوطمية يمتنع عن القطع برأي بصدد أصول الطوطمية، وبحسب ما جاء في أبحاثه فإنه كان يميل منذ زمن بعيد إلى إرجاع الطوطمية إلى ثلاث نظريات :

1-النظريات الإسمية : التي ترى أن الطوطم عند البدائي شعار العشيرة، حيث تميز هذه الأسماء القبائل بعضها عن بعض، وذهب إلى هذا الرأي (ماكس موللر)، (هربرت سبنسر)... فحسب هؤلاء إن أصل الطوطم ليس ديني، وإن بدا الأمر كذلك فيما بعد لدى الأجيال اللاحقة .

2-النظريات السوسيولوجية : حيث يرى (لين ريناخ) أن الطوطمية ليست في رأيه سوى نمو متضخم للغريزة الإجتماعية، وإلى هذا ذهب (دوركايم) —كما رأينا- فالطوطم ليس إلا الممثل المنظور للديانة الإجتماعية، وهو يجسد الجماعة التي هي الموضوع الحقيقي للعبادة.

3-النظريات السيكولوجية : وقد ساندها، وكان ممن صاغها (فريزر) أولا قبل صياغة نظريته السوسيولوجية، وترتكز إلى الاعتقاد بالنفس الخارجية، فالطوطم يمثل ملجأ أمينا تلوذ بحماه النفس لتنجو من الأخطار التي يمكن أن تهددها[2] .

ولقد واجهت تلك النظريات المفسرة لأصل الطوطمية كلها كثيرا من الانتقادات، نظرا لحججها الضعيفة التي تفترض دائما همج البدائي وسذاجته، وتنسب له دائما سوء الفهم والالتباس، وعدم القدرة على التمييز، وبخاصة فيما يتعلق بتفكيره الديني، وهناك من جوَّزوا أن يكون الخوف أساس

---

[1] - سيقموند فرويد، الطوطم والحرام، مصدر سابق، ص132.

[2] - المصدر نفسه، ص144-153.

الطوطمية والتسمي بالألقاب، **إلا أن جُلَّ تلك النظريات لم تثبت المصدر الديني للطوطم، فلم تكن الحاجة الدينية سببا لميلاد الطوطم .**

إن من أهم النتائج التي تسفر عنها النظرية الطوطمية أنه باعتبار النظرية ذات توجه اجتماعي بحت فإن الطوطم يهدف إلى توحيد الجماعة وسنِّ القوانين والطقوس لها، ومن خلال الاحتفالات والطقوس ينكشف عالمين مختلفين؛ عالم دنيوي مادي وعالم مقدس، فمن الإيمان بالطوطم يتولد الدين والأفكار الدينية، وباعتبار الطوطمية أقدم ديانة عرفتها البشرية، ومصدر الدين البدائي، وحسب التعميم الذي اعتمده (دوركايم) فإن الدين ما هو إلا ظاهرة اجتماعية وليدة المجتمع وصنعته، بل ما هو إلا عبادة المجتمع ذاته ولا علاقة للدين بأي تفسيرات غيبية ميتافيزيقية . يقرر (دوركايم) أن غرض الدين وهدفه إنما هو الحفاظ على التماسك الاجتماعي، وإذا كان الأمر على هذا النحو فإن الحل البديل بالنسبة للمجتمع الحديث إنما يكون بالوعي الاجتماعي وسنِّ القوانين الأخلاقية والسياسية، وحينها يمكن الاستغناء عن الدين في عصر العلم .

وكل من النظرية الأرواحية، الطبيعية والطوطمية تشكل دعامة الاتجاه التطوري الإنساني، وفي مقابل دعاة التطور، وما سبق من النظريات التي بنيت على أن العقيدة الإلهية كانت نشأتها وفق عوامل إنسانية من تأملات فردية وعوامل لا شعورية، أو تأثيرات اجتماعية عامة ... نجد في مقابل كل هذا وذاك الذين فنَّدوا القول بأن الدين مصدره الإنسان، ونادوا بإلهيته فيما يسمى بالتيار التأليهي؛ الذي يقرر أن الأديان ذات منشأ إلهي؛ أي كون الدين يمثّل ظاهرة تولدت من مصدر إلهي...

المطلب الثاني : الاتجاه التأليهي والاتجاهات الثانوية في نشأة الدين

وهنا نجد الاتجاه التأليهي في مقابل الاتجاه التطوري، كما نضيف أهم الاتجاهات الثانوية الأخرى لكثرتها :

أولا : الاتجاه التأليهي (النظريات المؤلهة) : ويمكن تسمية هذا الاتجاه بالاتجاه التعليمي؛ إذ يقرر أن الأديان إنما اهتدى إليها الإنسان بنور الوحي، ولذا هم ينتسبون إلى نظرية الوحي الأول حين نادوا بفطرة الله، واستندوا على البحث الأثنولوجي في إثبات نظريتهم، وقد وجدوا فكرة الألوهية منبثة لدى كافة المجتمعات البدائية، وأنكروا إنكارا باتا نظرية التطور، مستندين على بحث واقعي، ودعموا كل ذلك بوثائق ممتازة عن الحياة البدائية الأولى، فبدا البحث سلسا قائما على الواقع من ناحية، وعلى ما ندركه في أنفسنا من ناحية أخرى نحو هذه الفكرة الجليلة النبيلة (الله) [1] .

[1] – ينظر علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص6 .

ففي حين ذهب دعاة التطور إلى اعتبار أن الصورة الأولى للعبادة انبنت على التعدد والوثنية، ثم تطورت نحو التوحيد ، صُدِموا بالكثير من الأثنولوجيات والدلالات المشيرة إلى بداية التوحيد في التروع والظواهر الدينية بحيث تولّدت نظرية اعتبرت أن القاسم المشترك عند كل المجتمعات البدائية هو وجود فكرة الله الواحد.. .من هنا زعموا أن الأصل هو الواحدية ؛ لأنها تعبرّ عن حقيقة نفسية راسخة في وجدان الإنسان) 1... وعلى هذا فقد دُعيت أيضا بالنظرية الفطرية، حيث تذهب إلى أن فكرة وجود (الله)، أو الدين بعامةٍ هي فكرةٌ فطرية مركُوزة في النفس الإنسانية، فبعد الأبحاث التي نهضوا بها في هذا الشأن، وجد أصحاب هذا المذهب أنّ فكرة الألوهية كانت موجودة لدى المجتمعات البدائية كافّة، واستند هؤلاء إلى (فكرة الخَلق)...

ولقد انتصر لهذه النظرية جمهور من علماء الأجناس، وعلماء الإنسان، وعلماء النفس، ومن مشاهيرهم أندرولانج (lang)[2] الذي أثبت وجود عقيدة (الإله الأعلى) عند القبائل الهمجية في أستراليا وإفريقيا وأمريكا، ومنهم (شريدر)(sehroeder) الذي أثبتها عند الأجناس الآرية القديمة، و(بروكلمان)(Brockelman) الذي وجدها عند الساميين قبل الإسلام، ولوروا (la roy) و(كاترفاج) (Quatrefages) عند أقزام أواسط إفريقيا، و(شميدت) (Schmidt)[3] عند الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية، وقد انتهى هذا الأخير إلى أن فكرة (الإله الأعظم) توجد عند جميع الشعوب التي تعد من أقدم الأجناس الإنسانية[4] .

فهؤلاء وأمثالهم من العلماء .. ذهبوا إلى العكس تمامًا من النظرية الأولى، و توصلوا من خلال أبحاثهم التي قاموا بها إلى أن الأصل هو التوحيد وليس الشرك، [5] فقرر هذا الفريق بالطرق العلمية

---

1 – ينظر علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص6

2 – أندرولانج : (lang) (1844- 1912م) الشاعر والناقد الأدبي الأسكتلندي، والمساهم في مجال الأنتربولوجيا، وكان أساس منشوراته عن الفولكلور، الأساطير والدين، ومن أعماله : الأسطور ة وطقوس الدين، العرف والأسطورة، الإلياذة لهوميروس ... وكذا (سر الطوطم) عام (1905م) . (ينظر صفحة أندرولانج في National Thesaurus for Author Names identifier اطلع عليه بتاريخ 23 أوت 2017م)

3 – شميدت : (Wilhelm Schmidt) (1868- 1954م) اللغوي، الأنثروبولوجيي، وعالم الأجناس.، النمساوي، ارتسم على أنه قسيس كاثوليكي عام 1892م، له نظرية في التوحيد البدئي، من أعماله : أصل ونمو الدين 1931م، الآلهة العليا في أمريكا الشمالية 1933م، الثقافة والمنهج التاريخي الأثنولوجي، الحي البدائي .. (Karen Armstrong, A History of God, reprint, 1994 ,P3)

4 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص108 .

5 – علي سامي النشار، نشأة الدين، ص202، وعبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص112.

بطلان مذهب التطور التقدمي، وأثبتوا أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر، مستدلين أنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة، أو أمراض متطفلة، بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة [1]، فوسمت نظريتهم بنظرية (فطرية التوحيد وأصالته)، حيث تقول بنوع من التوحيد البدئي كان موجودا على الدوام في صلب الاعتقاد الديني[2].

وقد أخذت أوربا بهذه النظرية (نظرية الوحي الأول) طوال القرون الوسطى، وأيدها بعض علماء التاريخ حتى في القرن التاسع عشر، ولا تزال هي المذهب السائد عند كبار رجال الدين عندهم، كما نجد في الكتب السماوية مصداق الجانب الإيجابي منها [3]، ولدى اهتمام علماء الغرب بالبحث في هذا الجانب برزت النظريات المؤلهة التي قرنت بداية الإنسانية الأولى بدين الوحي الأول .

لكن هذه الفكرة شهدت العديد من التعثّرات التي قامت بعد ذلك في ألمانيا عند (شيلنخ)[4] في كتابه : (فلسفة الميثولوجيا) حين كتب فيه عن التوحيد الإلهي؛ وأوضح أن التوحيد هو عقيدة البشرية الأولى قاطبةً، وأن التعدد مرحلة تالية نتيجة فساد الأتباع. وذهب إلى أن فكرة التوحيد كانت غامضة، وغير واضحة كانت سادت الإنسانية الأولى ، ولكن هذا التوحيد لم يتحقّق بوضوح من حيث هو ، ومن هنا انتقلت الإنسانية إلى التعدّد والشرك، وهامت في بحار من الأساطير عن تعدّد الآلهة وتكثيرهم ، وهذه النتائج توصّل لها بالنظر المحض في فلسفة الدين ككل ، قبل البحوث الأركيولوجية التي جاءت في مرحلة تالية5 .

ولعل (لانج) المفكر الأسكتلندي هو الذي افتتح هذا التيار، ليعاقب عليه من بعده باحثون كبار، ليطوّروه وليدفعوه إلى الأمام ، غير أنّ أحداً لم ينف حجم التأثير الذي ألقته الانتماءات الدينية على سياقات التأويل النظري لتلك المذاهب الفلسفية الدينية... علماً أن الاستفادة من علوم مقارنة الأديان ومناهج البحث التاريخي والنفسي والاجتماعي ، كانت كلها متوفرة، وإن بمستويات متفاوتة دون أن

---

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص107 .

[2] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص219 .

[3] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص164 .

[4]– فريديش شيلنغ (Friedrich Wilhelm Joseph Schelling) (1775 – 1854م) : الفلسوف الألماني ذي النزعة المثالية، بل عرف بكونه مركز الثقل في الفلسفة المثالية الألمانية، كما لقب بفيلسوف الطبيعة، من أشهر كتبه : فلسفة الميتولوجيا، فلسفة الأسطورة.. (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج11، ص890)

5 – علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص150- 152 .

يؤدّي ذلك إلى أيّ خلل في المعطيات البحثية المعرفية ببعدها أو بتأثيرها الديني...حتى وصلت بعض النظريات إلى مزج واضح بين الخلفيات الدينية، وروح البحث العلمي[1] .

وأول ما رفض أتباع النظرية التأليهية من (أندرو لانغ) و(وليم شميدت).. المنهج التطوري بالمنهج التاريخي، ورفضوا الطوطمية كديانة ..، مؤكدين أن فكرة الإله موجودة لدى أكثر الشعوب البدائية؛ وهم أقزام أفريقيا وقبائل جنوب شرقي استراليا عن طريق الفطرة والوحي [2] . وهكذا صاغ الاتجاه التأليهي نظرياته، وطبّقها بحسب خبراته ومرجعياته الدينية والعلمية . وفيما يلي نسوق أشهر النظريات الواردة في هذا الاتجاه :

1-نظرية (أندرولانج) (**1844-1912م**) : ففي كتابه (Myth retual and religion) (الأسطورة، الطقوس، والدين) بنى (أندرولانج) نظريته على نقد نظرية (تايلور) الأرواحية، وشكك في فرضية الأشباح باعتبارها أصلا للدين، حيث رأى أن فكرة الإله الأعلى موجودة لدى أكثر الشعوب بدائية في أستراليا، وأفريقيا وأمريكا...ومنه ففكرة الكائنات الإلهية العليا قد قامت في استقلال تام عن معتقدات الأرواح وعبادة الأسلاف، بل ونجد فكرة الكائن الإلهي الأعلى في مجتمعات لا يوجد فيها أثر لعبادة الأسلاف، وتوصل (لانج) إلى نتيجته بأن الذهن الإنساني كان دائما قادرا وعبر كل العصور على التوصل إلى فكرة الكائن الإلهي الأعلى، إلا أن الخيال غالبا ما غلف هذا المفهوم السامي بتصورات ميثيولوجية خلقت حشدا من الآلهة، حجب وراءه ذلك المفهوم الأصلي[3] .

فقد توصل (لانج) في كتابه "نشأة البشرية " the Making of Humanity أن الدين الأول هو دين إله السماء ، واستند في ذلك إلى دراسات أنثربولوجية عن قبائل وسط أفريقيا مثل الزولو والبوشمان والهوتنتوت وبعض قبائل الأمريكتين واستراليا الجنوبية الشرقية ، ورأى أن الناس في أستراليا وأفريقيا والهند لم ينشأ اعتقادهم في الله العظيم على أساس من الاعتقاد المسيحي..[4]

أما (فراس السواح) فقد رأى أن (لانج) لم يَحِد في منهجه عن المخطط التطوري، إلا أنه انتقد التبسيط الشديد الذي لجأ إليه معظم التطوريون، ويعتقد بأن فكرة الكائنات الإلهية العليا قد قامت في استقلال تام عن معتقدات الأرواح وعبادة الأسلاف، وهي ليست نتاجا لتطور أفكار بسيطة سابقة عليها، خصوصا وأننا نجد فكرة الكائن الإلهي الأعلى في مجتمعات لا نعثر فيها على أثر لعبادة

---

1 - علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص192 .

2 - المصدر نفسه، ص 193 .

3- ينظر فراس السواح، ص 221، وينظر andrewlang, Myth retual and religion, New york : Cosimo, 2005,V1, p50

4- سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مصدر سابق، ص28 .

الأسلاف، ليتوصل (لانج) إلى نتيجته وهي؛ أن الذهن الإنساني كان قادرا دائما وعبر كل العصور على التوصل إلى فكرة الكائن الإلهي، إلا أن الخيال غالبا ما غلف هذا المفهوم الأصلي بتصورات مثيولوجية، خلقت حشدا من الآلهة [1].

2- نظرية (وليم شميدت) (Wilhelm Schimdt) (**1878-1945م**) : وبعد وفاة (أندرولانج)، قام (وليم شميدت) بتطوير أفكار (لانج) حول التوحيد البدئي في كتابه الضخم (Der urspruug Gottesidee) والذي هاجم فيه النظريات التطورية وبساطتها في دراسة الدين، واقترح فيه عددا من الدوائر الحضارية التي تطور كل منها في استقلال نسبي عن الأخرى، واستقى فكرة الكائن الأعلى في كل دائرة موضحا الخطوط العامة له، ليتوصل إلى القول بتشابه تلك الكائنات العليا، وتماثل سماتها وخصائصها في كل مكان، وأما عن سبب التشابه في رأيه فيعود إلى أن ثقافات العالم الحديث في قاراته الخمس، ينبغي ألا توضع على مسار تطوري خطي، لأن كل ثقافة قد تطورت في معزل عن الأخرى، ضمن دائرتها الحضارية الخاصة . ولكن هذه الثقافات جميعا قد نشأت عن مستوى حضاري واحد مغرق في القدم، سادت عنده ديانة واحدة، تؤمن بإله واحد، ومنها أخذت الأديان التي استقت فيما بعد بذور التوحيد، ومثل هذه الديانة الأصلية الواحدة لا يمكن تفسيرها إلا بالقول بوحي بدئي هبط على البشرية عند أول تاريخها .

ولكن (شميدت) يلاحظ بعد ذلك أن هذا الكائن الأعلى لم تكن له المكانة نفسها لدى جميع الشعوب، وعبر كل الأزمنة، ويعزو ذلك إلى التبدل في أنماط الحياة وما يعكسه هذا التبدل على الأفكار والمعتقدات، حيث أكدت المجتمعات الزراعية مثلا على كائن إلهي مؤنث ذي خصائص قمرية، بينما رفعت الشعوب الرعوية إلها مذكرا هو سيد السماء، ورئيس مجمع آلهة الظواهر الطبيعية، أما الشعوب البدائية المعاصرة، فرغم اعتراف بعضها بوجود سيد أعلى للكون، فإنها لا تتوجه إليه بالعبادة ولا تقيم له الهياكل والمقامات، لأنها تعتبره بعيدا جدا، لذا هي تتوسل إلى آلهة أقرب إليها وأكثر دينامية[2] .

وقد أجرى (وليم شميدت) أبحاثا مكثفة على سلالة الأقزام (البيجمي) في الكونغو-باعتبارهم أدنى الأجناس البشرية تطورًا من منظور الدراونة * - وثبت له أنهم يعتقدون في إله واحد خالق مهيمن ، وقد نشر (شميدت) نتائج أبحاثه في كتابه (مكانة الأقزام في تاريخ تطور الإنسان) (Position of Pygmy People in the History of Human Development) وأيضًا في

---

[1] - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص221 .

[2] - ينظر المصدر نفسه، ص222- 223 .

* - الدراونة : نسبة لـــ(دارون) وأصحاب النظرية الداروينية التطورية .

كتابه (مجموعة لغات أستراليا) (the Grouping of the Languages of Australia)[1]، وقد خلُص هذا العالم الأثنولوجي؛ إلى أن أكثر أشكال الدين بدائية كان في حقيقة الأمر توحيديا، وهو ما يعني قلب مفهومي (سبنسر) و(تايلور) عن التطور من الإحيائية إلى التوحيد رأسا على عقب، وقال بأن العبادة الأولى لإله أعلى- والتي لا تزال ظاهرة- قد تدهورت إلى السحر والشرك والإحيائية قبل أن تتخذ شكلا حضاريا حديثا[2] .

ومنه فقد قلبت أفكار (أندرولانج) و(ويليم شميدت) المفاهيم التطورية في الانتقال من الشرك والتعدد إلى التوحيد، لتثبت أن الدين البدئي كان في أصله دينا توحيديا لا تزال آثاره إلى الآن .

وبالإضافة إلى الاتجاهين الرئيسين؛ الإنساني والتأليهي، فإن هناك نظريات ثانوية، لكن لا يمكن إغفالها لشأنها هي الأخرى في فهم نشأة الظاهرة الدينية .

ثانيا : الاتجاهات الثانوية في نشأة الدين : ونذكر هنا مجموعة من الاتجاهات تتأرجح في نظرتها لمنشأ الدين، بين كونه إلهي المصدر أو إنساني، من هذه الاتجاهات مختصرا :

1-الاتجاه النفسي : ويرى أهل هذا الاتجاه أن تجارب الإنسان النفسية في حياته العادية المألوفة، كافية لتوجيهه للدين، وللحقيقة العليا، وأهم ما تضمن هذا الاتجاه من نظريات :

أ - نظرية (ساباتييه) (Auguest sabatier)[3] : الذي يرى أن العقيدة تتولد في الإنسان منذ نشأته على إثر شعوره بمناقضة جوهرية بين حساسيته وإرادته، وهما القوتان اللتان تتألف منهما حياة النفس في أيسر مظاهرها، فالدين ينشأ من الأزمة الداخلية للنفس الإنسانية بين مبدأ سبب الوجود ونهاية الحياة، إذ أعطى للدين معنى عمليا، لفهم سبب الوجود العام ونهايته، ويمنح الثقة والإيمان بمبدأ الحياة ونهايتها، وهو شعور يستضيء بنور الإرادة المفكرة، ويستند إلى حقائق واسعة ملازمة لكل فطرة إنسانية، فهو بالتالي شعور بالتبعية المطلقة، وما التدين إلا اعتراف بهذه التبعية في

1 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص222 .

2 - أوين ديفز، السحر(مقدمة قصيرة جدا)، تر: رحاب صلاح الدين، ط 1، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م، ص24 .

3 - أوغست ساباتييه : (1839-1901م) لاهوتي فرنسي، وهو أكثر اللاهوتيين البروتستنت تأثيراً في الفكر الديني في أوائل القرن العشرين، وقد أطلق على فلسفته اسم الرمزية النقدية لأنه عدّ الديانات والمعتقدات والمذاهب والنحل والأساطير الدينية محاولات رمزية للتعبير عن التجربة الدينية بإظهار باطنها والتعبير عن الأبدي فيها بالزماني، وعن وقائعها الروحية بالصور الحسية، وقد شهد له البروتستنت والكاثوليك بالنجاح في التوفيق بين مبادئ الدين ومقتضيات العلم، وكان معلماً للعقائد في ستراسبورغ، وعميداً لكلية اللاهوت بباريس ، من مؤلفاته :بولس الرسول 1891م، ومعالم الفلسفة الدينية 1897م، وأديان اليقين ودين الروح 1904م .. (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج10، ص543) .

تسليم وخضوع، وهذا الشعور بالتبعية هو الأساس التجريبي للعقيدة الإلهية، تلك التي لا يفلت موضوعها من شعورنا قط، وبالتالي فالنزاع بين الشعور الذاتي والتجربة الخارجة، تكتمل وتختم بحد ثالث جامع ينتظم الحدين معا، وهو الشعور بخضوعهما جميعا لسلطان أعلى يسيطر عليهما وعلى العالم على السواء، لتكون المعادلة الحسابية "إن شعورنا بالتبعية المطلقة، هو شعورنا بحضور السر الإلهي فينا، هذا هو الينبوع العميق الذي تفيض منه الفكرة الإلهية بقوة لا تقاوم"[1].

ب – نظرية (**برجسون**) (**Henri Bergson**) (1859-1941م) : وإذا كانت نظرية (ساباتييه) نتيجة لإصطدام إرادة الإنسان بقوانين الطبيعة الثابتة، فإن نظرية (هنري برجسون) تقوم على جانبين آخرين من الحياة، أحدهما يرتبط بالقوانين الأدبية التي يفرضها المجتمع وما فيه من العرف والعوائد، والآخر يتعلق بالحوادث المستقبلية التي لا يمكن التنبؤ بها بصفة قاطعة[2].

أما عن العقيدة الإلهية والشعور بالواجبات الاجتماعية، فبيانه إنخلاع الفرد من بعض رغائبه، وتضحيته في مقابل إعمال كيانه العادي لحساب مصلحته الخاصة، مما يدعوه للأثرة، كان لابد من قوة أخرى تحفظ التوازن، وتؤاخي بين مصالح الفرد والجماعة، تلك القوة قد أعدتها الفطرة الإنسانية في النفوس حين أشربتها الفكرة الدينية، وصورت أن للمحضورات الاجتماعية آمر ناه، يقوم على حراستها، وذلك هو معنى الإله[3]، ورغم أن (برجسون) يرى أن هذه الصورة للآلهة وهم تخلقه الحاجة الإجتماعية، إلا أنه وهم تفرضه الحياة [4]وكذلك الأمر بالنسبة للأعمال اليومية، نجد فيها فراغا نفسيا عميقا، لا تملأه إلا العقيدة الإلهية تجاه الممكنات المستقبلية في حالة النجاح والإخفاق، واليأس والأمل...ليستمر دولاب الحياة كان لابد من ثقل يرجح كفة الميزان، وهو تصور إرادة خفية يركن القلب إليها ويعتمد عليها؛ تلك هي إرادة (الإله المستعان)[5] .

ت– نظرية (**فرويد**) : وكسيد للإرجاعية السيكولوجية يقرر (فرويد) أن الدين ما هو إلا عوارض عصابية يمكن دراستها في جملة ما ندرس من ظواهر العصاب عند البشر، وها هو يقرر قائلا :

"...فأنا ما أزال على يقين بأن الظاهرات الدينية تماثل الأعراض العصابية الفردية، تلك الأعراض التي باتت معروفة لدينا حق المعرفة بوصفها أصداء لأحداث هامة طواها النسيان منذ أمد بعيد، وقعت في

---

1 – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص135-138 .
2 – المصدر نفسه، ص139 .
3 – المصدر نفسه، ص135- 138 .
4 – المصدر نفسه، ص141 .
5 – ينظر المصدر نفسه، ص141 .

التاريخ البدائي للأسرة البشرية، ومن هذا الأصل على وجه التحديد تستمد الظاهرات الدينية طابعها التسلطي"[1].

وفي بيانه لنقاط التشابه الشائكة بين السيرورات العصابية والوقائع الدينية، ينتقل من علم النفس الفردي إلى علم النفس الجمعي، ليكشف النقاب عن مصدر الوقائع الدينية، فحسب المثال الوحيد الذي درسه عن اليهودية كديانة لموسى، نجده يقرر أن جميع الديانات التوحيدية بخاصة، تسير وفق التطور التاريخي الذي سارت عليه الديانة اليهودية نحو التوحيد[2] .

فالتطور الذي قطعه إنسان ما قبل التاريخ في نموه وتطوره يقاس على أساسه تطور الشعوب البدائية نحو الحضارة، إذ عليها أن تتجاوز مرحلة الدين كما ينبغي أن يتجاوز الفرد أحوال الطفولة العصابية في طرقه للنضج، فالدين هو نوع من العصاب الذي يصيب الجماعة[3] .

ث- نظرية (ديكارت) [4] : وتضم إلى الاتجاه النفسي؛ ذلك أن الفيلسوف الفرنسي (ديكارت) (Descartes) صرح بأن أساسها نفسي فطري، وهي طريقته الخاصة في إثبات وجود الله؛ حين يقول: ".. فإن الكائن الكامل الكلي القدرة والإرادة والحرية هو موجد الممكنات نفسها، وموجد الوجود بالفعل من بين الممكن من الموجودات، وهو وحده القادر على هذا الفعل، الذي يعجز عنه كل موجود محدود ...ولولا أننا ندرك أن الله جوهر ماهيته الكمال لما تسنى لنا أن ندرك أنه علة المجودات والمعقولات، وأنه وحده القادر على خلقها بكل ما يتطلبه الخلق من قدرة تفوق قوى بقية الموجودات المحدودة... فإن الكمال وحده الذي يصلح علة للحقائق الأبدية..."[5]..."ولكني أجد فوق فوق هذه المعاني الفطرية كلها معنى كائنا مطلقا كلي القدرة أبديا ثابتا، وهذا المعنى ليس منتزعا أو مؤلفا من معاني حسية... فهذا المعنى لكائن مطلق أبدي كلي القدرة وثابت لا يتأتى من الحس و لم أكونه من نفسي لأني ناقص أشعر بنقصي —بما أن الشك نقص- إذن معنى الكمال هذا الذي لديَّ

---

[1] - سيقموند فرويد، موسى والتوحيد، مصدر سابق، ص129 .

[2] - ينظر المصدر نفسه، ص129 .

[3] - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص326 .

[4] - ديكارت : (René Descartes) (1596-1650م) فيلسوف و رياضياتي فرنسي، لقب بأبو الفلسفة الحديثة، يعتبر أبو الفلسفة الحديثة ومؤسس العقلانية في القرن 17، وصاحب مبدأ الشك المشهور: أنا اشك إذا أنا أفكر إذا أنا موجود، عدت أطروحاته مرجعا للفلسفة الغربية إلى اليوم، منها كتابه : تأملات في الفلسفة الأولى 1641م، ولديكارت تأثير واضح في الرياضيات، فهو مخترع (نظام الإحداثيات الديكارتية) (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص298).

[5]- نظمي لوقا، الله (أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت)، القاهرة : المطبعة الفنية الحديثة، ص2003م، ص59.

قد وضعه فيَّ منذ ولادتي كائن كلي القدرة فعلا هو الله، كطابع الصانع في صناعته، فالله إذن موجود بما أن معنى الكمال مفطور فيَّ منذ البداية"[1] .

فشعور الإنسان أنه ناقص يوحي له بفكرة الكمال؛ الأمر الذي يدفعه إلى التفكير في علة الوجود، فنحن ندرك وجود الله كجوهر ماهيته الكمال الأسمى، الذي لا يشوبه نقص، ونجد معناه منطبعا في نفوسنا . فقد وجد هذا الفيلسوف في تأملاته أن عقيدة وجود الله تعتمد على تجربة نفسية، هي أقرب التجارب وأبسطها، حتى أن الذي يغمض عينيه، ويسد أذنيه، ويقطع علاقته بالكون وبالناس، ثم ينطوي على نفسه، ويتحسس أفكاره وتصوراته يجد مفتاح هذه العقيدة حاضرا في طيات نفسه [2]، وهذا التفسير لم يكن (ديكارت) أسبق الناس إليه، ولكنه أجاد تفصيله في التأمل الثالث من تأملاته .

2-الاتجاه الأخلاقي : وزعيمه الفيلسوف (عمانوئيل كانط) (Emmanuel kant) حيث جعل من قانون الأخلاق مقدمة أولى للإستدلال على وجود الله، فموضوع الذات الإلهية ليس موضوع علم ومعرفة، بحيث يثبت بالبرهان أو التجربة، بل هو موضوع إيمان عقلي بمعنى أنه مقدمة مسلمة لا مناص للعقل من أن يعتمدها لتصحيح الفكرة الأخلاقية الراسخة في النفوس، فكل إنسان حتى الطفل المميز يجد في نفسه استحسانا لبعض الأفعال واستهجانا لبعضها، ويدرك بنفسه ما يجب وما لا يجب أن يفعل، وقانون الأخلاق قانون أدبي يضاهي القانون الطبيعي، فهو يفرض نفسه علينا فرضا .

يصرح كانط : "إن الأخلاق إنما تقود على نحو لابد منه إلى الدين، وغير ذلك هي تتوسع إلى حد مشروع خلقي...في إرادته تكمن تلك الغاية النهائية لخلق العالم" [3]. والحاجة إلى الدين لا تأتي إلى الأخلاق من الخارج بل هي فكرة تنبع من الأخلاق وليس أساسها، لا يصبح الإنسان متخلقا لأنه متدين، بل الأمر بعين الضد؛ إنه لا يصبح متدينا إلا لأنه متخلق، أي قادر على إعطاء قيمة أو غاية نهائية لحريته، إن حاجة الإنسان إلى احترام أعظم من كل أنواع الإحترام الأخرى، هو الذي يجعله يفكر من نفسه في جعل شيء ما موضوعا للعبادة، فالعبادة الصحيحة ضرب من الاحترام الحر لقداسة نابعة من حاجة خلقية في طبيعتنا وليس من خوف كسول من المجهول[4] .

وفي مؤلفه (فلسفة الأخلاق) يقول (كانط) : "الذي يسري في كيانه القانون الخلقي ويحركه، إنما هو مؤمن بإله واحد دون حاجة إلى وحي أو دليل" [5]. فالدين معرفة بكل واجباتنا الأخلاقية كأوامر

---

[1] – نظمي لوقا، الله (أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت)، ص109 .

[2] – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص143 .

[3] – إيمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل، مصدر سابق، ص5

[4] – المصدر نفسه، ص6-7 .

[5] – فريال خليفة، الدين والسلام عند كانط، ط1، القاهرة : مصر االعربية للنشر والتوزيع، 2001م، ص61 .

إلهية، ليس بوصفها عقوبات أو أوامر تعسفية لإرادة خارجية، ولكن بوصفها قوانين لإرادة حرة، وهذه القوانين يجب اعتبارها أوامر للموجود الأسمى من خلال العقل العملي المجرَّد [1]. فالدين الأخلاقي عند (كانط) هو دين الفطرة، يتأسس وجوده في الشعور الأخلاقي، ولهذا كانت الأخلاق افتراضا مسبقا وأساسا لوجوده، ويستخدم (كانط) مصطلح الدين الأخلاقي، دين الفطرة، ودين العقل النقي، والمعنى واحد لديه للأخلاق، والدين الأخلاقي هو دين عملي يجمع بين الأخلاق واللاهوت [2]. فالدين يفترض الأخلاق مسبقا، ولذلك يؤكد؛ أن كل دين لا يفترض الأخلاق مسبقا إنما هو دين العبادات الخارجية والخدمات والمدائح، ولا يقوم الدين الأخلاقي على العبادات ولا على الطقوس أو المعجزات...ولكن يقوم على استعداد القلب ليحقق الإنسان كل واجباته الإنسانية بوصفها أوامر إلهية[3].

3-الاتجاه العاطفي : ونجد فيه :

أ- النظرية العاطفية (الخوف والطمع) : ونظرية هذا الإتجاه ترى في الدين إنعكاسا للعواطف الإنسانية لا استجابة لتأملات ذهنية، وأهم هاته العواطف عند البشر اثنان هما : الخوف والطمع، ومنتهى المخاوف هو الخوف من الموت، وغاية الطمع؛ هو الإستمرار والخلود، والحس الديني هو نتاج ثانوي لعاطفة الخوف من الموت وعاطفة الطمع في الخلود، ومفهوم الألوهة لم يترسخ إلا لكي يضمن الإنسان لنفسه خلاصا وبقاء أبديا، ومقتضى العاطفتين (الخوف والطمع) مفادهما تقسيم الإنسان إلى كيانين واحد مادي تدركه الموت لا محالة، والآخر روحي يسعى للخلود، وفكرة الروح ومصيرها توجد في كل الديانات قديمها وحديثها، ويختلف التصور بعد ذلك في مصيرها بعد واقعة الموت[4].

وأيَّد (وول ديوانت) في (قصة الحضارة) هذا الرأي حين جعل من الخوف أحد مصادر الدين قائلا: "الخوف أول أمهات الآلهة، وخصوصا الخوف من الموت، فقد كانت الحياة البدائية محاطة بمئات الأخطار وقلما جاءتها المنية عن طريق الشيخوخة الطبيعية، فقبل أن تذب الشيخوخة في الأجسام بزمن طويل، كانت كثرة الناس تقضي بعامل من عوامل الإعتداء العنيف، أو بمرض غريب يفتك بها فتكا، ومن هنا لم يصدق الإنسان البدائي أن الموت ظاهرة طبيعية" [5]. وعلى غرار ذلك عدَّ

---

[1]- فريال خليفة، الدين والسلام عند كانط، المصدر نفسه، ص79 .

[2] - المصدر نفسه، ص 80.

[3] -المصدر نفسه، ص 82، 89 .

[4] - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص318-325.

[5] - وول ديوانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص99.

(فريزر) عامل الخوف من غضب الموتى أكبر قوة تقف وراء نشأة الدين البدائي [1] . ومثل ذلك رأى (أدولف إرمان)[2] (Adolf Erman) أن الخوف مصدرا للدين حين قال : " كان الشعور الغريزي بالخوف والفزع عند الانسان من كل ما هو مجهول شيئا دفع الإنسان إلى احترام القوى التي تؤثر في حياته، دون أن يعرف كنهها، ومن هذا الشعور بعينه نشأت الديانة التي لم تكن إلا الاعتقاد المسيطر على ذهن الإنسان من أن هناك قوى تحيط بالإنسان وتؤثر فيه"[3].

ب- الشعور بالحب كباعث على التدين : ويقرر أصحاب هذا الاتجاه أنه ما دام التدين مصدره شعور الإنسان، فمن اللائق أن يكون هذا الشعور متعلقا بالحب، لأنه المعين الذي لا ينضب في الحياة الدينية، وهو الذي يفسر التضحيات والأعباء التي يتحملها المتدينون، ومعنى ذلك أن الغريزة الدينية على فرض وجودها، تتضمن كل المقومات التي تدفعها نحو الوجود الإلهي، لأن الحب ليس إلا تعبيرا عن نزهة أكيدة، ورغبة ملحة داخل الإنسان ذاته، وهذا ما جعل بعض الباحثين في الأديان يعتبرون أن الدين في كل صوره ينتهي أخيرا إلى الميل والشوق إلى الله، والدأب في البحث عنه، وأن الحق الذي ترثه كل الأديان، يتمثل في هذه الحقيقة الكبرى، وهي أن الكل يبحث عن الله، وأن الصور المختلفة للأديان، تدرك غاية الدين بدرجات مختلفة[4] .

3-نظرية الدين الطبيعي : بداية ننوه بأن نظرية الدين الطبيعي قديمة متجددة، وسنرى ذلك :

أما المقصود بالدين الطبيعي؛ فهو فكر الدين وممارسته كما يحددهما العقل بالاستقلال عن أي وحي، وليس المقصود هنا دين الطبيعة الذي يحيل إلى أشكال تاريخية للأديان حيث تعبد كائنات وعناصر للطبيعة، كالشمس والنجوم ...- وقد مرَّ هذا بنا- بل المقصود هنا هو القول بأن الدين طبيعي للإنسان، أي مطابق لطبيعته ومناسب لها، فيظهر تجاه معتقدات جميع الشعوب على أنه الدين العاقل؛ الموافق للعقل، حين مرَّ الدين في غربال العقل ففسره وبرره، ولهذا رأى بعضهم أنه المسيحية العاقلة وهي ما تبقى من المسيحية إذا جردناها من جميع عناصر السر الغامض، في حين رأى (فولتير)(François- Voltaire)[5] أن الدين الطبيعي دين مبتكر يفضل على المسيحية، لأنه

---

[1] - ينظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص66.

[2] - أدولف إرمان : (Adolf Erman) (1854-1937م) ألماني، من مؤلفاته : ديانة مصر القديمة، الحياة في مصر القديمة، مصر الفراعنة، الأدب المصري القديم...

[3] - سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان، مصدر سابق، ص30.

4 - محمد كمال جعفر، في الدين المقارن، القاهرة : دار الكتب الجامعية، 1970م، ص35- 38 .

5 - فولتير : (1694- 1778م) (François-Marie Arouet Voltaire) فرانسوا ماري أرويه المعروف باسم فولتير، كاتب فرنسي عاش في عصر التنوير، وهو أيضًا كاتب وفيلسوف ذاع صيته بسبب سخريته

محفور من قبل الإله في أعماق القلب أما (جان جاك روسو) فقد ذهب مباشرة إلى أن الدين الطبيعي = التوحيد 1 .

والدين الطبيعي يرتكز على العقل كمصدر ومعيار للمعرفة، إلا أنه لا يعني عبادة العقل، كما لا يلتبس مع أي دين عقلاني مستنتج من مبادئ عقلانية، بقدر ماهو مطابق للعقل فيما يعتبره صالحا، ولهذا فهو كمفهوم للنواة الأساسية المشتركة في أي دين 2 . وقد رأى أصحابه أنه يمثل العقيدة في حدها الأدنى، فهذا (بيار شارون piere charone[3] في (la troisvérités) يميز بين ثلاث مراحل: دين طبيعي، دين موحى به، ثم دين كاثوليكي روماني، كما رأى أصحابه أنه شمولي متسامح ابتداء من العصور القديمة الوثنية إلى روحانية القرن التاسع عشر .. وقد تحدث عن ذلك كثيرون ابتداء من (شيشرون) في "طبيعة الآلهة"وهو القائل : "إن الشعور المشترك الذي له الكثير من ظاهر الحق، والذي تلهمه الطبيعة للجميع، يعترف بوجود الآلهة..." إلى (جول سيمون) (François-Jules Suisse)4 في"الدين الطبيعي 1856م" مرورا بـــ: (اسبينوزا) [5] و(جون لوك) [6] و(دافييد

الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، من أعماله : كانديد، زائير، تاريخ الأمبراطورية الروسية ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص471)

[1] – يُنظر جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص16.

[2] – يُنظر المصدر نفسه، ص10– 11 .

[3] – بيير شارون : هو اللاهوتي والفيلسوف، الخطيب والأخلاقي في القرن السادس عشر، ولد 1541م، وتوفي 1603م، له كتب في الدين هاجم فيها الكاثولكية الأرثوذكسية، ودافع عن التسامح الديني حتى اتهم بالإلحاد، ومن أعماله : الحقائق الثلاث(1593م)، خطاب المسيحيين (1600م)، من الحكمة ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص286) .

4 – جول سيمون : François-Jules Suisse ، فيلسوف ورجل دولة فرنسي، ولد في 1814م، وتوفي 1896م، عضو في أكاديمية العلوم الأدبية، عضو في الأكاديمية الفرنسية، من أعماله : التاريخ النقدي للمدرسة الإسكندرية1844م، الدين الطبيعي 1856م، حرية الضمير 1857م ، الله الوطن الحرية 1883م ...

5 – اسبينوزا : (Baruch Spinoza) (1632–1677م) فيلسوف هولندي، من أهم فلاسفة القرن 17م، خط لنفسه نهجا فلسفيا يعتبر أن الخير الأسمى يكون في اتحاد الروح مع الطبيعة الكاملة، من مؤلفاته : الأخلاق1677م، رسالة في اللاهوت والسياسة 1670م، رسالة في السياسة 1676م... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص359) .

6 – جون لوك : هو فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي، ولد في 1632، نقد نظرية الأفكار الفطرية، وأسس نظريته حول الأفكار البسيطة والمركبة، من أعماله : مقال في الفهم الإنساني، وكتاب عن العقل البشري... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص598) .

هيوم)[1] 2...إلخ . فالقول بأن الدين طبيعي للإنسان فإن ذلك يمكن فهمه على معنيين : الأول أن الإنسان مدعو طبيعيا إلى الاعتراف بإله، والدين، أكثر من أي طابع آخر، بحيث يشكل السمة المميزة للإنسان، أو خاصته، وثانيا بأن الناس لديهم إلمام أول بوجود آلهة؛ الأمر الذي أتى من الرواقيين، كما أشار إلى ذلك (أفلاطون) و(أرسطو)، مما بعث على القول بأنه موضوع رضا شمولي، متعلق بحكم تمليه الطبيعة لا الوهم البشري، إلا أنه قد يرتكز على البحث عن سبب أول، أو على الإعجاب الذي يثيره تأمل النظام المنسجم للعالم، بل إن الحيوانات لديها قابلية للتدين3 .

أما عن الملاحدة المعترضين فهم مستكشفون جهلة، عجزوا عن فهم أشكالا للدين جد مختلفة عن أشكال دينهم، وعلى رأي الطبيعيين فلا يمكن للملحد إلا أن يكون مخبولا، متقلصا إلى صف الحيوان الوحشي، وتعيسا محروما من العقل، أو هاوي تناقضات منكر، ذلك أن الدين ليس طبيعيا للإنسان فحسب، وإنما يشكل طابعه الخاص، وعلاقة مساهمته في العقل الأول الإلهي في نفسه، وهو ما يميزه جذريا عن مستويات دنيا من مقياس الكائنات4 .

ففي مفهومه وفي مواضيعه فالدين الطبيعي قد ولد- لدى (شيشرون) - في وسط رواقي كرد فعل على نزاعات المدارس الفلسفية حول طبيعة الآلهة، والتي وضعت التفكير في معيار الحقيقة في خطر، ثم انبثق من جديد في القرون الوسطى لدى (أبيلار) (Peter Abelard)[5] في النقاش بين اليهودية والمسيحية والفلسفة، ثم كانت عودته إلى المسرح الفلسفي خلال نقاشات الإصلاح، ليولد من جديد في نغمة تبريرية تشكيكية، ثم تلاحقت حركته حتى القرن التاسع عشر، إلا أنه ظهر كدين للفلاسفة، فنظر إليه على أنه خرافة بالنسبة للتفكير الديني، أو كعمود ثالث للدين تسرب إلى أرضية الفلسفة ...[6] **فالدين الطبيعي إذن برز كرد فعل على النزاعات بين الملل والمدارس اللاهوتية والكنائس**

---

1 - دافيد هيوم : (1711م- 1776م) فيلسوف واقتصادي ومؤرخ اسكتلندي وشخصية مهمة تاريخ التنوير الاسكتلندي، اشتهر كمؤرخ بداية، لكن الأكاديميين في السنوات الأخيرة ركزوا على كتاباته الفلسفية، وكان كتابه تاريخ إنكلترا مرجعا للتاريخ الإنكليزي لسنوات طويلة، كما أن من مؤلفاته : رسالة في الطبيعة البشرية1739م، مبحث في الأخلاق 1751م، محاورات في الدين الطبيعي 1779م ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص726) .

2 - يُنظر جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص 156 ، 19 .

3 - يُنظر المصدر نفسه، ص13 .

4 - يُنظر المصدر نفسه، ص 14 .

5 - بيار أبـــلار: (Pierre Abélard) (1079-1142م) ، فيلسوف فرنسي شهير وله الفضل في إنشاء جامعة باريس، ويعتبر شعلة ألهبت عقل أوروبا اللاتينية في القرن الثاني عشر، وممثلا لأخلاق عصره وآدابه، من أعماله : الدين المسيحي، الدين ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص42) .

6 - يُنظر جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص5 .

التي حظرت التفكير العقلي، ليتبلور في الأخير على أنه القاسم المشترك الأصغر ومرحلة أولى نحو الدين الحقيقي .

ومن المواضيع الرئيسية للدين الطبيعي؛ مسألة وجود الآلهة وطبيعتها التي تستلزم التعبد والشكران والإجلال، وبعدها بأن العالم تحكمه الآلهة، وأخيرا بأنها تسهر على قضايا البشر مما يؤكد العناية الإلهية، مما ينبئ عن وجود قانون طبيعي إلهي، هو ليس من اختراع البشر بل هو قانون خالد يحكم العالم أجمع... [1] وعلى هذا فإن الدين الطبيعي، أو ما سُمي بـــ(الدين الحقيقي المشترك) يتضمن المكونات التالية : إيمان؛ تتضمنه عقيدة بحد أدنى، تعبد داخلي يرتكز على الإعتراف بالألوهية وعلى ممارسة الحياة المستقيمة، قانون تتضمنه قاعدة التبادل، أو مطلب العدالة والإحسان، أمل؛ هو أمل السعادة الحاضرة والآتية، ثم كنيسة تمتد إلى تجمع الناس العاقلين والعادلين[2].

فالدين بعد عملية البحث في الدين المسيطر (المسيحية آنذاك) وتنقيته ظهر في صورة الدين الطبيعي، ولهذا يمكن القول أن الدين بدأ طبيعيا، سهلا بسيطا، وحين لحقت به الخرافات والأسرار، استحال لغزا غامضا، وجعلت منه الأطماع موردا مربحا حين تم شحنه بالقرابين والتقدمات، كما أن أهم خاصة يعرف بها الدين الطبيعي، هو أنه دين سابق لهبوط الوحي ويأتي قبله، وأهم معتقد يرتكز عنه هو الاعتقاد في إله حكيم، ذي عناية كاملة .

ورغم تقليص أنصار هذا المذهب الدين إلى تعليم العقل أو الفلسفة، وإنكار الوحي الإلهي فوق طبيعي، فإن هناك فئة طبيعية فرعية كـــ(روسو) و(كانط) تقبل بإمكانية الوحي للدين إلا أنها إمكانية غير ضرورية بشكل حتمي، فهؤلاء يتبنون عقلانية صرفة، حيث يكون العقل وحده الآمر دون أي باعث آخر، بكونه المفسر الفوري لصوت الإله وأوامره، ليختلط الدين الطبيعي هنا بالدين الطبيعي الأخلاقي، فلا ضير من أن يعرف (كانط) الدين بأنه "معرفة واجباتنا كأوامر إلهية " فالدين الحقيقي إذن لا يتضمن سوى قوانين وإرشادات، ولا يرتكز إلا على المفهوم البحت للواجب، فهو وحده ضروري أخلاقيا، يتوجب الوصول إليه، أما الوحي فمجرد مرشد، وعلى هذا فإن (كانط) قد يقبل بالكتاب باعتباره وحيا إلهيا إذا وافق المقياس الأسمى لاعتباره كذلك وهو ما جاء في الكتاب المقدس (إن كل كتاب موحى به من الله، هو نافع من أجل التعليم والعقاب والإصلاح من أجل الأحسن) [3] فالتحسين الخُلقي للإنسان، إنما يشكل الغاية المخصوصة لكل دين عقلي[4] .

---

[1] - ينظر جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص 23- 24 .

[2] - المصدر نفسه، ص 57 .

[3] - الكتاب المقدس، العهد الجديد، رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس (3: 16) .

[4] - ينظر إيمانويل كانط، الدين في حدود مجرد العقل ، مصدر سابق، ص185-189، وجاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص97 .

المبحث الثاني : نقد الاتجاهات الحديثة في منشأ الدين

تمخضت الاتجاهات الحديثة لدراسة نشأة الدين عن نظريات عدة، منها اتجاهات رئيسة كالاتجاهين التطوري والتأليهي، وأخرى جانبية؛ كالاتجاه النفسي أو الأخلاقي أو العاطفي... وفيما يلي نهدف لنقد الاتجاهات السالفة وتقويمها وفق الآتي :

المطلب الأول : نقد النظريات التطورية

وهنا سنعمد لنقد النظريات التطورية، ومن خلالها نقد منهج القول بالتطور في الأديان عموما وتقويمه، والمتبع هنا هو نقد النظريات التطورية السالفة أو تقصي ما توجه به من نقد لها كلا على حده :

أولا : نقد النظرية الأرواحية : توجه النقد لهذا المذهب الحيوي من عدة جوانب أهمها :

1- أن الصور التي يستحضرها البدائي غير متماسكة وغير مطردة، ثم إنه لا يستطيع أن يعتقد أن ما يراه حقائق ثابتة وعلى الدوام لا اختلاف بينها، كما أنه لا يستطيع أن يميز في أحلامه بين ما يكون ناشئا عن وحي وإلهام، وما يكون منبعثا عن أوهام المخيلة[1] .

2- أثبت علم الأجناس أن فكرة البدائي عن النفس كانت فكرة مركبة، غير بسيطة فلم يكن يعتقد أن له نفسا واحدة بل له عدة نفوس، وثبت أيضا أن الإنسان قديما كان يعتقد أن له مشاركات في اسم أو في ظل، أو في الطوطم، وأن كل هذه الأشياء توجد في وقت واحد ويتصل بها الإنسان وقد تمتزج وتتشابك، ولكنها لم تنبثق إطلاقا عن إحساس بفردية واحدة، أما المذهب الحيوي، فيضع تصورا فرديا للأنا (Ego)، وهذه الفكرة التي جعلها (تايلور) عن التطور العقلي للإنسان لم يصل إليها البدائي على الإطلاق[2] .

3-كما أن المعلومات الأكيدة المستمدة من علم آثار ما قبل التاريخ، أن عبادة الأسلاف لم تنشأ عند جذور الدين كما قال (سبنسر) وأتباع المدرسة الأرواحية، بل بعد مائة أو مائتي ألف عام من ظهور الشواهد على حياة دينية منظمة لدى الإنسان الأول، ذلك أن عقيدة الجماجم، التي عُدت المؤشر الأول في تاريخ الدين على عبادة الموتى، لم تظهر وتأخذ أبعادها كاملة إلا في وسط قروي مستقر يتمتع بحياة دينية منظمة، تحمل وراءها عشرات ألوف السنين من التفاعل ضمن البيئة الاجتماعية، فهذه العقيدة التي تقوم على الإيمان بقوة الأرواح وقداستها لم تنشأ في فراغ ديني، بل اشتقت من

---

[1] - ينظر علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص41 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص41 .

معتقدات أقدم منها، متوارثة عن الباليوليت الأعلى [*]، وتعايشت معها دون أن تحل محلها [1]، أي أن قدسية الأرواح، وبشكل خاص قدسية الأسلاف المبجلين، إنما تستمد من مفهوم سابق، مؤسس وراسخ للقداسة، ومن أفكار دينية ناضجة عن المقدس وعن الدنيوي[2] .

أما عن نقد (دوركايم) للنظرية الأرواحية (النقد الاجتماعي) : حيث يعد (إيميل دوركايم) من الذين كرسوا جهدهم البالغ في نقض النظرية الأرواحية، رغم أنه يرى أن هذه النظرية الكلاسكية، لابد من نفيها إيجابيا، إذ أنها خدمت علم الأديان وتاريخ الأفكار بشكل عام حيث أخضعت مفهوم الروح للتحليل التاريخي، بعد أن كان مجرد بديهيات يتداولها الفلاسفة [3]. ويرى (دوركايم) أن (تايلور) قد شكّل المعالم الأساسية للنظرية الأرواحية، ثم جاء (سبنسر) ليدخل بعض التغييرات، ولكن عموما فهما متفقان على الشروط والحلول التي قدمتها النظرية، ولدى نقده للنظرية الأرواحية ارتكز (دوركايم) على نقد أسسها الثلاث :

. **نقد الأطروحة 1:** نشوء فكرة الروح عن ظاهرة الأحلام : في البداية يعترض (دوركايم) على إعطاء الحلم هذه الأهمية الكبيرة للإستدلال به على فكرة ازدواجية الإنسان، فيكفي أن يستيقظ الإنسان ليدرك أنها محض تكهنات[4]. كما أن لدى دراسة (دوركايم) للميلانزيين [**] والأستراليين تبين له أن هؤلاء أيضا يؤيدون فكرة هجرة الأرواح أثناء الحلم، لكنهم يميزون بهذا فقط تلك الرؤى التي تعصف الخيال بقوة، وتلك التي يعتقد النائم أنها تتعامل مع الأرواح الدينية، والأرواح الخيرة والخبيثة، وأرواح الموتى، فهناك تمييز واضح بين الأحلام العادية والرؤى الدينية، وهذا يعني أن البدائي كان لديه أفكار ومفاهيم دينية كانت قائمة بالفعل هي من هداه للتمييز بين أنواع الأحلام[5] .

---

*- الباليوليت الأعلى : الباليوليت (Palaeolithic)؛ مصطلح ذو أصل يوناني مستخدم منذ نحو منتصف القرن التاسع عشر، (Palaios = قديم) و(Lithos= حجر) و يقصد به العصر الحجري القديم، وهو أقدم عصور ما قبل التاريخ وأطولها، وهي عصور ما قبل معرفة الكتابة، وتسمى العصور الحجرية، بدأ منذ حوالي 2,5 مليون سنة خلت تقريبا، مع ظهور الأدوات الحجرية الأولى، وانتهى في حدود 12000 قبل الميلاد، ويقسم العصر الحجري القديم إلى ثلاثة أقسام ؛ العصر الحجري القديم : الأدنى (منذ نحو 2,5مليون سنة إلى نحو 200 ألف سنة خلت)، والأوسط (منذ نحو 200ألف سنة إلى نحو 40 ألف سنة خلت)، والأعلى (منذ نحو40 ألف سنة إلى نحو12 ألف سنة خلت) قبل الميلاد .

1 – علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص318 .

2 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص219 .

3 – Emile Dorkheim, les formes elèmentaire, p63.

4 – ينظر المصدر نفسه، ص60 .

** – الميلانزيون : نسبة إلى ميلانيزيا .

5 – ينظر المصدر نفسه، ص61 .

. **نقد الأطروحة 2** :كيف نشأت عبادة السلف، وكيف أصبحت النفوس مستحقة للعبادة؟ : حيث يرى (دوركايم) أن فكرة التقديس للروح بعد الموت هي في الأساس فكرة دينية، ويظهر ذلك جليا عند الميلانزيين، حيث يعتقدون أن روح الإنسان حين تترك الجسم بعد الموت، يتم تغير اسمها إلى ما يسمونه (natna) أو (tindala)[1] . ويلفت الانتباه إلى انتقاء البدائي لأرواح الموتى؛ فالمقصودون بالتقديس فقط هم أجداده، وأسلافه وفقط أولئك الذين كان لهم شأن وعز إبان حياتهم، وهذا ما يدعى بـــ(المانا) عند الميلانزيين مثل : الكاهن والساحر ومن كانت لهم سلطة دينية، وحضوا بالنقد في حياتهم، فهؤلاء تنصب لهم التضحيات والقرابين [2]. يقول (الكودرينتغون)[3] (Robert Henry Codrington) (1830-1922م) : "فلا يدخل في مصطلح (المانا) أولئك الذين يأتون من عامة الناس والحشود المدنية، فالموت لا يترك الآثار نفسها عند سائر الناس كالعاديين مثلا، وهم تفاهات – كما يقول (الكودرينتغون)- كما كانوا قبل الموت، لأن أرواحهم استهلكت بالكلية بفعل الموت، وليس لها أية أفضلية بعد الموت"[4].

ومنه ففرضية النظرية الأرواحية بأن أول الكائنات المقدسة كانت أرواح الموتى، ومن خلالها النظر إلى عبادة الأسلاف على أنها أول العبادات لا شك فرضية خاطئة .

. **نقد الأطروحة 3** : التمديد من عبادة الأرواح إلى عبادة الطبيعة : يوجه (دوركايم) النقد ذاته عن مصدر القداسة لمفهوم حيوية المادة عند النظرية الأرواحية، والذي أسس إسقاطا لفكرة الروح عند الإنسان على عالم المادة (الطبيعة)، حيث أن البدائي يرى الشجرة التي تنحني في اللهب الذي يأتي ويذهب مثله كائنا حيا، وعليه فكلاهما تعتبر كائنا خارقا . فرأي (دوركايم) ينتهي إلى أن المنظرين للأرواحية قد وهموا فيما نسبوه للإنسان البدائي من قلة الفطنة، مما يجعله لا يفرق بين الجماد والأحياء، ويحيل الكائنات التي يراها في المنام حقيقة، ظنا من هؤلاء أنهم أفلحوا في البحث عن أصول الدين، حين جعلوا من الأحلام وما يراه النائم حلا للمشكلة، ولو كان رأيهم صحيحا، فإن المعتقدات الدينية كلها مبنية على التمثيلات والهلوسة وليس لها أي أساس موضوعي، فلا يمكن لنظام

---

[1] - Emile Dorkheim, les formes elèmentaire, p62 63 .

[2] - ينظر المصدر نفسه، ص64 .

[3] - الكود رينتغون : (Robert Henry Codrington) (1830-1922م) الأنتربولوجي، وكاهن الكنيسة الأنجليكانية، أول من قدم دراسة عن مجتمع الميلانيزيا وثقافته ولغاته وعاداته، ومن أعماله : لغات الميلانزيين 1885م، الميلانزيين : دراسات في علم الإنسان1891م، الميلانزيين : موسوعة الدين والأخلاق1891م ...

[4] - Robert henry codrington, Melanesians (their Anthropology and Folklore), Ed7, James Hastings ,1915, Vol VIII, p 529-538.

فكري بالجملة كالدين، حيث ينظم تحته، ويلتف حوله الناس من مختلف الأعمار، لمدهم بما يحتاجونه من طاقة، يكون قد بني على أوهام[1].

وخلاصة ما نصل إليه أن (دوركايم) يؤكد أن فكرة الأرواح ليست هي أصول الفكر الديني، بل الحقيقة هي العكس تماما؛ أي أن الأفكار الدينية قد سبقت معتقد الأرواح، وهي التي أصبغت عليه صفة القداسة الدينية .

ورغم شدة نقد (دوركايم) للنظرية الأرواحية، إلا أن ما يقال حسب الواقع أن عالم العجائب الروحية ليس بأقل من عالم العجائب الطبيعية إيماء لفكرة الألوهية، بل هو أمس بها رحما، وأن فكرة الروح في ذاتها ليست قاصرة على الأمم الهمجية، بل هي أوسع ميدانا، وأقدم تاريخا، وأقوى بنيانا من تلك الصورة البدائية، وقد اعترف الناقد بأنه لا تخلو أمة من ديانة كذلك لا تخلو من فكرة القوة الروحية[2].

ثانيا : نقد النظرية الطبيعية : يمكن أن نجمل أهم ما وجه إلى المذهب الطبيعي من نقد في النقاط التالية :

1- أن ما استند عليه أصحاب المذهب الطبيعي بعد دراستهم للفيدا الهندية، وملاحظتهم حول وجود أسماء الآلهة بأسماء مظاهر الطبيعة كالشمس، والنار، وتشابهها عند كثير من الأمم كما ذهب (ماكس موللر)، رُدَّ عليه بأن أصول الكلمات التي زعم (موللر) تشابها بينها وبين غيرها من الديانات الأخرى لم توجد منفصلة على الإطلاق، بشكل يدل على أنها قائمة بذاتها، وإذا كان الأمر كذلك فلم يعد من الممكن أن تكون هذه الأصول للغة البدائية للهنود الأوربيين، فعند البحث القائم على الاستقصاء والنقد، أثبت أن آلهة الفيدا إن كان ثمة آلهة فيها لا تتحقق فيها الصفة الطبيعية التي ينسبها إليها (موللر)[3] .

2- لو كان منشأ الدين هو النظر في جمال الطبيعة وجلالها، لكان يجب أن يوجه التقديس أولا إلى القوى الكونية العظمى؛ إلى الشمس والقمر والبحر والجبل والرياح، وأشباه ذلك، لا إلى محقرات الأمور من أنواع النبات والحيوان، والمفروض أن عبادة هذه أقدم من تلك فيما يزعم المعترض، ولو كان هدف العبادة هو استرحام الطبيعة لما استمر الإنسان على تدينه بعدما ظهر له عدم استجابة الطبيعة له، والحاصل أن الديانات لم تنقطع ولن تنقطع، فلابد أن يكون لها منشأ وهدف آخر[4].

---

[1] – Emile Dorkheim, les formes elèmentaire, p69 .

[2] – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص135 .

[3] – علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص80-81 .

[4] – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص123 .

فالذين ذهبوا إلى أن التأمل في مظاهر الطبيعة هو ما دفع الإنسان إلى التدين قول يحتاج إلى نظر، لأن رتابة الطبيعة لا تولد إلا إحساسات مؤقتة، ولا يمكن أن تعد أساسا لمذاهب ثابتة، وطقوس دائمة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى هل للإنسان البدائي المقدرة الفكرية والتأمل في تلك المظاهر واستكشاف العجائب في هذا النظام[1] !

3- وأما عن إسناد العبادة إلى الطبيعيات نفسها فهو إسناد فيه كثير من التجوز فقد قرر مؤرخو الأديان أن الماديات علوية كانت أو سفلية، لم تكن يوما ما هي المقصودة بالعبادة الحقيقية، وإنما كان تقديسها بطريق التبع والمجاورة، إما لأنها تعد مهبطا ومزارا لقوى خفية علوية، وإما لأنها تعتبر رمزا لتلك القوى أو تصويرا مجسما لصفاتها وأفعالها [2] . أما القول بأن الإنسان عبدها خوفا منها فإنه قول توجه إليه (ساباتييه) (Auguest Sabatier) بنقد وجيه حين قال بأن (شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية، ولابد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته، ذلك أن الخوف إذا استأثر بالنفس سحق الإرادة وشلّ الحركة، وولّد اليأس، ومن وقع فريسة للرعب إن لم يتصور إمكان الخلاص لم يفكر في البحث عن عون ينقده من الخطر الذي وقع فيه، فلابد لتحقيق الشعور الديني من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلها من الأمل والرجاء اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع)[3] .

فرغم أن فكرة الخوف رئيسية في الأديان – لا سيما الكتابية منها – إلا أن هناك فرقا شاسعا وبونا بعيدا بين الخوف الذي تمليه الطبيعة كقوة غاشمة ليس لها هدف ولا غاية، ولا نفع ولا ضرر، وبين الخوف الذي ورد في الأديان الكتابية، لأنه خوف بمثابة التحذير والتنبيه من أجل المصلحة الغائية له، ثم إن هذا الخوف لا يعمُّ مطلق الإنسان، وإنما يتوجه إلى المنحرف، إضافة إلى أن الخوف في هذه الأديان ينصرف في معظم الحالات إلى الأمور التي تتعلق بالحياة المستقبلية[4] .

4-أما عن التفرقة بين المقدس والعادي (غير المقدس) فإنها في هذه النظرية ترجع إلى التفرقة بين (الإلهي) و(الإنساني) أو بين العظيم والفائق العجيب، وبين العادي المبتذل المطروح، ذلك أنه ليس كل ما تقع عليه الحواس سواء في استرعاء الانتباه، أو استيقاف النظر وإيحاء العبرة واختلاب الألباب، وليس كل الذي تراه أنت بارعا باهرا، أراه أنا كذلك، وهذا يقسم الكائنات في نظر الناس خاصتهم وعامتهم إلى ما هو عادي لا يؤبه به وما هو جليل بذكر المعاني الإلهية، ويوحي بفكرة التقديس؛ أعني

---

[1] – ينظر علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص87.

[2] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص124 .

3 – المصدر نفسه، ص 126 .

[4] – فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، ص112 .

أنه يبعث في النفس أبلغ معاني الخضوع وأعمق آيات التعظيم لا لهذه الكائنات نفسها، ولكن لبارئها ومصورها[1] .

وعن نقد (دوركايم) للنظرية الطبيعية : فيرى (دوركايم) أن المدرسة الطبيعانية قد أقامت حججها انطلاقا من نقدها للمدرسة الأرواحية التي تنشئ الدين على أساس من التهويمات التي تتخذ من الأحلام والأرواح منطلقا لها، فادعى الطبيعانيون أنهم إنما ينشؤون الدين على أساس من الخبرة المحسوسة، غير أن الطبيعانية في واقع الأمر، لا تختلف عن الأرواحية من حيث النتيجة، لأنها تختصر الدين في النهاية إلى نظام من التهيؤات القائمة على شبكة من المجازات التي تفتقر إلى الموضوعية .

ويمكن عرض نقد (دوركايم) للنظرية الطبيعية وفق نقد الأسس الآتية :

. **نقد أطروحة 1** : أن العامل الأول في إثارة الفكرة الدينية، كان النظر في مشاهد الطبيعة : فـــ(دوركايم) يرى أنه؛ لو أن باعث العقيدة هو الضعف أمام الطبيعة والتماس الطريق لاجتلاب خيرها، واتقاء شرها، لكانت الديانات كلها ضربا من الخرافة، لأنه ليس بالدعاء والصيام وتقديم القرابين، ونحو ذلك يكون استدرار الأمطار وإجراء الأنهار، واتقاء الحر والبرد، والجوع والعري والفقر والمرض، وقد أثبتت التجربة فشل هذه الوسائل في غالب الأمر، ومن جهة أخرى لو كان مبعث العقيدة هو المشاهد الكونية، وهدف العبادة هو استرحام الطبيعة، لما استمر الإنسان على التدين، بعدما ظهر له عبث المحاولة، ولو استطعنا تفسير عبادة القوى الطبيعية العليا بشعور الانبهار أمام مظاهرها، فكيف يكون تفسير عبادة الأحجار والأشجار، والحشرات، وتافه الأشياء التي لا توحي بالعظمة، وفي الأخير كيف نفسر ما في الأديان من الفصل التام بين المقدس والدنيوي من الأشياء[2] .

وهذا يقال بخصوص الطبيعة الرتيبة أما بخصوص الطبيعة المفاجئة، أو القاهرة، فإن (دوركايم) يرى أن القمر قد يخسف أحيانا، وقد تكسف الشمس أحيانا، وقد تفيض الأنهار أو تعصف الرياح، إلا أن هذه الانقطاعات في مسار الطبيعة الروتيني لا تترك إلا انطباعات مؤقتة، ما تلبث أن تزول، ولا يمكن لهذه المفاجآت الطبيعية أن تكون أساسا لهذا النظام الدائم من المعتقدات، والممارسات، مما يسمى دينا. وفوق هذا وذاك، فإن مفهوم الطبيعة الطاغية هو مفهوم حديث نسبيا، لأن الإنسان القديم لم يكن يشعر بأن قوى الطبيعة أكبر من قواه الذاتية، بل كان يعتقد بقدرته على التدخل في مسار العمليات الطبيعانية بواسطة طقوسه السحرية، فهو يأمر ويتحكم بماء المطر ويحفظ حركة الأجرام

[1] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص125 .

[2] – Emile Dorkheim, les formes elèmentaire, p112-121.

السماوية، إنه لم يشعر قط بضآلته أمام جبروت الطبيعة، فكيف يمكن لما يقع تحت سيطرتنا أن يثير فينا الروع الذي يولد الحس الديني [1]؟ !

كما أن مما اعترض به (دوركايم) ما أشار إليه (ساباتييه)، وهو أن شعور الرهبة والخوف من القوى العلوية، لا يكفي وحده لتفسير الفكرة الدينية، ولابد له من شعور آخر يوازنه ويلطف من حدته... فلابد لتحقيق الشعور الديني من مقاومة الخوف والرهبة بما يعادلهما من الأمل والرجاء اللذين يبعثان على الدعاء والتضرع، وهذه هي حقيقة التدين [2] .

. **نقد الأطروحة 2** : أن سبب التطور الفكري من النظر في مشاهد الطبيعة إلى التفكير في الكائنات الروحية هو الالتباس اللغوي : كما أن القول بتوسط اللغات في التطور الفكري من النظر في مشاهد الطبيعة إلى التفكير في الكائنات الروحية؛ الأمر الذي قال به (ماكس موللر) إنما ينجح في تعليل الأساطير والمُثل، ولا يصلح تفسيرا للأديان . وقد اعترف (ماكس موللر) بأن العقلية التي تتصور العناصر بصورة الحيوان المفكر عقلية مريضة، أوقعها الوهم والخيال في حبائله، حتى وصل بها إلى درجة الخبل والهذيان، ويضيف (دراز) في الوقت ذاته أنها ليست عقلية دينية، كما يُعلَم من معنى الدين؛ بأنه اعتقاد في روح مستقلة على الطبيعة لا في نفس محصورة في الطبيعة، مسايرة لها، ويرى (دراز) أن الصواب في تلك النقلة الفكرية من المادة إلى الروح أنه انتقال من الكائن إلى المكوِّن، وهو انتقال معنوي طبيعي من غير حاجة إلى توسط اللغات [3].

وفي الحقيقة فإن ما تقدمه النظرية الطبيعية من جعلها الطبيعة الكونية سببا لإثارة الحس الديني، لا يترك كله كما لا يؤخذ كله، فليس هو صحيحا بمجمله، وفي المقابل لا يمكن لإنسان أن يتجاهل ما يبثه تناسق الكون وجمال الطبيعة وجلالها في النفس البشرية من انبهار وإجلال وعظمة، فالإعجاب ببدائع الملكوت ــ كما يقول دراز — أحقُّ بأن يتحول إلى مناجاة مبدعه والإفضاء إليه بعبارات التبجيل العميق والتقديس البليغ، وهو لبُّ العبادة وجوهرها، كما يحمل الإعجاب بالأثر الفني البارع الإنسانَ بفطرته على التساؤل عن الفنان الذي أبدعه، ليعبر له عن هذا الشعور والتقدير !!

فالعقيدة الإلهية والحركة العبادية، تتولد من تزاوج مبدأين نفسيين أحدهما غريزة عقلية وهي غريزة التطلع لفهم الطبيعة، والثاني حاسة وجدانية، وهي حاسة التذوق الفني لما في الطبيعة من جمال وجلال، فالقول بأن فكرة التأليه وليدة هذه النظرة في الطبيعة أي أن الإرتباط بين هذا الإحساس

---

[1] – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص318، وينظر Emile Dorkheim, les formes elèmentaire, p107

[2] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص118 .

[3] – ينظر المصدر نفسه، ص116 .

الكوني، وهذا الإحساس الديني، تثبته التجارب النفسية المتكررة في كل الأمم وفي كل العصور [1] . ويرد به على نقد (دوركايم) من أن الإلف والعادة يفلان من حدة الشعور، وأن استمرار المحسات على نسق واحد يضعف باعثة التفكير في مصدرها —وهذا لا ينكره أحد- إلا أن المظاهر الكونية مهما تشابهت أدوارها لا تفتأ كل حركة منها تعرض على حواسنا صورا متبدلة وألوانا طريفة، يرى فيها الرائي آية عجيبة، ويحس أمامها بروعة وخشوع [2] . وأما قوله بأن البدائيين قاصرون عن هذا الإدراك لزعمهم القدرة على تسخير عناصر الطبيعة لأهوائهم، فهو قول مناقض للعموم، فجمهور العامة أضعف من أن يظنوا ذلك بأنفسهم، ولو ظفر بعضهم بتسخير شيئ من قوى الطبيعة بالسحر وغيره، لم يمنع ذلك خضوعهم واستلامهم للقوانين العليا التي لا تمتد إليها يد المخلوق، إضافة إلى أن فكرة السحر مباينة تماما لفكرة التدين في طبيعتها، فالساحر أو الكيميائي حين يسخر شيئا فهو لا يعبده، وهو لا يسخر شيئا يزعم أنه يعبده[3] .

وأخيرا نختم بالقول بأن **النظرية الطبيعية قد وافقت الكثير من الصواب في إرجاعها الحس الديني للإحساس الكوني أو الطبيعي، ويعد تفسيرها من أصح التفاسير وأقواها رغم ما تعرضت له من انتقادات، إلا أنها وحدها لا تكفي دليلا على نشأة الدين .**

وعلى اعتبار كلا النظريتين الأرواحية والطبيعية، ذات توجه عقلاني، فإن ما ينتقد به ذووا هذا الاتجاه في نشوء الدين، أن ما جاءت به نظرياتهم إنما يقبل كتفسير لنشوء فكرة الآلهة في تاريخ الدين، لا كتفسير لنشوء الدين في حد ذاته، لأن الدين أسبق بكثير من المرحلة التي ظهرت فيها الآلهة في الحياة الدينية للإنسان[4] . فالعقلانيون يؤكدون على أن فكرة الألوهية تنشأ في الذهن نتيجة التأمل في موضوع ما، ومحاولة الإجابة على تساؤلات تدور حوله، غير أن الإحساس الديني لا نجد فيه موقفا فكريا عقلانيا من أي نوع على رأي منتقديهم، وعلى هذا فأبرز من تصدى للاتجاه العقلاني بالنقد نجد (إيميل دوركايم) الذي يرى أن التفكير لايخلق الخبرة الدينية في النفس الإنسانية، ولا يزرع فكرة الألوهية فيها بل يأتي لاحقا، والتأمل لا يسبق الإحساس بالألوهية، بل ينطلق من هذا الإحساس، كما أن الخبرة الدينية لا تعمل على زيادة معارفه ومعلوماته بخصوص موضوعات معينة، بل تجعل منه إنسانا متكاملا مع نفسه وما يحيط به[5] .

---

[1]- عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 117 .

[2] - المصدر نفسه، ص120 .

3 - ينظر المصدر نفسه، ص120- 126.

[4] - المصدر نفسه، ص316.

[5] - المصدر نفسه، ص316 .

وما ينبغي أن نذكر به بعدُ؛ أن نقد (دوركايم) وأنصار مدرسته لكلا المذهبين الحيوي والطبيعي، إنما هو لإثبات منهجهم على أنقاض إبطال وجهة نظر الخصم ليخلص الناقد بعدها إلى إثبات مذهبه الرامي إلى أن الباعث على التدين عند الإنسان هو ما اخترعه من فكرة (العقل الجمعي) المتمثل في (الطوطم)، إلا أن رأيه هذا لم يسلم قطُّ من النقد .

ثالثا : نقد النظرية الطوطمية : فرغم أن (دوكايم) بنى مذهبه على أنقاض المذهب الطبيعي والحيوي، حيث قام بنقد المذهبين ليدلل بعدها على صحة نظريته إلا أن الباحثين تناولوا نظريته في الطوطم بكثير من النقد، وأتوا على بنائها من القواعد، ورغم أن الأنتربولوجيين يتفقون مع (دوركايم) في التحديد السابق للوظيفة الاجتماعية للدين، وخاصة في المجتمعات البدائية، إلا أن المعلومات الميدانية التي اعتمد عليها قد تعرضت لكثير من النقد .

ويمكن التوجه بالنقد لنظرية الطوطم من خلال نقد النقاط الآتية :

1– أنه يمكن دراسة الظاهرة الدينية في أقدم عصورها وأقربها إلى عهد نشأتها : إذ ليس من المستطاع دائما أن نستقي معلومات كافية عن الطبيعة حقيقة لكائن ما من مجرد النظر في أصل تكوينه، يقول (عبد الله دراز) : "فتحديد الدين بذلك المعنى الغامض الذي يتلجلج في صدر الإنسان في طور طفولته، وهو بعد لا يتبين حقيقة شعوره، ولا أهداف أعماله، فساد في المنهج لا يقل عن تعريف الإنسان بالجنين"[1]. ففي سعيهم للبحث عن البدايات والأصول أخذ الأنتربوجيون يعكسون معظم ما يجدونه لدى الثقافات البدائية الحديثة على المراحل الإبتدائية للثقافة الإنسانية في عصورها الحجرية، باعتبارها ممثلة لمجتمعات ما قبل التاريخ وأكثر شبها بها، لافتراضهم أن الأنماط الثقافية البدائية القائمة اليوم، أو التي كانت قائمة إلى وقت قريب، تتطابق مع الأنماط الثقافية التي ميزت طفولة الجنس البشري، وأن البدائية الحديثة ليست إلا بقايا متحجرة من تلك العصور الغابرة[2]

غير أن الدراسات المعمقة خلال القرن المنصرم تظهر أن الثقافات البدائية ليست مستحاثات من العصر الحجري، بل هي ثقافات تاريخية، قد مرت بتاريخ لا يقل طولا عن تاريخ الشعوب المتمدنة، أوصلها إلى ما هي عليه الآن، ورغم بطء مسيرتها فإن المجتمعات البدائية، قد خضعت بالتأكيد إلى تغيرات جمة في اللغة والدين والعادات والتكنولوجيا، وتبادلت التأثير بشكل دائم مع بعضها ومع الثقافات العليا بالغا ما بلغ من عزلتها، ولذا فإن مؤسساتها لا يمكن أن تعكس بحال من الأحوال المؤسسات الثقافية الأصلية[3] . فالديانات الأفريقية التقليدية ليست أبدا ديانات بدائية، لأنها تجر وراءها

[1] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص154-155

[2] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص118.

[3] – المصدر نفسه، ص118.

آلاف السنين من التطور، شأنها في ذلك شأن غيرها، إنها ثمرة تفكير استمر قرونا مديدة، ونتاج تجارب أناس واجهوا قوى الطبيعة وجها لوجه[1]. وقد ارتحل العالم (شميدت) إلى موطن الطوطمية وفق ما ذكر (دوركايم) في كتابه (الأشكال الأولية) ليجد أن تلك المجتماعات لا تمثل الإنسان البدائي، وتوصل إلى أن الطوطمية ما هي إلا نظام اجتماعي فقط، أي لا دليل على أن الطوطمية أقدم ديانة للبشرية، أو أنها مصدر الدين البدائي[2] .

ومنه فدراسة الظاهرة الدينة لدى الثقافات البدائية باعتبارها أقرب إلى عهد نشأتها، لا تعكس بالضرورة الصورة الأولى للحياة الدينية، ولا تعطينا النشأة الأولى للدين .

2–أن قبائل أستراليا الوسطى تمثل أقدم الأطوار المعروفة للقبائل، فهي بالتالي أحق بالبحث والدراسة: فهذه المسألة أيضا فيها نظر، فهذا (روبرت سميث) (Robert J. Smith)[3] من كبار الباحثين الذين قاموا بدراسات شخصية دقيقة في أستراليا، يقرر أن القبائل المذكورة هي أحدث القبائل الأسترالية، وأكثرها تقدما، بل هي في الطور السادس الذي انتهت إليه العقلية الوظيفية لأهل أستراليا، وأن أقدم قبائل أستراليا هم سكان جنوبها الشرقي، وهؤلاء لا يعرفون نظام الألقاب الحيوانية وفي الوقت نفسه توجد عندهم عقيدة (الإله الأعلى) بصفة واضحة[4].

ويذكر (رادكليف براون) أن المعلومات التي اعتمد عليها (دوركايم) غير كاملة وغير واضحة، خاصة أن الدراسات الميدانية للمجتمعات البدائية الإشتراكية قد كثرت بعد عام 1912م، أي بعد نشر (دوركايم) لكتابه، الذي اعتمد في تحليلاته على قبيلة أسترالية تدعى (أراندا)، ولكن تبين بعد ذلك أن تلك القبيلة لا تمثل الصورة العامة للعقائد والطقوس المنتشرة عند القبائل الأسترالية، وإنما تمثل حالة فردية، فكانت معلوماته قليلة وناقصة [5]. فالمنهج العلمي أوجب عليه أن يقوم بدراسة مقارنة مفصلة (الطوطمية) في جميع صورها، لا أن يتوقف عند صورة واحدة (الطوطمية الأسترالية) وهذا الذي فعله (دوركايم)؛ إذ قصر بحثه على منطقة معينة استقى فيها من السياح والرحالة، ثم عمَّم أحكامه على الإنسان البدائي في كل زمان ومكان[6] .

---

[1] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص118.

[2] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص155.

[3] – روبرت سميث (Robert Goldwin Smith) (1823– 1910م) بروفوسور الأنتربولوجيا، وأستاذ علم الإنسان بجامعة كورنيل، مؤلف كتاب عن عبادة السلف في اليابان المعاصرة..

[4] – يُنظر فراس السواح، دين الإنسان، ص155، وعلي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص174 .

[5] – يُنظر عاطف وصفي، الأنتربولوجيا الثقافية، بيروت : دار النهضة العربية، ص233–235 .

[6] – علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص174 .

على أن اللوحة التي رسمها (دوركايم) نفسه لحياة قبائل الوسط تكفي وحدها للدلالة على أننا أمام أمة قد بعدت عن سذاجة الفطرة، وقطعت أشواطا واسعة في نظامها المدني والاقتصادي، يبدو ذلك جليا فيما عندها من قواعد الزواج، والنسب والملكية، وتنظيم مواسم الصيد وغيرها.. ولذلك عدَّ العلماء نظام الطوطمية (totem) نظاما مدنيا قضائيا إقتصاديا، أكثر منه نظاما دينيا [1]، بل إن الباحثين (لانج) (lanh) وفريزر (frazer) لم يريا فيه عنصرا دينيا البتة، وقررا أن فكرة الدين والألوهية تكونت في هذه القبائل بعيدا عن نظام اللقب الأسري المعروف[2] .

3– السؤال الذي يطرح : هل البدائيون الذين درس (دوركايم) أحوالهم كان لديهم الشعور بأن ما يقومون به حيال الطوطم ورموزه هو تقديس للمجتمع الذي ينتمون إليه؟ : حيث يظهر من بحوث علماء الأثنولوجيا أن البدائيين لم يكن لديهم شعور بمثل هذه الحقائق، وأن العقلية البدائية ما كانت لتستطيع أن تنمو إلى مثل هذه الآفاق في التفكير .

ومن جهة أخرى لا يمكن التسليم بما ذهب إليه (دوركايم) من أن الطوطمية تمثل أقدم ديانة إنسانية، ولو صح كونها نظاما دينيا لما كانت إلا لبعض الشعوب البدائية، اكتشفت في صدر العصور الحديثة، وهذه الشعوب ظلت بمعزل عن الحظارات التي ظهرت بين سكان القارات، ولكن هل استمرت تلك الشعوب بمعزل عن تغيير معتقداتها، وظلت محافظة على تلك المعتقدات؟ فالدلائل كثيرة تشير إلى عكس ما ذهب إليه (دوركايم)، فعلى فرض أن الطوطمية كانت أقدم ديانة بدائية، فلا يوجد دليل يحمل على اليقين ولا على الظن بأنها كانت الديانة السائدة في فاتحة الإنسانية، ولجميع شعوبها على الإطلاق[3].

4– وكذا التساؤل؛ إن كانت الطوطمية نظاما دينيا أصلا؟ : فمثلا لم يوافق فريزر على اعتبار الطقوس الطوطمية ظاهرة دينية، وإنما عدَّها نوعا من السحر [4]، فالإستقراء الدقيق للعشائر الأسترالية أثبت أن الطوطمية اتصلت اتصالا قويا بحياة العشيرة، وبحياة الإتحاد وبحياة القبيلة ثم بحياة الفرد، قبل ذلك أو بعد فالأمر سيان، غير أن الصلة بين عقيدة كل من تلك النظم الاجتماعية أو الأفراد غير واضحة على الإطلاق، يسودها الغموض وتكتنفها الشبهات أو بمعنى أدق تكاد تكون معدومة، والعجب أن يأتي (دوركايم) ويجعل منها صدرا للحياة الدينية ومنبعها[5] .

---

[1] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص156.

[2] – المصدر نفسه، ص155- 156 .

[3] – فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، ص118 .

4 – عاطف وصفي، الأنتربولوجيا الثقافية، مصدر سابق، ص233- 235 .

5 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص157 .

والصواب الذي أكده من عاينوا المكان ودرسوه أن الطوطمية لا ترقى لأن تكون دينا لافتقارها للطقوس والعبادات الفعلية المتتابعة والفردية، وإنما هي نظام اجتماعي مدني، وأما الألقاب والرموز الطوطمية فما هي إلا شعارات تعزز القومية والروابط الاجتماعية، وقد ثبت أن البدائيين لم يعبدوا تلك الرموز ولا مدلولاتها، بل لهم معبود روحي يتوجهون إليه، الأمر الذي اعترف به (دوركايم) نفسه حين اعترف بأن عددا من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة (الإله الأعلى) أو (الإله الأحد)، كما أقر أنها عقيدة قديمة لديهم، وقبل وصول المبشرين الأوربيين[1] .

ولو كانت الطوطمية متعينة عن عبادة أرواح الموتى للاعتقاد بحلولها في أجسام بعض الحيوانات أو النباتات كما ذهب (تايلور) أو غيره.. لما ظهرت في تلك الصورة، بل تظهر في الصورة التي تبادرت إلى ذهنما وهي عبادة الكائنات نفسها التي حلت فيها هذه الأرواح، وهذا ما لم يحدث [2]، ولو كان الغرض من الطوطمية أن يتقرب الإنسان إليها لعقد الإنسان هذه الصلة بينه وبين أكبر مظاهر الطبيعة قوة وبطشا وإثارة للرهبة والخوف في نفس الإنسان، مع أن الواقع أن معظم هذه الطواطم إنما تتألف من نباتات وحيوانات ضعيفة لا ترهب ولا تخيف ولا سيطرة لها على حياة الإنسان، وهذا يدل على أن القبيلة والعشيرة اتخذتها رمزا، ولكنها أعطتها مفهوم القداسة والتعظيم[3] .

فبدلا من أن يقرَّ (دوركايم) بالتوحيد الذي توصل إليه، نجده — كما يقول (دراز) — يضرب الذكر صفحا عن هذه الصورة الدينية الحقيقية، ثم يعمد إلى ضرب من اللهو الخليع تأتيه بعض القبائل في حفلات تضم كل شيء إلا الدين والعبادة، ويُسمح لها بارتكاب أعمال شاذة تنافي قواعد الأخلاق المقررة والمتبقية عندهم بانتظام، ليرسم (دوركايم) لوحة بارزة يعرضها علينا قائلا : "إذا أردتم معنى الدين فهاهنا منبعه ومظهره" [4]، ليكون قد رجَّح أمرا مشكوكا فيه على أمر مقرر، خاصة أن الذين قدموه من أصول الإختصاص في علم الأنتربولوجيا والأثنولوجيا، فيما (دوركايم) لم يكن من علماء هذين العلمين، إنما أقام أبحاثه على دراسات غيره من الباحثين[5] .

والذي نراه أن (دوركايم) تنكَّر بالكلية للحقيقة العلمية، وذهب يؤله المجتمع والعادات والأعراف الإجتماعية، وهذا أيضا مما يضاف حين نقده .

5–القول بأن؛ المجتمع سابق للفرد في وجوده، وهو الذي يحدد علاقاته، ويؤثر فيه مباشرة، وما الفرد إلا خاضع للمجتمع خضوعا كليا : ومنشأ هذه المسألة لدى (دوركايم) هو اهتمامه بالمجتمع اهتماما

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص157 .

2 – علي وافي، الطوطمية أشهر الديانات البدائية، القاهرة : دار المعارف، 1995م، ص39-40 .

3 – المصدر نفسه، ص40 .

4 – نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 157 .

5 – علي سامي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص171 .

بالغا، حيث رأى أنه سابق للفرد ويحكم تصرفاته ويحدد علاقاته من خلال : إحساس الفرد بالإجبار الجماعي، وشعوره بالإرتباط العاطفي بالجماعة، مما يوجب عليه إتباع ضوابط هذا المجتمع وقوانينه، فهو يقول بالعقل الجمعي الذي ينشأ من تفاعل الأفراد ثم يتكون الدين، فتأثر (دوركايم) بالمنهج الوضعي لـــ(أوجست كونت) واضح هنا، إذ يصل إلى أن الدين من صنع المجتمع، فالظاهرة الدينية ليست إلا خضوعا للمجتمع، ليرفض بهذا كل ما هو غيبي أو إلهي في الدين .

وأهم ما يؤخذ على رأيه هذا هو تقليله من شأن الفرد، واحتقار ذاتيته، خاصة وأن الدين يحتوي في الغالب على طقوس وممارسات فردية، فالظاهرة الاجتماعية جبرية حين تجبر الفرد على اتباعها، وهي تلغي دوره في اتخاذ القرارات، كما أن مما ينتقد به؛ أنه ما دام هناك فروقٌ واضحة بين أفراد المجتمع فإنها تجر فروقا بين وحدات المجتمع وأسره، وبالتالي تتفاوت الإستجابة لأعراف المجتمع، وهو ما يحدد السمة الغالبة لأي من المجتمعات، فلا يمكن تجاهل النزعة الفردية تجاه أيٍ من الظواهر الاجتماعية، فما بالنا ونحن أمام الدين الذي ينطلق من الاعتقاد والمنطق الفردي، كما يحوي طقوسا وممارسات أو عبادات فردية، إضافة لتلك الجماعية . ومما لا يخفى على عاقل أن المجتمع ما هو إلا مجموع الأفراد، فالظاهرة لا تعد ظاهرة اجتماعية بحق، إلا إذا وافقها واتبعها عدد من الأفراد..أي أن الظاهرة تحدد ابتداء وانطلاقا من خيارات الفرد، فهو الذي يرفضها أو يقبلها لكي تتبع وتعم وتعرف كظاهرة .

أما ما قرره (دوركايم) من أن نظام القبائل والعشائر أقدم وجودا من نظام الأسر؛ إذ من نتاج النظرية الطوطمية؛ أن العلاقات بين الأفراد في المجتمع البدائي تكون على أساس اشتراكهم في الاسم والرمز الطوطمي وليس على أساس المعاشرة أو السكن أو صلة الدم، فالطوطم هو أساس العلاقة بين الأفراد، وعلى هذا رأى (دوركايم) أن نظام القبلية الذي درسه يمثل دورا أقدم من نظام الأسر، وهذه دعوى يعزوها الدليل أيضا، بل إن بعض الأدلة الأثرية والتاريخية تقوم على عكس ذلك، والآثار باقية من عهد القبائل الآرية السامية، تبين منها أنها كانت قائمة على النظام الأسري الذي تتضامن فيه أفراد الأسرة في الحقوق والواجبات، والذي يتمتع فيه الأب بأوسع السلطان على أعظاء أسرته[1] .

وعلى هذا يمكن القول إن الطوطمية لم تكن يوما ظاهرة عامة، وبالتالي فهي ليست مرحلة لازمة لدى جميع الشعوب، والمؤكد أنه لا وجود لها في بدايات نشأة الدين .

ختاما يتبين لنا أن نظرية (دوركايم) عن الطوطمية، كغيرها من النظريات المبنية على العقليات البدائية، تقوم على أساس مشكوك فيه من المعلومات، ولابد في قبولها من تحفظ بليغ، والمقصود هنا،

[1] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص155.

هو تلك المعلومات التي يروجها الرحالة والسائحون عن عقائد المجتمع وعوائدهم، وقد بلغ أن (دوركايم) لم يعاين المجتمع الذي درسه، وإنما كان اعتماده على كتابات المبشرين والرحالة، مما أوقعه في تناقض وأخطاء علمية [1]، كما كُشِف لنا أن نظرية (دوركايم) لم تُبنَ على أسس علمية، بل بنيت على أساس وضعي يؤله المجتمع ويلغي الفرد، وذاك ليس إلا انعكاسا لعلمانية (دوركايم) التي تطرح العلم والرقي الإجتماعي والتحضر بديلا عن الدين .

وفي الختام يتبين أنه لم يتفق التطوريون على أيٍ من الصور كانت هي الأولى للدين، يقول (طه الهاشمي)[2] في كتابه (تاريخ الأديان وفلسفتها) :"لم يتفق العلماء على طريقة واحدة لمعرفة نشأة الدين الأول، وصُنف أولئك العلماء طبقا لنظرياتهم إلى من اعتمد على الأنتربولوجيا ووضعوا النظرية (الروحية) أي أن البشر عبدوا بُدًّا الروح، واعتقدوا أن لجميع المخلوقات روحا، كذلك فهناك من اعتمد الدراسة الاجتماعية للجماعات البدائية، وحاولوا اكتشاف القوة الخفية التي أثرت في تكوين تلك الأوضاع فوضعوا نظرية الطوطمية، أما الذين اعتمدوا على اشتقاقات اللغة (الفيلولوجيا) والمقارنة بين أوصاف الآلهة، فقد وضعوا نظرية الطبيعة"[3].

إلا أن كلا من النظرية الأرواحية، الطبيعية والطوطمية؛ في الأصل مبنية على أساس تطوري يفترض الدين ظاهرة اجتماعية وثقافية، تخضع لمعايير التطور في المجتمع، وفي الفكر الإنساني خاصة، كما أن **كلا من أنصار هذه النظريات التطورية؛ يرى أنها صبغة أولى للدين، وإحدى مراحله الضرورية التي مرَّ بها الإنسان البدائي في تاريخ التفكير الديني، نحو تأليه الكائنات والإنسان لتظهر لاحقا الآلهة، فالآلهة المتعددة، لتمهد في الأخير للإعتقاد بالإله الواحد (المعبود الواحد) .**

1 – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص153 .

2 – طه الهاشمي : (1888-1961م) عسكري (العميد الركن) وسياسي متخصص بالجغرافيا البشرية في العهد الملكي بالعراق، من مؤلفاته : تاريخ الأديان وفلسفتها 1963م، ومذكرات طه الهاشمي 1967م، تاريخ الشرق القديم..

3 – طه الهاشمي، تاريخ الأديان وفلسفتها، ط1، بيروت : دار مكتبة الحياة، 1963م، ص184 .

المطلب الثاني : تقويم الإتجاه التطوري التقدمي في نشأة الأديان*

بنى دعاة التطور في الأديان مذهبهم على مذهب التطور في البيولوجيا، فما مفهوم القول بالتطور في الأديان وما مفاده ؟

صُبِغ التفكير العلمي في القرن التاسع عشر بالتفسير التطوري، والذي تأثر تأثرا واضحا بكتابات (داروين) واهتمامه بالبحث عن أصل الأنواع.. فـــ(فريزر) مثلا على الرغم من أنه عاش ما يقرب من نصف حياته في القرن الحالي، إلا أنه يعتبر بشخصيته وثقافته العريضة المتنوعة، وأسلوب تفكيره ومنهج كتابته ابنا للقرن الماضي، ويشار إليه على أنه امتدادا لتفكير (تايلور) و(مورغان) وغيرهما من أعلام التفكير الأنتربولوجي القديم[1] .

وقد تأثر دعاة التطور بفلسفة عصر الإستنارة الذي يؤمن بتشابه الجنس البشري في الأساسيات، ولذا كانت المشكلة التي واجهت هؤلاء هي البحث عن أسباب الإختلاف العميقة القائمة بالفعل بين الأجناس والمجتمعات البشرية، فالمجتمع الإنساني عموما يتطور ببطء، كما أن المجتمعات المتمايزة لا تتقدم بدرجة واحدة أو بسرعة موحدة أثناء ذلك التطور، وترتبط فكرة التطور في أذهان هؤلاء العلماء بفكرة التقدم، بل إن التطور عندهم هو بمعنى التقدم، وقد يكون من الصعب أيضا التعرف بدقة على مراحل التطور بطريق مباشرة، وذلك لأن بعض هذه المراحل موغلة في القدم، ويصعب الحصول على معلومات وبيانات دقيقة عنه، خاصة وأن بعض مظاهر الحضارة في تلك المراحل قد اندثر تماما[2] .

وعلى هذا كانت الوسيلة الوحيدة التي أمكن الإعتماد عليها حينذاك، لتحديد مراحل التطور ومظاهره وأشكاله هي الإستنباط عن طريق ما يعرف في الكتابات الأنتربولوجية باسم الرواسب، أو المخلفات الثقافية، وهي السمات الثقافية التي تلكأت في سيرها وتخلفها عن ركب التطور، أو على الأقل لم تتطور بنفس السرعة التي تطورت بها بقية السمات والنظم، وأصبحت بذلك غريبة إلى حد كبير عن الحياة الاجتماعية الجديدة في مجملها، ولم يعد وجودها يتلاءم مع بقية النظم السائدة في ذلك المجتمع كما لم يعد لها وظيفة معينة في الحياة الاجتماعية[3] .

وبعد أن نشر (داروين) نظريته في أصل الأنواع، تسلل المفهوم التطوري في صلب تفكير الإنسان الحديث ونظرته إلى الأمور، ودخل في روعه تدريجيا أن القديم هو الأدنى والحديث هو الأعلى،

---

* – المقصود هنا نقد المنهج التطوري في نشأة العقيدة الدينية، وأما نقد المنهج التطوري البيولوجي فنرجئه لحينه .

1 – ينظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي (المقدمة لأحمد أبو زيد)، مصدر سابق، ص27 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص27 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص27 .

وترافق ذلك بحكم قيمي يربط الأدنى بالتدني، ويربط الأعلى بالسمو، كما توسع مفهوم التدني ليشمل الإنحطاط من الناحيتين العقلية والخلقية، فضلا عن الناحية الطبيعية، وانطلاقا من هذا الحكم القيمي الإعتباطي يعتبر إنسان النيادرتال والأسترالي الأصلي أحط من الناحيتين الثقافية والطبيعية من الإنسان الأوربي الحديث الذي يعتلي شجرة التطور![1] . وليس من شك في أن ظهور كتاب (داروين) عن (أصل الأنواع) كان من أهم العوامل التي دفعت علماء القرن التاسع عشر إلى اتباع المنهج التطوري، فقد ظهرت إثر ذلك كتب كثيرة تبحث في أصل الحضارة أو أصل القانون، أو أصل اللغة أو أصل العائلة، وهكذا .. وقد افترضت كل هذه الكتب والدراسات وجود مراحل معينة بالذات مرت بها الحياة والنظم الاجتماعية في تطورها، بحيث أن كل مرحلة من هذه المراحل تعتبر تبسيطا للمرحلة اللاحقة لها وممهدة لظهورها[2] .

وقادت المفاهيم التطورية إلى إحداث مصطلح "البدائي" و"البدائية"، فالبدائي هو الإنسان الذي عاش في "بداية" عملية النشوء والإرتقاء، ومثله إنسان القبائل البدائية، الذي يعتبره التطوريون أقرب إلى الإنسان الأول في عصوره الحجرية، واعتبرت ثقافته بمثابة بقايا متحجرة من الثقافات الإبتدائية الأصلية، ومن ثم نُظِرَ إلى كل ما يمت إلى هذه الجماعات بصلة باعتباره "بدائيا" وفق الحكم القيمي التطوري، وصار الحديث عن "دين بدائي" و"أخلاق بدائية" و"مؤسسات اجتماعية بدائية"! ...[3]

ويقول (داروين) :"ومن الواضح أن وجهة النظر الأكثر مصداقية والأكثر إثارة للبهجة هي أن التقدم قد كان شائعا بشكل أكبر بكثير من التقهقر، وأن الإنسان قد ارتقى من خلال خطوات بطيئة وغير منقطعة من حالة متواضعة حتى وصل إلى أعلى مستوى قد توصل إليه إلى الآن في المعرفة والقيم الأخلاقية والديانة ... والإنسان ما كان ليصل إلى مرتبته الحالية ما لم يكن قد تعرض في أثناء العصور البدائية إلى الإنتقاء الطبيعي"[4]، فعلى ما يرى البعض كـــ(ويليم جيمس)؛ إذ يقول :"أن هناك تشابها عجيبا بين التطور الاجتماعي للإنسان من ناحية وبين التطور الزيولوجي * من ناحية أخرى، كما نبه

---

[1] – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص113 .

[2] – جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص 24 .

[3] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص114.

4 – تشارلز داروين، نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي، مصدر سابق، ص343،349 .

*– الزيولوجي: الحيواني، ومنه زيولوجيا؛ علم الحيوان ويتناول دراسة الحيوان من حيث كل من : التركيب، الوظيفة، طرق التعايش انتقال المادة الوراثية على مدى الأجيال، وهو أحد فرعي علم الأحياء والآخر علم النبات .

داروين، وهو تشابه لم يلحظه أحد من قبل "[1]. ومنه فقد بات نموذج التطور البيولوجي ومصطلحاته يسقطان على التطورين الإجتماعي والثقافي .

ولكن من الخطأ الظن بأن كتاب (داروين) كان وحده المسؤول عن ذلك الاتجاه التطوري الذي سيطر على الدراسات الإنسانية المختلفة، فالظروف والأوضاع العامة السائدة في أوربا في ذلك الوقت كانت تدفع دفعا إلى السير في ذلك التيار، فالمعروف أن القرن التاسع عشر هو عصر التصنيع، والثورة الصناعية في أوجها وتحول المجتمع الأوربي من النمط الإقتصادي التقليدي إلى النمط الصناعي الأكثر تقدما؛ عصر بداية الإحتكاك القوي المستمر بالشعوب الأخرى المختلفة أو البدائية، مما أدى إلى المقارنة بين أنماط الحياة الإجتماعية وأشكال التجمع الإنساني ومحاولة تصنيفها وترتيبها في سلسلة واحدة تتدرج من البسيط إلى المعقد، بحيث تنتهي إلى المجتمعات الغربية التي كان علماء ذلك القرن يفترضون أن نظمها وقيمها تمثل قمة التطور الإنساني وأعلى ما وصلت إليه الإنسانية في تاريخها الطويل ![2]. وقد صبغت هذه النظرية الحياة الأوروبية، وكان لها تأثير كبير في جميع نواحي الحياة، وفسر بها بعض الباحثين نشأة الدين عند الإنسان، فعلى غرار القبول بنظرية تطور الإنسان عن بعض الصور الحيوانية الدنيا، اضطر إلى البحث عن أصل العواطف والبواعث الدينية وتلك الغرائز التي ليست في أصلها دينية بصورة بحتة [3].

فحسب (داروين) فإن الملكات الفكرية في الجنس البشري، وكذلك الملكات الإجتماعية والأخلاقية قد تم اكتمالها تدريجيا بشكل أساسي عن طريق الإنتقاء الطبيعي، وهو يقول في كتابه (نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسي) : "من الأشياء التي تستحق الملاحظة أنه بمجرد أن أصبحت الأجداد العليا للإنسان اجتماعية، ومن المحتمل أن هذا قد حدث عند عصر مبكر جدا، فإن المبادئ الخاصة بالمحاكاة والتفكر والخبرة، من شأنها أن تكون قد زادت، وأدت إلى تعديل كبير في القدرات الفكرية بطرق عديدة، وهي التي نرى منها آثارا باقية فقط في الحيوانات الأقل في المستوى والقرود غير المذيلة كثيرا ما تكون مأخوذة بالمحاكاة كما هو الحال مع أكثر الأناس غير المتمدنة انخفاظا في المستوى ..."[4].

فالتطورية (Evolutionism) مصطلح يستخدم للإشارة إلى نظريات أنتربولوجية وبيولوجية ظهرت أواسط القرن التاسع عشر، وحاولت تفسير الظواهر الإجتماعية والبيولوجية باعتبارها ارتقاء

---

[1] – ويليام جيمس، إرادة الإعتقاد، تر: محمود حب الله، مصر: دار إحياء الكتب العربية، 1365ه، 1946م، ص37 .

[2] – ينظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص25 .

[3] – محمد كمال جعفر، في الدين المقارن، مصدر سابق، ص27 .

[4] – تشارلز داروين، نشأة الإنسان والإنتقاء الجنسيي، مصدر سابق، ج1، ص323 .

في خط مستقم من الأدنى إلى الأعلى، بحيث يفضي الشكل الأدنى السابق إلى شكل أرقى لاحق، وقد كان للفيلسوف الإجتماعي البريطاني (هربرت سبنسر) أثر مباشر على ظهور المذاهب التطورية في مجال الأنتربولوجيا بشكل خاص، فقبل ظهور كتاب (داروين) في (أصل الأنواع) وإحداثه ثورة في علم البيولوجيا، قال (سبنسر) في مقالته (التطور وقوانينه) : "إن التحرك قدما من البسيط إلى المركب عبر عملية متسلسلة من التمايز المتتابع، هو شأن أكيد يمكن ملاحظته في تطور الإنسانية، وفي تطور ما لا يحصى من التواريخ الفكرية والمادية للنشاط الإنساني" [1]. ولذلك يأتي (سبنسر) هذا، في مقدمة الدعاة إلى نظرية التطور الكوني، وفي إطار هذه النظرية يأتي تفسيره لنشأة المعتقدات الدينية وفق نظريته في التسمية (Animism) ففي رأيه أن البشرية قد مرت في مرحلتها الأولى بزمن لم تعرف خلاله الدين، ثم بدأ الدين في التكون عندما أخذت الجماعات البشرية بتقديس أرواح الزعماء الراحلين، وفي رأيه أن المشاعر البدائية تشترك مع العقل البدائي لإنتاج الأفكار البدائية الأساسية، وتطغى على نظام الأفكار البدائية الدينية المتأتية من عبادة السلف[2].

فالمنظر الإجتماعي (سبنسر) كان أول من صاغ نموذجا تطوريا إجتماعيا صور فيه دينا بدائيا قام على عبادة الأسلاف .

ثم جاء منافسه الأنتربولوجي (تايلور) فطور فكرة (سبنسر)، وقد كان اهتمام (تايلور) منصبا على الحضارة، وقد عالج موضوع الحضارة في كتابه (الحضارة البدائية)، عرض فيه مسائل هامة في صلب التطور الحضاري، مثل : الخرافات، الفولكلور، والأديان والعادات، وآمن أن المصادر الداخلية للسلوك البشري، إنما تشتمل على أكبر الأدلة وثوقا فيما يتعلق بتاريخ الإنسان، وتطوره، فالسحر يفسر لنا شكلا من أشكال التطور الحضاري، والأسطورة تجد مصدرا في العقل البشري عندما يكون في حالة الطفولية، فهي محاولات يعوزها النضج لكنها تبقى نتيجة جهود معقولة، تبذلها الشعوب في حالة تفكير طفولي لتعليل بيئتها وتجاربها [3]. فقد زعم (تايلور) أن الفكر الإحيائي كان سمة الشعوب المتدنية على مقياس الإنسانية، كما أن الإنسانية تحمل دائما في طياتها أدلة التطور، والفكر الهمجي يمكن تواجده في المجتمع الحديث متمثلا في بقايا عادات الثقافات البدائية .

واعتمد (فريزر) في تفسيره لنشأة الدين على متابعة تطور الفكر الإنساني والذي مرَّ بمراحل مختلفة هي مرحلة الخرافة والسحر ومرحلة الفهم الديني الصحيح، ثم مرحلة العلم [4]، حيث يعتقد الإنسان بداية أن بإمكانه التحكم في الحادثات الخارجية عن طريق السحر، لكنه سرعان ما يشعر بعجزه إذا

[1] – سعيد مراد، المدخل في تاريخ الأديان، مصدر سابق، ص50 .

[2] – ينظر المصدر نفسه، ص30.

[3] – ينظر المصدر نفسه، ص50 .

[4] – المصدر نفسه، ص 59 .

كان ذكيا، فيلقي بنفسه أمام القوى العشوائية لإرادة قدسية، هي الدين – على حد تأكيد (فريزر)- وتؤثر فيمن بلغوا مراتب الذكاء العليا، ويصل الإنسان أخيرا إلى العلم الذي يمثل في بعض نواحيه تحقيقا للأحلام التي رافقت المرحلة البدائية من السحر [1]. ومنه فقد وضع (فريزر) نموذجا واضحا من ثلاث مراحل لتطور الفكر البشري؛ من السحر إلى الدين إلى العلم، ورأى أن جميع المجتمعات تحقق التقدم عبر هذه المراحل الثلاث .

وزعم الفيلسوف الفرنسي (أوجيست كونت)؛ الذي نشأ في النصف الأول من القرن التاسع عشر ميلادي أن الفكر البشري مرَّ منذ تارخيه الأول حتى عصر العلوم التجريبية، بحالات ثلاث متتابعة، ومتوالية، أطلق عليها كونت (قانون التقدم الإنساني) وهي :

- الأولى: المرحلة اللاهوتية (theologial stage) وفيها فُسرت الأحداث باسم الإله .
- الثانية : المرحلة الميتافيزيقية (Mitaphesique)، وفيها فسَّر الإنسان الأحداث باسم عناصر خارجية لا يعلمها، ولكنه لا يذكر اسم الإله .
- الثالثة : المرحلة الوضعية (positive stage) وأخذ الإنسان فيها يفسر الأحداث باعتبارها خاضعة لقوانين عامة، يمكن إدراكها بالمطالعة أو بالمشاهدة العلمية، وفي هذه المرحلة لا تذكر (الأرواح والآلهة والقوى المطلقة)، وهذه هي المرحلة التجريبية العلمية (scientific empiricism) بل إن (كونت) قسم الحالة اللاهوتية الأولى إلى ثلاث مراحل هي: المرحلة الفتشية*، ثم تعدد الآلهة، ثم مرحلة التوحيد التي تجمع الآلهة المتعددة في إله واحد [2].

وفسر (هيجل) نشأة الدين وتطوره على أساس أن الدين مرحلة ضرورية في التطور الجدلي للروح، حيث يؤكد أن الدين قد مرَّ بثلاث مراحل كبرى هي : الديانة الطبيعية وكانت فيها الطبيعة مشبعة بالأرواح، والديانة الفردية الروحية الممجدة للآلهة فوق دنيوية، وأخيرا الديانة المطلقة المتمثلة في المسيحية (الحق المطلق)، وعليه فقد رسم هذا الفيلسوف الألماني مسارا جديدا لفهم التجربة الدينية العالمية في سلسلة من المحاضرات التي تناولت فلسفة الدين، واعتبر المسحية مزيجا بارعا من المرحلتين الأخيرتين [3].

---

[1] - ينظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص213 .

* - الفتشه أو الفيتشية : هو الإيمان بالأفتاش، مفردها فتش، وعرفتها المعاجم بأنها الأشياء التي كانت الشعوب البدائية تعتبر أن لها قدرة سحرية أو قدرة غيبية غير مدركة بالحواس على حماية صاحبها أو مساعدته .

[2] - ينظر وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى (مدخل علمي إلى الإيمان)، تر: ظفر الإسلام خان، تح : عبد الصبور شاهيين، الكويت: المختار الإسلامي، 1974م، ص10 .

3 - أوين ديفز، السحر(مقدمة قصيرة جدا)، مصدر سابق، ص 20 ، وينظر فردريك هيجل، محاضرات في فلسفة الدين (فلسفة الدين)، ج2، ص130 .

واكتشف (فرويد) بعد جهد جهيد أن اللاشعور قد يقبل أفكارا في الطفولة، وتؤدي إلى أعمال غير عقلية، وهذا ما حدث بالنسبة إلى العقائد الدينية، فإن فكرة الجحيم والجنة ترجع إلى صدى الأماني التي تنشأ لدى الإنسان إبَّان طفولته، ولكن لم تتسع له الفرصة لتحقيقها، فتبقى دفينة في اللاشعور، ثم يفرض اللاشعور بدوره حياة أخرى يتيسر له فيها تحصيل كل ما يتمناه [1]. وحسب هذا الأخير فإن التوحيد ينتصر في مرحلة تاريخية ما؛ ففي مرحلة مبكرة من التأليه المبهم الغامض في البداية وبعد أن نظمت الآلهة نفسها في أسر ومراتب متسلسلة، وفي أحيان كثيرة كان أحد الآلهة يعظم شأنه فيغدو سيد الآلهة والبشر، وفي خاتمة المطاف تتوصل البشرية إلى عبادة الإله الأوحد، تنسب إليه كلية القدرة، ولا تقبل إلى جانبه بأي إله آخر [2] .

وحسب ما أورده (داروين) أن ما يتعلق بإظهار أن جميع الأمم المتحضرة كانت في وقت ما همجية؛ أن هذا الموضوع قد تمت معالجته بطريقة متكاملة ومثيرة للإعجاب بواسطة (تايلر) و(ميلينان) (M'LENNAN)[3] وآخرين[4]، كما يقول :"والبرهان على أن جميع الأمم المتحضرة هي الذراري الخاصة بالهمجيين، تتكون من أحد الجوانب من آثار واضحة خاصة لحالتهم المنخفضة السابقة الموجودة في القدر الباقي من عاداتهم، ومعتقداتهم، ولغتهم، وخلافه، ومن الجانب الآخر، وهو الخاص بالأدلة بأن الهمجيين قادرون بشكل مستقل عن رفع أنفسهم عدة خطوات في المستوى الخاص بالحضارة، وأنهم قد ارتفعوا بالفعل بهذا الشكل" [5].

وقد بدأ (داروين) تفسيره للدين بالربط بين الإنسان والحيوان من حيث المشاركة في الاعتقاد بالقوى الروحية، فالاعتقاد بأن الأشياء في الطبيعة إنما تحركها قوى حسية، غير منظورة هو اعتقاد يؤكد (داروين) أنه منتشر بشكل عام بين الأجناس البشرية التي لم تبلغ مرتبة عالية من الحضارة، كما أنه يذهب إلى أن الإمتداد الطبيعي لهذا الاعتقاد قد أدى إلى خلق إله أو آلهة، يعكس سجاياها أفكار هذه المجتمعات وقيمها ومواقفها[6] .

---

[1] – وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، مصدر سابق، ص14 .

[2] – يُظر فرويد، موسى والتوحيد، مصدر سابق، ص184 .

[3] – ميلينان : (1881- 1827م) (JOHN FERGUSON M'LENNAN) عالم الأجناس الأسكتلندي، نشر في 1865م عن الزواج البدائي، وكتب سلسلة من المقالات عن الطوطمية (1869- 1870م).

[4] – تشارلز داروين، نشأة الإنسان، مصدر سابق، ص345 .

[5] – المصدر نفسه، ص346.

[6] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص313 .

وعن الإيمان بالديانة، وبالعوامل غير المرئية أو الروحاني، يقول (داروين) :"ليس هناك دليل على أن الإنسان كان موهوبا بشكل بدائي بالإيمان الرفيع بالتواجد الخاص بإله مطلق القدرة، بل على العكس من ذلك، فإن هناك أدلة كافية أن العدد الكبير من الأعراق قد تواجدت، وما زالت موجودة، وليس لديها أي فكرة عن أي واحد أو أكثر من الآلهة، وليس لديها أية كلمات في لغاتها للتعبير عن مثل هذه الفكرة ... والملكات الذهنية العالية هي التي قادت الإنسان في أول الأمر إلى الإيمان بالعوامل الروحانية غير المرئية، ثم التقديس الأعمى، وتعدد المعبودات، وفي النهاية إلى الإيمان بإله واحد، ونفس الملكات من شأنها أن تقود الإنسان إلى خرافات وعادات غريبة [1]، فالإيمان بالقوى الروحية من شأنه أن يؤدي بسهولة إلى الإيمان بالوجود الخاص بواحد أو أكثر من الآلهة"[2].

ويرى (داروين) أن "...الشعور بالتفاني الديني؛ شيء شديد التعقيد ويتكون من الحب والخضوع التام لقوة عليا ممجدة وغامضة، والشعور القوي بالإتكال، والخوف والتبجيل والعرفان بالفضل، والأمل في المستقبل، ومن المحتمل أن يكون هناك عناصر أخرى، ولا يمكن لأي كائن حي أن يتعرض لتجربة مثل هذا الإنفعال المعقد إلا أن يتقدم في ملكاته الذهنية، والأخلاقية إلى مستوى عال بقدر معقول"[3] و(داروين) بهذا يرى في الدين مرحلة معقدة ومتطورة من التفكير البشري .

ورغم أن (داروين) قد توصل إلى نظريته كنتيجة لملاحظاته على سفينة (بيجل)، والتي استغرقت خمسة أعوام من عمره، إلا أنه لا يخفى أن نظرية التطور هذه قد تطورت كثيرا عن تلك التي توجد في كتاب أصل الأنواع، فنظرا لأنها كانت ضربة قوية للكنيسة التي تقول بأن الإنسان مخلوق صمم من قبل الله، وكذا الكون في ستة أيام والمخلوقات جميعها، فتلك تصورات لم تعد تقنع العقل الأوربي آنذاك، فعوض أن ينظر للنظرية على أنها طريقة لتفسير الخلق الإلهي ليس إلا، فإن العداء مع الكنيسة جعل منها تأسيسا للإلحاد حين عد الخروج عن فهم القساوسة خروجا عن الدين ![4]

ولا يمكننا أن نغادر دون أن ننوه إلى أن مثل هذه الآراء القائلة بالتطور في الأديان قد انتقلت إلى العالم الإسلامي، وقد تأثر بها بعض المفكرين رغم أنهم خالفوا الغربيين في أن المعبود الواحد هو ما جاء به الأنبياء ودعوا إليه جميعا، وها هو ذا الأستاذ (العقاد) يوضح بأن موضوع كتابه عن (الله) ونشأة العقيدة الإلهية، منذ أن اتخذ الإنسان ربا إلى أن عرف الله الأحد، واهتدى إلى نزاهة التوحيد، فيقول : "ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان

---

1 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص253 .

2 - تشارلز داروين، نشأة الإنسان، مصدر سابق، ص249-251 .

3 - المصدر نفسه، ص252 .

4 - حسين عبد الله، الإنسان والأديان(من علة الآخر؟)، د.ت.ط، ص26 .

والعبادات، وليس عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى، وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ... فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى كل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد، وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر وطورا بعد طور، وأسلوبا بعد أسلوب" [1]. كما نجد (العقاد) لا يشك في أن الأديان تمر بأطوار ثلاثة : دور التعدد، دور التمييز والترجيح، ثم دور الوحدانية، ويؤكد قائلا : "فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه، ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات"[2].

وبما يشبه ذلك يقول الأستاذ (سليمان مظهر) [3] وهو يحكي (قصة الديانات) : "فقد كانت الشعوب منذ الخليقة تسعى إلى تأكيد الحقيقة الأزلية وهي (أن الله موجود) وهو الواحد الأحد..الفرد الصمد... فقد عاش الإنسان أول أمره حياة بدائية تحوطها مئات الأخطار والأسرار، وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التي لم يستطع إدراكها إدراكا علميا على أن يتوهم لها تفسيرا...وكان أول ما ملأ رأسه؛ إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة، ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات، وبدأ الإنسان يتأمل تلك القوى، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه، ولا يستطيع الوصول إليه، فيجعله إلها، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين...ثم أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى كيف جاءت هي الأخرى، من هنا بدأ تصوره لقصة الخلق، ولهذا الخالق، وتباينت صور هذا الخالق في أذهان البشر حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد أو رب الأرباب أو كبير الآلهة"[4] . ويضيف :"كل هذه الأفكار البدائية التي ابتدعها الإنسان البدائي خلال مراحل تفكيره في الخلق والخالق...عاشت مع الإنسان بعد ذلك حتى بدأت الديانات السماوية ...فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الديني ... كل هذا التفكير وهذه الصور لجأ إليها الإنسان البدائي، وهو يحاول الوصول إلى معرفة الله"[5] .

وخلاصة القول فإن دعاة التطور كان اعتمادهم على منطق تطور الإنسان من الأسفل إلى الأعلى، فكما يسود الحياة البيولوجية للإنسان، فإنه يسود الحياة العقلية أيضا، فكما ينتقل الكائن من ماهية

1 – عباس محمود العقاد، الله (نشأة العقيدة الإلهية)، مصدر سابق، ص7 .

2 – المصدر نفسه، ص27 .

3 – سليمان مظهر : جزائري، أستاذ علم النفس الإجتماعي، اشتغل على الظواهر النفسية والغجتماعية، من مؤلفاته : قصة الديانات، أساطير من الشرق، أساطير من الغرب، منمنمات تاريخية، نظرية المواجهة النفسية الإجتماعية مصدر المجابهة ...

4 – سليمان مظهر، قصة الديانات، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1415ه، 1995م، ص17- 19 .

5 – المصدر نفسه، ص26 .

أدنى إلى ماهية أسمى، رأوا أنه من الأولى أن يتقدم في حياته الفكرية، وعلى هذا فإن الدين كإحدى النواحي الإنسانية، قد بدأ مع الإنسانية في سذاجتها إلى غاية نضجها واكتمالها الفكري، **وبناء على هذا التطور القيمي تدرجت الإنسانية من الوثنية والتعدد في المعبودات إلى الوحدانية وإفراد المعبود**، وفيما يلي يمكننا أن نحصر مختلف الإنتقادات التي يمكن توجيهها إلى المنهج التطوري .

يمكن أن نعدد أهم الإنتقادات الموجهة إلى القول بالتطور في الدين كالآتي :

1-أن دراسة الإنسان البدائي؛ هي دراسة تقوم على الظن لا على اليقين...وهي تقوم على خطأ مزدوج من ناحية الغاية والوسيلة، لأن هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعتبرها العلم شقة حراما حظرها على نفسه وأعلن في صراحة كاملة خروجها عن حدود علمه، فاقتحامها الآن باسم العلم تعامل بصك مزيف، وتستر بثوب مستعار، لأن مؤرخو الديانات على الخصوص معترفون بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله لا تزال مجهولة لنا جهلا تاما، فلا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب[1]. وكما يقول (دراز) : "وجملة القول أن النظريات التي حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية، فصورتها لنا تارة سليمة وتارة سقيمة، وتارة ملفقة، إنما هي افتراضات مبنية على افتراضات، فهي لا تصف الحق الثابت الذي هو مطلب العلم الصحيح، وإنما تفرض احتمالات تشبه الحق قليلا أو كثيرا"[2] .

2- كما أن الإستدلال على ديانة الإنسانية الأولى بديانة الأمم المنعزلة، المتخلفة عن ركب المدنية خطأ في الإستدلال، حيث أن الدراسات المعمقة تظهر أن الثقافات البدائية ليست مستحاثات من العصر الحجري، بل هي ثقافات تاريخية قد مرت بتاريخ لا يقل طولا عن تاريخ الشعوب المتمدنة أوصلها إلى ما هي عليه الآن، ورغم بطء مسيرتها، فإن المجتمعات البدائية قد خضعت بالتأكيد إلى تغيرات بشكل دائم مع بعضها، ومع الثقافات العليا، بالغا ما بلغ من عزلتها، ولذا فإن مؤسساتها لا يمكن أن تعكس بحال من الأحوال المؤسسات الثقافية الأصلية[3].

3- ثم إن قياس تطور الدين على تطور الفنون والصناعات حجة على الذين يقولون بالتطور لا لهم، لأن معنى التطور في الفنون والصناعات هي أنها تبدأ في صورة بسيطة ساذجة ثم تنتقل تدريجيا إلى نوع من الكثرة والتركيب تزداد به تعقيدا كلما بعدت عن أصلها، وواضح أن تطبيق هذا القانون التطوري، بمعناه العلمي الحيوي على العقيدة الإلهية يستوجب أنها سارت من الوحدة إلى الكثرة ومن

---

[1] - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص108 .

[2] - المصدر نفسه، ص114.

[3] - فراس السواح، دين الإنسان، مصدرسابق، ص118 .

النقاوة والسهولة إلى التعقد، بالإضافة إلى الأسطورية والثروات الخيالية التي لا ضابط لها من العقل السليم[1] .

وفي الواقع فإنه كما يقول (آثلي مونتاغيو) (Ashley-Montagu)[2]؛ أحد الأنتربولجيين البارزين في هذا المجال: "إن الخطأ الأساسي الذي يرتكبه من يتحدث عن الفن البدائي، هو استخلاص التعميم من إحدى النواحي غير المتطورة نسبيا في الثقافة، وذلك مثل التكنولوجيا أو الإقتصاد، وافتراض أن كل النواحي الأخرى لتلك الثقافة لابد أن تكون غير متطورة بالمقدار نفسه، والواقع فإننا عندما نقارن خصائص معينة في الثقافات غير الكتابية (= البدائية)، مثل اللغة والدين، والأساطير ونظام القربى والحكايا والأشعار وقص الأثر وغيرها بمثيلاتها في المجتمعات المتمدنة فإن أعضاء الثقافات اللاكتابية لن يقفوا على قدم المساواة مع أعضاء المجتمعات المتمدنة فحسب، بل يتفوقون عليهم في أحيان كثيرة ..."[3] .

4- ومن نقاط الخطأ الجوهرية للمذهب التطوري؛ هي أن أنصاره جعلوا منه قانونا يستوعب التاريخ كله في شرط واحد، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل، ونفضت يدها منهما إلى غير رجعة، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى طفولته وشبابه، ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية، كلما ختمت شوطا رجعت عودا لكان الخطأ في هذه النظرية أقل شناعة، ولكنها بعد ذلك تظل دعوى غير مسلمة، لأنها مجردة عن البرهان فحسب، بل لأنها تحرف التاريخ، وتصادم العيان، فنحن ما زلنا نسمع ونرى في كل عصر تقديسا للروحانيات، وشغفا بالمعنويات والمعقولات الكلية عند فريق من الناس إلى جانب الكلف بالحوادث والحقائق الجزئية عند فريق آخر[4] .

5- بل إن التحليل النفسي يؤدي إلى بيان خطأ وضع قوى النفس المختلفة في حياتها الروحية والمادية في نموها على قدم المساواة معا، ومن المشاهدة المتتبعة لمراحل حياة الإنسان نستخلص أن الإنسان كان في بدايته يقنع بإشباع حاجاته الضرورية من مأكل ومشرب ومأوى، ودفعته قلة مشاغله، ووفرة وقته إلى التأمل الذي يرهف حاسته الدينية، بينما نرى انشغال الناس في عصور

---

[1] - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص119 .

[2] - آثلي مونتاغو : (1905- 1999م) (Ashley-Montagu) عالم أنجليزي متخصص في الأنتربولوجيا والإنسانيات، ساهم في انتشار مواضيع كالعرق والجنس وعلاقتهم بالسياسة والتطور، نشر أكثر من 60 كتابا، من مؤلفاته : إليك كتابي : البدائية، حياة قبل الميلاد...

[3] - نقلا عن فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص115 .

[4] - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص85 .

المدنيات بترف الحياة الجثمانية، يؤدي إلى العكس؛ ذلك أن الغرائز المتقابلة تضعف وتتقلص، بقدر ما تنمو وتقوى أضدادها، ككفتي الميزان، لا ترتفع إحداهما إلا انخفضت الأخرى[1] .

ومن خلال نقدنا لمنهج التطوريين على اختلاف مشاربهم حول الباعث الحقيقي إلى الدين؛ من التأمل في الطبيعة ورهبتها، إلى الأحلام التي يراها الرائي في منامه ليستقي منها مفهوم الروح، أو تلك التي بنيت على تقديس الأسلاف والطوطم...أومن جهة الشعور النفسي ... رغم تعدد بواعث الدين لديهم، إلا أنهم يلتفون حول إنسانية مصدره، وخضوعه لقوانين التطور التي رأوا أنها تحكم دواليب الحياة المادية والمعنوية على حد سواء...كما يمكن أن نلاحظ مدى سعي هؤلاء في محاولة الإنتقال من فكرة الدين والإله، إلى فكرة الدين بغير إله، فقد توصلوا بناء على نظرياتهم وأبحاثهم إلى أن نظرية الإله ما هي إلا شكل إرتقائي، لتعدد الآلهة . **فالحديث عن التطور في العقيدة مفاده القول بأن الدين وضع من الإنسان، وعلى هذا يمكن تغييره واستبداله، بل وحتى الإستغناء عنه بأية حال، غير أن حجج هؤلاء كانت واهية، ولم تقم على أسس علمية ثابتة فسهل نقدها .**

المطلب الثالث : نقد الاتجاه التأليهي والاتجاهات الثانوية في نشأة الدين

أولا: نقد الاتجاه التأليهي

ورغم مناهضة الاتجاه التأليهي لنتائج المذهب التطوري الإنساني، إلا أنه لم يحد عنه في المنهج، فهذا (لانج) مثلا –كما يقول (فراس السواح) – لم يحد عن المنهج التطوري حين ظن أن الذهن الإنساني يتوصل إلى فكرة الكائن الإلهي عبر كل العصور[2].

وأول ما يتوجه به من النقد للاتجاه التأليهي هو من حيث غايته التي يهدف إليها؛ إذ هي تحديد الأصل الأصيل للعقيدة، والمظهر الذي ظهرت به في أول الأزمنة بإطلاق، فلأن هذه المنطقة البدائية المحضة قد اعترف العلم بعجزه إزاءها، وأعلن صراحة خروجها عن حدود عمله، خصوصا بعد اعتراف مؤرخي الديانات بأن الآثار الخاصة بديانة العصر الحجري وما قبله، لا تزال مجهولة، ولا سبيل للخوض فيها إلا بضرب من التكهن والرجم بالغيب[3] .

ومما يعاب على الاتجاه التأليهي هو سعيه للبحث عن الصورة الأولى للعقيدة الدينية، بالاستدلال عن ديانة الإنسان الأول بديانة الأمم المنعزلة المتخلفة عن ركب المدنية، وهو استدلال مبني على افتراض فحسب – كما مر بنا – ولم يقم على دليل، بل إن ما أثبته العلم أن أحط القبائل الهمجية لها

---

[1] – مصطفى حلمي، الإسلام والأديان (دراسة مقارنة)، ط 1، بيرت : دار الكتب العلمية، 1424ه، 2004م، ص30 .

[2] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص121.

[3] – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، 108 .

تاريخها المتجذر، وقد مرت بأدوار شتى، وتطورات عدة ... ولهذا فإن افتراض أن هذه الأمم لم تمر بها أدوار متقلبة، هو افتراض لم يقم عليه دليل، بل الذي أثبته التاريخ أن هذه المدنيات قامت بدورها على أنقاض مدنيات بائدة، قريبة أو بعيدة، في أدوار تتعاقب على البشرية، بحيث يصبح من العسير أن نحكم بصفة قاطعة بأيهما بدأت دورة الزمان [1]. فالذي يقال على الاتجاه التطوري، ينسحب أيضا على الاتجاه التأليهي من حيث الخطأ في الغاية وكذا منهج الإستدلال.

ومما ينتقد به (ويليام شميدت) هو أنه يتحدث عن التوحيد عموما، وأين وجد إلها أعلى يتفوق على بقية الكائنات الروحية أو الإلهية، إضافة إلى تركيزه على الأمثلة التي توافق وجهة نظره المسبقة (والأمر سيان مع (لانج))، ثم يعزو ما يخالفها إلى مراحل التفكك والإنحدار في الحياة الدينية للإنسان، كما أن كل من (شميدت) و(أندرولانج)، يؤكدان على أولوية الكائنات العليا في أديان البدائيين، وبهذا لا يعطيان الأهمية الكافية للتأثير الذي مارسه التوحيد التاريخي على بقية الديانات، بل يرجعون ذلك كله إلى الوحي[2].

ويضرب (فراس السواح) لذلك لنا مثلا، عن تغلغل اليهودية في أفريقيا منذ القرون الأولى للميلاد، ثم تلتها المسيحية التي تبنتها نظم ملكية قوية كما هو الحال في الحبشة، ومنذ القرن السابع لم يترك التجار المسلمون بقعة نائية إلا وارتادوها، وكمثال على التأثير الإسلامي في الأديان البدائية، أن الشعوب التي تسكن القسم الغربي من النيجر والقسم الشمالي من نيجيريا، لها ديانة أفريقية تقليدية ضاربة في أعماق التاريخ الأفريقي، تدور حول الجن والأرواح والأسلاف المؤلّهين، إلا أنهم يعتقدون بإله خالق أعلى يقيم في السماء السابعة ويدعونه باللفظ العربي: الله، كما توجد لديهم عبادة سرية تدور حول كائن شيطاني اسمه: إبليس باللفظ العربي أيضا، وكذلك عبادة للملائكة بالاسم العربي ذاته، إلا أن كل تلك العبادات قد احتفظت بطابع زنجي أفريقي، ودخلت في نسيج الديانة المحلية إلى درجة لا تلفت النظر إلى مصدرها الحقيقي، مما يدفع بأي دارس بأن يرجع الأفكار شبه التوحيدية إلى معتقدات قديمة متجذرة في الدين الأفريقي[3] .

فأكثر ما تنتقد به النظرية هو تقديمها لمفهوم الكائن الأعلى كما وجدته في المجتمعات البدائية، دون النظر إلى تاريخ فكرة الكائن الأعلى، وكيفية ظهورها في معتقدات الجماعة؛ الأمر المبني على افتراض أن الجماعات البدائية، هي شعوب سكونية بلا تاريخ، وأن مؤسساتها القائمة اليوم هي استمرار تلقائي لمؤسساتها المغرقة في القدم، وثقافتها هي ثقافة الإنسان الحجري نفسها 4 . ومن هنا يقول (عبد

---

[1] – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص109 .

[2] – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص223 .

[3] – ينظر المصدر نفسه، ص223 .

[4] – ينظر المصدر نفسه، ص124 .

الله دراز) في شأن العقائد الدينية : "إنه من الممكن أن تكون الخرافات القديمة بداية ديانات، كما يمكن أن تكون نتيجة تحلل وتحريف لديانة صحيحة سابقة مزقت أهلها الحروب، أو أفسدهم الآفات الإجتماعية، فقلت عنايتهم بأصول دينهم، وتلقوا بالتسليم والقبول كل ما سمعوه من أفواه الأدعياء والدجَّالين، وشاعت بينهم هذه الروايات وتوارثوها حتى أصبحت سننا مقدسة"[1] .

ونختم هنا بما نبه إليه العلامة (هوفدنج) (Hoffiding)[2] حين قال : "إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني..فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما، وكل ما نجده إنما هو سلسلة من صور مختلفة الديانات متقدمة قليلا أو كثيرا..."[3]

وإلى هذا الحد يتبين لنا مدى ما بنيت عليه النظريات الحديثة كلها؛ سواء التطورية أو المؤلهة من جرف هار من حيث الغاية أو من جهة المنهج، ولنرى ما نصيب الاتجاهات الثانوية إذ ذاك ؟

ثانيا : نقد الإتجاهات الثانوية في منشأ الدين : ونعمد إلى نقد كل اتجاه على حده :

1– نقد الاتجاه النفسي : المتمثل في آراء كل من (ساباتييه)، (برجسون)، (فرويد) و(ديكارت).. أولئك الذين رأوا للدين مصدرا من حياة الإنسان النفسية؛ فبالنسبة لنظرية **(ساباتييه)** المبنية على تولد العقيدة الدينية إثر المناقضة الجوهرية بين حساسية الإنسان وإرادته، في الحقيقة؛ فإن الصفحة التي رسمها في تصويره للفكرة الإلهية اتصفت بالدقة والجمال، **ورغم دقة هذه النظرية وجِدَّتها، إلا أنها قد لا تنطبق على سائر الديانات، كما أنها بلغت غاية في التجريد، جعلها بالفلسفة ألصق منها بالوجهة الدينية**[4] .

وأما عن **نظرية (برجسون)** التي علَّقت أمر الدين بجانبي العرف الاجتماعي والممكنات المستقبلية، وجعلت من الدين وهما تخلقه الحاجة الاجتماعية والفراغ النفسي، ولا يغطيهما إلا الاعتقاد في إله؛ فما يسجل من نقد إزاء هذه النظرية أنها جعلت من فكرة الألوهية كلها وهما تخلقه الحاجة الاجتماعية وتفرضه الحياة، فلا وجود له إلا في خيال الناس في الشق الأول للنظرية، فلا يمكن أن

---

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 109 .

2- هوفيدنج : (Harald Høffding) (1843-1931م)، فيلسوف دانماركي، حاصل على جائزة نوبل للأدب في 1901م، من مؤلفاته : تاريخ الفلسفة الحديثة 1894م، ومشاكل في الفلسفة1905م، وفلسفة الدين 1906م..(ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص715) .

3 – نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 109 .

4 – ينظر فرج الله عبد الباري، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، ص 124، وينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص138 .

تأخذ سنن المجتمع وعوائده جميعها على أنها مبعث للعقيدة الإلهية، أما قانون الأخلاق الصحيح فهو بلا شك يوحي بفكرة الإله الفاطر الأول، وفي الشق الثاني من الإستدلال على العقيدة الإلهية من خلال الحوادث المستقبلة، فإن الاستدلال على القدر الإلهي بالحوادث المستقبلة هو استدلال سديد قويم، لا يعتمد على شيء من الوهم والتمثيل أبدا، وإنما يقوم على أدلة عقلية يؤيدها العقل السليم وواقعية تثبتها التجارب المتكررة في كل أمة، وإن دلت على شيء فإنها تدل على حكمة اليد المدبرة المقدرة[1] .

ومما يؤسف له أن جعلت هذه النظرية من العقيدة الإلهية فكرة رمزية ليس إلا، بل كأنها ضرب من الخيال أو الأساطير التي تحاك لتكون مبعثا للرهبة، ففي الأمر خلط بين ما يفرضه المجتمع من سلطان على الأفراد، وما تبعثه العقيدة من خشية في النفوس .

وبالنسبة لرأي (**فرويد**) الذي اختصر الدين في كونه إحدى العوارض العصابية؛ فأول ما يلاحظ هو أن (فرويد) هذا لا يقدم في أي من مؤلفاته تعريفا واضحا للدين، مما جعله يتعامل مع عناصر ثانوية من الظاهرة الدينية، وكأنها حجر الزاوية التي يقوم عليها الدين، وهو يمزج بين الحس الديني والحاجة إلى الإله المشخص الذي يقوم مقام الأب، وتلك الحاجة التي نمت منذ أيام الطفولة، كما لا يميز (فرويد) بين الدين والتشريع، فيرجع ظهور الدين إلى بدايات ظهور التشريع، فبعد قتل الأولاد آباهم في بدء الأزمان، واستحوذوا على نسائه، شعروا بالذنب وحرَّموا على أنفسهم نساء أبيهم، فكان ذلك أول تشريع سنه البشر وبداية للدين[2] . ولجوؤه لفرضية قتل الأب هذه هو افتراض لم يقم على أي دليل، وقد عد أمرا مستحيلا نفسيا واجتماعيا آنذاك، **فما كان من (فرويد) إلا أن جعل من الدين والتشريع ليس إلا نتيجة العقد النفسية المكنونة لدى الإنسان منذ طفولته، أو الإنسانية جمعاء منذ طفولتها البشرية، وهي بلا شك وجهة نظر تطورية واهية .**

وأما عن الفيلسوف الرياضي (رينيه ديكارت) الذي استوحى فكرة وجود الله من وعينا الفطري بفكرة الكمال، فقد كان ممن عارضوه؛ الفيلسوف الألماني (كانط) الذي رد بأن صفة الوجود على الخصوص لا يمكن أخذها من تلك المفاهيم العقلية، فحقيقة المثلث وإن ثبت لها الخواص الهندسية المعروفة بالضرورة العقلية، إلا أنه لا يلزم من ذلك وجود مثلث في الخارج، فليس وجود المفاهيم العقلية في الذهن دليلا كافيا على وجودها في الخارج . ولكن ما يرد به على مثل هذا النقد هو أن وجود الله ماهية عقلية واجبة، وهناك بون واسع بينها وبين تلك الماهيات الممكنة التي يعترضون بها،

---

[1] – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص142-143 .

[2] – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، ص32، وينظر فرويد، التوتم والتابو، مصدر سابق، ص8.

فماهية وجود الله هي ماهية عقلية واجبة، بلغ من رسوخها في العقل حتى أن إبطالها يعد إبطالا لكل معقول معلوم، فمنها تستمد كل الممكنات وجودها في الأعيان والأذهان [1] .

وما يتضح جليا أن (ديكارت) يرى أن الوعي بالكمال حقيقة أولية بحتة، تفرض نفسها على العقول، وهو هنا يشير بدقة إلى تلك الفطرة الكامنة في نفس الإنسان منذ بدايته عن وجود الله .

2- نقد الاتجاه الأخلاقي : متمثلا في رأي (كانط) حين صرح بأن الأخلاق تقود بُدًّا إلى الدين، وما ينتقد به مذهبه، أن المقدمات التي بنى عليها استدلاله ليست بديهية ولا مبرهنة، فقانون الأخلاق رغم أنه مركوز في النزعة البشرية، ولكنه على الصورة التي يصورها (كانط) لا يفرض نفسه على كل العقول، بل تمجُّه كثير من الطباع السليمة، فبالإضافة لقساوته، يمحو الفروق بين الواجبات الأساسية والواجبات التكميلية، وفيه تبعد النفوس الخيرة عن المثل الأعلى للفضيلة، بينما تقترب منه النفوس الشريرة[2]، لما صوَّره من حمل النفس على الواجب وإكراهها، **فكان الأجدر بـــ(كانط) أن ينتقل من القانون الأخلاقي إلى واضع هذا القانون وغارسه في النفوس!**[3] .

3- نقد الاتجاه العاطفي : فبالنسبة لنظرية (الخوف والطمع) فلكي تثبت صحتها لابد لها أن تقدم تفسيرا لجميع الظواهر التي تصدَّت لتفسيرها لا لبعضها، يقول (فراس السواح) : "إلا أن معطيات تاريخ الأديان، وعلم الأديان المقارن، ومعطيات الأنتربولوجيا والأثنولوجيا، تزودنا بأكثر من مثال على معتقدات دينية من بدائية وغيرها، لا نجد فيها أثرا لفكرة خلود الروح الفردية، ولا لعالم أفضل ترحل إليه أرواح الموتى، وعلى هذا فإن النظرية العاطفة في تفسير نظرية الخوف من الموت والطمع في الخلود تهتز أركانها أمامنا"[4].

فالتتبع للعديد من معتقدات الأديان من أكثرها بدائية وبساطة إلى أكثرها تجريدا وتفلسفا، فإننا نجد الخوف من الموت والطمع في الخلود لا يكمنان في أساس الدين ولا يبعثان على نشوئه، والنظرية العاطفية قاصرة على تبرير وجود أديان لا تقدم مثل هذا العزاء، ومما لا شك فيه، أن بعض الأديان قد صاغت تصورا بهيجا عن خلود للشخصية الفردية في عالم مثالي قادم، إلا أن الدراسات تظهر بكل جلاء أن معتقدات الروح الفردية، وخلود الشخصية قد بنيت على المعتقد الديني، و لم تشكل في أي وقت باعثا من بواعث التدين [5] . وإضافة إلى عاطفتي الخوف والطمع، نجد البعض قد رأوا أن عاطفة الحب هي الباعث الأول على التدين .

[1]- عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص145.
[2] - المصدر نفسه، ص148 .
[3] - المصدر نفسه، ص150 .
[4] - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص319 .
[5] - ينظر المصدر نفسه، ص318-325 .

وأما **القول بأن الباعث على التدين هو الشعور بالحب** : فرغم أن الحب بالفعل من بواعث التدين، إلا أن اختزال باعث التدين بالحب وحده، ينقض مفهوم الدين ويبسطه إلى حد كبير، فمن الممكن أن يدفع بالإنسان إلى الطاعة والعبادة، بعد الاعتقاد في دين ما، ولكن لا يكفي الشعور بالحب لجعل الإنسان يعتقد في الدين ابتداء، ويرتبط بالمعبود[1] .

4- نقد نظرية الدين الطبيعي : وما ينتقد به الدين الطبيعي عموما حسب ما رأينا هو الإبهام الجليّ بشأن الإله الواحد المقصود بالدين الطبيعي، وذلك مثلا عند الإشارة إلى أن العالم لابد أن تحكمه آلهة، حيث لا نجد جزما بطبيعة هذه الآلهة؛ أهو التوحيد أم التعدد... بل نجد في معظم الأحيان توحيدا يلتبس بالشرك مما عبر عنه (دافيد هيوم) بأنه (توحيدية ملزمة تترافق بشرك مستتر كعبادة القديسين والدراويش، كما أن ما ينسب للألوهية من الصفات المتناقضة كالمتناهي واللامتناهي؛ إذ أن هاتين الصفتين لا تتوافقان مع الإستدلالات الممكن استخراجها من الخبرة)[2] .

إضافة لما يظهر من الإلتباس في التوحيد عند تركيز الدين الطبيعي على برهان العناية، تلك التي لم يتم البتّ في نسبتها أيضا أإلى إله واحد أم إلى آلهة متعددة ! ومما يضاف هنا هو أن سابقية الدين الطبيعي، واستغنائه عن أي معرفة واسطية بالوحي، جعله لا يصلح إلا لفئة قليلة من الناس المثقفين، ممن لديهم وقت ملائم وكاف للتفكير والتأمل، مما يبعده عن مفهوم الدين ويحيله إلى نمط خاص من أنماط التدين تلتزم به فئة نوعية من الناس نذروا حياتهم له (فهو ليس إيمانا للعقل وجزء من الفلسفة، إنه معتقد خاص بالفلاسفة، إيمان بالعقل، فالاعتقاد بأن العقل بإمكانه أن يتحكم بالحياة ويكتشف في الكون الإنتظام الذي وضعه حقيقة فيه، وحتى التوحيد النقي للفيلسوف هو ملوث إذ يمتزج بالهوى، وخاصة الهوى الذي يبديه العقل لنفسه، هوى لفاعليته بلا تحفظ ووهم لقدرته الكلية)[3] .

فالمؤكد بأن العقل البشري، وإن اهتدى إلى التوحيد بطبيعته، فإنه لا يخلو من الوهم والهوى الذي يعرف به القصور البشري، وهو ما يعاب على الدين الطبيعي لاعتماده الكلي على العقل .

وفي ختام هذا الفصل الذي صال وجال في مناقشة النظريات التي بحثت في نشأة الظاهرة الدينية يمكن أن نسوق مجموعة استنتاجات :

1 إن الاتجاهات التفسيرية السالفة الذكر من الاتجاه التطوري وسائر الاتجاهات الثانوية المذكورة من الاتجاه العقلاني، والإجتماعي، والنفسي، والأخلاقي، والعاطفي والطبيعي..جلّها تعتمد في تفسيرها لنشأة الدين بإرجاعه إلى نظام معرفي آخر أو تقليصة إلى ظاهرة أدنى منه، —باستثناء تلك

[1] - فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، ص123 .

[2] - ينظر جاكلين لاغريه، الدين الطبيعي، مصدر سابق، ص83 .

[3] - المصدر نفسه، ص86 .

التي ترجعه للوحي- يقول (فراس السواح) : "...ويستخدم هذا الموقف الإرجاعي عادة صيغة تقريرية تقول: "إن الدين ليس إلا ..كذا.." ، وبذلك تنتهي مشكلة الدين لتبدأ مشكلة الكذا الذي تم إرجاع الدين إليه، وتغيب الظاهرة الدينية في ركام النظام الآخر الذي أحلنا الظاهرة الدينية إليه، باعتبارها ناتجا ثانويا من نواتجه، لا تتمتع بخاصية متفردة"[1] .

2- كما أن تلك الاتجاهات ليست في الحقيقة مستقلة استقلالا تاما كلا على حده، وإنما هي تتداخل وتتشابك تشابكا كبيرا، فالاتجاه التطوري بعامة يشمل أهم نظريتن للاتجاه العقلاني (الأرواحية والطبيعية)، إضافة إلى احتوائه الاتجاه الاجتماعي الممثل في نظرية (دوركايم) عن الطوطم، أما المذهب الأخلاقي الذي يجعل العبادة نوعا من الاحترام ليس إلا ! ويرى أن الأخلاق تقود حتما إلى الدين؛ هو مذهب اجتماعي في حقيقته، وبين (فرويد) تفسيره النفسي لبداية العقائد الإنسانية على أساس تطور عصابي للمجتمع، كما أن ما ذهب إليه (ديكارت) من تفصيلات في إثباته وجود الله عن طريق الحدس النفسي، لهو من قبيل التأملات الذهنية، وهو أيضا تجربة نفسية من أبسط التجارب كلها، كما رأينا أخيرا المذهب الطبيعي، وهو يرمي كافة اتكاله على العقل بغرض الوصول للدين بطبيعته .

3- ومما يقال بشأن النظريات التطورية السالفة والتي فصلت في نشأة الدين وبواعثه، يجمع أغلبها القول بالتطور في الدين مهما اختلفت، وذلك نتيجة اتفاقها في أن الإنسان هو مصدره، فهو من اخترعه بادئا بالتعدد في المعبودات، منتهيا إلى التوحيد، وتقوم حجتها على أن الإنسانية لابد وأن تكون قد عاشت قرونا طويلة في حياة مادية خالصة، قوامها الحرث والنحت والبناء والحدادة والتجارة، قبل أن تفكر في مسائل الدين والروح، بل قال أحدهم وهو (فولتير) إن فكرة التأليه إنما اخترعها دهاة ماكرون من القساوسة والكهنة، الذين لقوا من يصدقهم من الحمقى.. وهذا الرأي الحديث من أمثال (فولتير)، سبقه به جماعة من السوفسطائيين الذين نظروا بسخرية إلى الدين والقانون .

4- وأصحاب الاتجاه الإنساني على اختلاف مشاربهم قديما وحديثا يجمعهم رأي واحد هو أنهم لا يرون مصدرا للدين خارج هذا العالم الحسي، وبالتالي ينكرون الألوهية كحقيقة موضوعية ذات وجود فعلي ثابت شامل ومستقل[2]، يقول في ذلك (رالف لينتون) (Ralph Linton)[3] : "إن

---

[1] - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص326 .

[2] - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص80.

[3] - راليف لينتون (1893- 1953م) عالم أميركي في مجال الأنتربولوجيا في منتصف القن العشرين، عرف بكتاباته (The Study of Man) 1936، (The Tree of Culture) في 1955م ...

عقيدة القادر المطلق في نهاية الأمر الذي لا يرضى إلا بالطاعة الكاملة والوفاء كانت أول ما أنتجه نظام المجتمع السامي، لقد خلق هذا النظام جبروتا غير عادي ...".

ويقول (جوليان هكسلي)(Julian Huxley)[1] :" لقد خلق العقل الإنساني الدين وأتمّ خلقه في حالة جهل الإنسان وعجزه عن مواجهة القوى الخارجة" ويضيف : "فالدين نتيجة لتعامل خاص بين الإنسان وبيئته، وهذه البيئة قد فات أوانها أو كاد، وقد كانت هي المسؤولة عن هذا التعامل، فأما بعد فنائها وانتهاء التعامل معها، فلا داعي للدين "... " لقد انتهت العقيدة الإلهية إلى آخر نقطة تفيدنا، وهي لا تستطيع أن تقبل الآن أية تطورات، لقد اخترع الإنسان قوة ما وراء الطبيعة لتحمل عبء الدين؛ جاء بالسحر ثم بالعمليات الروحية، ثم بالعقيدة الإلهية حتى اخترع فكرة الإله الواحد، وقد وصل الدين بهذه التطورات إلى آخر مراحل حياته، ولا شك أن هذه العقائد كانت في وقت ما جزءا مفيدا من حضارتنا بيد أن هذه الأجزاء قد فقدت اليوم ضرورتها ومدى إفادتها للمجتمع الحاضر المتطور"[2].

فبعد أن كانت الدائرة مغلقة على الإنسان والحيوان، سعى الإنسان لما يقلل خوفه أو أذى الحيوان عنه، فكانت الحاجة للسيد الحيوان، فتمت الطقوس من قبل كبير القبيلة، حول الفريسة كنوع من التكريم .. ومرت الأيام والإنسان المقلد ينمو في تقليده ومراقبته للحيوان ... وحالما انتقل إلى طور الزراعة حيث كان الذكور يخرجون للصيد والإناث يحرثون الأرض، استدعت حاجة الإنسان لأن يستبدل الحيوان السيد بعبادة القمر أو الشمس، لأثرهما الأكبر في حياته ... وهكذا كان المحرك الأول للاعتقاد هو الإحتياج، حيث احتاج الإنسان إلى الاعتقاد بقوة أكبر منه، كما احتاج لتفسير ما يكتنفه من الغموض وما لم يقدر العقل على تفسيره عن طريق القصص الأسطورية، وحرب الآلهة كما فعلت الشعوب البدائية، ومن ثم بدأ الإنسان بعد استقراره بدراسة ما حوله، والتساؤل عن سبب وجوده، فكان لزاما وضع قصة خلق تتماشى مع المعتقد ... فكان الإله الذي سمي (البراهمن) والذي لا تستطيع اللغة التعبير عنه في شبه القارة الهندية، فيما نزع السومريون إلى إعطاء (مردوخ) السطلة

---

[1] - جوليان هكسلي : (Julian Sorell Huxley) (1878- 1975م) عالم أحياء وفيلسوف أنجليزي، كتب (علم الحياة) (science of life) ومباحث عديدة في البيولوجيا، وهو أبرز علماء التشريح في عصره، دافع عن نظرية النشوء والارتقاء لدارون، ورفض الأناجيل وقصة الخلق التي تدعو لها، وتتجلى نزعته الإنسانية التطورية في مؤلفات عديدة منها : (التطور: التركيب الحديث) (Evolution: the Modern) (جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص705).

[2] - ينظر فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، ص91 .

المطلقة، وكذلك كان (بوذا).... فما الآلهة المتعددة إلا انعكاسا للمخاطر المتعددة التي واجهها الإنسان [1] .

وهكذا تكون النتيجة؛ وهي أن الدين لا ينبع إلا عن وهم خلقه خيال البشر أو عواطفهم عبر التاريخ، وأنه لا يعكس بأية حال خبرة تمت إلى عالم الحقيقة بصلة[2] .

5 أما عن السبب الكامن وراء الترويج لفكرة أن الدين من صنع البشر، وآثارها إلى غاية العصر الحديث فنجد أمورا منها : الانحلال الخلقي عند نفر من رجال الكنيسة، وظلم القوانين الوضعية، وسوء توزيع الثروة العامة، فظن الناس أن الدين والقوانين هي من صنع البشر [3]، وعلى مثل هذه الأفكار أنشئت دول وأنظمة، يقول (أنجلز)(Friedrich Engels)(1820- 1895م)[4]؛ فيلسوف الشيوعية : "فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة في الأساس الذي نمونا عليه، نحن الناس نتاجها أيضا، وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شيء، أما الكائنات العلوية التي ولدت في مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاسا خياليا لوجودنا نحن" [5]، وعلى هذا الأساس اتخذت آلهة كثيرة طريفة وعناوين جديدة من (ديكتاتورية) و(رأسمالية) و(اشتراكية) و(قومية) عبر ثلاثة قرون[6] .

6 وهكذا نرى أن الشواهد التاريخية والنفسية ودواليب التطور الصحيح لا يقف شيء منها إلى صف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية الإنسانية، التي تذهب إلى أن الإنسان تدرج في دينه وترقى حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد، بل إنها بالعكس تميل إلى تأييد النظرية المقابلة (التأليهية)، غير أن تأييد النظرية الأخيرة لا يرفعها إلى مصاف الحقائق التاريخية المفروغ منها[7] .

وإلى هذا المطاف في بحثنا عن نشأة الدين وما تلمسناه لدى أنصار النظريات التأليهة ومن قبلها النظريات التطورية، إضافة لغيرها من الاتجاهات المترامية هنا وهناك، فإنه يمكن القول إن الخوض في غمار البحث عن نشأة الدين وبداياته الأولى، يرتبط تلقائيا بالبحث عن نشأة الإنسان وبدايته، وإن

---

1 - ينظر حسين عبد الله، الإنسان والأديان (من علة الآخر)، مصدر سابق، ص 8- 9 .

2- فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص313 .

3- ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص80 .

4- فرد ريك أنجلس : (1820- 1895م) اشتغل بالصناعة وعلم الإجتماع، وكان كاتبا ومنظرا سياسيا وفيلسوفا ألمانيا، يلقب بأبو النظرية الماركسية، إلى جانب كارل ماركس، أصدر مع ماركس بيانهما المشهور، والمعروف ببيان الحزب الشيوعي .

5 - ينظر محمد قطب، مذاهب فكرية معاصرة، ط1، دار الشروق، 1403ه، 1983م، ص272 .

6 - أبو الحسن الندوي، رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين، ط1، لكناؤ (الهند): المجلس الإسلامي العلمي، 1417ه، 1996م، ص32 .

7 - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص112 .

صح القول؛ لهو بحث عن قصة الخليقة، ونشأتها الأولى، وعلى هذا فهو أمر وعر، صَعُب الجزم فيه، وما رأيناه من الاتجاهات سالفة الذكر، لم تكن إلا تفسيرات لم يسهل ترجيح بعضها عن الآخر، لعدم توفر أدلة مؤكدة استند عليها هذا الاتجاه أو ذاك، وتتشعب الاتجاهات؛ فهل الدين فطرة إنسانية وجدت مع الإنسان مذ ولادته، ليرتبط بهذا بوجود الإنسان الأول مباشرة؟ أم أن الدين مكتسب حصله الإنسان الأول نتيجة سعيه في الأرض، فارتبط إذ ذاك باكتمال نضجه، و ظل ذلك ديدن من بعده في وصوله للدين؟ وهنا يكون لدينا نوعان من المصادر للدين؛ أما الأول فهو الإنسان نفسه، وما يمتلكه من قدرات ومقومات عقلية أو نفسية ... والمصدر الثاني فهو خارجي، يتمثل في الوحي الإلهي والكتب السماوية، وبناء على هذين المصدرين، هل هناك من حل آخر نلوذ به في بحثنا عن منشأ الدين، يكشف لنا عن متى يكون الدين إلهيا، أو إنسانيا، أو لعله يسفر لنا عن أولية العقيدة الصحيحة؟

الفصل الثالث

مصدر الدين وأصالة التدين

المبحث الأول : في مصدر الدين

المبحث الثاني : أصالة النزعة الدينيةووظائفها

الفصل الثالث : مصدر الدين وأصالة التدين

بعد استعراضنا لأهم المواقف الفكرية من مسألة نشأة الدين ومناقشتها ونقدها، فلنا أن نتقصَّى مصدر الدين من خلال ما تجمع لنا من بحوث ودراسات أو نظريات، بغرض الخروج برأي بيِّن عن مصدر الدين، أو على الأقل وضع النظريات السالفة في سياق جديد .

وإذا كنا قد أطلنا النظر فيما مضى في الاتجاهات ذات التوجه الإنساني، التي ترى أن الدين إنساني النشأة، إضافة لتلك التي تستند إلى الوحي الإلهي، دون أن نخرج منها بطائل أو نتائج قاطعة مقنعة تشفي الغليل، ولئن شئنا الصواب فلقد بات جليا مما سلف أن البحث عن نشأة الدين لابد يعتمد على ما اعتمد عليه كل أولئك في بحثهم عن أصل الدين، طالما لمحنا بصيصا من الصواب كلما تفرسنا نظرية من النظريات أو مذهبا من المذاهب، دون أن نغفل جانب الخطأ والسلبيات التي تتنافى والبحث العلمي، أو العقل أو الواقع، لنخرج بعد ذلك بما يفيدنا في هذا الشأن، ولأجل ذلك ينفصم الفصل إلى مبحثين :

المبحث الأول : في مصدر الدين

نمضي في رحلة بحثنا عن مصدر الدين عند الإنسان الأول بتتبعنا أولا لأقدم مظاهر الدين والتدين عند الإنسان فيكون اللجوء بداية للمعطيات الأركيولوجية والبحوث الأثرية علَّها تسعفنا بما يفيد في هذا الشأن .

المطلب الأول : المعطيات الأركيولوجية

لمحاولة تتبع أديان ومعتقدات الإنسان الأول حري بنا أن نأخذ نظرة خاطفة على معتقدات وأديان ما قبل التاريخ (تلك الفترة الممتدة منذ نصف مليون سنة وإلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، وهي كما نرى فترة استغرقت أكثر من 99% من حياة الإنسان الواعية، وفيها تكمن جذور وينابيع (الخمسة آلاف سنة) التي تلتها) [1]. فالتساؤل هاهنا هو تساؤل عن الصورة الأولى التي لاح المقدس الغيبي بها في مسرح الحياة الإنسانية الأولى، وعليه فرحلة البحث عن هذا لن تبتدئ من أديان الحضارات الكبرى، بل من أديان الثقافات البدائية الأصلية، موغلين في الزمن الماضي إلى أبعد نقطة استطاع عندها علم الآثار وعلم الأنتربولوجيا العثور على شواهد مادية لمعتقدات دينية عند ما يعرف

---

[1] – خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ط1، عمان (الأردن) : دار الشروق، 1997م، ص10 .

بالإنسان العاقل* متلمسين تلك الأفكار البسيطة الأولى التي تشكل حجر الأساس للمعتقد الديني عند الإنسان الأول؛ ذلك الأساس الذي لم يمسه تبدل ولا تغير، ولا يزال قابعا تحت البنية الاصطناعية التي تراكمت فوقه، حيث عد الدين إحدى أهم السمات الرئيسية التي ميزته، إلا أن الانتقال إلى مسرح الحياة الإنسانية الأولى، يقابلنا بعدد من الوثائق غير الواضحة والآثار المتفرقة[1] .

يقول (فراس السواح) في ذلك : "إذا كان ثمة وجود لديانة بدائية صافية، لم تتأثر بغيرها بل خضعت لديناميات نموها الداخلية الخاصة بها، فإن هذه الديانة هي حصرا ديانة العصر الحجري القديم (الباليوليتي)* ، من هنا فإن أية حفريات معرفية في طبقات الدين تستهدف الوصول إلى قاعه الأساسي، يجب أن نهبط أولا إلى هذا المستوى البدئي لدين الإنسان العاقل" [2]رغم أن ذلك من الصعوبة بمكان، إذ ليس بالإمكان الإطلاع المباشر أو القيام بزيارات لميدان الدراسة، إضافة لعدم امتلاك أدوات أو وثائق غير الشواهد المادية الصامتة مثل الأعمال التشكيلية من منحوتات ورسوم جدارية، وبقايا لدفن وتشكيلات يدوية ...فنضطر بذلك إلى إعادة بناء الوسط الفكري لجماعات بادت منذ عشرات ألوف السنين انطلاقا من مادة صماء، فهي محاولة لاستنطاق الآثار المادية والفنية لإنسان ما قبل التاريخ، باتجاه تأويلها الديني[3] ، ولهذا فلنتفحص بعض مظاهر الدين في ذلك العصر .

1- بقايا المدافن والقبور (الباليوليت الأوسط) : فلطالما كانت المدافن مؤشرات هامة للدلالة على الحياة الدينية والاجتماعة والثقافية لكل عصر ولكل مجتمع كائن أو بائد بما في ذلك العصر الحجري، قد أسفرت بقايا مدافن النيادرتال عن ملاحظات نذكر أهمها :

---

* - الإنسان العاقل : (= Homo sapian) مصطلح تطوري، إذ يقصد به النوع الإنساني منذ اكتسابه للخصائص الإنسانية التي هو عليها الآن بعد استقلاله التام عن بقية الأنواع الحية، منذ أكثر من مئة ألف عام من عصرنا هذا، إذ إن بعضهم يمد عمر البشرية إلى 2 مليون سنة أو 3 مليون سنة ... وهؤلاء يدخلون في الحسبان مخلوقات لا علاقة لها بالإنسان، إلا أن تاريخ البشرية على الأرض في أدق الآراء لا يتعدى 100 ألف سنة من لدن سيدنا آدم عليه السلام إلى الآن ..

1 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص112.

* - الباليوليتي : (The Palaeolithic) العصر الحجري القديم، وهو أقدم العصور الحجرية وأطولها، وهو فترة ما قبل التاريخ، والتي استعمل فيها الإنسان عامة الحجارة لصنع الأدوات، وينقسم إلى ثلاثة أطوار : (حقبة العصر الحجري القديم المبكر أو الأسفل)، و (حقبة العصر الحجري القديم الأوسط) و(حقبة العصر الحجري القديم المتأخر أو الأعلى)، وقسمت الأطوار حسب دقة صناعة الأدوات الحجرية التي يعثر عليها في مختلف مناطق العالم والتي قام الإنسان الأول بصناعتها واستخدامها، كما تستخدم طرق تعيين طبقات الأرض والمعثورات الأخرى لتعيين عمرها (ينظر الموسوعة العربية، ج8، ص75).

2 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص121 .

3 - ينظر المصدر نفسه، ص122، وينظر خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، مصدر سابق، ص10.

- أن الهياكل العظمية كانت باتجاه شرق – غرب .
- كما أن هناك العديد من الأمثلة التي تنم عن عناية خاصة برأس الميت، حيث تمت حمايته بأحجار كبيرة .
- وفي أغلب الحالات كانت الجثث مطوية بشدة ضمن حفر صغيرة، وفي قبور إفرادية .
- ظهور مجموعة من اللقاحات النباتية والبذور على شكل أزهار تحت بقايا إنسان النيادرتا ل، وإحاطة الجسد بأنواع منتقاة من ذلك .
- وهناك شواهد عديدة على قربان حيوان تم عند الدفن، وعلى دفن موازي لبقايا الحيوانات المذبوحة .
- وكذلك أمثلة كثيرة على هدايا جنائزية مكونة من أدوات أو عظام حيوانية منتقاة، وقد وجدت حتى في قبور الأطفال والمواليد الجدد[1].

والدراسة المتأنية لمثل هذه الإجراءات، يتضح من تكرارها عبر المناطق الواسعة التي انتشرت فيها ثقافة الإنسان النيادرتال [*]، يوحي بشعائر دفن قائمة على موقف إيديولوجي متماسك من مسألة الموت، ساد من شواطئ الأطلسي إلى أواسط آسيا، ويمكن تلمس خطوطه وفق الاستقراء التالي :
- تخلص الإنسان النيادرتال من موتاه بطريقة شعائرية، يدل على أنه يرى أن للإنسان كرامة لا تنتشر بين بقية أشكال الحياة .
- ظهور المدافن وطبيعة محتوياتها تفتح الآفاق عريضة لتناول عقائد ما بعد الموت في حياة إنسان النيادرتال، مما ينم عن اعتقاد الإنسان بوجود حياة أخرى لجسده وروحه أو لهما معا [2].
- وبالتالي؛ هناك معتقد واضح بأن الكائن الحي يتألف من جسد مادي وروح لطيفة، وأن هذه الروح تستقل عن جسد الميت لترحل إلى عالم آخر مواز لعالم الأحياء .
- يتخذ الرأس أهمية خاصة في معتقد الروح المفارقة والعالم الموازي، يدل على ذلك حماية الرأس بالألواح الحجرية، وكذلك توجيهه نحو الشرق الذي يرمز للبعث، ولأنه بوابة ميلاد أكبر الأجرام السماوية وهما الشمس والقمر، وربما رجح أن الإنسان النيادرتال قد اعتقد بأن الرأس مقرا للروح، خصوصا وأن مثل هذا الاعتقاد، قد وجد في العصر الحجري الحديث اللاحق .

---

1 – ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين)، ص112- 113 ، وينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص126- 127 .

* – النيادرتال : (Homo neanderthalensis) وهو إنسان العصر الحجري القديم الأوسط (ينظر الموسوعة العربية، ج8، ص75).

2 – خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، مصدر سابق، ص38 .

- كما أن نثر الأزهار في قبر المتوفى، يؤدي معنى البعث أيضا، فالأزهار رمز لانبعاث الحياة في الشجر كما الشرق رمز لانبعاث الجرمين العظيمين، كما أن الأزهار الربيعية كان ظهورها بشارة سارة لإنسان النيادرتال لاعتماده في غذائه على ما تجود به الأشجار إضافة لحصيلته من لحوم الطرائد .

- كما يبدو أن دماء الحيوانات المذبوحة عند الدفن تطلق طاقة في نظرهم من نوع خاص تعين التوأم الروحي للمتوفى على عبور البرزخ الفاصل بين العالم المادي والعالم الموازي، ولعل ما يرجح ذلك الافتراض؛ أن الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى اللاحق كان يعتقد بوجود قوة حيوية في الدم، إذ يقوم بطلاء أجساد المتوفين وجدران قبورهم بمادة حمراء تشبه لون الدم، للإيحاء رمزيا بطاقة الحياة، أو لربما كان النيادرتاليون يقيمون وليمة جنائزية عند الدفن، يأكلون فيها لحوم الحيوانات القربان، ويتركون بعضها للتوأم في رحلته الطويلة[1].

- أما المدفونات مع الإنسان فيما يسمى بالهدايا الجنائزية من الأدوات الحجرية كالفأس، وحيوانات أو بقايا حيوانات كالعظام فماذا تعني سوى اعتقاد الإنسان باستمرار حياته بعد الموت، ولعلها لضمان مكانته وحمايتها[2].

أما ما ذهب إليه كثير من علماء العصر الحجري ومؤرخو الأديان، حين وضعهم لتلك الشعائر الجنائزية تحت عنوان عبادة الأموات (تمهيدا منهم لصياغة النظرية الأرواحية) حين استنتجوا أن نوعا ما من عبادة الأموات كان معروفا خلال الباليوليت الأعلى، ولكن المعلومات المتوفرة حتى الآن لا تدعم هذا الاستنتاج، فلكي يكون هناك عبادة بالمفهوم الديني للكلمة، يجب أن تتوفر في الطقوس الممارسة خاصية التكرار الدوري عبر فترات منظمة، وذلك بغرض توكيد وتدعيم صلة الجماعة مع القوى أو الكائنات القدسية التي تؤمن بها وتعتمد عليها، أما ما نراه من طقوس متفرقة تمارس كلما دعت الحاجة إليها، فلا تشكل عبادة بالمعنى الاصطلاحي الدقيق[3] .

ومن هنا فإن الطقوس المرتبطة بدفن الموتى لا يمكن أن ترقى إلى مرتبة العبادة إلا إذا استمرت إلى ما بعد الدفن، وجرت ممارستها بشكل منتظم، وكجزء من عملية شاملة لتقديس المتوفى والإبقاء على ذكراه، وصارت بذلك جزءا من الحياة الروحية لسلالة المتوفى، والجدير بالذكر أن البدايات المنتظمة

1 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص128 .

2 - ينظر خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص 39، وينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص128 .

3 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص213 .

لمثل هذه العبادة لم يلاحظ إلا إبان العصر النيولوتي * في سورية ** ، حيث لوحظ بداية طقوس حقيقية تتعلق بجماجم الموتى، فمع أوائل الألف الثامن قبل الميلاد أمكن التحدث بكثير من الثقة عن ظهور البدايات الأولى لتقديس الموتى وعبادة الأسلاف[1] .

وخلاصة فلقد اعتقد الإنسان العاقل وبوضوح كما تظهر مدافنه، بوجود عالمين متوازيين، عالم محسوس مشاهد، وعالم غائب عنه لا يراه، يؤمن بوجوده، بل وبتأثيره الفعال فيه، ويفصل الموت بين هذا وذاك، ولهذا فقد خص الموت بشعائر طقسية ذات بال، تنم عن نضوج المعتقد الديني لديه، ولكن كيف عقد الإنسان الصلة بينه وبين العالم الموازي، وهل له بقايا أخرى في التعبير عن اعتقاده بذلك العالم الماورائي ..؟

2- جداريات الكهوف (كاتدرائيات الأعماق) *** (الباليوليت الأعلى) : ونعني بها الكهوف ذات الرسوم الجدارية، وترجع في معظمها إلى الباليوليت الأوسط وكذا الباليوليت الأعلى، فهذا فن التصوير يتجلى، وهو الذي نظرت إليه الحضارة الحديثة على أنه من الفنون العليا المرتبطة بالمدنيات الكبرى، ولهذا كان من الصعب على جمهرة المهتمين، وحتى الاختصاصيين، أن يقتنعوا بأن ذلك الإنسان المجهز بفأس حجري، كان قادرا على إنجاز تلك الروائع في فن التصوير، والتي يمكن وضعها جنبا إلى جنب مع روائع الحضارات العليا، بما فيها الحضارة الغربية الحديثة، وقد كشفت الوسائل الحديثة في تأريخ اللقى الأثرية، تدريجيا عن أصالة جميع رسوم الكهوف المعروفة وأحقية الإنسان القديم بها، إضافة إلى فن الكهوف الذي يمثل قمة النهضة الجمالية لعصور ما قبل التاريخ طرا[2]

فالجداريات الكهفية المذهلة التي اكتشفت في المنطقة الممتدة بين جنوب فرنسا وشمال إسبانيا، المنطقة التقليدية لكهوف الرسوم الجدارية، والتي وجدت في أكثر من مائة كهف، عدت أغزر المناطق بهذه الكهوف، كما لوحظ أن الرسوم فيها تشكل مجموعة متجانسة في روحها وأسلوبها العام، إضافة إلى قدمها واحتوائها على أعرق نماذج فنون فيما يعرف بالإنسان العاقل، وأول ما يلفت النظر في هذه

* - العصر النيولوتي : (Néolithique) مصطلح يطلق على المرحلة الأخيرة من العصور الحجرية، ويعني العصر الحجري الحديث، ابتدأ مع أوائل الألف الثامن قبل الميلاد، وشهد جملة من التحولات الجذرية العميقة في مجرى التاريخ الإنساني، كاعتماد الزراعة، وتأهيل الحيوان...

** - الجدير بالذكر هنا أن الجماجم المشكلة الملامح في المواقع النيولوتية السورية والفلسطينية، هي أول محاولة في تاريخ الدين والفن لتصوير الملامح الإنسانية، وقبل الألف الثامن قبل الميلاد لم يعثر في أي مكان ولدى أية ثقافة على محاولة جدية ومقصودة في هذا المجال . (فراس السواح، دين الإنسان، ص219) .

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص 213 .

*** – ينظر ملحق1، وثيقة رقم1، بعض الرسوم الجدارية، ص453 .

2 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص137 .

الكهوف هو تشابه تكوينها الطبيعي وهيئاتها الداخلية، وطريقة توزيع الرسوم في ردهاتها وأروقتها، فجميعها يمتد إلى أعماق موغلة في باطن الأرض، قد تصل إلى الميل في بعض الأحيان أو تزيد، أما الأماكن التي اختيرت كمساحات للرسم فبعيدة عن المداخل، ولا يمكن الوصول إليها إلا عبر ممرات طويلة مظلمة ومتعرجة، تعترضها وهدات خطرة، وقد تضيق الممرات في بعض أقسامها إلى درجة لا يمكن معها متابعة التقدم فيها إلا حبوا أو زحفا وعندما تنفتح هذه الممرات الخطرة أخيرا على القاعة الرئيسية، لتظهر الصور بكل جلاء على أضواء المصابيح ... [1]

كل ذلك مما أثار فضول العلماء وجعلهم يخرجون بنظريات متعددة حول طبيعة هذه الكهوف وجدارياتها، ولعل أقدم النظريات تلك التي تقول بأن هذه الرسوم قد أنجزت لغايات فنية وجمالية فقط، دون أن تحمل أية تفسيرات دينية، أما النظرية الثانية فقد وجدت فيها أدوات سحرية استخدمها الإنسان للسيطرة على الحيوانات والإيقاع بها انطلاقا من مبدأ التشابه السحري، وقد سيطرت هذه النظرية على تفسير هذه الرسوم لزمن طويل[2] .

فلقد فسرت الدببة والأسود والحيوانات الأخرى المتوحشة التي اخترقتها النبال كدلائل على سحر الصيد، ولكن الإحصائيات الناتجة عن دراسة مائة كهف أو تزيد تفيد بأن عدد الرسوم التي تصور حيوانات جريحة أو مطعونة لا يمثل سوى 15% من مجموع الرسوم التي تعد بالآلاف، ولذا فهي لا تكفي وحدها لصياغة نظرية في تفسير رسوم الكهوف على أساس سحري[3] .

أما النظرية الثالثة فقد وجدت في هذه الرسوم جدلا بين العنصرين الذكري والأنثوي، ويتخذ هذا الجدل صفة المركز الأنثوي والمحيط الذكري، وقد قام (لوروا غورهان) [4]بدراسة أكثر من ألفين رسما كهفيا من رسوم الكهوف الكانتربرية بطريقة إحصائية تبين له :

---

1 – خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ص41، وينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص139- 140 .

2 – المصدر نفسه، ص139- 140 .

3 – ينظر مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تر: عبد الهادي عباس، ط 1، دمشق: مطابع الشام، 1986، 1987م، ج1، ص 31، وينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص144 .

4 – لوروا كورهان : (André Leroi-Gourhan)(1911- 1986م) البروفسور أندريه لوروا غورهان، عالم الآثار والأجناس، الأنتربولوجي، الأركيولوجي، التاريخي والفيلسوف الفرنسي، متخصص في عصور ما قبل التاريخ ساهم في تجديد أساليب التنقيب الأثرية، أهم ما ذهب إليه نفي صلة الفن بالسحر، من مؤلفاته : فنون ما قبل التاريخ، أديان عصور ما قبل التاريخ 1964م، جذور العالم 1982م، فن الكهف، لغة عصور ما قبل التاريخ 1992م...

- المناطق المركزية يشغلها دائما ثلاثة أنواع من الحيوانات هي (الثور، البيسون والحصان)، بينما تحتل بقية الأنواع الحيوانية الأطراف والمناطق الثانوية .
- الثور يأخذ قيمة رمزية أنثوية وكذلك البيسون، أما الحصان فله رمزية ذكرية، وأن القيم الأنثوية تساوي الذكرية عددا .
- الجروح ذات قيمة رمزية أنثوية، أما السهام والحراب فقيمتها ذكرية .
- الرمز الأنثوي دائما في المركز، أما الرمز الذكري فيتوزع بشكل متساوٍ حول هذا المركز وعلى أطرافه البعيدة والقريبة[1] .

ويقودنا (غورهان) إلى استنتاجه الأخير عن هذه النتائج الإحصائية، وهو قيام إيديولوجية دينية لدى الإنسان العاقل في الباليوليت الأعلى، تعتمد جدلية المبدأين الذكري والأنثوي في تعارضهما وتكافؤهما، فكانت فائدة النظرية الأخيرة أن أخرجت دراسة فن الكهوف من الحلقة المفرغة التي كان النقاش فيها يدور بين المدرسة السحرية وخصومها، علاوة على كشف النظرية للمضامين الدينية لفن الكهوف...سواء هذا أو ذاك فقد بات من الواضح وجود رسالة ما متضمنة في تلك الرسوم التي تركها لنا إنسان الباليوليت الأعلى، قد لا تظهر أبدا، ولكنها قد تكون مفتاحا لفكر الإنسان الباليوليتي، كما عبر عن ذلك العلماء متأسفين : "إن الصور الجدارية تضعنا في حالة مشحونة بعاطفة فائقة، تجعلنا ننظر إليها بعين القداسة...كل كهوف الصور الجدارية تشارك بدرجات متفاوتة في هذا الجو الجليل الذي يغمر المكان، كما أن رسومها تشكل كلا منسجما يخضع للقوانين الداخلية نفسها، ويبين عن مصدر إلهام واحد ...إن التكرار الذي يتبدى في الرسوم والخصائص المميزة لها، ينضوي على همّ أساسي تحاول الرسوم التعبير عنه بإلحاح...فهناك إحساس عنيف يغمرنا بوجود قيم كبيرة تحاول هذه الرسوم نقلها إلينا، وفي الوقت نفسه هناك اعتراف ضمني بعجزنا عن فهم ما تود نقله ..."[2]

ومهما تضاربت الآراء حول ما تهدف إليه تلك الرسوم فقد بات من المؤكد أن فن الكهوف لم يكن ليهدف إلى إنتاج آيات فنية بدافع الحس الجمالي وحده ولغرض إمتاع الحواس، وأن ذلك الفن لم يكن مدفوعا بالهاجس الغذائي ومتوسلا بالتقنيات السحرية للإيقاع بحيوانات الصيد، كما ذهب إلى ذلك أصحاب المدرسة السحرية وخصومها، فرغم أن رسوم الكهوف قد نفذت بتقنيات جمالية شارفت حد الكمال، فإن التمتع بالجمال لم يكن واحدا من أهدافها، ناهيك عن كونه الهدف الأساس أو الوحيد، وإلا لما وضعت في أعماق يصعب اكتشافها كما يصعب الوصول إليها في حال

1 – خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، مصدر سابق، ص41 .

2 – نقلا عن فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص 147 .

اكتشاف بوابتها، فهل كان إنسان ذلك العصر مضطرا لقطع تلك الأنفاق المعتمة في ظلمة دامسة منحنيا أو زاحفا، ليصل إلى قاعات الرسوم ليقف أمامها معجبا مستمتعا؟ ! أما عن الهاجس الغذائي والتقنيات السحرية، فإن الوقائع الإحصائية لا تؤيدها، و لم يعد من الوارد الحديث عنها وبالمقابل فإن كل الدلائل تشير إلى أن هذه الرسوم تحتوي على قيم كبيرة تحاول التعبير عنها، وأن هذه القيم هي روحية دينية تتصل بمعتقدات ذلك العصر[1] .

فالذي يذهل بدءِ هو الوحدة المدهشة للمحتوى الفني، فالمعنى الظاهر للصور لا يبدو أنه تغير من 000, 30 إلى000 , 9 قبل عصرنا، وحسب رأي (لوروا غورهان) فإن ذلك يتعلق بالانتشار عن طريق الاحتكاك الأيديولوجي، ومن جهة أخرى فإن الكثير من هذه المغارات كان غير قابل للسكن، إضافة لصعوبات المرور كل ذلك مما دعم خاصيتها الدينية[2] .

والملفت للنظر أيضا في اللوحات الجدارية هو خلو المشهد الحيواني من أية خلفية طبيعية أو عنصر آخر يمت إلى عالم الطبيعة بصلة، فلا وجود لشمس أو قمر ولا لصخرة أو شجرة أو نهر ولا لأرض تخطو عليها هذه الهيئات الحيوانية، أو أفق يحددها، ورغم ذلك فإنها لا تبدو كمن يسبح في الفراغ، بل متمكنة من نفسها ومتوازنة على خلفية غير مرئية، ورغم العناية الفائقة بتضليل الكتل المرسومة، وإبراز معالمها من خلال تداخل النور والظل، إلا أن الكتل ذاتها لا تلقي ظلا على الأرض، مما يعطي الانطباع بأننا لسنا أمام مشهد من مشاهد الطبيعة التي نعرفها، وأن الحيوان المصور ليس جزء من الحياة البرية لإنسان ذلك العصر، هذا عن الهيئة الحيوانية، وأما عن الهيئة الإنسانية فإنها لم تصور إلا قليلا، وإن وجدت فبأسلوب الخطوط السريعة غير المدروسة... كل ذلك وغيره مما يستبعد كل غرض نفعي متمثل في هاجس الصيد أو غرض سحري أو غيره، وإلا لما وضعت هذه الرسوم على حافة الصمت في أعماق معتمة، ومحاطة بجو يوحي بكل ما هو فوق طبيعاني، فالقيمة الرمزية هنا أمر مؤكد، والتصوير هنا تعبيري في صميمه، يلجأ إلى التحوير المقصود لأجل إظهار مضامين انتقائية[3].

ويرى (فراس السواح) أن إنسان الباليوليت الأعلى في هذه البقع القصية المظلمة، كان يبحث عن تواصل مع المجال الآخر مع عالم اللاهوت، من خلال شارات قدسية تربط بين العالمين، وكما فعل إنسان الباليوليت الأوسط، فقد اختار إنسان الباليوليت الأعلى شارته المقدسة من العالم الحيواني، لا ليعبدها بذاتها، بل ليستحضر من خلالها قوة العالم الموازي.. فمن تلك الكهوف اتخذ النيادرتال مقامات مقدسة، ليقيم فيها الإنسان العاقل فيما بعد نقاط تواصل مع المجال الآخر، خاصة أن كل ما

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص148 .

2 – ينظر مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، مصدر سابق، ص 30- 31 .

3 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص144- 148- 148- 150 .

فيها يشير إلى أنها لم تستخدم قط لأي غرض دنيوي، إذ لا وجود لعظام الطرائد، ولا أثر لنار المواقد، ولا دلالة على بقايا دفن... [1]

ومما سبق يمكن القول بثبوت الوجود الديني عند إنسان العصر الباليوليتي، الأمر الذي أكدته الكاتدرئيات بكل تأكيد ووضوح، فلا يمكن للرسوم المتواجدة بتلك الكهوف العميقة النائية، ذات الوحدة المتكاملة والمشتركة والمتكررة، وبناء على ما شهد به البحَّاثة عن جلالها ورهبتها، إلا أن تعبر عن فحوى خطاب فكري معين، يرجح أنه ديني، ربما فهمه إنسان ذلك العصر، حيث شكلت تلك الرموز الحيوانية المخصوصة والأدوات التي تضمنها معالم لغة تصويرية (غير كتابية) لذلك الخطاب ولذلك الإنسان .

3- الدمى الحيوانية والبشرية : فبالإضافة لرسوم الكهوف فقد عمد الإنسان الأول إلى إنتاج أعمال فنية من نوع آخر، متمثلة في المنحوتات الحيوانية والدمى الأخرى الأنثوية ذات الشكل البشري فيما يعرف بـــ(الدمى العشتارية)[*] ، إضافة لمنحوتات بارزة على الصخر ... إن اكتشاف صور نسائية في العصر الجليدي الأخير قد طرح مسائل استمر الجدل حولها، كذا التماثيل الصغيرة من 5- 25سم ارتفاع، المنحوتة في الصخر وعلى العظم والعاج ...[2]

وإذا كان فن الكهوف قد ازدهر بشكل رئيسي في المنطقة الفرانكو- كانتربرية، واستطلاتها على طول المحور العمودي يخترق أفريقيا، فإن الأشكال النحتية الأنثوية قد انتشرت على محور أفقي من جنوب روسيا إلى أوربا الوسطى فأطراف جبال (البرنيه)، ففيما عدا النحت البارز لـــ(عشتار لاوسيل)[**] ، فقد خلت المنطقة الفرانكوبرية من الدمى العشتارية بشكل ملفت للانتباه، وكأنَّ فن الرسوم الجدارية قد استنفذ كل الطاقة الإبداعية لإنسان تلك المنطقة، وأما منطقة الدمى العشتارية فلم يعثر فيها إلا على كهف واحد في جنوب روسيا مماثل للكهوف المعروفة، زاخر مثلها برسوم جدارية

---

1 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص151 .

* - الدمى العشتارية : الإلهة الأم، أو الأم الكبرى، نسبة إلى عشتاروت؛ إلهة الحب والجمال والخصب والجنس والحرب في كل من مدن بابل وكنعان وسوريا، ومن ألقابها عشتار عند البابليين والأشوريين، وهي نفسها الآلهة (إينانا) عند السومريين، وهي (أفروديت) عند اليونان و(فينوس) عند الرومان، وأما العبرانيون فهي عندهم (عشتاروت)، ويشار بها هنا إلى كل شبيهاتها من الدمى الأنثوية .

2 - فراس السواح، دين الإنسان، ص 153، وينظر مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، مصدر سابق، ج1، ص34 .

** - عشتار لاوسيل (laussel) : نحت لدمية أنثوية تمسك بقرن بيسون بيدها اليمنى، وتضع يدها اليسرى الصغيرة الحيوانية المظهر على بطنها الممتلىء، دون ملامح الوجه، عثر عليها في منطقة لاوسيل جنوب فرنسا، بارتفاع بارز نحو 15,75سم، محفوظة في متحف لبهوميه بباريس .

على النمط نفسه، مما جعل البعض يذهب إلى أننا أمام ثقافة باليوليتية واحدة ركّزت في كل منطقة على أسلوب في التعبير دون أن تهمل تماما الأسلوب الآخر [1] .

والدمى التي عثر عليها هي تماثيل أنثوية، صنعت من مواد طبيعية متنوعة بينها عاج الماموت والحجر الكلسي والكالسيت والطين المشوي، ورغم آلاف الكيلومترات التي تفصل بين مواقع الباليوليت الأعلى التي وجدت فيها هذه الدمى، فإنها تبدو وكأنها نتاج موقع واحد وعدد من الفنانين الذين أتقنوا أسلوبا واحدا متماثلا، ذات شكل مغزلي مستدق الطرفين عند الرأس والقدمين، منتفخ الوسط عند منطقة البطن والورك، مع غياب كامل للقدمين، حيث يتخذ الرأس شكل كتلة غير متمايزة، مغيبة الوجه والملامح، مع الإشارة إلى الشعر أحيانا، كما قد يُلغى الرأس أحيانا، والتماثيل من الصغر بحيث لا يتجاوز حجم أكبرها القدم الواحدة، ولهذا دعيت بالدمى لا بالتماثيل [2]، وأكثر التماثيل شهرة دمى (ليسبوغ) [*] و(ويلندروف) [**] بالنمسا و(دوردوغم لوسيل) ... [3]

فبتلك السمات– التي لا تشبه من قريب أو بعيد الهيئة التي عرفت لإنسان الباليوليت الأعلى من بقايا هيكله الهضمية– رأى (فراس السواح) أنها تشير بوضوح إلى أن الفنان لم يكن يصور جسدا أنثويا مما يراه في عالم الطبيعية الإنسانية، – فلقد كان الفنان الباليوليتي بقدراته الفنية التي أثبتها في رسم الحيوان قادرا بلا شك على تصوير ملامح الوجه الإنساني على أكمل وجه– وإنما كان يستدعي رموزا أنثوية يستعين بها من أجل التعبير عن حقيقة ما ورائية، فهو إذ ذاك يتوسل بالسمات الأنثوية المحورة والمرمزة في إشارته إلى الخصب والفيض الطبيعي التلقائي وانبثاق الحياة على المستوى الشمولي، لينقل إحساس إنسان الباليوليت بعالم اللاهوت وقوته السارية في عالم الناسوت على حد قول (فراس السواح)؛ فالفنان هنا يجسد القوة السارية في شارة قدسية، تعادل من حيث الجوهر الشارة القدسية الحيوانية سالفة الذكر [4]. ولكن لماذا حل الشكل الشبيه بالإنساني محل الشكل الحيواني هنا ؟ أترى كانت هذه التماثيل أول المعبودات التي صاغها الإنسان على شاكلته؟

---

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص155 .

2 – المصدر نفسه، ص 156 .

* – دمية ليسبوغ : (Lespugue) دمى أنثوية عثر عليها بفرنسا أيضا، ذات شكل مغزلي، مستدق الأطراف، والمنتفخ من وسط، دون ملامح الوجه واضحة ورأس يشبه رأس الأفعى، وأطراف نحيلة جدا، وهي تشير إلى شكل غريب جدا لا يمكن أن يشير إلى امرأة حقيقية .

** – دمية ويلندوروف : (Willendorf) : عثر على هذه الدمية الأنثوية جنوب النمسا بطول يبلغ 4,5إنج، حيث تظهر برأس كبير ذي شعر مصفف ومجعد، وأرجل مستدقة النهاية، وهي أيضا ذات شكل غريب .

3 – مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، مصدر سابق، ص34 .

4 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص153، ص155- 156، ص43 .

وفي الحقيقة فإن الدمى الأنثوية أو (العشتارية) كما يسميها الباحثون تثير أسئلة كثيرة ولعل أهمها أو أولها : كيف ظهرت مثل هذه الدمى في الباليوليت الأعلى وما زال وقت اكتشاف الزراعة بعيدا؟ وينطلق هذا السؤال من فكرة أن مثل هذه الدمى رأى البعض أنها تشير إلى انتباهة دينية خاصة بالتكاثر والولادة عند الإنسان وارتباط ذلك بالمرأة، خاصة وأنها ستظهر لاحقا وبغزارة كبيرة لتدل على الزراعة والخصب فيما بعد، ولكن ظهورها في ذلك الوقت المبكر لاكتشاف الزراعة، وفي تلك الأجواء التي لم يظهر فيها مفهوم الخصب الكوني على حقيقته، كما حصل بعد حوالي عشرين ألف سنة (عصر النيوليت) في الشرق الأدنى[1] .

إن غموضا شديدا لا شك يكتنف هذا الوجود الأنثوي لدى إنسان الباليوليت الأعلى، إلا أن غياب الرؤوس بل والأقدام أحيانا، أو برأس يشبه الكرة الملساء دون ملامح وجه على الإطلاق، يؤكد للناظر بُدًّا أنه ليس أمام شخص بعينه، فلم تكن تلك الأعمال الفنية نتاج ولع فني جمالي بمقدار ما كانت نتاج حس ديني، ذلك أن الأسلوب الذي صنعت به، والمعتمد على تحوير فني مبالغ فيه، يجعلها أبعد ما تكون عن تصوير شخصيات واقعية تنتمي للأجناس التي ظهرت بينها، وقد رأى منها أغلب الدارسون أنها رموز لكائنات فوق طبيعية كانت محل عبادة الإنسان الأول [2]، وافترض (مرسيا إلياد) : "بأنها تمثل القداسة النسوية، وبالنتيجة القدرات السحرية — الدينية للأمهات، إن الغموض المشكل بطريقة الوجود النوعي للنساء لعب دورا هاما في العديد من الأديان، بدائية كانت أم تاريخية..."[3] .

إلا أن تعمد إنسان العصر الحجري تجاهل الرأس وإغفال الملامح [*]، كان لإحساسه بأنه يصنع صورة رمزية، وشارة وشعارا لا هيئة حقيقية موجودة، ولكن منذ أن بدأ الإنسان بتشكيل ملامح وجه إنساني يمثل شخصا بعينه، ثم عزا إلى هذه الهيئة قوة غير طبيعية، أو جعلها مستقرا لهذه القوة، دخل الفكر الديني مرحلة التشخيص (تشخيص الجماجم أو تشكيل الحجر والصلصال فيما بعد)، وأخذ الإنسان ينظر إلى القوة من خلال تمثيليا ت مشخصة، وشيئا فشيئا تحوّلت القوة إلى شخصيات ذات قوة، وتكسر مبدأ القوة السارية إلى عدد من القوى، وظهرت الآلهة...[4]

---

1 - ينظر خزعل الماجدي، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، مصدر سابق، ص38- 49 .

2 - ينظر فراس السواح، لغز عشتار (الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة)، ط 1، دمشق: دار علاء الدين، 1985م، ص41 .

3 - مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص35، فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص219 .

* - ينظر ملحق1، وثيقة رقم2، كسر لمنحوتات أنثوية بدون رأس، ص453.

4 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص219 .

وعلى كلٍّ فإن (مما يدعم القيمة الدينية والرمزية لهذه الأعمال الفنية لدى الدارسين، أن من بين الستّين عملا نحتيا التي وصلت من العصر الباليوليتي، هناك خمسة وخمسون منها مكرسة لأشباه هذه الأشكال، وخمسة أعمال فقط تمثل أشكالا ذكرية، منفذة بشكل سيء لا يدل على الاهتمام والمبالاة كما الحال في الأشكال الأنثوية [1]، وعن تلك الدمى الأنثوية الصغيرة، خفيفة الحمل، فلربما تعلقت بمفهوم الخصب بشكل أساسي، خصوصا وأن شكلها المغزلي يدل على أنها كانت تغرس في الأرض بوضع عمودي ضمن سياق طقسي معين)[2] .

واستمر هذا التواجد الأنثوي إلى غاية العصر النيولوتي للإنسان في حقبته الأولى ما قبل الفخارية، مترافقا مع ظهور المستوطنات الزراعية الأولى خلال الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد، مع احتفاظها بالكثير من خصائصها، ليبدأ منذ الألف السادس قبل الميلاد ظهور الأشكال الذكرية إلى جانب الأشكال الأنثوية، كما تبدأ الأعمال التشكيلية في رسمهما معا، وبذلك يبدأ التمهيد تدريجيا لظهور الثنائي الإلهي (الأم الكبرى وابنها) والذي أخذ صوره الواضحة الأولى مع مطلع الألف السادس قبل الميلاد في ثقافة (شتال حيوك) [*]جنوب الأناضول، وخلال العصر النيولوتي هذا، نضجت في سورية الرموز التشكيلية الخاصة بـــ(الأم الكبرى) [**]، ومن تلك الرموز الصليب المعكوف والصليب العادي، اللذان استمرا كرمزين مقدسين ... وصولا إلى السيد المسيح وأمه مريم كآخر أم كبرى في الديانات البشرية، كما لا يزال الصليب المعكوف رمزا مقدسا لدى الهندوسية في الهند والبوذية في الشرق الأقصى، وليس صليب النازية إلا إحياء لتقليد قديم من تقاليد القبائل التوتونية التي تحذر منها الألمان !... [3] وظلت (عشتار) تتخذ ألقابا شتى كإلهة للحكمة الأنثوية فهي (آنتيا) أي سيدة الرؤيا، وهي (معات)؛ سيدة الحقيقة عند المصريين، وهي (صوفيا) سيدة الحكمة والنبوءة عند الإغريق... [4]

---

1 – فراس السواح، لغز عشتار، مصدر سابق، ص44 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص157 .

* – تمثال (شتال حيوك) : أقدم مجسم لهيئة جسم بشري ، تمثال امرأة عثر عليه في منطقة شتال حيوك جنوب الأناضول عمره حوالي9000 عام، ويمثل الأم الخصبة أحد أوجه عشتار، حيث نجد تمثالا للأم الكبرى تضع طفلها شتال حيوك .

** – الآلهة (الأم الكبرى) : وعثر على تماثيل لها في عدة مواقع، قدمها إنسان العصر النيولوتي في صور شتى فهي تارة كأم حبلى، وأم تضع طفلها الصغير إلى صدرها.. وهي (تعامة) في أسطورة التكوين البابلية، وهي (عناة) و(عستارت) في كنعان، ولدى الإغريق (أفروديت) .. وفي روما وجدت (سيريس) و(فينوس) ولدى العرب تمثلت بـــ (اللات) و(العزى) وفي الهند عرفت بـــ(كالي) ..

3 – ينظر فراس السواح، لغز عشتار، مصدر سابق، ص44 – 46 ، ص263 .

4 – المصدر نفسه، ص243 .

فالذي نود قوله أن التقاليد الباليوليتية للتصوير الجداري أو لنحت الدمى لم تنقطع حتى خلال العصر النيولوتي الموالي مع ما يطرأ من تغيرات قليلة أو كثيرة، وعلى حد قول (فراس السواح) فإن (الصور المقدسة تتمتع بثبات نسبي عبر فترة طويلة من الزمن، رغم التغيرات الجذرية التي تطرأ على مضمونها، وقد يستفيد مضمون اعتقادي جديد من هيئة قديمة تمتعت بالقداسة فترة طويلة، ويحل فيها بعد تغييرات قليلة أو كثيرة عليها، وبذلك تستمر الصورة في أساسياتها ويتغير محتواها تدريجيا حتى يتلاشى المحتوى القديم تماما، فالرمز القديم لا يحمل بالضرورة مضامين ودلالات واحدة، لدى تكراره في عصور مختلفة وأمكنة متباعدة، وذلك حتى في حال توارثه وتداوله بحرفيته الشكلية، فرمز الصليب الذي كان ذا دلالة إيديولوجية وطقسية منذ العصور الحجرية، لا تربطه الآن بصليب المسيحية صلة !!..)[1] .

وعلى غرار ذلك؛ فلربما كان التحول في المدلول الأول للدمى الأنثوية عن بدايته لدى إنسان الباليوليت الأعلى، ولعلّها كانت عنده ذات مدلول فكري آخر؛ ذو بعد اجتماعي أو اقتصادي أو غيره، بعيد عن أي تصور قدسي أو ديني، ولكن مع استمرار ظهورها وانتقالها اعتراها التحول في المضمون والمدلول، ليؤدي انتشارها لاحقا وبغزارة في النيوليت وفيما بعده، مؤكدا للعيان ارتباطها بمفهوم الزراعة والخصب والفيض التلقائي؛ ذو القيمة الدينية .

والذي نستجمعه مما سبق ومن خلال السمات الرمزية غير المشخصة للدمى الأنثوية، – رغم أنه من الصعوبة أن نجد تفسيرا لتلك الدمى– أنها ليست إلا شارة معنوية مجردة فهمها بدائي الباليوليت الأعلى وتداولها كما الرسوم الحيوانية لجداريات الكهوف، إلا أننا نلحظ تدريجيا حلولا للشكل البشري محل الشكل الحيواني وبداية تجسيد له رغم غياب الملامح الشخصية، كما نلمح انحرافا شديدا نحو التجسيد الأنثوي على حساب التجسيد الذكري والحيواني على غرار ما رأيناه في ثقافة الكهوف من جدلية أنثوية ذكرية، والأهم الذي يضاف هنا؛ أن تلك الدمى لم تكن موضع عبادة بذاتها، كما لم تكن تمثيلا لهيئة ألوهية، إلا أننا نستشف من خلالها محاولة لتصوير جانبا من الصفات القدسية لدى إنسان ذلك العصر، وكأنها وسيلة لاستحضار واستعطاف القوة الإلهية .

لقد كان خيارنا لاستكشاف ديانة الإنسان في قاعها الحجري، لنلحظ إلى أي مدى تعد ظاهرة التدين عريقة في القدم، وقد تجلى لنا ذلك بحق من خلال تسليط الضوء على بعض الشواهد التشكيلية والنحتية، والجداريات وبقايا المدافن والمقابر لغرض البحث عن المعتقد الأصلي للإنسان الأول في صورته الصافية، وقد تبين لنا إلى الآن كيف كان الاعتقاد بينا بحضور إلهي كلي تنبي عنه أحاسيس الإنسان وفطرته أولا، وتتجلى آثاره المبثوثة في أرجاء الكون وكل مظاهر الطبيعة التي أحاطت

1 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص169.

بالإنسان البدائي من كل جانب، بل إن الإيمان بعالم غيبي موازي، وعقائد ما بعد الموت كان مركوزا لديه، ومع ذلك فإننا لم نعثر على البدائي وهو يتوجه إلى الحيوان يعبده، كما لم يعبد أي من مظاهر الطبيعة كما حدَّثنا عن ذلك بعض المؤرخين والأنتربولجيين وغيرهم في تفسيرهم للشواهد والرسوم والتشكيلات الحيوانية للإنسان الحجري، وأكثر ما نستطيع أن نجزم به هو ظهور بوادر التجسيد والتقديس بمرور الوقت أو في أوقات ظرفية معينة، كما أن الانحياز بقوة وشمول نحو الإيقاع الأنثوي لأمر محير بالفعل !! .

ومؤكد القول أن التراث العقائدي الديني للعصر الحجري أثبت أن له صورة غنية ومعقدة لدرجة كبيرة قد نعجز عن فهمها، عبّر عن ذلك (لوروا غورهان) : "هو أن التمثيلات تغطي نظاما معقدا جدا وغنيا، وأنه أكثر غنى وأكثر تعقيدا مما لم يسبق تصوره حتى ذلك الحين" [1]... وقد تجلى لنا ذلك من خلال شعائر الدفن الموحدة، وكذا الرسوم والجداريات التي شكلت نسقا شدَّ انتباه الباحثين والمكتشفين وغير ذلك من النحوت البشرية والحيوانية التي لم يوجد لها تفسير غير كونها تلح على إيصال رسالة رمزية حاول البدائي تصويرها آنذاك... مما يسفر أولا عن (أن الإنسان يظهر أكثر قدما ونشاطه النفسي – العقلي أكثر تعقيدا مما كان يعتقد؛ الأمر الذي كشفت عنه المكتشفات الحديثة لعلم الحفريات، إذ تشترك فيما بينها في أنها ترجع دوما لما هو أكثر بعدا في زمن بدايات الإنسان والثقافة)[2].

وبالنظر لهذا القدم في توارث الظواهر الدينية، مما يحمل على القول بأن الظاهرة الدينية لم تخل منها أمة مهما بعدت، والفكرة الدينية أقدم في المجتمعات من كل حضارة، بل هي أقدم من كل النشاطات الإنسانية مهما كانت بدائية (الزراعة، الصناعة ...)... يقول (هنري برجسون) :"لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد جماعة بغير ديانة" [3] بل يؤكد عبد الله دراز قائلا : "أما فكرة التدين في جوهرها فليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان"[4]، كل ذلك مما يؤكد بأن الدين أصيل في الطبيعة البشرية؛ لا يرتكز في ظهوره على أسباب أو ظروف خاصة، وما الظواهر الدينية في عمومها إلا تعبير عن نزعة أصيلة مشتركة بين الإنسانية قاطبة .

كما أن مما تضيفه الوحدة التصويرية التي كنَّا نلحظها في كلٍّ من مظاهر الدين لدى البدائي، أو الوحدة التكاملية بين تلك المظاهر جميعها، وتسلسلها وكأنها تنحدر من بعضها هو أنها تنبئ عن

1 – نقلا عن مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، مصدر سابق، ج1، ص35 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص36 .

3 – نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص83 .

4 – المصدر نفسه، ص82 .

ضرورة وجود مرجع خارجي موحد وراء كل ذلك، هو من صدَّر لأصول تلك المظاهر في أولها أي قبل انتقالها وتحولها، أم أنها نتيجة نظام ديني كان قائما بالفعل وحريٌّ بنا التنقيب عنه وعن مصدره، وإذا كان الأمر على هذا النحو بالنسبة للبشرية وهي في بدائيتها، فإن بحثنا عن مصدر الدين الأول سيظل يجر وراءه سلسلة من التراجعات الخلفية، ولن يتم الأمر إلا أن يُأتى بالإنسان الأول قبلا !!

ولقد أنصف (هوفيدنج) حين قال "إنه يبعد كل البعد أن ينجح تاريخ الأديان في حل مشكلة بزوغ الدين في النوع الإنساني...فإن التاريخ لا يصور لنا هذه البداية الأولى في موضع ما..." [1] مما يجعلنا نسلم ضرورة بوجود مرجع خارجي هو الأساس في وجود الدين، ولعله ذاته الذي يعيننا على فهم الأصول الأولى للدين، نشير بذلك إلى الشواهد الكتابية وما تقوله عن مصدر الدين والباعث عليه، وكذا عن حقيقة المعبود الذي توجه إليه الإنسان قديما... يؤكد (إيفانز-بريتشارد)2 Evans-Pritchard (1902-1973) في كتابه (Théories of Primitive Religions) بأن فصل الأديان البدائية عن الأديان السماوية عملية زائفة تؤدي إلى الغموض وعدم الفهم، فهو يرى أن الأديان البدائية بشعائرها وتابوهاتها المختلفة ما زالت تمثل جوهر الأديان السماوية[3]. ولئن شئنا الصواب فقد باتت الشواهد الكتابية هي الحل النهائي بالنسبة لمسألة الدين الأول .

---

1 - نقلا عن عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص109 .

2- إيفانز بريتشارد : (1902- 1972م) عالم الأنتربولوجيا الاجتماعية، بروفيسور من جامعة أكسفورد، عمل دراسات وأبحاث بجامعة القاهرة، اشتغل محاضرا في السحر، من أهم مؤلفاته : (الأنتربولوجيا الاجتماعية)، و(نظريات في الديانات البدائية) ...

3-Evans-Pritchard, Theories of Primitive Religions, London: Oxforduniversity press, 1965, p118.

المطلب الثاني : الشواهد الكتابية

إن الالتجاء لهذه الكتب لهو اعتراف ضمني بعجز الإنسان وحده بوسائل علمه عن الوصول اليقيني إلى نقطة البدء الحقيقي لدين الإنسان الأول، والواقع أن الحل الأمثل إنما يكون عن طريق الوحي الإلهي بواسطة الكتب السماوية ... فلا يمكن الخوض في قصة الإنسان الأول أو الاهتداء إلى دينه بغير هداية ربانية...

فهذه الكتب تقرر أن الله سبحانه لما خلق أبا البشر كرمه وعلمه حقائق الأشياء، وكان فيما علمه: أنه هو خالق السماوات والأرض وما فيهما، وأنه هو خالق الناس ورازقهم، وأنه مولاهم الذي تجب طاعته وعبادته، وأنه سيعيدهم إليه ويحاسبهم على ما قدموا، ثم أمره أن يورث علم هذه الحقيقة لذريته؛ ففعل، وكانت هذه العقيدة ميراث الإنسانية عن الإنسان الأول، نعم إن الناس لم يكونوا كلهم أوفياء بهذه الوصية المقدسة، بل إن أكثرهم وقع في الضلال والشرك، ولكن هذا التعليم الأعلى لم يمح أثره محوا تاما من البشرية، لذلك ظلت فكرة الألوهية والعبادة بوجه عام مستمرة في جميع الشعوب[1]؛ الأمر الذي وقفنا عليه لدى تتبعنا للمظاهر الدينية عند أبعد نقطة استطاعت الكشوفات الوصول إليها، فيما عرف بالعصر الحجري في قاعه السحيق .

و لم تقف العناية السماوية بهذا التعليم الروحي عند الإنسان الأول، بل ظلت تتعهد به الأمم في فترات تطول أو تقصر، وجعلت تذكّرهم به على لسان سفراء الوحي من الأنبياء والمرسلين، وإن كتب الديانات العظمى لتنتسب كلها إلى هذا المصدر السماوي [2]، تتضح هذه الصورة تماما مع خاتم هذه الكتب السماوية ألا وهو القرآن الكريم .

1 – القرآن الكريم ومصدر الدين : فصَّل القرآن الكريم حالة الإنسان الأول وتدينه، بقوله سبحانه وتعالى { **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** }**(سورة البقرة**

---

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص164 .

2 – المصدر نفسه، ص165 .

الآية 30–34)، فكأن تاريخ العقيدة الدينية قسم منه لم يقع على الأرض بل حدث في السماء .

ويقول جل ثناؤه { **وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** }(سورة البقرة الآية 34-38) .

ومما يستنبط من هذه الآيات عن بداية الخلق :

أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق آدم قضى أن يكون خليفة في الأرض، يخلف فيها بمنهج الحق والتوحيد،[1] وفي الآية { **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** } أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل، كما في قوله { **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ** } (سورة الأنعام الآية 165)، {**وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ**} (سورة النمل الآية62)[2]، و"خليفة"يكون بمعنى فاعل، أي يخلف من كان قبله من الملائكة في الأرض، أو من كان قبله من غير الملائكة على ما روي ، ويجوز أن يكون "خليفة" بمعنى مفعول أي مخلف، كما يقال: ذبيحة بمعنى مفعولة ، والخلف (بالتحريك) من الصالحين، وبتسكينها من الطالحين3 .

وقد فهم البعض من كلمة خليفة (أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض ! خليفة الخالق المبدع المسيطر على قوى الكون، دوره في الأرض هو عمارتها، فالخلافة عن الله معناها الإنشاء والابتكار والتعمير والتبديل والتغيير، وكلها من عمل الله، الذي أعطى قبسة منه للخليفة الذي استخلفه فيها) [4]. ومهما يكن فكلمة الخلافة كلمة ضخمة، ذات إيحاءات، وأول إيحاءاتها أن هذا الكائن الإنساني كائن عظيم القدر ذو أهمية بارزة في الحياة، زوّده الله بما يتناسب مع دوره فيها من إمكانات .

وأكبر هذه الإمكانات هي المعرفة.. هي العلم؛ ولذلك فإن الله خلق آدم وهو في قمة النضج العقلي والمعرفي بدليل أن الله علمه الأسماء { وعلم آدم الأسماء كلها } قال المفسرون؛ (هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم ، بما اختصه من علم أسماء كل شيء دون الملائكة، وهذا كان بعد سجودهم له، وبين لهم شرف آدم بما فضل به في العلم فقال تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها} وجاء عن (ابن

1 – فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، ص151 .

2 – إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ص216 .

3 – القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج1، ص23 .

4 – ينظر محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، القاهرة : دار الشروق : 2005م، ص30 .

عباس)[1] {وعلم آدم الأسماء كلها} قال: علمه أسماء ولده إنساناً إنساناً والدواب فقيل: هذا الحمار ، هذا الجمل، هذا الفرس ، وقال الضحاك عن ابن عباس {وعلم آدم الأسماء كلها} قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها، وروى عن (ابن عباس) {وعلم آدم الأسماء كلها} قال علمه اسم الصحفة والقدر ، قال نعم حتى الفسوة والفسية، وقال مجاهد {وعلم آدم الأسماء كلها} قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء، كذلك روي عن (سعيد بن جبير)[2] و(قتادة)[3] وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء، وقال (الربيع) في رواية عن أسماء الملائكة ، وقال (حميد الشامي)؛ أسماء النجوم ، وقال (عبد الرحمن بن زيد)[4] علمه أسماء ذريته كلهم ، واختار (ابن جرير) أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال {ثم عرضهم} وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذي رجح به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل ، وقد قرأ (عبد الله بن مسعود)[5] ثم عرضهن،

1- ابن عباس : عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، صحابي جليل، وابن عم النبي محمد، حبر الأمة وفقيهها وإمام التفسير وترجمان القرآن، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم و ابن عباس لم يتجاوز خمس عشرة سنة، وكثيرا ما دعا له "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل (ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط 1، دار ابن حزم، 1433، 2012م، ص291) .

2 - أبو محمد سعيد بن جبير الأسدي : (46-95)هـ تابعي حبشي الأصل، الإمام الحافظ المقرئ المفسر الشهيد، كان تقياً وعالماً بالدين درس العلم عن عبد الله بن عباس حبر الأمة وعن عبد الله بن عمر وعن السيدة عائشة أم المؤمنين في المدينة المنورة، سكن الكوفة ونشر العِلم فيها وكان من علماء التابعين، فأصبح إماماً ومعلماً لأهلها، قتله الحجاج بن يوسف الثقفي بسبب خروجه مع عبد الرحمن بن الأشعث في ثورته على بني أمية (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج4، ص322) .

3 - قتادة بن دعامة السِّدوسي : (61هـ 118 -هـ ،736 - 680 م) أبو الخطاب ، تابعي وعالم في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، محدث، مفسر، حافظ، علامة، كان ضريرًا أكمه قال عنه أحمد بن حنبل : "كان قتادة أحفظ أهل البصرة لا يسمع شيئاً إلا حفظه؛ قرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها.." (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج5، ص269)

4 - عبد الرحمن بن زيد : بن أسلم العدوي المدني، وكان صاحب قرآن وتفسير جمع تفسيرا في مجلد، وكتابا في الناسخ والمنسوخ، فهو مفسر من أتباع التابعين، وحدث عن أبيه، روى عنه أصبغ بن الفرج، وقتيبة، وهشام بن عمار، وآخرون ، توفي سنة اثنتين وثمانين ومائة (182ه) (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج 7، ص564).

5 - عبد الله بن مسعود : أبو عبد الرحمان عبد الله بن مسعود الهذلي، لقب بابن أم عبد، الصحابي الجليل، فقيه الأمة، هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وشهد المشاهد كلها، وأول من جهر بقراءة القرآن، تولى قضاء الكوفة وبيت المال في خلافة عمر توفي بالمدينة سنة 32 للهجرة (ابن الأثير، أسد الغابة، ج3، ص381) .

وقرأ (أبي بن كعب)[1] ثم عرضها أي المسميات، والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعني أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر ...)2 . فالإنسان مخلوق متفرد، مزود بطاقة المعرفة .

فمنذ خلق آدم وحواء وهناك أمر ونهي تمثل في إباحة الجنة له بما فيها من الطيبات باستثناء شجرة مخصوصة.. وحذرهما من الشيطان الذي أظهر العداوة المبكرة لآدم عليه السلام، حين امتنع عن السجود له مع بقية الملائكة امتثالا لأمر الله [3]، وإذا كانت العبادة هي تلق للأوامر، ولا ينبغي في العبادة إلا الإتباع، ومفادها قمة الخضوع والطاعة للمعبود، كان لابد للإنسان من أن يتلق هذه الأوامر من معبوده أولا، ليعبده بها على الوجه الأكمل والأمثل، ولا شك أن ذلك هو محض الدين والتدين .

كما يدل الأمر والنهي على أن الإنسان مزود بطاقة الإرادة الضابطة، وطاقة القوة الفاعلة المتضمنة في معنى الخلافة ومقتضياتها، فقدرته على الصراع قيمة أساسية من قيم حياته، ضرورية له في أداء دوره على الأرض، فهو يملك القدرة على التوجه إلى الله، وتلقي كلماته وتتبع هداه، فيرتفع إلى أقصى المدى، كما أن له القدرة على الابتعاد عن الله، والهبوط إلى الحضيض[4] .

فالخالق إذن؛ أعطى الإنسان كيانا متفردا في أمرين عظيمين يتميز بهما عن غيره من الخلق؛ أما الأول فبالنفخة الإلهية التي تشتمل عليها روحه قد صار (مدركا) لنفسه وما حوله، والأمر الثاني؛ أنه بهذه النفخة ذاتها قد صار مريدا لما يقوم به من أعمال وتصرفات، وهذان العنصران : الإدراك والإرادة، المستمدان من النفخة العلوية قدرهما الخالق بما يناسب المهمة التي خلق لها الإنسان [5]، وبهتين الميزتين تتصف أعمال الإنسان بأنها أفعال واعية، يدرك هو غايتها وأهدافها، كما أنها أفعال إرادية يريدها الإنسان ويقصدها، الأمر الذي يميزه عن غيره من الكائنات، فهو يعبد الله عن وعي وفهم وإدراك .

---

1 – أبي بن كعب بن قيس : من فقهاء الصحابة ومن كتاب الوحي، ومن خير قراء القرآن ، شهد بيعة العقبة الثانية، وشهد له الرسول صلى الله عليه وسلم بالعلم، وكناه أبا المنذر، توفي سنة 30 للهجرة (ينظر ابن الأثير، أسد الغابة، ج1، ص168).

2 – إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج1، ص223-224 .

3 – فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، ص151 .

4 – ينظر محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص32- 33 .

5 – المصدر نفسه، ص214 .

وما مضى كله يدل على أن مصدر الدين هو الله، وأن الإنسان الأول نزل بالوحي والهداية والتوحيد1 فقد اتضح أن الله خلق الإنسان، و لم يتركه سدى، و لم يدعه فريسة لغواية الشيطان وضلاله ووسوسته التي بدأها في الجنة، وتولاه بالهداية والرشاد وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأعلن له ذلك منذ اللحظات الأولى لاستقراره على الأرض، فقد قال تعالى **{قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }** (سورة البقرة الآية 388-39) وقال الله سبحانه في نفس المعنى**{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى }** (سورة طه الآية 123- 124).

وقال الله مبينا الحكمة من ابتعاث الرسل، وإنزال الكتب **{الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ }** (سورة إبراهيم الآية 1) وقال الله تعالى يصف القرآن **{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}** (سورة الإسراء الآية 8)[2].

كما يستدل على أن الإنسان أول ما عرف التوحيد، ثم بدأ بالانحراف فتدرج أمره حتى وقع في الشرك، وذلك لأن الإنسان الأول هو (آدم عليه السلام) كان نبيا يعبد الله وحده لا شريك له، وعلم أبناءه التوحيد إلى أن وقع بنو آدم في الشرك بعده، كما أن المؤكد أيضا أن الأمم تتقلب في عبادتها، فتنتقل من التوحيد إلى الشرك، ومن الشرك إلى التوحيد[3]، ومما يدل على ذلك زيادة قوله تعالى **{ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً }** (سورة البقرة الآية 213)، ويؤيده قوله عز وجل**{ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا }**(سورة يونس الآية 19) .

وإذا كان دين التوحيد هو ما ارتضاه الله لعباده مذ خلقهم، فإن دين الله واحد؛ الأمر الذي أثبتته الأبحاث الحديثة (من أن الناس كانوا في أقدم عهودهم على التوحيد الخالص، وأن الوثنية عرضت عليهم بفعل رؤسائهم الدينيين..)[4] .

---

1 – فرج الله أبو العطا، نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، مصدر سابق، 152 .

2- محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، ط 1، دمشق: جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1991م، ص 8-9 .

3 –سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ط1، الرياض: أضواء السلف، 1418ه، 1997م، ص26 .

4 – نقلا عن أحمد عبد الوهاب، الإسلام والأديان الأخرى (نقاط الاتفاق والاختلاف)، القاهرة : مكتبة التراث الإسلامي، ص3 .

والرشد والضلال في الفكرة الدينية ليستا ظاهرتين متعاقبتين فقط صعودا أو انحدارا على مدى العصور، بل هما ظاهرتان متعاصرتان، موزعتان في كل أمة وجيل، تبعا لاختلاف الأفراد في درجات استقامة الحدس العقلي، ونبل الحس الباطني، فلا يخلو جيل ما من نفوس صافية تدرك الحقيقة نقية من شوائب الخرافة، وأخرى دون ذلك، ولعل هذا الوصف هو أقرب الأوصاف تصويرا للواقع المعروف، فقد اتفق الموثوق بهم من مؤرخي الأديان على أن أشد الشعوب همجية ووثنية لم تنفك عن الاعتقاد بإله خالق هو رب الأرباب[1] .

وفي دراسة عن عقائد القبائل الوثنية في أفريقيا وُجد (أن فكرة الله الأعلى تكاد تكون موجودة لدى جميع القبائل)، بل إن مفهوم الذات الإلهية الكلية الحضور، والذاتية الاكتفاء، والشاملة القدرة، نجده بين كثير من القبائل.. ومفاهيم الخير والشر موجودة أيضا في هذه الديانات الإفريقي ة، بل لعلها عميقة الجذور فيها إلى حد لا يتصوره الكثيرون [2]، فكما ثبت أمر التوحيد كدين للإنسان الأول عن طريق الوحي فإن أبحاث الحفريات أيّدته، وذهب لهذا الرأي علماء الأديان من غربيين وغيرهم ..حتى جزم المتخصصون في دراسة الملل البدائية بقول :" لقد مضى ذلك العهد الذي كان يتهم فيه الرجل القديم بأنه غير قادر على التفكير فيما يتعلق بالذات المقدسة أو في الله العظيم، ولقد أخطأ (تايلور) حيث جعل التفكير الديني الموحِّد نتيجة للتقدم الحضاري والسمو المعرفي، وجعل ذلك نتيجة لتطور بدأ من عبادة الأرواح والأشباح ثم التعدد ثمَّ أخيرا العثور على فكرة التوحيد"[3] .

فبالنسبة للقرآن الكريم؛ فإن الإنسان لم يبدأ ملحدا ولا جاهلا، بل خلقه الله عالما عابدا، مدركا لذاته (عابدا مستخلفا)، ولخالقه (المعبود المتفرد)، ورسالته في الحياة (عبادة الله وحسن الاستخلاف في الأرض)، بل ومصيره بعدها .

وإذا كان هذا نبأ القرآن الكريم بشأن خلق الإنسان، وتكريمه، وعن المصدر الإلهي للدين، المتمثل في التوحيد الذي ارتضاه الله لعباده مذ خلق الله آدم، فما قول الكتاب المقدس إزاء مصدر الدين .

1 - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 113 .

2 - عبد الوهاب، الإسلام والأديان الأخرى، مصدر سابق، ص3 .

3 - نقلا عن سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية مصدر سابق، ص28 .

2 - **الكتاب المقدس ومصدر الدين** : وبداية لن نقول عن الكتاب المقدس أكثر من الإقرار الواضح الذي ورد في مقدمة الطبعة الكاثوليكية للكتاب المقدس ذاته سنة 1960م، الذي يقول :"ما من عالم كاثوليكي في عصرنا، يعتقد أن موسى ذاته كتب كل التوراة منذ قصة الخليقة، أو أنه أشرف على وضع النص الذي كتبه عديدون من بعده، بل يجب القول؛ إن ازديادا تدريجيا حدث، سببته مناسبات العصور التالية، الاجتماعية والدينية"[1].

أما موسوعة تاريخ العالم التي أشرف على تحريرها عدد لا يستهان به من العلماء، فقد أكدت أن في هذا الكتاب أجزاء ألفت ما بين 1150ق.م وبين 130ق.م، وأجزاء أخرى كالأسفار الخمسة الأولى، قد أخذت صورتها النهائية حوالي عام 400ق.م، وتحوي كتابات يرجع تاريخها الشفهي إلى ستة قرون سابقة على هذا التاريخ، بينما الأسفار التاريخية قد كتبت سنة 550ق.م، مع تصنيفات أخرى للكتاب، قدمت لها الموسوعة اقتراحات بتواريخ مختلفة ومتباعدة تباعدا كبيرا[2] . ولخص المفسر اليهودي (ابن عزرا)[3] قضية سند التوراة من رأسها إلى أخمصها بأن (موسى عليه السلام) لم يكتب قطعا هذه الأسفار التي يطلق عليها اليهود والنصارى أنها التوراة وينسبونها إلى موسى، بل إن مؤلف هذه الأسفار شخص عاش بعد موسى بزمن طويل جدا..[4]

واستخلص (اسبينوزا) أن (المعرفة التاريخية للظروف الخاصة بكل أسفار الكتاب المقدس، لا تتوفر لدينا في معظم الأحيان، والواقع أننا نجهل الأشخاص الذين كتبوها..أو نشك فيهم !!، ومن ناحية أخرى لا ندري في أية مناسبة، وفي أي زمان كتبت هذه الأسفار التي نجهل مؤلفيها الحقيقيين !! ولا نعلم في أيدي من وقعت، وممن جاءت المخطوطات الأصلية التي وجد لها عدد من النسخ المباينة، ولا نعلم أخيرا إن كانت هناك صياغات أو قراءات كثيرة في مخطوطات من مصدر آخر)[5] . ثم أعلن

---

1 - نقلا عن سيد القمني، قصة الخلق، ط2، المركز المصري لبحوث الحضارة، 1999م، ص 90، وينظر علي وافي، الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، القاهرة : دار النهضة،1984م، ص17، ص18 .

2 - سيد القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص90 .

3 - ابن عزرا : (10992م-1167م)، الحاخام إبراهيم بن منير ابن عزرا، واحد من أكثر علماء وأدباء اليهود شهرة خلال فترة العصور الوسطى، برع ابن عزرا بالفلسفة وعلم الفلك والتنجيم، الطب والشعر وعلم اللغات والتفسير، لذلك لقب بالحكيم وبالكبير وبالطبيب الماهر ..وهو مفسر يهودي، من أهم من شرحوا وانتقدوا الكتاب المقدس، كما أن له مؤلفات في اللغة: المقاييس، التصحيح..

4 - ينظر محمد الشرقاوي، في مقارنة الأديان (بحوث ودراسات)، ط2، بيروت: دار الجيل، 1410ه، 1990م، ص72 .

5 - باروخ اسبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، ط 4، بيروت: دار الطليعة، 1997م، ص 255 .

النتيجة التي انتهى إليها في لغة واثقة قاطعة، فقال : "من هذه الملاحظات كلها يظهر واضحا وضوح النهار أن (موسى عليه السلام) لم يكتب الأسفار الخمسة، بل كتبها شخص آخر عاش بعد موسى بقرون عديدة"[1].

ورغم كل ما قيل عن الكتاب المقدس، إلا أنه بالنظر لاشتراك الكتب السماوية في فكرة خلق الإنسان من طرف الإله، ينبغي أن نلاحظ نظرة الكتاب المقدس لمصدر الدين ومنشئه، ككتاب مقدس يحوي الديانتين (اليهودية والمسيحية)، (إذ أن رسالة الديانة اليهودية /المسيحية، كما جاءت في العهد القديم من الكتاب المقدس..تتمحور حول رغبة الإله في خلق إنسان على هيئته ..)[2]. ولنتابع ما جاء في الكتاب المقدس من نصوص : فعن خلق الإنسان نجد :

- (هذه مبادئ السماوات والأرض حين خلقت، يوم عمل الرَّبُّ الإِلهُ الأَرض والسماوات... وجبل الرَّبُّ الإِله آدم ترابا من الأَرْضِ، ونفخ في أنفه نَسمة حياة، فصار آدمُ نفسا حيّة)[3] .

- (يوم خلق اللهُ الإنسانَ، على شبه الله عمله، ذكرًا وأنثى خلقه، وباركه ودعا اسمه آدم يوم خُلِق)[4].

- (وجَبَلَ الربُّ الإلهُ من الأرض كلَّ حيوانات البريَّة وكلَّ طيورِ السماءِ، فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكل ما دعا به آدمُ ذاتَ نفس حيّة فهو اسمها، فدعا آدمُ بأَسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرِّيَّة)5 .

- (وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرا وأنثى خلقهم، ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا)6 .

- (وتنقصه قليلا عن الملائكة، وبمجد وبهاء تكلله)[7] .

- (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر على الأرض، وأن كل تصور أفكار قبله إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأني حزنت أني عملتهم)8 .

---

1 - نقلا عن الشرقاوي، في مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص77 .

2- محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص34 .

3 - سفر التكوين 2 : 4، 6-7

4 - سفر التكوين 5: 1-2 .

5 - سفر التكوين 2: 19 -20 .

6 -سفر التكوين1: 26- 31 .

7 - سفر المزامير 8: 5 .

8 - سفر التكوين : 6: 5- 7

– (لا مثل لك بين الآلهة يا ربّ، ولا مثل أعمالك، كلُّ الأُمم الَّذين صنعْتهم يأتون و يسجدون أمامك يا ربُّ، ويمجِّدون اسْمك، لأنّك عظيم أنت صانع عجائب، أَنْت اللهُ وحدك)1 .

– (سبحيه يا أيتها الشمس والقمر سبحيه يا جميع كواكب النور، سبحيه يا سماء السموات ويا أيتها المياه التي فوق السموات، لتسبح اسم الرب لأنه أمر فخلقت، وثبتها إلى الدهر والأبد وضع لها حدا فلن تتعداه)2 .

وفي معرض سردها لتاريخ بداية الإنسانية على الأرض، تحكي لنا التوراة رواية تقول إن الله خلق زوجين من البشر، ووضعهما في مكان أطلق عليه (جنة عدن) :

– (وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقا، ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب الإله من الأرض كل شجرة شهية للنظر، وجيدة للأكل، وشجرة الحياة في وسط الجنة، وشجرة معرفة الخير والشر)[3] .

– (وأوصى الرب الإله آدم قائلًا من جميع شجر الجنة تأكل أكلا، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت)4...(وسمعا صوت الرب الإله ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة)[5] .

– (وقال الرب الإله، هو ذا الإنسان، قد صار كواحد منا، عارفا للخير والشر، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا، ويأكل ويحيا إلى الأبد فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة)6 .

وحيث أن الزوجين البشريين ارتكبا خطيئة عظمى، عندما عصيا أوامر الإله في أمر هائل؛ إذ أكلا من ثمرة شجرة حرمها عليهما، فطردهما إلى شرقي عدن 7، وأنجب الزوجان البشريان الأولان، اثنين من الذكور هما هابيل وقايين (قابيل)، وقام الأخوان يقدمان للإله القرابين لإرضائه، فقبل الإله قربان هابيل، ورفض قربان قايين، مما أوغر صدر (قايين) على أخيه، فقتله ثم يختفي ذكر (قايين) من التوراة

1 – سفر المزامير 86: 8- 10 .
2 – سفر المزامير 148 : 1- 6 .
3 – سفر التكوين 2: 8-9 .
4 – سفر التكوين 2: 16-17 .
5 – سفر التكوين 3: 8 .
6 – سفر التكوين :2 : 15، سفر التكوين 3 :22- 24
7 – سيد القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص95 .

ليظهر ابن ثالث لأبي البشر (آدم)، ومن (شيث) تناسلت البشرية وتكاثرت على الأرض [1]... ومرة أخرى يعصي النسل البشري ربه، فيقرر الإله إفناء مخلوقاته العاصية بالطوفان، وتشق التوراة طريقها دوما نحو تمييز النسل اليهودي المرتقب كسيد للبشرية وشعب خاص من بين الشعوب الأخرى [*].

وما يستنبط من تلك النصوص وغيرها المتعلقة بخلق آدم وبداية الخليقة في الكتاب المقدس :

– أن أول ما نلحظه هو التضارب البيِّن بين النصوص والتناقض في رواية الخلق وتسلسلها ففي الأول اغتبط الإله بخلق الإنسان، ولكن سرعان ما ندم على ذلك، فتملكه الغضب على الإنسان وسائر المخلوقات من بهائم وطيور .. ! فبالإضافة للتضارب الواضح يؤكد الكتاب المقدس بتواتر على ندم الإله المستمر لخلقه البشر [2]، ويعلق (إريك فروم) على ذلك بقوله : "بأنه لا مجال للقول بشيء آخر سوى أن للإله الحق في تحطيم مخلوقاته، لقد خلقهم وهو ملك له، ويصف الإله الشر الذي يرتكبه الناس بالعنف، بيد أن القرار الذي اتخذه الإله لا يمحو الإنسان وحده من على الأرض، بل ويمحو معه الحيوان والنبات أيضا..وهذا يبين أننا لسنا بصدد حكم يتناسب مع جريمة معينة، بل إزاء أسف الإله الغاضب على فعلته التي لم ينتج عنها إلا الشر" [3] .

– ناهيك عمَّا تنسبه هذه النصوص للإله من صفات الانتقاص والانفعال والعجلة والندم..، ووصف الإله بما لا يليق (كالجهل والمشي وغيره ...)، وارتكاب الأفعال الجزافية، وخوفه من أن يمد آدم يده ويأكل من شجرة الحياة فيحيا إلى الأبد...حيث (أوضح النص دافع الإله في إهلاك الإنسان أنه الحرص على دوره الأسمى، والخوف الغيور من ادعاء الإنسان أنه ند له) [4] .

– خلق الله الإنسان الأول من أديم (تراب) الأرض، وباركه بنفخ الروح فيه، بل تؤكد النصوص على أن الله خلق آدم على صورته وشبهه، وأثبتت النصوص سيادته على سائر المخلوقات وتسلطه عليها، وأخضع له كل شيء، فقد كلل الله الإنسان بالمجد والكرامة، وجعله في مرتبة أدنى بقليل من الملائكة.

---

1 – ينظر سيد القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص95 .

* – جاء في سفر التكوين 9-14- 15 (وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك : ساما وحاما ويافث وحام هو أبو كنعان، وهؤلاء الثلاثة هم أبناء نوح، ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض) وباعتبار (سام) الجد البعيد لليهود تقول التوراة (وقال مبارك الرب إله سام، ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبدا لهم) (تكوين: 9-20: 27) .

2 – ينظر سيد القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص96 .

3 – إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، تر: فؤاد كامل، ط1، بيروت : مؤسسة الجامعات، 2002م، ص43 .

4 – المصدر نفسه، ص43 .

– وفي سفر التكوين نجد أن الإنسان الأول (آدم) هو من أعطى كل المخلوقات أسماءها، وبهذا خُصَّ بالتعلم والمعرفة والنطق . (فدعا آدمُ بأَسماء جمِيع البهائمِ وطُيور السماء وجميع حيوانات البرِّيَّة)1 .

– كما يدل الخلق على حق الله في العبادة، فلابد من تمجيده والسجود له وإفراده بالعبودية، كما أن قدرته ودلائل ألوهيته تظهر للبصائر أنه مستحق للعبادة، (نبشِّركم أَنْ ترْجعوا مِن هذه الأَباطيل إِلى الإِلهِ الْحيِّ الَّذي خلق السَّماء والأرض والبحر وكلَّ ما فيها)[2] .

– وعن مصدر الكتاب المقدس جاء في الرسالة الثانية إلى تيموثاوس (كلّ الْكِتَاب هو موحًى به من اللهِ، ونافع للتّعليم والتّوبيخ، للتقويم والتّأديب الَّذي في الْبِرِّ، لكي يكون إِنسان اللهِ كاملا، متأهبا لكل عمل صالح)[3]، وبذلك يكون الوحي الإلهي هو مصدر التعاليم والشرائع، غايته تهذيب الإنسان وتأديبه بالعمل الصالح تحقيقا للكمال .

فرغم إصرار الكتاب المقدس على الرفع من منزلة الإنسان وتكريمه لدرجة تدنيه من الملائكة، بل نجد مغالاته في تشبيه الإنسان بالإله– حين تجعل منه صورة له– إلا أننا لا نجد فيه تفصيلا لرسالة الإنسان وغايته على الأرض إلا إشارة باستحياء في استحقاق الله للعبادة؛ خالق السماوات والأرض، ومع ذلك فإن ما نصل إليه من خلال الشواهد الكتابية :

أن مفاد خلق الإنسان أصلا هو عبادة الله خالق السماوات والأرض، وبهذا يكون الدين إلهي المصدر، والدين المقصود هو توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره من الأباطيل . ولكن هل المصدر الإلهي الخارجي للدين؛ متمثلا في الوحي، الداعي إلى التوحيد، هو وحده سر الوجود الديني على طول الوجود البشري إلى الآن وإن ضلَّ الإنسان هذا الطريق أو حاد عنه .

1 – سفر التكوين 2: 19 –20 .

2 – العهد الجديد، سفر أعمال الرسل 14 : 15 .

3 – العهد الجديد، رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس: 3: 16–17 .

المبحث الثاني : أصالة النزعة الدينية ووظائفها

من خلال ما مضى يتضح أن الله منذ خلق الإنسان مدَّه بأسباب الهداية والرشاد، وأعلن له مذ جعله خليفة في الأرض عن الدين الأول، و تكفل بإيصاله له عن طريق إرسال الرسل وإنزال الكتب، فما دام الإنسان هو الإنسان عبر التاريخ لم تتغير طبيعته ولا جبلته؛ فما بالنا نجد في البرية ما لا يحصى من الأديان، وكيف يتنوع التجاوب مع ذلك الدين الأول سلبا أو إيجابا ... فما العلاقة بين الدين وجبلة الإنسان، وهل هي علاقة مؤقتة محددة سطحية ثانوية، يمكن الاستغناء عنها يوما، أم هي علاقة ذاتية أصلية، لا يمكن التخلي عنها أو الفصل بينهما؟ وإلى أي مدى يسود الدين، فهل هو ثابت خالد أم هو كغيره يؤول إلى زوال؟

المطلب الأول : الدين والفطرة

فإذا كان الإنسان هو الإنسان، له كينونة ثابتة لم تتبدل، وإذا كان التدين ظاهرة أثبت الواقع وجودها واستمرارها ما دام ثمة بشر، فإن ينابيع التدين في القديم لا تزال موجودة في الحاضر، وستبقى كما هي في المستقبل، وإن تغيرت أشكالها وأصولها وأنواعها، مما يحمل على القول أن التدين فطرة في الإنسان وهو جزء من كيانه ووجوده، مثله مثل بقية الغرائز التي تتكون منها النفس مذ خلقت، كحب البقاء والطعام والشراب، فما مدى صحة هذا الكلام وما دليل إثباته؟

الدين من صميم الفطرة، ففي صميم الفطرة يحس الإنسان بالله على نحو من الأنحاء .. وقد لا تهتدي الفطرة دائما إلى الصورة الصحيحة للعقيدة، وقد تمزج بها كثيرا من الخرافات والأساطير .. وقد تتصور الحقيقة الإلهية تصورا منحرفا، بل قد تلحد بالله إلحادا .. ومع ذلك يظل في صميمها هذا الإدراك لوجود خالق لهذا الكون؛ خالق قوي جبار .. [1] فالإنسان يدرك وجود الله بالفطرة، وللفطرة طريقة خفية في إدراك وجود الله، لأن كل حديث عنها لن يوضح ماهيتها.. ما دامت خفية الكنه.. ويمكننا تعريفها : بأنها الخاصية الذاتية للإنسان التي يخرج بها من المصنع الإلهي إلى الحياة (عند ولادته) والتي تصاحبه على طول حياته .. مثل شكله وصفاته وغرائزه ؛ كغريزة حب الحياة وحب البقاء مثلا، ومثل ذلك غريزة التدين .. وغيرها من الغرائز الأخرى[2] .

ويعبر (طه عبد الرحمن) [3] في كتابه (روح الدين) عن الفطرة بالذاكرة الأصلية، بحيث يقضي مبدأ الفطرة بأن الإنسان خلق أول ما خلق، على هيئة تحفظ سابق صلاته بعالم الغيب، بحيث تحمل روحه

---

1 – محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص211 .

2 – محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص18 .

3 – طه عبد الرحمن : ولد في 1944م، فيلسوف مغربي، متخصص في المنطق وفلسفة اللغة والأخلاق .ويعد أحد أبرز الفلاسفة والمفكرين في مجال التداول الإسلامي العربي منذ بداية السبعينيات من القرن العشرين.

قوة خاصة أشبه بذاكرة سابقة على ذاكرته التي يملكها في العالم المرئي، وهذه القوة الروحية التي تحفظ ذكريات عالم الغيب أو قل هذه الذاكرة الغيبية- أو الأصلية — اختصت في الإسلام بمصطلح (الفطرة)...ولولا وجود الذاكرة الأصلية، ولولا أن الإنسان يحمل في روحه ذكريات عن حقائق غيبية، لما سعى جاهدا إلى أن يتبين وجوه حضورها في عالم الشهادة، حتى يجعل منها قوام حياته في هذا العالم..[1]

وعندما نتأمل في الحياة نجد الأمور كلها إلى زوال، فهل من شيء خالد في الحياة، وما هو معيار الخلود؟ ولكي يظهر لنا ذلك نقسم رغبات الإنسان إلى فطرية لا يمكن الاستغناء عنها، وإلى غير فطرية يمكن التخلص منها والاستغناء، وأي تيار يسير عكس الرغبات الفطرية الإنسانية لا يمكن له أن يدوم، فهل الدين من الظواهر الخالدة، وهل ينطبق عليه معيار الخلود وأنه أمر فطري [2] ؟ فإذا كان الدين من الثوابت في الحياة التي مهما تغيرت الظروف والأحوال المحيطة بها وواجهت التحديات تبقى راسخة ثابتة، فما هي هذه الثوابت في الحياة والقوانين الطبيعية التي لا يعتريها الفناء وكيف نميزها عن الأمور الفانية؟

تتواجد الظواهر الاجتماعية بين الناس وهي تعايشهم ما داموا متعلقين بها، وإذا رغبوا عنها زالت وانتهت، ومن هنا نعرف السبب في خلود بعض الظواهر وموت بعضها الآخر، فالخالد منها ما كان يلبي الرغبات الإنسانية وحاجاته أو هو وسيلة لإشباع تلك الرغبات الفطرية والغريزية [*]، ومن هنا قسمت رغبات الإنسان إلى قسمين :

- الرغبات الطبيعية : كحب الإطلاع والمعرفة، حب الجمال والشهرة، حب الكمال والقوة، حب النسل والأسرة، وأمور كثيرة من هذا القبيل يسعى الإنسان إلى تحقيقها والوصول إليها، وهي أمور موجودة في الطبيعة البشرية، ومجبولة مع طبيعة الإنسان، ولذلك نرى البشر يسعون إلى تحقيقها، ولا يمكن التخلي، وتعتبر من الرغبات الأولية التي يحتاج إليها في مسيرتهم الحياتية[3] .

1- ينظر طه عبد الرحمن، روح الدين(من ضيق العلمانية إلى سعة الإئتمانية)، ط2، لبنان : بيروت، المركز الثقافي العربي، 2012م، ص53 .

2 – مركز نون للتأليف والترجمة، لا بديل عن الدين (دروس من فكر الشهيد مطهري- تلخيص وتحرير)، ط 1، 1424ه، 2004م، www .al maaref.org، 1424ه، 2004م، ص26 .

* – الفطرة والغريزة : الفطرة هي الصفة التي يتصف بها كل موجود في أول زمان خلقته كالمشاعر والأخلاق والصفات والعقائد التي جُبل عليها الإنسان ، وهي مرتبطة بالروح، أما الغريزة فهي الدافع للإنسان إلى عمل من غير فكر وهي جزء من الفطرة ، فهي احتياجات جسدية ملموسة تحتاج لإشباع مستمر للإنســــــــــان ، ولذا فهي ترتبط بالأمور الجسدية والحسية .

3 – مركز نون للتأليف والترجمة، لا بديل عن الدين، مصدر سابق، ص11 .

– وأما الرغبات غير الطبيعية : فهي (العادات) والحاجات التي اعتاد الناس على تحقيقها والاستفادة منها، ولكنه لأجل العادة أصبح يطالب بها بشدة كما يطالب بالرغبات الطبيعية، وصارت هذه الأمور طبيعية ثانوية للإنسان، ولكن مع هذا كله يمكن التخلص منها وتركها نهائيا، كالإدمان على شرب الشاي، وشرب الخمر وغيره من الأمور التي لم تخلق مع الإنسان في طبيعته.. وهذا هو الفارق الأساس عن الرغبات الطبيعية، فإنها لا يمكن التخلص منها البته[1].

وإذا أردنا أن نعرف أن الدين من الثوابت أو من المتغيرات، فلنطبق عليه هذا المعيار للخلود، لنرى إن كان الدين بنفسه رغبة طبيعية أو هو أفضل وسيلة لإشباع الرغبات والحاجات الطبيعية أم لا، وإضافة كلمة أفضل هنا؛ ذلك أن طبيعة الإنسان ترغب بتحقيق حاجاتها بأفضل وسيلة، فلو وجدت وسيلة أفضل من الدين في تحقيق الحاجات التي يحققها الدين لاستغني عنه والتجأ الإنسان إلى تلك الوسيلة، ومثال ذلك استغناؤه عن استعمال المصباح الزيتي بمجرد اختراع الكهرباء لتحقق غاية النور من الكهرباء بشكل أفضل وأكمل[2] .

فمن جهته يرى (طه عبد الرحمن) أن معاني الدين لا تعدو كونها الحقائق الروحية التي تحفظها الذاكرة الأصلية للإنسان؛ لهذا لا يمكن أن يكون الدين بالنسبة لإنسان أمرا طارئا يعرض من خارج لحياته قد يخرج عنه متى تهيأت الأسباب بشأن العادة المكتسبة أو السيرة الموروثة، بل لابد أن يكون حقيقة ملازمة له لا يقدر على الانفكاك عنها كما لا يقدر أن ينفك عن عقله ، فكما أنه لا يُتصور وجود الإنسان بلا ذاكرة أصلية أو بلا فطرة، فكذلك لا يتصور وجوده بلا دين، وهكذا فالتدين سلوك فطري غير كسبي 3 . ولدى نقدنا لمختلف النظريات المطروحة حول نشأة الدين تبين لنا أن الدين ليس أبدا سليل ولا وليد أي من الأسباب التي طرحت تفسيرا لمنشأ الدين ومبعثا للتدين كالخوف من الظواهر الطبيعية والكونية، أو الجهل بعللها وأسبابها، أو أنه مسكّن للآلام النفسية، أو بديلا عن المظالم الاجتماعية، أو وليد كبت الغرائز الجنسية وغيرها... و لو كان الدين كذلك لكان الدين أمرا مؤقتا، يزول بزوال أسبابه، وإذن لزال مع تقدم العلوم وتطورها، ومع سن القوانين ومبادئ العدالة والتكافل الاجتماعي، فما بالنا نراه ينتشر في مختلف المجتمعات عبر التاريخ ؟

جاء في معجم لاروس للقرن العشرين : إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية[4] . وهو معنى كلمة الفيلسوف اليوناني (سقراط) عندما قال : "كما

1 – مركز نون للتأليف والترجمة، لا بديل عن الدين، مصدر سابق، ص15 .
2 – ينظر المصدر نفسه، ص15 .
3– طه عبد الرحمن، روح الدين، مصدر سابق، ص53
4 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص83 .

يشعر الإنسان بحاجته الماسة إلى الهواء والماء والطعام، تشعر روحه أنها في حاجة مبرمة أيضا إلى غذاء معنوي إلهي، وهذا الشعور هو في عرفنا الدين الذي اهتدى إليه أول إنسان" [1] . ومن الثابت تاريخيا أن فكرة التدين لم تفارق البشرية، و لم تخل منها أمة من الأمم القديمة والحديثة، لأنها نزعة أصيلة ملازمة للناس جميعا، والبحث عن أمور الدين وأهمها وجود الخالق، لم ينقطع لحظة في تاريخ البشرية، وقد يوصل البحث إلى الغاية المطلوبة والهدف الصحيح، وقد يضل عن الطريق[2] .

والحق؛ أن نظرة عابرة على الجدول[*] المرفق، تؤكد وجود الفطرة الدينية لدى الإنسان ،حيث لا يعقل أن يكون حوالي 87% من تعداد البشرية بالكامل يدينون بدين ما بشكل واضح وصريح .. ويقومون بممارسة شعائر العبـــادة بشكل ما أو بآخر .. بدون وجود فطرة دينية لدى الإنسان تدفعه للقيام بهذا الإيمان وهذه الممارسة ، وحتى الملحدون .. ومن يدَّعون بأنهم لا يدينون بديانة ما بشكل صريح (أي حوالي الــ 13 % المتبقية) ففي الواقع .. هم يؤمنون (أو يدينون) بديانة ما مستترة .. وإن كانوا لا يدركون مثل هذا المعنى ، ونذكر من هذه الديانات المستترة على سبيل المثال المذهب العلماني .. أو " الع لمانية " .. و" الماركسية " .. وغيرها من المذاهب الاجتماعية .. التي تعتبر في جوهرها شكلا من أشكال التدين المستتر 3 ، وعلى هذا فـــ (الفطرة الدينية) لدى الإنسان هي قضية مقطوع بصحتها أثبتها الواقع كما القوانين الإحصائية .

وما الظواهر التي مرت بنا من الإيمان بالموتى وتكريمهم، والإيمان بالأنفس وتكريمها، وإكرام الأشياء الطبيعية، وفكرة القوة الغريبة والطوطمية، وتقديس الحيوان والنبات، وقد يضاف التميمية، وعبادة الشيطان، وكذا السحر والفأل الحسن والأسطورة، إلا أمور يخامرها رغم تفاوتها عنصر مشترك هو البحث عن عنصر الألوهية، الذي يمكن كشف النقاب بيسر عن هويته، وقد لا تمت بمنبتها إلى هذا العنصر المشترك على نحو مباشر، إذ يمكنها أن تكون قد نمت عن مرحلة أولية، كانت لها محض إفرازات طبيعية، من إفرازات أهواء الفترات الأولى الساذجة، والبدائية غير أن هذه الأمور تكسب لها نسيجا ذا طابع خاص جدا، يحبوها وحدها صيغتها كمعبر عن الدين، ويفضي بها أول الأمر إلى شكل جلي وظاهر للعيان، ويمدها بالهيمنة الباهرة التي تسودها على عقول الناس، الذين يدل تاريخهم عموما على حيازتهم لها[4] .

---

1 – نقلا عن محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، مصدر سابق، ص33 .

2 _ المصدر نفسه، ص33 .

* – ينظر ملحق 2، إحصائية رقم 1، إحصائية لعدد أتباع الديانات في العالم، ص454 .

3 – محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص17 .

4 – رودلوف أوتو، فكرة القدسي، ط1، دار المعارف الحكمية، 2010م، ص147 .

ويرى (رودلوف أوتو) هنا أنه : "وإن جاز أن يطلق تسمية (ما قبل الدين) على الأمثلة السالفة، فذلك ليس بمعنى أن الدين وإمكانية الدين يقبلان تفسيرا لهما من خلالهما، وإنما يصيران بالعكس من ذلك شيئا ممكنا فقط، ويمكنهما أن يلقيا تفسيرا فقط، انطلاقا من عنصر ديني أساسي هو الحس الإلهي، فهذا أول عناصر طبيعتنا النفسية، وهو بحاجة إلى من يفطن له خالصا في فرادته، فلا يمكن لأي شيئ آخر أن يقدم عنه تفسيرا، إنه ينبجس كسائر العناصر النفسية الأولى جميعها، في الوقت المعين له من ثنايا حياة الذهن البشري النامية والروح، فحسبه منذئد أن يكون موجودا ...[1]

ولطالما تحدث المفكرون كثيرا حول فطرية الدين، فهذا عالم النفس الشهير (يونغ)؛ يقول معلقا على كلام أستاذه (فرويد) : "لقد أصاب (فرويد) عندما اكتشف اللاشعور (الباطن)، لكنه أخطأ عندما اعتبر أن جميع ما في اللاشعور هو مما يطرده الشعور الإنساني (الظاهر)، وأنه من الميول الجنسية الناتجة عن الكبت الحاصل في الشعور، والصحيح أن للإنسان وجودا لا شعوريا فطريا، ونفسا باطنية طبيعية كما قال، ولكن محتويات هذا الباطن غير منحصرة بما ينعكس عليه من الشعور الظاهر، بل له محتويات خاصة به غير منعكسة من الشعور الظاهري، والدين واحد من تلك المحتويات الفطرية[2] .

وعبر (أوتو) عن هذا الحس الإلهي في كتابه (فكرة القدسي) قائلا عنه :" ...فليس له أن يشتق من أي حس آخر، وهو في هذا المعنى لا يقبل تطورا، إنه فحوى إحساس له خصوصيته من الناحية النوعية، بل إحساس له رغم ذلك نظائره العديدة، في الوقت نفسه مع أحاسيس أخرى غيره"[3]، ويرى (أوتو) أن القدسي فرزة مدركة ومعقدة، أما عناصره المركبة له، فهي مكوناته العقلانية، وغير العقلانية، ولكنه في هذه وتلك، فرزة أولية بشكل محض، فهو ينبجس من أعماق أساسات الإدراك المعرفي، الذي تحوزه النفس... [4] فالعاطفة الدينية حسب (أوتو) ضرب من الوعي الذاتي، وهو أولي بحيث لا يمكن لشيء أن يسبقه أو يقدم له تفسيرا، وهو ذاتي بحيث لا يمكن لغيره أن يعبر عنه، إذ ينبع من أعماق النفس ويجتاح الذهن، مما جعله يعبر عنه في كتاباته بالسر الرهيب .

ويرى (إريك فروم) أن دعوى القول بأن الحاجة إلى إطار للتوجيه وموضوع للعبادة تضرب بجذورها في أحوال الوجود الإنساني تبدو صحيحة إلى درجة تؤكد صحتها تأكيدا وفيرا حقيقة ظهور الدين في التاريخ على نطاق شامل، وأنها نقطة قد قررت وفصلت على أيدي رجال اللاهوت، وعلماء النفس، وعلماء الإنسان.. وفي معرض تحليله للإنسان والدين يقول (فروم) : "لا وجود للإنسان بغير حاجة دينية، حاجة إلى أن يكون له إطار للتوجيه وموضوع للعبادة، بيد أن هذا القول

1 - رودلوف أوتو، فكرة القدسي، مصدر سابق، ص154 .

2 - نقلا عن مركز نون للتأليف والترجمة، لا بديل عن الدين، مصدر سابق، ص21 .

3 - رودلوف أوتو، فكرة القدسي، مصدر سابق، ص70.

4 - ينظر المصدر نفسه، ص 142.

لا يخبرنا بشيء عن سياق خاص تتجلى فيه هذه الحاجة الدينية، فقد يعبد الإنسان الحيوانات، أو الأشجار، أو الأصنام من الذهب أو الحجارة، أو إلها غير منظور، أو إنسانا مقدسا، أو زعماء شيطانيين، وربما عبد أسلافه، أو أمته، أو طبقته أو حزبه، أو المال، أو النجاح، وقد يؤدي به دينه إلى تطوير روح الدمار أو الحب، إلى التسلط أو الإخاء، أو ربما ضاعف من قوة عقله أو أصابها بالشلل، وقد يدرك أن مذهبه مذهب ديني، يختلف عن المذاهب الدنيوية، أو قد يظن أنه لا يملك دينا، وأن تكريس نفسه لأهداف دنيوية مزعومة كالقوة أو المال أو النجاح- ليس شيئا آخر سوى اهتمامه بالعملي والنافع، والمسألة ليست (دينا أو لا دين) بل (أي نوع من الدين) هل هو من النوع الذي يساعد على تطور الإنسان وعلى الكشف عن قواه الإنسانية الخاصة به كإنسان، أم هو من النوع الذي يصيب هذه القوى بالشلل ؟" [1] . أما(وليم جيمس)؛ فرأى أنه (وإن صح القول بأن المنشأ للكثير من الرغبات والميول الباطنية هي الأمور الطبيعية والعالم المادي، لكن في نفس الوقت هناك ميول ورغبات باطنية كثيرة منشؤها العالم المعنوي، فالحب والوفاء والإيثار والإخلاص وأمور نفسية دينية كثيرة لا نراها تتوافق مع الحسابات المادية، إذ هناك غرائز مادية تربطنا بعالم مادي وهناك غرائز معنوية تربطنا بعالم آخر)[2].

ويقول (ألكسيس كارليل) (Alexis Carrel)[3] في كتابه (الدعاء) : "الدعاء أسمى حالة دينية مقدسة، حيث تحلق روح الإنسان لله، ويوجد في الوجدان الإنساني شعلة تعرّف الإنسان على خطاياه وانحرافاته أحيانا، وهي التي تصده عن الوقوع فيها.. وفي بعض حالات الإنسان الروحية يشعر بعظمة المغفرة وجلالها"[4].

أما (أينشتاين) فيرى"أن هناك دين وعقيدة متواجدة في الأذهان كلها دون استثناء، وإن كنا لا نجد تصورا واحدا لها، ولا صورة خاصة بها عند الجميع، ويطلق على هذه العقيدة (الإحساس الديني للوجود) ويصعب توضيح هذا الإحساس لمن يفتقده ..إن هذه العقيدة تعرف الإنسان على ضآلة الآمال والأهداف البشرية، وعظمة ما وراء الموجودات الطبيعية، يشعر أن وجوده سجن ويطمح للتخلص من سجن البدن ويحلق عاليا، ليعثر على الوجود كله مرة واحدة وبحقيقته الواحدة" [5] ومغزى قوله هذا أن الناس -إن رشدوا- فجميعهم يمتلكون هذا الإحساس الديني، ولذلك فهم يريدون

---

1 - إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، مصدر سابق، ص29 .

2- William James, the varieties of religion experience ,p21.

3 - ألكسيس كارليل : (Alexis Carrel) (1873- 1944م)كان طبيبا جراحا فرنسيا، حصل على جائزة نوبل في الطب سنة 1912م، من مؤلفاته : الإنسان ذلك المجهول .

4 - نقلا عن مركز فنون للترجمة والتأليف، لا بديل عن الدين، مصدر سابق، ص24 .

5 - نقلا عن المصدر نفسه، ص 25 .

التخلص من وجودهم المحدود تيمما نحو قلب الوجود، وهذا الإحساس هو رغبة وغريزة لا تهدأ أبدا إلا إذا اتصل الإنسان بخالق الوجود .

وظاهرة التدين لها دعائمها في العقل الغريزي، فهي تستند في أصلها إلى مبدأين مرتكزين في بداهة العقول، وهما قانونا (السببية والغائية)، ومتى فهم هذين المبدأين على كمالهما انتهيا إلى أسمى العقائد الدينية؛ عقيدتي التوحيد والخلود، أما قانون السببية فيقرر أن شيئا من الممكنات (لا يحدث بنفسه من غير شيء، لأنه لا يحمل في طبيعته السبب الكافي لوجوده، ولا يستقل بإحداث شيء، لأنه لا يستطيع أن يمنح غيره شيئا لا يملكه هو، كما أن الصفر لا يمكن أن يتولد عنه عدد إيجابي، فلابد له في وجوده وفي تأثيره من سبب خارجي، وهذا السبب الخارجي إن لم يكن موجودا بنفسه احتاج إلى غيره، فلا مفر من الانتهاء إلى سبب ضروري الوجود يكون هو سبب الأسباب) 1 . وأما قانون الغائية فمن موجبه أن كل نظام مركب متناسق مستقر، لا يمكن أن يحدث عن غير قصد، وأن كل قصد لابد أن يهدف إلى غاية، وأن هذه الغاية إذا لم تحقق إلا مطلبا جزئيا إضافيا منقطعا، تشوفت النفس من ورائها إلى غاية أخرى ...حتى تنتهي إلى غاية كلية ثابتة هي غاية الغايات، وهناك يقين إجمالي ينطوي كل عقل على الاعتراف به طوعا أو كرها، مهما طالت سلسلة الأسباب الممكنة والغايات الجزئية، وسواء أفرضت متناهية أو غير متناهية، فإنه لابد لتفسيرها وفهمها ومعقولية وجودها من إثبات شيء آخر يحمل في نفسه سبب وجوده وبقائه، بحيث يكون هو الأول الحقيقي الذي ليس قبله شيء، والغاية الحقيقية التي ليس بعدها شيء، وإلا لبقيت كل هذه الممكنات في طي الكتمان والعدم، أو لبقيت لغزا وعبثا غير معقول... فوجود هذه الحقيقة الأولى والأخيرة ضرورة عقلية لا مناص من التسليم بها، ولا مجال لأحد أن يكابر فيها متى فكر قليلا في الوضع الذي يؤول إليه إنكارها...ومن هنا فالعقيدة الإلهية ضرورة كامنة في العقل الباطن، وهي من الأوليات التي لا يُسأل عن مصدرها 2 .

فالثابت أن الإنسان لا يملك أن يعيش دون التوجه إلى ذات عليا، ولو أن يخلق صورة وهمية لتلك الذات، فيقدسها ويتشبث بها، فيكفي اعتراف أغلب العلماء والمفكرين بفطرية الدين، واتفاقهم على ركيزة هذا الإحساس الديني في نفس الإنسان وإن صعب شرحه أو التعبير عنه، في مقابل اختلاف المنكرين لفطرية الدين وعدم اجتماعهم على رأي موحد حول نشأة الدين، فكيف يكون الدين وليد هذا السبب أو ذاك في ذات الوقت خاصة مع إنكار النزعة الفطرية ؟ ! . **فما يقال بعد هذا كله؛ أن الدين يمتلك الأمرين؛ فهو بنفسه رغبة فطرية، وهو أيضا الوسيلة الوحيدة والمثلى لإشباع الرغبات الفطرية، فالدين أمر فطري وهو خالد لا زوال له .**

---

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص104 .

2 – المصدر نفسه، ص105 .

ولطالما دلَّ الوحي الإلهي (القرآن) على أن الباعث على التدين **هو الفطرة**، وأكد على فطرة الله التي خلق الناس عليها والميثاق الذي أخذه عليهم، ونص على أن الإنسان إنما خلق مفطورا على الإقرار بالخالق والعبودية له والبراءة من الشرك، ومن الآيات التي تحدثت عن خلق الإنسان وفطرته وجبلته، وما رافق ذلك من وجود الدين في النفس الإنسانية؛ من ذلك قوله تعالى { **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** }(سورة الروم الآية 30)، فالنفس أو الفطرة خلقها الله تعالى، وأودع فيها هذا الاتجاه إلى الخالق، وأن الإنسان مهما ابتعد عن منهج الله، وجحد وجوده، وكفر بالدين، فإنه لن يستطيع أن يغير فطرته...فالإنسان لا غنى له عن التدين، لأنه جزء من ذاته ونفسه وفطرته...ولا يملك إلا أن يكون متدينا لأنه لا يستطيع أن يكون خلاف ذلك، ولأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاته [1].

وقد اتفق المفسرون على أن المراد بالفطرة؛ التوحيد الخالص له سبحانه يقول الطبري : "فطرة الله التـــي فطر الناس علـــيها : صنعةَ الله التـــي خـــلق الناس علـــيها ونصبت فطرة علـــى الـــمصدر من معنى قوله فَأقِمْ وَجْهَكَ للدّينِ حَنِـــيفـــا وذلك أن معنى ذلك : فطر الله الناس علـــى ذلك فطرة، قال أهل التأويـــل فـــي قوله (فِطْرَةَ اللّهِ التـــي فَطَرَ النّاسَ عَلَـــيْها) قال : الإسلام مذ خـــلقهم الله من آدم جميعا، يقرّون بذلك، وقرأ { **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا** }(سورة الأعراف الآية 172) قال: فهذا قول الله : كانَ النّاسُ أُمّةً وَاحِدَةً ، فَبَعَثَ اللّهُ النّبِـــيّـــينَ بعد"2، ويقول (ابن كثير) في هذا : " وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها ، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره"[3] .

وقوله تعالى {**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**}(سورة الأعراف الآية 172) تشهد للآية التي قبلها، وتبين كيف جعل الله ذلك في فطر بني آدم، وأنه أخرجهم من أصلاب آبائهم وأخذ عليهم بذلك العهد الميثاق [4]، فهذه الآية صريحة في الدلالة على وجود التدين في النفس البشرية، قبل وجودها وظهورها على ظهر البسيطة[5] .

ويؤيد ما ذهب إليه المفسرون ما رواه (البخاري) بسنده عن (أبي هريرة) رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه

1 – ينظر محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، مصدر سابق، ص51 .

2 – الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، ج10، ص26-27 .

3 – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، مصدر سابق، ج6، ص315 .

4 – سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مصدر سابق، ص17 .

5 – محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص215 .

كمثل البهيمة هل ترى فيها من جدعاء؟ " [1]، كما روى (مسلم) [2] بسنده عن (عياض بن حمار المجاشعي)[3] رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته : "ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلالا، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا" [4] فهذا الحديث أصل في الدلالة على أن الناس كلهم منذ (آدم عليه السلام) كانوا على الحنيفية أي الإسلام وقيل كانوا مستقيمين منيبين لقبول الهداية ... [5]، والمهم عندنا أن الأدلة صريحة في بيان أن الإنسان مفطور على الإقرار بالخالق، والعبودية له .

وكذلك الآيات التي مرت بنا في معرض حديثنا عن قصة خلق الإنسان، من ذلك قوله { **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** } (سورة ص الآية 71-72) فهي تصرح بطبيعة الإنسان وأصل خلقه وجبلته، وأنه من طين ممزوج بروح الله تعالى، وكل محاولة للفصل وبذر الشقاق بين الجسد والروح شذوذ وانحراف في السلوك، كما أن كل عنصر له متطلبات، وخلقت له ميول للمحافظة عليه، فالطعام والشراب ..للمحافظة على الجسد، والتدين للمحافظة على الروح[6] .

كما أُفرزَ لنا إذ ذاك، عن ثلاث أقسام أو فطرات رئيسية تأت على النحو التالي :

الفطرة الأولى : وتتمثل في (إدراك الإنسان لوجود إله خالق له) .. وتعرف أيضا باسم : (الوعي الفطري بوجود الله).. وتأتي تكوين هذه الفطرة بشكل مباشر في القرآن المجيد في قوله تعالى في (سورة الأعراف الآية 172_ 174) **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ**

---

1 - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين)، دار الريان للتراث، 1407ه، 1986م، ج3، ص293، رقم 1319 .

2 - الإمام مسلم : (206-261ه) (822-875م) الإمام الكبير الحافظ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، من أهم علماء الحديث ومصنف كتاب الصحيح (الذهبي، سير أعلام النبلاء، مصدر سابق، ج 12، ص558) .

3 - عياض بن حمار بن ناجية المجاشعي التميمي : صحابي، له أحاديث في صحح مسلم وسنن أبي داود، والترمذي، سكن البصرة ، روى عنه طائفة من التابعين، عاش إلى حدود الخمسين (أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج4، ص310) .

4 - صحيح مسلم، (كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار)، دار إحياء الكتب العربية، ج4، ص2197، رقم :5109 .

5 - النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة: دار الخير، 1416ه، 1996م، ص320-322 .

6 - محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، مصدر سابق، ص49 .

تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ } . فلكأن الإنسان يملك ذاكرة سابقة على وجوده يتوسل بها في نهوضه بالتشهيد، وأولى الحقائق الروحية التي تختزنها الذاكرة الغيبية هو (أصل الشهادة بالألوهية)؛ ومقتضى هذا أن الألوهية معنى تذكري غيبي يصدق في حق مستحق القداسة المطلقة والعبادة الخالصة، ولما كان التدين اشتغالا متعديا يستمد معانيه ومعالمه من الذاكرة الأصلية، لزم أن يكون الإنسان من أصل خلقته مؤمنا بوجود الإله، أي أن يكون متحققا في الغيب بالشهادة الواجبة في حق وجوده [1] .

فاكتشاف وجود الله ليس مماثلا لأي اكتشاف رياضي لبعض المعادلات الرياضية التي لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق العقل، والتي لا تتعدى —في الوقت نفسه- حدود العقل بطبيعتها...إن اكتشاف وجود الله هو استجابة لنداء داخلي في الإنسان، وعندما يظفر الإنسان بذلك القبس من المعرفة يفاجأ بصيرورته جزء من كيانه.. فعلاقته بهذه المعرفة ليست علاقة عقلية، وإنما هي علاقة نفسية، وكل ما يشكل جزء نفسيا من كيان الإنسان لا يحتاج إلى دليل عقلي[2].

ولا يقف الإقرار بالألوهية عند هذا، بل يتعداه إلى الشهادة له بالوحدانية، ذلك أن (أصل الشهادة بالوحدانية يقتضي أن الألوهية معنى تذكري غيبي يصدق في حق من تعالى أن ينازعه أحد في استحقاق أعلى المقامات، واستحقاق أكمل الكمالات وفي الاستواء على العرش، فليس كمثله شيء، أي أنه متفرد الذات ومتفرد الأفعال ومتفرد الصفات، وإذا تقرر أن الشهادة بوجود الإله حدث مشهود حفظته ذاكرة الإنسان، وجب أن تكون الشهادة بوحدانية الإله ، هي الأخرى، حدث مشهود حفظته هذه الذاكرة، فلا إله بحق إلا ذو العرش، وذو العرش واحد لا ثاني له، وحينئذ فلا غرو أن تطلق بعض الأديان على الإله اسم الواحد أو على وجه التأكيد اسم الواحد الأحد ... ومن ثم يلزم أن الشهادة بأكثر من إله واحد فساد طرأ مع مرور الزمن وفي حال الفترات على ذاكرة الإنسان الأصلية، أي على أصل الفطرة)3 .

وأما الفطرة الثانية؛ فهي الفطرة الخاصة بـــ (التدين) أو (التعبد) : بمعنى أن الإنسان مدفــــوع بالفطرة إلى الإيمان بدين ما ، والقيام بممارسة عبادة ما ، لإله ما ، قد يدرك صفاته أو قد لا يدرك صفاته..أي عبادة وطقوس لا تحديدية فيها، وينبغي ملاحظة استقلال هذه الفطرة عن الفطرة السابقة، فكل منهما مستقلة عن الأخرى ، فقد يعتقد الإنسان في وجود (إله خالق) ولكن لا توجد لديه أي دوافع لعبادته، وتأتي هذه الفطرة أي ممارسة العبادة في قوله تعالى : **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا**

---

1 - ينظر طه عبد الرحمن، روح الدين، مصدر سابق، ص59 .

2 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، تر: ظفر الإسلام خان، ط 4، بيروت: دار النفائس، 1407ه، 1987م، ص6 .

3- ينظر طه عبد الرحمن، روح الدين، مصدر سابق، ص54 .

لِيَعْبُدُونِ} (سورة الذاريات الآية 56)[1]، وتجمع هذه الآية الكريمة : بين فطرة التدين وبين الغايات من الخلق .. فمن منظور هذه الفطرة تصبح الغاية النهائية من خلق الإنسان .. التوجه بالعبـــادة للإله الخالق لهذا الوجود، وممارسة العبادة يقبع وراءها دوافع فطرية خفية أخرى : منها الإحساس بالقرب من هذا الإله الخالق .. وتنتهي هذه المعية الإلهية في ذروة معانيها إلى الحب المطلق ، وهو الحب الكامن في داخل النفس البشرية نحو الإله الخالق .. [2] ولذا رأى (طه عبد الرحمن) أن أصل العهد بالتعبد لا يكون إلا للإله الواحد؛ فمقتضى هذا الأصل أن الإله الواحد أخذ من الإنسان العهد بأن يتعبد له وحده لا يشرك به غيره ، ومن هنا يكون (التعبد) هو الآخر فعلا فطريا قائما بروح الإنسان3 .

وأما الفطرة الثالثة : وهي (إدراك الإنسان أو إحساسه بأبديته) .. أي إنه باق وغير منتهي .. وربما من أهم النصوص القرآنية التي تعبر عن هذه الفطرة هو طبيعة خلقنا وارتبا ط هذا الخلق بالله (عز وجل)، كما جاء في قوله تعالى مخاطبا الملائكة في شأن هذا المخلوق؛ أي الإنسان **{ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ }**(سورة البقرة الآية 71_72)[4] . **وهو ما يعني أن الوعي والإدراك بالوجود جميعها مرتبط بكون الإنسان نفخة من روح الله سبحانه وهو ما يميزنا عن الجماد** . وننتهي إلى أن جميع هذه الفطرات الثلاث تأتي تحت مسمى واحد هو : "الفطرة الدينية" أو "غريزة الدين والتدين" لدى الإنسان [5] . والحق أن القرآن هو أول من نوّه بفكرة فطرية الدين، أي أنه رغبة فطرية خلق الله (سبحانه) الإنسان مجبولا عليها، لتظهر بعد ذلك الكثير من النظريات حولها في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر –كما رأينا– حتى جاء في العصر الحديث من ينادي بها ويدعو إليها [6] .**فمقدرة الفطرة على الاهتداء إلى الخالق كامنة، وأمور خارجية كثيرة توقظها وتحركها وتنميها..أو على الأقل (تعطيها الوعي والإرادة اللذين تتسم بهما بقية أعمال الإنسان)[7]، وهو أمر سبق القرآن في إماطة اللثام عنه .**

---

1 – محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص 42 .

2 – المصدر نفسه، ص 42 .

3 – ينظر طه عبد الرحمن، روح الدين، مصدر سابق، ص56 .

4 – محمد الحسيني إسماعيل، الإنسان والدين، مصدر سابق، ص42 .

5 – المصدر نفسه، ص 43 .

6 – مركز نون للتأليف والترجمة، لا بديل عن الدين، مصدر سابق، ص15 . (دروس من فكر الشهيد مطهري– تلخيص وتحرير)، ط1، 1424ه، 2004م، www .al maaref.org، 1424ه، 2004م، ص15 .

7 – محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص216 .

المطلب الثاني : دوافع الفطرة ومنبهاتها

يستدل علماء الأديان والاجتماع والفلسفة على كون التدين فطرة بالاستقراء والاستنتاج، للكشف عن بواعث التدين الفطرية، ويمكن إيجازها بما يلي :

1- تنبع فطرة التدين من عجز الإنسان الدائم وحاجته إلى قوة عظيمة تنقذه من جميع المهالك، وتعينه في الشدائد، وتغيثه وقت الضيق والحاجة، وهو عجز عام في الإنسان موجود في كل نفس، ويلمسه الإنسان في نفسه ويسمعه من غيره .[1] ويحس الإنسان بالعجز إزاء الكيان الكوني من حوله.. يبدأ العجز من لحظة الميلاد.. ويستمر إلى لحظة الموت، ولا ينقطع فيما بين الميلاد والموت، بل يأخذ صورا مختلفة في كل سن وفي كل طور من أطوار النمو الجسمي والنفسي، يكبر الإنسان وعجزه معه؛ يعجز عن تحقيق كل ما يريد تحقيقه، ويعجز عن معرفة كل ما يريد معرفته، ويعجز على السيطرة عن كل ما يريد السيطرة عليه، حقا إنه يحقق أشياء كثيرة ويعرف أشياء كثيرة، لكن هذا لا ينفي عن خاطره شعور العجز، فلعله يريد أن يحقق كل شيء ، ويعرف كل شيء ويسيطر على كل شيء، ربما حقق الإنسان أشياء عديدة لكنه ما استطاع أن يحقق رغبة الخلود في الأرض، وألا يموت أبدا ...[2] . وهذا الشعور النفسي الباطني عن عجز الإنسان ووجود المنقذ من الهلاك، والمنجي من الهم والغم والحزن والكرب، إما أن يبقى مع الإنسان فيكون مؤمنا، وإما يتنكر له، ويجحد هذا الفضل، ويعرض عن ربه، فيكون كافرا ملحدا [3]. { **وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا** } (سورة الإسراء الآية 67) .وقوله { **أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ** } (سورة النمل الآية 62)، وهذه الآيات تدل على الإحساس النفسي الباطني عن عجز الإنسان والتجائه إلى القوة الغيبية الخالقة المبدعة، التي تتصرف بالكون [4]. فالنفس البشرية مهما كانت، تحس إحساسا فطريا بالعجز إزاء قوة أكبر منها، وهو عجز غالبا ما يجر الإنسان نحو خالقه الأعظم .

2- وأشد ما يرغب الإنسان في معرفته ويعجز؛ الغيب الذي لم يحدث بعد، فهل استطاع الإنسان أن يعرف الغيب؟ لا الغيب البعيد ولا الغيب القريب الذي يقع في اللحظة التي لا يكاد يفصلها عنه زمن، ومع ذلك تفصلها عن علمه الآماد والآباد...كلا، ولقد أدى هذا العجز في تاريخ البشرية إلى

---

1 - طارق السعدي، مقارنة الأديان (دراسة في عقائد مصادر الأديان السماوية والوضعية)، ط1، بيروت : دار العلوم العربية، 1425، 2005م، ص 12 .

2 - ينظر محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص217 .

3- محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، مصدر سابق، ص35-37 .

4 - طارق السعدي، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص13 .

كثير من ألوان العبادة المهتدية أو الضالة، كعبادة الوالد، أو الطوطم، أو قوى الطبيعة...وعبادة الوثن.. وعبادة الله [1] . وستظل نزعة التدين تظهر من غريزة التطلع للغيب ومحاولة معرفة الحقيقة الرابضة وراءه، وعدم الوقوف عند حدود الواقع الحسي، والعودة إلى التأمل في المسائل الأزلية : حول خلق الإنسان، ومن خلقه، وغاية الكون، وما مصير الإنسان.. فهذه الأسئلة الخالدة : لم خلق الإنسان؟ ومن خلقه؟ و لم خلق الكون؟ ومتى؟ ومن خلقه؟ وما هو مبدأ الإنسان؟ وما هي غايته وهدفه؟ وإلى أين يسير؟ وما هي نهاية الكون؟ وما هو مصير الإنسان؟ وماذا بعد الموت؟ وغير ذلك من الأسئلة التي تدفع الإنسان إلى الإيمان بالله، وإلى البحث والنظر والسعي والعلم والاكتشاف، وهذا التطلع والتأمل في هذه القضايا الغيبية كانت ولا زالت وستبقى الشغل الشاغل للإنسان، ويريد الوصول إلى اليقين أمام مشكلات الكون الكبرى، مهما تقدمت به المدنية وتعددت الاكتشافات، وترقى العلم، لأن العلم عاجز قطعا عن الإجابة عن هذه الأسئلة، وأنه مقيد بكشف نواميس الكون دون أن يغير منها شيئا، وأن مجاله محدد في النواحي المادية التي وضعت تحت حواسه .

يقول (سانت هيلر) [2] :"هذا اللغز العظيم الذي يستحث عقولنا : ما العالم، ما الإنسان؟ من أين جاءا؟ من صنعهما؟ من يدبرهما؟ ما هدفهما؟ كيف بدءا كيف ينتهيان؟ ما الحياة؟ ما الموت؟ ما القانون الذي يجب أن يقود عقولنا في أثناء عبورنا في هذه الدنيا؟ أي مستقبل ينتظرنا بعد هذه الحياة؟ هل يوجد شيء بعد هذه الحياة العابرة؟ وما علاقتنا بهذا الخلود؟ هذه الأسئلة لا توجد أمة ولا شعب ولا مجتمع، إلا وضع لها حلولا جيدة أو رديئة، مقبولة أو سخيفة، ثابتة أو متحولة..."[3]

ويقول الشيخ (محمد عبده) عن الشعور الديني : "هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبعث في جميع الأنفس عالمها وجاهلها...قديمها وحديثها، لا يمكن أن يعد ضلّة عقلية أو نزعة وهمية، وإنما هو من الإلهامات التي اختص بها هذا النوع ...ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة في الجلاء..، شعور يهيج بالأرواح التي تحس هذا البقاء الأبدي، وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه ... [4] فهذا الشوق الغريزي إلى الأزلي الأبدي، وهذا الطلب الحثيث للكلي اللانهائي، له دلالتان عميقتان : إحداهما دلالته على مطلوبه، كدلالة الأثر على صانعه، أو الخاتم على طابعه، وثانيهما دلالته على أن في الإنسان عنصرا نبيلا سماويا خلق للبقاء والخلود، وإن تناساه الإنسان وتلهى عنه حينا[5] .

---

1 - محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص219 .

2 - سانت هيلر : (1793- 1884م) مستشرق ألماني ولد في (درسدن)، من مؤلفاته : الشرقيون وعقائدهم

3- عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، 84 .

4- محمد عبده، رسالة التوحيد، تح : محمد عمارة، ط1، القاهرة : دار الشروق، 1414ه، 1994م، ص69 - 71 .

5 - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص97 .

3- ويحس الإنسان- غير العجز- بالرهبة إزاء روعة الكون.. إنه كون هائل رائع واسع فسيح الأرجاء.. ولهذا كله وقعه في الحس البشري..لا يمكن أن يهرب منه ولو أراد، دقة معجزة في كل الخلق، وانتظام في الفلك.. يروعه ويذهله، وأيا كان مستوى الإنسان من العلم والثقافة والمدنية والرقي..فالكون يوقع على حسه توقيعات شتى تناسب مداركه ومعلوماته.. وفي كل حالة يهزه من الأعماق.. فيبحث عن الخالق هكذا بالفطرة .. [1] ولعل ثبوت هذا العنصر البليغ في نفس الإنسان منذ القديم، هو ما حمل بعضهم على أن يذهب إلى أن الدين وليد الخوف، وهذا الحكيم اليوناني (لوكريتيوس)[2] قال (أن أول آباء الآلهة هو إله الخوف، وأن نتيجة الخوف الذي يشعر به الإنسان من رعد وبرق وزلازل وبراكين ومخاوف كثيرة تحدق به) ... [3] فمن دوافع فطرة التدين إحساس الإنسان بالخوف والرهبة أمام هذا الكون العظيم وما يجري فيه، مما يحرك أحاسيس الإنسان، ويوقظ مداركه، ويدفع عقله — بالغريزة والفطرة- ويجعله تواقا إلى البحث عن الخالق المدبر العظيم، فيأنس بربه، ويطمئن قلبه عنده، ويهدأ روعه ويأمن جانبه، ويعقد أواصر التقرب له، ويخضع له بالطاعة والعبادة؛ وذاك هو الدين [4]. وقد أكدت آيات القرآن هذه الصورة { **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** } (سورة الرعد الآية 2-4). فالتأمل في نظام الكون وأجزائه والتفكر في المخلوقات، بدء من الإنسان وتكوينه وانتهاء بالنجوم، المجرات

---

1 - ينظر محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص221 .

2 - (Titus Lucretius Carus) : (حوالي 99-55 قبل الميلاد)، من كبار الفلاسفة والشعراء الرومان والفلسفة الأبيقورية، عمله الوحيد هو القصيدة الفلسفية الملحمية (De rerum natura)، وتعني (في طبيعة الأشياء)، أو (في طبيعة الكون)، تعد من روائع الأدب اللاتيني، ويبدو موضوعها متأثّرا بفلسفة ديمقريطس وأبيقور، وهو يدعو فيها إلى تحرّر الإنسان من خوفه من الآلهة والموت والعقاب، فكلّ شيء آيل إلى الزوال والفناء وفق قوانين أبديّة تتحكّم في الكون، ومن ثمّ ينفي لوكريتيوس إمكانيّة وجود تأثير قوى ما بعد الطبيعة، مثلما ينكر وجود حياة بعد الموت، ويُذكر أنّ شيشرون هو من حرص على نشر قصيدة لوكريتيوس هذه بعد موته.

3 - ينظر مركز نون للتأليف والترجمة، لا بديل عن الدين، مصدر سابق، ص16 .

4 - محمد عبده، رسالة التوحيد، مصدر سابق، ص15 .

وطبقات الأرض، وكلما تقدم العلم وقف العقلاء مبهورين ومبهوتين من عظمة هذا الكون ونظامه الدقيق، ليقفوا بكل خشوع وإجلال وتذلل أمام القدرة الخالقة المكونة[1] .

4- كما إن أقصى ما يروع الإنسان الموت، فهو بالنسبة له حدث ضخم هائل مروع .. ولهذا كان من الدوافع الفطرية للتدين الموت الذي يردع الأحياء ويهزُّهم من الأعماق، وينبه فيهم القوى المعطلة والأجهزة المتجمدة، والإحساس المخدر، فيصحو الإنسان لنفسه، ويتفكر في حياته، ويبحث عن الهدف من الحياة، ويستطلع ما بعد الموت، ويدرك تماما قيمة الحياة الآخرة، وتفاهة الدنيا، وأنها متاع قليل، وأن الكمال الحقيقي الذي يتفق مع تكريم الإنسان أن تكون نفسه وروحه باقية بعد الموت . وليس الموت وحده ما يروع الإنسان، وإن كان الأعظم، فكذلك الأحداث، كيف تحدث، وبأي قوة عجيبة قادرة منشئة مبدعة؟ الميلاد والموت .. الصحة والمرض .. القوة والضعف.. الرزق والمكانة.. الذهاب والمجيء .. وشتى الأحداث التي تصيب الإنسان في حياته، أو يراها تقع أمام ناظريه..من يحدثها، وكيف؟..وهنا تنفتح نافذة إلى الله، إلى القدرة التي تقول للشيء كن فيكون، فيهتدي للخالق الحق، أو يتصور آلهة شتى، وفي كل الحالات يقوده ذلك إلى الدين[2] .

فالدين رفيق الإنسان مذ خلقه الله، بل إن التدين أصيل في النفس الإنسانية حتى قبل ظهورها على وجه البسيطة؛ ذلك أن الله خالق الإنسان هو من أودع فيه فطرة الاتجاه نحوه .

ولنا أمورا عدة نخرج بها من معاني الآيات والأحاديث والإحصائيات :

- يمثل الدين حالة ثابتة من حالات الإنسانية المقوِّمة لحقيق ة الإنسان ؛ بحيث إنك .. كما إذا انتزعت عن الإنسان كونه مفكراً، أو عاقلاً، أو أخلاقياً، فإنك بذلك تنتزع حقيقة إنسانيته فنفس الأمر فيما يخصّ الدين... إذ الدين هو قِوامُ حقيقة هذا الكائن (الإنسان)، وبهذا الاعتبار فليس الدين مجرّد مقولة حضارية مكتسبة يمكن الاستغناء عنها؛ لأنها في حالة من هذا القبيل، لا تكون فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولا تكون خلقُ الله الذي لا تبديل له، بل تكون من المكاسب التي حصل عليها الإنسان من خلال تطوراته المدنية والحضارية على مرِّ التاريخ3 .

- على أن الحِسّ الديني، وإن كان عنصراً أساس ي في تكوين الإنسان وموجوداً لدى جميع الناس بدرجاتٍ متفاوتة؛ فإنه قد يكون مـــريناً عليه أو مطموراً عند من يحاول أن يحجبه أو أن يُحول دون

---

1 - محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، مصدر سابق، ص45 .

2 - محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، مصدر سابق، ص223 .

3 - محمد باقر الصدر، المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر ، بيروت : دار التعارف، 1990م، ج13، ص90 .

ظهوره، بل ربما يجحد وجوده 1، فرغم دلالة الآيات الواضحة على موضوع الفطرة إلا أنها في الوقت ذاته دلت على أن هذه الفطرة قابلة للتأثر والتغير، والانحراف بفعل مؤثرات خارجية، ومن تلك المؤثرات نذكر ثلاثا :

1- الشياطين : وكأنها المؤثر الأصلي في هذا الأمر [2]، بل المؤثر الأول مذ خلق آدم {فوسوس لهما الشيطان} .

2- الأبوان : ويقوم المجتمع بدور الأبوين في حال فقدهما، وهذا المؤثر هو أقوى المؤثرات، وأخطرها لشدة التصاق الأولاد بآبائهم وقوة تأثيرهم عليهم .

3- الغفلة : وهي المؤثر الثالث كما دل على ذلك الآية من سورة الأعراف **{إنا كنا عن هذا غافلين}** (الأعراف الآية 172)[3] . كما يمكن أن نضيف مؤثرات أخرى تنضوي تحت ما مضى من المؤثرات؛ منها ضعف الإيمان، المتاجرة بالدين، إضفاء الصفة الدينية على الآراء والفلسفات، التحريف والتبديل، الجهل بالدين واتباع الشهوات والغرائز، تمزيق الدين، الإلحاد... وغيرها من المظاهر المرضية عبر التاريخ[4] .

- ورغم أن الفطرة هذا حالها من التأثر والانحراف أحيانا، إلا أن لها فوائد عدة :

1- فهي تحقق ما أراده الله لعباده من حكمة الابتلاء الذي يتوجب على أساسه الثواب والعقاب .

2- بهذه الفطرة غُرِز في النفس البشرية التدين والتعبد لله عز وجل –لا غير- فإذ لم يهتد الإنسان إلى الله –سبحانه- فإنه يعبِّد نفسه لأي معبود آخر ليشبع في ذلك نهمته إلى التدين .

3- بهذه الفطرة جُبِل الإنسان على قبول العبودية والانسجام مع لوازمها، وهو أمر مهم، لأن النفس الإنسانية تنفر من كل ما لا يتفق مع الفطرة، فلا تستجيب .

4- وهذه الفطرة مرجِّحة للحق، لتمييزها وميلها له، وبالتالي تميز الفطرة بين الدين حقا أم باطلا إن عُرِضا لما يقع في قرارة النفس ويقين القلب .

5- كما تزيد هذه الفطرة المؤمن اقتناعا وتمسكا بما هو عليه، وللمهتدي يقينا بما أدركه لما يجده من تناسب للفطرة وانسجام معها –وإن افتقر هؤلاء للأدلة النظرية التي تهبهم اليقين[5] .

---

1 - جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والأدب، 1993م، ص7 .

2 - سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والمسيحية، مصدر سابق، ص18 .

3 - المصدر نفسه، ص19 .

4 - طارق السعدي، مقارنة الأديان مصدر سابق، ص5 -6 .

5 - ينظر سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مصدر سابق، ص19-20 .

– ولكن بواعث الدين النفسية وإن كانت مركوزة في العقول وفي الوجدانات، إلا أن الناس ليسوا على درجة سواء في استجابتهم لكل تلك البواعث والأدلة، فمنهم من يستمد إيمانه من تأملاته في مشاهد الطبيعة فيأسر لبه جمال المشاهد الكونية وجلالها، وصنف قد يهز قلبه قوارعها ومروعاتها، ومنهم من يعنى بالأحداث من جانبها النفسي الإنساني فيستيقظ وعيه الديني ملاحظة نفسية في حياته العادية، ومن الناس من تلفته نظرة عابرة أو لمحة خاطفة، ومن لا يتنبه إلا بصدمة عنيفة أو أزمة شديدة، ومن لا يكون تجاوبه إلا من تظافر جملة من العوام ل المختلفة وآخر قد لا يرفع رأسه إلى الحقيقة العليا إلا أن يتلقاها من تعاليم سماوية، أو يلقنها تلقينا من تعاليم دينية... وهي كلها طرق مؤدية للغاية[1] .

وهل الباحثون الذين عرضنا نظرياتهم التي عنيت بالبحث عن أصل الدين ومنشئه، إلا آحاد من أولئك الناس؟، غلب على كل واحد منهم مزاجه الخاص في الاستنباط، وأسلوبه المختار في الاقتناع، فكان من الطبيعي أن يبدأ كل منهم نظريته من الطريق الذي هو أكثر تنبها وأشد ألفا، وأقوى به تأثرا، ثم تتلاحق عليه الدلائل، وهكذا منهم من استمد إيمانه من تأملاته في مشاهد الطبيعة، وآخر كانت نظريته وليدة تجاربه في عالم الأرواح، وآخر من تحليله لبعض المعاني العقلية، وغيره استنتاجا من القوانين الأخلاقية، وصنف اعتقادا بطريق التعاليم الدينية أو الكتب السماوية... [2]

والخطأ الذي عرض لهؤلاء المفكرين حين وصف كل واحد منهم للطريق التي سلكها، أن نسى سائر الطرق، وجعل الأولية التي أحسها من نفسه لبعض الدلائل أولية عند الكافة، فاتخذ نفسه مقياسا عالميا بغير بينة، ولو أن كل باحث وقف بالنتيجة عندما تثبته مقدماتها، لقرر أن المنهج إنما يصور نشأة الدين عنده ومن يشاكله، ولكنهم جعلوا هذه الحقائق النسبية حقائق مطلقة، فكان ذلك مثار النزاع والاختلاف[3]. فكل فئة من الناس لها طريق مسلوك في الاسترشاد والاهتداء إلى الدين والألوهية، ويقرر القرآن العظيم هذه الحقيقة في قوله { **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** }(سورة المائدة الآية 48) { **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا** } (سورة البقرة الآية 148)، و{**وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**} (سورة الرعد الآية7)، ولا جرم أنه لأجل هذا الاختلاف تنوعت في القرآن وسائل الدعوة إلى الله، وصرفت فيه الآيات تصريفا بليغا، أحاط بأطراف المسالك، وأشبع تلك النزعات جميعا..

ومن تلك النماذج القرآنية ما نقرأه في المنهج الطبيعي أمثال قوله تعالى { **أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ** } (سورة ق الآية 6) وقوله { **وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ**

1 – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص166 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص166 .

3 – ينظر المصدر نفسه ص 166 .

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (سورة الأنعام الآية99)...[1] وإذا أمعنا النظر في قوله تعالى { **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** } (سورة آل عمران الآية169)... وقوله { **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**}(سورة الزمر الآية 42) إلى ما يقرره القرآن في غير ما موضع من وجود أرواح أخرى مستقلة عن العالم الإنساني، ولكنها تتصل بشؤونه، ويسخرها الله في تدبير أحواله تارة بالنصر والتأييد وتارة بغير ذلك، إشارة إلى عالم الجن، وكذا عالم الملائكة، نلمس بذلك إحالة إلى الجانب الروحي[2] . فلا أدق وأبلغ من القرآن في التعبير عن مثل تلك المسائل الغيبية، بل يقرر بقوله الفصل { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** } (سورة الإسراء الآية 85) .

وكذلك المذاهب النفسية نرى منهاجها مستعملا في القرآن حين يشير إلى قصور الإرادات البشرية عن بلوغ أهدافها، وإلى عجز الإنسان أمام المقادير العليا، وضرورة استسلامه لها، في قوله تعالى{ **أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى** } (سورة النجم الآية 24- 25) وقوله { **وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ** } (سورة القصص الآية 68)، بل ويزيد القرآن عنصرا عظيم الدلالة في هذا الجانب، وهو تحول الإرادات الإنسانية عن أهدافها، حين تنقلب كراهيته محبة وعداوته إلفة، من غير أن يكون للأسباب الطبيعية مدخل معقول في هذا التحول، وفي ذلك نجد قوله تعالى { **وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** } (سورة آل عمران الآية103)[3]، ويجمع ذلك كله قوله تعالى {**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ**}(سورة الأنفال الآية 24) .

وحتى المذهب الأخلاقي نجد لبه في القرآن حيث يقول المولى { **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا** }(سورة الشمس الآية 7- 10)[4] .

بل المذهب الاجتماعي إذا عدنا إلى أساسه الصحيح، وهو تقرير ما للبيئة والوراثة من سلطان بليغ على نفوس الأفراد، وما لها من أثر في تكوين آرائهم وعقائدهم، يسجله القرآن حقيقة واقعة { **قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** }(سورة البقرة الآية 170)، إلا أن القرآن يذكر هذا الأمر الواقع في

---

1 - عبد الهَ دراز، الدين، مصدر سابق، ص169 .

2 - المصدر نفسه، ص169 .

3 - المصدر نفسه، ص170 .

4 - ينظر المصدر نفسه، ص170 .

معرض التقريع والذم، ناعيا على العامة رضاهم بما فيه من استعداد فكري، وهبوط عن مستوى الكرامة الإنسانية، ولذلك نراه يهيب بالناس أن يميزوا الخبيث من الطيب، وأن يلتمسوا مثلهم العليا في أهل الفضائل{ **فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ** }(سورة الزمر الآية 17-18) { **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**}(سورة الأنعام الآية 90)، وعن كيفية التحرر من هذا الأسر الاجتماعي القاهر يقول تعالى {**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** } (سورة سبأ الآية 46)[1] .

وأخيرا نرى المذهب التعليمي ساريا في القرآن كله، إلى جانب ما فيه من التوجيه المستمر إلى الاعتبار بتلك الآيات الواضحة، والدلائل اللائحة في الأنفس والآفاق، فالقرآن يقرر أن الرحمة الإلهية لم تكتف بدلائل العقل حتى أيدتها بشواهد النقل، وأنها قطعت حجة كل غافل وكل متواكل{ **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** } (سورة النساء الآية 156) {**أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**}(الأعراف الآية 172)[2].

وهكذا يلتقي في محيط القرآن ما رأيناه قد تشعب عند العلماء من مسالك البحث والنظر عن باعث التدين ومصدر الدين .

بـيْـــدَ أنّ بعض الباحثين قلّلوا من شأن الدين وهذه الفطرة، وذهبوا إلى أنه قد كان ثمّة جماعةٌ إنسانية أُولى انعدم فيها كلُّ أثر ديني ، ولكنّ جميع ما قدّمه هؤلاء من شواهد وبراهين على دعواهم هذه قد ردّها الدارسون؛ بل الطريف أنّ (أوغست كونت) وغيره هناك ممن ذهبوا إلى القول بوجود جراثيم الشعور الديني حتى لدى الحيوانات؛ إذ إن بعض الحيوانات حين تحسّ بالموت، أو حينما تشعر بهبوبِ جارفٍ أو نكبةٍ كونية، يشيع فيها نزعةٌ دينية غريبة ، إلاّ أنّ علم النفس الحديث لم يقبل هذه التفسيرات، مؤكداً أنّ الدين فعل إنساني بحت ، كما ذهب (هيجل) إلى (أن الإنسان وحده هو الذي اختُصّ بأن يكون له دين، وأما الحيوانات فإنها تفتقر إلى الدين بقدر افتقارها إلى القانون والأخلاق؛ فالتديُّن عنصر أساسي في تكوين الإنسان، والحِسُّ الديني إنما يكمن في أعماق كل قلب بشري، بل هو يدخل في صميم ماهية الإنسان، مثلُه في ذلك مثلُ العقل سواءً بسواء)3 .

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص170 .

2 – المصدر نفسه، ص171 .

3 – جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مصدر سابق، ص 7 .

كما دحضت الأبحاث الاجتماعية الحديثة بعض التصوُّرات الفلسفية التي ذهب إليها بعض المفكرين، وبخاصةٍ ما نادى به (جون جاك روسّو) (Jean-Jacques Rousseau)[1] من أنّ الأقوام المتأخرين لا دين لهم، متأثّراً في ذلك بحالة الفطرة التي افترضها هو افتراضاً، ومعتبراً أن الإنسان يعيش فيها معيشة الحيوان ويسعى وراء إشباع غرائزه ، وما هذه التصوُّرات التي يذهب إليها (رُوسو) ومَنْ لَفّ لَفَّهُ إلاّ شطحاتٌ نظرية بعيدة عن الواقع كما أثبتت الدراسات الاجتماعية الحديثة، مثل أبحاث (دوركايم) وغيره.. والتي أقامت البرهان على أن الدين قائم في المجتمعات المتأخرة، وهو أعظمُ الظواهر الاجتماعية كلِّها؛ لأنه يؤثّر فيها ويُلوّنها بلونه، بل إن العقلية المتأخّرة غارقةٌ في الاتجاه الديني؛ إذ إنّ (الدين مظهرٌ مهم من مظاهر الاجتماع، وبحُكم أنه ظاهرة اجتماعية فهو شيء لا يخلو منه مجتمع إنساني؛ لأنه من ضروريات الفطرة الاجتماعية) 2 .

وحيث أن الدين لا يزال موجودا كأمر واقع منذ بدء التاريخ البشري على الأرض، وحيث أن المتدينين وجدوا في كل العصور، ولا يزالون موجودين، ونحن نعرف كل المعرفة تلك المكانة العميقة التي حفرها الدين لنفسه في العقول الإنسانية منذ الأزل حتى الآن، فالتاريخ يدلنا على أن الإنسان كان مشغولا دائما بالبحث عن الحقيقة المطلقة منذ الأزل، وفي كل المجتمعات والأزمنة، فهل من الممكن أن يسود شيء فرضي التاريخ الإنساني بأكمله؟ هل يمكن لأحد أن يدلنا على شيء آخر، أثر في نفس الإنسان بهذا الأسلوب الشامل الدائم ...؟[3]

ومن خلال ما استعرضناه يتبين أن للدين موردين أولها داخلي ينبعث من باطن الإنسان، إذ هو مركوز في سريرته، وآخر خارجي ينزله الخالق على عباده لغرض الهداية والرشاد، فعلى هذا يكون مصدر الدين هو الخالق جل وعلا، فهو خالق الإنسان وهو من أودع فيه فطرة التدين، وهو وحده يعلم بما يناسبه من الدين والعبادة . **فالدين حتم ثابت ثبوت النفس الإنسانية، ونزعة التدين وفطرته الملحة دائما، تجعل الإنسان يتعطش دوما ليس إلى الدين فحسب، بل إلى الدين الصحيح الذي يروي هذا الظمأ ويشفي هذا الغليل على الوجه الأمثل والأكمل، والطريق الأسلم والأنسب .**

---

1 - جون جاك روسو : (1712- 1778م) جان جاك روسو هو كاتب وفيلسوف جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر العقل، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين، ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية، حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة، من مؤلفاته : أحلام اليقظة للمتجول الوحيد، إيميل أو عن التربية، وله أشعارا ومسرحيات نظما ونثرا ... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص228)

2 - زيدان عبد الباقي؛ علم الاجتماع الديني، الفجالة : مكتبة غريب، ص15.

3 - وحيد الدين خان، الدين في مواجهة العلم، مصدر سابق، ص 117 .

المطلب الثالث : وظائف الدين

تبين لنا مما سبق أن الإنسان بفطرته لا يملك أن يستقر في هذا الكون الهائل ذرة تائهة معلقة ضائعة، إذ لابد له من رباط معين يضمن له الاستقرار ومعرفة مكانه في هذا الكون الذي يعيش فيه، لذلك لابد له من عقيدة تفسر له ما يحيط وتفسر له مكانه فيما حوله، فالدين (باعتباره ضرورة فطرية شعورية لا علاقة له بملابسات العصر والبيئة، وهذه الحاجة الفطرية في الإنسان إلى الدين هي التي يتحقق بقضائها معرفته بحقيقة مكانته في هذه الحياة ورسالته وعمله ودوره الذي يجب أن يؤديه مع أي إنسان آخر يقوم بدوره في الحياة، فالدين باعتباره شريعة وعقيدة يحكم حياة كل فرد، ويحدد له قواعد سلوكه، وكيفية معيشته في أسرته، وكيفية تعامله مع الناس) [1] . وهنا نعمل على إجلاء الظاهرة الدينية من خلال وظائفها وأدوارها وتفاعلاتها مع سائر الأنساق .

فليس ثمة عاطفة إنسانية أبعد غورا وأشد التصاقا بالنفس وأعظم تأثيرا في حياة الشعوب والأفراد من العاطفة الدينية، ولقد صحب الدين الإنسانية منذ نشأتها فهو قرينها وموجّهها، وليست تلك العاطفة وهما أو خيالا، ولكنها عنصر جوهري في فطرة كل إنسان، مما يظهر بجلاء أن الدين نظاما للحياة كما يعتبر من أهم الأنساق الاجتماعية المؤثرة على سائر الأنساق الأخرى، بالإضافة إلى أنه عنصر فعال في تكاملها جميعا كما سيتضح لنا مما يأتي، من حيث صياغته للمعايير التي تنظم علاقة الفرد بربه من جهة وبعلاقته بأفراد مجتمعه من جهة أخرى، (وإذا كان هناك من يضيق نطاق الدين فيقصره على المغيبات، وعرفه بأنه نسق من المعتقدات والممارسات المتصلة بالأشياء المقدسة، فإن تاريخ الأديان السماوية بالذات يفصح عن أن الدين قد لعب دورا رئيسيا في تاريخ الأمم الإسلامية والمسيحية واليهودية) [2]...

بداية وقبل التعرض لوظائف الدين لابد لنا من التنويه عن ملاحظة هامة؛ وهي أن الهدف أو الغرض من السلوك الديني لا يمثل الوظائف التي يحققها هذا السلوك للفرد والمجتمع، فالهدف من الدين هو العبادة، وهي الوظيفة الواضحة كما أطلق عليها (مالينوفيسكي) [3]، أما كون الدين يخدم أو يعمل على إشباع الحاجات الإنسانية والاجتماعية فهذه تمثل نتيجة ثانوية، وهي الوظيفة الخفية، وهذا ما

---

1 - عبد الله الخريجي، علم الاجتماع الديني، ط2، جدة : رامتان، 3410ه، 1190م، ص38 .

2 - منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص82 .

3 - برونسيلاف مالينوفيسكي (1884-1942م) (Bronisław Kasper Malinowski) وهو عالم بولندي، من أهم العلماء في علم الإنسان في القرن العشرين، ظهرت له كتابات عن جماعات جزر تروبرياند بماليزيا فيما بين 1935-1922 جمعت جو هر محاضراته ودروسه التي ألقاها في لندن ، وله أيضا : أبطال المحيط الهادي الغربي...

أشار إليه (روبرت ميرتون) (robert Merton)[1] حين أشار للوظيفة الواضحة بالظاهرة المدركة المقصودة، والوظيفة الخفية بالظاهرة غير الواعية أو غير المدركة، وذاك أمر يميز الدين عن باقي النظم الاجتماعية، فالدين يمثل نظاما فريدا من حيث أن هدفه الواعي ذو فائدة للفرد والمجتمع، إلا أن هذه الفائدة ليست منفعية وهي في حقيقتها تخرج عن نطاق الحقيقة الواضحة [2]، غير أن ذلك لا ينفي ما يحققه الدين من وظائف عدة، وما خلفته نزعة التدين سالفة الذكر من آثار جلية في حياة الإنسان سواء على مستوى الفرد أو الجماعة ... ولهذا فإن الدين يؤدى وظائف عدة من حيث أن الإنسان سيد هذا الكون وهذه الوظائف تقدم للإنسان ما يساعده على القيام بمهنة التكليف ، وهذه الوظائف منها ما يتصل بالفرد ومنها ما يتصل بالجماعة ويمكن تحديد بعض معالم هذه الوظائف على النحو التالي :

أولا : على مستوى الفرد

إذ أن هناك إجماع بين دارسي الدين على اعتبار أن من أهم وظائفه للفرد إبراز وبلورة معنى أو مغزى للحياة يتزود به المؤمن ويصبح مفهوما علميا عنده، ولقد تحدث عن ذلك (دوركايم) و(روبرتس) حين قالا إن الدين يزود الفرد بنظرة للحياة، وركز على هذه الوظيفة أيضا (ماكس فيبر) وغيره مما يدل على أن ثمة للدين أثرا كبيرا على أنماط التفكير، كما أنه يجيب على تساؤلات ومطالب يصعب الإجابة عليها بالعلم الحديث، ومن شبه المتفق عليه أن من وظائف الدين الهامة دوره في تحقيق الأمان والطمأنينة والتخلص من التوتر والانفعال ومقاومة اليأس والقنوط[3].

وهكذا نرى أن الدين هو في الأساس استجابة لحاجة إلى مفهوم منظم عن الكون والحاجة إلى آلية تعمل على التخفيف من أنواع القلق التي يسببها عجز الإنسان عن التنبؤ بالأحداث التي لا تتفق ظاهريا مع القوانين الطبيعية وفهمها، ولقد عرفت جميع الشعوب حلا أو آخر لهذه المشكلات بغض النظر عن مدى صحته[4] .

---

1 – روبرت ميرتون : (1910-2003م) عالم اجتماع أمريكي، من أصل أوبي يهودي، وكانت له إسهامات كبيرة في تطوير التحليل البنائي الوظيفي في علم الاجتماع، وتعرف نظريته بأنها نظرية المدى المتوسط التي تسهم بتقديم فهماً أوسع للسلوك الإنساني والاجتماعي وللبنية الاجتماعية وللتغير الاجتماعي أنجز ميرتون مجموعة من الدراسات والبحوث الاجتماعية المطبقة، أشهرها، (العلم والتقنية والمجتمع الإنكليزي في القرن السابع عشر 1938) Science,Technology and Society in Seventeenth ، و(النظرية الاجتماعية والبنية الاجتماعية 1949)...

2 – منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص95.

3 – المصدر نفسه، ص96 .

4 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص446 .

ووظيفة أخرى للدين تتمثل في دوره في تكيف الفرد وتأقلمه مع المجتمع ومواجهة خيبة الأمل، وكذلك هو العزاء للإضطرابات التي تنتابه عندما يشعر بغربته عن مجتمعه ومعاييره وقواعده وأهدافه، فالدين يمد الفرد بالشعور بالتماثل والتآلف والترابط بين المؤمنين، كما أن الروابط العاطفية التي تربط بين المؤمنين تحل محل الروابط الأسرية والصداقات القديمة، بل إن له من الآثار ما هو أبعد من ذلك إذ يساهم في عمليات نضج الأفراد وتطور شخصياتهم، حيث هو عنصر ضروري لتكميل وتنمية قوة الإرادة وإحياء وتكوين البواعث والدوافع الفعالة ويدرِّع الأفراد بأقوى الوسائل لمقاومة عوامل اليأس والضعف[1]، كما يبدو أن ما يرتبط بالدين من طقوس احتفالات، تتضمن في كل مكان وظائف سيكولوجية تتعلق بالتخفيف من أنواع القلق والمخاوف، وتوفر الفرصة للتفاعل بين الإنسان والعالم العلوي، والواقع أن الفرد المشارك في مثل هذ المناسبات يحظى بمجموعة من الإشباعات الإنفعالية التي يعتبر من أهمها اندماجه الكامل في المجموعة وما يترتب على ذلك من تأكيد لطمأنينته[2] .

ومن وظائف الدين النفسية الجديرة بالملاحظة، وهي ذات صلة بما سبق الحديث عنه من الوظائف الأخرى، أنه يقوم برفع عبء أو حمل اتخاذ القرار عن كاهل المتدين ويحيله إلى الآلهة (الله)، مما يحقق راحة لدى كثير من المؤمنين [3]، والدين يقيم في كل إنسان رقيبا على نفسه في سلوكه ويخلق الوازع الداخلي، ويجعل المرء في كل خلجة من خلجات فكره، وفي كل حركة من حركات جسمه مستشعرا الخوف من خالقه من أجل ذلك كانت الضوابط الأخلاقية هي أهم ما عنيت به الأديان السماوية جميعا[4]. فالدين بهذا صمّام الأمان لأعماق النفس الإنسانية ومصدر الراحة والطمأنينة من مخاوف المستقبل وتأويلات الماضي .

ومما يحققه التدين أيضا؛ التكامل النفسي، فالتدين عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان، فتسمو العواطف النبيلة لتجد ضالتها الكاملة والسامية في الدين كليا، إن لم تجدها في الأشياء أو في الناس، مثل الحب والشوق والتواضع والحياء والأمل، وهذه العواطف إن وجدتها النفس الإنسانية جزئيا في الأشياء وعند الناس، فإنها ترى صورتها المثالية في الدين، والآيات القرآنية كثيرة في ذلك، وهي تمثل النفس الواقعية التي يسمو الكمال بها، فالتدين عنصر ضروري لتكميل قوة الوجدان، فتلك العواطف

1 – منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص97 .

2 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص448 .

3 – منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص97 .

4 – المصدر نفسه، ص99 .

النبيلة إن لم تجد ضالتها المنشودة في الأشياء ولا في الناس، أو جفت ينابيعها في هذا العالم المتبدد، وجدت في موضوع الدين مجالا لا تدرك غايته، ومنهلا لا ينفد معينه[1] .

والدين يعبر عن حاجات النفس في مختلف ملكاتها ومظاهرها، ويعودها على مقاومة الترعات الطائشة والأهواء الفاسدة، ويلبي الدوافع الفطرية من غير إفراط ولا تفريط [2]، ولذلك رأى (عبد الله دراز)؛ أن الفكرة الدينية تعبر عن حاجات النفس الإنسانية في مختلف ملكاتها ومظاهرها [3]، حتى إنه كما صح أن يعرف الإنسان بأنه (حيوان مفكر) أو بأنه (حيوان مدني بطبعه) يسوغ لنا أن نعرفه بأنه حيوان متدين بفطرته" . ويكمل الدين العوامل النفسية التي تختلج في ضمير الإنسان، فالدين يكمل قوة الإرادة، لأن الدين يمد الإنسان بأعظم البواعث والدوافع، ويسلحه بأنجع الوسائل لمقاومة التردد أو اليأس أو القنوط، ويحد من ثورة النفس في الفرح والغضب، وفي الدين شفاء لأمراض الإنسان النفسية؛ كالهمّ والحزن والقلق واليأس والخوف والقنوط والتردد والحيرة.. واتفق العلماء قديما وحديثا على أن الروح المعنوية للإنسان هي المحرك الأساسي والعامل الحاسم في قضايا السلم والبناء والتعمير والنجاح، كما أنها السلاح الحيوي الفعال في الحرب والقتال والنصر على الأعداء، وهو أمر ملموس[4] .

ولا تقتصر وظيفة الدين للفرد على الجانب النفسي، بل يعمل الدين كذلك على تنمية العقل، فالعقل يتطلع بمقتضى الفطرة الإنسانية إلى معرفة ما يحيط به، ثم يستمر بالتشوق الغريزي إلى معرفة ما وراء الغيب، وما قبل الوجود، وما بعد الحياة والفناء، ويحاول التعرف على الأسباب والمسببات، فتسعفه الحواس ببعض الأجوبة، ويأتي الدين ليلبي هذا التطلع، ويشبع هذه الرغبة، ويقدم له التفسير الصحيح والجواب الواقعي لكل ذلك، دون أن يمنعه من البحث والكشف عما يطوله من مكنونات الموجود والمحسوس، وبعبارة أخرى؛ فإن الدين يمنح العقل المعرفة الصحيحة والأجوبة الكاملة عما وراء الغيب، ويكشف له الطريق ويضع له المنارات، ويأخذ بيديه ليسبر أحوال الكون التي تقع تحت حواسه، ويطوله البحث والتجارب، ومن هنا تسمو القوة النظرية العقلية في الإنسان، ويشبع الدين نهمة العقل، وإن لم يكن كذلك، فذلك حجر للعقل وتعطيل عمله ونشاطه [5]، فالتدين إذا عنصر ضروري لتكميل القوة النظرية في الإنسان، فبه وحده يجد العقل ما يشبع نهمته، ومن دونه لا يحقق

---

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص 98، وينظر محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص66 .

2 – محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص68 .

3 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص98 .

4 – محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص69 -73

5 – المصدر نفسه، ص54 .

مطالبه العليا[1]، فالدين غذاء ضروري لتغذية العقل وتنميته، بل وتوسيع مداركه، كما يشكل دعامة لتصويب مفاهيمه وتصوراته .

ومما سبق من الوظائف يتبين أن الدين يقيم التوازن بين الجسم والروح والعقل عند الإنسان، فإن قويت عند الإنسان غرائزه وشهواته أصبح بالحيوان أشبه، وإذا برز فيه التفكير والعقلانية وصل إلى الفلسفة والسفسطة والخيال، وإذا انجرف وراء الروح وأهمل الجسم والمادة والحياة وصل إلى العزلة والرهبنة وكبت الغرائز وتجميد العقل، فلابد من الدين الذي ينظم حالات الإنسان، ويقيم التوازن في جميع نواحيه[2]. وإذا كان الطعام هو غذاء الجسم للإنسان، فإن الدين هو غذاء للروح بالإيمان والعقيدة والإستئناس بالخالق المدبر، ويحرر هذا الغذاء الروحي الإنسان من قيود الذل والخوف والجبن والتردد ويرتفع بالفرد إلى مصاف الكمال والعزة والكرامة [3]. وباعتبار المجتمع يتكون من الأفراد، فمتى تربى الفرد، وكمل عقله، وصفت نفسه، وتهذبت روحه، وتقوى جسده، كان المجتمع صالحا، قويا ومهذبا، ورغم ذلك فإن من وظائف الدين ما يتوجه مباشرة أثرها ويظهر في المجتمع .

ثانيا : على مستوى المجتمع

إذ هناك ارتباط وثيق بين طبيعة (النظام الاجتماعي) وطبيعة (التصور الاعتقادي)..بل هناك ما هو أكبر من الارتباط الوثيق، هنالك الانبثاق الحيوي؛ انبثاق النظام الاجتماعي من التصور الاعتقادي ..فالنظام الاجتماعي بكل خصائصه هو أحد انبثاقات التصور الاعتقادي، إذ هو ينبت نباتا حيويا فطريا، ويتكيف بعد ذلك تكيفا تاما بالتفسير الذي يقدمه ذلك التصور للوجود، ولمركز الإنسان في هذا الوجود، ولغاية وجوده الإنساني، وما من نظام اجتماعي يمكن أن ينشأ نشأة طبيعية سوية، وأن يقوم بعد ذلك قياما صحيحا سليما، إلا حين ينبثق من تصور شامل لحقيقة الوجود، ولحقيقة الإنسان، ولمركز الإنسان في هذا الوجود [4]، فمنهج حياة كل مجتمع هو دينه لأنه صادر عن تصوره الاعتقادي ومتأثر به، فالدين يحدد العلاقة بين أفراد المجتمع ومنظماته .

يعد الدين أحد العوامل الجوهرية في الحياة الاجتماعية، إذ أن إقامة الروابط الاجتماعية الحية كلها إنما يكون عن طريق الدين، سواء أكانت على نطاق الأسرة أم على مستوى الوطن، أم على مستوى الأمم والدول والشعوب، وخاصة الروابط المعنوية والأخلاقية، كالتراحم والتعاطف والتكافل والمحبة،

1 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص97 .

2 – محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص78.

3 –المصدر نفسه، ص83-85

4 – سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، مصدر سابق، ص12 .

والأخوة والتعاون والمساواة .. وغير ذلك من المبادئ الأخلاقية والتشريعات الاجتماعية والأنظمة والأحكام والقوانين العادلة، فلا يخفى دوره على أحد في مجال التكامل والتساند الاجتماعيين، وقد رأى البعض أن الولاء الاجتماعي للمجتمع وللجماعة هو في أصله ولاء ديني، بمعنى أن الدين يمس جميع مظاهر الحياة الاجتماعية في المجتمع ويصبغها بصبغته، كما يؤثر على جميع مقومات الثقافة الأساسية[1] .

إن من أهم وظائف الدين الاجتماعية كونه من أقوى وأهم وأنجح وسائل (الضبط الاجتماعي) الذي هو ضرورة حتمية للحياة في الجماعة، وما يمتاز به الإنسان عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته اختيارية، بفعل معنى إنساني روحاني، اسمه الفكرة والعقيدة، ولقد ضل قوم ظنوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية، بل يتأثران بها، فالإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره[2]، إذ لابد من قانون ينظم علاقات الأفراد، ويحدد حقوقهم وواجباتهم، وهذا القانون لا غنى له عن سلطان نازع وازع يكفل مهابته في النفوس ويمنع انتهاك حرماته، فالإنسان بصفة عامة في حاجة إلى رقيب أخلاقي يوجهه لخير الإنسانية، وهذا الرقيب هو العقيدة والإيمان ذات السلطة الروحية التي تفوق قوة القانون الوضعي وأحكامه[3]، فالضبط الاجتماعي نظام هادف يعمل على ضبط سلوك الآخرين في نطاق القيم والنظم المقررة في ذلك المجتمع، من أجل ذلك كانت الضوابط الأخلاقية هي أهم ما عنيت به الأديان السماوية جميعا، فالدين هو الذي يحدد القواعد الأخلاقية التي تسير عليها الجماعة، ويقوى النظام الأخلاقي في المجتمع[4] .

والواقع يثبت حالة التفاعل المستمر بين الدين والمجتمع، ومدى التغلغل وفاعلية الضوابط الدينية في تنظيم الحياة الاجتماعية، فمن المهم تأكيد مهمة الدين الاجتماعية في المحافظة على النظام والاتساق الاجتماعي وتقوية الروابط الاجتماعية، إذ بفضل الدين يشعر المجتمع بوحدته الخاصة في صورة اتحاد في الطقوس والممارسات الدينية، وامتثال للضوابط الدينية حتى تصبح بمثابة عادات اجتماعية لها قوة إلزامية، غير أنها تستند إلى جزاء يمكن وصفه بأنه فوق اجتماعي، وفي ضوء هذا يبدو أن قاعدة السلوك الخلقي لا تقوى على البقاء بدون تأييد المعتقد الديني، مما يعني بأن الدين والدور الاجتماعي له سوف يستمر رغم تغير أشكاله، طالما أن هناك مجتمعا إنسانيا...[5]

---

1 – ينظر محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص84 .

2 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص99 .

3 – منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص97 .

4 – المصدر نفسه، ص98 .

5 – ينظر مهدي محمد القصاص، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص39 .

وأما الأنظمة الوضعية فقد تدعو إلى الأخلاق، ولكن لا تؤمن الوسائل الكفيلة للتطبيق والتهذيب، لأنها عاجزة عنها، ولا تملك الأساليب التي تحيي الضمير الذي يحاسب النفس والذات، وقد تدعو للأخلاق ولا تؤمن بها أو لا تلتزم بها، ويضاف إلى ذلك أن بعض الأنظمة الوضعية تتعارض في حقيقتها وفلسفتها ووجودها مع القيم المعنوية، أو تتنكر للأخلاق والقيم الثابتة .. [1] وبذلك يعمل الدين على تحقيق التوازن بين الفرد والمجتمع، فلا يطغى الفرد ويستأثر بالحقوق، ولا يستبد المجتمع بالفرد، ويتحكم فيه ويسلخ منه قيمته وخصائصه وفطرته ووظيفته في الكون [2]. ومما أظهرته نتائج الأبحاث التي أجريت على العلاقة بين الدين والطبقات الاجتماعية أن المعنى الديني يتباين بالنسبة للطبقات الاجتماعية، وهذا يعني أن الدين يتجه لينجز وظائف مختلفة للأفراد في مختلف الطبقات، وبمعنى آخر فإن الأفراد يسعون إلى تحقيق أشياء في الدين اعتمادا على موقعا في النسق الطبقي [3] .

إن الخدمة الجليلة التي تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحد، فليست كل مهمتها أنها المبعث القوي لتهذيب السلوك، وتصحيح المعاملة، وتطبيق قواعد العدل، ومقاومة الفوضى والفساد، بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثرا في كيان الجماعة، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والتراحم، لا يعدله رباط آخر من الجنس أو اللغة، أو الجوار أو المصالح المشتركة [4] . والذي نؤول إليه أن الدين يعمل لخير الفرد والمجتمع ويحفظ توازنهما، يقول المرحوم (عبد الله دراز) : "فالذي نريد أن نثبته أنه ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانيها في كفالة احترام القانون، وضمان تماسك المجتمع، واستقرار نظامه، والتئام أسباب الراحة والطمأنينة فيه " [5]..." وجملة القول أن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد.." [6] .

وما نراه من وظائف الأديان على المستويين الفردي والجماعي، أنها تقف إلى جانب الأمل والإمكان والحرية والاختيار في مبدأ الأشياء...وبهذه النزعة تخدم العلوم وتمهد لتقدمها، إذ تفسح المجال أمامها في تغيير معالم الأشياء إلى مدى أبعد مما تتصوره العلوم الواقعية، التي هي بطبيعتها جبرية إلى أقصى حدود الجبر، لأنها كلما كشفت قانونا وقفت عنده دهرا، تبني على أساسه كل فنونها وصناعاتها...حتى إذا انتقلت إلى مرحلة أخرى، وفي سيرها الحثيث إلى الكشف والتجديد، خاضعة في الواقع من حيث لا تشعر لدفعة خفية من الإيمان بإمكانيات لا نهاية لها في الكون، وتلمس أن على

---

1 – محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص88 .

2 – المصدر نفسه، ص93

3 – مهدي محمد القصاص، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص40 .

4 – عبد الله دراز، الدين ، مصدر سابق، ص101 .

5 – المصدر نفسه، ص98 .

6 – المصدر نفسه، ص102 .

رأس كل سلسلة من الأسباب قوة اختيارية، هي قوة الإنشاء والابتكار التي لابد أن ينطوي عليها السبب الأول[1].

وبما يمد الدين به الإنسان من المعاني الروحية والنفسية التي تتحدى العجز وتأنف الدون من الحياة وتأبى الخضوع، وما يخلقه في النفس من طاقات روحية هائلة وعظيمة كالشجاعة والتضحية والكرم...مما يشكل عاملا حاسما في قضايا السلم والبناء والتعمير والنجاح، كما أنها السلاح الحيوي الفعال في الحرب والقتال..[2] وبذلك يكون التدين قوة دافعة للتقدم والرقي بالمجتمعات ونهضتها .

والدين -بتلك الاعتبارات- يكون منهج حياة، حياة بشرية واقعية بكل مقوماتها، منهج يشمل التصور الاعتقادي الذي يفسر طبيعة (الوجود)، ويحدد مكان (الإنسان) في هذا الوجود، كما يحدد غاية وجوده الإنساني ..ويشمل النظم والتنظيمات الواقعية التي تنبثق من ذلك التصور الاعتقادي وتستند إليه، وتجعل له صورة واقعية متمثلة في حياة البشر، كالنظام الأخلاقي والينبوع الذي ينبثق منه، والأسس التي يقوم عليها، والسلطة التي يستمد منها، والنظام السياسي وشكله وخصائصه، والنظام الاجتماعي وأسسه ومقوماته، والنظام الاقتصادي وفلسفته وتشكيلاته، والنظام الدولي وعلاقاته وارتباطاته ..[3]

وإذا تأملنا المذاهب والأنظمة السياسة والاجتماعية والاقتصادية القائمة، نجد أنها ليست مجرد مذهب اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي.. وإنما هي تصور اعتقادي أيضا، فالماركسية مثلا تستند إلى تصور ديني قائم على إنكار الإله وعلى مادية الكون ترجع فيه بذلك إلى التفسير المادي للتاريخ وإرجاع تطورات الحياة البشرية إلى تقدم أدوات الإنتاج، وكذلك تعتبر العلمانية نظاما سياسيا صادرا عن تصور اعتقادي بأن الدين لله والوطن للجميع، ولا ضرورة لتدخل الدين في شؤون الدولة[4] .

فحاجة الإنسان للدين تأتي لتربية نفسه روحيا، وتنظيم سلوكه خلقيا، وضبط أفعاله اجتماعيا وتعيين الحقوق والواجبات العامة في المجتمع الإنساني كله، كما لا يمكن أن نغفل موقع الدين في حياة الأسرة، ومدى تأثيره في الحفاظ على المعايير التقليدية التي ينطوي عليها الزواج والطلاق والحياة وتربية الطفل[5] . **ولأجل ذلك كله يكون التدين خير ضمان لأمن المجتمع وعدالته وتكافله، فهو بذلك ضرورة اجتماعية، إضافة لكونه فطرة بشرية .**

---

1 – ينظر عبد الله دراز، الدين ، مصدر سابق، ص51 .

2 – ينظر محمد الزحيلي، وظيفة الدين في الحياة، مصدر سابق، ص75 .

3 – ينظر سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، ط14، القاهرة : دار الشروق، 1993م،1413، ه، ص2

4 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص 37 .

5 – المصدر نفسه، ص174 .

وباعتبار الدين علاقة تفاعلية فإن طرفي هذه العلاقة هما الدين من ناحية والمجتمع من ناحية أخرى، أما عن تأثير الدين في المجتمع، فيكمن في إبراز الدور الذي تلعبه العقيدة الدينية في صياغة النظم الإجتماعية، وهذا الدور يبدو بأجلى الصور وأقواها في حالة الديانات السماوية المترلة التي تجعل الدين ضرورة اجتماعية، ولا يقتصر التأثير التفاعلي بين الدين وسائر النظم الاجتماعية على المجتمعات التي تدين بالأديان المترلة فحسب، بل إنه يبدو جليا واضحة – ربما بدرجة أكبر – في المجتمعات البدائية المتخلفة، والتي يدين أغلبها بديانات وضعية، فحيث أن الدين هنا من وضع أبناء ذلك المجتمع، فمن ثم يكون الدين أصدق تعبيرا عن طبيعة البناء الاجتماعي والنظم الاجتماعية، بل إن الدين هنا يكون عرضة للتبدل والتطور والتعديل، فتتطور العقيدة في الدين الوضعي كما تتطور الشعائر والممارسات بتطور المجتمع، ولذلك قيل أن تأثير المجتمع في الدين يظهر بأجلى صوره في حالة الديانات الوضعية[1] .

وإذا نظرنا إلى الشريعة الإسلامية نجد أنها كضابط ديني اشتملت على الأصول العامة والقواعد الكلية كضوابط دينية منظمة لشؤون المجتمع، كما وضعت نظاما عاما لتنظيم الدولة أساسه العدالة الاجتماعية وتنمية الشعور بالكرامة الإنسانية والقضاء على النعرات العنصرية والاختلافات الطائفية العنصرية، ووضعت إطارا عاما للنظام المدني يحوي تشريعا كاملا لجميع الأسس القانونية اللازمة لقيام حياة اجتماعية في أي دولة، وتنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض، وعلاقة هؤلاء بالسلطة الحاكمة، والمحافظة على الحقوق الخاصة للأفراد والحقوق العامة للجماعة[2] .

وقد أشار (ابن خلدون) إلى أهمية الدين كأقوى الضوابط الاجتماعية التي تؤدي إلى الاستقرار الاجتماعي[3]، أما عن علاقة الدين بالتنمية الاجتماعية والاقتصادية، فقد كان (ماكس فيبر) رائدا في طريق هذا الموضوع، حين تناول بشكل مركز وموسع لأول مرة علاقة الدين بالاقتصاد في المجتمع الغربي وفي بعض المجتمعات الأخرى، وبالأخص العلاقة بين الدين الإسلامي والتنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التي تدين بالإسلام[4] . إذ إن عملية التنمية الاجتماعية والاقتصادية ليست عملية مادية فقط، فهي ليست زيادة للموارد الاقتصادية ورفعا لمستوى المعيشة المادي للناس فحسب، ولكنها قبل هذا وذاك رفع للمستوى الثقافي والفكري في المجتمع، فهي عملية قائمة على جناحين كبيرين أحدهما روحي والآخر مادي، فهدف الشريعة الإسلامية، هو إصلاح الفرد في المجتمع من الناحيتين الروحية والمادية، بادئة بالجانب الروحي لتؤهله للجانب المادي [5]. ذلك أن المجتمع ينمو

---

1 - ينظر عبد الها الخريجي، علم الإجتماع الديني، ص18 .

2 - المصدر نفسه، ص90 .

3 - ينظر محمد شحات الخطيب وآخرون، أصول التربية الإسلامية، الرياض : دار الخريجي،1995م، ص530 .

4 - عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص454 .

5 - المصدر نفسه، ص455 .

ويتطور ويتقدم بقوة دفع هاتين الطاقتين، الطاقة الروحية والطاقة المادية، ويندرج تحت مفهوم الروحية المبادئ والقيم والخلق والمثل العليا، كما ينطوي تحت مفهوم المادية جميع الوسائل المحسوسة والملموسة في عالم المادة، وإذا كانت الأسس المادية لتنظيم الحياة وتطويرها ضرورية ولازمة، فإن الحوافز الروحية والمعنوية إذا اقترنت بالمادية تصبح قادرة على تطوير المجتمع نحو الأفضل، وعلى تحقيق التنمية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومن البديهي أن الطاقة الروحية مصدرها الدين والإيمان والعقيدة، وليس تأثير الدين ودوره في التنمية الاجتماعية لغزا أو مجرد شعار، بل هو حقيقة ثابتة لها أصولها وركائزها، وهي غير خافية على أبناء أمة أخرجت للناس لتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتتولى تبليغ رسالة السماء إلى الأسرة البشرية[1] .

ولا يخفى على أحد دور الإسلام في التنمية الاجتماعية الشاملة، وهو الذي نقل الأمة العربية من حياة البداوة، ومن السبات الحضاري العميق، والتمزق والفرقة إلى حياة الحضارة والحركة والقيادة والوحدة، وصاغ الإسلام حضارة العرب في ظل عقيدته وشريعته وأصول حضارته صياغة واضحة، غذت بفضلها قائدة أعظم تنمية اجتماعية وحضارية في نواحي الحياة كلها، شهدها العصر الوسيط، وانتهى إلى بناء الحضارة العربية الإسلامية التي أدت دورها في خدمة الإنسانية جمعاء[2] .

وبعامة فالدين عنصر هام في بناء أي حضارة، وقد استشهد (مالك بن نبي) [3] لذلك بصور عديدة، فالحضارة –على رأيه– لا تنبعث إلا بالعقيدة والفكرة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها ومبعثها الديني، وليس من الغلو أن نجد في (البوذية) بذور الحضارة البوذية، وفي البرهمية نواة الحضارة البرهمية، .. وكذا الحضارة الأوربية من عمل الفكرة المسيحية، بل إن الشيوعية ليست مذهبا ماديا فقط، بل في جوهرها ما يفيد التوجه الروحاني، فالشيوعية نظريا هي قبل كل شيء فكرة (ماركس)، وواقعيا هي نشاط المؤمنين المدفوعين بالقوى الداخلية نفسها التي دفعت غيرهم من المؤمنين في مختلف العصور، أولئك الذين شهدوا مولد الحضارات..فالحضارة تقوم في أساسها على توجيه الناس نحو معبود غيبي [4] . ولا يزال التأكيد على الدور المهم الذي يمكن أن يلعبه الإسلام في تحقيق النهضة الاجتماعية المعاصرة، وليس في ذلك أي تجاوز للحقائق العلمية، فالأهداف الاجتماعية والاقتصادية التي حددها الإسلام والقيم السلوكية والأخلاقية التي رسمها ودعا إلى تركيزها في النفوس، تعتبر أسسا ومنطلقات فاعلة للنهوض بالمجتمع المسلم، ودفعه إلى طريق التنمية الشامل،

1– عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص455 .

2 المصدر نفسه، ص465 .

3 – مالك بن نبي : (1905– 1973م) مفكر نهضوي جزائري، من مؤلفاته : الظاهرة القرآنية، وجهة العالم الإسلامي، مذكرات شاهد القرن.. (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص25) .

4 – ينظر مالك بن نبي، شروط النهضة، سورية : دار الفكر، 2009م، ص50، ص60 .

تنمية تتفاعل فيها عوامل كثيرة، طبيعية وفنية، وسكانية واجتماعية واقتصادية وسياسية وثقافية وأخلاقية ونفسية..عوامل مادية ومعنوية تشكّل كلها حصيلة تفاعل حي وخلاق بين المجتمع بيئته الطبيعية، وكذلك بين مختلف مجالات الحياة الاجتماعية القائمة[1] .

فبالإضافة إلى الأحكام العقائدية التي تنظم علاقة الإنسان بخالقه، وتدعو إلى معرفة الله وذاته وصفاته وأفعاله، ليكون الغاية منها تثبيت العقيدة التي هي قوام الحياة الصحيحة للأسرة البشرية والعمود الفقري لهيكل المجتمع، والطاقة الكامنة لتنمية المجتمع في شتى مجالات الحياة، جاء القرآن إضافة بأحكام خلقية وعملية[*] ، تنظم علاقة الإنسان مع نفسه، وتدعو إلى تهذيب النفوس من الصفات الرذيلة والتحلي بالصفات الحميدة كالوفاء بالوعد، والإخلاص في العمل، وأداء الأمانة، وقيام العدل والإحسان والتعاون والتودد والتساند والتآلف، والغاية منها نشر الفضيلة وإبعاد الرذيلة والعمل على إيجاد مجتمع مثالي ومكافحة الجرائم في المجتمع بطرق وقائية وعن طريق المناعة الروحية[2] .

وبناء على ذلك فإن كل حكم من الأحكام الشرعية شرع لجلب منفعة للإنسان أو رفع مضرة عنه أو رفع حرج عليه، ففي وجوب الإيمان بالله سمو تكريم الإنسان، وفي الالتزام بالعبادات وأدائها صفاء النفس ورمز الأخلاق ومنع الانحراف، وسبيل التعارف والاهتمام بالمصالح العامة، وفي الأحكام المالية العامة والخاصة التعاون والتضامن والتكافل بين أفراد المجتمع ومحاربة الفقر والأخذ بيد الضعيف وتقوية اقتصاد الأمة، ومن العقوبات الزاجرة حماية الفرد وراحة المجتمع ووقاية الفضيلة وحفظ الحقوق الأدبية والمادية، وفي تنظيم الزواج صيانة الأعراض وتقديس روابط الأسرة وبقاء نوع بني الإنسان، وفي أحكام المال توزيع المال توزيعا عادلا وإبعاد إثارة النزاع والأحقاد بين الأقارب[3] .

هذا؛ وانطلاقا من كون الدين غريزة فطرية توصلنا إلى أنه أحد مقومات الحياة الإنسانية التي لا غنى عنها للفذ والمجتمع ، فهو سبب السعادة والهداية للإنسان وانسجامه وتكامله الفكري والروحي والنفسي.. وفي الوقت ذاته تتوزع وتتنوع وظائفه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية... على الأمة والعمران والمجتمعات، وقد ضربنا لذلك مثلا؛ هو الدين الإسلامي وما أثبته من دوره الريادي في تحقيق النهضة والتنمية والتقدم والتغيير.. وبهذا فالدين في الحقيقة هو أصل الحضارات وأصل النهضة والعمران..

---

1 - عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص456 .

* - من الأحكام العملية : العبادات وأحكام الأسرة، وأحكام المعاملات المالية، وأحكام المرافعات وأحكام الجنايات والعقوبات . (ينظر عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص457- 459) .

2 - عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص457 .

3 - المصدر نفسه، ص459 .

الباب الثاني

أنثربولوجيا الظاهرة الدينية

الفصل الأول : بنية الظاهرة الدينية

الفصل الثاني : الدين وعلائقه

الباب الثاني : أنثربولوجيا* الظاهرة الدينية

نتناول في هذا الباب الدين من المنظور الأنثربولوجي، وبذلك نركز اهتمامنا على توصيف الظاهرة الدينية من مكوناتها الداخلية وعلائقها الاجتماعية والدينية المحيطة أو المكملة .. وذلك باعتبار الدين مقوّما أساسيا بل هو نظام كامل للحياة يتجاوز ارتباطه بالواقع وتفاعله الأكيد معه إلى ارتباطه المصيري والمحتوم بما هو فوق الطبيعة وانجلائه في شتى مجالات الواقع ... وهنا نعمل على تتبع معتقدات ومقدسات وشعائر وطقوس ونظم وكتب وأساطير .. دينية لشعوب ومجتمعات كرّست الظاهرة الدينية منذ البدايات وعبر التاريخ البشري، ومن خلال ذلك نعمل على استكشاف ما تحتاجه الظاهرة الدينية في كل حين لاستكمال وجودها وبنيتها الظاهراتية ... فإذا ما استكملت عناصر البنية فإننا نلاحظ أثر الزيادة والنقصان والإنحراف من كل من مكونات الظاهرة الدينية وعناصرها .. وكل ذلك لما يثبت أن الدين لازمة إنسانية .

* – أنثربولوجيا الدين : هي دراسة متعمقة للشعوب من حيث معتقداتها وعاداتها ونظمها الاجتماعية، وكيف تعمل هذه المعتقدات في التشكيلة الثقافية لشخصية الإنسان في المجتمع المعني أو المجتمع تحت الدراسة.

الفصل الأول

بنية الظاهرة الدينية

المبحث الأول : أركان الدين (العناصر الأساسية)

المبحث الثاني : العناصر المكملة في الدين

الفصل الأول : بِنية الظاهرة الدينية

على تعدد الأديان واختلافها فلا شك أن لها بنية متشابهة، تمكن من كشفها مبدئيا والتعرف عليها كظاهرة، ومما سبق من التعريفات السائدة لدى الفلاسفة واللاهوتيين وعلماء الأنثربولوجيا والاجتماع الديني.. استخلصنا جملة من الأسس التي اعتمدت لتعريف الدين كالإعتقاد، الممارسات، التقديس،... مما يوحي أن ظاهرة التدين كغيرها من الظواهر لها ما يميزها من السمات والخصائص مما قد نصطلح عليه بعناصر الدين منها التي أشرنا إليها، لنتناولها هنا بشيء من التفصيل، إلا أن تلك العناصر ليست على درجة واحدة من الأهمية، فمنها الأساسي الذي لا يمكن التعرف على الظاهرة الدينية من دونه، وهي بمثابة الأركان، ومنها الثانوي الذي قد تقوم عليه بعض الأديان ولا وجود له في غالبية الأديان الأخرى، أو أنه لا يلعب دورا حاسما في تكوين الدين .

المبحث الأول : أركان الدين (العناصر الأساسية)

وهي العناصر التي لا قيام للدين إلا بها، وهي هنا : المعتقدات، المقدسات، والشعائر، إضافة إلى الكتب والنصوص المقدسة، وإن كنا قد ألمحنا لبعض العناصر سابقا، فإننا هنا نتناولها بشيء من التفصيل :

المطلب الأول : المعتقدات والمقدسات

فأول أركان الدين هو العقيدة وما يحيط بها من أشكال التقديس وأنواع التتريه :

أولا – المعتقدات الدينية : تتألف الأديان من مجموعة من المعتقدات، فالإحيائيون يعتقدون أن الطبيعة تحييها أرواح لا عدَّ لها وهي غير منظورة، ويؤمن المشركون بعدة آلهة، وليس في اعتقاد الموحّدين سوى إله واحد، ومن الناس من لا يؤمن بوجود الله، أو بوجود أي إله آخر...إلخ فالمعتقدات هي مجمل ما يؤمن به الناس .

ويمثل الاعتقاد محور الدين ولبه، وهو العنصر الأسمى الذي يبرز إنسانية العنصر البشري في علاقته مع الدين، لأنه يعتمد على العقل والتأمل والتدبر والتفكر مما يتميز به الإنسان على غيره، ويجعله واعيا بقدراته وسلوكاته[1] .. وهي من الأهمية بحيث يصدق بها القلب موقنا بها مطمئنا إليها، لا يمازجه

1- فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، عدد 11، 2013م، جامعة غرداية، ص182 .

فيها حال ذاك شك أو ريب، على نحو يحمل على التعبير عنها وإجلائها... ولهذا وقف العديد من العلماء عند مستواه في التعريف بالدين وإيضاح جوانبه..

والمعتقد هو أول أشكال التعبيرات عن الخبرة الدينية الفردية التي خرجت من حيز الانفعال العاطفي إلى حيز التأمل الذهني، ويبدو أن توصل الخبرة الدينية إلى تكوين معتقد هو حاجة سيكولوجية ماسة، لأن المعتقد هو الذي يعطي للخبرة الدينية شكلها المعقول، الذي يعمل على ضبط وتقنين أحوالها، فبعد تلك المواجهة الانفعالية مع القدسي في أعماق النفس، يتدخل عقل الإنسان من أجل صياغة مفاهيم من شأنها إسقاط التجربة الداخلية على العالم الخارجي 1 . وإذا كنا قد أثبتنا فطرية الدين وضرورته للنفس البشرية إلا أن ذلك يظل كامنا ما لم يتبلور الأمر إلى معتقد (متعلق بالقناعات الفكرية الواضحة والمباشرة، وهي ما قد يعبر عنه الإنسان ويصرح به في أقواله، وهو أيضا ما يمكن أن يحجبه أو يعكسه حسب رغبته أو حالته، ومع ذلك يظل أول أشكال التعبير عن البعد الديني لدى الفرد)2 .

وقد يصل الاعتقاد درجة يصير شأنه فيها جمعيا؛ بمعنى أن (عقول الجماعة تعمل على صياغته، كما تعمل الأجيال المتلاحقة على صقله وتطويره، فشعوب سومر وآكاد مثلا، وكنعان ومصر واليونان، قد تركت مدونات عن معتقداتها وأساطيرها وصلواتها، دون أن تذكر شيئا عن صدور دياناتها عن كاهن أو عراف أو نبي، وأسفار الفيدا السنسكريتية المغرقة في القدم، ما زالت تمارس تأثيرها العميق على الطوائف الهندوسية في الهند، دون أن يعرف أحد مصادرها والتواريخ الدقيقة لتدوينها، بل إن بعض المعتقدات لا يجوز البحث في مصدرها -بالنسبة لأهلها- لأنها تعكس الحقائق الأزلية التي لا تجوز مناقشتها..!)3 . ولذلك فإن المعتقد يدل على الموقف الشخصي المبني إما عن التقليد والمحاكاة، وإما عن الفهم والتفكر والإقناع، كما أن الاعتقاد مستوى نسبي متغير وغير ثابت بالضرورة، فالفرد قد يصبح معتقدا في شيء ويمسي معتقدا في غيره 4، فالاعتقاد يزيد وينقص، والناس أمام ضعف العقائد الدينية وقوتها أصناف كثيرة، بل هم درجات ومراتب، وهناك بون بين من تلقاها عادة، واعتقدها تقليدا، وبين من نظر وفكر وازداد إيمانه وقوي يقينه فتبصر...

ويتألف المعتقد عادة من عدد من الأفكار الواضحة والمباشرة، تعمل على رسم صورة ذهنية لعالم المقدسات، وتوضح الصلة بينه وبين عالم الإنسان، وغالبا ما تصاغ هذه الأفكار في شكل صلوات أو

---

1 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص47 .

2 - فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص5 .

3 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص48 .

4 - فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص5 .

تراتيل1 وبذلك فإن المعتقدات تشكل البناء المعرفي الأساسي لتصور الفرد للعالم، كما تشكل الإطار الذي يفهم به محتوى وأبعاد مدركاته الذاتية... ويرتكز المعتقد إلى حد ما على الإيمان 2

وكما بين (أبو بكر جابر الجزائري) 3 العقيدة بأنها : "مجموعة من القضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل، والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره جازما بصحتها، قاطعا بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو أن يكون أبدا، كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه وعلمه به وقدرته عليه ..." 4 فالمعتقد يرتبط عادة بالإيمان الغيبي وكما حاول كل من (جون هيك)5(John Hick) و(مرسيا إلياد) أن يقدما طرحا يقتضي (إن الدين على مستوى العالم، مبني على الإيمان بما هو كائن وراء عالم البشر، أطلق عليه (هيك) لفظ (الكيان الحقيقي) بينما أطلق عليه (إلياد) لفظ (الكيان المقدس)، وقد سعى الإثنان إلى إيجاد قاعدة ما من أجل إدراك ومقارنة تنوع الخبرات الدينية على مستوى العالم، وشرح وجود جوهر مشترك أو أساس للأديان كافة)6 .

وعلى سبيل الإيضاح؛ فإن الركائز الأساسية للعقيدة الإسلامية هي أركان الإيمان، فلا يمكن أن يكون المرء مسلما صحيح الإيمان سليم المعتقد مالم يحصلها ويؤمن بها جميعا، وهي الواردة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عن الإيمان (قال: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)7 .

---

1 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص49 .

2 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص199 .

3 - أبو بكر جابر الجزائري : (1921- 2014م) هو أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر ، عالم ومفكر جزائري، عرف بالتقوى والورع والعلم، من مشايخه في الجزائر : الشيخ نعيم النعيمي، والشيخ الطيب العقبي..، ومن مشايخه في المدينة المنورة : الشيخ عمر بري، الشيخ محمد الحافظ... ولم يفارق الشيخ أبو بكر جابر المسجد النبوي يدرس الناس لأكثر من خمسين عام، له جهود دعوية كثيرة منها مؤلفاته : منهاج المسلم، عقيدة المؤمن، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ... توفي بالمدينة المنورة عن عمر يناهز 93 عام .

4 - أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن، ط1، باتنة : دار الشهاب، ص19 .

5 - جون هيك : (John Harwood Hick) (1922- 2012م) أستاذ وثيولوجي وفيلسوف في الدين، قدم مساهمات في الثيولوجيا الدينية عن الكريستولوجيا والإسكاتولوجيا والثيوديسيا، وفي فلسفة الدين قدم مساهمات في إبستمولوجيا الدين والتعددية الدينية .. (Peters Richard, Johan Hick ; Man of Many Mysticims, Boson coaloborative Encyclopedia Of Western Theology)

6 - مالوري ناي، الدين الأسس، مصدر سابق، ص180 .

7 - حديث جبريل رواه الإمام مسلم في صحيحه في، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، (1: 8) (ينظر صحيح مسلم، ط1، بيروت : دار ابن حزم، 1416ه، 1995م، ج2، 46- 47 .

فالإسلام أسس على الإيمان بوحدانية الله... وبالحياة الآخرة... فوضع الأسس الثابتة للقوانين والقيم التي يجب أن تحكم كل سلوك الفرد وكل شؤونه... فالحياة في التصور الإسلامي ليست الفترة القصيرة من عمر الإنسان، بل إنها تمتد في الزمان والمكان لتشمل الحياة الدنيا والآخرة، فكانت عقيدته نظاما ينشر نفسه على حقل الحياة البشرية الكامل، ذلك أن العقيدة الإسلامية سهلة بسيطة واضحة، وهل هناك شيء بسيط وواضح كالحقيقة، أما (العقيدة المثقلة بالفلسفات العميقة والطقوس المنمقة فتحتاج إلى إرشاد وشرح الفلاسفة المفسرين ورجال الدين...إنها تتطلب الكثير من الوقت والفراغ تماما كما تتطلب الاعتماد على الآخرين، وكذا العقائد المبنية على الإفراط في التفاؤل أو التشاؤم، تكون في الغالب غير عملية، بسبب خيالاتها) 1 .

فالعقيدة المسيحية لم تعد قوية فعّالة وحيّة —بعد المسيح عيسى عليه السلام- بسبب رهبانيتها ونظرتها التشاؤمية للحياة، إذ هي مؤسسة على عقيدة (الخطيئة الأصلية) لآدم عليه السلام، وخروجه على إثرها من الجنة، وهي تشكل موتا جسديا عندهم لآدم وذريته التي تسلمت هذه الخطيئة من بعده، فهي عقوبة حاقت بالإنسان إزاء عصيانه، فالإنسان مخلوق أصلا على الخطأ، وما جاءت المسيحية، وما صلب المسيح إلا ليخلص البشرية من لعنتها 2 !! ولا يخفى ما لأثر هذه العقيدة من تبعات الزهد والرهبانية المبتدعة، مما ينتج القنوط والعصيان والتمرد على العقيدة ذاتها .

أما عن العقيدة اليهودية فالأمر أدهى، حيث تكثر الخطايا، التي يبررها اليهود بالطبيعة البشرية الضعيفة، والسنن المعقدة، فلا مفر من الوقوع في الخطايا، ففي كل شهوة خطيئة، والخطيئة تدنس المخطئ...والحيض والولادة كالخطيئة يدنسان المرأة، ويتطلب ذلك تطهيرا ذا مراسم وتقاليد وتضحية وصلاة على يد الكهنة، والهبات والقرابين هي الوسيلة للتكفير عن الخطايا، تقدم للكهنة بعد الإعتراف الكامل بما ارتكب الإنسان من إثم، ولهذا فالخطيئة هي الفكرة الأساسية في الدين اليهودي، والتوبة منها هي الشغل الشاغل للتشريعات اليهودية ...3

1 – ينظر زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص274- 275 .

2 – ينظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، ط1، عمان : دار المسيرة، 1428ه، 2008م، ص 322-323 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص205 .

ويشكل الحزن والألم* أول الحقائق المقدسة للعقيدة البوذية، وتكمن أسبابه في ثانيها **، وفي الثالثة يكون القضاء على الآلام والأحزان، بإماتة الشهوات والقضاء على الرغبات واجتناب الحاجات الزائدة، والسعي في قطع العلاقات الدنيوية، واختيار العزلة التامة...وصولا إلى الغبطة الأزلية (النيرفانا)***؛ حيث لا وجود للشهوة والجهل والوقت والألم... وبهذا حاق الوهم والخيال بالبوذية، وتضاءلت شيئا فشيئا، وقاست البشرية الآلام ولم يتحمل (بوذا) رؤية ما تقاسيه البشرية، فارتد إلى الغابات باحثا عن مهرب من الألم 1 . ففي البوذية معترك شديد لنضال من نوع عجيب بين نوازع النفس والجسم .. !

وأما الحالة التي تتخطى فيها العقائد مرحلة التفاؤل فتلك نراها في عقائد الشيوعيين الماركسيين حيث كفروا بالله والدين والملكية الخاصة، فأنكروا الآخرة، ورأوا أن الثواب والعقاب يتمان في الحياة الدنيا وزعموا أن الأخلاق انعكاس لآلة الإنتاج، وتصوروا أن مجرد إلغاء الملكية الفردية، وأن انتشار التعليم سيحيل الناس إلى فضلاء حسني السلوك...وذاك هو الوهم بعينه 2 . وفي كل ذلك يظهر أثر الدين والمعتقد وصبغته لحياة الناس، وحال البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان، وأنّى وجد، لا يخلو من عقيدة أبدا... وقد ظهرت المعتقدات الدينية منذ أن دب الإنسان على الأرض، ومما أتاحته الا كتشافات الأثرية أن المعتقدات هي الأقدم لدى الإنسان، ومما دل على ذلك عملية دفن الموتى، وكذا المغاور والكهوف لإنسان ما قبل التاريخ وقد مر بنا هذا .

وفي بلاد النهرين أين اخترع الإنسان الكتابة في حدود سنة (3000 قبل الميلاد) وصل عدد ضخم من النصوص التي تحدثنا عن معتقدات هذه الشعوب وممارساتها الدينية...كما شهد على ذلك بقايا المعابد والهياكل والزقورات **** وأماكن التضحية وتقديم القرابين، والتماثيل الرمزية، وتماثيل الآلهة

---

* – الحقيقة الأولى لرسالة بوذا؛ هي أن الدنيا ليست سوى ألم، فالولادة والمرض والشيخوخة والموت تسبب الآلام (ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، تر: أنطوان الهاشم، بيروت: عويدات للنشر والطباعة 2009م، ص68).

** – الحقيقة الثانية؛ هي أن آلام الإنسان ناتجة عن تعلقه بالحياة، وعن شهوته التي لا تُشبع للتمتع بالسعادة .

***– النيرفانا : حالة تبلغ عند التفلت من دورة التقمصات، فينتفي الشعور بالشهوة والألم، وذلك حسب الديانة البوذية (ينظر موسوعة الديانات، مصدر سابق، ص68) .

1 – ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، تر: أنطوان الهاشم، بيروت : عويدات للنشر والطباعة ، 2009م، ص68- 69، وينظر زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص275

2 – ينظر زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص275 .

**** – الزقورات : جمع (زقورة) أو (زكورة) أبراج مؤلفة من عدة طبقات، تحتوي جميعها سلم ضخم يرمز إلى دورها وهو إيجاد رابطة بين الأرض والسماء، وفي أعلى الزقورة مصلى يحتوي على تمثال لإله، يعود تاريخ أقدم الزقورات إلى الألف الثاني قبل الميلاد، وهي تبنى عادة بالآجر...

وعادات الدفن، من ذلك تمثال (جيرمو Jarmo)...ففي بلاد ما بين النهرين آلهة كثيرة العدد، يلعب كل منها دورا في تنظيم الكون؛ إله السماء آن (أو آنو)، وإنليل؛ سيد الريح، وإنكي (أو إيا) إله الماء، وتحاط هذه الآلهة الثلاثة الأهم بكثير من الآلهة الأخرى... 1

وهناك أين اكتشف أثر شاتال هييوك (Catal Huyuk) الذي يعود للألف السابع أو السادس قبل الميلاد، استولت (عشتار) بالتدريج على وظائف كثيرة للإلهات السابقات، وأصبح اسمها مرادفا للفظ (الإلهة) في حين أنها كانت هي نفسها راعية الحرب والحب، وقد كانت العبادة الشعبية في جميع أنحاء البلاد بوصفها إلهة الحب، وكان معبدها الرئيسي في نينوى ...2

وتلك الآثار الباقية التي تحكي حياة المصريين قام على أساس التدين والاعتقاد، فلولا انبعاث الاعتقاد في النفس ما قامت تلك الأهرام التي يعود أولها إلى حدود سنة (2600 قبل الميلاد)، ولا نصبت تلك الأحجار ولا شيدت هاتيك التماثيل التي لا تزال تسترعي الأنظار ...ولولا الاعتقاد المستكن في النفس بحياة الأرواح ووجودها في غلاف من الجسم لا يبلى لسنين، ما اخترعوا تحنيط * الأجسام ...3 وتبع ذلك اعتقاد المصريين القدامى بالحساب الأخروي، وقد تأثرت ديانات الشرق القديم بعضها ببعض، سواء كانت في بلاد ما بين النهرين (نهري دجلة والفرات) أو في مصر أو في بلاد فارس (إيران)4 .

وهناك روايات عديدة تركها اليونانيون القدامى، تصف الآلهة التي عبدوها، وكان اليونانيون بغية تسبيحها، يجتمعون في معابد واسعة (كمعبد دلفي القرن 6ق.م) حيث كانوا يحتفلون بأعيادهم الكبرى (كأعياد أثينا)...كما كانت ديانة الرومان التقليدية تتمحور في البدء، حول العائلة وعبادة الأقدمين، وعدَّد الرومان أربابهم بتعدد مظاهر الطبيعة كما اعتقد اليونان من قبل، وأقام الرومان بعد

---

1 – ينظر جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مصدر سابق، ص11، وينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص12 .

2 – ينظر جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مصدر سابق، ص11، 15 .

* – التحنيط : وحاصل نشأة فكرة التحنيط، هو أن النفس لا تعيش إلا إذا كان الجسم سليما، ليكون صالحا لعودة الروح إليه بعد موته، حيث تبقي المومياء على هيئة عجيبة من التماسك ولا تتحلل، وأما عملية التحنيط فهي (يفرغ جسد المتوفى من أمعائه وينقع مدة 40 يوما في ملح، يجفف، ثم يحشو الكاهن الجسد المحنط بصموغ وأعشاب عطرة، ثم يلف الجسد المدلوك بالزيوت والمراهم بكفن كبير ويقمط بعصابات من كتان فيما الكاهن يتلو صلوات..أما الوجه فيخضب ويجهز أحيانا بعينين خزفيتين تضفيان عليه مظهرا حيويا..) .

3 – محمد أبو زهرة، محاضرات في مقارنات الأديان (الديانات القديمة)، ط3،، القاهرة : دار الفكر العربي، 1381ه، 1961م، ص5 .

4 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص13 .

سيطرهم على اليونان، تطابقا بين آلهتهم وآلهة الإغريق، وأهم آلهة الرومان جوبيتور (زوس)، جونو (هيرا)، نبتون (بوسيدون)، فينوس (أفروديت) ...1

ولن يتم الحديث عن عقائد القدامى ومعبوداهم، (ففي الأناضول، وهي منطقة من آسيا (تدعى اليوم تركيا)، اتسعت مملكة الحيثيين بين (1650- 1200 قبل الميلاد)، حيث عبد الحوثيون عدة آلهة، وخاصة الإله المحارب، ومن أهم معبوداهم أيضا هي (أرينا) إلهة الشمس التي تهيمن على سائر الآلهة، وعثر في (هتوسا) العاصمة على أكثر من 30 هيكلا، ونظمت العبادة حول قصر الملك، ذلك أن الملوك هم أيضا كهنة ...)2

وتركت شعوب (المايا والآزتيك والإنكا) – التي اختفت في القرن السادس عشرم- في أميركا الوسطى وأمريكا الجنوبية، الكثير من المراكز الدينية التي تشير إلى أهمية دور الديانة عند هذه الشعوب، وقد كان لتقاليدها ومعتقداتها ميزات مشتركة، فهي تعظم وتمجد قوى الطبيعة الأساسية من شمس وقمر ومطر ورعد، ولكنهم يولون أهمية كبرى لعبادة الشمس، وللكهنة نفوذ ودور مهم، وذلك لمعارفهم (الرياضيات، التنجيم، وعلم الفلك والطب)، وينظمون احتفالاتهم في هياكل * منتصبة في الحواضر، واستمرار النفس بعد الموت معتقد مشترك عند هذه الشعوب التي تخاف موتاها وتحترمهم، ومن آلهتهم هونابكو، كويتزالكوتل...3

وتعد عقيدة اليوم الآخر عقيدة تجتمع عليها جلّ الديانات، وذلك لأصالة هذه العقيدة منذ نشأة الإنسان، فـــ(المصريون هم أول الشعوب التي اعتقدت بخلود النفس، وقد عثر على نقوش مدونة على الأهرامات؛ "أن النفس خالدة لا تموت"، وما أحرق البرهمية في الهند أجسام أكابرهم بعد الموت إلا لتعلو أرواحهم إلى أعلى كما تعلو النار في اشتعالها إلى أعلى باتجاه عمودي إلى الملكوت الأعلى في أقرب زمن، وبالاحتراق تتخلص الروح من الجسم وتسمو4 .

وتظهر عقيدة اليوم الآخر عند الإغريق القدامى في أوديسية (هوميروس)، وتطور مفهوم اليوم الآخر عند الإغريق حتى جاء في قصيدتهم الأولمبية "سيجد العظماء في الأرض قاضيا في الجحيم،

---

1 -ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق ، ص20، ص24 – 25 ، و ينظر محمد أبو زهرة، محاضرات في مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص112- 114 .

2 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص13 .

* – هيكل : بناء ديني مخصص لعبادة إله .

3 – ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص28 -29 .

4 – ينظر يسر مبيض، اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، ط 1، الدوحة : دار الثقافة، 1412ه، 1992م، ص29، 35، 41، 43، 47 .

فالذين ارتكبوا منهم أعمالا محرمة تحاكمهم الآلهة أنانكي"...وعبر شاعر الرومان (فرجيل) في ملحمته (الإلياذه) عن نظرة الرومان إلى العالم الآخر.. وتوجب الديانة الزرادشتية الإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور والحساب والجنة والنار..أما الغفران في الحساب فلا وجود له البتة لأنه مؤسس على العدل لا على الرحمة، واعتقد الصابئة المندائيون أن الموت انتقال من العالم المادي (سجن) إلى العالم الروحي لتخلد هناك وتحاسب حسابا عسيرا، فتذهب الروح إما إلى عالم الأنوار أو إلى عالم الظلام (المطراثة))1 .

كل ذلك مما يسفر أن فكرة الإيمان باليوم الآخر والثواب والعقاب كانت سائدة قبل آلاف السنين قبل الميلاد؛ منذ بداية التاريخ ونشأة الإنسان، مما يؤكد أصالتها وانسجامها مع الفطرة السليمة والعدل الإلهي، ثم هي بقية من دعوة الأنبياء، وهي عقيدة تجمع الديانات السماوية على الإيمان بها2.

فإن كان للدين بنية، فالمؤكد أن المعتقد هو عتبة هذا البناء، وهو مركز الظاهرة الدينية وجوهرها، والشرائع والأخلاقيات الدينية إنما تصاغ انطلاقا من إيمان ما وتصورات كونية دينية معينة، والطقوس الدينية تقوم على المعتقد الذي يعطيها المعنى والدلالة، ولأجل توضيح المعتقد وترسيخه جاءت النصوص، ونسجت الأساطير وحيكت..3

وخلاصة فقد كادت العقائد أن تكون أوسمة الأديان المعلقة، فلئن ذكر (التثليث، أو الصلب والفداء) فأغلب الظن يذهب إلى ديانة (النصرانية)، ودون أن ننسى أهمية (يهوه) في العقيدة اليهودية، فإن وحدة الوجود إشارة للهندوسية، أما إن ذكر التوحيد فلا يختلف اثنان أن ذلك وسام الإسلام ... وهو اعتقاد العبد، وإيمانه بتفرد الله بصفات الكمال وإفراده بأنواع العبادة .

فالمعتقدات تشكل مجموع القضايا النظرية التي يؤمن بها الإنسان، من دون أدنى شك أو ريب فيها، فهي تشكل عصارة نظرة الإنسان لذاته وللكون، وتحدد نظرته، وفهمه لموقعه في هذا الوجود، وهي صورة ذهنية لصلته بعالم المقدسات .

ثانيا – المقدسات : وهي الموجودات والأمور المطهرة أو المنزهة عما لا يليق بها من النقائص، وهي التي ينظر إليها الإنسان بشيء من الإجلال والرهبة، ولكل دين من الأديان مقدساته الخاصة به من معابد وكتب تشتمل على تعاليمه، فضلا عن الموجود الأعلى أو الإله وما دونه من الموجودات، التي يتوجه إليها أصحاب كل دين إما بالعبادة والطاعة، أو الإجلال والإحترام4 .

1 – ينظر يسر مبيض، اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، ص29، 35، 41، 43، 47 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص46 .

3 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص110 .

4 – محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص27 .

فما من دين لا يحيا فيه المقدس، فالمقدس من الدين هو عروته الوثقى، ويشير (رودلوف أوتو) في كتابه (فكرة القدسي) إلى مكانة المقدس من الأديان بقوله: "...ما من دين خليق باسمه من دونه، إنه طاقة تنبض حياة في الأديان السامية على نحو منيف، وليس له من زخم في أي منها يماثل زخمه...(القادوش) في العبرية، ويقابله في اليونانية لفظ (ιερός)، وفي اللاتينية (sanctus)، وبنحو أشد دقة أيضا (sancer) ...وحملت هذه الألفاظ في اللغات الثلاث في طياتها معنى الجودة، والصلاح المطلق ..." 1 . وقد رأى (أوتو) أن معنى المقدس أو القدسي، يشير إلى معنى الألوهية و(الإلهي)، المتصف بالرهبة والغيرية التامة، وهو أجلُّ وأرفع وأسمى..ما يمكن أن يفكر فيه المرء2 .

وهذا المقدس يشير إلى السمات الثقافية أو مظاهر الثقافة التي تعبر على نحو رمزي عن قيم ثقافية ذات أهمية خاصة، بحيث تثير اعتبارات الإحترام أو الرهبة الشديدة، وقد تكون السمات الثقافية المقدسة مادية أو غير مادية، وهذه توصف بأنها موضوعات مقدسة، كالصليب المسيحي مثلا، ودستور بوذا، أو البقرة الهندية المقدسة، كما أن السمات المقدسة اللامادية تنطوي على الكائنات الخارقة للطبيعة، والمعتقدات ...3

ورأى (جاكوم ووش) joachim wach4 أن أول عنصر في التجربة الدينية، هو الإلتفات إلى المقدس، ذلك أنها لا تكون ذاتية فحسب بل تتصل بالحقيقة العليا، ولعله الأمر الذي عزى بـــ(دوركايم) لأن يصنف كل الظواهر في المجتمع إلى نوعين، أولهما يتمثل في المقدس (sacred) والثاني يتمثل في المدنس (profane)، وأول خصائص المقدس عنده توافر القوة فيه 5، والمقدس لديه (sacr) يعني الأشياء التي يحددها الإنسان ويعزلها عن غيرها، نظرا لطبيعتها الخاصة مثل المعتقدات الدينية والطقوس والمعبودات، ويكتسب المقدس أهميته من خلال تمييزه عما هو دنيوي أو دنس (profane) بمعنى أن "المقدس هو ذلك الذي يستحيل المساس به، لما يتميز به من حصانة خاصة" 6. خاصة"6. في حين رأى البعض أن المقدس ينحصر فيما هو "ديني أو روحاني أو إلهي أو كنسي" 1 .

.

---

1 - رودلوف أوتو، فكرة القدسي، مصدر سابق، ص28 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص35- 64 .

3 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص226 .

4 - جاكوم ووش (Joachim Ernst Adolphe Felix Wach (1898-1955م) كان عالما دينيا ألمانيا، أكد على التمييز بين تاريخ الأديان وفلسفة الأديان، من مؤلفاته : (سوسيولوجيا الدين) 1947م، (أنواع الخبرة الدينية المسيحية وغير المسيحية)1951م، (دراسة مقارنة بين الأديان)، (مقدمة لتاريخ الأديان)...

5 - منال عبد المنعم، التصوف في مصر والمغرب، الإسكندرية : منشأ المعارف، ص85 .

6- Emile Durkheim : les Formes elementaires de la vie religieuse, p51-52

ويرتبط معنى المقدس بصفة الخضوع لقوة قاهرة، إلا أن خضوع المتدين لمعبوده ليس خضوعا يخلق اليأس، ويكبت النفس، ويغل الجهد، أو يحد مجال العمل، ويسد باب الأمل، بل هو شعور يضع عن النفس الأثقال، ويحطم ما حولها من الأغلال...فإذا اشتدت الأزمات أمام المتدين تراءى له من خلالها أبواب ومخارج ليس دون انفراجها إلا أن يأذن له معبوده، ولذلك إذا رأيته في توجهه إلى هذا المعبود رأيته مقسم القلب أبدا بين الرغبة والرهبة، موزع الأمل بين الشك واليقين، لأن القوة التي يتوجه إليها بالعبادة هي في نظره أعز مثالا، وأعظم استقلالا، من أن تخضع لغير إرادتها نفسها، تلك الإرادة التي لا يعرف هو قانونها بل يقف حائرا أمام أسرارها2 .

وقد نظر (مرسيا إلياد) إلى المقدس على أنه واقع غامض، يتعالى عن هذه الحياة الدنيا، ولكنه يتجلى فيها، يقدسه المتدين ويعتبره واقعيا، حين يؤمن بأن للحياة أصلا مقدسا 3، نلمس ذلك في قوله: "...إننا لا نصل إلى نواة لا ترضخ لأي مسعى من مساعي البحث الإنساني، وهي تؤلف العامل الأعظم في تركيب الإنسان الديني، العامل المميز لنوعيته وهو يربطها بشيء متعال؛ المقدس، وهو الواقع الذي لا ينال، والذي يدرك موضوعيا في تعدد العقائد والعبادات"4 .

وبهذا رأى كثيرون أن الحديث عن المقدس هو الحديث عن شيء يبدو متجاوزا للإنسان، ومنظورا إليه على أساس أنه واقعة متعالية، وهو إن تجلى عبر مفاهيم وأساطير ورموز.. إلا أنها ليست سوى تمثلات إنسانية لواقعة تبقى في ذاتها خلف ستار خفي..فالمقدس هو تعبير عن علاقة، وكل معرفة بالمقدس هي تجربة مع قوة متعالية" 5 . إلا أن في الأديان كثيرا من الأمور التي تحاط بالتقديس من ذلك على سبيل المثال : الألوهية، النصوص المقدسة، أماكن وأزمنة معينة ...

ويميز لنا (عبد الله دراز) التقديس الديني للألوهية عن غيره من أنواع التقديس، ذلك أن المتدين يهدف بتقديسه إلى حقيقة خارجة عن نطاق الأذهان، وإن كانت تعبر عنها الأذهان فإنها تشير إلى ذات مستقلة، قائمة بنفسها، ليست مجرد عرض من الأعراض أو لقب من الألقاب، حيث أن الصلة بين المقدس عند المتدينين هي قبل كل شيء صلة بين ذات وذات، لا بين ذات وفكرة مجردة، أو تجريدية كما التقديس لمعنى الشرف والعرض والحرية، أو الخضوع للسنن الكونية، ثم إن هذا التقديس

---

1 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص226 .

2 - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص50 .

3 - ينظر مرسيا إلياد، المقدس والعادي، تر : عادل العوا، بيروت : دار التنوير، 2009م، ص228 .

4 - المصدر نفسه، ص22 .

5 - ينظر ميشال مسلان، علم الأديان (مساهمة في التأسيس)، تر: عز الدين عناية، ط 1، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1430ه، 2009م، ص13 -14 .

الديني ليس تقديسا لذات أيا كانت، وإنما هو تقديس لذات لها صفات خاصة، وأهم مميزاتها أنها ليست مما يقع عليه حس المتدين، ولا مما يدخل في دائرة مشاهداته، وإنما هي شيء غيبي لا يدركه إلا بعقله ووجدانه، فالفاصل الثاني الذي تتميز به العقيدة الدينية بمختلف أنواعها هو أن لها خاصية الإيمان بالغيب، أي بما وراء الطبيعة1 .

ثم إن هذا الغيب الذي تؤمن الأديان بوجوده من وراء الطبيعة ليس من جنس هذه الطبيعة المادية المنفعلة، بل هو شيء ذو قوة فعالة مؤثرة، وله أسلوب في تصرفاته مباين للطرائق التي تؤثر بها المادة فيما حولها، إذ إن هذه المواد يصدر عنها أثرها دون شعور منها، ولا اختيار لها في صدوره، أما القوة التي يخضع لها المتدين فإنه يفهمها على أنها قوة عاقلة تقصد ما تفعل، وتتصرف بمحض إرادتها ومشيئتها2، وكذلك فإن هذه القوة العاقلة المدبّرة في نظر المتدين ليست قوة منطوية على نفسها، منعزلة عنه وعن العالم، بل يرى أن لها اتصالا معنويا به وبالناس، تسمع نجواهم وتصغى لشكواهم، وتعني بآلامهم وآمالهم، وتستطيع إن شاءت أن تكشف عنهم ما يدعونها إليه 3، فالإيمان بالغيب والتقديس للحقيقة العليا، هو الركن الركين في التجربة الدينية .

ومن أهم ما يقدس في الأديان كتبها ونصوصها، ومن ذلك (التلمود) و(العهد القديم) لليهود و(العهد الجديد) للنصارى، وفي القديم عُدَّ (كتاب الموتى) من أجلّ الكتب المقدسة عند قدماء المصريين لاعتقاد كتابته من أحد الآلهة بيده، ولاحتوائه على ما تلقن به الروح للإجابة أمام محكمة الحساب، وللهنودوسيه كتب مقدسة عدة : أولها (الفيدا)، ومنها: (البران) و(المهابهارت)..ومما ترويه الفيدا بدايات العالم، وحياة الآلهة، وتعلم الصلوات والطقوس، وهناك ثلاثة كتب مقدسة في الشنتوية أعظمها الكتاب الأول (كوجيكي)...4

ومما يقدس في الأديان أيضا رموزها، وهي رموز لمعتقدات أو أجزاء أو بقايا من أمور أو أشياء مقدسة، وهي ترتبط بعقائد يجلها أهل الأديان، وهي كثيرة كالمنارة عند اليهود مقدسة، باعتبارها (الشمعدان السباعي) المذهّب، الذي كان يتلألأ في هيكل سليمان، وقد نقله الرومان بعد تدمير الهيكل عام 70 للميلاد، فهي رمز الهيكل المدمر عندهم 5، وكذلك تقدس (الخزانة المقدسة) في

---

1 - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص41 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص41 .

3 - المصدر نفسه، ص42 .

4 - ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص 17، وينظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص106، 418، 476 .

5 - موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص35 .

الكنيس* ويشتعل أمامها مصباح أزلي لاحتوائها لفائف التوراة 1 ... ومثل ذلك مقام الصليب في المسيحية، فهو شعار المسيحية المقدس؛ ففي حمله دلالة على اتباع المسيح، والاستهانة بالحياة والاستعداد للموت، وإلى جانب الصليب نجد المسح بدهن الميرون المقدس **؛ تشبُّها بدهن الحنوط والطيب الذي دهن به المسيح عند دفنه، والذي يعني حلول الروح القدس في المسيحي الذي نال نعمة المعمودية2 .

ويقدس أتباع البوذية (مهايانا)*** ذخائر (بوذا) التي تقوسمت بعد موته (العظام، الشعر والأسنان) وشادوا المباني (الأسطبات) **** ليحتفظوا بها، وإلى جانب الذخائر تحوي الأسطبة رماد الناس الحكماء، والنصوص المقدسة...3

كما في الأديان هناك أماكن وأراضي مقدسة تُشَدُّ إليها الرحال وتهفو إليها القلوب؛ فالحرم المكي (بيت الله الحرام)؛ قبلة المسلمين في صلاتهم ومهوى أفئدتهم ومقصدهم أيام الحج، ويليه في التعظيم المسجد النبوي بالمدينة المنورة، ثم المسجد الأقصى ببيت المقدس قبلة المسلمين الأولى . وبالنسبة للمسلمين أيضا؛ فإن المسجد الأقصى بفلسطين، هو معبد عتيق قديم قدم عهود الأنبياء من لدن (إبراهيم عليه السلام) إلى (محمد صلى الله عليه وسلم)، فإليه تشد الرحال وتضاعف الصلوات فيدخل فيه على ذلك مسجد الصخرة...وللصخرة تاريخ عتيق؛ إذ كان أول من صلى عندها آدم عليه السلام، وعندها اتخذ (إبراهيم عليه السلام) معبدا ومذبحا، وأقام يعقوب عليه السلام مسجده

---

* – الكنيس : من اليونانية (سيناغوغ)، وهو مكان اجتماع الطائفة اليهودية للصلاة والدراسة، وهو موجه نحو مدينة القدس حيث كان الهيكل قبل تهديمه .

1 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص37 .

** – دهن الميرون : كلمة يونانية، تكررت في الكتاب المقدس بعهده، معناها (زيت الطيب) أو العطر ويطلق على سر المسحة المقدسة، كما تطلق على الزيت المقدس نفسه الذي يمارس الدهن به في هذا السر مع وضع اليد والميرون حل محل وضع يد الرسل والأساقفة على المؤمنين لنوال موهبة الروح القس، يصنع من زيوت معينة تخلط بالأطياب التي يضن أنها قدمت عند دفن المسيح .

2 – ينظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص343- 344 .

*** – البوذية مهايانا : تيار بوذي يعني (المركبة الكبيرة)، يتبعه 60 بالمئة من البوذيين، في (كوريا، اليابان، وكذلك النيفال ومنغوليا وفيتنام)، جعلوا من بوذا إلها ...

**** – الأسطبات : جمع (أسطبة) مبنى مقدس للبوذيين، يحتفظ فيه بذخائر بوذا، وكذا النصوص البوذية المقدسة، وأيضا رماد حكمائهم.، تحتوي عادة على قبة، وعلى ما جاء في الأسطورة يكون بوذا نفسه هو الذي حدد شكل الأسطبة، يأتيها المؤمنون لتقديم القرابين ..

3 – ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص71 .

بعد أن رأى عمودا من النور فوقها، وعندها نصب (يوشع بن نون عليه السلام) قبة الزمان أو خيمة الاجتماع التي صنعها (موسى عليه السلام) في أرض التيه ليتلقى فيها الوحي، وهي التي بنى فيها (داود عليه السلام) محرابه، وشيد (سليمان عليه السلام) عندها المعبد العظيم المنسوب إليه، والذي أقامه لعبادة الله وتوحيده..تلك الصخرة التي عرج من فوقها بالنبي (محمد صلى الله عليه وسلم) إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج...1 فالقدس الشريف مدينة مقدسة في رأي المسلمين، وهي كذلك عند المسيحيين واليهود أيضا، فما يسمى بحائط المبكى (الحائط الغربي) يؤمه اليهود للصلاة، ويعدُّونه الأثر الباقي من الهيكل الذي بناه ملك اليهود (هيرودس) 2، وفي عين المكان الصخرة التي تمت عليها — حسب التوراة– تضحية (إبراهيم عليه السلام)، والقدس مدينة مقدسة في معتقد المسيحيين أيضا، لأن المسيح قد صلب في هذا المكان ووضع في القبر وقام)3 .

وفي الهندوسية يؤم ملايين الحجاج (نهر الغانج) ليستحموا فيه، فهو نهر مقدس، لاعتقاد الهندوس أن (أمنا الغانج) قد أرسلها الإله (برهما) إلى الأرض، فقد يكون منبع الغانج من إبهام رجل الإله (فيشنو) أو من شعر (شيفا)، ويمر في مسيره عبر مدن مقدسة... وأما السيخ فإنهم يحجون إلى (أمريتسار) وإلى المعبد الذهبي، ثم مدينة (نانكا) مكان ولادة المؤسس الأول (ناناك).. 4وفي البوذية أشياء عدة ترمز إلى تقديس (بوذا) منها (أثر قدمي بوذا) وقد حفرت مع نصوص مقدسة، وكذا (الدولاب) رمز الحياة والكون، وكذا (زهرة اللوتس) التي ترمز إلى الطهارة، وهناك (الفيل الأبيض) الذي حملت به أم بوذا قبل ولادته 5... **وبهذا فإن المقدس تأتي قيمته من تعلقه بالمعتقد، ومنه يستمد سلطانه على النفوس، فالمقدس من الموضوعات ما كان مصدره اعتقاد راسخ، وغاية ما يعتقد به هو الإله، ولذلك عادة ما كان يعبر عن المقدس بالإلهي أو الديني .**

---

1 – سامي عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، ط 6، الرياض : مكتبة العبيكان، 1426ه، 2005م، ص121 .

2 – هيرودس الأول : (73- 4 قبل الميلاد) ملك اليهودية والسامرة، وحاكم أبطورية وطراخونيطس وبيريه والجليل، كان مقره في مدينة القدس(أورشليم)، وقد اشتهر بمشاريع البناء الفاخرة التي بادرها فيها، ومنها معبد القدس الكبير المسمى(هيكل سليمان)..

3 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص53 .

4 – ينظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص408 ، 511 .

5 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص69 .

المطلب الثاني : العبادات (الشعائر الدينية)

والمقصود بها كل ما يقوم به المؤمنون من ممارسات وسلوكات في إطار معتقد أو دين، ففي كل الأديان يقوم المؤمنون بأعمال محددة، من عبادات، مناسك وفرائض، واحتفالات وأعياد مقدسة،...تنظم تبعا لقواعد معينة هي الطقوس، والشعائر... و(إذا كان المعتقد هو من يرسم صورا ذهنية واضحة وقوية التأثير للعوالم القدسية، إلا أن الأفكار وحدها لا تصنع دينا بالغا ما بلغ من وضوحها واتساقها، بل قد تشكل في أفضل أحوال اتساقها فلسفة، رغم عنايتها الكلية بالمسألة الدينية)1 .

فالعبادات والشعائر هي صورة الإيمان الظاهرة، كما تبدو لنا في سلوكنا إزاء مبادئ الدين وعقائده، وقد تقام هذه الشعائر داخل المساجد والكنائس والمعابد والصوامع والبيع...أو قد يقُم بها الفرد في منزله أو في مزرعته.. وبعض هذه العبادات يتحتم إقامتها جماعيا، ولأهمية الطقوس أو الشعائر فقد حلت محل الدين، كما أكدت ذلك الدراسات الأنثربولوجية، ولكن يقصد بها الأفعال الرمزية للمقدسات، وليس الدين ذاته، وأما (رادكليف براون) فقد جاء تعريفه للفعل الشعائري بأنه كل فعل رمزي له قيمة اجتماعية ذات أهمية خاصة 2. ويتفق معظم الكتّاب على أن الطقوس تعتبر مسألة فعل شيء ما، وأداء حركات وأنماط معينة من السلوكيات والمشاركة في هذه السلوكيات بصورة معينة، وتتصف الطقوس عادة بالأداء والتكرار...3 .

وأما العبادة داخل النسق الديني الشامل في المجتمع، فقد عرفها الأنثربولوجيون بأنها "بناء من المعتقدات والممارسات المتعلقة بالإله، أو بعدة آلهة" 4 أو أنها (تقديم التكريم والإحترام لإله أو عدة آلهة، وتتضمن ما يعبر به عن هذا التكريم من احتفالات وصلوات..) 5. فالخبرة الدينية المباشرة تولد حالة إنفعالية، قد تصل في شدتها حدا يستدعي القيام بسلوك ما، وإلا لبقيت المعتقدات والمقدسات صورا ذهنية باردة تعيش في عقول أتباع هذه الفلسفة لا في قلوبهم، لتتحول من الفلسفة إلى الدين، حين يدفع المعتقد إلى سلوك وإلى فعل، من التأمل إلى الحركة، ومن التفكير في المقدس إلى التقرب منه واسترضائه... فإذا كان المعتقد حالة ذهنية، فإن الطقس حالة فعل من شأنها إحداث رابطة، وأسلوب

---

1 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص52 .

2 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص204 ، 218 .

3 - مالوري ناي، الدين الأسس، مصدر سابق، ص213 .

4 - ينظر زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص199 .

5 - ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص6،7 .

للتعامل مع عالم المقدسات والاتصال الدائم معه 1. ومن هنا تبرز حاجة المعتقدات للسلوكات والشعائر .

ومن جهة أخرى فإذا كان الدين يبعث القوى في الإنسان، وينظم سلوكه، فمن المنطقي أن ذلك يكون عن طريق ممارسات أو تمارين، تكرر على الدوام ليستمد منها القوة وقت الحاجة، وعلى هذا فلا يكن ثمة دين ما لم تكن طقوس واحتفالات تقوي باطن المتدين وظاهر سلوكه، ومع كون الطقوس والمراسم تنبع من الاعتقاد الديني فهي أيضا مؤثرة فيه وعليه من الناحية الأخرى، فالمرء لا يكون متدينا إلا إذا كان سلوكه خاضعا بصورة أو بأخرى للخوف من الله أو لحب الله، أما من ينبع سلوكه من حبه للناس أو خشيتهم، فيعتبر شخصا أخلاقيا أو لا أخلاقيا تبعا لاتفاق سلوكه مع (الخير العام) أو تعارضه معه، من هنا كان الإيمان والممارسة على درجة متماثلة من الأهمية بالنسبة للدين، إذ لا يمكن أن يقوم الدين بدونهما معا، وتكون الطقوس والشعائر إذا مرآة تنعكس عليها مدركات ومفاهيم الأفراد والجماعة أيضا تجاه النظام الكوني الكلي، وهي تفصح أيضا عن منهج وطريقة تعاملهم مع ما هو فوق الطبيعة، ولا شك أن ذلك ينعكس على معايير وأنماط السلوك، لذلك لا غنى للدين عن المظهر الاجتماعي، يوثق به الأفراد أواصرهم مع القوة الوجودية العليا، ومع بعضهم البعض بشعور الانتماء والارتباط2.

فالشعائر تشكل مستوى الممارسة في جانب الدين، وبدونها لا يمكن أن يشكل ظاهرة اجتماعية، ومستوى الممارسات سواء الفردية أو الجماعية، هو الجزء المادي من الدين والمظهر الخارجي له، كما أن له من الأهمية ما جعل (أليكس دي توكفيل)3(de tocqueville) يجزم قائلا : "إنني لا أتصور مطلقا أنه من الممكن الحفاظ على وجود الدين دون ممارسة خارجية" ذلك أن (العقيدة التي لا تدور حولها أي شعائر أو طقوس تموت لأنها تكون وحيدة منعزلة، ومن ناحية أخرى فإن الشعائر والطقوس المجردة من كل إعتقاد ديني، ليست من الدين في شيئ، وفي ذلك تنويها بأهميها)4 .

---

1 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص52-53 .

2 - منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص84 .

3 - أليكس دي توكفيل : (Alexis de Tocqueville) (1805- 1859م) هو مؤرخ ومنظر سياسي فرنسي، اهتم بالسياسة في بعدها التاريخي، أشهر آثاره: (في الديمقراطية الأمريكية) (1835 - 1840 م)، و(النظام القديم والثورة) (1856 م) . (منير البعلبكي، معجم أعلام المورد، ط1، بيروت : دار العلم للملايين، ص147) .

4 - جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص174 .

والغالب هو أن الهدف الأسمى من الطقوس الدينية هو التخلص من الشرور التي لا ترضي الكائنات المقدسة، والتي هي أساس النجاسة والدناسة، والوسيلة إلى ذلك هي التطهر (Durification) والتكفير عن الخطيئة والاعتراف، وتختلف الأديان في تحديد الطقوس أو الشعائر المؤدية إلى تحقيق هذا الهدف، فقد يتم التطهير — على سبيل المثال-بطقوس دينية مثل الحج إلى الأماكن المقدسة...أو بطقوس سحرية بطرد الأرواح الشريرة من الأماكن المقدسة...أو بالتعميد أو التنصير(Baptism) عند المسيحيين...أو بالاغتسال والوضوء عند المسلمين أو بالإلتزام بالصدق والفضيلة لدى البراهمانيين المؤمنين بالديانة البوذية..على حين أن التكفير عن الخطيئة، قد يكون بالصوم أو بتقديم القرابين أو الهدي ...1 وفي الهندوسية مثلا عدة طقوس تطَهُّر تتوالى خلال النهار، حيث يمضمض الفم، ويرش الرأس بماء مقدس، ويرفق كل ذلك بالصلوات2 .

كما أن الغرض من العبادات تمثلها حقيقتان أولهما تنبيه الإنسان على الدوام، بأن العبادات تعني وجوده الروحي الذي ينبغي أن يشغله طيلة وقته بمطالب غير مطالبه الجسدية.. والحقيقة الثانية من العبادة المثلى التي تنبه إليها ضميره، هو الوجود الباقي إلى جنب وجوده الزائل المحدود في حياته الفردية3 .

ومن أمثلة الشعائر؛ تلك التي يمارسها البدائيون وهي أكثر الشعائر شيوعا في أكثر المجتمعات؛ الشعائر الخاصة بتقديم الأضاحي والقرابين * للأسلاف، وتنتشر هذه الشعائر في المجتمعات الإفريقية المتأخرة، ويتفق كل من (فريزر) و(دوركايم) على اعتبار هذه الشعائر جزءا من النظام الديني، ذلك أنها تتعلق بالكائنات الروحية حسب (فريزر)، بينما عدَّها (دوركايم) عملا دينيا مقدسا لأن الرئيس يقدمها باسم المجتمع المحلي كله وليس باسمه هو وحده 4. فبالنسبة للبدائيين فإن الطقوس والشعائر تعمل على أساس افتراض أن الكائنات العلوية — شأنها شأن الناس- يمكن أن تحرك للشفقة وتحتكم للعدالة، وتسر بالأضحيات والتقدمات، وإذا كانت ميالة إلى الحقد، فإنها تستعطف، وربما لهذا يكون

---

1 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص220

2 - موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، 64 .

3 - عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية (اليهودية — المسيحية- الإسلام)، ط 1، دمشق: الأوائل، 2001م، ص14 .

* - القرابين : (Offeings) القرابين هي كل ما يقدمه الإنسان في احتفال ديني أو مناسبة طقوسية على القوى الغيبية أو الأرواح أو الآلهة أو الإله...من أجل تحقيق مأرب، أو درء خطر أو شر، فإذا كان الشيء المقدم حيوانا سمي (أضحية أو هدايا) ..

4 - عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص69 .

أفضل تعريف للطقوس؛ بأنها طرق مرسومة لأداء تصرفات دينية؛ أي الصلوات وترنيم بعض الترانيم المقدسة، والرقص للآلهة وتقديم الأضحيات أو أعداد التقدمات1 .

ومن جهة أخرى فإن الاحتفال يتضمن عددا من الطقوس المتصلة بعضها ببعض والمترابطة والمؤداة في وقت معين، كما يمكن التمييز بين تلك الشعائر والاحتفالات التي تتمركز حول أزمات الحياة المتعلقة بالفرد، كالميلاد والتسمية، والبلوغ والزواج، والمرض والموت... وتسمى هذه غالبا بطقوس الانتقال من حالة إلى أخرى، وفي المقابل ثمة ما يسمى بطقوس التشديد (أو التقوية)، وهي التي تسم مناسبات أو أزمات في حياة المجتمع المحلي ككل، كالحاجة إلى المطر والاستعدادات للزراعة، والدفاع ضد وباء...كما قد توجد طقوس واحتفالات تخدم الوظيفتين معا 2 .

ومما لا شك فيه أن للشعائر والممارسات أهمية كبرى في فهم الدين، كما أنها قد تكون شفوية كالتسبيح في الإسلام وشعائر التلقين والأدعية... وغيرها، كما قد تكون جسدية كالاستحمام في مياه النهر المقدس عند الهنود، والوضوء في الإسلام وغيرها... 3 ولا شك أن إقامة الشعائر بصورة جماعية، تكون ذات آثار قوية على النفس، من الشعائر التي تقام بصورة فردية، وذلك لأن روح الجماعة ذات قوة لها صفة القهر والإجبار بالمعنى الاجتماعي، ولذلك لا تعتبر الشعائر (عرضا) بالنسبة للأديان، وإنما هي تعبير جوهري أصيل4 .

ومن هنا فإنه وإن كانت ركائز التدين مستقرة داخل الذات فإن نشاطات الإنسان تعبر عن الإلتزام أو عدم الإلتزام بها، بمعنى أن للتدين وجودا خارج شعور الأفراد كما أن له وجودا داخل ذواتهم 5، وعليه فإن الشعائر ليست مجرد جزء من الدين، وإنما تكوِّن الدين نفسه، فالدين بذلك يتكون من إنجاز وأداء هذه الشعائر، والاعتقاد الديني إنما يمثل الإيمان أو التصديق والاعتقاد في القيم، وهي فاعلية الشعائر والقيام بأدائها، وذكر (فاروق مصطفى) 6 أن الشعائر مجموعة من العادات التي تربط الأشخاص بالشيء المقدس، ويغلب عليها الطابع الديني، كما أنها تهدف للعمل على تقوية الروابط

---

1 - ينظر عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص437 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص437 .

3 - فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص183 .

4 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص204 .

5 - مهدي محمد القصاص، علم الإجتماع الديني، القاهرة : دار نيوز، 2014م، ص48 .

6 - فاروق محمد أحمد مصطفى : دكتور مصري، أستاذ بكلية الآداب جامعة الإسكندرية، له العديد من المؤلفات في مجال الأنتربولوجيا خصوصا المهتمة بالعادات والتقاليد بمصر من مؤلفاته : الموالد (دراسة للعادات والتقاليد الشعبية في مصر)، أخلاقيات الحرب في السيرة النبوية، الأنتربولوجيا الثقافية..

الاجتماعية من ناحية، وتساعد على التخلص من التوتر والإضطراب من الناحية الأخرى 1. فرغم أن الطقس يأتي كناتج لمعتقد معين فيعمل على خدمته، إلا أن الطقس نفسه ما يلبث حتى يعود إلى التأثير على المعتقد فيزيد من قوته وتماسكه، كما أن ما للطقس والشعائر من طابع جمعي فإنه يعمل على تغيير الحالة الذهنية والنفسية للأفراد ويعطيهم الإحساس بوحدة إيمانهم ومعتقداتهم، فالطقس رغم قيامه على مجموعة من الإجراءات المرتبة والمنسقة مسبقا، والتي تم القيام بها مرارا وتكرارا، إلا أنه يبدو جديدا كلما أكدت الجماعة على الأداء المشترك له2 .

فالدين إذ ذاك يرتكز على عنصرين – كما أشار إلى ذلك السير (جيمس فريز)- أحدهما نظري؛ وهو الإيمان بوجود قوى أعلى وأسمى من الإنسان، والآخر عملي، وهو محاولة استمالة هذه القوى وإرضائها، وإذا كان توافر العنصر الأول أسبق في الوجود حيث ينبني عليه الأساس الذي تنبعث منه الدوافع السلوكية، فإن العنصر الثاني ذو أهمية بالغة، فتوافر عنصر الإيمان النظري لا يعني وجود دين بل قد يعني مجرد وجود لاهوت (theology)، ومن المأثور في ذلك أن العقيدة التي لا تدور حولها أية شعائر وطقوس تموت، وكذلك الشعائر والطقوس المجردة من كل اعتقاد ديني لا تعتبر دينا 3، فالشعائر؛ أو الحقوق والواجبات هي الصلة بين المتدين والقوة التي يؤمن بها .

ومن أهم مظاهر الطقوس في الديانة المسيحية مثلا؛ طقوس (التعميد)؛ وهو مفتاح الدخول في النصرانية، ويتم وفق طقوس يقوم بها كاهن الكنيسة، حيث يتم تغطيس الطفل المولود حديثا في ماء تتلى عليه بعض التراتيل ليتحول إلى ماء مقدس، وبذلك يكتسب الطفل الصفة المسيحية 4 أو برش الماء على الجبهة، أو غمس أي جزء من الجسم، ومنهم من يعمد الشخص في أي وقت من حياته، أو على فراش الموت، ومرادهم بالتعميد أن يكون الإنسان طاهرا مبرءا من الذنوب 5، وكذلك خدمة الأحد الصباحية المؤداة في الكنائس البروتستانية مثلا، تمثل احتفالا قد يتضمن مثل تلك الشعائر، كتلاوة الصلاة الربانية، وترنيم ترانيم معينة، وأداء سر القربان المقدس (العشاء الرباني) *...وفريضتا

---

1 - منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص89 .

2 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص54 .

3 - منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص84 .

4 - ينظر محمد أحمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص340- 341 .

5 - سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مصدر سابق، ص270 .

* - العشاء الرباني : أو الإلهي (Holy Communion) شعيرة مسيحية يتناول فيها الخبز والخمر باعتبارهما جسد ودم المسيح، إحياء لذكرى موته، حسب اعتقاد النصارى، وكثيرا ما يعتبرونها مصدرا أو علامة على النعمة الإلهية (قاموس وبستر الجديد للطلبة)، وتعرف هذه الشعيرة أيضا باسم القربان المقدس(Eucharist) = (Divne Supper) ، ويراه البعض رمزا لما حل بالمسيح، أو أن المسيح يحضر روحيا لهذا العشاء .

(التعميد) و(العشاء الرباني) هما أهم شعائر النصارى باعتبار ورود الأمر-بزعمهم- عن المسيح بهما 1.

وإذا نظرنا إلى الدين الإسلامي فإن الطقوس والشعائر هي مجمل العبادة، أو مجموع العبادات المتمثلة في الإسلام من أقوال وأفعال، كالشهادتين، والصلاة والحج مثلا، وكما عرفها شيخ الإسلام (بن تيمية) : "العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة" 2، وأما عن منزلة العبادة من الدين، فيؤكد ابن تيمية أن مجموع الدين كله داخل في العبادة ..، بل إن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، والتي خلق الخلق لها، كما قال تعالى { **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** } (سورة الذاريات الآية 56)3، فالعبادة في الإسلام وكذا في الأديان السماوية لها شأن بين الفرائض والواجبات، ففيها يتبدى إقرار المرء إقرارا كاملا بقلبه ولسانه وجوارحه، كما يتأكد خضوعه خضوعا كاملا يطغى على كل خضوع لله الخالق الباقي من وراء كل وجود زائل... والعبادة هي المظهر الأساسي للاستجابة للدعوة الدينية، فلقد كانت الدعوة إلى عبادة الله، هي دعوة كل الأنبياء منذ شاء الله أن يبعث بالأنبياء والرسل إلى أن ختمت الرسالات بالنبوات بمحمد صلى الله عليه وسلم4. فالعبادة بهذا المعنى الواسع مفادها تحقيق معنى العبودية لله ظاهرا وباطنا .

ولكن بصفة خاصة فإن (مناسك الحج) إلى بيت الله الحرام مثلا، من أهم مظاهر الشعائر في الدين الإسلامي، والحج بهدف أن يعود الحاج طاهرا من كل دنس كيوم ولدته أمه، ويدخل في مناسك الحج الإحرام وما يتصل به من تجرد وتلبية والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، والإفاضة منها إلى مزدلفة ورمي الجمار والذبح ...إلخ 5هذا وقد عرف البشر الحج بمفهومه العام منذ القدم، إذ لم توجد أمة من الأمم أو ديانة عند الناس إلا وعندها أماكن مقدسة تشد إليها الرحال، والمرء غالبا ما يوجه أشواقه إلى ما يعتقد فيه القدسية، ووجوب الاحترام، ليشبع رغبته في التعظيم لتلك الأماكن، منميا حسّه الديني...6

وتعتبر عبادات الصلاة والصيام والحج من العبادات المشتركة بين الديانات السماوية، بل وجل الديانات المنتشرة في العالم، فالصلاة باعتبارها الشعور الديني العميق لارتباط الإنسان بمعبوده، لا يكاد يخلو منها دين، والاختلاف إنما يكون في الكيفية، ففي اليهودية مثلا ثلاثة فروض يومية للصلاة،

---

1 – سعود الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مصدر سابق، ص271 .

2 – ابن تيمية، العبودية، ط1، القاهرة : دار أضواء السلف المصرية، 1431ه، 2010م، ص47 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص47- 51 .

4 – زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص201 .

5 – ينظر المصدر نفسه، ص223 .

6 – عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية، مصدر سابق، ص114 .

صباحا وبعد الظهر ومساء، تتلى فيها عبارات دينية، ويلبس فيها شال الصلاة (Keepoy) رمز الوجود الإلهي، ويوضع على الجبهة ثلاث غلف من الجلد، تحتوي أربع مقاطع من التوراة هي رمز للتعلق بالله وبوصاياه1 .

والصلاة في البوذية عبارة عن تأملات عميقة في عالم الهيام اللاهوتي، تتم في المعبد؛ إذ ترتّل كلمات تنم عن التقديس والخشوع له، ويقيم البوذي صلاته في بيته منفردا أمام تمثال مصغر لبوذا، جلوسا 2. وفي الهندوسية تشارك الصلاة طقوس تقديم القرابين والنذور لآلهتهم وهيئتها إما وقوفا أو جلوسا أو يرتلون الأدعية الدينية3 .

والبارز من شعائر الهندوس أيضا الصيام، الذي عدوه تطهيرا لكل شيء ففرضوا صياما تقشفيا كالصمت والامتناع عن الأكل والشرب... 4 ويصوم البوذييون صوما تأمليا طويلا، مع الامتناع عن عن تناول الأكل والشرب (عدا الحليب)، وذلك ثلاثة أيام متفرقة في السنة، يوم اكتمال القمر في مارس، وعند اكتمال القمر أيضا في حزيران، وآخر عند اكتماله في تشرين الأول . وللبوذيين أربعة أماكن يحجون إليها، وتجتذب مواسم الحج جماهير البوذيين إلى الأماكن التي عاش فيها بوذا، كمدينة كابيلقسو، وبودغايا، وبيينارس، وكوسينارا، حيث يؤم الحجاج هذه الأماكن أين بنيت الهياكل للتأمل والصلاة والإنبطاح أمام صور بوذا 5إلخ . وسواء كان الصينيون كونفشيوسيين أو طاويين أو بوذيين، فهم يؤمون (تاي شان)، الجبل المقدس الذي بني في منحدره العديد من الهياكل6 .

وعموما؛ فالشعائر هي ما يترجم الاعتقاد، وتفصح عن مدى العلاقة بين المعتقد وما يعتقد به، وتحدد طبيعة علاقته به، وتؤثر الشعائر في الإيمان طردا كما يتأثر الإيمان بها سلبا وإيجابا، فبين الشعائر والمعتقدات تبادلا لاعتمادهما على بعضهما، فالشعائر والطقوس الدينية تشكل نظاما يترجم المعتقدات ومشاعر التقديس، وهي ذاتها وقود لتقوية المعتقد، وأسباب ووسائل تعيد خلق الإيمان بشكل دوري، ولأهمية الشعائر فهي معيار لتمييز الظاهرة الدينية من غيرها، ذلك أنها أول ما يظهر للعيان من عناصر الدين .

---

1 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص38 .

2 – عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية، مصدر سابق، ص40 .

3 – المصدر نفسه، ص35 .

4 – المصدر نفسه، ص35 .

5 – موسوعة لاروس، مصدر سابق، ص71، وينظر عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية، مصدر سابق، ص38 .

6 – موسوعة لاروس، مصدر سابق، ص75 .

من الركنين السابقين يمكن القول؛ بأن لكل دين مظهرين أساسيين من الممارسات الجمعية التي تتبعها الجماعات في تفكيرها وفي عملها وهما (العقائد والعبادات)، وهذان المظهران يختلفان باختلاف الأديان والجماعات والنحل، وتمثل العقائد الجانب (النظري) من الدين، بينما تمثل العبادات الجانب (العملي) منه، ويرتبط الجانبان ببعضهما البعض، إذ ليس ثمة عبادة بدون (تصور خاص للعالم الآخر الغيبي)، وهو العالم الذي يربط الدين بينه وبين العالم المحسوس، وليس ثمة (تصور) بدون (عمل) يرمز إلى تبجيل هذا العالم الذي يعتقد فيه الدين 1. ويعبر (ابن تيمية) عن تجلي هذين المظهرين في الدين الإسلامي قائلا :"وجماع الدين أصلان؛ ألا نعبد إلا الله، ولا نعبده إلا بما شرع ...كما قال تعالى **{فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}** (سورة الكهف الآية110) . هذا ويصحب جانب العقيدة المقدسات والأساطير والكتب والنصوص الدينية المقدسة، كما يتفرع عن شجرة العبادات أفنانا من المثل والأخلاق والقيم ...

المطلب الثالث : الكتب والنصوص المقدسة

وإذا كنا قد تطرقنا فيما سبق لمكونات الدين المتمثلة في لبه وهو العقيدة، وما يتفرع عنها من أصناف العبادات والشعائر ... فإن كل ذلك إنما تحمله الكتب والأسفار، فالكتب والنصوص المقدسة الخاصة بكل دين، هي الرحم لتعاليم وأفكار وفلسفة ذلك الدين، ونظمه الأخلاقية والشرائعية، فلطالما شكل الكتاب المقدس عنصرا مهما في الظاهرة الدينية، ففي كافة الأديان اعتبر الناس نصوصا معينة مقدسة مختلفة عن الوثائق الأخرى، فنظموا حياتهم على هذا الكتاب المقدس عمليا وروحيا ومعنويا..

وعندما تقص النصوص المقدسة قصصا، يؤمن أصحابها بوجه عام أنها حقيقية، فمن الضرورة بمكان أن يشار أن قلة قليلة من الناس الآن يتخيلون أن السفر الأول للتكوين يقدم وصفا حقيقيا لأصول الحياة، ولكن طوال قرون استساغ اليهود والمسيحيون التفسير ذا الطابع الشديد المجازية والإبداعية، مع الإصرار على أن القراءة الحرفية بشكل كامل للكتاب المقدس غير ممكنة، وغير مرغوب فيها، كما أعادوا تاريخ كتابة الكتاب المقدس، واستبدلوا قصصه بأساطير جديدة، وأوَّلوا السفر الأول للتكوين بطرق مختلفة وبشكل مدهش2 .

والكتب جمع كتاب، والكتاب مصدر كتب يكتب كتبا وكتابة إذا جمع الحروف وألف بينها، فكانت كلمات ذات معان خاصة، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعاني جملا مفيدة، تسمى

---

1 - زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص202 .

2 - ينظر كارين أرمسترونج، تاريخ الكتاب المقدس، تر: محمد صفار، ط 1، مصر الجديدة : مكتبة الشروق الدولية، 1431ه، 2010م، ص8 .

كلاما، فالكتاب إذا؛ هو ما حوى كلاما مفيدا، ذا أغراض متعددة، غير أن التفحص في مختلف الكتب المقدسة، يظهر أن هناك كتبا منزلة، وهي التي يدعي أصحابها أنها وصلت للبشر عن طريق الوحي الإلهي، وأخرى لا يدعي أهلها ذلك، أولا يهتمون له، إلا أن لها الشأن نفسه من الإجلال والتقديس عند مؤمنيها، فما فائدة الكتب المقدسة ؟ وما دورها؟

أما عن الكتب المنزلة (الإلهية) فقد اقتضت حكمة الله أن يتعهد عباده بالهداية عن طريق أنبيائه وكتبه التي أنزلها عليهم، ليعيش بها الإنسان حياة متوازنة واضحة الأهداف، سيما بعد طول العهد.. فالرسالات السماوية بما حملت في كتبها المنزلة من هدايات ربانية تجنّب الإنسان خطر الضلال والشقاء والقلق والاضطراب، إذن فالكتب الإلهية لها دور كبير في استقرار حياة الإنسان في الدنيا، وتهيئته للظفر بسعادة الآخرة، ولكن ما هي الكتب المنزلة، وما معيار أي كتاب مقدس ليقبل كلاما عن الله عز وجل؟

إن المصدر الوحيد بداية، الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده، فهو الكتاب المحفوظ حفظا، لا يتطرق إليه معه الزيادة ولا النقص ولا التحريف ولا التغيير ولا التبديل بحال من الأحوال، لأنه من ساعة نزول الآية منه أو الآيات، أو السور القصيرة أو الطويلة ورجال متوفرون لكتابته في سطورهم، وحفظه في صدورهم، فلم يتم نزوله في خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء... 1

والقرآن هو الكتاب الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، ومن أسمائه الفرقان، الذكر والنور .. أما الذي أنزل على الذين من قبله فكتب وصحف متعددة ذكر القرآن الكريم بعضا منها حيث :

– ذكر القرآن الكريم صحف إبراهيم مقرونة بصحف موسى عليهما السلام في قوله تعالى { **إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**} (سورة الأعلى الآية 18-19) .

– وذكر زبور داود في قولة تعالى {**وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا**} (سورة النساء الآية 163) .

– وذكر التوراة في كثير من الآيات منها قوله تعالى{ **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** } (سورة المائدة الآية 44) .

– كما ورد ذكر الألواح التي تلقاها موسى من ربه في {**وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ**} (سورة الأعراف الآية 145) .

بل وذكر القرآن بعض ما جاء في تلك الكتب من أخبار نحو قوله تعالى عن التوراة { **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ**

1 – أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن، مصدر سابق، ص190

قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } (سورة المائدة الآية 45)...1 وقد نجد في بعض الآثار ذكرا لعدد الكتب المنزلة السابقة، وبعض مما أنزل، أو أسماءه، لكن لا نجد في القرآن غير ما ذكرنا، كما لا نجد في القرآن تفصيلا للكتب، كما لم يتعرض القرآن لما في أيدي بعض الأمم والطوائف من كتب كالبراهمة والبوذية والكونفشيوسية والزرادشتية وغيرها، لكن الثابت هو ما ورد في القرآن وبيّنه نبينا (محمد صلى الله عليه وسلم)، و هو ما افترض على المؤمن أن يؤمن به .

ففي الإسلام نؤمن إجمالا بسائر الكتب التي أوحاها الله إلى أنبيائه، فإن من أركان الدين من بعد الإيمان بالله؛ الإيمان بكتبه التي أوحاها، وهو من مقتضى الإيمان بالرسل والأنبياء جميعهم .. قال تعالى **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ}** (سورة النساء الآية 136)... فالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم يقتضي الإيمان بكل ما جاء به من الكتاب والسنة؛ ألفاظها ومعانيها، فلا يتم الإيمان به إلا بذلك، وكل من كان أعظم علما بذلك، وتصديقا واعترافا وعملا، كان أكمل إيمانا2 .

ومعنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المسلم؛ التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فجمع ودون فكان صحفا مطهرة وكتبا قيمة، فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلا، وما لم يعرف آمن به إجمالا 3 . وما أنزل على الأنبياء والرسل إنما هو وحي، ويعرف الوحي بأنه "إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، وعرفه (محمد رشيد رضا) بأنه"عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة..."4 فالكتاب المنزل إذن : هو كلام الله تعالى المبلغ للناس عن طريق الوحي عبر رسول من رسله لفظا ومعنى .

والإيمان بالكتب الإلهية كما أنه واجب شرعا على الأدلة القرآنية، وهو الركن الثالث من أركان الإيمان الستة، فهو أيضا واجب عقلا فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها، وإقامة الحجة بها، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالبا في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة على تلك الأمة التي أرسل إليها حتى يؤمنوا به، ويصدقوه، ويتبعوه ويعملوا بما جاء به، من

---

1 - ينظر أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن، مصدر سابق، ص191- 192 .

2 - عبد الرحمن السعدي، أصول العقائد الدينية، ط 1، القاهرة: دار ابن الجوزي، 1424، ص36 ، وينظر أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن، مصدر سابق، ص189 .

3 - أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن، مصدر سابق، ص189 .

4 - محمد رشيد رضا، الوحي المحمدي، ط3، الجزائر : دار الكتب، ص44 .

تشريع إلهي، ويثبت فيه ليبقى بعد وفاة الرسول الذي جاء به 1.كل ذلك مما اقتضى وجود كتب إلهية واقتضى وجوب الإيمان بها، والعمل بما فيها ...

وأقدم نص مكتوب على ما يبدو من الكتب المقدسة هو (صحف إبراهيم عليه السلام)، إذ لم تكن الأحرف الهجائية والكتابة الفينيقية قد استكملت وانتشرت في وقت ظهور إبراهيم، كما هو مخمن، بل إن كثيرا من أنباء التوراة والإنجيل التي هي مدونة الآن قد وصلت عن طريق النقل الشفاهي قبل حلول مرحلة التدوين، إذ لم تكتب هذه النصوص وتثبت في صحف وكتب إلا في عهود متأخرة عن عهود مصادرها2 . فقبل (موسى عليه السلام)، لم يكن الكلدانيون حيث نشأ (إبراهيم عليه السلام) بما بين النهرين، والآراميون في وسط شبه الجزيرة العربية والكنعانيون في شمالها الغربي (بلاد الشام)، قد تبنوا الكتابة الفينيقية (السريانية)، فإذا ما كتبت صحف (إبراهيم) فمن المرجّح أنها كتبت باللغة والأحرف الهجائية البابلية أو الآشورية على ألواح من طين غضاري أو فخار، لأن الرقّ ناهيك عن الورق، لم يكن بدء باستعماله يومذاك، وحتى تلك الألواح لم تحفظ لأنها لم تكن رسمية3 .

وفي الحقيقة وصلت مئات الآلاف من الألواح من عهود السومريين والبابليين والآشوريين (الألف الثالث قبل الميلاد) من خلال التنقيب عن آثارهم في ما بين النهرين ومدينة ماري الأثرية في شمال شرقي سوريا، إنما كانت هذه الألواح ألواحا ذات كتابات رسمية؛ حيث توضح معلومات عن سياسة السومريين وآدابهم واقتصادهم وقوانينهم وعقيدتهم، وكذا علومهم كالرياضيات والفلك والطب.. !4 ولهذا يرجح بأن تعاليم (إبراهيم الخليل عليه السلام) كانت ممنوعة في بلاد بابل، مسقط رأسه، لأنها كانت تخالف المعتقدات الرسمية ومعتقدات أهل البلاد، ولذلك فلم يكن من المتوقع أن يخصص لتعاليم إبراهيم ألواح أو أمكنة للحفظ في تلك البلاد كما حدث لألواح الدولة في بابل ونوزي ونينوى وماري في الشرق، وإيبيلا وعمريت في غربي سوريا، خصوصا بعد ما عرف عنهم من إسرافهم في الباطل ومخالفة أوامر أنبياء الله، وعبادتهم الأصنام والتماثيل، وعبادة الكواكب والنجوم، بل وعبادة الملوك والحكام5 . ومنه فلابد من تصديق أنباء إبراهيم كما جاءت في الكتب اللاحقة ..

---

1 – أبو بكر الجزائري، عقيدة المؤمن، مصدر سابق، ص200 .

2 – ينظر حيدر غيبة، هكذا تكلم العقل (المفهوم العقلاني للدين)، ط2، بيروت: دار الطليعة، 2003م، 110 .

3 – المصدر نفسه، ص110 .

4 – سامي عبد الله المغلوث، أطلس الأديان، ط1، الرياض : مكتبة العبيكان، 1428ه، 2007م، ص513 .

5 – حيدر غيبة، هكذا تكلم العقل، ص 110، وينظر سامي المغلوث العامري، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص514 .

شبّ (إبراهيم عليه السلام) في أرض (أور) * جنوبي العراق وسط بيئة يعتنق أهلها عبادة الأصنام، ويحترفون صناعتها أيام الملك (النمرود بن كنعان)، وأنكر (إبراهيم عليه السلام) على أبيه وقومه هذه العبادة الضّالة المضلّة قال تعالى {**وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** } (سورة الأنبياء الآية 51) فما فتئ (إبراهيم) يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، ونبذ الأوثان والأصنام..فشاع خبره وطلب النمرود مناظرته فالتقيا، فساق (إبراهيم) إليه من الحجج والبراهين حتى أخذ اليأس منه كل مأخذ{**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** } (سورة البقرة الآية 258)، استمر جدال (إبراهيم عليه السلام) مع قومه دون جدوى إلى أن رأى بثاقب نظره أن يهاجر بدينه إلى الأرض التي باركها الله للعالمين...فحلّ بأهل بابل بعد هجرته عليه السلام من العذاب ما خلّدته آثارهم ونصوصهم السومرية القديمة أواسط القرن العشرين قبل الميلاد...1

أما (التوراة)؛ الكتاب الذي أنزله الله على (موسى عليه السلام)، فهو كتاب عظيم اشتمل على الهداية والنور حيث جاء في القرآن قوله تعالى { **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** } (سورة المائدة الآية44)، .. حيث أرسل الله (موسى عليه السلام) إلى بني إسرائيل، وأعلم بدعوته في أثناء عودته من مدين إلى مصر بعد فراره خوفا من فرعون وملئه، وفي صحراء سيناء ناداه الله تعالى { **إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى** } (سورة طه الآية 12-13)، وأمره سبحانه وتعالى أن يذهب وأخوه (هارون عليه السلام) إلى فرعون لدعوته واستخلاص بني إسرائيل، وكان ذلك في سنة 1213 قبل الميلاد تقريبا2 . فالتوراة الحقيقية التي أنزلها الله على موسى قد ضُيِّعت خلال عصيان اليهود وارتدادهم، ثم ضاع بديلها في أثناء الغارات المتتالية على القدس، وما يسمى (توراة) اليوم هو مجموعة من القصص والروايات التي كانت مشتهرة بين اليهود، قام أحبارهم بجمعها وكتابتها بعد موسى بزمن طويل من غير تدقيق ولا تحقيق3.

---

* – أرض أور : مدينة في منطقة سومر القديمة، جنوب شرقي العراق، كانت إحدى أوائل المدن في العالم، تقع على نهر الفرات بالقرب من الخليج العربي، وازدهرت كمركز تجاري وميناء في الفترة ما بين (3500- 2000 قبل الميلاد)، وقت المناطق المجاورة لها تحت سيطرتها، ووقتها كانت أور عاصمة سلالتين حاكمتين في البلاد...وأور هي موطن سيدنا إبراهيم عليه السلام قبل ارتحاله إلى حران، ومن ثم إلى بيت المقدس ومصر وأرض الحجاز، حيث ظل موقع أور عامرا آلاف السنين، وأثبتت الكشوفات الحديثة فيها مقبرة ملكية يرجع تاريخها إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ...

1 – ينظر سامي عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص99- 100 .

2 – ينظر محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بيروت : المكتبة العصرية،1432ه، 2011م، ص235- 237 .

3 – عبد الوهاب الطويلة، الكتب المقدس في ميزان التوثيق، ط 2، القاهرة: دار السلام، 1423ه، 2002م، ص93 .

وتطلق (التوراة) اليوم على الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، والتوراة كلمة عبرية معناها التعليم والشريعة، كما تأتي أيضا بمعنى الناموس أو الهدى، وهي منسوبة إلى (موسى عليه السلام)، وهي خمسة أسفار(التكوين، الخروج، العدد، التثنية، اللاويين)، ويؤمن اليهود بشكل عام بأسفار العهد القديم، ويزعمون أن هذه الأسفار قد وصلت إليهم بواسطة أنبيائهم قبل (عيسى عليه السلام)، فهي عندهم وحي وتنزيل، يستمدون منها عقيدتهم وتشريعاتهم ونظمهم وأخلاقهم، وإليها يستندون في معرفة تاريخهم وأيامهم1 .

فقبل أن يكون الكتاب المقدس مجموعة أسفار، كان في حقيقته تراثا شعبيا، لا سند له إلا الذاكرة التي يعتريها الضعف والقوة بين الحين والآخر نظرا لطبيعة البشر في الحفظ والنسيان، مع ما اتسم به الرواة من إضافة للأناقة والخيال للربط بين أحداث بدت وكأنها تقريبا للمجرى الحقيقي، وبهذا فقد (ترك مدونو التوراة المجال مفتوحا بعد (موسى) لدخول نصوص مقدسة، لها ما لتوراة موسى من القدسية، مثل أسفار الأنبياء، وكتب الحكمة، ثم إنهم كتبوا بعد ذلك المشنا * والتلمود البابلي **، والأورشليمي، ومنذ القدم كان الجهد الرئيسي لليهود جيلا بعد جيل يتجه إلى الاحتفاظ بالأسفار التي تشتمل على التاريخ القومي والديني لهم، لكي تكون مرآة للأجيال اللاحقة، وقد استنفذ ذلك حوالي ألف عام2 . ولهذا بدت التوراة الحالية مكتنزة بالأساطير والأباطيل، فضلا عن التطاول على الذات الإلهية، والقدح في الأنبياء، يقول (حسن ظاظا) 3 : "إن التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون...بل إننا نشعر أن موسى بعد أن مات لم يحتفظ العبريون من ذكراه

---

1 – محمد عبد الله الشرقاوي، في مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص13 .

* – المشنا : ويعني الشريعة المكررة، فهي تكرار لشريعة موسى، ويقصد بها الروايات التي تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل، ويزعمون أنها تعاليم شفوية متلقاة من النبي موسى عليه السلام، وقد جمع هذه التعاليم الحاخام (يوضاض) في سنة 150م، ثم زيد إليه هو (بريثا) وفي العصور الحديثة زيدت كتب تسمى (التصافوت) أي الإضافات التي وضعها الحاخامات .

** – التلمود البابلي : معناه التعليم، وهو المصدر الثاني للتشريع اليهودي، والمصدر الأول للصهيونية، وهو موسوعة في التاريخ والدين والشعائر والطب والقصص الشعبي والزراعة والفلاحة والصناعة..وغير ذلك وهو يتكون من المشناه، الجمارا...

2 – محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص87 .

3 – حسن محمد توفيق ظاظا : (1919- 1999م) عالم وشاعر مصري، عدّ من أشهر المختصين في اللغة العربية واللغات السامية، لاسيما العبرية التي يقف في الطليعة من أساتذتها والخبراء فيها، وفيما يتصل بها من ثقافة وفكر يهودي وصهيوني، من مؤلفاته : الفكر الديني اليهودي، اللسان والانسان (ينظر الموسوعة العربية العالمية، وينظر راضي جودة، كشكول الكشكول : صفحات من حياة حسن ظاظا، القاهرة : شركة الشهابي، 2001م) .

بشيء، أضاعوا الرجل وأضاعوا توراته، بحيث مرت أجيال وأجيال لا يذكره منهم أحد، ولا يعرفون حتى مكان قبره"1 .

أما (الزبور)؛ زبور (داوود عليه السلام) – الذي أنزل عليه نحو سنة 1500 قبل الميلاد 2 – حيث جاء في القرآن { **وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا** }(سورة النساء الآية 163)، وقد ورد ذكر اسم (داود) في القرآن الكريم في ستة عشر موضعا، وهو من أنبياء بني إسرائيل ومن سبط يهوذا بن يعقوب، وقد جمع الله له بين النبوة والملك، كما ولده (سليمان عليه السلام)، قتل (داوود) (جالوت) فأعز الله على يديه بني إسرائيل بعد أن استعصى عليهم فتح (أورسالم) * فقاتلوا تحت لوائه { **فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ** }(سورة البقرة الآية 251) وطبق فيهم داوود حكم (التوراة) إلى أن أوحى الله إليه بالزبور، فيها مواعظ وعبر، ورقائق وأذكار، وأتاه الله الحكمة وفصل الخطاب...كان (داوود عليه السلام) كثير العبادة والتبتل إلى الله، رخيم الصوت حسنه، تكف الطير لقراءته الزبور، وكذلك الجبال تردد معه في العشي والإبكار...3

وعن المزامير التي بين أيدينا والموجودة في كتاب اليهود فيظن اليهود أن (داوود) ليس وحده من كتبها، بل وسليمان وموسى وهيمان، وهي تدخل فيما يسمى أسفار الأناشيد أو الأسفار الشعرية، وهي أناشيد ومواعظ، مؤلفة تأليفا شعريا 4 . تشغل المزامير (72 مزمورا) شطرا من العهد القديم، وهي عبر ووصايا وأدعية تغنى في الصلوات، ولكن أكثرها على ما يبدو موضوع في عهد لاحق للمسيحية، لما فيها من أحاديث كثيرة عن المسيح بصفته الابن يسوع المخلص (قبلوا الابن يسوع لئلا يغضب فتبيدوا)، فأغلب الظن أن هذه الأناشيد وضعها الكهّان من اليهود ومن المسيحيين بعد داوود بأزمان مختلفة ونسبوها لداوود على نسق ما تناقل إليهم من صفة زبور (داوود عليه السلام) ومواعظه ورقائقه5.

---

1 – نقلا عن سامي المغلوث العامري، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص33 .

2 – حيدر غيبة، هكذا تكلم العقل، مصدر سابق، ص111 .

* – أور سالم : بمعنى (مدينة السلام) وهو الاسم الكنعاني ل يبوس و(يبوس) عاصمة اليبوسيين، وسميت القدس بيبوس نسبة إلى اليبوسيين، إحدى عشائر الكنعانيين، وظل اسم يبوس علما على المدينة حتى فتحها داوود عليه السلام، وعرفت باسم القدس منذ بداية تاريخها لإقامة أماكن مقدسة للعبادة فيها، أما بيت المقدس فقد أطلق على المدينة بدء من العصر الإسلامي..وحين تطلق (أورشليم) فهي لاصل الكلمة في العربية أوروسالم .

3 – ينظر محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، مصدر سابق، ص353- 357 .

4 – محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص90 .

5 – ينظر حيدر غيبة، هكذا تكلم العقل، مصدر سابق، 112 .

أما الإنجيل فيعني لفظه؛ الخبر السعيد أو البشارة، وهو الكتاب الذي أنزله الله على نبيه (عيسى عليه السلام) مصدقا للتوراة، ومحيي شريعتها، ومؤيد للصحيح من أحكامها، وهو مشتمل على هدى ونور، يهدي إلى الحق ويدعو إلى عبادة الله وحده، ومبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، وهو مشتمل على هدى ونور، وعظة للمتقين..، ودعوة (عيسى عليه السلام)، -كما جاء في بعض الآثار، وتضافرت عليه أقوال المؤرخين- تقوم على الزهادة والأخذ من أسباب الحياة بأقل قسط يكفي لأن تقوم عليه الحياة، وقد حث على الإيمان باليوم الآخر، واعتباره الغاية السامية لبني الإنسان في الدنيا، ذلك أن اليهود الذين بشر فيهم غلبت عليهم الترعات المادية، ومنهم من فهم الحياة الدنيا أنها غاية بني الإنسان[1] .

لكن الإنجيل الذي جاء به (عيسي عليه السلام) سرعان ما حرف أيضا بعد رفع (عيسى عليه السلام)، وبهذا ابتعد كثيرا عن الصورة السماوية النقية التي نزل بها، نظرا لامتزاجه بالكثير من المعتقدات والفلسفات الوثنية، حيث اتفقت المصادر الشرقية والغربية، دينية وغير دينية على أن المسيحيين نزل بهم بعد المسيح بلايا وكوارث كثيرة، جعلتهم يستخفون بديانتهم وكتبهم[2] . فلم يبق لإنجيل (عيسى عليه السلام) إلا بعض عبارات متفرقة نراها في الأناجيل المتداولة، وعلماء النصرانية الذين لم يقيّدهم في بحثهم إلا العلم والحقيقة يصرّحون بأنه كان في القرن الأول الميلادي رسالة تعد أصلا لهذه الأناجيل[3] .

ويعتقد النصارى اليوم أن كتابهم المقدس (The Bible) هو مجموعة الأسفار الإلهية التي كتبت بإلهام الروح القدس (الذي حلّ في التلاميذ بعد رفع المسيح) خلال الحقبة الزمنية الممتدة من القرن السادس عشر قبل الميلاد حتى آخر القرن الأول بعده، يقسم الكتاب إلى قسمين كبيرين رئيسين هما؛ العهد القديم وما أضافوه له من أسفار وهو المقدس عند اليهود، ويطلقون عليه مجازا (التوراة)، والعهد الجديد ويطلقون عليه مجازا (الإنجيل)، وأساس هذا التقسيم بعثة المسيح عليه السلام، فما كان من الأسفار قبلها فهو العهد القديم، وما كان بعدها فهو العهد الجديد [4]. ومن العهد القديم يعرف المسيحيون أخبار العالم في عصوره الأولى، وأجياله القديمة، وشرائع اليهود وتاريخ نشأتهم، والنبوات

1- ينظر محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، مصدر سابق، ص14 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص15 .

3- عبد الوهاب طويلة، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، مصدر سابق، ص114 .

4 - عبد الوهاب طويلة، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، ص58 .

السابقة منذ هبوط الإنسان على الأرض، والبشارات بالنبيين اللاحقين، وبالمسيح، وفيها يجدون أدعية تعين على أداء عباداتهم، والقيام بطقوسهم الدينية1.

وأما العهد الجديد، فهو يشتمل أخبار المسيح ومواعظه، وخطبه، في الأناجيل، مضافا إليها أعمال الرسل، وكذا أكثر الرسائل لبولس... ولقد جمعت الأناجيل معا في إنجيل رباعي حوالي 150 م، ويرجع السبب في ذلك إلى تلك المحاولة التي قام بها ماركيون عام 140م، لجمع عدد من الكتب المسيحية المقدسة، لكي تستأصل نفوذ العهد القديم، وتتعادل مع كتبه 2 .. ولهذا فالنصارى يؤمنون بوحي العهد الجديد في معانيه دون ألفاظه (الإلهام)، وأنى ذلك وأقدم الأناجيل قد كتب بعد المسيح بـــ 35 عام ! بل إن دعوى إلهام الرسل لم تكن محلّ إجماع من الكتاب المسيحيين في القديم والحديث، كما ليس له من الأدلة ما يثبته 3 . فكتب أهل الكتاب من اليهود والنصارى (التوراة والإنجيل) قد أصابها من الزيف ما أصابها مما أضل بصورتها النقية التي نزلت بها أول عهدها .

والمهم أن ندرك؛ أن الوحي في النصرانية لا يعني أن هناك كتابا أنزل على عيسى.. ولكن روح الله يهيمن على الكاتب ويقوده، فيكتب الرسالة التي يريد الله أن يرسلها لنا، ويعصمه فيما يكتب، مستخدما أسلوب ولغة وثقافة الكاتب 4 . ولعلهم لجؤوا لهذا المعنى للوحي لادعائهم ألوهية عيسى ذاته !

والملاحظ؛ أن اليهود والمسيحيون يتعاملون مع كتبهم المقدسة باحترام ذي طابع شعائري، فلفافة التوراة هي الأكثر قداسة في المعبد اليهودي، حيث تكسى بغطاء ثمين يوضع بداخل صندوق، ويتم عرضها في ذروة الطقس الديني، حين تدور اللفافة بشكل رسمي على جماعة المصلين الذين يلمسونها بأذيال رداء الصلوات، بل إن بعض اليهود يرقص مع اللفافة محتضنا إياها كشيء محبب إليه، ويحمل الكاثوليك أيضا الكتاب المقدس في المواكب، ويبخّروه ويقفون عندما يتلى، راسمين علامة الصليب على الجبهة والشفتين والقلب، وفي المجتمعات البروتستانتية تعد نقطة قراءة الكتاب المقدس أعلى نقطة في أداء الشعائر...والمهم فقد كان الكتاب المقدس يعني دائما أكثر مما قال5 .

---

1 - ينظر محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، مصدر سابق، ص40 .

2 - عصام الخزرجي، نبوءات الكتب المقدسة في ضوء اعترافات اليهود والنصارى، ط 1، بيروت: دار المقتبس، 1435ه، 2014م، ص61 .

3 - ينظر محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ص 42 ، 72، 76، وينظر عصام الخزرجي، نبوءات الكتب المقدسة في ضوء اعترافات اليهود والنصارى، مصدر سابق، ص61 .

4 - ينظر العهد الجديد، رسالة بطرس الثانية 1: 21 .

5 - ينظر كارين أرمسترونج، تاريخ الكتاب المقدس، مصدر سابق، ص9 .

ونظرا لما حدث من ضياع للنصوص الأصلية وإثبات اختلافها عن النسخ الحاضرة وتناقضها فيما بينها، فقد بات واضحا ضرورة اختبار النصوص الدينية المقدسة الموجودة عندنا يومئذ، والنظر في الظروف التي تحكمت في كتابتها ونقلها، ولعل الكاتب الألماني (ماكس موللر) قد أصاب حين رأى (أن علماء الدين لابد أن يتخذوا من النصوص المقدسة محور التركيز الرئيسي في دراستهم، ذلك أن هذه الوثائق تحتوي على العقيدة الأصلية للأديان، وذلك لتفادي الممارسات الفعلية في الحاضر التي تعد من مظاهر فساد العصور الأخيرة) 1 . وبهذا افترض أجيال من الباحثين أن الطريقة المثلى لتعلم التراث الديني هي العودة إلى صميم النصوص لدراسة الأديان .

وكذلك رأى فلاسفة المسيحية :"إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقي، كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الطويلة التي شوهت وجه التعليم المسيحي، حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام، ويرجع بحثنا إلى أيام (بولس) الذي لم يفهم تعليم المسيح، بل حمله على محمل آخر، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين، وتعاليم العهد القديم...أما تعليم المسيح الأصلي الحقيقي فخسر صفته الإلهية الكمالية..."2

هذا وقد صاغ العلماء ما يجب في الكتاب المقدس أو النص الديني حتى يكون حجة وهي :

1. أن يكون الذي نسب إليه معلوما صدقه بلا ريب ولا شك .
2. ألا يكون ذلك الكتاب متناقضا مضطربا يهدم بعضه بعضا .
3. أن يبين ذلك المنسوب إليه أنه أوحي إليه، ويثبت ذلك بالبينات والمعجزات .
4. أن تكون نسبة الكتاب إلى صاحبه ثابتة قطعا جيلا بعد جيل، وأساس ذلك التواتر3 .

أي أن الكتاب لا يقبل إلا بأمرين؛ ثبوت ذلك الكتاب إلى النبي المنسوب إليه وفق الشروط والقواعد لقبول الرواية والأخبار، وخلو الكتاب من التعارض والاضطراب، فما كان من عند الله متره عن ذلك، ويؤيد بعضه بعضا بتضافر معانيه وتناسقها { **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** } (سورة النساء الآية 82) ومن هنا أمكن إثبات وحي أي كتاب أو نص مقدس أو نقده، حيث لم يعد من اللائق أو المعقول قبول الكتب المقدسة على حالها، وقراءتها وتمجيدها وفق النزوات والأهواء أو أي مصوغ يحول دون تفسيرها وفهمها الحقيقي أو تأملها .

---

1 - مالوري ناي، الدين الأسس، مصدر سابق، ص247 .

2 - نقلا عن محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، مصدر سابق، ص173 .

3 - ينظر المصدر نفسه، ص 71، وينظر عبد الوهاب طويلة، الكتب المقدسة في ميزان التوثيق، مصدر سابق، ص5.

وعلى ضوء هذا تميز القرآن الكريم عن سائر الكتب بأصالته، لما هيأ الله له من أسباب التوثيق * وامتناع التحريف، فأبهر العقول انسجام معانيه، واتساق مبانيه .

وللقرآن مترلة خاصة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في الترول، وذلك لكونه :

– أولا؛ ناسخا لها لفظا وحكما، فلا تقرأ للتعبد، ولا يعمل بما جاء فيها من شرائع وأحكام، لما داخلها من تحريف، وما أصابها من تضييع ونسيان، إذ لم يبق فيها ما يجزم بصحة نسبته إلى الله تعالى، كما كان التشريع فيها خاصا بأمة معينة هي (بني إسرائيل) وموقوتا بزمن معين، ولا أدلّ على ذلك من أمر الله لنبي القرآن أن يحكم بين سائر الناس على اختلاف ماينتحلون من ديانات بالقرآن الحكيم، وذلك في قوله {**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ**} (سورة المائدة الآية 48).

– فما يحمل القرآن من تشريع إلهي هو عام لكل الناس، وذلك لعموم رسالة صاحبه المترل عليه صلى الله عليه وسلم قال تعالى { **قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا** } (سورة الأعراف الآية 158) .

– وأيضا لكونه مهيمنا عليها رقيبا شهيدا، فما صحَّحه منها وأقره فيها صحَّ وقرَّ، وما أبطله منها ونفاه لكونه ذخيلا عليها ليس منها بطل وانتفى، كما بين ذلك الآية {**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**} (سورة النساء الآية 105) .

–وكل ذلك لأن الله تعهد بحفظه إلى أن يرفعه إليه، إذ قال تعالى {**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** } (سورة الحجر الآية 9)

– وجميع هذه الكتب كانت تستمد معلوماتها من نبع واحد هو اللوح المحفوظ [1] .

وننتهي هنا إلى اعتبار القرآن الكتاب الأوحد الذي يحوي الوحي الإلهي بأجمعه الذي أعطي إلى الأنبياء لأن دين الله واحد، وهو يفوق جميع الكتب السابقة وينسخها، وبهذا فهو المعيار الثابت لقبول أي نص من أي كتاب مقدس .

وإذا كنا قد فهمنا موقف القرآن من الكتب السابقة (التوراة والإنجيل والزبور..)، إذ هو يأمر أتباعه بالإيمان بجميع الكتب التي نزلت قبله على أنبياء الله ورسله، نجده هاهنا بهذا الموقف الذي يتوجه فيه لأهل الكتاب قائلا :{ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ**

* – حيث أن علم الإسناد في نقل الروايات علم قد اختصت به أمة الإسلام، ولا سيما في مجال قراءات القرآن ونقل سنة محمد صلى الله عليه وسلم .

1 – ينظر أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، مصدر سابق، ص201 .

تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } (سورة المائدة الآية 15)، بل ويوبّخ اليهود والنصارى لتحريفهم وتزويرهم كتبهم المقدسة ملبسين الحقيقة ثوبا باطلا { **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ** } (سورة البقرة الآية 42)، كما يتهمهم بتحريف ألفاظ الكتاب ليبرهنوا للناس أن ما يقولونه حق { **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** } (سورة آل عمران الآية 78)1 .

والمقصود من هذين الموقفين؛ أن المسلمين يميزون بوضوح بين كتاب يسمى (إنجيل عيسى عليه السلام) والأناجيل الأربعة المتداولة في أوساط المسيحية، وهذا الإنجيل المذكور في القرآن هو الإنجيل الذي نزل على (عيسى عليه السلام) من عند الله، فهو كتاب الوحي الإلهي إذ لابد لكل مرسل من كتاب { **فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** } (سورة البقرة الآية 211)، فإنجيل (عيسى عليه السلام) هو الأصل الإلهي الذي ضُيِّع، ولا يصح الاعتقاد بأي كتاب من العهدين القديم والجديد على أنه كتاب من عند الله أو أنه يحوي الوحي الإلهي 2 . وقس على ذلك سائر الكتب .

فالوحي القرآني؛ هو ذاك الذي نزل عقب المسيح بستة قرون، فقد احتفظ بالعديد من تعاليم التوراة والإنجيل اللذين أكثر من ذكرهما، وفرض على كل مسلم الإيمان بالكتب السابقة، كما أبرز المقام المرموق الذي شغله رسل الله في تاريخ الوحي كإبراهيم ونوح وموسى وعيسى...عليهم السلام، في حين أننا نجد في المقابل أن اليهودية لا تعترف بأي وحي جاء بعد وحيها، وكذلك المسيحية لا تؤمن بأي وحي جاء بعد عيسى ورسله، وبالتالي فكلاهما تستبعدان القرآن كوحي سماوي3 .

أما إذا التفتنا إلى الكتب المقدسة الأخرى، فإننا نجد نصوص (الأهرام) كأقدم نص ديني معروف، والتي كانت موجودة بمصر القديمة (2400-2300 قبل الميلاد) 4، كما أن أقدم شكل للأبجدية الفينيقية (الكنعانية)، كانت تحوي نصوصا دينية والتي نحتت على قبر الملك (حيرام الأول) في مدينة

1- ينظر سعدون الساموك، هدى علي الشمري، الأديان في العالم، عمان : دار المناهج، 2014م، ص397 .

2- ينظر المصدر نفسه، ص399- 400 .

3- ينظر موريس بوكاي، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، تر: حسن خالد، ط3، بيروت : المكتب الإسلامي، 1411ه، 1990م، ص13 – 14 .

4- James Allen , The Ancient Egyptian Pyramid texts, Society of Biblical Litterature, 2005, p2.

(جبيل) تعود للقرن الثالث عشر قبل الميلاد، ونصوص (أوغاريت) التي اكتشفت في (رأس شمرا) تعود هي أيضا إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، والأهم من ذلك أن الكتب السماوية ذكرت عبادتهم للبعل1 .

كما نجد من أديان آسيا الكبرى، الدين البوذي الذي يرجع عهده إلى القرن السادس قبل الميلاد، وليست كتب البوذية منزّلة ولا أهلها يدعون ذلك، بل هي أقوال وأفعال ووصايا (بوذا)، وهي تشتمل قوانين البوذية ومسالكها، وطرق تربية النفس، وأيضا الفلسفة البوذية وأسسها خاصة فيما يتعلق بالخير والشر...ولم يخلف (بوذا) كتابا مقدسا، ولم يدون تعاليمه، بل هي آراء سجلت بعد وفاته بأربعمائة عام2 .

وفي بلاد الهند مع أن دين الكتب المقدسة (Vedas) قد اندثر تماما، فإن الكتب ذاتها ما برحت موفورة الكرامة، تتلى بعض آياتها في العبادة والحفلات، والكلمة (فيدا Vedas)؛ تشير إلى الكتب القديمة التي يرجع تاريخها إلى 800- 500 سنة قبل الميلاد، وعنها تطور ونشأ العنصر الكهنوتي، وارتقت الناحية الفلسفية في الدين...وما تزال هذه الكتب المقدسة المصدر القديم الذي يلجأ إليه المفكرون ورجال الدين 3، تروي (الفيدا) بدايات العالم وحياة الآلهة، وتعلم الصلوات والطقوس، وتكون نصوصها أربع مجلدات، يتضمن أقدمها (الريغفيدا)، التي يقترح أنها كتبت بين (1700-1100) قبل الميلاد، الأمر الذي يجعلها ربما أقدم نص ديني مستعمل إلى يومنا هذا، وهو يتضمن أكثر من ألف أغنية مرفوعة إلى الآلهة، وعلق عليها بنصوص جديدة صارت مقدسة هي الأخرى...وليس لذلك الكتاب (الفيدا) الذي جمع عقائد وعبادات وقوانين وأغاني ومقالات الهند كاتب معين، ويعتقد أهله بأنه كتب أزلي لا بداية له !4

وفي بلاد فارس، فإن (زرادشت) (Zoroastre) الذي ظهر بعد (موسى عليه السلام)، يزعم أتباعه أن له كتابا اسمه (زند أوستا) يحوي معتقداتهم وتشريعاتهم، وقد ضاع هذا الكتاب الذي يتجاوز عمره ثلاثة آلاف سنة بعد غزو الإسكندر المقدوني لفارس سنة 330 قبل الميلاد حيث يتهمه الزرادشتيون بحرقه، وفقدت معه تفاسيره.. وفيما بعد لخص المؤرخون تاريخ (زرادشت) وتعاليمه وحياته وأعماله في مجموعة الأناشيد الموزونة التي يسمونها (Gathas)، أو (الأفستا) وهي الأسفار

---

1 - ينظر سامي عبد الله المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص155-156 .

2- ينظر طارق السعدي، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص227- 238 .

3 - ينظر حبيب سعيد، أديان العالم، القاهرة : دارالنشر الأسقفية، 1977م، ص71 .

4 - ينظر طارق السعدي، مقارنة الأديان، ص 227 ، وينظر ديانات العالم (موسوعة لاروس)، مصدر سابق، ص62 .

المقدسة التي جمعها هو في حياته، أو جمعها المعاصرون من أتباعه ومريدوه، وفي هذه الأناشيد يدعو الجنس البشري للكفاح لمقاومة الشر، ودعا إلى عبادة الإله الواحد الحكيم (أهورامزدا) وهجر التعدد، وهو يشكل موسوعة حضارة، ثقافة، أخلاق، وأنثربولوجيا الشعوب الآرية بما حوى من تاريخ وقانون وفلسفة وطب وفلك.. في المجتمع البدائي الإيراني[1].

ولا يمكن عدّ الكتب المقدسة أو حصرها، فهي مرتبطة بتاريخ الأديان، إلا أن ثمة تلازم بين كتب كل قوم وعقائدهم وشرائعهم، بل وحتى أخلاقهم وقيمهم ونظمهم، فلا يخف أثر النص المقدس بالنسبة للفرد أو المجتمع، (فللنص المقدس أثر وفاعلية في تكوين سلوك الفرد، وباجتماع المؤمنين بالنص تتشكل ظاهرة مميزة تحسب على النص نفسه، فللمسلمين نص هو القرآن الكريم وصحيح حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا النص ينتج سلوكا يتميز به المسلم بحكم التزامه بذلك النص مع طول تعامله معه، وجيلا بعد جيل تشكلت الظاهرة الاجتماعية للمجتمع المسلم، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الظاهرة اليهودية التي مرجعيتها (التوراة)، وأسفار بني إسرائيل، و(التلموذ)، والظاهرة المسيحية ومرجعيتها الأناجيل وأعمال الرسل ثم العهد القديم، وكل من تلك الظواهر والكتل الاجتماعية إنما شكلها النص المقدس، فظواهر ومواقف عديدة في السلوك شكلها النص من ذلك الكذب السحر الزنا.. إلخ)[2] .

وإذا أردنا أن نرى أثرا جليا للنص فلنتأمل ما يذكر (سفر التكوين) مثلا (فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقوى على يعقوب في هذا الصراع ضرب حق وركه فانخلع وقال ليعقوب : طلع الفجر فاتركني، فقال يعقوب : لا أتركك حتى تباركني، فقال الرجل: ما اسمك، قال اسمي يعقوب، فقال لا يدعى اسمك يعقوب بعد الآن، بل إسرائيل، لأنك غلبت الله والناس غلبت، وسأله يعقوب أخبرني ما اسمك، فقال : لماذا تسأل عن اسمي، وباركه هناك، وسمي يعقوب ذلك الموضع فنوئيل، وقال : لأني رأيت الله وجها إلى وجه ونجوت بحياتي) [3]. إذن فيعقوب هو الذي صرع (الله)، وهو الذي صرع الناس، هو القوة المطلقة، ولكن على شكل إنسان جديد، وهذا الإنسان الجديد هو اليهودي الذي لا يقهر، يشرع له رب التوراة ما يريد هو، وتعمل له الطبيعة ما يرغب هو، فهو والطبيعة والإله شيء واحد، إن الحكمة من أسطورة مصارعة الرب ليست

---

1 - خليل عبد الرحمان، أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، ط 2، دمشق : رواد الثقافة والفنون، 2008م، ص11، وينظر حبيب سعيد، أديان العالم، مصدر سابق، ص151 .

2 - ينظر سعدون المشهداني، أثر النص المقدس في منظومة القيم، ط1، الأردن : دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 1010م، ص14

3 - العهد القديم، سفر التكوين (22: 22-32) .

وضع ميثولوجيا للرواية والسرد، بقدر ما هي تعزيز لمفهوم يتمثل في كون قوة اليهود غالبة لقوة الله، أو مكافئة له، وبما أن الإنسان (السوبر) اليهودي بهذه الملكة والقدرة، فله قانون وتشريع يختلف عن باقي النظم والتشريعات لما كان له من غلبة الإله في الأسطورة... 1 من هنا يتبن أن النص المقدس اليهودي وراء قناعات المؤمنين به بتفرد العنصر اليهودي وخصوصية قوانينه ...إلى غير ذلك من القناعات والقيم .

فالمعلومة الدينية (التي يتضمنها النص الديني) تعتبر من أخطر المعلومات لما لها من أثر وتداعيات على المتلقي حيث تشكل نسقا أخلاقيا وتكوينيا ونفسيا، ودليل ذلك؛ تلك الملكات الخيالية التي تملأ التوراة والعهد القديم، ولذلك نرى أن العهد القديم ينتقل بين خيال مبالغ فيه إلى أسطورة واضحة المعالم في أسفار بني إسرائيل ثم سقوطها في الخرافة2 .

وعلى اختلاف الكتب المقدسة للأديان وكثرتها وتنوعها، فغالبا ما نلمح فيها قبسا من نور التوحيد لله الخالق، ذاك الذي تلهج الفطرة بعظمته وبكماله، وإن حاول أتباع أي كتاب أن يلبسوه بغيره، أو يجحدوه أو تمثلوا في معتقداتهم وعباداتهم بغيره ... ومن تلك النصوص ما ورد في كتاب الهندوسية المقدس (شندوجيا أوبانيشاد 6: 2: 1) ما نصه : (إكام إفدتيام أساد إيفا، سوميا، إيدام أجرا أسيد إكام إفديتيام، تد هيكا أهوه، أسد إفدم أجرا أسيد إكام إفدف- إتيام، تسمد، أستاه سج جاياتا) أي : (هو واحد لا ثاني له، عزيزي، في البدء كان هذا الكائن وحده، واحد لاثاني له) 3، وهذا كمثال،.. ناهيك عن كتب اليهود والنصارى..التي لم تجد مفرا من ألفاظ التوحيد مهما بلغ بها التحريف، وها هو كتابهم المقدس يتوجه إليهم قائلا :(ليس أحدا صالحا إلا واحد هو الله)4..

كما أن البشارة بنبي الإسلام ومبلغ القرآن (محمدا صلى الله عليه وسلم) إلى الأنام لم تنطفئ في غضون معظم الأسفار العالمية الدينية المقدسة، وذلك مهما واراها أهلها أو تلاعبوا بها، أو أولوها بغير معناها إن لم يجدو بدا لنبذها أو إخفاءها ... ونضرب لذلك مثلا، فللتوراة ثلاث نسخ : العبرانية واليونانية والسامرية، ويدعي أهل كل كتاب بصحته، وهناك فروق بين طبعات (التوراة) وترجماتها، وقد أدى هذا التحريف إلى ذهاب كثير من البشارت أو طمس معالمها، ومع ذلك فقد بقي من هذه البشارت بمحمد صلى الله عليه وسلم كثير لا يخف أثره ودلالته .

1 - ينظر سعدون المشهداني، أثر النص المقدس في منظومة القيم، مصدر سابق، ص14 .

2 - المصدر نفسه، ص66 .

3 - سامي العامري، محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة عند النصارى واليهود والهندوس والصابئة والبوذيين والمجوس، القاهرة : مركز التنوير الاسلامي، 2006م، ص421 .

4 - العهد الجديد، إنجيل متى (19: 16-17)

والبشارات في الكتب السابقة هي تلك الأنباء والأوصاف التي وردت عن مقدم (محمد صلى الله عليه وسلم)، مبينة اسمه وصفاته البدنية والمعنوية ونسبه ومكان بعثته.. ومعالم الدين الذي يدعو إليه... تصديقا لظهوره، وهي أوصاف وبشارات تلقاها أهل الأديان نقلا عن رهبانهم وأحبارهم وكهنتهم قبل ولادة (محمد صلى الله عليه وسلم)، فقد صرحت بعض هذه البشارت باسم (محمد صلى الله عليه وسلم)، وقد اطلع بعض علماء المسلمين على هذه النصوص، ولكن التحريف المستمر لهذا الكتاب أتى على هذه النصوص من ذلك :

- ما ورد في سفر أشعياء : (إني جعلت أمرك محمدا، يا محمد يا قدوس الرب، اسمك موجود من الأبد)، وهو موافق قول رسول الله عليه وسلم "كنت نبيا وإن آدم لمجندل في طينته"1 .

- في التوراة العبرانية في الإصحاح الثالث من سفر حبقوق: (وامتلأت الأرض من تحميد أحمد، ملك بيمينه رقاب الأمم) .

- وفي النسخة المطبوعة في لندن قديما سنة 1848، والأخرى المطبوعة في 1884م، والنسخ القديمة نجد في سفر حبقوق النص في غاية الصراحة والوضوح (لقد أضاءت السماء من بهاء أحمد، وامتلأت من حمده، زجرك في الأنهار واحتدام صوتك في البحار، يا محمد أدن، لقد رأتك الجبال فارتاعت) 2 .

- في نسخة الملك جيمس للكتاب المقدس (Good news Bible)، جاء في سفر أشعيا : (يدفع الكتاب للأمي ويقال له : اقرأ هذا أرجوك فيقول : أنا أمي أي لست بقارئ)، وهو ما أشار إليه القرآن أنه مذكور في عند أهل التوراة والإنجيل، قال تعالى {**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ**} (سورة الأعراف الآية 157).

- في نشيد الإنشاد من التوراة العبرية في الإصحاح السادس، الفقرة السادسة عشر نجد (حكو مَمتَكيم فكِلّو محمديم زيه دودي فَزيه ريعي) وهذا معناه "كلامه أحلى الكلام إنه محمد العظيم هذا حبيبي وهذا خليلي" فاللفظ العبري يذكر اسم محمد جليا واضحا ويلحقه بيم التي تستعمل في العبرية للتعظيم3 .

بل وظهرت العديد من بشارات بالنبي (محمد صلى الله عليه وسلم) في كتب الهندوس، وذلك من خلال الرجوع إلى المصادر الأصلية ودراستها في ضوء قواعد اللغات القديمة والحقائق التاريخية والمعتقدات الدينية، ومن البشارات الواضحة في كتب الهندوس :

---

1 - أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير) 68/6-69، والطبري في "تفسيره" (2072) و (2073) و87/28، وابن حبان (6404)، والبيهقي في "الدلائل" 130/2 .

2 - ينظر سعدون الساموك، الأديان في العالم، مصدر سابق، ص402 .

3 - ينظر عبد المجيد الزنداني، البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه في الكتب السابقة، ص7-8 .

– أنه جاء ذكر اسم أحمد باللفظ العربي في كتاب (السمافيدا) في الفقرتين 6 و7 من الجزء الثاني، ما نصه (أحمد تلقى الشريعة من ربه وهي مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس).

– وجاء في كتاب (أدروافيدم ادهروويدم) ما نصه "أيها الناس اسمعوا وعوا يبعث المحمد بين أظهر الناس..وعظمته تحمد حتى في الجنة يجعلها خاضعة له وهو المحامد*) . وفي ذكر بعض شعائر دينه :

– جاء في بفوشيا برانم (بهوشي بهوشي برانم)1 : (في ذلك الحين يبعث أجنبي مع أصحابه باسم محامد الملقب بأستاذ العالم**والملك يطهره بالخمس المطهرات) وفي ذلك إشارة إلى الصلوات الخمس التي يتطهر بها المسلم من ذنوبه كل يوم، كما جاءت البشارات بنسبه، ومكان بعثته، وصفاته ..2

– وفي كتاب بفوشيا برانم 3 وصف لأصحاب (محمد صلى الله عليه وسلم) بأنهم (هم الذين يختتنون.. وهم مجاهدون وينادون الناس للدعاء بصوت عال ويأكلون أكثر الحيوانات إلا الخنزير ولا يستعملون الدرباء***للتطهير بل الشهداء هم المتطهرون ويسمون بمسلي ****بسبب أنهم يقاتلون من يلبس الحق بالباطل)4 .

– ومما ترجم من كتب الزرادشتية بشأن محمد وأصحابه"إن أمة زرادشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون، وينهض رجل في بلاد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار في هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التي تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون هم أتباع النبي رحمة للعالمين، وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ *وإن نبيهم ليكونن فصيحاً يتحدث بالمعجزات)5 .

---

* – المحامد : محمد

1 – الجزء3، الفصل 3، العبارة 5 وما بعدها .

** – أستاذ العالم : أي رسول العالم .

2 – عبد المجيد الزنداني، البشارات بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة، ص 9، 12، 15، 19، وينظرسامي عامري، محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة، مصدر سابق، ص421- 448 .

3 – الجزء 3، فصل3، عبارات 27، 28 .

*** – الدرباء : نبات يخرج به الهنود الدم من جسم الإنسان، ويعدون هذا العمل تطهيرا من الخطايا .

**** – مسلي : أي يسمون بالمسلمين، دخل عليها شيء من التحريف .

4 – ينظر سامي العامري، محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة، مصدر سابق، ص 455، وينظر عبد المجيد الزنداني، البشارات بمحمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة، ص19 .

* – وهي الأماكن المقدسة للزرادشتيين ومن جاورهم .

5 – سامي العامري، محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة، مصدر سابق، ص455 .

كما جاء اسمه ووصفه، ووصف مكانه وزمانه ولدينه وأصحابه... في كتب البوذيين والصابئة وغيرهم ممن لم يصرح القرآن بأنهم أتباع لنبي أو رسول يوحى إليه، مما يدخل في قوله تعالى { **وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** } (سورة فاطر الآية 24) ...في ذلك إشارة لقوله تعالى{ **وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ**} (سورة الشعراء الآية 196)[1] . فظهور (محمد صلى الله عليه وسلم) وما جاء به هو تصديق لنبوات الأنبياء قبله وكتبهم، وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله وقد أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى في قوله { **بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ** } (سورة الصافات الآية 37)[2]، فالكتب المنزلة جميعها تتفق فيما تدعو إليه من توحيد الله تعالى توحيدا خالصا، وعدم الإشراك به {**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ**}(سورة النحل الآية 36).

وما رأيناه من ملامح التوحيد في بعض الكتب، إضافة للبشارت بنبي الرحمة (محمد صلى الله عليه وسلم) لآخر الزمان، إلا دليل أن **دين الله واحد بلا شك، قوامه التوحيد الخالص، والأنبياء جميعهم يكمل بعضهم بعضا...دون أن نغفل أن التوحيد هو غاية ما يوائم الفطرة وإن حادت عنه أو تنكرت... وأما ضرورة التحري في مصادر الكتب المقدسة، فإن ذلك لعظيم شأنها إزاء الأديان كلها، إذ هي أصل عقائدها ونظم شرائعها وأخلاقها وقيمها ...** وفي ذلك يقول الشيخ (محمد أبو زهرة) : "إن الكتب في الدين هي أساسه، فإن لم تكن صحيحة بدرجة يكون معها الإطمئنان إليها، أو تطرق إليها الريب من أي جانب.. يتهدم الدين من أساسه، ويؤتى من قواعده، ولا يكون شيئا مذكورا في الأديان بل يكون طائفة من أساطير الأولين اكتتبها طائفة من الناس، وادعوها دينا، ونسبوها لشخص معترف به، لتروج عند العامة وتدخل في أوهامهم، ويعتمدون على الزمان في تمكينها في نفوسهم وقلوبهم"[3] .

المبحث الثاني : العناصر المكملة في الدين

وإن كان حديثنا هنا عن المكونات المكملة للدين في مقابل مكوناته الأساسية، فإن ذلك لا يتضمن تقليلا من شأن هذه العناصر أو أهميتها، بل إن ذلك بالنظر إلى أولويتها في تكوين الدين والتعرف على الظاهرة الدينية مباشرة، ومدى ارتباطها بتواجد الدين أو استقلالها عنه، من ذلك الأخلاق

---

1 – ينظر المصدر نفسه، ص449، 455، 461 .

2 – ينظر ابن القيم، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، بيروت : دار الكتاب العربي، 1426ه، 2005م، ص71 .

3 – محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، مصدر سابق، ص72 .

والشرائع .. أو لأن بعض الديانات قد ترتكز على عنصر، ويكون فيها وجوده فيها محوريا بحيث لا يقوم الدين إلا به، غير أننا لا نعثر عليه في بعض الأديان ذات الشأن أو العالمية.. بل لعلها ترفض كونه من بنية الدين أصلا، من ذلك الأسطورة، السلطة الدينية ..

المطلب الأول : الأخلاق والشرائع

تتصل الأخلاق بالدين، عبر التاريخ الإنساني اتصالا وثيقا لا يخْفَ أبدا، ولا أدل على هذا الاتصال من أن أصحاب الرسالات الكبرى في التاريخ البشري، قد أكّدوا على الأخلاق واعتبروها جزءا لا يتجزأ من تعاليمهم الدينية، فهذا خاتم الأنبياء والمرسلين (محمد صلى الله عليه وسلم) يعلمنا أنه "بعث ليتمم صالح الأخلاق" 1 مما يحمل على القول بأن الدين والأخلاق وجهان لظاهرة واحدة، أو أن الرسالة الدينية تظهر غالب الأحيان في قالب أخلاقي، فما مترلة الأخلاق من الدين؟ وما العلاقة بينهما؟

الأخلاق هي : "مجموع قواعد السلوك الإنساني، ويسمى علم الأخلاق بعلم السلوك، أو فلسفة الأخلاق.. والمقصود به معرفة الفضائل، وكيفية اقتنائها، لتزكو بها النفس، ومعرفة الرذائل لتتتره عنها النفس، وكذا هو الحكمة العملية التي تفسر معنى الخير والشر" 2 فوظيفة علم الأخلاق هي وضع المثل العليا للسلوك الإنساني، وإيجاد مقياس للحكم العقلي يمكن الإنسان من التمييز بين الخير والشر، علما بأن المعايير والمثل العليا تختلف باختلاف الأزمنة والمعتقدات التي يلتزم بها الإنسان والأمم3 .

ويحفل الفكر المعاصر بتصنيفات عديدة للقيم والأخلاق، كل من التصنيفات ينظر إليها من زاوية من زواياها، فقسمت إلى نمطين رئيسين : القيم العابرة والقيم الدائمة، بالنظر إلى معيار الثبات والمدة الزمنية، وواضح أن القيم العابرة هي القيم العارضة سريعة الزوال، وغالبا ما تكون تعبيرا عن مرحلة معينة يجتازها المجتمع، وأما القيم الدائمة فهي تلك المتصفة بالدوام النسبي بحيث تظل زمنا طويلا مستقرة في نفوس الناس، تتناقلها الأجيال جيلا عن جيل، كالحق والخير مثلا، وعليه فهناك أخلاق نسبية (وهي المقررة في زمان معين ولمجتمع معين) وأخلاق مطلقة (وهي الثابتة التي تصلح لكل زمان

---

1 - أخرج أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا بإسناد حسن (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)، وفي رواية (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)، والحديث كما أخرجه أحمد (2: 31)، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (78)، والحاكم في المستدرك (2: 613)...وقال الحاكم : هو صحيح على شرط مسلم

2 - جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص50 .

3 - محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص27 .

ومكان)...أو قيم خاصة وقيم عامة وكل ذلك بالنظر إلى القيم باعتبار الشيوع والانتشار، كما قسمت إلى مادية وروحية،...1

والأخلاق ضرورة اجتماعية لا ينفك عنها مجتمع منظم، سواء اتصف بالتقدم أو بالتأخر، فهذه القيم تلعب دورا بالغ الأهمية في حياة الأفراد من حيث صياغتها للاتجاهات والدوافع، وبنائها للمعايير والأهداف، والرأي عند بعض العلماء أن اصطلاح القيمة (value) مرادف أو معبر عن اصطلاح نافع (useful)، أو (لائق)، وغيرهم من يقول بأن القيم وثيقة الارتباط بالأفكار الاعتقادية وبالذات المتعلقة منها بفوائد الأشياء في المجتمع، إذ الغالب أنها تعبر عن (المرغوب فيه) و(المرغوب عنه) من وجهة نظر المجتمع2 .

والتشابك بين الدين والأخلاق متين جدا، فالدين يؤدي بعض الوظائف التي تعدّ على جانب كبير من الأهمية في تقوية ودعم القيم الثقافية، وعلى الرغم من أن أديانا قليلة يبدو أنها ترتبط صراحة بالأخلاق والفضيلة، فمن الحق أن يقال بأن جميع الأديان أو معظمها تميل إلى دعم مستويات معينة من السلوك محددة ثقافيا وتؤكدها، ويضرب مثلا لذلك (التابو) *، رغم أنه قد يبدو ظاهريا في مجتمعات معينة أنه لا يعير القيم الأخلاقية سوى اهتمام ضئيل، إلا أن حالات قليلة —إن وجدت — تقف فيها العقائد الدينية في تعارض مع القيم التي تلقى تأييدا اجتماعيا3 .

وفي مؤسسة الـــ(التابو) يمكن أن نلمح نقطة اتصال بين الأخلاق الاجتماعية والأخلاق الدينية، حيث يشكل التابو عددا من التحريمات أو المحذورات المتصلة بالعلاقة بين العالم الدنيوي، وعالم المقدسات، ذلك أن الإتيان بها يؤدي إلى غضب الله، أو الآلهة، ويكون مقترفها مذنبا، مستحقا للعقاب، وعليه التكفير عما ارتكب من الذنوب... 4ومرجح الظن أن ذلك الاتصال يعود لاتساع دائرة المحرمات لتشمل تدريجيا بعض القواعد الأخلاقية التي كانت إلى وقت ما شأنا دنيويا تنظمه

1 – منال عبد المنعم، التصوف في مصر وفي المغرب، ص87 ، وينظر جميل صليبيا، المعج الفلسفي، ص52 .

2 – المصدر نفسه، 87 .

* – التابو (Taboo) لفظ أصله بولينيزي، يعني (المحذورات) (المحرمات)، أنماط معينة من السلوك، يحجم عنها لعدم مشروعيتها الدينية، لعدم تعدي حدود قوى إلهية أو سحرية، ومن هذه المحرمات منها ما يتصل بالأشخاص، أو بالأفعال، أو بالأشياء، ويكون مرتكبها مستحقا للعقاب، ولا تكفر خطيئته إلا عبر ط قوس تطهيرية (عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، ص445) .

3 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص445 .

4 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص72، وينظر زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص204-205 .

الأعراف القبلية، في الوقت الذي أخذت فيه التحريمات القديمة تفقد سطوتها مع تغير المفاهيم الدينية[1].

وبمثل ذلك التوسع والاستيعاب كان الامتزاج والاختلاط بين الدين والتابوهات القبلية أو الشعبية القديمة، وهذا ما نراه بوضوح في كتاب التوراة (العهد القديم)، فمع الوصايا الأخلاقية العشر في سفر الخروج، يستلم موسى عددا من التحريمات التي لا يمكن تفسيرها إلا على ضوء مفهوم التابو البدائي، وهي تهبط من السماء باللهجة الإلزامية للوصايا العشر نفسها، نقرأ في سفر الخروج : (وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق، وصوت البوق والجبل يدخن... وأما موسى فاقترب إلى الضباب حيث كان الرب، فقال الرب لموسى، هكذا تقول لبني إسرائل.. مذبحا من تراب تصنع لي.. وإن صنعت لي مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة، إذا رفعت إليها إزميلك تدنسها، ولا تصعد بدرج إلى مذبحي كيلا تنكشف عورتك) [2]إلى غير ذلك من النصوص التي شهدت الالتحام التدريجي بين الوصايا الأخلاقية ووصايا التابو)[3] .

وإن زعم البعض استقلال الأخلاق عن الدين، وأن الأخلاق نتيجة بحث المرء عن الخير الذاتي، وهي متعلقة بالفهم السليم للعلاقات الإنسانة المتبادلة [4]، إلا أن الفضائل الأخلاقية تحتاج إلى محكات دينية تقاس درجة تلك الفضائل على أساسها، إذ بدون المساندة الدينية تصبح الأخلاق أفكارا سابحة في الفضاء أو معلقة في الهواء، وبذلك تعمّ الفوضى كل المجالات السلوكية وأجواء العلاقات الاجتماعية[5]، فلما كان للإنسان غرائز متضاربة، إذ هو جسد وروح، وشهوة وعقل، فقد تتعارض مطالبه ومطالب المجتمع، ذلك أن القانون وحده لا يكفي لضبط السلوك الإنساني، إذ كثيرا ما يلجأ الإنسان إلى التحايل على نصوصه ويطوعها لأهوائه الشخصية، كما أن الفلسفة الأخلاقية لا تغني، فهي قد تتضارب تضارب الفلاسفة ومذاهبهم ومقاييسهم، وقوة الإلزام في القانون الديني، أقوى من إلزام القواعد الأخلاقية، بل أقوى من سائر القوانين المنظمة لعلاقات الأفراد والشعوب، حيث اتباع الفضائل صورة من الطاعة لأوامر الدين، وباب من أبواب القربان والعبادات الإلهية[6] .

---

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص74 .

2 – العهد القديم، سفرالخروج : 20: 18-26 .

3 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص76 .

4 – ينظر جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، مصدر سابق، ص52، وينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص71 .

5 – زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص47 .

6 – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص65 .

وإذا كانت العقيدة هي قطب الرحى في الأديان، فإن الشخص الذي يؤمن بعقيدة يجب أن يؤمن بالضرورة بقيم أخلاقية، ومثل أدبية غير منفصلة عن الإيمان بالوجود الإلهي، ولكي يحيا المرء حياة فاضلة ويحظى بالرعاية الإلهية، فإن ذلك يحتاج إلى مجموعة من القيم والمبادئ المعينة...فلابد للعقائد أن تكون صادقة في إصلاح علاقات البشر، وقادرة على أن تغرس في نفوس العامة التمسك بأهداب الفضيلة1 .

ولقد أثر علو شأن الأخلاق في الحياة الدينية، بشكل خاص – مبالغ فيه- في بعض الديانات من ذلك الديانة الزرادشتية الإيرانية، مما أدى إلى ظهور إله مختص بأمور الشر، في مقابل إله الخير المحض، وفي هذه الديانة يجري تصور الكون برمته على أنه نظام أخلاقي قطباه قوتان، الأولى خير محض (أهورامزدا)* والثانية شر محض (أهرمن) **، وفي هذا التقسيم مدعاة لــ(الثنوية)، ومثل الزرادشتية في هذا وريثتها الفكرية (المانوية)2 .

ورغم أن الإنجيل (العهد الجديد) مفعم بالتعاليم الأخلاقية، إلا أنه مثقل بالأخلاق المتناقضة، وإذا تفحصنا النصوص المتعلقة بالأخلاق نجد من ذلك : (ويل لكم أيها الكتبة الفريسون المراؤون، لأنكم تعشرون بالنعنع والشبت والكمون، وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان) 3، ومن الوصايا الخلقية الواردة في الإنجيل أيضا (أنت تعرف الوصايا : لا تزن ، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك)4، وكذلك (فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا أيضا بهم : لأن هذا هو الناموس والأنبياء)5، (أنا أعطيكم أن تحبوا بعضكم بعضا)6 ...

وهكذا يتجلى الرجحان للأخلاق المستقلة عن الطقوس، ليعرب الإنجيل بوضوح عن أنه لا دنس سوى الدنس الأخلاقي، فكأنه، لا رجس، فلا طقوس طهارة !! (اسمعوا مني كلكم وافهموا، ليس شيء من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه، لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجس

---

1 – زيدان عبد الباقي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص273-274 .

* – أهورامزدا : كلمة مكونة من (أهو) و(را) و(مزدا) ومعناها على الترتيب (أنا . الوجود . الخالق) أو (أنا خالق الكون) . (ينظر فراس السواح، دين الانسان، ص78)

** – أهرمن : كلمة مرادفة لروح الشر، أو روح الأذى والفساد (ينظر فراس السواح، دين الانسان، ص78) .

2 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، ص78، وينظر عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية، مصدر سابق، ص42 .

3 – إنجيل متى (23:23)

4 – إنجيل مرقص(10: 19)، وانظر (إنجيل متى (19: 18) ، وإنجيل لوقا (18: 20) .

5 – إنجيل متى (7: 12)

6 – إنجيل يوحنا (13: 24)

الإنسان)...(إن الذي يخرج من الإنسان ذلك ينجس الإنسان لأنه من الداخل من قلوب الناس تخرج الأفكار الشريرة : زنا، فسق، قتل سرقة، طمع، خبث، مكر، عهر، عين شريرة، تجديف، كبرياء، جهل، جميع هذه الشرور تخرج من الداخل وتنجس الإنسان) 21، فالإنجيل بهذا يعد الخطيئة الأخلاقية وحدها رجس، دون إعارة اهتمام للدنس المادي .

وعن التناقض بخصوص نصوص الأخلاق في الإنجيل (العهد الجديد) فإن ذلك يبدو إذا طرحنا في مقابل ما مضى من نصوص تفصل الأخلاق عن الطقوس، نجد في الإنجيل ما يؤكد على لسان المسيح في إنجيل لوقا (فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى الأصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات)، (ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن نسقط نقطة واحدة من الناموس) 3، وهنا يعلي الإنجيل من شأن الوصايا والناموس، فالعلاقة بين الدين والأخلاق في المسيحية، ليست على وتيرة واحدة، بل هي متناقضة، بل ربما تنحدر الأخلاق إلى منزلة ثانوية، ذلك أنها تصبح لا قيمة لها، إذا لم يولد المرء ولادة جديدة بالماء، و لم يأكل من جسد المسيح 4؛ إشارة في ذلك إلى شعيرتي التعميد والعشاء الرباني، ومثل ذلك العلاقة بين الأخلاق والإيمان؛ على نحو من التناقض والاضطراب (من ثمارهم تعرفونهم) 5 حين تكون تكون الأخلاق ثمرة للإيمان... وأحيانا تغني الفضائل عن الإيمان (فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم، لأن هذا هو الناموس والأنبياء) 6... وتارة لا قيمة للأخلاق البتة بل بالإيمان وحده يكون الخلاص (من آمن واعتمد خلص)7...8

وأما عن الإسلام، فإنه يعلي من شأن الأخلاق، ويعلن منذ البداية صلتها بالدين، فليس هناك فصل بين الدين والأخلاق، ولذلك تقترن التكاليف بالوصايا والأخلاق كقوله تعالى { **وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** } (سورة الإسراء الآية 23)، كما شغلت الوصايا الأخلاقية الحيز الأكبر من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ... 8 والحق أن للإسلام صرح من مكارم

---

1 - إنجيل مرقس (7: 1-16)، و(7: 1- 23)

2 - ينظر ألبير بايه، أخلاق الإنجيل (دراسة سوسيولوجية)، تر: عادل العوا، دمشق: دار الحصاد، ص 16- 17 .

3 - إنجيل متى (5: 17- 19)، إنجيل لوقا (16: 17) .

4 - ينظر ألبير بايه، أخلاق الإنجيل، مصدر سابق، ص20- 26 .

5 - العهد الجديد، إنجيل متى7: 16 .

6 - إنجيل متى (7: 12)

7 - إنجيل مرقس (16 : 16)

8 - ينظر ألبير بايه، أخلاق الإنجيل، مصدر سابق، ص26- 27 .

الأخلاق والقيم السامية، جمعها رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم حين قال "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[1] وهناك نجد ثلة من القيم المثلى التي دعا وحث عليها نذكر منها : العدل، الإحسان والرحمة والإيثار، والصدق في القول والعمل، والاستقامة والمودة، والعفو والتعاون، والعفة، والقصد، أضف إلى ذلك الصبر وكظم الغيظ، والتواضع والحلم، والوفاء....وما إلى ذلك من أعمال البر والتحلي بالفضائل، وفي المقابل نهي عن الفجور والفسق، وسائر أنواع الظلم والعدوان، والنفاق والغيبة والإضرار بالغير وكذا الفساد... وما شابه ذلك من أفعال الإثم والأعمال المنكرة ...كما نهى عن الغلظة والتكبر والبطر والغش والغضب والجبن والبخل...وما إليه من سيء الأعمال ورذيلها...

ومما يلحق بالأخلاق (الشرائع)، فالشرائع ليست إلا جزءا من الأخلاق العامة لكنها مؤيدة بالجزاء والعقوبة، فالقواعد التشريعية أول الأمر هي ضوابط أخلاقية، تؤول إلى قضية تشريعية حين ترفق بالحدود مثل ذلك حد السرقة وحد الزنا وحد القتل ...ويمكن القول أن التشريعات مما ينبئ عن علاقة الأخلاق بالدين، وأنها جزء لا يتجزأ من الدين فلا يكفي المرء أن يؤمن ويعتقد ثم يتعبد، ضاربا بالأخلاق عرض الحائط [2] . وأكثر ما يتجلى هذا الأمر في الإسلام لربطه الكامل بين الحياة الدينية الروحية والحياة الاجتماعية للأفراد والجماعات، (فاجتناب الزنا قاعدة أخلاقية ولكنها مؤيدة بعقوبة تلحقها بالشريعة، فالقاعدة الأخلاقية منصوص عليها في (سورة الإسراء الآية 32) {**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا** } وقاعدها التشريعية منصوص عليها في (سورة النور الآية 2){**الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**})[3] .

ونجد في كتاب التوراة (العهد القديم) هذين النوعين من الأحكام الأخلاقية والتشريعية، فالفقرات5، 8، 10، من الوصايا العشر هي قواعد أخلاقية (أكرم أباك وأمك، لا تشهد على قريبك شهادة زور..)، أما الفقرات 6، 7، و8، فتندرج في لوائح التشريع، وهي (لا تقتل لا تسرق لا تزن)، وعقوباها مدجة أسفار الخروج والعدد والتثنية (سفر التثنية22: 13- 28)4 .

---

1 – أخرج أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعا بإسناد حسن (إِنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صَالح الأَخلاق)، وفي رواية إِنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخلاق)، والحديث كما أخرجه أحمد (2: 31) والبزار، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (78)، وقال الحاكم : هو صحيح على شرط مسلم .

2 – ينظر فراس السواح، دين الانسان، مصدر سابق، ص79 .

3 – المصدر نفسه، ص80 .

4 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص80 .

ومن شرائع المسيحية الواردة بالعهد الجديد؛ شريعة تحريم لحم الخنزير، حيث يورد العهد الجديد بنصوصه الحالية أن يسوع قد أهلك ألفي(2000) خنزير ليشفي إنسانا واحدا، ومما يؤكد ذلك النص التالي (فطلب إليه كل الشياطين قائلين أرسلنا إلى الخنازير لندخل فيها فاذن لهم يسوع للوقت، فخرجت الأرواح النجسة ودخلن في الخنازير فاندفع القطيع في الجرف إلى البحر، وكان نحو ألفين، فاختنق البحر)1 .

وما عقيدة (الكارما) الهندوسية، إلا قانونا جزائيا يقرر إن كان الإنسان صالحا في واحدة من دورات حياته الحلولية، فإنه يلقى جزاء ذلك في الدورة الثانية ...فليس للمرء مفر من جزاء أعماله، فهو يحاسب عليها ثوابا أو عقابا وفقا لناموس العدالة الصارم 2 . كما يجمع مفهوم الدهارما (Dharma) الهندوسي ما بين الدين والتشريع في وحدة متكاملة، فإضافة إلى أنها تعني كل المعتقدات الدينية التي يقوم عليها الدين، فإنها تعني أيضا جملة الشرائع التي تقوم على تلك المعتقدات..، ومن الهندوسية إلى البوذية انتقل مفهوم (الدهارما) أين تشكل مفهوم القواعد والشرائع الأخلاقية المستمدة من مواعظ بوذا3 .

ففي حين تقوم الديانة البوذية على الفصل بين الدين والأخلاق، حيث ميزها الطابع الدنيوي للأخلاق والشرائع، إلا أن تعاليم (بوذا) تعد منهجا خلقيا لفلسفة اجتماعية، غايتها التخفيف من آلام الناس والعمل على إسعادهم، وإلغاء الطبقات، وتحقيق المساواة بين البشر، رغم أن (بوذا) وأتباعه أنكروا وجود الله، وبذلك أخذت (النيرفانا) طريقها في فلسفتهم، وتقوم أسس الديانة البوذية على فلسفة (الحب والسلام)4.

وفي الديانة الصينية سلَّم (كونفوشيوس) بشرائع السماء، وبذل جهده في إصلاح الناس، فكان الدين عنده مواساة اليتيم، والبر بالفقراء والمعوزين، ركزت كتبه الخمسة على تطهير النفس وتتريهها وإبعادها عن السقوط في براثن الخطايا والآثام، وليس في كتبه ما يخص العبادات، بل إنه وضع كتابه (المراسيم) (لي.ك.انج) من أجل أن لا يقبل الناس على الطقوس الدينية ويهملوا الخلاصة والروح، وحدد (كونفوشيوس) لأتباعه الفضائل* ونهاهم عن شرور أربعة1، ويعد كتاب (الأخلاق والسياسة)

---

1 - إنجيل مرقس (5: 12- 14) .

2 - ينظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص402 .

3 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص80 .

4 - عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية، مصدر سابق، ص39 .

* - الفضائل في الكونفوشيوسية : هي احترام الوالدين وطاعة الصغير والكبير، والوفاء والأخلاق والحشمة والأدب والحياء والإحساس بالخجل، أما الشرور الأربعة فهي : (فرض العقوبة بدون نص قانونيفإنه طغيان، توقع الطاعة

المنسوب إليه، الذي تضمن نصائح ومواقف لكونفشيوس، كله تعاليم وقيم توجه الإنسان باتجاه الكمال2 . فالديانة الكونفشيوسية في حقيقتها مذهبا خلقيا صارما وضع أسسه حكيم صيني، لتصير مذهبا رسميا للبلاد، فالأخلاق هي غاية ما تدعو إليه الكونفشيوسية .

فقد حلم (كونفشيوس) بصنع الإنسان الأعلى؛ الذي تجتمع فيه الفضائل ويكون بسبب حساسيته الخلقية معيارا لنفسه، فالنظام الأخلاقي مزروع في النفس الإنسانية وهو انعكاس للنظام الأخلاقي الكوني، وما على الفرد إلا أن يحاول الانسجام مع هذه الأخلاق الكونية، وهو يقول "إن حياة الفرد الأخلاقي تقوم على احتداء النظام الخلقي الكوني والانسجام معه، أما حياة الأوغاد فتقوم على معاكسة ذلك النظام الكوني"... "إن الغاية الأسمى للإنسان هي العثور على مفتاح كيانه الأخلاقي الذي يوحده بالنظام الكوني" 3، فالأحداث الكونية-حسب كونفشيوس- تابعة للأخلاق، فكلما سادت الفضائل، اعتدل الكون، ويضطرب الكون حالما اختلت الأخلاق وحادت الإنسانية عن السلوك القويم والفضيلة، وتحلي الإنسان بالفضيلة والخلق، يجعله مؤتلفا مع نظام الكون، فالجزاء بالثواب أو العقاب إنما يكون في الدنيا والذي يظهر أثره في قوى الطبيعة وقوانينها .

ومن الشرائع المشتركة بين أغلب الأديان موضوع (الختان) ففي بابل كان الختان نوعا من القربان للآلهة، وتفيد الآثار أن السوريين قديما كانوا يختتنون، وذكر (هيرونيموس)(Jerome)4 أن (الأدوميين) والعمونيين والمؤابيين الإسماعليين كانوا يختتنون، وجاء في كتاب كهّان مصر القديمة بصدد الحديث عن النظافة، أن الختان كان واحدا من المصادر الأساسية المتعلقة بنظافة الجسد، كما كان الآراميون يختنون أطفالهم5 .

التامةبغير تخير مناسب فهو فجور، فرض الضرائب والغنفاق بتقتير فإنه إساءة استعمال الحكم، توقع الإنصياع الفوري للأوامر المتأخرة فإنه سرقة) .

1 - عبد الرزاق الموحي، العبادات في الأديان السماوية، مصدر سابق، ص39 .

2 - محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص452 .

3 - نقلا عن فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص83 .

4 - هيرونيموس : (Jerome) (347- 420م) قس وثيولوجي، ومؤرخ ومترجم للكتاب المقدس، يحتفل بذكراه في التقويم الغربي يوم 30 أيلول (سبتمبر) يكمن عمل جيروم الرئيسي في إعادة ترجمة الكتاب المقدس من اللغة العبرية إلى اللاتينية، إضافة لأعمال أخرى منها : قاموس الأسماء الكتابية، والأصول اللغوية، وتفسيرات كتابية اعتمد فيها بشكل كبير على أوريجانوس رغم أنهُ وقف ضدّه في الأمور العقائدية (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج22، ص45) .

5 - ينظر محمد عاشور، الختان في الشرائع السماوية والوضعية، دار الإتحاد العربي للطباعة، ص41- 43 .

أما عن الشرائع السماوية فإن العهد القديم ينص على جوب الختان، وتجعل منه دعامة العهد بين الله وبين سيدنا (إبراهيم عليه السلام) ومن النصوص التي توجبه (يختتن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك فيكون عهدي في لحمكم عهدا أبديا) 1 كما يندد العهد القديم بعدم الختان (وأما الذكر الأغلف الذي لا يختتن في لحم غرلته، فتقطع تلك النفس من شبعها إنه نكث عهدي) 2، وبقيت شريعة اليهود في الختان قائمة على ما فيها من نصوص، حتى جاء (بولس) وأباح للمسيحيين عدم الاختتان دون اكتراث حيث جاء بـــ(لأن اليهودي في الظاهر ليس يهوديا، ولا الختان الذي في ظاهر اللحم ختانا، بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي، وختان القلب بالروح لا بالكتاب هوالختان..) 43.

وعموما فإن الأخلاق والشرائع والقيم هي صور من الالتزام بعقائد وأوامر الدين، ولذلك فإن الفلسفة الخلقية لأي دين هي انعكاس لنظرياته العقدية .

المطلب الثالث : الأسطورة

تعتبر الأسطورة مصدرا تاريخيا هاما، وهي ظاهرة من أهم ظواهر الثقافة الإنسانية، وجدت عند أغلب الشعوب القديمة، لحقبة زمنية لم تكن فيها الكتابة أو المصادر المكتوبة، لكن هذا المصدر يكتنفه غموض كبير بالنسبة إلينا، وأسئلة كثيرة لفهم منشئه ومضمونه، وكيفية نقله وتوارثه، فما هي الأسطورة وما حقيتها أولا، وما مضمونها؟ وما علاقتها بالدين، أو دورها في تكوينه ؟

بداية نتفحص ورود مصطلح (الأسطورة) في اللغة العربية ومعناه، إذ ليست الأسطورة كلمة مستحدثة في هذه اللغة، بل لها جذورها اللغوية، وما المضامين المستخدمة حديثا إلا استنادا إلى مضامينها القديمة، وتفيد المعاجم العربية بأن كلمة أساطير مأخوذة من السطر؛ الخط والكتابة، والسطر الصف من الكتاب، أو الشجر أو النخل، ونحوها، والجمع من كل ذلك أسطرا وأسطارا وأساطير،كما معناه : أحدوثة وأحاديث، وعند (ابن كثير) أساطير الأولين : كتب الأولين، وسطر علينا : جاءنا بالأساطير، وهي زخرف الأقاويل ومنمّقها، وهي الأباطيل والأحاديث لا نظام لها

---

1 – سفر التكوين: (17: 13) .

2 – سفر التكوين (17: 14) .

3 – العهد الجديد، رسالة بولس إلى أهل رومية .

4 – ينظر أحمد ديدات، عتاد الجهاد والرد على خصوم الإسلام بالحجج والبرهان، تر: علي الجوهري، القاهرة : دار الفضيلة، ص18 .

(الأساطير) الأحاديث لا نظام لها، وهنا هي جمع، وسطر تسطيرا : ألف، إسطار وإسطير بمعنى الأباطيل، والحكاية التي لا أصل لها واقعي...1

ويتضح معناها جليا في اللغة العربية حين نعثر عليها في (سورة الفرقان الآية 5) في قوله تعالى {وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } وهي في معرض اتهام الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم بأن ما جاء به ليس إلا أساطير الأولين، ويعنون كتب الأوائل أي استنسخها، ويعنون أحاديثهم التي كانوا يسطرونها في كتبهم 2. فالأسطورة في اللغة العربية، تشير إلى ما يتضمن معنى الحكاية والأقاويل التي لا أصل لها في الواقع، فهي أحاديث القصص التي نسجتها مخيلة الإنسان .

والجذير بالذكر أن هذه المعاني والاشتقاقات لكلمة أسطورة في اللغة العربية لها ما يقاربها في اللغات الأوربية، فكلمة (Myth) في الإنجليزية والفرنسية وغيرها، مشتقة من الأصل اليوناني (Muthas) وتعني "حكاية شعبية أو أدبية تضم كائنات خارقة وإجراءات خيالية تنقل الأحداث التاريخية"، وكان (أفلاطون) أول من استعمل تعبير (Mythologia) للدلالة على فن رواية القصص، وبشكل خاص ذلك النوع الذي ندعوه اليوم بالأساطير، ومنه جاء تعبير (Mithology)* المستخدم في اللغات الأوربية الحديثة 3 .

أما عن لغات الشرق القديم كالآكادية والحيثية، فلم يعثر لها على مصطلح خاص ميزت به تلك الحضارات الحكاية الأسطورية عن غيرها فالأرشيف السومري مثلا لم يميز النصوص الأسطورية عن غيرها أو يدرجها في تسلسل خاص، بل تركها موزعة بين النصوص الأخرى التي تدور حول موضوعات شتى مثل الحكمة والأمثال الأدعية والوصايا وما إليها4 .

فالقدماء لم يعملوا على تمييز النص الأسطوري عن غيره، ولا هم دعوه باسم خاص يساعد على تمييزه بوضوح بين ركام ما تركوه من حكايات وحكم وأناشيد، وصلوات وتراتيل وما إليه... يتضح

---

1 - ينظر ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج، 4، ص361 ، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص407 .

2 - ينظر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، مصدر سابق، ص360 .

* - الميثيولوجيا : (Mythology) هي علم دراسة الأساطير أو الدراسة العلمية للأساطير، ويتكون المصطلح من مقطعين: من الجذر اليوناني (Myth) = قصة أو حكاية، أو من الجذر(Mythos) = قصة غير واقعية، والثاني هو (Logy) ويعني العلم أو الدراسة العلمية، وهو مشتق من الجذر (Logos) الذي يشير في الفلسفة إلى المبدأ العقلي .

3 - ينظر فراس السواح، الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثيلوجيا والديانات المشرقية)، ط 2، دمشق: دار علاء الدين، ص8.

4 - ينظر المصدر نفسه، ص8 .

ذلك في التراث السومري والتراث الإغريقي، ومع ذلك فقد كانوا يميزون بدقة بين القصص الحقيقية التي ترتبط بالمعتقدات الدينية (الأساطير) والقصص الزائفة ذات المضمون الأدبي البحت، ثم إن عنوان الأسطورة غالبا ما كان يتخذ من سطره الافتتاح الأول، شأنه شأن بقية النصوص الطقسية والملحمية، وذلك في بيوت الألواح السومرية والبابلية وكذا الإغريقية1 .

فمن حيث الشكل فإن الأسطورة هي شكل من أشكال الأدب، وهي قصة تحكمها قواعد السرد القصصي..، وجرت العادة أن يصاغ النص الأسطوري في قالب شعري يساعد على ترتيله وتداوله شفاهة بين الأفراد وعبر الأجيال، ويزوده بسلطان على العواطف والقلوب، فمعتقدات الإغريق تقوم على أساطير وروايات لم تكن مكتوبة في الأصل، بل كان هناك قصاصون ورواة، ينشدونها مصحوبة بالقيثارة، وقد يكون الشاعر (يوهوميروس) 2 من القرن التاسع أو القرن الثامن قبل الميلاد، هو أول من دون الأساطير القديمة لليونان، وينسب إليه جمع (الإلياذة) و(الأوديسة)...3

وبالنسبة للحجم فإن الهند تأخذ أكبر مساحة من هذه الناحية، فملحمة (المهابهارتا) تقع في مئة ألف بيت مما يثير الحس الشعري ويمكن من تقوية الأسطورة...وشأنها شأن أسطورة البطل (ماوي) مقتفي الأثر والذي يصطاد الجزر من أعماق المحيط الهادي...وهؤلاء الشعراء رموا بسناراتهم بحمى جميلة في أعماق اللاوعي الخلاق..4

والأسطورة قصة تقليدية، بمعنى أنها تحافظ على ثبات نسبي، وتتناقلها الأجيال بنصها عبر فترة طويلة من الزمن طالما حافظت على طاقتها الإحيائية بالنسبة إلى الجماعة، فأسطورة هبوط (إنانا) إلى العالم الأسفل، وهي أسطورة سومرية من أواسط الألف الثالث قبل الميلاد قد استمرت في صيغتها الأكادية المطابقة تقريبا للأصل السومري، حتى أواسط الألف الأول قبل الميلاد،... غير أن خصيصة الثبات هذه لا تعني الجمود، فالفكر الأسطوري يتابع على الدوام خلق أساطير جديدة، كما لا يجد غضاضة في التخلي عن تلك الأساطير التي فقدت حيويتها5 .

---

1 – ينظر فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص11- 14 .

2 – يوهوميروس : شاعرٌ ملحمي إغريقي أسطوري، عاش حوال القرن الثامن قبل الميلاد، نسبت إليه الملحمتين الإغريقيتين الإلياذة والأوديسة بشكل عام، وهي تمثل تراكما لقرون عديدة (ينظر الموسوعة العربية، ج22، ص11) وينظر (west Martin, The Invention of Homer, Classical Quarterly, 1999 , p49)

2 – ينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص20 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص20 .

4 – آرثر كوتل، قاموس أساطير العالم، تر : سهى الطريحي، دمشق : دار نينوى،1430ه، 2010م، ص12 .

5 – فراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص14 .

والقصص الأسطورية ليست نتيجة التجربة الفردية، وردود أفعالها، ولكنها تنتج وتحفظ ويسيطر عليها بالعمل والتفكير الجماعي للمجموعة الدينية، وهي تعيش وتجدد المصداقية الدائمة، كما جاء فيها محتويات عن مختلف الأجيال، ويعاد صياغتها وتركيبها، وتعطي معاني جديدة لها من خلال عملية خلاقة غامضة وقبول غريزي جماعي، وهي مؤثرة بصورة أساسية على مستوى اللاوعي والحدس والشعور والخيال، تطبع تفصيلاتها في الذاكرة، وتغوص لتكشف عن مختلف أنواع المعاني بالنسبة للتجربة والاحتياجات النفسية الحياتية1 .

أما عن أصل الأسطورة وتعريفها الإصطلاحي، فهناك عدة آراء، فبداية من (أفلاطون) 2 كأول مستخدم للمصطلح، فإن الأسطورة ليست أكثر من حكاية القصص والتي توجد فيها شخصيات أسطورية..3 وتقول نظرية أخرى إن الأسطورة مستقاة من الطقوس، فبعد مرور زمن طويل على ممارسة طقس معين، وفقدان الإتصال مع الأجيال التي أسسته، يبدو الطقس خاليا من المعنى ومن السبب والغاية، فتلح الحاجة لإعطاء تفسير له وتبرير، وهنا تأتي الأسطورة لتبرير طقس لا يريد أهله التخلي عنه... ومن ناحية أخرى ينظر إلى الأساطير كقصص شعبية يقوم الشعراء بإعادة صياغتها لتمتص جزءا من المعتقدات الدينية ...إلى غير ذلك من الاتجاهات التي تعددت في تفسير أصل الأسطورة4.

أما (روبرتسون سميث)5 فقد رأى بأن الأسطورة تحتل مكانة التعاليم في جميع النظم الدينية القديمة، القديمة، لكنها غير ذات وازع مقدس أو قوة ملزمة للعابدين بالتالي، فالأسطورة ليست جزء جوهريا من أجزاء الديانة، والعابد ملزم بأداء الشعيرة، لكنه غير ملزم بتصديق ما جاء في الأسطورة، فالشعيرة

---

1 - آرثر كوتل، قاموس أساطير العالم، مصدر سابق، ص12 .

2 - أفلاطون : باللاتينية (Plato) (427- 347 قبل الميلاد) فيلسوف يوناني كلاسيكي رياضي، كاتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا كأول معهد للتعليم العالي الغربي، وواضع الأسس الأولى للفلسفة الغربية . (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ، ص71) .

3 - آرثر كوتل، قاموس أساطير العالم، مصدر سابق، ص7- 8 .

4 - ينظر صلاح أبو السعود، قصة الطوفان (في نصوص الأسطورة والتوراة والقرآن)، ص10- 11 .

5 - روبرتسون سميث : (William Robertson Smith) (1846- 1894) مستشرق أسكتلندي وعالم في العهد القديم وأستاذ الإلهيات وقس كنيسة إسكتلندا الحرة ، كان من محرري الموسوعة البريطانية وهو معروف بكتابه (بن الساميين) الذي يعتبر نصا أساسيا في مقارنة الأديان، ومن مؤلفاته : النسب والزواج في بلاد العرب قبل الإسلام . (الموسوعة العربية الميسرة، موسوعة شبكة المعرفة الريفية،1965م) .

ثابتة، أما الأسطورة فمتغيرة، وعلى هذا فالدارس للأساطير عليه بدراسة الشعائر ليصل إلى تفسيرات للأساطير، فالشعيرة ظهرت أولا، ثم تلتها الأسطورة1 .

واستنتج (برونوسلاف مالينوفسكي) (Bronislas Malinowski) من خلال تجربة الحياة لدى سكان مالينيزيا بأن "الأسطورة في المجتمعات البدائية في تركيبها الأصلي الحي ليست قصة بل هي حقيقة تعاش ومن خلالها يتم التعبير عن الحياة الاعتيادية والقدر وأعمال الإنسان، وهو اعتراف بالحلقة التي تربط الماضي بالحاضر وتأثير الأسطورة في الحياة العادية 2 . وحين حاول (مالينوفسكي) أن يضع تعريفا للأسطورة من خلال استخلاص طبيعتها ووظيفتها في المجتمعات البدائية وجد أن : "الأسطورة ليست تفسيرا يراد منه تلبية فضول علمي، بل هي حكاية تعيد الحياة إلى حقيقة أصلية، وتستجيب لحاجة دينية عميقة، تطلعات أخلاقية وواجبات، وأوامر على المستوى الاجتماعي، بل وحتى متطلبات عملية في الحضارة البدائية، تملأ الأسطورة وظيفة لا غنى عنها، تفسر وتبرر وتقنن المعتقدات، تحامي عن المبادئ الأخلاقية وتفرضها، تضمن فعالية الاحتفالات الطقسية وتنتج قواعد عملية لاستعمال الإنسان3 .

فالأسطورة في الثقافات التي تؤمن بها؛ (شيئا حيا) حيث تشكل قوام الحياة الدينية، وهي ليست بالسذاجة التي تبدو ظاهرة فيها، إنما هي لغة لها خصوصيتها ومفرداتها المتميزة، واصطلاحاتها الخاصة، لتبليغ ما تريد من حقائق مقررة في نظر أصحابها، في هذه الحالة فإن الأسطورة لا توحي بشيء من الوهم، بل تكون التعبير الأرقى والأصدق عن الحقيقة 4. فلا يتطرق الشك إلى المؤمن إذا كان بابليا، بأن الإله (مردوخ) قد خلق الكون من أشلاء تنين العماء البدئي، وبأن الإله (بعل) قد وطد نظام العالم بعدما صرع الإله (يم) وروض المياه الأولى إذا كان كنعانيا5 .

وللأسطورة دور كبير في هاتيك الديانات الأسطورية، فمن المستحيل مثلا فهم ديانة بلاد ما بين النهرين، وبشكل عام فهم أسلوب ثقافة تلك البلاد، إذا ضربنا صفحا عن الأساطير التي تحكي عن نشأة الكون وعن الأصل، (الإينوما إيليش) وفي ملحمة (جلجامش)، وتعتمد ديانة قدماء المصريين على أسطورة قديمة بطلها (أوزيريس) إله النيل وهو أول ملك مصري، يقتله أخوه (سيت) إله الشر..

---

1 – عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب،182م، ج1، ص52 .

2 – آرثر كوتل، قاموس أساطير العالم، مصدر سابق، ص10 .

3 – محمد الخطيب، الإثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع، ص194 .

4 – ينظر مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، تر: سعود المولى، ط 1، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م ص162، وينظر سيد القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص26 .

5 – فراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص15 .

تعثر زوجته (إيزيس) إلهة الحكمة والتشريع والسحر على قطع جسده، وتعيد تكوين الجسم وتلفه بالأقمطة وتبعث زوجها حيا، وهكذا يكون (أوزيريس) أول مومياء، ويصبح (إله الموت) وزوجه (إيزيس) هي ساحرة و(إلهة الحياة) وأم مثالية، وحورس ابنهما هو (الإله الصقر وحامي الفرعون)، ويستمر الصراع بين (حورس) و(سيت)، فالأول يتولى الإنتاج والعمارة، والثاني؛ يتولى الإفساد والتدمير ... 1 وهكذا نرى أن الأسطورة تهيمن على الديانة كلها فهي تشكل محورها وركيزتها الأساسية .

ولاحظ (مرسيا إلياد) أن الأسطورة تمثل في المجتمعات التقليدية الحقيقة الأخيرة عن الزمن الأولاني، أي ذلك الزمن الذي ظهر فيه المقدس أول ما ظهر منشئا بذلك قوام العالم وتركيبه، وتقدم الأسطورة عادة وصفا للأحداث البدئية الأولانية التي جعلت العالم والكون وكل الموجودات على ما هي عليه، وبالنسبة لمرسيا إلياده؛ فإن كل الأساطير هي بهذا المعنى أساطير بدايات وأصول أي (حكايات عن الخلق والتكوين)... والأسطورة تحكي بالضبط الظهور الأول للمقدس ..2 ففي مطلع كل عام جديد في بلاد ما بين النهرين، يتم إحياء الأحداث التي تحكيها (الإينوما إيليش) من خلال طقوس وشعائر كأنها تقول أنه من الضروري أن يخلق العالم من جديد في كل رأس سنة... 3 فالأسطورة هنا تشكل التاريخ المقدس لتلك المجتمعات والعشائر .

والأسطورة تحكي كيف جاءت حقيقة ما إلى الوجود بفضل مآثر اجترحتها الكائنات العليا، ولا فرق بين أن تكون هذه الحقيقة كلية، كالكون أو جزئية كأن تكون جزيرة أو نوعا من نبات، أو مسلكا..4 ففي الأسطورة يلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية، وأما ظهور الإنسان فيها فهو مكمل فقط لا رئيسيا5 .

ويبدو أن من مهام الأسطورة الأساسية هي تزويد فكرة الألوهية بألوان وضلال حية، خصوصا في المعتقدات التي تقوم على تعدد الآلهة، فالأساطير هي التي ترسم صور الآلهة، وتعطيها أسماءها، وتكتب لها سيرتها، وتحدد لها صلاحياتها وعلاقتها ببعض...فبالأسطورة تنتقل الألوهية من الوجود المجرد إلى

---

1 - ينظر مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، مصدر سابق، ص 163، وينظر موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص14 .

2 مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، ، مصدر سابق، ص30 .

3 - ينظر المصدر نفسه، ص164 .

4 - مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، تر : نهاد خياطة، دمشق، 1987م، ص10- 11 .

5 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص57 .

الفعل الذي يظهرها في عالم الإنسان ويربطها إلى مسار حياته 1. مثلا؛ (يروي شعر من بلاد ما بين النهرين محفور على ألواح من الآجر كيف قررت الآلهة خلق الإنسان؛ ففي عصر سحيق كان مجتمع الآلهة مؤلفا من (الأنوناكو) ومن (الإيغوغو) لم يكن الأنوناكو يفعلون شيئا وكان الإيغوغو يقومن بخدمتهم وإطعامهم، وذات يوم ثار هؤلاء ورفضوا القيام بأي عمل، فاجتمع الآلهة وقرروا خلق الإنسان لخدمتهم ولكي يجلب لهم كل ما هو ضروري ولذيذ...)2 .

وتختلف الأسطورة عن الخرافة من حيث أن الخرافة تعتمد على أبطال رئيسيين من البشر أو الجن في حين أن أبطال الأسطورة هم الآلهة، أو أنصاف الآلهة، أما البشر فيظهرون فيها بشكل عرضي، وإن ظهرت الآلهة فبصورة تشبه البشر المتفقوين، لا كآلهة سامية متعالية، كما أن الخرافة تكون دائما مثقلة بالخوارق والمبالغات في حين تعبر الأسطورة في تساوق عميق في حركة الآلهة والطبيعة ومسرى الأحداث... وتكتسب الأسطورة موقعا دينيا مقدسا، في حين لا ترقى الخرافة إلى هذا المقام، إذ هي حكاية خيايلة لا تمتلك علاقة عضوية مع الدين 3 ... فالفوارق بين الأسطورة والخرافة غير واضحة وكثيرا مايشتبها، فالخرافة تشبه الأسطورة شكلا ومضمونا، ولعل المعيار الحاسم الذي يميزها عن الأسطورة هو معيار القداسة، (فالأسطورة حكاية مقدسة عند أهلها، لا يتزعزع إيمانهم بها، ويرون في مضمونها رسالة سرمدية موجهة لبني البشر، أما الخرافة فإن راويها ومستمعها سواء، يعرفان منذ البداية أنها تقص أحداثا لا تلزم تصديقها أو الإيمان برسالتها)4 .

أما الحكاية الشعبية فإنها تخلو من دور مركزي للآلهة، بل هي حكاية دنيوية بسيطة متداولة تعنى بالأمور اليومية، وتخلو من الجدية والتمجيد والموضوعات المصيرية الكبرى، التي تعني بها الأسطورة... وفي الملحمة؛ تلك الحكاية الطويلة المتميزة بالاسترسال والإسهاب، يكون البطل الملحمي إنسانا خارقا بعكس البطل الأسطوري الذي هو إله أو شبه إله...تقتطع مواضيعها على الأرجح من التاريخ وإن جنحت للخيال، وبهذا قد تكون الملحمة مزيجا بين الأسطورة والحكاية الشعبية .. 5 فما يميز الحكاية الشعبية هو هاجسها الاجتماعي وبعدها عن التأملات الفلسفة والميتافيزيقية .

---

1 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص58 .

2 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص12 .

3 – ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص61 .

4 – فراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص18 .

5 – ينظر عبد الحميد يونس، الفولكلور والميثولوجيا، مجلة عالم الفكر، م 3، العدد1، 1972م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،ص46، وفراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص20 .

فبالنظر إلى الخرافة والحكاية الشعبية والملحمة، فإن ما يميز الأسطورة دوما هو جوهرها الألوهي الذي يوحي بالتقديس والرهبة، واتصالها بعالم الأصول والبدايات والمصائر الكبرى .

كما ترتبط الأسطورة بشكل وثيق بالطقس، فالطقس هو جسر بين المتعبد وقوى قدسية معينة، وكلما كانت هذه القوى ذات شخصيات محددة وخصائص وسيرة وحياة ترسمها الأساطير، كلما ازداد الطقس غنى وتعقيدا، وعلى العكس من ذلك فإن الطقس يميل نحو البساطة كلما مال المعتقد إلى التجريد وافتقر إلى الأساطير 1 ... فالأسطورة الحية تظل مرتبطة دائما بنوع من العبادة، وتلهم وتبرر سلوكا دينيا معينا، وحين تشكل الأسطورة قوام الحياة الدينية، فإنها هنا لا توحي بالوهم، بل تكون التعبير الأرقى والأصدق عن الحقيقة 2 ولتعلق الطقس والأسطورة وتلازمهما درج كثير من علماء الاجتماع والأنثولوجيا منذ (لانك) وحتى (مالينوفسكي) مرورا بـــ(دوركايم) و(ليفي بريل)...على اعتبار الأسطورة والطقس متماثلين، وأنهما وجهان لعملة واحدة، الأسطورة وجهها النظري والسحر صفحتها العملية..3

وإذا كانت المعتقدات وما يدور حولها من أساطير، تضع مؤمنها في موقف ذهني من المقدس، فإن الطقس يضعه في موقف عملي، في حالة فعل من شأنها إحداث رابطة واتصال، فمن خلال أداء حركات معينة ورقصات إيقاعية وتكرار صيغ كلامية ذات أثر خاص على النفوس، يمكن للأفراد المستغرقين في الأداء الطقسي الجمعي الانتقال إلى مستويات غير اعتيادية، يشعرون معها بتلاشي الحدود بين العوالم الدنيوية والعالم القدسي4 .

ولهذا رأى (مرسيا إلياد) أن السلوك الديني ليس عملية استذكار وإحياء للمناسبات والأحداث المقدسة فقط، وإنما هو مشاركة فيها، حين يقلد أو يمثل الأقوال والأفعال المثالية لإله أو لبطل أسطوري أو حتى حين يستعيد رواية مغامراتهم فقط فإن إنسان المجتمعات الغابرة يفصل نفسه عن زمن دهري فان، ويدرج حاله في الزمن الأكبر، الزمن المقدس، وقد عرف هذا بالعود الأبدي، ومثاله احتفالات رأس السنة في بلاد ما بين النهرين، ومصر الفرعونية، وغيرها من شعوب الشرق الأدنى حين تعيد تفعيل أساطير الخلق والتكوين السائدة عندهم 5. فالأسطورة لدى (إلياد) هي قصة مقدسة مقدسة تروي حدثا وقع بداية الزمان . وبذلك (فليس للأسطورة زمن؛ أي أنها لا تقص عن حدث

---

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص59 .

2 – مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، مصدر سابق، ص161-162 .

3 – ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص60 .

4 – فراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص129 .

5 – ينظر مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، مصدر سابق، ص31 .

جرى في الماضي وانتهى، بل عن حدث ذي حضور دائم، فزمانها زمن ماثل أبدا لا يتحول إلى ماض1، فـ(أمون راع)، إله الشمس؛ هو أحد أهم الآلهة الفرعونيين (مصر القديمة)، يولد كل صباح معتمرا قرص الشمس، ويموت كل مساء، يبحر كل يوم في زورق ذهب على أوقيانوس السماء...2

وبهذا تتميز موضوعات الأسطورة بالشمولية، فهي تدور حول المسائل الكبرى التي ألحت دوما على عقل الإنسان، مثل الخلق والتكوين وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر... 3 ولا يغرب عن ذهن دارس الأساطير أن هناك أساطير كبرى وأساطير أقل أهمية منها، وأن هناك أساطير تهيمن على ديانة معينة فتطبعها بطابعها، وأخرى ثانوية أو تكرارية أو طفيلية، فلا يمكن مثلا أن توضع (الأنوما إيليش) على قدم المساواة مع الميثولوجيا التي تتحدث عن العفرية (لاماشتو)، وتتخذ الأسطورة البولينيزية التي تتحدث عن نشأة الكون أهمية غير الأهمية التي تتخذها الأسطورة التي تتحدث عن أصل نبتة من النباتات... وبهذا تتمتع أسطورة نشأة الكون بمكانة خاصة، إذ هي تعطي النموذج للأساطير كلها التي تحكي عن الأصول، فخلق الحيوانات والنباتات أو الإنسان يفترض وجود عالم أصلا4.

ومن هنا تأتي أهمية ميثولوجيا التكوين في أديان الشعوب، ويعلو شأن أسطورة الخلق في النظم الميثيولوجية... ولذلك كانت أسطورة التكوين هي سيدة الأساطير في كل ثقافة :

5. مطلع أسطورة (إينوما إيليش) البابلية : "في الأصل لا توجد سماء ولا أرض، لكن فقط مياه في حالة من الفوضى، مكونة من إلهين أصليين..."
6. مطلع أسطورة (جلجامش وإنكيدو والعالم السفلي) السومرية : "بعد أن ابتعدت السماء عن الأرض، بعد أن انفصلت الأرض عن السماء، بعد أن عين اسم الإنسان... 5
7. أسطورة التكوين الإغريقية : "في البدء كان العماء هاوية لا يسبر غورها، هائجة كالبحر ومظلمة وجرداء وموحشة..."6

---

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص57 .

2 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص14 .

3 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص58 .

4 – مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، مصدر سابق، ص164 – 166 .

5 – سيد القمني، قصة الخلق، مصدر سابق، ص58، 135، 32 .

6 – فراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص12 .

والأسطورة والحال هذه؛ تتحمل مسؤولية الإجابة على أسرار حوادث الخلق (العالم والإنسان)، والمبادئ التي تحكم الكون والوجود البشري، وعلاوة على كونها مصدرا للحقائق، وملخصا لتفسير الحياة الدينية، فإنها تتضمن تاريخها المقدس .

فالأسطورة ترتبط بنظام ديني معين، وتتشابك مع معتقدات ذلك النظام وطقوسه المؤسسة، وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار النظام الذي تنتمي إليه، وتتحول حينها إلى حكاية دنيوية تشبه الأسطورة، أو الخرافة والقصة البطولية، أو تنحل ضمن حكاية شعبية 1 . فالأسطورة – على ما يرى (فراس السواح)– إذن هي حكاية مقدسة مؤيدة بسلطان ذاتي تفرضه هي على العواطف والعقول من خلال أسلوب صياغتها وطريقة مخاطبتها للجوانب الانفعالية وغير العقلانية في الإنسان، تنشأ عن المعتقد الديني، وتكون امتدادا طبيعيا له، فهي تعمل على توضيحه وإغنائه، وتثبته في صيغة تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال 2، كما عدّها (السواح) في كتابه (دين الإنسان) أنها إحدى المكونات الثلاث لأي دين إضافة إلى المعتقد والطقس .

ورأى (كلود ليفي شتراوس) (Claude Lévi-Strauss)3 أن (الأسطورة حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الرئيسية) فهي لغة رمزية، وأن التفكير الأسطوري ليس متخلفا أو سابقا على التفكير المنطقي، بل هو تفكير منطقي شديد التماسك.. يمكن فهم مغزاها من خلال تحليلها إلى وحدات صغيرة، لها إشارات متجانسة ضمن رسالة واحدة، كما أن الأساطير يجب أن تدرس مجتمعة لا مفردة، والأسطورة عنده ليست مجرد حكاية بل يتكشف من خلالها بناء العقل البشري....4

وفي التراث نرى أن جميع الأديان (البدائية والقومية والشمولية) تحتفظ بأساطير خاصة بها، فلم تكن تلك الأديان لتنمو ويزداد تركيبها دون أن تخلق معها أساطيرها الخاصة بها... وقد نُظر للأسطورة – في الغالب– قديما وحديثا، باعتباها واحدة من أعظم إنجازات العقل البشري 5 . وفي بعض الأديان لأسباب عقائدية أو أخلاقية تحذف الأسطورة من بنية الدين على اعتبار أنها حكايات لا معقولة وغير مقبولة، قائمة على الخيال لا على الحقائق الدينية المعروفة...(وفي التاريخ القديم اعترض بعض

---

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص57- 58 .

2 – المصدر نفسه، ص58 .

3 – كلود ليفي ستراوس : (Claude Lévi-Strauss) (1908- 2009م) عالم اجتماع فرنسي، من مؤلفاته : البنيات الأولى للقرابة، مدارات حزينة، الأنثربولوجيا البنيوية .. (الموسوعة العربية العالمية، مصدر سابق، ص40946)

4 – ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص74 .

5 – ينظر المصدر نفسه، ص59- 60 .

الفلاسفة الإغريق على ما رواه الشاعر (هوميروس) في الإلياذة والأوديسة من خوارق الأعمال المنسوبة إلى الآلهة والأبطال، واعتبروها تهاويل خيال ووهما لا علاقة له بعالم الواقع على الإطلاق، وأبى (زينوفون)1 أن يقتنع بخلود الآلهة الذي قال به هوميروس، و(هزيود) واعترض هذا الفيلسوف بصفة خاصة على تشبيه الآلهة بالناس، واحتج بأنه لو أتيح للخيل والأنعام والوحوش القدرة على الرسم، لصورت الآلهة على مثالها)2 .

ونلاحظ أن (زينوفون) اليوناني قد انتقد الأساطير مبكرا، موضحا أن هناك إلها واحدا عظيما بين الآلهة والبشر، لا يشبه البشر في هيئته وتفكيره... ومع ذلك فإن البشر يتخيلون أن الآلهة قد ولدت ذات ملابس بشرية وأصوات بشرية وأجساد بشرية وهكذا... فلم يرض (زينوفون) عن الإلهية الناسوتية التي ينسبها الإغريق لآلهتهم3 .

ورأى (يوهوميروس) (Euhemeros) (الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد) أن الأساطير تاريخ مشوش مقنّع، فالآلهة كانت في بادئ الأمر رجالا، ومع مرور الزمن وبعد فترات من التمادي في الخيال اكتسب هؤلاء الرجال عظمة وجلالا وتغيرت أشكالهم حتى تحولوا إلى أرواح مقدسة، هكذا كانت الآلهة شخصيات عظيمة بين أفراد جيلهم، ثم قدسهم أفراد الأجيال الآتية 4 . فحسب نظرية (يوهيميروس) فإن الآلهة الأسطورية ما هي إلا شخصيات بشرية هي من العظمة بمكان، تحولت بعد فترة من التمجيد والتعظيم إلى مقدسات روحية، ثم أضفى عليهم الخيال أبعادا إلهية، لأجل سباكة القصص وخوارق الحكايات .

وبالنظر إلى آراء كل من (يوهوميروس) و(زينوفون) ...فإنه يمكن القول إنه (صحيح أنه في اليونان فقط كان للأسطورة أن تلهم وتوجه الشعر الملحمي والمسرح التراجيدي والكوميدي فضلا عن الفنون التشكيلية، لكن الصحيح أيضا أنه؛ خصوصا في الحضارة اليونانية جرى إخضاع الأسطورة لتحليل مديد وعميق سابر لأغوارها ما جعلها تخرج من النور وقد نزعت عنها أسطوريتها نزعا مبينا، وإذا كانت لفظة (أسطورة) توحي بمعنى (الوهم المتخيل) في اللغات الأوروبية كلها، فذلك لأن

---

1 – زينوفون : كسينوفون Xenophon مؤرخ يوناني وكاتب فلسفي، عاش بين القرنين الثالث الثاني قبل الميلاد، أحد تلامذة سوقراط، له كتاب يدعى (الأناباسيس) الذي اشتهر به . (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص524)

2 – ينظر عبد الحميد يونس، الفولكلور والمثيولوجيا، مصدر سابق، ص17 .

3 – ينظر عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية، مصدر سابق، ص 43، وينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص41 .

4 – ينظر عبد المعطي شعراوي، أساطير إغريقية، مصدر سابق، ص43 .

الإغريق هم الذين كانوا قد رسخوا هذا المعنى منذ خمسة وعشرين قرنا) 1 . ففي الفكر اليوناني انتهى النقد إلى عالم الأساطير إلى أن دلالته على كل مضاد للعقل، وما ليس له وجود حقيقي .

وعندما أتت الأديان التوحيدية وافقت ما بدأ به مفكرو الإغريق، فرمت كل ما ليس له سند في الكتب المقدسة إلى سلة الأكاذيب، وهكذا استمر النظر إلى الأسطورة كمجموعة من القصص الملفقة حتى العصر الحديث حيث دشن البحث المنهجي في الأسطورة النظرة إليها2 .

كما أصر آخرون على أن الأسطورة قصة مجازية، وليست قصة أدبية، تنطوي على رموز ومعان أدبية وغايات دينية ومعان فلسفية أو إشارات زمنية...ثم نسي الناس تلك المجازات والرموز وتعاملوا معها على أنها حقائق.. فالإله (كرونوس) هو غول يرمز إلى الزمن الذي يبتلع أبناءه الناس، والإلهة (يو) رمز القمر و(آرجوس) رمز السماء ذات البروج ...وهكذا3.

ولما عرضت الأساطير على المدرسة العقلية الحديثة، نظرت عقليا في تفسيرها، ورأت أنها إسقاطات عقلية ذهنية من خلال اللغة على الواقع تم رفعها بحيث ابتعدت عن هذا الواقع... ومنه فقد وجدوا في بعض الآلهة رموزا عقلية أو ذهنية للخير والشر والفهم والذكاء والمراوغة وغير ذلك4 ...

ورأى (ماكس موللر) بمنهجه اللغوي العقلاني (منتصف القرن التاسع عشر) من خلال دراسته للأساطير المقارنة أن التشابه في أسماء الآلهة والشخصيات الأسطورية في مختلف أساطير الديانات يرجع إلى أن هناك دينا بدائيا حقا، اشتقت منه هذه الأشكال والأساطير المتنوعة، 5 وهو يرى أن نشأة الأسطورة تتوافق مع تزايد تجريد اللغة على حساب حسيتها وتشخيصها، حيث جعل الشمس المحور الأكبر للأساطير، وأن فترة تشكيل الأساطير تكون موالية لفترة تكوين اللغة، وربط (موللر) نشأة الأسطورة بظاهرة نعتها بمرض اللغة واعتلالها، فحيث عبرت الشعوب البدائية عن أفكارها بمعنى حسي خالص، ووضع الإنسان اسما لكل ظاهرة طبيعية تبعا لإحدى خصائصها العديدة، فأخذت عدة موضوعات اسما مشتركا، فالشمس يمكن أن تسمى البراقة، المحرقة، المشعة...مما ينتج عبر الزمن اضطراب في الأفكار فينسى المعنى الأصلي فيما يعرف بـــ(مرض اللغة) حيث تنشأ مفاهيم خيالية للظواهر الطبيعية وهي (الأساطير) وبذلك تكون الأسطورة تعبيرا رمزيا عن الكون ومظاهره الطبيعية،

---

1 – مرسيا إلياد، البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، مصدر سابق، ص162 .

2 – شمس الدين الكيلاني، من العود الأبدي إلى الوعي التارخي (الأسطورة .الدين.الإيديولوجيا. العلم)،ط 1، بيروت: دار الكنوز الأدبية، 1998م، ص48 .

3 – ينظر خزعل، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص70 .

4 – المصدر نفسه، ص70 .

5 – يُنظر المصدر نفسه، ص196–210 .

تنتهي إلى إرجاع الأساطير إلى تأليه عناصر الطبيعة : العواصف والرعد... 1 فبالنسبة لمولر فإن خداع اللغة هو سبب تأليه الشخصيات الأسطورية، وذلك نتيجة وصف المظاهر الطبيعية بأفعال إنسانية، كقولنا الشمس تطلع، النهر يجري، وبمرور الوقت أثبتت هذه المجازات وكأنها كائنات مشخصة، فتحولت فيما بعد إلى أسماء بحد ذاتها للآلهة المسؤولة عن هذه الأفعال فظهرت بذلك الآلهة والأساطير، حيث اكتسبت المصطلحات صفة القداسة .

ورأى (تايلور) أن الأنميزم (الإحيائية) هي مفتاح فهم رمزية الأساطير، فالأساطير هي خلاصة نظرة البدائي للكون، حين أصبغ روحا على مظاهر الطبيعة، ثم ألهها بمرور الوقت، ومنه كان ابتكار الآلهة ... وكل ذلك يعود لملكة البدائي الخاصة في صنع الأساطير والخيال 2. وبهذا تظهر الأساطير كحقول رمزية موازية للحقول المادية الطبيعية، يمكن دراستها وفك علاقاتها الرمزية (الشعائر والطقوس الدينية) في ضوء الأنيميزم .

وفي هذا يقول (برجسون) : "والواقع أن الطبيعة قد وهبت الإنسان ملكة خاصة تشبه الخيال من بعض الوجوه، تلك هي الوظيفة الأسطورية أو الملكة الخرافية التي بمقتضاها يستطيع الإنسان أن يخترع شخصيات خيالية، هذه الشخصيات قد تكون (أرواحا) بادئ الأمر ثم تتحول إلى آلهة فيما بعد" 3. وليس بعيدا من هذا الرأي، فقد ذهب (هربرت سبنسر) إلى أن أساطير الطبيعة من الشمس والقمر والثور والأسد... هي قصص لأشخاص يحملون مثل هذه الأسماء، وبذلك اكتسبت مظاهر الطبيعة مظاهر إنسانية نسجت حولها الأساطير... بعد تأليهها بمرور الوقت وذلك نتيجة التباس أو الغموض اللغوي4.

ورأى (مالينوفسكي) أن الأسطورة ظهرت نتيجة ظروف أملتها حاجة الإنسان لصنع قضية محددة، وبالتالي فلها وظيفة جعلتها تحتل المكانة التي احتلتها، فلها غاياتها العملية بعيدا عن البعد النفسي أو الأنثربولوجي أو غيره، فهي بمثابة دستور عقائدي، وللحاكم أو الكاهن أو الزعيم دور كبير في صنع الأسطورة لما توفره له من سقف عقائدي وشعبي لاستمرار دوره 5 . وبهذا جرّد (ملينوفسكي)

---

1 - ينظر شمس الدين الكيلاني، من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي، مصدر سابق، ص58 .

2 - علي النشار، نشأة الدين، مصدر سابق، ص 36-37، و ينظر Edward Tylor : Primivite Culture, part1, p326-555

3 - عمارة نجيب، الإنسان في ظل الأديان، ط5، القاهرة : المكتبة التوفيقية، 1976م، ص 31 .

4 - Harbert spencer : First principles, p447

5 - ينظرخزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص73 .

الأسطورة والفكر الأسطوري من تاريخيته، وأعطاها دور الحافظ للأخلاق وللتماسك الإجتماعي، والمؤمن لاستقرار العقيدة، فلا يمكن اعتبار دلالاتها السيكولوجية أو التاريخية .

وفصل (أندرولانج) فصلا واضحا بين الأسطورة والدين، ففي حين ينشأ الدين من التأمل الروحي الجاد، والخضوع الواعي للقوى الماورائية، فإن الأسطورة نتاج خيال عابث وشارد، وهي زاخرة بالعناصر المتناقضة التي يصعب تفسيرها، فهي ضرب من الخرافة والغباء، أضفي عليه روح الدعابة والاستخفاف بالمقدس، اتسمت به الأديان القديمة... 1 ومنه فقد وضع (لانج) تناقضا مطلقا بين التصور الديني القائم على العقل والسمو والرفعة الروحية وبين التصور الأسطوري الذي اعتبره نتاجا للمخيلة تدفع إليه النزوات، ففي الأسطورة التماس من القوى الأسطورية المشخصة، بعد أن أصابها شعور بالخيبة من القوى المجردة2 .

وشبَّه (فرويد) الخيال الأسطوري بخيال مريض العصاب، بين أخيلة الجماعة البدائية، كما تظمنه في الأسطورة وبين خيال مرضى العصاب، فالأسطورة بالتالي ليست سوى نتاج مركب من أوديبي، فمرتكز العالم الأسطوري ومبعثه هو الحوادث المكبوتة الصادمة 3 . وبالأحرى فإن الأسطورة عند (فرويد) هي حلم لجماعة، ورغبتها المكبوتة .

كما عدّ آخرون؛ وهم ذووا الاتجاه الفلسفي الديني (خاصة المسيحي) أن جميع الأساطير كانت موجودة في الكتب المنزلة، وإنه تم بعد ذلك إخفاء الحقائق المتعلقة بها، فشخصية (ديوكاليون) هي اسم آخر من أسماء (نوح) عليه السلام، وهرقل اسم من أسماء شمشون، و(آريون) هو (يونان)... 4 إلى غير ذلك من الاتجاهات التي رأت في الأسطورة مجازات عقلية ورموزا خيالية تحولت إلى حقائق مقدسة فيما بعد، فبهذا عد هؤلاء الأسطورة ضربا من الخيال والوهم، أو أنها جزء من أصل ديني اندثر لم يتم حفظه مع الزمن، فضم إليه كثير من الأغلاط والخوارق والاختلاط .

فالأسطورة قصة تقليدية، استمدت قدسيتها وسلطانها على النفوس من خلال أسلوبها آنذاك، وإجابتها عن أصل الوجود (كونيا وكائنيا) واقترابها من عالم الآلهة، وللأسطورة دورها في إيضاح المعتقد، وتفسيره من ناحية، كما تعمل على تقوية الطقس وفعاليته بالإحياء والتمثيل المتجدد، حيث تجعل من الحقائق الماضية واقعا حيا معاشا ومتكررا .

---

1 - Andrew Lang, Myth, Retual and Religion, p12 ,16 .

2 - ينظر شمس الدين الكيلاني، من العود الأبدي إلى الوعي التاريخي، مصدر سابق، ص70 .

3 - المصدرنفسه، مصدر سابق، ص96 .

4 - ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص70 .

وعن أشهر الأساطير العالمية نجد على وجه الخصوص أساطير غرب وجنوب وأواسط آسيا، أوروبا، أمريكا، أفريقيا والأقيانوس، وفي كل من هذه المناطق أساطير متميزة، ففي غرب آسيا توجد ملحمة (جلجامش) السومرية الكونية، أما في أوربا والأساطير اليونانية فتوجد أسطورة (أودن)، وفي أوقيانوس بولينيزيا فتروى القصص عن أعمال (ماوي)، وما يلفت الانتباه أن هناك درجة من التناسق الداخلي يمكن أن نعزوه إلى التأثير المتبادل، فتأثير الديانة الزرادشتية الثنوية على الأديان هي نقطة تجدر الإشارة إليها، وكان لتقليد الأساطير في غرب آسيا أثر كبير على أوربا، بينما تغلغلت أساطير جنوب وأواسط آسيا في شرق آسيا، بواسطة المعتقدات الهندوسية والبوذية ... [1] ففي حين اعتقد الهندوس من جانبهم بأن تاريخ الكون هو عملية طبيعية تحدث في حلقات دورية يتوقعون لها نهاية بعيدة... شاركهم الإغريق حول مفهوم الزمن المتكرر إلا أنه لم يكن بحجم المعتقد الهندي[2] .

مما يؤكد أن ميثولوجيا شعوب العالم القديم كانت ذات تواصل وتفاعل فيما بينها فـــ(بعل) في فينيقيا كان له ما يماثله في الجزيرة العربية (هبل) وفي أرض الرافدين هو (دوموزي) ومثلها كذلك في أثينا وروما وغيرها، والأمر نحوه بالنسبة لإلة الخصب والحب والجمال (عشتار)، فهي (عشتروت) و(عشتارت) في اليونان و(عثتر) عند العرب و(عناة) في سومر و(إيزيس) في مصر، وهي أيضا (أفروديت)، (بعلة)، (زهرة) و (فينوس)...رغم احتفاظها بالمميزات والخصائص .

وحادثة الطوفان التي جعلها الله للناس آية نتيجة لكفر قوم (نوح عليه السلام) نبيهم، استطاع الأدب الرافدي (السومري، الأكادي، الآشوري والبابلي) أن يسجل حدثها العظيم المفجع، وذلك من خلال كتابتها عبر الرقم الطينية الأثرية لتلك الحضارات القديمة، كحدث عظيم وقع لعالم ذلك اليوم، قال الله تعالى في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه { **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** }(سورة العنكبوت الآية 13)[3] .

ومن المعروف أن قصة الطوفان قد انتشرت انتشارا واسعا بين أديان العالم، ذلك أن البشر تناقلوه عبر تراثهم الحضاري عبر السنين، وكان للسومريين قصب السبق في تدوين أحداثه، ثم تناقله كل من الأكاديين والبابليين والآشوريين...إلا أن أصول تسجيل هذه الحادثة كانت سومرية الأصل، وكما جاء في خلاصة النصوص السومرية أن (الآلهة هي التي أحدثت الطوفان نتيجة لفساد البشر وآثام

1 – آرثر كورتل، قاموس أساطير العالم، مصدر سابق، ص9 .

2 – المصدر نفسه، ص12 .

3 – سامي عبد الله المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص520 .

الإنسان وخطاياه، فعزمت الآلهة على محوه من الوجود بإرسال طوفان كبير على هذه الأرض) 1. كما أن هناك قصصا عن الطوفان في الهند وبورما والصين والملايو واستراليا وجزر المحيط الهادي، وفي مجتمعات الهنود الحمر... ولهذا فالقصة تنتشر في جميع قصص وأساطير الأمم المختلفة، ولكن على الرغم من كثرتها وانتشارها فإنها تختلف فيما بينها اختلافات كثيرة، وإن اتفقت في سبب الطوفان وهو مخالفة الأوامر الإلهية وتفشي الشر وأوزار البشر... .

فبعدما كان يظن أن التوراة (الكتاب المقدس) هي أقدم مصدر لقصة الطوفان، عثرت الاكتشفات الحديثة على نسخة من رواية الطوفان البابلية، وبدا من طابع كتابة القصة على الألوح السومرية للقصة أنها تعود لأقدم بكثير من سنة (1728 قبل الميلاد)، إلا أن التشابه كبير بين النصوص التوراتية، والنصوص الأسطورية2.. يقول الكتاب المقدس أن نبي الله (نوحا) هو الوحيد الذي نجا من الطوفان الذي أرسله الله ليقتص من الناس الأشرار، فبنى فلكا أدخل إليه زوجا من كل نوع من أنواع الحيوانات، وهطلت الأمطار أربعين نهارا وأربعين ليلة، ثم رسا الفلك على أحد الجبال 3 (فقال الرب أمحو الإنسان الذي خلقت عن وجه الأرض الإنسان مع البهائم والدبابات وطير السماء ...أما نوح فنال حظوة في عيني الرب)4 .

إن القصة التوراتية عن الطوفان لها شبهها في أساطير ما بين النهرين، ففي النص الأكادي أين أوعز الإله (إيا) إلى الإنسان الأول، (أوتانابشتي) * أن يبني قاربا لينجو من الطوفان، وفي النص السومري فإن كائنا واحدا يدعى زيسودرا (Zisudra)**، الذي نجا، وفي اليونان القديمة أرسل الإله (زفس) طوفانا لكنه أنقذ (دوكاليون) و(بيرا) اللذين بنيا كهفا، ومنه فبطل الطوفان في الأساطير وفي التوراة كان دائما هو التقي الورع5 .

---

1 – سامي عبد الله المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص80 .

2 – ينظر صلاح أبو السعود، قصة الطوفان (في نصوص الأسطورة والتوراة والقرآن)، ط 1، مصر: مكتبة النافذة، 2010م، ص157، وينظر محمد بيومي مهران، دراسة حول قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، السعودية : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية، عدد 5)، 1395ه، 1975م، ص384- 385 .

3 – موسوعة لاروس (ديانات العالم)، مصدر سابق، ص7 .

4 – العهد القديم، سفر التكوين (6: 5- 10)

* – أوتانابشتي: ويعني اسمه (الذي أدرك الحياة) .

** – زيسودرا : (Zisudra) ويعني اسمه (الخالد) أ (ذو الحياة الطويلة) .

5 – ينظر مرسيا إلياد، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، ج1، ص87، وصلاح أبو السعود، قصة الطوفان، مصدر سابق، ص158 .

ولورود قصة الطوفان في الكتب السماوية، رأى البعض أن قصة الطوفان ما هي إلا صدى لإحدى الكتب السماوية السابقة، وأن (زيو- سدرا) و(أوتانا بشتي)..ما هي إلا أسماء أخرى لـــ(نوح عليه السلام)1 ففي الأساطير التي أوردت ذلك الحدث التاريخي (الطوفان) فإن الحادثة هي نذير دائم بفجأة القدر وتحذير من الغضب الإلهي نتيجة ذنوب البشر، ولكن بإسهاب كبير وبكثير من التفاصيل في التوراة وفي الأساطير مما أوقعها في التناقض . ولكن شتان بين ما أنزله الله عز وجل في القرآن من قصة وعظية هادفة محورها الإيمان، وبين ما ساقته أقلام اعتراها التناقض والأوهام والأهواء .

تتمتع الأسطورة بنظام وبقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم في الماضي، فسطوة الأسطورة آنذاك لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث، ورغم أن وسائل الإعلام في الأزمنة الحديثة تلعب دورا حاسما في

خلق الأحداث الأسطورية فهي ترفع وتحط من قدر الأشياء والأشخاص، ولكن الصور التي تخلقها فهي بصورة فردية ضعيفة، إذ تضفي صفة اصطناعية على شخصية (السوبرمان) الرجل الخارق، ...ومع ذلك فإن الأسطورة وقتئذ صارت من مخلفات الماضي ...2

ولكن الأمر لم يتوقف هنا فاليوم و(في ظل الوضع الراهن لا يجد عالم الفيزياء غضاضة في الاحتفال بعيد المسيح، والذهاب إلى الكنيسة حيث يشعر لدقائق أن الإله الإبن قد تجسد في يسوع وولد من رحم العذراء في بيت لحم ليكون خلاصا للبشرية)3، وبهذا يمكن القول بتحول الأساطير إلى (دوغما) تخدم إيديولوجية جامدة لا تقبل التغيير، تعكس جملة من المعتقدات الدينية التي تحرسها المؤسسة الدينية وتعمل على تعريضها للتفسير المنفتح أو التأويل 4 . فصحيح أن الأسطورة قد فقدت معناها كمكون ثقافي وفكري أدبي في عصر العلم، و لكن أثرها عن معظم الديانات لم يَزُل!!

ومما مضى نلملم شتات حديثنا عن الأسطورة، فنجد :

- أن الأسطورة وعاء حاول الإنسان من خلاله تفسير الكون، وطبيعة وجوده وعلاقاته فيه، فهي إرضاء للفضول الغيبي المتأصل في الإنسان، وإجابة لأسئلته الوجودية الكثيرة، وبذلك أطلق العنان لخيال مليئ بالتشبيه والتمثيل غاب فيه الاحتكام للضوابط (كأسطورة التكوين، والأساطر التعليلية) .

- أو هي قصص لتمجيد الزعماء والأبطال والملوك والفضلاء والأسلاف ..تجاوز بهم الناس عالم الواقع إلى عالم الخوارق والتأليه، ثم حيكت الأساطير تخليدا لذكراهم (كأساطير الأبطال الآلهة) .

---

1 - صلاح أبو السعود، قصة الطوفان، مصدر سابق، ص10 .

2 - ينظر آرثر كوتل، قاموس أساطير العالم، مصدر سابق، ص11- 12 .

3 - فراس السواح، الأسطورة والمعنى، مصدر سابق، ص30 .

4 - ينظر المصدر نفسه، ص31 .

– كما جنح الخيال بالإنسان أحيانا إلى تعظيم مظاهر الطبيعة، وافتراض حيويتها فتشخيصها، وبالتدرج قدَّسها وعبدها، وما كان منه إلا أن يحيك الأساطير للإشادة بها (الأسطورة الطبيعية).

– أو هي قصة مجازية (الأسطورة المجازية) تخفي أعمق المعاني أو أنها قصة رمزية تعبر عن فلسفة كاملة لعصر ما (الأسطورة الرمزية) ...

– كما قد تكون تاريخا مسجلا، غير أنه مشوش وغير مضبوط تعرض للزيادة والنقصان لتناقله بالتلقين والمشافهة، إضافة إلى عامل التهويل والمبالغة وجنوح الخيال (التاريخ اسطورة) .

– وقد تأخذ مضامينا من بقايا كتب مقدسة ماضية، تعرضت هي أيضا للزيف والتحريف... وفي الحقيقة قد تكون الأسطورة كل ذلك أو بعضه، فالأسطورة متعددة الجوانب، متعددة الغايات والأهداف والأصول .

فالخيال سمة ملازمة للتكوين الإنساني، ولعله واحة للعقل البحت المجرد من كثرة معادلاته الرياضية وزحمته العلمية، خاصة إن عجز عن تحليل ظاهرة ما، فكما أن هناك خيالا أدبيا وخيالا علميا فإن هناك خيالا جمعيا، هو ما يأخذ شكل الأسطورة، فالأسطورة تشكل إحدى إبداعات الخيال الجمعي للشعوب في العصور القديمة، فهناك عبر التاريخ القاصي من امتلك مثل ذلك الخيال لإنعاش المستمعين حوله بما لذ وطاب في انسيابية عجيبة للأفكار والأحداث... بل ولا تزال دور السينما إلى يومنا هذا ووسائل الإعلام تعوّض ما فقد من رواد الخيال الأدبي والجمعي بين الناس ...ولكن إلى متى يفسح المجال للخيال لأن يتحكم في مصائر الناس وعقائدهم؟ !

وبعد تطرقنا لأهم عناصر الدين الأساسية منها كالمعتقدات والمقدسات والشعائر والكتب، إضافة لتلك المكملة من الأخلاق والشرائع والأساطير... فإن هناك من عد للدين غير تلك العناصر فحذف بعضها أو زاد آخر، **وجامع الأمر أن قيام الأديان يكون على جانبين متكاملين لا غنى لأحدهما عن الآخر؛ أحدهما نظري هو هيكل الدين وجوهره، يتمثل في الأفكار والتصورات والمعتقدات الدينية، وما يتبعها من الكتب المقدسة والأساطير ... وآخر عملي يتفرع عن الأول، هو لباسه ومظهره، يمثل جانب التطبيق والممارسة من الدين، متمثل في الأخلاق والعبادات والشرائع والطقوس والشعائر المختلفة...**

الفصل الثاني

الدين وعلائقه

المبحث الأول : الدين ومظاهر الوثنية

المبحث الثاني : الدين والسحر

الفصل الثاني : الدين وعلائقه

وبعد تأطيرنا لسياج الدين وبنيته بتحديدنا لأهم المكونات التي يؤسس عليها بنيان الأديان ... فإننا في هذا الفصل نعمد إلى ملاحظة ما يربط الظاهرة الدينية ببعض من الظواهر الدينية نراها منتشرة، من أهمها : ظاهرة الوثنية وما يتبعها من أشكال ومظاهر التمثيل والتعدد ... وكذا السحر الذي لا ينفك يلازم الوثنية، ولنلاحظ ما علاقة الدين بتلك الظواهر وأيهما يكون الأصل ومتى يشكل الآخر الفرع ... ولعل ذلك يكون بالرجوع إلى الأصول التي نبتت منها كل من تلك الظواهر ... عسانا نقدر بذلك على تنقية الظاهرة الدينية مما يعلق بها من شوائب تبلورت في أساطير وخوارق ملأت الأديان والنصوص المقدسة ...

المبحث الأول : الدين ومظاهر الوثنية

معنى (وثن) في لسان العرب الوَثْنُ والوَاثِنُ المقيم الراكد الثابت الدائم ، ووثن معناها الدَّوْم على العهد 1 وفي مختار الصحاح (و ث ن) : الوَثَنُ الصنم والجمع وُثْنٌ و أَوْثَانٌ مثل أُسد وآسَاد 2 ومعنى وثَنَ على ما جاء في المعجم الوسيط الشيء بالمكان، ويثِنُ وَثْنًا : أقام وثبت فهو واثن، و(أوثن) من المال : أكثر منه و(استوثن) منه : استكثر، واستوثن النحل صارت فرقتين صغارا أو كبارا، وأوثن فلانا : أجزل عطيته، وأما استوثن الشيء : فمعناه بقي وقوي، والوثن التمثال يعبد سَوَاء أَكَانَ من خشب أم حجر أم نُحَاس أم فضَّة أم غير ذَلِك، و(الوثني) من يتدين بعبَادة الوثن ، و(الوثنية) مذهب عَبدة الأَوْثَان 3 . فعلى هذا يكون معنى الوثنية مأخوذ من الاستكثار والاستزادة والإجزال... ومعنى (الوثن) مأخوذ من الصمود والقوة والواثن؛ هو المقيم الراكد الثابت الدائم...

ومن الكلمات المرتبطة بالوثن لفظ (صنم) حيث لم يفرق عادة بينهما، وقيل أن الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب، أو الحجارة كصورة الآدمي تعمل وتنصب فتعبد، والصنم الصورة بلا جثة، ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقها على المعنيين، وفي (لسان العرب) يعرف الوثن؛ بالصنم ما كان، وقيل الصنم الصغير...4، وكذلك لفظ الشرك، أو الإشراك ومعناه : "الاعتقاد بشريك لله أو عبادة ودعاء معبود مع الله"5 وهو اصطلاح يشار به إلى تعدد الآلهة .

---

1 – ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، م6، ج51، ص4765 .

2 – محمد الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986م، ص295 .

3 – مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط4، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، 2004م، ج2، ص1012 .

4 – الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح : محمد خليل غيتاني، ط 1، بيروت : دار المعرفة، 1998م، ص527، وينظر ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، م6، ج51، ص4765 .

5 – الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص263 .

فلوثن هو الشيء الذي يشرك به مع الله الواحد فيجعل له ثان وثالث وغيره .. ، والعلاقة بين هذا والوثنية هي محاولة الإنسان حصر صورة للإله في ما يقيمه ويجسده من تمثال وصور ونصب يعتقد قوتها ودوام عهدها وثباتها على حال، وهي الأوثان التي يعكف ويداوم ويقيم على عبادتها... فالوثني هو من يثني ويجعل الشيء مع الله سبحانه وتعالى ثاني، متمثلا في تلك الأنواع والصور من الأوثان، الأمر الذي ينجم عنه تقديس غير الله أو تحكيم غيره، وتشريع غير شرعه .. فالوثنية هي عكس التوحيد أي الإشراك بالله سبحانه وتعالى أيا كان نوعها، ولكن من أين أتت الوثنية؛ على الرغم من أن الإنسان يعرف الله في أصل جبلته ؟ وكيف تشكلت الوثنية وبتلورت؟

المطلب الأول : الوثنية في العالم القديم

فالله فطرنا على التوحيد والإيمان به وحده لا شريك له، ولكن البشر انحرفوا –كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث [*] الذي يرويه عن رب العزة، ونتيجة للإنحراف والبعد عن شريعة الحق أن قام البشر بإنشاء الأديان الوثنية لتحل محل الدين السماوي، ولكن الله تعالى أرسل الرسل ليصحح للناس العقيدة وليدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له والرجوع إلى الفطرة الصحيحة [1] . وبتتبعنا لمظاهر الوثنية يتسنى لنا اكتشاف الصحيح من السقيم من الأديان، وكشف ما دخل على الدين الأصل من أوله أو ما يطرأ عليه في كل مرة مما أحاله إلى أديان شتى، وكذا ملاحظة ما لا يزال يتسرب إلى الدين الحق من دخيل ليفسد عليه عقيدته .

فبعد أن هبط (آدم عليه السلام) وزوجه إلى الأض لتبدأ قصة الإنسان وتاريخه عليها، فتكوّن من نسلهما أول أمة بشرية فطرت على التوحيد، بيد أن الشيطان الذي توعد آدم وذريته بالتفريق بينهم –إلا عباد الله المخلصين– وأخذ يتربص ببني البشر لصدّهم عن سبيل الله، ولكن الله برحمته أرسل الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس حجة قال تعالى { **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ** } (سورة البقرة الآية 211)[2] .

ويعتبر انحراف قوم (نوح عليه السلام) –الذي بعث تقريبا بين (3993- 3043 قبل الميلاد) بأرض الرافدين– أول انحراف عقدي على وجه الأرض [3] وكان السبب في ذلك كما يقول (ابن جرير الطبري) : "أنه

* – أخرج مسلم في (كتاب الجنة وصفة نعيمها) (باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار) : "إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا" .

1 – أحمد علي عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ط1، القاهرة : دار الآفاق العربية، 2004م، ص4 .

2 – ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص4- 47 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص50 .

كان قوما صالحين بين آدم ونوح عليهما السلام، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم لو صوّرناهم كان أشوق لنا للعبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم وأصبح لكل صنم من هذه الأصنام عبيد مخصصون له من الناس، ولما تطاولت العهود والأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون الله، ولهم في عبادتها مسالك كثيرة جدا ... وكانت تلك بداية عبادة الأوثان والأصنام"[1]. وأخذ (نوح عليه السلام) على عاتقه دعوة قومه ليلا ونهارا، سرا وجهارا، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم فيها إلى الله... إلى أن حل الطوفان بقوم نوح العصاة الذين تكبروا في الأرض وعاثوا فيها فسادا، ونجّى الله نوحا والذين آمنوا معه حينما رست السفينة على جبل الجودي[2] .

وسكن الجزيرة العربية بعد الطوفان أبناء (نوح عليه السلام) وهو أول نبي بعثه الله لتصحيح عقيدة التوحيد، ثم طغت (عاد)[*] واستكبرت وقالت من أشد منا قوة، واجتالتهم الشياطين فعبدوا الأصنام هم أيضا، فعاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة : صدا، صمودا، وهرا، وما كان الله ليتركهم على انحرافهم بل بعث فيهم نبيه (هودا عليه السلام) وكان ذلك تقريبا في (2400 قبل الميلاد)... وكذلك انحرفت (ثمود)[**] التي خلفت عاد عن جادة الطريق، فساروا على خطى (عاد) في البغي والفساد، وهكذا بعث الله سبحانه (صالحا عليه السلام) (حوالي 2100 قبل الميلاد) نبيا في قومه لتصحيح عقيدتهم بعد انحرافهم عن التوحيد، وكل ذلك مما يؤكد أن سكان الجزيرة العربية منذ أقدم العصور كانوا على عبادة الله الواحد الأحد، وقد بعث الله فيهم الأنبياء تترى كلما حادوا عن التوحيد[3] .

أما أهل (مدين) فقد عبدوا (الأيكة) وهي شجرة من الأيك وحولها غيضة ملتفة بها، وكانوا قطاع سبيل، من أسوأ الناس معاملة، فبعث الله فيهم رجلا منهم هو نبي الله (شعيب عليه السلام) فدعاهم إلى عبادة الله وحده، ونهاهم عما كانوا عليه... أما سبأ فيعتبر مجتمعها واحدا من أكبر أربع حضارات عاشت في جنوبي

---

1 - ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، مصدر سابق، م12، ج29، ص62 .

2 - ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص78 .

* - عاد : نسبة إلى عاد بن عوص بن سام بن نوح عليه السلام، وهم من القبائل العربية التي استخلفت الجزيرة العربية بعد قوم نوح الذين آمنوا ونجوا من الطوفان العظيم، سكن قوم عاد في منطقة الأحقاف بين الربع الخالي وحضر موت، وقد حباهم الله الأجسام الضخمة، والأبدان القوية (ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الانبياء والرسل، ص19) .

** - ثمود : نسبة إلى جدهم ثمود أخو جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح، وهم من العرب العاربة، كانت ثمود تتكلم العربية الآرامية وكانت مساكنها الحجر بين الحجاز والشام على وادي القرى وما حولها ولحقت بها طسم وجريس من قبائل العرب العاربة، والتي تسمى اليوم بمدائن صالح، وهي منطقة جبلية تفنن أهلها في نحت الجبال وجعلها بيوتا، واتخاذ السهول قصورا ..(ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الانبياء والرسل، ص19)

3 - ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، ص 19، وينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص707 .

الجزيرة العربية ما بين (1000-750 قبل الميلاد)، وقد كانت ديانتها مليئة بعبادة الكواكب، إلا أن الإلهان الرئيسيان هما : الإله القمر والإله الشمس، وإلى الشمال الغربي من محرم بلقيس يقع معبد (برأن) كأهم معابد مملكة سبأ التي بنيت للإله (المقة) في محافظة مأرب[1] .

وفي (أرض أور) جنوبي العراق أين ولد سيدنا (إبراهيم عليه السلام) وبعث (حوالي 1900 قبل الميلاد)، اعتنق أهلها عبادة الأصنام، واحترفوا صناعتها، وانقسم الناس آنذاك إلى فئات فمنهم من عبد الأصنام والتماثيل الخشبية والحجرية، وفئة عبدت الكواكب والنجوم والشمس والقمر، ومنهم من عبد الملوك والحكام ..
وكشفت النصوص السومرية القديمة على لسان شعراء [*] (سومر) عن نهاية أور التي كان يحكمها (النمرود) أواسط القرن العشرين قبل الميلاد بعد ارتحال إبراهيم عليه السلام وأهله منها [2] . والجدير بالذكر أنه أثناء (هجرة النبي (إبراهيم عليه السلام) من أور ووصوله إلى حران وجد الناس فيها يعبدون الكواكب أيضا ! فنهاهم عن ذلك فأصروا واستكبروا واستمروا في ضلالهم، فتوجه عليه السلام صوب بلاد الشام أين حلّ به المقام، وارتحل أثناءها إلى بلاد الفراعنة)[3] .

والمهم؛ فإن ما يلاحظ أن معتقدات السومريين الدينية أوغلت في الوثنية، حيث ابتدع السومريون في غضون الألف الثالث قبل الميلاد أفكارا دينية ومفاهيم روحية خلفت أثرا لا يمحى في عالم اليوم ! حيث جنحوا عن فطرة التوحيد، واسترسلوا في فكر شركي وضعوا من خلاله تصور لإله واحد للكون هو (آن)، أو لتصور إله واحد للأرض هو (إنكي)، أو تصور لإله واحد لسومر هو (إنليل)، كما راقب السومريون الكواكب والنجوم مراقبة دقيقة، مما نشأ عنه علم التنجيم، كما كان لهم آلهة للأهوار، وآلهة للبساتين، وآلهة للرعاة، وآلهة للحقول..! وقد كُشف عن رقيم من الفخار يجمع بين المعبودات السومرية القديمة، مثل الإله (إنكي) وخلفه الإله (ايسمود) ذو الوجهين، والإله (أوتو)، وتظهر المياه تتدفق من كتفي الإله إنكي إلى الأسفل[4] .

ومن الأمر المتفق عليه بين المؤرخين أن الأكاديين آمنوا بما اعتقده السومريون، ومع ذلك فقد اشتهرت آلهة جديدة في عهدهم، واحتلت مكانة لدى المجتمع، فالإله (نجرسو) إله الشمس، وعشتار (إلهة كوكب الزهرة)، وعبد الأكاديون النار واعتبروها مصدرا رئيسيا من مصادر الخير والنماء ! واعتنق الأمُّوريون (البابليون) من

---

1 - ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص707، 715 .

* - يقول الشاعر واصفا ما حلّ بأهل بابل بعد هجرة (إبراهيم عليه السلام) منها : فارق الفحل مقره وتفرق قطيعه مع الرياح، وأخذ ينعي مصير المدن السومرية الكبرى، وانتقل إلى وصف السماء قرار السماء بدمارها وسفك دماء أهلها، واستمر نحيب الناس وامتلأت الطرق بجثث القتلى ...

2 - سامي المغلوث، أطلس الأديان، ص22، وينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص104 .

3 - ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدرسابق، ص105 .

4 - ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص516- 518 .

بعدُ؛ عقائد السومريين الدينية وعبدوا آلهتهم، ولكنهم لم يتخلوا عن إلههم (مردوخ) إله الشمس الذي اعتبروه (بل مردوخ) الإله الأكبر، وإليه كانت توجه أحرُّ الصلوات وأبلغ الدعاء[1].

وقد كان محور الفكر الديني البابلي هو أن الإنسان إنما خلق لخدمة الآلهة، تلك الآلهة المحبة للأكل والشرب والرقص وسماع الموسيقى وحتى الزواج حسبهم، كما أنهم تستنشق العطور، أما طعامهم فكان من خبز ولحم حيوان (العجل أو الغزال)، وقدمت لها القرابين إرضاء لمزاجها وتجنبا لغضبها، وقد أُحصي عدد الآلهة البابلية فبلغ ما يقارب الـــ65000 إله في القرن 9 قبل الميلاد، فلكل مدينة ولكل مقاطعة ولكل أسرة، بل لكل فرد إله يحميه ![2]

إلا أن الآراميون الأوائل منذ ظهورهم في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد، كانوا مستقرين على عبادة إله واحد وثني لم يكونوا يعرفون سواه، هو الإله (حدد) فهو بمعنى (وحد) في الآرامية، إلا أن ذلك التوحيد لم يبق صامدا نقيا دون أن تشوبه عقائد التعدد والتفريد، خصوصا بعد احتكاك الآراميين بالآشوريين والبابليين والكنعانيين، علما أن تلك الفترة كانت غنية بدعوات الأنبياء والرسل[3] .

أما الإله حدد (أدد) إله العواصف والأمطار فقد انتشرت عبادته في جميع أنحاء آسيا الصغرى ووادي الرافدين وسوريا وفلسطين، وقد عرف بالعهد القديم باسم (رمون) وقد كان (يهوه) إلها للعواصف في المراحل الأولى من الديانة العبرية، حيث اشترك مع (أدد) في صفات كثيرة... في الوقت الذي حضيت فيه الآلهة (عشتار) الآلهة السامية الأكثر شهرة على قصب السبق في قصص وأساطير لا حصر لها، فهي إلهة الحب والجمال وإلهة الحرب والمعارك، وما هي إلا وريثة الإلهة السومرية (إنانا) !.. ولأن النزعة الكوكبية عند الأموريين كانت كبيرة جدا فقد حضيت هذه الإلهة بمكانة هامة باعتبارها إلهة كوكب الزهرة [4]... وقد نسج البابليون حول آلهتهم أساطير، حفظتها لحد اليوم التعاليم اليهودية، وأضحت جزء من القصص الدينية المسيحية واليهودية[5] .

أما الآشوريين فلم يكن الشعور الديني عميق في نفوسهم، فقد أخذوا معبوداتهم من جيرانهم السومريين والأكاديين والبابليين والآراميين، لكنهم تمسكوا بعبادة إلههم (آشور) الذي كان يرمز له بقرص الشمس المجنح، وهو رمز مصري الأصل، وقد كان آشور بمثابة الإله (مردوخ) البابلي، و(آنليل) السومري .. [6] ولكن الجدير

---

1 - ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص 524، وينظر حسن نعمة، ميثولوجيا أساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، بيروت : دار الفكر اللبناني، 1994م، ص77 .

2 - حسن نعمة، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، مصدر سابق، ص77 .

3 - سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص566 .

4 - ينظر المصدر نفسه، ص528 .

5 - حسن نعمة، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، مصدر سابق، ص76 .

6 - ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص537 .

الجدير بالذكر هنا هو التوبة والإنابة التي حدثت لبعض الآشوريين، وهم أهل نينوى عاصمة الدولة الآشورية آنذاك، وذلك أثناء بعثة (يونس عليه السلام) لهم، فآبوا من عبادة الأصنام، حيث دعاهم إلى عبادة الله وحده ونبذ ما سواه[1] .

وحين غدا الحوثيون بناة عظماء، ونحّاتون مهرة، قاموا بتشييد المدن المقدسة ذات الهياكل المتعددة، واهتموا بنقش الأرواح الحارسة التي تحمي الأبواب، كما جرت العادة عند الآشوريين، وفي دولة الحيثيين يصبو الملك نحو تأليه نفسه لرغبته في التشبه بفرعون مصر الذي نادى في قومه بأنه ربهم الأعلى، والواقع أن الحيثيين هبطوا في معتقدهم إلى الحضيض، كحال أقرانهم في البلاد المجاورة الذين عصوا أنبياء الله ورسله، كحال الإغريق والرومان.. [2]

أما عن الديانة الكنعانية في بلاد الشام؛ فقد ركزت ديانة الكنعانيين على الجمال الأنثوي فصنع آلهة للحب والحرب والخصب وبنيت لها المعابد، وتعددت الآلهة على اختلاف مظاهر الطبيعة، ومن آلهتهم : (إيل)، و(بعل)، (دجن)، (عشتار)... [3] ففي أوغاريت (رأس شمرا)، وهي مدينة أو مملكة في شمال سورية، نُظر إلى الطبيعة على أنها حياة الآلهة، وكل ما يحصل فيها هو من عمل الآلهة وصراعها ضد بعضها البعض، والتي بدورها تشارك الناس حياتهم، ولقد كثرت الآلهة لدى الأوغارتيين وتعددت إلا أن أهمها (إيلو) كبير آلهة (أوغاريت)، وهو خالق العالم وخالق الخلق عندهم، وتصوروا أن مقامه هو مركز الكون؛ عند منبع نهر أدونيس، حيث ينبثق المحيطان الأرضي والسماوي .. إضافة إلى (بعلو) إله الرعد ومرسل المطر عندهم، و(عشيراتو)، (موتو)، (عناة)، (مُّو) (دجن).. إلى غير ذلك مما أظهرته الأساطير [4] . وتعتبر النصوص المنسوخة على الطين المشوي التي اكتشفت في أوغاريت من أهم مصادر المعرفة عن الديانة الكنعانية خلال الألف الثاني قبل الميلاد، حيث كانت العبادات في أوغاريت منصبة بشكل خاص على العبادات الزراعية، لأنها مرتبطة مباشرة بالأرض والنبات والمناخ والنشاط البشري...[5]

والملفت للنظر أن الآلهة الكنعانية كانت لها شجرة آلهة تكونت من مجاميع على شكل أجيال متسلسلة نسبا، منها الآلهة القديمة؛ وهي آلهة الهيولى التي ظهر منها الكون وآلهة الخلق لاحقا، ينتمي لهذا الجيل ستة آلهة (يم) إله المياه الهيولية، وشمتم؛ المحيطان السماوي والأرضي، والإله (شم) محيط السماء، و(أديم) إله الأرض...)، والجيل الثاني هو جيل الإله (إيل)؛ حيث تلد السماء والأرض (شاميم وأدمة) الإله الخالق (إيل) ومعه ثلاثة إخوة..

---

1 – سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص175 .

2 – المصدر نفسه، ص247 .

3 – سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص556 .

4 – حسن نعمة، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، مصدر سابق، ص73- 74 .

5 – سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص556 .

وثلاث أخوات..، ثم جيل الإله (بعل)، وهو يمثل الابن الوارث لإيل... إلى غير ذلك من الأجيال... وتمتاز شجرة أنساب الآلهة الكنعانية بصلة قوية جدا مع شجرتي أنساب الآلهة السومرية والبابلية بشكل خاص... [1]

كما كان شائعا بين شعوب البلاد السورية، اعتقاد عن أجيال متعددة للآلهة وهي في (ايبلا) إحدى هذه البلاد ثلاثة أجيال، يتكون الجيل الأول من السماء والأرض اللذين كانا في البدء وحدة واحدة، وينسب للجيل الثاني زوجين من الآلهة، لهما يعود خلق الكون، وفي الجيل الثالث يعد إله الطقس والعواصف سيد الآلهة إلى جانب أخته إلهة الحرب والحب... وفي (أيبلا) وحدها يتكون مجمع الآلهة من أكثر من 500 إله وآلهة من أشهرها : (عشتار ودجن، حدد، كاميش، انكي، داغانو...) [2] . ورغم ما يلاحظ من مظاهر الوثنية في بلاد الشام عموما إلا أن الأصل فيهم هو دين التوحيد، وكيف لا والشام مبعث الأنبياء، فمن الأنبياء والرسل الذين بعثوا في بلاد الشام : (لوط، إسحاق، يعقوب، أيوب، ذو الكفل، داوود، سليمان، إلياس، اليسع، زكريا، يحيى وعيسى عليهم السلام)[3] إلا أن الوثنية طالتهم هم أيضا في كل حين .

ففي بعلبك غربي دمشق مثلا؛ (أين كان أهلها يعبدون صنما يسمى (بعلا) كما هو مذكور في القرآن الكريم، فبعيد وفاة (سليمان عليه السلام) وانقسام مملكته، وبفعل زوجة أحد ملوك بني إسرائيل ورغبتها في نشر عبادة قومها الذين كانوا عبادا للأوثان، فأرسل الله فيهم نبيه (إلياس عليه السلام)، بعد ان انتشرت فيهم عبادة الأصنام قال تعالى { **وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ**} (سورة الصافات الآية 123-125)...ولكن بعلبك عادت في العهد الروماني لعبادة الأوثان ومن أشهر معابدها الوثنية؛ معبد (باخوس) إله الخمر، (يعود للقرن 2 ق.م)، ومعبد (فينوس) إله الحب (القرن 3ق.م)[4] .

وعموما (فبعد عهد (سليمان عليه السلام) حدثت أحداث دينية وصلت إلى الردّة وعبادة الأوثان والتآثر بآلهة الأقوام المجاورة وعبادتهم ، وتعرض بيت المقدس للنهب والسرقة والتدمير عدة مرات، و في فنائه بني مذبح للأصنام، و لم يعد هناك ذكر لتوراة (موسى عليه السلام) ولا صلة بها...وكان هناك اتجاه غالب إلى الزندقة والكفر..[5] فما مظاهر الوثنية في بلاد الشام إلا انحرافات عن جادة الطريق في وقت كان الأنبياء ينادون بإفراد العبادة لله الواحد القهار .

أما مصر آنذاك فقد خلدت أهراماتها التماثيل التي عبدوها آنذاك ومن ذلك تمثال (أبي الهول)، إضافة إلى التماثيل الفرعونية الكثيرة، وقد تنوعت المعبودات الوثنية في الديانة المصرية القديمة، ويرجع هذا التعدد إلى أن

---

1 – ينظر خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، ط1، عمان : دار أزمنة، 1999م، ص12- 15 .

2 – ينظر حسن نعمة، ميثولوجيا أساطير الشعوب القديمة، مصدر سابق، ص75 -76 .

3 – سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص57 .

4 – ينظر المصدر نفسه، ص168- 170 .

5 – ينظر طارق خليل السعدي، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص62 .

(المصريين القدامى ردوا كل ظاهرة حسية تأثرت دنياهم بها إلى قدرة علوية أو علّة خفية تحركها وتتحكم فيها، وتستحق التقديس من أجلها، الأمر الذي أفضى إلى تعدد ما قدسوه من العلل والقوى الربانية المتكلفة بالرياح والأمطار وظواهر السماء، وبجريان النيل، وتعاقب الفيضانات وتجدد الخصوبة والأرض ونمو النبات... حتى كان لكل أسرة ولكل قبيلة، ولكل إقليم، معبوداته المحلية المتعددة، غير أن نفوذ كل معبود كان لا يقتصر أحيانا على منطقته، وإنما كان يمتد إلى ما حوله من القرى إذا ما عظم شأن قبيلة من القبائل...) [1]

ولقد عبد المصريون الحيوانات (من العجل والتمساح والقط والكبش والأفعى... إلى الإوزة والعنزة والدجاجة !)، والنباتات (كالنخيل والتين والعنب..) ومظاهر الطبيعة، بل وألهوا الإنسان نفسه، وقد اختلف العلماء في أسباب تقديس المصريين للحيوان والنبات، فمنم من رأى أنها طوطمية، ومنهم من رأى أنها رموزا اتخذتها القبائل في حروبها قبل التاريخ إلى غير ذلك من التعليلات، ومن المهم ذكره أن المصريين ما قدسوا تنك الأصناف إلا لاعتقادهم حلول الآلهة فيها، فتقديس المصريين لم يكن لذات الحيوان أو النبات، فلم تكن هي معبوداتهم بذاتها، بل هي ظروف حلت فيها شخصيات الإله الأعظم عندهم، وأما عن تقديسهم لبعض البشر فقد ظهر فيهم حين أعلن الملك (مينا) الذي وحد البلاد (حوالي 3200 قبل الميلاد) في غير مواربة أن روح الإله حلت فيه، وتقبل الناس فكرته، وبذلك قدموا له صنوف العبادة وألوان الخضوع والتقديس ![2]

وحين ظن المصريون أن النيل والشمس مسؤولان عن خصوبة أرضهم، فقد كتبوا السيادة لآلهة النيل والشمس، وارتبطت فيضانات النيل باسم الإله (حابي) بصفة خاصة وبكثير من آلهة النيل المحلية..، أما بالنسبة للشمس، فالإله (راع) هو الذي يمثل قوة الشمس في مجمع الآلهة... وصوروه أحيانا في جسم إنسان ورأس صقر، بعد أن كان الرمز الرئيسي له هو المسلة [3]. **فلا مثيل لمصر في تنوع المعتقدات والأفكار والمذاهب، وكثرة الآلهة والإلاهات وانتشارها هنا وهناك، واختلاف أو تشابه أشكالها وأوصافها التي توزعت على ضفاف نهر النيل، وذلك رغم موجات الأنبياء الذين بعثوا فيها أو إليها هاجروا .**

أما في الهند فيعجب المرء لكثرة آلهتهم أشد العجب، وقد وصف (وول ديوانت) في (قصة الحضارة) الآلهة التي يدين لها الهندوس (البراهمة) ويؤلهونها قائلا : "تزدحم بها مقبرة العظماء في الهند، ولو أحصينا أسماء هاتيك الآلهة لاقتضى ذلك مئة مجلد، وبعضها أقرب في طبيعته إلى الملائكة، وبعضها هو ما قد يسمى بالشياطين، وطائفة منهم أجرام سماوية مثل الشمس، وطائفة منهم تمائم.. وكثير منها هي حيوانات الحقل أو طيور السماء...فالفيل مثلا قد أصبح الإله (جانيشا) واعتبروه (ابن شيفا)، وفيه تتجسد طبيعة الإنسان الحيوانية... وكذلك كانت القردة والأفاعي مصدر رعب..." [4] إلا أن تلك الوفرة والكثرة يختزلها الهندوس في آلهة ثلاثة

1 – أحمد عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، مصدر سابق، ص85 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص88- 91 .

3 – ينظر جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مصدر سابق، ص38-39 .

4 – وول ديوانت، قصة الحضارة، قصة الحضارة، م1، ج3، ص207 .

هي؛ الإله (برهما)، والإله (فشنو)، وكذا الإله (شيفا) . ويمكن أن نلمح نزعتان في الفكر الهندوسي؛ نزعة الوحدانية ونزعة التعدد، حيث توصل كهنتهم إلى أن الإله هو الذي أخرج العالم من ذاته، وأطلقوا عليه ثلاثة أسماء؛ فهو (براهما) من حيث هو الخالق، وهو (فشنو) من حيث هو حافظ العالم، وهو (سيفا) من حيث هو مهلك ومدمر البشرية[1] . وقد كثرت معبودات الهند وآلهتها حتى أطلق عليها أرض الآلهة، ولا يفوقها في تعقد مشاكلها الدينية ووسع الخيال وخصوبته في تصوير المعبودات وصعوبة تحديد خصائصها إلا أرض الفراعنة[2] .

ويعجب المرء كذلك للديانة البوذية التي ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية (الهندوسية) في القرن الخامس قبل الميلاد، والتي دعت في بدايتها إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير، لكنها لم تلبث بعد موت مؤسسها أن تحولت إلى معتقدات باطلة ذات طابع وثني، حتى غالى أتباعها في مؤسسها فألهوه[3]!

واشترك الفرس مع الآريين الآخرين في عبادة بعض الآلهة كالإله (أندرا)، (فارونا).. آلهة الهند، كما فرضت الفارسية القديمة عبادة العناصر الأربعة : النار بكوكبيها (الشمس والقمر)، والهواء، والماء والتراب، وبتقديس كل مظاهر الطبيعة الأخرى، حيث عبد الفارسيون قوى الطبيعة هذه وجسموها وشخصوها بهيئة آلهة، فإله الشمس سموه (مثرا)، والقمر باسم (ماه)، والأرض باسم (زام)، والنار باسم (أنار)، والماء باسم (أفام نفت)، والريح باسم (وهيو) إلى آخره[4] .

ومن أهم مذاهب الفرس الدينية التي كانت تمثل آلهة متعددة هي : الزرادشتية بإلهي (الخير والشر)، وما تفرع عنها من المانوية والمزدكية .. [5] فبعد ظهور الزرادشتية بفارس نسبة إلى (زرادشت)، تلك الديانة التي ابتدأت توحيدية بالإله (أهورامزدا)، ثم تحولت بالتدريج إلى ثنوية، وذلك لما رمز لـــ (أهورامزدا) برمزين ماديين –لغرض تقريب تصوره وإدراكه– أحدهما سماوي والآخر أرضي؛ هما الشمس والنار...ومن هنا حرصت الزرادشتية على أن توقد شعلة النار في كل هيكل وتطيب وتعطر باعتبارها رمزا للإله...وبهذا تسرب العنصر الوثني للزرادشتيه لمبالغتهم في تقديس النار، فتحولت الزرادشتية من التوحيد إلى الثنوية والحلول، وبعد أن كانت النار إشارة للخالق ها هي تتحول إلى موضع للحلول والكمون[6] .

1- ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، ص 611، وينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص293 .

2 – أحمد عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، مصدر سابق، ص129 .

3 – سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص290 .

4 – ينظر أحمد عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، مصدر سابق، ص111- 112 .

5 – سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص287 .

6 – ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص600 .

وعبد الصينيون الطبيعة كبقية الشعوب القديمة بدافع الخوف، فقدسوا السماء باعتبارها الإله الأعظم ورب الأرباب وحاكم الحكام، وقدسوا ما على الأرض من مظاهر رهيبة كالأنهار والجبال، كما قدسوا الإنتاج والخصب، كما عبدوا أرواح الأجداد.. وكان من أهم الآلهة التي عرفها الصينيون؛ الين واليانغ، و(الين) مؤنث مظلم ويرمز إلى الأرض، وهو متوحد مع الأبالسة، أما (اليانغ) فهو مذكر إيجابي وهو يمثل الآلهة ويرمز إلى السماء، إضافة إلى (تشاي) وهو (ابن الأثير)، و(تومو) وهي ربة تمثل نجمة الشمال، و(تيان) الإله الأعلى و(كوانتي) إله الحرب و(كونغ كونغ) وهو وحش تنين...[1]

وفي اليونان أين كانت (كريت) هي المركز الرئيسي للثقافة المبكرة، انتشرت عبادة الإلهة الأنثى في مناطق واسعة، وكان للإلهة (الأم) فيها مكانة عالية، فقد سادت في البداية التماثيل الصغيرة، رغم أنها لم تقتصر على تماثيل الأنثى، ولكن في الألف الثانية قبل الميلاد اكتملت صورة الإلهة تماما، وقد ارتبطت بالحيوانات والطيور والثعابين، كما ارتبطت بالعمود والشجرة، والسيف والفأس.. وصارت لها السيطرة على جميع مجالات الحياة والموت، ويصورها تمثال شهير وهي واقفة فوق الجبل يحيط بها أسدان، وتمثال آخر والثعابين تطوق ذراعها [2] والملاحظ أن المجال هنا لعقيدة الخصب .

وفي الشعر الذي ينسب عادة إلى (يوهوميروس)، يظهر مجمع كبار الآلهة في جبال الأولمب أشبه بالمجتمع البشري، لكنه مكتوب بأحرف كبيرة، فـــ(زيوس) هو السيد المسيطر، والقائد الأعلى، وأب الآلهة والبشر، ثم هناك (هيرا) وهي حارسة الزواج، و(بوزيدون) يحكم البحر، و(أفروديت) هي قوة الحب، و(آرتميس) هي ربة الطبيعة البرية، أما (أثينا) فهي ربة الحكمة وراعية الحرف الفنية، كما أن (ديميتر) أصبحت الأرض الأم، وارتبطت بصفة خاصة بحصاد القمح...[3] وإلى جانب الآلهة الكبار هناك آلهة صغار، وهم آلهة الأرض، وآلهة ما تحت الأرض، وآلهة الأسلاف والأبطال وآلهة حيوانية ..وانتشرت عبادة هذه الفئة بين الفقراء عادة، وكانت طقوسها حزينة عكس طقوس كبار الآلهة ..كما تطورت المفاهيم الدينية لدى اليونان حتى ظهر لديهم الآلهة الصوفية، وهي آلهة بعثت بعد الموت عندهم ! ...[4] وغير ذلك كثير من ركام الآلهة .

أما الرومان فقد عبدوا أول الأمر، العديد من الآلهة والأرواح، والأشباح، وفسروا وقوع الظواهر الطبيعية بأنها من عمل هذه الأرواح، ثم بعد ذلك نجدهم كلما احتكوا بقوم أخذوا ديانتهم ... حيث أخذوا عن اليونان آلهتهم وأطلقوا عليها أسماء لاتينية، وكذلك الأمر عندما استولوا على البلاد الشرقية واختلطوا بأهلها أخذوا الكثير عن الديانات الشرقية... وبهذا كثرت الآلهة عندهم كلما اتسعت امبراطوريتهم، فلكل شيء إله

---

1 - حسن نعمة، ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة، مصدر سابق، ص111- 114 .

2 - ينظر جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مصدر سابق، ص50- 52 .

3 - المصدر نفسه، ص52- 53 .

4 - حسن نعمة، ميثولوجيا وأساطير الشعوب، مصدر سابق، ص101 .

خاص يديره حتى باب البيت..! ولهذا قيل بأنه لا يعرف دين قط يبلغ فيه عدد الآلهة ما بلغه عند الرومان، وقد قدرها البعض بثلاثين ألف[1] .

وما ميز ديانة الرومان هو بناء المعابد الضخمة على غرار اليونان... فضاهت هياكلهم هياكل أثينا الضخمة فتميزوا ذلك الحين بإجلال الطقوس الدينية وإرضاء الآلهة، ولكن الرومان شأن الإغريق انتهوا بالتهكم من الآلهة لما أثرت فيهم تعاليم سقراط وغيره من الفلاسفة، وبالنسبة لآلهة الرومان (الإثنا عشر) من أبولون (Apollo) مرورا بجوفينتوس(Juventus) ومارس (Mars)..وصولا إلى فستا (Vesta)، فمرجح الظن أنها أبطال شعبية ساهمت في تأسيس روما وحماية حياضها إبان الحروب، خلدت بعد موتها، ثم عبدت... وقد ظل الرومان يمارسون ديانتهم الوثنية حتى ظهور الديانة النصرانية[2] .

وفي المغرب القديم تنوعت معبوداتهم تنوعا شديدا، فعبدت عناصر الطبيعة، وخاصة الشمس والقمر وقدمت لهما القرابين، وكذلك السماء، النار، البحر، الجبال، الغابات، الأحراش، الوديان، الأنهار، النجوم والكواكب .. كما عبدوا الحيوان (الكبش والثور، البقرة، الأسد، الثعابين..)، والأصنام، وقدسوا الأجداد والملوك... ودخل قلوبهم الخوف من (الجن) فظنوهم في الأشجار والكهوف والأحجار فاستمر تقديسها إلى زمن متأخر.. وعبر تاريخهم الوثني عرف المغاربة (الأمازيغ) حضارات عدة عايشوها واختلطوا بها من ذلك حضارة؛ الفراعنة، الفرس، القرطاجيين، الرومان، الإغريق، الفينيقيين، اليهود، فتأثروا بها، فكانت لهم في أحيان عدة معتقدات مشتركة، فمرة يعبد المغاربة إلها من هذه الحضارة كعبادة الإلهة (إيزيس المصرية)، والإله (بعل) و(الكبش عمون) الفينيقي، وقدسوا (النار) كالمجوس..أما عن أشهر آلهتهم المحلية نذكر: سيفينار (Sinifer)، بانكور (Banchor)، الإلهتين : فيهينام (Vihinam)، وفارسيسيما (Varsissima)...[3]

فقد عمت الوثنية أرجاء العالم القديم، مما يدل على الخواء الروحي، ونتيجة لضعف الوازع الديني انحرف الناس عن جادة الصواب، وجاروا عن الحق، فالحضارات القديمة؛ بداية من خروج موجات بشرية من جزيرة العرب.. إلى تشكل أولى الحضارات في وادي النيل وكذا بروز الدولة السومرية حضاريا في وادي الرافدين، إلى بزوغ الحضارات الفارسية والهندية والصينية إلى بلاد الشام...كل تلك الحضارات أرست دعائمها المدنية على المادية دون اكتراث للقيم والمثل الأخلاقية والدينية إلا ماندر..، فتفشت الوثنية واضطربت القيم.. وعمّ الأمر بعد توسع انتشار البشر وامتزاجهم وتأثر بعضهم ببعض .

---

1 - ينظر أحمد عجيبة، دراسات في الأديان الوثنية القديمة، مصدر سابق، ص 179، 181، وينظر حسن نعمة، ميثولوجيا وأساطير الشعوب، مصدر سابق، ص79.

2 - ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص676 .

3 - ينظر إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ط 1، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة، 2009م، ج1، ص16، وينظر جميل حمداوي، الديانة عند الأمازيغيين، شبكة الألوكة، ص4- 6 .

ولكن الله –جل في علاه- لم يكن ليذرهم على ما هم عليه، بل بعث فيهم منذرين ومبشرين في كل مرة وحين، وقد تبين لنا ذلك بتتبعنا للبشرية في أهم حضاراتها وحوادثها، حيث كانت حضارة بلاد الرافدين أول من سجل حالة عبادة أصنام آنذاك.. فلاحظنا بعثة (نوح عليه السلام)، ودعوته إلى عبادة الله وحده قرابة ألف سنة، وما أرسل عليهم الطوفان (2900ق.م) إلا لتماديهم في سبل الغي والفساد ..كما رأينا بعثة نبي الله (هود عليه السلام) إلى قوم عاد (2400ق.م) حين اغتروا وانحرفوا عن الحق { **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ** }(سورة الأعراف الآية 65)، وكذلك اغترت ثمود(2100ق.م) وصدت عن سبيل الله، فبعث الله فيهم (صالحا عليه السلام) .

وعلى فترة بعث أبو الأنبياء (إبراهيم عليه السلام) جنوبي العراق (1997ق.م)، فضرب مثلا في محاربة الوثنية متمثلة في عبادة الكواكب والتماثيل { **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** }(سورة الأنبياء الآية 52).. ثم تنقله إلى أرض كنعان مرورا بحران أين نهى العاكفين على عبادة الكواكب أيضا، فأصروا على ضلالهم ... ومن ثمَّ إلى بناء البيت بأرض الله الحرام مع ابنه (إسماعيل عليه السلام) ... أما مصر فكان ممن هاجر إليها من الأنبياء إبراهيم ويعقوب عليهما السلام، ويوسف النبي الذي عاش وبعث فيها...وإلى أصحاب الأيكة (مدين) شمال غرب الجزيرة العربية بعث نبي الله (شعيبا عليه السلام) (1550ق.م) لنبذ الشرك فيهم وتصحيح عقيدتهم ... وإليها أيضا هرب نبي الله (موسى عليه السلام) .

أما بنو إسرائيل (فقد كانوا حنفاء على دين (إبراهيم عليه السلام) زمن النبي (يوسف عليه السلام) في أرض مصر بعد نزوحهم من بلاد كنعان، بخلاف الفراعنة عبدة الأصنام والأوثان، ومع تقادم الزمن تكاثر عددهم فخشي الفراعنة من امتداد نفوذهم، فراحوا يسومونهم سوء العذاب..وفي مثل هذه الظروف ولد النبي (موسى عليه السلام)، وحين شب حصل له ما حصل ففر من مصر إلى مدين، وفي حين عودته إلى مصر اجتباه ربه وكلمه بطور سيناء من جانب الطور الأيمن { **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي** } (سورة طه الآية 14) وبعث معه أخاه هارون وزيرا، وأمرهما بالذهاب إلى فرعون وبلين القول معه.. وخرج موسى ببني إسرائيل مع أخيه (هارون عليهما السلام) من مصر بعد أن نجاه الله وقومه من فرعون [*] مصر آنذاك (1447ق.م) قال تعالى { **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ**

---

[*] – مرنفتاح بن رعمسيس الثاني : هو رابع ملوك الأسرة التاسعة عشر، وهو ابن الملك رمسيس الثاني،وقد استمرت مدة حكم (مرنبتاح) حوالي عشر سنوات من عام 1213 ق.م إلى عام 1203 ق.م عرف بفرعون الخروج الذي طارد موسى وبني إسرائيل وأغرقة الله في خليج السويس وبقيت جثته إلى الآن، وهي اليوم بالمتحف المصري ...(ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص147)

مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ } (سورة يونس 90- 92)...)[1] .

وظهر الانحراف في بني إسرائيل حين ذهب نبيهم موسى لتلقي الألواح ! فزين لهم السامري عبادة العجل، وطلبوا من موسى أن يجعله لهم إلها وصنما فنهرهم موسى لذلك { **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا** } (سورة طه الآية 85- 86) ... وتوالى الأنبياء في بني إسرائيل تترى؛ إلى داوود فسليمان عليهما السلام اللذين اتسعت دولتهما بالشام (بعاصمتها بيت المقدس) إلى إخضاع سبأ باليمن (1010ق.م)... فكانت سبأ على الصواب إلى أن ظلت عقيدتها عن الحق وتمادت فجاء أهلها السيل العرم قال تعالى { **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ** } (سورة سبأ الآية 15- 16) .

فاليهود على هذا (كتابيون موحدون وهذا هو الأصل، لكنهم خالفوا شرع الله باتجاههم إلى التجسيد والتجسيم والنفعية، مما أدى إلى كثرة الأنبياء فيهم لردهم إلى جادة الطريق، وقد اتخذوا العجل معبودا لهم بُعيد خروجهم من مصر، والإله لديهم اسمه (يهوه)، وهو ليس إلها معصوما، بل إنه يخطئ ويثور ويقع في الندم ويأمر بالسرقة، وهو قاس متعصب، مدمر لشعبه، وهو إله بني إسرائيل فحسب، وعدوا لغيرهم) [2]، ولا تنكر أسفار بني إسرائيل المقدسة بأن اليهود قد توجهوا بالعبادة لغير الله بعد أن جاءهم الهدى، حيث جاء في سفر القضاة (8-22) (وكان بعد موت جدعون أن بني إسرائيل رجعوا وزنوا وراء البعيلم وجعلوا لهم بعل بريث إلها، و لم يذكروا الرب إلههم الذي أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم) فلا يخف هنا أثر الفكر الديني للثقافات المحيطة على اليهود ولعلهم هنا في عبادتهم للإله (بعل) متأثرين بالكنعانيين .

ومن أرض (آشور) شمالي العراق، بعث نبي الله (يونس عليه السلام) إلى مدينة نينوى (780ق.م) في وقت بلغ فيه الأدب الإغريقي أوجه؛ تمثل الإلياذة والأوديسة لهوميروس جانبا منه دون أن يخفى أثر الانحلال الخلقي الذي جسدته المخلفات الأثرية، وكثرت التدافعات والحروب والحملات ومما يذكر استيلاء الرومان على مدن اليونان، وبذلك امتزجت حضارتهما ومن ثم عقائدهما ووثنيتهما وآلهتهما !

وإذا نظرنا إلى (آسيا) فإن من الديانات الوثنية التي برزت بعدئذ الزرادشتية التي نادت بـــ(سدهارتا جوتاما) بأنه إله أو ابن الله وانتشرت بين عدد كبير من الشعوب الآسيوية ولا سيما الصين واليابان والهند.. الأمر الذي يفسر تأثر النصارى بأفكارهم وعقائدهم فيما بعد ... وإلى جانب الزرادشتية تأسست الجينية في الهند(539ق.م) والعقيدة الكونفوشيوسية (490ق.م)...وتخبط العالم إثر ذاك في شركيات وعبادات للأصنام

---

1 - ينظر سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص147 .

2 - المصدر نفسه، ص270 .

تجلى ذلك في الحضارات شرقا وغربا وتعددت الديانات وتفرعت ... وعقود قبل الميلاد تأسست الإمبراطورية الرومانية وراحت تتوسع حوالي (30ق.م) إلى أن بعث (زكريا عليه السلام) في بني إسرائيل في بلاد الشام، ورزق هناك على كبره بـــ(يحيى عليه السلام))، ومن بعد يحيى وبمعجزة إلهية من غير أب، ولد المسيح (عيسى عليه السلام) من (مريم عليها السلام) وكان ذلك أيام سيطرة الرومان على فلسطين قال تعالى { **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**} (سورة آل عمران الآية 45) فكان ميلاده بداية التاريخ الميلادي .

المطلب الثاني : الوثنية في العالم قبيل الإسلام (في الجزيرة العربية)

بعث المسيح (عيسى عليه السلام) ليقوِّم اليهود بعد انحرافهم عن عقيدة موسى وشريعته .. فرفضوه، بل تآمروا مع الرومان على صلبه، لكن الله نجاه منهم فرفعه إليه { **بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** } (سورة النساء الآية 158) وظلت النصرانية بعد ذلك طريقها مع بولس، وغالت في المسيح إلى أن ألهته خاصة بعد أن تحالف بقية من بني إسرائيل مع الرومان فاعتمدت النصرانية ديانة رومانية بألوهية المسيح ... وانطلق المبشرون ينادون بالتنصير، وبذلك سرعان ما فقدت النصرانية أصولها، وابتعدت عن صورتها السماوية الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية .

وفي العام الذي جهز فيه (أبرهة الحبشي) فيله لهدم الكعبة عام (571م) ولد خاتم الأنبياء (محمد صلى الله عليه وسلم) وبعث لأربعين عام خلت من عمره . فإذا ما عدنا إلى جزيرة العرب لنرى قبائلها وحالهم مع الأوثان ولكن قبيل ظهور الإسلام، لنجد أن (العرب قبل الإسلام مثل سائر الشعوب الأخرى تعبدوا الآلهة، وحاولوا التقرب منها باسترضائها بمختلف الوسائل والطرق، ووضعوا لها أسماء وصفات، وخاطبوها بألسنتهم وقلوبهم، وسلكوا في ذلك مسالك شتى .. ولنرى ما كان الناس عليه آنذاك لا سيما أهل مكة ويثرب والحجاز من عبادات وآراء.. ويعد القرآن مرجعا أساسيا هنا لما ورد فيه من وصف لحالهم، بل وذكر بعض أصنامهم الكبرى التي تعبدوها)[1] .

والمهم الذي ننوه إليه بداية؛ أن العرب قبل الإسلام كانت على ملة إبراهيم عليه السلام من الإيمان بالله الواحد، إلا أنهم تركوا ما كانوا عليه شيئا فشيئا، وحاروا عن دين إبراهيم إلى عبادة الأوثان وصاروا إلى ما صارت إليه الأمم الأخرى... ومن الجاهليين رجال من ذوي العقول النيرة التي هزأت بالأوثان وبديانات قومهم، ورجال منهم كانوا على الحنيفية[*]، يريدون بها ديانة التوحيد، فهؤلاء استنكفوا عن عبادة الأوثان، و لم

1 – جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (أديان العرب قبل الإسلام)، ط2، بيروت : 1413ه، 1993م، ج6، ص5 .

* – الحنيفية : وقد لخص الفخر الرازي آراء العلماء في (الحنيفية) وأجملها في تفسير قوله تعال {وقالوا كونوا هودا} (سورة البقرة الآية 135) حيث قال أن في الحنيفية أربعة أقوال : أحدها إنها حج البيت، عن ابن عباس والحسن ومجاهد، وثانيها أنها

يعتنقوا المسيحية ولا اليهودية، وسمي أتباعها بالأحناف أو الحنفاء ومن هؤلاء؛ (ورقة بن نوفل)، (عمرو بن نفيل)، و(عبيد الله بن جحش) .. والحنيفية هي بقايا ما ورثوه عن ملة (إبراهيم عليه السلام) [1]، كما أن هناك ممن كانوا على ملة اليهودية ودين (المسيح عليه السلام)، ومنهم من دان بالمجوسية، ومنهم من توقف، فلم يعتقد بشيء ومنهم من تزندق ... وأقوام كانوا على عبادة (الله) و(الرحمان) .. وكل ذلك مما مهّد لظهور الإسلام[2] .

فالذي يلاحظ هو تشعب الأديان في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام مما يؤكد احتكاكهم بغيرهم من الأمم، ومن الأديان التي تواجدت آنذاك اليهودية والنصرانية، فمن العرب من كان على دين اليهود ومنهم من كان نصرانيا، فلا يمكن إنكار ورود اليهودية والنصرانية إلى العرب من الخارج بعمل الهجرة والتبشير والاتصال بفلسطين والعراق، كما تأثر الوثنيون بوثنية غيرهم وكذلك أثروا في غيرهم ...[3]

فأما اليهودية فقد انتشرت بين ملوك حمير وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وكندة، وغسان، وتهود أيضا قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريضة والنضير... وهي بعض قبائل يهودية هاجرت من فلسطين إلى الجزيرة العربية في أزمان مختلفة .. فأقاموا في مواضع عديدة بين فلسطين ويثرب، كما سكنوا في اليمن وفي اليمامة وفي العروض، وكان تجار منهم يقيمون في مكة وفي مواضع أخرى من جزيرة العرب للإتجار وإقراض المال بربا فاحش بين المحتاجين [4]، ولذلك لابد من وقوف عرب الجاهلية عن أخبارهم وتأثرهم بهم .

وأما النصرانية فقد وجدت طريقها إلى شبه الجزيرة العربية انطلاقا من ثلاثة مداخل؛ سورية شمالا، والحبشة غربا، والعراق في الشمال الشرقي، وإذا كانت اليهودية قد دخلت جزيرة العرب بالهجرة والتجارة، فإن دخول النصرانية إليها كان بالتبشير وبدخول بعض النساك والرهبان إليها للعيش بعيدين عن ملذات الدنيا، وبالتجارة وبالرقيق لا سيما الرقيق الأبيض .. وبذلك تواجدت النصرانية عند الغساسنة، والمناذرة خلال القرنين الخامس والسادس ميلادي ...[5]

اتباع الحق، عن مجاهد، وثالثها أنها اتباع إبرايم عليه السلام فيما أتب ه من الشريعة التي صار بها إماما للناس بعده من الحج والختان، وغير ذلك من شرائع الإسلام، والرابع أنها الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية . (فخر الدين الرازي، التفسير الكبير، ج4، ص89)

1 - ينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص 31، وينظر سميح دغيم، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ط1، بيروت : دار الفكر اللبناني، 1995م، ص47 .

2 - ينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص31 .

3 - ينظر المصدر نفسه، ص11 .

4 - ينظر المصدر نفسه، ص511، وينظر ابن هشام، السيرة النبوية، مؤسسة علوم القرآن، ج1، ص10 .

5 - ينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص587 .

أما المجوسية فقد عرفت عند بعض الجاهليين عن طريق الفرس المقيمين والتجار هناك، وفيهم من اشتغل بالزراعة والتعدين، وانتشرت في تميم وفي عمان والبحرين واليمامة... وإضافة إلى المجوسية نجد عبادة النجوم (الصابئة) التي انتشرت بين العرب الجاهليين لاحتكاكهم بصابئة حران (بالعراق) والكلدانيين فعبدوا (الزهرة) و(الشمس) و(القمر) و(الدبران) و(الثريا)... وألهوها [1] ورغم أن الصابئة تعتبر نبي الله (يحيى عليه السلام) نبيا لها، وتؤمن بوجود الله إلا أنهم يجعلون بعده أندادا وأعدادا (365)، وهؤلاء وضعوهم في صور خيالية، ولاعتقادهم بأن الكواكب مسكن للملائكة فهم يعظمونها ويقدسونها [2] مما نجم عنه تأليه الكواكب بعد ذاك... إلى غير ذلك من المعتقدات والمذاهب... وقد ورد ذكر مختلف تلك الطوائف والمعتقدات الدينية التي انتشرت في جزيرة العرب ظرف بزوغ شمس الإسلام من اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة .. في القرآن الكريم مجتمعة في قوله تعالى { **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** } (سورة الحج الآية 17) .

وفي المقابل هناك طائفة بشرت بالوثنية، وأذاعتها بين العرب لما كان لهم من مكانة ونفوذ، فهناك من عبد الأصنام لاعتقاد أنها تضر وتنفع، ومن الناس من آمن بالله، وتعبد معه الأصنام، لزعم أنها تقربهم إليه، فأشرك، ومن أصنام العرب قبيل الإسلام :

- (هبل)؛ وقد كان أعظم أصنام قريش، وكان داخل الكعبة، منصوب على بئر، فيها توضع الهدايا، وأموال الكعبة، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، وقد وصفه (ابن الكلبي) بأنه كان على صورة إنسان، مكسور اليد اليمنى، أدركته قريش فجعلت له يدا من ذهب [3] ويرجح أن يكون (هبل) هو نفسه (مردوك) سيد آلهة بابل، والإله (بعل) عند العبرانيين .
- أما (اللات) : فكانت بالطائف، وقيل أنه رجل من ثقيف، فلما مات قال لهم (عمرو بن لحي) [4] بأنه لم يمت ولكن دخل في الصخرة، فعبدوها وبنوا عليها صنمهم، وكان الصنم صخرة بيضاء مربعة منقوشة، والأرجح أن (اللات) غريبة عن العرب، فهم أخذوها عن البابليين (اللاتو)، وعن النبطيين (إله الشمس)[5].

---

1 - ينظر سميح دغيم، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص61، ص67، 82، 137، 142، 144، 145، 146، 147 .

2 - سامي المغلوث، أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، مصدر سابق، ص284 .

3 - ابن الكلبي، الأصنام، تح : أحمد زكي باشا، ط3، القاهرة : دار الكتب المصرية، 1995م، ص27 .

4 - عمرو بن لحي الخزاعي : من خزاعة وكان سيد مكة ومن سادات العرب، يعد أول من غير دين إبراهيم الحنيفية، ونصب الأوثان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار" (أخرجه البخاري ومسلم) . (ينظر ابن كثير البداية والنهاية، ج2، ص136)

5 - ابن الكلبي، الأصنام، مصدر سابق، ص16 .

- (العزى) : وكانت قريش تخصها بالإعظام، وهي صنم أنثى، أحدث زمانيا من مناة واللات، وكانت بواد يقال له حراض [1] وكما مثلت (عشتار) مثلث الخصب الحب والجمال في (بابل)، ومثلت (الزهرة) عند الإغريق.. ها هي تصبح العزى عند العرب، وهي أيضا تعرف عند عرب الجنوب بـــ(عثتر)[2].
- و(مناة) : وهو أقدم أصنام العرب على حد قول (ابن الكلبي)، وكان منصوبا على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين المدينة ومكة، وكانت الأوس والخزرج وأزد شنوءة وغيرهم تعظمه، سدنته الغطاريف من الأزد[3]وقد ورد ذكر تلك الأصنام الثلاثة الأخيرة مجتمعة في القرآن في قوله تعالى { **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**} (سورة النجم الآية 19-20) .
- (الأقيصر) وقد كان لقضاعة ولخم وجذام وعاملة وغطفان[4] ...

وإلى (عمرو بن لحي) تنسب أغلب الروايات جلب الأصنام إلى مكة من الشام، أو بإيحاء من شياطين الجن، كما يذهب (ابن الكلبي) ومن لف لفه إلى أن نسل بني إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام لما تكاثر بمكة ضاقت بهم، فوقعت بينهم الحروب والعداوات، فأخرج بعضهم بعضا، فتفسحوا في البلاد التماسا للمعاش، وكان كلما ظعن من مكة ضاعن حمل معه حجرا من حجارة الحرم، تعظيما للحرم وصبابة بمكة، فحيثما حلوا، وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، تيمنا بها، وهم بعدُ يعظمون الكعبة ومكة، .. ثم سلخ بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا، ونسوا ما كانوا عليه، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما صارت إليه الأمم من قبلهم...[5]

ولقد انتشرت عبادة الأصنام حتى اتخذ أهل كل دار صنما في دارهم يعبدونه، يقول (ابن الكلبي) :
"واشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتا، ومنهم من اتخذ صنما، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء البيت نصب حجرا أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن، ثم طاف به كطوافه بالبيت .. فكان الرجل إذا سافر فترل مترلا، أخذ أربعة أحجارا، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربا، وجعل ثلاث أثافي [*] لقدره، فإذا ارتحل تركه، فإذا نزل مترلا آخر فعل مثل ذلك، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها" [6] كما كان

---

1 - ابن الكلبي، الأصنام، مصدر سابق، ص16 .

2 - سميح دغيم، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص107-108 .

3 - ابن الكلبي، الأصنام، مصدر سابق، ص13.

4 - ينظر سميح دغيم، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص109، وينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص716 .

5 - ينظر ابن الكلبي، الأصنام، مصدر سابق، ص6، وينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص77- 78 .

* - أثافي : الأثفية : جمع (أثفية) تقديره أفعولة، والأثفية حجر مثل رأس الإنسان وهي التي تنصب وتجعل القدر عليها، والهمزة فيها زائدة، وثفى القدر وأثفاها : جعلها على الأثافي، وثفيتها : وضعتها على الأثافي، ومنه قول الشاعر : (وذاك صنيع لم تثف له قدري) (ينظر ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص27)

6 - ابن الكلبي، الأصنام، مصدر سابق، ص33 .

هناك أصنام آلهة متعددة، منها ما ينسب إلى الأماكن الطبيعية ومنها ما ينسب إلى الحيوان، ومنها ما ينسب إلى أشياء أخرى ومن ذلك؛ صنم (آسف) و(نائلة)، (غزالا مكة)، (مناف)، (يعبوب)، (عميانس)، (تهم)...[1] والذي يبدو من ذكر الأصنام السالفة، أن معظمها استقدمه العرب من خارج الجزيرة العربية، وخصوصا من المناطق المجاورة لشمالي شبه الجزيرة العربية، وتلك المناطق سكنتها شعوب عريقة في حضارتها وحياتها الدينية.. فلا عجب من تأثر العرب بهم وذلك يعود لأبعد من قرنين قبل الإسلام[2] .

ولكن الأصل أن العرب كانوا بداية على التوحيد الذي جاء به (إبراهيم عليه السلام)، ولكنهم ضلوا الطريق بعبادتهم الأصنام بغواية الشيطان ومن اتبع هواه وعلى رأسهم من نقل عبادة الأصنام إلى أرض العرب (عمرو بن لحي الخزاعي) من بلاد الشام، فأتى بأول صنم فعبد وكان (هبل) فنصب بمكة فعبدته، وما لبث أن تبعهم أهل الحجاز فسائر العرب[3] ... إلى أن ظهر الإسلام في بلاد العرب، وكان همّه الأول هو تطهير ربوعها من الشرك بالله، ومحو كل أثر لعبادة الأصنام والأوثان وردهم إلى الحنيفية السمحة .

وفي عصرنا الحديث وبعد انتشار الإسلام، تتخذ الوثنية أشكالا أخرى، فبالإضافة إلى الهندوسية والبوذية والزرادشتية، وكذا الأديان البدائية من الطوطمية والإحيائية والطبيعية والفتشية (التمائمية)... التي لم تمحي جذورها بعد، نجدها تتمثل كما الشأن في الجاهلية من التمسح بالقبور والأضرحة، واعتقاد ضررها ونفعها، وطلب الحاجة منها.. مما يترتب عنه التقرب إليها بالهبات أو ربما بأنواع العبادات، مما يظهر في كثير من المناسبات(كالموالد)... (ومثلها في بلاد الإسلام كثير في مصر والشام وفي الهند وفي بغداد [*] ... وفي معظم بلاد العالم الإسلامي إلى الآن كثير من الأضرحة المنسوبة إلى الصحابة أو المشايخ والأولياء، مما جعلها مزارات يفد إليها الناس أفرادا وجماعات)[4]... وإلى جانب التمسح بالأضرحة يفتك بالتوحيد في الأمة الإسلامية المذاهب

---

1 - ينظر سميح دغيم، أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص119، 121 ، 122، 124 ..

2 - المصدر نفسه، ص111 .

3 - ينظر سامي المغلوث، أطلس الأديان، مصدر سابق، ص716، وينظر جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق، ص34 .

[*] - في مصر : فمن الأضرحة الكبرى في القاهرة مثلا : ضريح الحسين، ضريح السيدة زينب، وضريح السيدة عائشة، وضريح السيدة سكينة، وضريح السيدة نفيسة ، في الشام : وأحصي سنة (1890م) في دمشق وحدها (194) ضريحا ومزارا، وفي الأستانة أحصي (481)، وفي الهند (150) ضريحا مشهورا، وفي بغداد كان يوجد أكثر من (150) جامعا، وقل أن يخلو جامعا منها من ضريح ..إضافة إلى السودان وبنجلاديش وإريتيريا...

4 - ينظر مندوبو مجلة البيان، الأضرحة في العالم الإسلامي ..مشاهد متفرقة، كتاب البيان : دمعة على التوحيد (حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة)، ط3، الرياض : المنتدى الإسلامي، 1422-2002م، ص39-54 .

والحركات الهدامة، كالبابية [*] ، البهائية [**] ، والقاديانية [***] ... وغيرها من الفرق التي تنتسب للإسلام، وتهدف لهدم وتبديل عقائده وإفسادها .

وفي العالم بأسره تتخذ الوثنية مظاهر أخرى في هذا العصر، حيث تنتشر المذاهب العلمانية والماركسية والشيوعية... وغيرها من المذاهب المبنية على تقديس الأشخاص والمال والمادية أو العلم والمثل والقيم والشعارات ... مما قد يفضي إلى الكفر بالله والدين فالإلحاد إجمالا.. وفي أعتى البلاد حضارة وتطورا؛ الولايات المتحدة الأمريكية، ونظيراتها في أوربا والعالم فرق لعبادة الشيطان ذاته؟ !

ومن خلال تتبعنا لمظاهر الوثنية منذ أقدم انحراف إلى ظهور الإسلام، نجد أن للوثنية أشكالا عدة منها؛ الاعتقاد بألوهية المظاهر الطبيعية، وجعل لها آلهة ترمز لها أو تجسدها، مما يفضي إلى تقديس الأصنام وتعظيمها، أو تمجيد الأسلاف والحكام والعظماء، مما يؤدي إلى اعتقاد تقديسهم أو خصوصيتهم الإلهية، أو الاعتقاد بأكثر من إله، كاعتقاد إلهين أو قطبين اثنين (النور والظلمة، أو الخير والشر مثلا)، أو ثلاث آلهة أو أكثر (تعدد الآلهة)، أو الاعتقاد بتعدد مظاهر الألوهية أو تعدد هيئاتها (كالتثليث أو غيره...) أو الإيمان بالله ثم إشراك معه آخر أو نحوه لاعتقاد وساطته (كالصنم)، أو ضرره ونفعه، أو مقامه وقربه (ابن الإله) ...أو الاعتقاد بتحيز الإله، أو حلوله أو تجسده في صورة ما (كالطبيعة أو حيوان أو انسان أو شجر أو نار...) مما ينجم عنه تشبيه الله بخلقه... إلا أن تلك الأصناف تفضي كلها إلى التوجه بالعبودية والخضوع لغير وجه الله وحده (سبحانه) .

---

* – البابية : حركة نبعت من المذهب الشيعي الشيخي سنة 1260هـ/1844م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية وتفكيك وحدة المسلمين.. ظهرت على يد علي محمد بن محمد رضا الشيرازي (1819- 1850م)، الملقب بالباب، إذ يعتبر الباب عندهم من جاء ليمهد الطريق لمن سيظهره الله، والذي سيتحقق بمجيئه نبوءات الأديان السابقة، ظهرت بشيراز إيران سنة 1844م، من أماكنها المقدسة بيت الباب الشيرازي، وهم يدعون أن روح الله قد حلت في بابهم (ينظر مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط4، الرياض : دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي، 1420ه، ج1، ص409).

** – البهائية : مؤسسها حسين علي النوري (1233ه)، أحد أتباع الباب، الملقب ببهاء الله، ظهرت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إلا أن جذورها مرتبطة بتأسيس البابية بشيراز إيران سنة 1844م، لادعا البهاء أنه هو من بشر بمجيئه الباب، ولاعتقاده أن روح الله حلت فيه وأنه مظهره !، من مبادئها التأكيد على الوحدة الروحية بين البشر، ينتسب لها حوالي 5- 7 ملايين معتنق (ينظر الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج1، ص409) .

*** – القاديانية : حركة نشأت سنة 1900م بتخطيط من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهندية، زعيمها ميرزا غلام أحمد (1835- 1908م) القادياني، نسبة إلى قاديان، وسمت نفسها بــ(الجماعة الإسلامية الأحمدية) في 1889م، وادعى زعيمها أنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري، وبأنه المسيح الموعود والمهدي المنتظر من قبل المسلمين، ولذا فهم يؤمنون به رسولا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء !) كل ذلك مما يخرجهم من الاسلام عند علماء المسلمين (ينظرالموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج1، ص416) .

وبذلك لا تبتعد أشكال الوثنية عن بعضها البعض، بل يجر بعضها بعضا، وهي إن استهلت بشكل تداعت له الأصناف الأخرى تبعا، (وقد تفطن الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عله وسلم (عمر بن الخطاب) لمثل هذا، فأمر بقطع الشجرة التي بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه (بيعة الرضوان) تحتها، لما رآه من تعظيم المسلمين لها، ما جعله يخشى أن تكون فتنة لهم على تمادي الزمان) [1]، ذلك أن مسألة التوحيد الخالص هي أعظم مسائل الدين وأجلها، وهي غاية ما يهدف إليه الإسلام، وقد تتابع اهتمام الأنبياء ببيانها ودعوة الناس إليها كلما غفلوا وحادوا عنها، قال تعالى **{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}** (سورة الأنبياء الآية 25)، فلا ينبغي لمن كرمه الله واختاره لعبوديته باختياره وإرادته أن يسخر لغيره من الأوثان والأباطيل والأوهام .

ومما يؤكد ارتباط مظاهر الوثنية وتسلسلها ما نراه من عناصر مشتركة في أغلب الديانات الوثنية قديمها وحديثها، ولعل ذلك يرجع إما لاتحاد الوثنية في أصول أسبابها، إضافة لتأثر الأمم والشعوب بعضها ببعض، (فلا ينكر دارس مثلا ما بين المسيحية والوثنية من صلات وثيقة وأواصر متينة أو ينكر أن المسيحية تحدرت من الوثنية وصار لهما نسب واحد مشترك، فرغم التنبيه إل أن اليهودية قبلها أصيبت بالتأثيرات الوثنية من فارس وبابل وخضعت لنفوذهما عندما كان اليهود في المنفى إلا أن هناك تأثيرا خاصا مباشرا أصاب المسيحية ... حيث يكاد يجتمع مفكري الغرب أن مسيحية اليوم ديانة مختلفة عما جاء به السيد (المسيح عليه السلام)، وأن أركانها وعقائدها وشعائرها.. تأثرت أو تحدرت من الديانات التي سادت قبل ظهور (المسيح عليه السلام) أو في أيامه.. حتى قيل أنه لا يمكن فهم المسيحية وأسرارها حق الفهم ما لم تعرف جذورها الوثنية... !)[2]

فبعد دراسة الديانات القديمة، تبين أن (العقائد التي تسربت إلى ديانة (عيسى عليه السلام)، مأخوذة جملة وتفصيلا من الوثنيات الشرقية؛ المصرية والبابلية والهندية والفارسية، والوثنيات الغربية؛ اليونانية والرومانية، والمقصود بذلك عقائدها الأساسية في (التثليث، والكلمة، والتجسد أو الإتحاد، أو اللاهوت والناسوت، وموت الإله وصلبه، وقيامته من الأموات، والفداء والكفارة، الخلاص..)[3] .

والحق أن الديانات الوثنية كثيرة التشابه، وذلك لانتشار ديانات وعلوم أمة من الأمم فور ظهورها، وقد كان عند أكثر الأمم البائدة الوثنية تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثالوثي، أي أن الإله ذو ثلاثة أقانيم[4] ... وكما نجد عند الهنود ثالوثا مؤلفا من : (برهما وفشنو وسيفا)، نجد ذلك عند البوذيين؛ فإنهم يقولون : إن

---

1 - ابن الكلبي، كتاب الأصنام، مصدر سابق، ص23 .

2 - ينظر اندريه لايتون، إدغار ويند، وكارل غوستاف يونغ، الأصول الوثنية للمسيحية، تر: سميرة عزي الدين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ص19-20 .

3 - ينظر محمد البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تح: محمد الشرقاوي، القاهرة : دار الصحوة للنشر، ص24 .

4 - نقلا عن المصدر نفسه، ص55 .

بوذا إله، ويقولون بأقانيمه الثلاثة، وكذلك نجد بوذيي (جينيست) يقولون عن (جيفا) إنه مثلث الأقانيم [1]، والصينيون يعبدون (بوذا)، ويسمونه (فو)، ويقولون أنه ذو ثلاثة أقانيم أيضا... وعبد المصريون القدماء إلها مثلث الأقانيم مصورا في أقدم هياكلهم، ويظن أهل العلم : أن الرمز الذي يصورونه وهو (جناح طير، ووكر، وأفعى)، إن هو إلى إشارة عن ذاك الثالوث واختلاف صفاته، أو اعتقدوا مباشرة أن الآلهة ثلاثة (أتوم وشو وتفنوت) أو (أوزيرس، أيزيس، وهورس)[2] .

وكذلك الأمر عند البابليين (أنو بل أيا) أو (سن، شمش، وعشتار).. والآشوريين والفرس (أورمزد، متراث، أهرمان) واليونان والرومان (الله، الكلمة، الروح) والفينيقيين والاسكندنافيين والتتر والمكسيك والكنديين ...[3] فالتشابه بين أديان الوثنيين كثير ! فعقيدة التثليث أو الآلهة المثلثة ظهرت مبكرا جدا وعلى مستوى بدائي، فالتثليث في الأديان القديمة، وفي الشرق بشكل خاص مسألة منتشرة شائعة إلى الحدود التي لا يمكن إحصاؤها، ولعل تنظيم الآلهة المثلثة من أبرز الظواهر في تاريخ الأديان.. وغالبا ما كانت الآلهة الثلاثة ليست مستقلة بل كانت بينها علاقة وثيقة[4] .

وعن عقيدة التجسد؛ فإذا ما توغلنا عميقا في تاريخ الأديان نجد أنها حافلة بمثل قصص تحول الإله إلى إنسان؛ ملك أو زعيم من أصل إلهي، ففي الصين مثلا نجد أن معظم السلالة الحاكمة كانت من أصل إلهي، كالإمبراطور (تشيو) و(هيوتسي) ابن إله السماء من امرأة فانية، وهذا على غرار معظم فلاسفة الصين... وكذلك كان معظم الملوك السومريين والحيثيين من أصل إلهي، وفي مصر كان الفراعنة أولاد إله الشمس آمون رع الذي اتحد مع الملكة واتخذ شكل ملك حاكم...فـــ(حورس) المخلص ولد من العذراء (إيزيس)، ويصورونه على يدي أمه أو على حضنها، ويقول الهنود أن كرشنة هو ابن العذراء النقية (ديفاكي) ويدعونها والدة الإله... أما التفكير اليوناني فقد أغرق في التفريق بين الروح والجسد.. [5] ومن خلال ادعاء المسيحية بأن المسيح (عليه السلام) هو (ابن الله) يمكن إثبات أن الديانات الوثنية قد صبغت المسيحية بصبغتها !

أما عن عقيدة الصلب عند الوثنيين فإن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة، فداء عن الخطيئة، قديم العهد جدا عند الهنود الوثنيين وغيرهم.. وكانوا يقدمون البشر ذبيحة أيضا، والغالب عندهم تقديم الأرقاء والأسارى ذبيحة فداء عن الخطيئة، وليس هذا وحسب، بل ونفس أولادهم.. وهم يعتقدون بتجسد أحد الآلهة (فشنو) الذي لا ابتداء له ولا انتهاء–على رأيهم– في ابنه البكر (كرشنا) وتقديم نفسه ذبيحة فداء عن

---

1 – نقلا عن محمد البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، ص58 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص59 .

3 – ينظر اندريه لايتون وآخرون، الأصول الوثنية للمسيحية، مصدر سابق، ص 81- 84، وينظر محمد البيروتي، العقائد الونية للديانة النصرانية، مصدر سابق، ص65 .

4 – اندريه لايتون وآخرون، الأصول الوثنية للمسيحية، مصدر سابق، ص81- 82 .

5 – محمد البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، مصدر سابق، ص32 .

الناس والخطيئة... وكان الرومانيون واليونان يقدمون أنفسهم ذبيحة للآلهة استرضاء لها، وتمكنت هذه العادة من نفوس المصريين حتى صاروا يقدمون الابن البكر ذبيحة...[1] .

وأما عن مظهر التشبيه والتجسيم الذي بليت به أغلب الأديان، ومن ذلك الديانة اليهودية، بل وصل الأمر لأن يستعيروا النار المقدسة للتعبير عن صفات الإله المعبود (يهوه)، فالنار عند اليهودي هي ذات الله، وهي كلمات الله، ودالة عليه، حتى بدا لليهودي أن النار هي الله، وأن الله هو النار... ! ولنرى ذلك :

- فالنار هي ذات الله كما جاء في سفر التثنية (فتقدمتم ووقفتم أسفل الجبل، والجبل يضطرم بالنار إلى كبد السماء بظلام وسحاب وضباب، فكلمكم الرب من وسط النار وأنتم سامعون صوت كلام ولكن لم تروا صورة بل صوتا)[2] كما جاء (لأن الرب إلهك هو نار آكلة إله غيور)[3] .
- والنار هي كلمة الله؛ يصرح بذلك سفر إرميا (ما للتين مع الحنطة يقول الرب، أليست هكذا كلمتي كنار يقول الرب)[4] .
- وكأداة للتعبير عن غضب الرب (إلى متى يارب تغضب وتتقد كالنار غيرتك)[5] .
- بل كانت النار وسيلة من سائل التعبير عن معية الله لبني إسرائيل، مثل ما جاء في سفر الخروج (وكان الرب يسير أمامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلا في عمود نار ليضيىء لهم، لكي يمشوا نهارا وليلا، لم يبرح عمود السحاب نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب)[6] .
- ومن النصوص الأكثر وضوحا بالتصاق الصفات الإلهية بالنار، إذ هي تصف الرب (وإلى إلهي صرخت فسمع من هيكله صوتي وصراخي دخل أذنيه، فارتجت الأرض... لأنه غضب صعد دخان من أنفه ونار من فمه، أكلت جمرة اشتعلت منه... جعل الظلمة حوله مظلات مياها حاشكة وظلام الغمام من الشعاع قدامه اشتعلت جمر نار)[7] .. وفي نص آخر يصف حزقيال مشهد رؤيته للرب قائلا (فنظرت وإذا بريح عاصفة جاءت من الشمال، سحابة عظيمة ونار متواصلة وحولها لمعان ومن وسطها كمنظر النحاس اللامع من وسط النار..هذا منظر شبه مجد الرب..)[8] ... وغير ذلك من النصوص في توصيف الله بكونه بكونه نارا...كل ذلك فيه تأكيد (على القداسة للنار وفيه أثر شرقي واضح المعالم على الديانة اليهودية

---

1 – ينظر محمد البيروتي، العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، مصدر سابق، ص74- 75 .
2 – العهد القديم : سفر التثنية (4: 10- 11)
3 – العهد القديم : سفر التثنية (4: 24)
4 – العهد القديم : سفر إرميا (23: 29)
5 – العهد القديم : المزامير (59: 5) .
6 – العهد القديم : سفر الخروج (13: 20 – 22)
7 – العهد القديم : سفر صموئيل ثان (22: 8- 14)
8- العهد القديم : سفر حزقيال (1: 27- 28) .

التي فقدت أصالتها، لما علم تاريخيا من اتساع الإمبراطورية الفارسية وأثرها الديني على ما جاورها، وحيث إن عودة اليهود كانت على يد قورش الفارسي..كل تلك دلالات على أن الديانة الزرادشتية كان لها الأثر والبصمة لتشكيل نمط من أنماط القداسة داخل الكهنوت اليهودي)[1] .

هذا ومن خلال توصيفهم للرب فيما ورد من النصوص وغيرها نلمس تشبيههم لله بالبشر، وهم لا يتوانون في أن ينسبوا له ما يجوز في حق المخلوقين الضعاف من صفات : كالتعب : (فرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) [2]، والجهل[3]، والندم[4]، المشي على الأرض[5] ..تعالى الله سبحانه عن ذلك علوا كبيرا . إضافة إلى التشابه بين اليهود وبعض الديانات الوثنية كعقيدة الحلول التي يرى معالمها في الهندوسية، نجد (التلموذ اليهودي يقرر أن اليهود الذين يرتدون عن دينهم بقتلهم يهوديا آخر، لا يدخلون الجنة، وإنما تدخل أرواحم في الحيوانات والنباتات ثم تذهب إلى الجحيم، وتعذب عذابا أليما مدة اثنتي عشر شهرا، ثم تعود ثانية لتدخل في الجمادات ثم في الحيوانات، ثم في الوثنيين، حتى ترجع إلى جسد يهودي بعد تطهيرها)[6] فأنى لليهود بهذه العقيدة الحلولية إلا لعلاقة بين الديانتين !!

فما يمكن الخلوص له من خلال ما مضى ومن تأثر الأديان بعضها ببعض، يدخل في ذلك أيضا تلك التي يزعم أنها ديانات كتابية وما وقفنا عليه من تأثرها بالديانات الوثنية الوضعية أمورا عدة أهمها :

أن الدين الحق؛ دين التوحيد، وهو الذي بعث الله به أنبياءه ورسله من لدن (آدم عليه السلام)، إلى خاتمهم رسول الله (محمد صلى الله عليه وسلم)، وهو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، مذ خلقهم، فدين الله هو الإسلام، أما الوثنية، فهي واحدة وإن اختلفت دواعيها ومظاهرها، ذلك أنه مهما تعددت دياناتها وتشعبت مذاهبها فإن ما تؤول إليه واحد، فما إن يستنكف المرء عن عبادة الله الخالق بما شرعه هو وحده، وإلا تقاذفته أشكال وأصناف الوثنية، ما عرفنا منها أو جهلنا، لكأن (الكفر ملة واحدة) * أما دين الحق فسبيله واحد بين مستقيم، ومن يحد عنه فقد ارتضى غيره، قال تعالى **{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}** (سورة الأنعام الآية 153) .

1 – سعدون المشهداني، أثر النص المقدس في منظومة القيم، مصدر سابق، ص102 .

2 – العهد القديم : سفر التكوين (2: 2)، وينظر سفر الخروج (31: 18)

3 – العهد القديم : سفر الخروج (12: 23)

4 – العهد القديم : سفر الخروج (32: 14)

5 – العهد القديم : سفر الخروج (13: 21)

6 – طارق السعدي، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص80 .

* (الكفر كله ملة واحدة) : رأي نجد من يقول به من العلماء وهو قول الجمهور، ومن أدلتهم قوله تعالى {ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم } لقوله (ملتهمم) بالإفراد دون التثنية (الشيخ صالح المغامسي، موقع الراسخون في العلم). وفي حديث موقوف عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، عَنْ حَمَّادٍ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ قَالَ : "الْكُفْرُ كُلُّهُمْ مِلَّةٌ لا نرثهم ولا يرثونا" .

وما التشابه العجيب لأوجه الوثنية ومظاهرها من (التثليث، الصلب والتجسد، والتشابه في أسماء الأصنام والتماثيل وصفاتها، والاتفاق على تأليه مظاهر الطبيعة...) إلا دليل على أن مصدرها واحد، هو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث القدسي (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا)، فما الوثنية إلا نتيجة لوسوسة الشيطان لبني الإنسان (المفطور على العبادة) لأن يصوغ دينا وفق ما يناسب عقله وهواه، فإن قبل ذلك تدرج بالإنسان بين أشكال الوثنية وأصنافها، إضافة لما يزينه للناس من أفعال الوثنيين وطقوسهم في نظر غيرهم فيكونون لهم تبعا ومقلدين، فما من مظهر للوثنية ابتدعته أمة إلا اقتفى أثرها سائر الأمم فتفشى فيها إلا بوحي من الشيطان وتزيينه ... وإلا فكيف يعبد الشيطان في أعتى أمم الأرض حضارة وعلما، ولكن **{فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}** (سورة النحل الآية 63) .

فلئن تجلى لنا أن الإسلام بأنه الإستسلام لله تعالى والإنقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، وهو بحق فطرة الله التي فطر الناس عليها من التوحيد الخالص وإفراد العبودية لله وحده، فإن الوثنية، هي كل زيغ أو ميل أو نكوص عن هذه الفطرة ... كل هذا وقد ارتبطت الوثنية بسائر الإملاءات والإيحاءات الشيطانية من عرافة وتنجيم وقرابين وسحر، ذلك أن العبودية الحقة لها أثرها الفعلي، وإلا تحولت العبادات لمجرد طقوس وطلاسم .

المبحث الثاني : الدين والسحر

ما قامت دراسة تهتم بالظاهرة الدينية في مختلف المجالات الإجتماعة والأنثربولوجية ... أو غيرها إلا صوَّبت اهتمامها نحو محاولة التمييز بين الدين والسحر، وفهم العلاقة بينهما، فأيهما ساد أولا وسبق الآخر، وفيما يتفقان أو يختلفان؟

المطلب الأول : حقيقة السحر وأنواعه

حاول العديد من الفلاسفة وعلماء الأنثربولوجيا والمؤرخين، وعلماء اللاهوت طوال القرن المنصرم أن يضعوا أيديهم على المعنى الأساسي للسحر، محللين إياه في بعض الأحيان بعمق معقد ومبهم بدرجة لم تسفر إلا عن تضييع معناه كليا، وبعيدا عن الوسط الأكاديمي، لا يزال السحر يغزو اللغة والخيال الشعبيين[1] .

والسحر في اللغة إشارة لكل ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحَر لآخر الليل، لأن الأفعال التي تقع في ه تكون خفية، وكذلك سمي السحور، لما يؤكل في آخر الليل، لأنه يكون خفياً، فكل شيء خفي سببه يسمى سحراً، ومن السحر الأخذة؛ التي تأخذ العين حتى يظن أن الأمر كما يرى، وليس الأصل على ما يرى، وأصل السحر صرف الشيء عن حقيقته إلى غيره، فكأن الساحر – لما أرى الباطل في صورة الحق وخيل الشيء على غير حقيقته – قد سحر الشيء عن وجهه، أي صرفه ، وهو أيضا إزالة عن حد الاستواء"، وقال الأزهري : السحر عمل تُقُرِّب فيه إلى الشيطان، وبمعونة منه، والسَّحر؛ كذلك هو الغذاء لخفائه ولطف مجاريه [2] .

وجاء في اللغة أيضا "السحر؛ طرف الحلقوم والرئة، وقيل انفتح سحره وبعير سحر، عظيم السحر و(السُّحارة) بالضم ما يترع من السحر عند الذبح فيرمي به وجعل بناؤه بناء النفاية والسقاطة، وقيل منه اشتق السحر وهو إصابة السحر"[3]، فالسحر إذن، كلّ أمر خفيَ سببُه، وتخيّل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع، ولهذا يراد به الأمر الخارق .كما أن مادة السين والحاء والراء مأخوذة من (السَّحر).. والسحر هو آخر الليل وأول النهار.. فيه من ظلمة الليل وإشعاعات ضوء النهار..فلا هو نهار بمعنى النهار والضوء، ولا هو ليل بمعنى الظلمة.. ولذلك فإن له واقعين وليس واقعا واحدا..والسحر في إحدى أشكاله جامع بين شيئين..شيء يخيل أنه واقع وما هو بواقع، فالأمر هنا له ظاهرا لا يعبر عن واقعه ومن ذلك أخذ السحر[4] .

وكلمة السحر(Magic) في اللغات الأجنبية مستمدة من الكلمة اليونانية (ماجيا) التي أول ما استخدمت كانت تشير إلى المراسم والطقوس التي يؤديها (الماجو) والجمع (ماجوي)، وقد قيل إن الماجوي –أو المجوس– هم كهنة سحرة من الشرق، من فارس جنوبي العراق (إيران حاليا)، وقد اشتقت كلمة (المجوس) بالأساس من

---

1 – أوين ديفيز، السحر (مقدمة قصيرة جدا)، مصدر سابق، ص8 .

2 – ينظر ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص348 – 350 .

3 – الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ج1، ص298 .

4 – محمد متولي الشعراوي، السحر والحسد، أخبار اليوم (مكتبة الشعراوي الإسلامية)، ص24 .

الكلمة الفارسية (ماكوز)، حيث كانت لفظة (ماجيا) أجنبية بالنسبة للإغريق في ذلك الوقت، وكان لديهم مفردات أخرى لوصف السحر، فقد كان لفظ (نيكومانتيشا) (استحضار الأرواح) مثلا، يعني التواصل مع الموتى لأغراض تنبؤية، ولفظ (فارماكا) يستخدم للتعاويذ وتحضير العقاقير والسموم التي يستخدمها المشعوذون أو الساحرات، ولفظ (جويتس) يعني المشعوذين الذين كانوا خبراء في الخداع وإلقاء التعاويذ ... وهكذا لم تكن كلمة (ماجيا) في القرن الخامس قبل الميلاد هي اللفظة الشاملة الجامعة للتعبير عن الممارسات السحرية مثلما صارت خلال العصر الروماني[1] .

وللعلماء في مصطلح السحر وبيان أنواعه كلام واختلاف كثير، من ذلك ما قاله (الراغب الأصفهاني) في مفرداته لغريب القرآن ما نصه : "والسحر يقال على معان؛ الأول؛ خداع وتخييلات لا حقيقة لها نحو ما يفعله المشعبذ بصرف الأبصار عما يفعله لخفة يد، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع { **سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ**} (سورة الأعراف الآية 116)، {**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ** } (سورة طه الآية 66)، والثاني، استجلاب معاونة الشيطان بضرب من التقرب إليه { **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ** } (سورة الشعراء الآية 221) {**وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** }(سورة البقرة الآية 102)، والثالث؛ ما يذهب إليه الأغتام وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع، فيجعل الانسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين"[2].

وأشار (ابن خلدون) في مقدمته إلى أن (علوم السحر والطلسمات هي علوم بكيفيةٍ تقتدر النفوس بها على التأثيرات في عالم العناصر؛ إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، والأول هو السحر والثاني هو الطلسمات)3 ، كما قسم (ابن خلدون) النفوس الساحرة إلى ثلاث أنواع؛ الأول: المؤثر بالهمة فقط من غير معين وهو ما يسميه الفلاسفة السحر، والثاني بمعين من مزاج الأفلاك أو العناصر أو خواص الأعداد ويسمونه الطلسمات وهو أضعف رتبة من الأول، والثالث هو تأثير القوى المتخيلة ويعمد هذا التأثير إلى القوى المتخيلة فيتصرّف بها بنوع من التصرف ويلقي فيها أنواعا من الخيالات والمحاكاة وصورا مما يقصده من ذلك ثم ينزلها إلى الحس من الرائين بقوة نفسه المؤثرة فيه فينظر الراؤون وكأنها في الخارج وليس هناك شيءمن ذلك ويسمي هذا عند الفلاسفة الشعوذة أو الشعبذة4 . فالسحر على ما أشار إليه (ابن خلدون) قدرات نفسية يمتلكها الساحر ابتداء للتأثير، قد يستعان فيها بالأمور السماوية (الغيبية) .

1 – أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص9 .

2 – الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ج1، ص298 .

3 – عبدالرحمن بن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص467 .

4 – المصدر نفسه، ص468 .

وسمى البعض هذا النوع من السحر بسحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية؛ وذلك باختلاف النفوس في قوتها وتأثيرها، ورأوا أن مصطلحه الحديث (التنويم المغناطيسي)، ولأصحابه شخصية قوية جدا، فإذا حدق في إنسان نومه وأخضعه، وموضوعه يرد في علوم النفس لتعلقه بالقوة النفسية[1]، يقول (الرازي) : "فإذا خلت تلك النفوس وصفت لم يبعد أن ينجدب إليها ما يشابهها من النفوس المفارقة، كملت قوتها وقوي أثرها، وكذلك إن صفت النفوس عن الكدورات البدنية، صارت قابلة للأنوار الفائضة من الأرواح السماوية والنفوس الفلكية، فتقوى بأنوار تلك الأرواح، فتقوى على أمور غريبة خارقة للعادة"[2].

كما ذهب أغلب علماء الإسلام إلى أن السحر عزائم وعقد ورقى.. فهو مزاولة أقوال وأفعال تنشأ عن النفوس الخبيثة للاتصال بالأرواح الأرضية، أو قد يكون بواسطة أدوية وعقاقير وكل ذلك للتأثير في القلوب والعقول والأبدان، فتمرض وتقتل وتفرق.. ، أو قد يكون من تحصيل ملكة نفسية يقتدر بها على أفعال غريبة لأسباب خفية... وقد ينشأ عن السحر ما هو خارق للعادة .. وقد رأى هؤلاء أن للسحر حقيقة لظهور آثاره على من سحر قال تعالى { **وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** } (سورة الأعراف الآية 116) أمرنا القرآن من التعوذ من شره {**وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** } (سورة الفلق الآية 4).. وكل ذلك لم يمنع أن يكون من السحر ما هو خيال {**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**} (سورة طه الآية 66)، وبهذا من السحر ما له وجود حقيقي ومنه ما ليس له حقيقة فهو تخيلي، دون أن يعني ذلك أن الساحر قادر على تغيير حقائق الأشياء، أو أن السحر يضر بذاته إلا بإذن الله {**وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ**} (سورة البقرة الآية 102)[3] .

فالثابت أن للشياطين علاقة بالسحر.. وأنهم هم الذين علموه ونشروه بعد أن نزل به الملكان ببابل (هاروت وماروت) ..ففتنوا الناس به وأضلوهم.. وما تعليمهم إياه للناس إلا لأنهم أتقنوه..كما أن معاونة الشياطين للساحر تجعله قادرا على فتنة الناس أكثر لاستعانته بقوى أقدر من الإنسان..إذ هناك أنواعا من السحر يستعان فيها بشياطين الجن.. فالسحر نزل إلى الأرض منذ زمن طويل، والشياطين علمته وأشاعته بين الناس [4] .

ورأى بعض العلماء السحرَ اسم جنس لثلاثة أنواع هي :

1- ينظر محمد راتب النابلسي، موسوعة النابلسي، (السحر وأنواعه)، 25- 07-2004م، www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=6048

2 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ص120 .

3- ينظر شهاب الدين القرافي، الفروق، تح : عمر حسن القيام، ط 1، بيروت : مؤسسة الرسالة ناشرون، 1424ه، 2003م، ج4، ص137، وينظر زكريا الأنصاري، حاشية خاتمة الشرقاوي على شرح التحرير، ط 3، التركي، دار عالم الكتب، 1417ه، ج2، ص340، وينظر محمد بن عثيمين، القول المفيد على كتاب التوحيد، ط 1، الرياض : دار العاصمة، 1415ه، ج2، ص5 .

4 - ينظر محمد متولي الشعراوي، السحر والحسد، مصدر سابق، ص35- 38 .

- السيمياء : وهي عبارة عما يركب من خواص أرضية كدهن خاص، أو مائعات خاصة، أو كلمات خاصة توجب تخييلات خاصة وإدراك الحواس الخمس أو بعضاً منها لحقائق خاصة من المأكولات والمشمومات والمبصرات والملموسات والمسموعات .. وقد يكون لذلك وجود حقيقي حيث يخلق الله تلك الأعيان عند تلك المحاولات، وقد يكون لا حقيقة له بل تخييل صرف، وكل ذلك مما له الخواص المغيرة لأحوال النفوس يسلب الفكر الصحيح بالكلية .
- الهيمياء : وامتيازها عن السيمياء أن ما تقدم يضاف للآثار السماوية من الاتصالات الفلكية وغيرها من أحوال الأفلاك .
- بعض خواص الحقائق من الحيوانات وغيرها[1] .

وعدَّ البعض أنواعا ثلاثة أخرى للسحر، أحدها ما يعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها، ومنها الزئبق الذي يظن إن سحرة فرعون وضعوه في حبالهم وعصيهم، وثانيها (الشعوذة) التي هي مدار البراعة فيها خفة اليدين في إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض، وإرادة بعضها بغير صورها، وغير ذلك مما هو معروف مما لم يعد أحد يسميه سحرا، ونوع ثالث، ما مداره تأثير الأنفس ذوات الإرادة القوية في الأنفس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعالات التي تسمى في عرف علماء العصر بالهستيريا، وهذا النوع هو الذي قيل إن أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين، ومنهم الذين يكتبون الطلسمات للحب والبغض وغير ذلك، ومن يقول إن للحروف خواصا وتأثيرات ذاتية يخرج عمل الأوفاق والنشرات وما في معناها من السحر، ومن هذا النوع ما استحدث في هذا العصر من التنويم المغناطيسي وأخباره المشهورة[2] .

فالسحر على ما يرى (رشيد رضا) إما حيلة وشعوذة، وإما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها أكثرون وبذلك يسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه، ولطف مأخذه، ويمكن أن يعد منه تأثير النفس الإنسانية في نفس أخرى لمثل هذه العلة[3]، وكذلك رأى (فخر الدين الرازي) أن : "السحر مختص بكل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع "[4]، فالمعنى الجامع للسحر في رأي هؤلاء وأمثالهم؛ أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها، كشف العلم بعض حيلها وبقي كثير منها مجهول لدى الناس[5] .

---

1 – ينظر شهاب الدين القرافي، الفروق، مصدر سابق، ص241 .

2 – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، ط 2، القاهرة : دار المنار، 1367ه، 1947م، ج9، ص47 .

3 – المصدر نفسه، ج1، ص401 .

4 – فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج3، ص120 .

5 – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق ص46 .

وبذلك أدخلوا في مسمى السحر أنواعا منها سحر التخيلات والأخذ بالعيون : ذلك أن أغلاط البصر كثيرة، كرؤية المتحرك ساكنا والساكن متحركا، ورؤية العظيم صغيرا... فالقوة الباصرة قد تبصر الشيء على خلاف ما هو عليه في الجملة لبعض الأسباب العارضة، والمشعبد الحادق يأخذ أذهان الناظرين بشيء حتى إذا استغرقهم، أسرع إلى فعل آخر خفية... وكلما كانت الأحوال التي تفيد حس البصر نوعا من أنواع الخلل أشد كان هذا العمل أحسن كما ينضوي تحته أعمال خفة اليد والمهارة الفائقة وهو المسمى بالشعوذة ... وكذلك الأعمال العجيبة؛ التي تظهر من تركيب الآلات المركبة على النسب الهندسية تارة وعلى ضروب الخيلاء أخرى، كجر ثقلا عظيما بآلة خفيفة سهلة، ولهذا النوع نسبوا سحر سحرة فرعون، وهنا يكون السحر حيل صناعية يتوصل بها إلى اكتساب المال، غير أنها لدقتها لا يحسنها إلا آحاد الناس قال تعالى {**سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ**}(سورة الأعراف الآية 116)[1]، إضافة إلى السحر الذي يكون بالاستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل والدخن المسكرة .. فهي أدوية لها تأثير معين يرى متناولها أنه فوق البشر، ويقع بأوهام كثيرة وكبيرة .. ومثل السحر في هذا مثل السعي بالنميمة، والتضريب من وجوه خفيفة لطيفة مما هو شائع بين الناس.. ويقوى أثر السحر خصوصا إذا تم تعليق القلب بادعاء الساحر أن الجن يطيعونه، وينقادون له في أكثر الأمور .. [2] فهؤلاء لم يروا للسحر حقيقة أصلا إلا ما يظهر ويخيل للرائين من وهم عكس ما يبطن ويخفيه السحرة عن أعينهم بالحيل .

فقد اختلف علماء الإسلام في حقيقة السحر وأنواعه فمنهم من رأى له حقيقة فعلا، ومنهم من رآه إشارة ومسمى لكل ما خفي ظاهره وجهل سببه في أعين الناس .

وأما عن علماء الغرب فإن (فريزر) يعدّ من أبرز من أسهم في دراسة السحر والدين في الدراسات الأنثربولوجية التطورية، وفي غصنه الذهبي جمع كل أشكال السحر والطقوس من النصوص الكلاسيكية في العالم كله، وارتأى أن السحر يتضمن زعمين أساسيين : أولهما أن (الشبيه ينتج شبيهه، أو أن الأثر يشبه سببه)، وثانيا (أن الأشياء التي كانت ذات مرة على صلة بعضها ببعض تستمر في التأثير بعضها في بعض عن بعد، حتى بعد أن يستبعد الإتصال الفيزيائي بينها) والأول يشكل المبدأ لما يسمى بسحر التشابه (التشاكل أو المحاكاة)، والأخير يشكل المبدأ لسحر الإتصال[3]، وثمة حالة منتشرة ومعروفة لسحر التقليد توجد في الاعتقاد بأن أي عدو قد يجرح أو يقتل بواسطة جرح أو تحطيم تمثال له، أما السحر بالعدوى فإنه يتضح باعتقاد ذائع آخر، هو أن الخير أو الضرر الذي يحمل لشيء ما كان ذات مرة في ارتباط مباشر مع أحد الأفراد (مثلا ظفرا

1- ينظر محمد راتب النابلسي، موسوعة النابلسي، السحر وأنواعه، 25- 07-2004م، www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=6048

2 - فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، مصدر سابق، ج3، ص120- 130 .

3 - جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص107 .

من أظفاره أو جدائل من شعره) سوف يؤثر في ذلك الفرد أيضا، ويسمى كلا النوعين من السحر بالسحر المتجانس أو (السحر التعاطفي)[1]. ففي السحر التعاطفي إشارة إلى ارتباطه بقوانين الطبيعة .

وهنا يلاحظ أن السحر عند (فريزر) هو (علم بدائي حاول الإنسان فيه أن يرى في الطبيعة مجموعة من الظواهر والقوانين التي يمكن تقليدها، حيث رأى أن الجزء يشبه الكل بالنسبة لمكونات الطبيعة كما يشبه قبس النار النار كلها، وأن الشبيه ينتج شبيهه بالنسبة للأشياء الحية كما ينتج الحيوان حيوانا آخر فالتقط الإنسان الساحر هذه القوانين وعممها على الطبيعة وموجوداتها، وظن أنه باعتقاده بعد ذلك أن يسيطر عليها ويؤثر فيها، وما سمي بالسحر التعاطفي إلا لارتباطه بعاطفة الجمع بين الأشياء وفق اعتقاد ما)[2] . فالسحر حسب (فريزر) ملاحظة من البدائي لقوانين الطبيعة الثابتة التي ألفها ثم كان منه إسقاطها فتعميمها على سائر الأشياء والأحوال .

وينقسم السحر التعاطفي عمليا إلى سحر أبيض وسحر أسود؛ والسحر الأبيض هو السحر الرسمي والشرعي والمفيد، ويدخل ضمنه سحر الملوك الكهان بغرض التأثير في ظواهر كثيرة كالمطر والخصب والنصر..، والسحر المنتج أو الإيجابي الذي يمارسه كاهن مختص بغية تحقيق أمر مرغوب، إضافة للسحر الوقائي أو السلبي..أما السحر الأسود وهو الممنوع والضار، وكان الكهان يمارسونه سرا، ويدخل ضمنه أقسام عدة ..[3]

ولاعتقاده أن السحر بدأ بملاحظة قوانين الطبيعة وإسقاطها، فقد حاول (فريزر) الربط بين السحر والعلم اللذين يقفان موقف التعارض مع الدين، ولكنهما يقومان على أسس ومبادىء منطقية واحدة تعتمد عل ى تداعي المعاني وترابط الأفكار، ويرى أن عملية التداعي في السحر تتم بطريقة خاطئة ، لذلك أطلق على السحر لفظ "العلم الزائف..فالسحر هو علم الإنسان البدائي في محاولة تفسيره لظواهر الطبيعة والمجتمع والسيطرة عليها .. دون أن يعتبر السحر شعوذة أو حيلة طارئة" 4 . ومنه فإن السحر –حسب (فريزر)- يشكل خلاصة نظرة البدائي إلى ظواهر الطبيعة في تسلسلها ومجريات أحداثها، وهو الأساس لخبرته الطويلة وملاحظته وتجاربه المتكررة مع الظواهر الطبيعية، فمبادئ السحر البدائي هي مبادئ الطبيعة أولا .. ومن خلال ذلك ربط (فريزر) السحر بالعلم؛ فالسحر هو أخطاء العلم الأولى .

1 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص432 .

2 – ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص30 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص31 .

4 – James Frazer, The Golden Bough : a Study in Magic and Religion, 1st edition, 1890, P 17-22.

فعند (فريزر) وأمثاله فإن السحر يشترط وجود (قوة خفية) وليس (كائنات خفية)... فالسحر يفترض أن كل الكائنات سواء أكانت كائنات بشرية أو إلهية تخضع في آخر الأمر لتلك القوى اللاشخصية التي تسيطر على كل الموجودات والتي يمكن لأي شخص أن يستميلها إلى صفه إذا عرف كيف يخضعها بالطقوس والتعاويذ الملائمة... وهذه القوة يمكن أن تخضع لها ما حولها طالما أنها في داخل الساحر ويمكنه السيطرة عليها[1]. فللساحر قدرة على استثارة القوى الكامنة في سائر الموجودات الكونية والتحكم فيها .

ولذلك رأى (كلود ليفي ستروس) أن هناك ثلاثة مظاهر يكمل بعضها بعضا وهي اعتقاد الساحر بنجوع تقنياته، ثم اعتقاد المريض الذي يعالجه أو الضحية التي يعذبها بقدرة الساحر نفسه، وأخيرا ثقة الرأي الجماعي ومقتضياته التي تشكل في كل لحظة نوعا من حقل جاذبية تتجدد داخله علاقة الساحر بالذين يسحرهم وتحتل مكانة فيه[2] .

ويرى (كولن ولسن)[3] أن هدف الساحر بصورة عامة هو فرض إرادته على الطبيعة والإنسان وعلى العالم الذي لا تدركه الحواس من أجل تحقيق السيادة عليهم، وأن الساحر بشكل خاص والإنسان بشكل عام يمتلك قوة خفية يسميها الملكة، يصل الإنسان بها إلى ما وراء الحاضر، وهي ليست حاسة سادسة بل قدرة عادية من قدرات الوعي التي يرى بأنها مفتاح التجربة الغيبية..فما يسمى القوى السحرية إنما هي جزء من هذا العالم الكامن الخفي.. ولقد كان السحر البدائي بشكل أساسي هو استخدام قوى الإنسان الخفية للتأثير على عملية الصيد[4] . وهنا ينظر للسحر على أنه جانب من الإمكانات فوق طبيعية الخارقة للإنسان والتي يمتلكها البعض خاصة، ويهتم بهذه التطبيقات حقل الباراسيكولوجي .

فالسحر الخارقي هو (مجموعة الظواهر الباراسيكولوجية * المعروفة التي ثبت علميا ظهورها عند الإنسان، وهذا النوع يفترض وجود قوة خارقة أو إحساس فائق في إنسان ما يجعله مؤثرا في قوانين الطبيعة وقادرا على

1 - ينظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص177 .

2 - ينظر كلود ليفي شتراوس، الأنثربولوجيا البنيوية، تر: مصطفى صالح، دمشق : منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977م، ص201 .

3 - كولن هنري ولسن : (1931م- 2013م)، من أهم كتبه : اللامنتمي (1956م)، الدين والتمرد (1957م)، وله عدة مؤلفات روائية : طقوس في الظلام، ضياع في سوهو... تربو كتبه عن المائة كتاب..

4 - كولن ولسن، الانسان وقواه الخفية (دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للصول إلى ما وراء الحاضر)، تر: سامي خشبة، ط2، بيروت : دار الآداب، 1978م، ص7، 27، 171 .

* - الباراسيكولوجية : مأخوذة من الباراسيكولوجي؛ وهو علم يدرس الظاهرات المستغلقة على الفهم والخارقة للطبيعة والغريبة وغير المألوفة واللامعقولة أحيانا، ويحاول أن يجد لها التفسير العلمي والفكري المناسب، وهذه الظاهرات تمثل التخاطر والجلاء البصري، والتنبؤ ...والباراسيكولوجي علم حديث، أما الظواهر الباراسيكولوجية فهي تمتد إلى أعماق التاريخ .

اختراقها والتجاوز عليها وربما التحكم بها.. وقد ثبت وجود هذا السحر عند الإنسان منذ أقدم الزمان..حين كان الإنسان أكثر اتصالا ببيولوجيا العالم الحيواني.. والسحر الخارقي يرتكز جوهريا على تحدي القوانين الطبيعية فيزيائيا وكيميائيا وبيولوجيا، ويعمل ضدها وأحيانا يحاول تطويعها لصالحه..) [1] وهنا تقام صلة بين السحر وعلم النفس، فالتأثير الذي يمارسه الساحر يكمن في تأثيره النفسي، خصوصا أن هناك من يؤكد سريان القوة الخفية في الطبيعة وفي النفس، والتي قد تكون أهم أسباب ظهور السحر والأعمال الخارقة .

وحسب ما رأينا فإن من أهم مكونات السحر، أولا : المعتقد السحري؛ الذي يقوم على أساس وجود قوة مقدسة داخل شخصية الساحر تمكنه من السيطرة على العالم الخارجي والتحكم به، وثانيا : الطقس السحري الذي يقوم أساسا على قوة الساحر في تحويل الشبه إلى حقيقة، وثالثا : التعويذة أو الكلمة السحرية؛ وهي ما يطلقه الساحر من ألفاظ أثناء قيامه بأداء الطقس السحري، قد يتوسل فيها إلى قوة أوآلهة، وقد يذم أو يمتدح شيطانا، وقد تستخدم فيها بعض الأرقام أو الحروف الغامضة.. وكل ذلك مما يعني أن شخصية الساحر هي الركن الأساس في السحر لأنها هي التي تؤدي الطقس السحري، وتنفد العملية بكاملها[2] .

فالسحر؛ صناعة يقصد منها إحداث الخوارق بطرق خفية، وهو يتشعب إلى شعب كثيرة، كما يختلف من حيث قيمة أهدافه الاجتماعية، إذ منها الخيرة والشريرة، كشفاء المرضى أو إيقاع العداوة، كما يختلف من حيث مناهجه ووسائله ... وعلى ما مر بنا فإن هناك أنواعا عدة للسحر وتصنيفات شتى، ترتكز تلك التصانيف على أسس وقواعد مختلفة أيضا، فمنها ما كان على أساس قوانينه من السحر التشاكلي (سحر المحاكاة) والسحر الاتصالي.. ورغم أن هذا التصنيف هو الأكثر شيوعا إلا أن هناك تصانيف أخرى، فعلى أساس ممارسته يصنف السحر إلى إيجابي مفيد مرغوب فيه (طلس) وسلبي (تابو) يقوم على أساس التحريمات..، كما يصنف السحر اجتماعيا إلى خصوصي لأجل شخص بعينه، وسحر عمومي لأجل مجتمع بأكمله،.. أما على أساس فائدته فقد ذأب الأغلب إلى تقسيمه إلى أبيض مفيد لصالح الألفة وقضاء الحاجات، وسحر أسود، وهو الضار الذي يكون لأهداف شريرة ..كما أمكن تصنيف السحر على أساس النية والقصد إلى تلقائي يصدر لا إراديا عن قوة كامنة في الشخص، وآخر إرادي، وهو سحر مقصود يبغي الساحر منه إيقاع الأذى مسبقا وفق طقوس وأفعال معينة ..كما نظر إلى السحر من زاوية أنه منتج أو وقائي أو مدمر ضار.. [3]

وهنا نلحظ تداخل أنواع السحر على كثرتها وتشاكلها فيما بينا، فالسحر الأبيض قد (ينطوي تحت أنواع عدة منها نوع يقوم على المهارة وخفة اليد وهو (الشعودة) ، ونوع ينتفع بالخصائص الطبيعية والكيميائية للأشياء، وهو سحر علماء الصيدلة، ونوع يعتمد على حساب سير الشمس والقمر ومواقع النجوم، وما يظن

1 – خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص28 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص38 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص38- 43 .

من الارتباط بينها وبين حوادث الكون، وهو المسمى التنجيم، ونوع ينبني على الاعتقاد بأن الأشياء والناس يوجد فيها بصورة جلية في البعض وخفية في البعض الآخر خاصية يسميها الميلانزيون (mana) وبعضها بأسماء أخرى.. ونوع يستخدم التشابه الصوري أو الجزئي في نقل أثر الفاعل في صورة الشخص أو جزء منه إلى صاحب الصورة أو ما يخصه، وقد كان القدماء يسمون هذه الخاصية بالتجاذب الشبهي[1] .

وكذلك السحر الأسود(magic nnoire)، قد يضم تحته؛ السحر الضار والمدمر، وقد يضم تحته الإرادي والتلقائي.. وينصرف السحر الأسود غالبا إلى ما يستدعي وسائل روحانية، وشيطانية على الأخص، وهو المعروف الذي ينصرف إليه مسمى السحر حين إطلاقه، وهو الذي يشتبه جنسه بالأعمال الدينية، حيث يستعان فيه بتسخير الأرواح[2] . أما السحر الأبيض فعادة ما يلوح به إلى السحر العمومي أو المجتمعي أو المنتج .. الذي يعود لصالح الجماعة أو القبيلة بأكملها، ولغرض تحقيق فائدة عامة .

وإذا كان السحر يشير إلى تحكم الإنسان في ظواهر الكون والقدرة على التأثير فيها بالاستعانة بقوى غيبية معينة أو باعتماد قوى نفسية خفية، فإن السحر يش ترك مع المعجزة والكرامة في أنها جميعًا ظواهر غير طبيعية تتسم بأنها تخرق القانون الطبيعي للأشياء المادية وتظهر أمورا خارقة للمعتاد، ولذلك كان الأقوام الجاهليون يعدون آيات الرسل الكونية التي يؤيدهم بها الله تعالى بها من قبيل السحر، ويجعلون هذا مانعا من دلتها على صدقهم وتأييد الله تعالى لهم .

ومعنى المعجزة أن يأتي الله سبحانه وتعالى على يد رسول من البشر بأمر خارق يثبت بها صدق بلاغ هذا الرسول عن الله عز وجل3، فالمعجزة هي خرق لقوانين الكون، ويؤيد الله سبحانه تعالى بها رسله، كي يشهد الله لهم أنهم أنبياء، وأنهم مبعوثون من قبل ه عز وجل، فكل خرق للعادات يجري على يد الأنبياء هو من نوع المعجزات، والأنبياء مكلفون أن يتحدوا الناس بالمعجزات ، ومن معجزات الأنبياء فلك (نوح عليه السلام) ونجاتها من الطوفان{**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ** } (سورة هود الآية37)، وناقة نبي الله (صالح عيه السلام) { **إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ** } (سورة القمر الآية27- 31) { **فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَاإِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ**} (سورة الأعراف الآية 64)، وعصا موسى ويده عليه السلام {**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ** } (سورة الأعراف الآية107-108) ...4 وبهذا يشتبه السحر بالمعجزة ..كما قد يخلط الناس بين المعجزة والكرامة.. لكن وضع العلماء والباحثون فروقا واضحة بين كل ذلك .

---

1 - عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص46- 47 .

2 - المصدر نفسه، ص46- 47 .

3 - محمد متولي الشعراوي، معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، تح : أحمد الزغبي، دار القلم، ط1، ص10 .

4 - ينظر محمد إمام، معجزات الأنبياء، القاهرة : الحرية للنشر والتوزيع، ص7، 39، 119 .

والبداية تكون في المصدر، فرغم أن كل منهما خارق للعادة، إلا أنه إن جرى خرق العادات على يد الأنبياء فهي المعجزات، وإن جرى خرق العادات على يد الأولياء بالمفهوم القرآني* فهي الكرامات ، أما و إن أتى خرق العادات على غير ذلك فهو ضرب من السحر والضلالات[1] .

ومن الفروق التي تلحظ أن السحر صناعة تُتَلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل، الأمر الذي أثبته الاختبار، فهو أمر عادي قطعا وفي هذا الكلام تخطئة لمن قال أن السحر من خوارق العادات الذي هو الجنس الجامع لمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء بخلاف المعجزة [2]، وهنا يكون السحر مصدره أرضي بشري فحسب، وليس من خوارق العادات، خصوصا إذا أشير له على أنه حيل صناعية يتوصل بها إلى اكتساب المال، غير أنها لدقتها لا يحسنها إلا آحاد الناس.. ورأى (رشيد رضا) أن رفض الجاهليون لمعجزات الأنبياء إنما هو لعلمهم بأن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين، فيمكن لكل أحد أن يكون ساحرا إذا أتيح له من يعلمه السحر [3]، وفي مصر القديمة مثلا كان السحر يعد علم يستمد من المعرفة والكتب، و لم تكن ممارسة السحر قاصرة على الكهنة، ولكن من كان ملما بالنصوص السحرية ومستطيعا ممارستها وتطبيقها يصبح مؤهلا لممارسة السحر[4] .

وبالنظر لقوله تعالى{ **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** } (سورة البقرة الآية 102) يعلمون الناس السحر أنه متصل بــ (ولكن الشياطين كفروا) أي أن الشياطين هم الذين يعلمون الناس السحر، وهنا يكون مصدر السحر هو الكائنات غير المرئية.. 5 ولمثل ذلك أشار (ابن خلدون) في تفرقته بين الساحر والنبي بقوله : "فأما تأثير الأنبياء فبمدد إلهي وخاصية ربانية، ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات بقوى شيطانية، وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الآخر"[6].

والفرق الجلي بين معجزات الأنبياء وبين ما ذكرنا من وجوه التخييلات، أن معجزات الأنبياء عليهم السلام هي على حقائقها، وبواطنها كظهائرها، وكلما تأملها المرء ازداد بصيرة في صحتها، ولو جهد الخلق كلهم على مضاهاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم، ومخاريق السحرة وتخييلاتهم إنما هي ضرب من الحيلة والتلطف

---

* – الولي : بالمعنى القرآني له تعريف دقيق جداً متمثلا في قوله تعالى { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ*الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } (سورة يونس الآية 62– 63)، والولي مأمور بإخفاء الكرامة عكس النبي فهو مكلف بإظهار المعجزة لغرض التحدي (ينظر راتب النابلسي، موسوعة النابلسي، السحر وأنواعه) .

1 – ينظر راتب النابلسي، موسوعة النابلسي، السحر وأنواعه، 25– 07–2004م، www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=6048

2 – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج1، ص401، ج9، ص46 .

3 – المصدر نفسه، ص46 .

4 – إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة، تر: فاطمة عبد الله محمود، ط 1، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م، ص185 .

5 – محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج1، ص401 .

6 – ينظر ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص469 .

لإظهار أمور لا حقيقة لها، وما يظهر منها على غير حقيقتها، يعرف ذلك بالتأمل والبحث، ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره، ويأتي بمثل ما أظهره سواء [1] . فالفرق البيِّن بين المعجزة والسحر هو أن السحر اجتهاد من الساحر لإظهار الأمور على غير حقيقتها ضمن هالة من التعظيم والتهويل والترعيب، أما المعجزة فهي حق كلها، يستوي ظاهرها وباطنها .

ومن أدلة هذه التفرقة ما ظهر في لقاء (موسى عليه السلام) مع سحرة فرعون يخبرنا القرآن عن ذلك { **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** } (سورة طه الآية 65- 66) تنبأ الآيات بقول (يخيل إليه)، فالأمر مجرد تخيل وليس حقيقة وواقعا، فالحبال في أعين السحرة ظلت حبالا، ولكنها في أعين المشاهدين بدت كحيات هائلة حتى تخيلوا أنها تسعى.. وذاك هو السحر في مضمونه أن ترى العين ما ليس واقعا... ولكن ما الذي حدث حينما ألقى (موسى عليه السلام) عصاه؟ سجد السحرة وأعلنوا إيمانهم وإسلامهم لرب العالمين ! ذلك أنهم رأوا عصا موسى تتحول إلى حية حقيقية وعرفوا أن ذلك ليس سحرا وإنما حقيقة.. وأن الأمر ليس مجرد خداع للنظر أو سحرا للأعين كما فعلوا .. ولأن كل من يتقن فنا ويعرف خباياه هو الذي يفهمه فهما حقيقيا فلا يمكن لأحد أن يخدعه... فقد تأكد السحرة يقينا بعلمهم أن ما حدث أمامهم لا يخلوا إلا أن يكون معجزة ربانية.. وبهذا فإن (موسى عليه السلام) إنما هو نبي مرسل وما هو بساحر [2] . فالفرق الأساسي بين المعجزة وما يأتيه السحرة، أن المعجزة ظاهرها كباطنها حق كلها، وليس فيها من التخييل أو التمويه، أما السحر فهو وإن أبدى حقيقة فهو ليس كذلك إلا في أعين المسحور فحسب . وتجدر الإشارة بعد هذا إلى أن هناك من الباحثين من يرون أن طبيعة الممارسة الصادرة من الساحر والنبي والولي تُصنف كلها في خانة السحر [3] !

وإذا أردنا التطلع إلى الأبعاد القصية للسحر، فلا شك أننا سنذهب إلى أعماق العصر الحجري القديم والحديث، فقد وجد السحر عند أهل فارس، وعند قدماء المصريين، وكذا في الهند، وبلاد اليونان...[4] ففي

1 – محمد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ص59 .

2 – ينظر محمد متولي الشعراوي، السحر والحسد، مصدر سابق، ص27- 29 .

3 – من الباحثين العرب القائلين بهذا الرأي، على سبيل المثال : سيد (محمود القمني) في كتابه (النبي موسي وآخر أيام تل العمارنة)، ج3، القاهرة : المركز المصري لبحوث الحضارة، ط1، 1999م، و(شفيق مقار) كتابه (السحر في التوراة والعهد القديم) يقول (مقار) : (إن موسي لم يكن سوي شامانا /ساحرا وأنه اغترف من السحر المصري ما اغترف) . وفسر على هذا الأساس كل المعجزات الواردة في العهد القديم، وكذلك معجزات أنبياء التوراة والعهد القديم مثل "ايليا" و "اشعيا" وغيرهم.. (ينظر شفيق مقار، السحر في التوراة والعهد القديم ، لندن : دار رياض الريس ،ط1، 1990، ص 149، ولعل أولئك قد أخذوا عن (فرويد) و كتابه عن (موسى والتوحيد) وأمثاله .

4 – ينظر السعدي (عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، تح : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط1، مؤسسة الرسالة، 1423ه، 2002م، ج1، ص118 .

وادي الرافدين دلت الرموز والإشارات الأثرية في العصرين الحجري الحديث والمعدني على ممارسات سحرية ذات طابع ديني، كان للسحر الحضور الأوفر بين الألف التاسع والألف الرابع قبل الميلاد في وادي الرافدين... وعن أغلب النصوص السحرية فقد أتى من سومر ثم أعيد كتابته بالآكدية زمن سلالة بابل الأولى، من ذلك نصوص (المقلو) و(الشوريو) (Maqlu, Shurpu)، وكان السحر يسمى عند البابليين باسم (كشفو) أو (كيشبو)، والذي يعني أضرار السحر، أما طريقة عمل السحرة (كاشبو) فترتكز على (التسخير) أي جعل الأفراد تحت السيطرة السحرية والإسهام في حالات مؤذية من السحر، وقد أشرفت الدولة آنذاك على السحر الأبيض المشروع، وهو الطابع العام للسحر الرافديني، وأما الأسود الضار فقد حرمه القانون والتشريعات[1] .

هذا عن السحر، أما ما يتبعه من التنجيم فإن الرافديين الأوائل هم بداية من برع فيه مبكرا، ذلك أن (وجهة النظر الأكثر انتشارا في الفكر البابلي القديم، هي أن الناس يمكنهم أن يتحققوا من إرادة الإله ما دام كل ما يجري في السماء يتكرر حدوثه على الأرض، فما عليهم إلا ملاحظة الأدلة وفحصها حتى يعثروا على الجواب، مما أدى ذلك مبكرا إلى حصر الظواهر الأرضية وربطها بمواقع الكواكب في السماء، وتتبع خريطة البروج حتى القرن الرابع قبل الميلاد .. كما أن للتنبؤ بالغيب طرائق وطرائف أخرى منها ملاحظة خصائص الكبد وغرائبه، والرئة في الحيوان المذبوح..)[2] .

ولعراقة السحر وقدمه في وادي الرافدين، فإن من أشهر ما عرف من السحر (سحر أهل بابل) أو (سحر الكلدانيين) حتى ذكرهم الله تعالى في القرآن { **وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ** }(سورة البقرة الآية 102)، وهم الذين كانوا في قديم الدهر، وجاء في أهل بابل أنهم كانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة، ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها.. ويزعمون أنها هي مدبرة العالم ومنها تصدرت الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة.. وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الحيل والنيرنجيات وأحكام النجوم.. فمن طلب شيئا من الخير والصلاح بزعمهم يتقرب إليه بما يوافق المشتري من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها، ومن طلب شيئا من الشر والحرب والموت والبوار لغيره تقرب إلى زحل بما يوافقه، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمهم إلى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات.. وكان سحرتهم يحتالون من خلال ذلك بحيل تموه بها على العامة إلى اعتقاد نفع وضرر الكواكب وبالتالي تأليهها، حيث كانت السحرة عندهم بالمحل الأجل لما كان في نفوس العامة من التعظيم والإجلال.. وهم الذين بعث الله تعالى فيهم نبيه (إبراهيم عليه السلام) مبطلا مقالتهم ورادا عليهم مذهبهم[3] .

1 - ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص183- 187 .

2 - ينظر جفري بارندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، مصدر سابق، ص29 .

3 - ينظر فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ص120، و ينظر محمد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ص50- 51 .

وقد كان السحر فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه في مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون، كما كان عند أقرانهم من البابليين، وكذا الهنود وغيرهم، ولا يزال يؤثر على الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة [1]، واحتل السحر مكانة كبيرة وهامة في العقائد المصرية القديمة، واعتبر أحد الركائز الهامة لما لعبه من دور فعال في حياة المصري القديم، وكان السحر يمارس في مصر القديمة على نطاق واسع بدء من المعابد وقصور الفراعنة حتى أكواخ الفلاحين... شهد على ذلك التمائم الكثيرة متعددة الأنواع والأشكال التي لم يخلو منها أي موقع أثري.. وتعددت أهداف السحر آنذاك بين الوقائي وشفاء الأمراض.. ودرء الشرور ويعتبر السحر المصري علما مستمدا من الكتب، كما ارتبط السحر واختلط بالطب والعلاج والموت وذلك لاعتقاد المصريين القدماء أن وراء المرض سببا خفيا غير ملموس، وعموما فقد عدت مصر في مقدمة الدول التي عرفت السحر حيث دلت التمائم وتلك التعاويذ المكتوبة التي تملأ خزائن المتاحف وقصص الخوارق عن أسرار المقابر الملكية المروعة ولعنة الفراعنة إلا من ذلك القبيل ودليل على أن السحر جاء واستقر في أرض السحرة، والحقيقة أن السحر كان يحكم أرض الفراعنة 2 .

عرف السحرة في مصر القديمة بلقب (حري تب)، والذي أتت منه الترجمة (الكاهن المرتل)، وهذا اللقب الذي حمله السحرة في عصر الدولة الحديثة، بينما حملوا لقب (كتبة نصوص الإله) منذ بداية العصر المتأخر، وكان الساحر ملما بعلوم المعرفة، خاصة الطب، وشتى مجالات المعارف والثقافات حيث أن السحر بذاته عد علما يستمد من الكتب والمعرفة [3] . ولعل التعاويذ هي أكثر مظاهر السحر المصري ظهورا في تراث مصر القديمة، وقد صنعها المصريون من الأقمشة والجلود والأخشاب ودوَّنوا عليها نص التعويذة لحماية جسم الإنسان الحي أو الميت من التأثيرات المؤذية ومن هجوم الأعداء المرئيين وغير المرئيين، وكانت تسمى بالمصرية (هيكاو) بمعنى كلمات القوة، وكانت على أنواع كثيرة، منها : تعويذة القلب، تعويذة الجعران، تعويذة الرأس، تعويذة النسر، تعويذة الروح... [4] كما تعددت الأدوات المستخدمة في تأدية طقوس السحر الشفهية والعملية كالتماثيل واللوحات والتمائم، والعصي والسكاكين والنصوص والكتابات... [5]

وقد ألمحت الكتب السماوية إلى طرف من تلك الممارسات السحرية المصرية، فقد جاء ذكر سحر سحرة مصر في قصة النبي (موسى عليه السلام)، وقد قابله (النبي موسى) بمعجزة العصا ولعل ذلك دليل على فرطهم

---

1 - محمد رشيد رضا، تفسير المنار، مصدر سابق، ج9، 1367ه، 1947م، ص46 .

2- جورج بونز وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة ، ترجمة : أمين سلامة، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1996م، ص187، وينظر إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة، مصدر سابق، ص70 .

3 - ينظر إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة، مصدر سابق، ص70 .

4 - ينظر خزعل الماجدي، الدين المصري، مصدر سابق، ص265- 267 .

5 - ينظر إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة، ص 129- 138 وينظر Pinch, Magic in Ancient Egypt, London : 1994, 67- 76 , 86- 97 .

في استعمال السحر مع براعتهم فيه { **فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ**}(سورة الأعراف الآية 107-120)..

وعلى ما ذكر في القرآن فإن السحر كان موجودا قبل نبي الله (سليمان عليه السلام)، حيث كان شائعا في زمن (موسى عليه السلام)، بل إن القرآن الكريم يذكر السحر في عهد قوم (صالح عليه السلام)، وهو قبل نبي الله (إبراهيم عليه السلام)... ومن هنا نعلم أن السحر كان معروفا عند كل تلك الأقوام... ذلك أن السحر قد نزل به الملكان هاروت وماروت إلى الأرض وعلماه الناس منذ قديم الزمان على أنه فتنة وكفر...ثم عملت الشياطين على إشاعته بين الناس[1]

واستنادا لما مضى نرى تفسيرات مختلفة لظاهرة السحر ونحصي ضروبا عدة، يمكن إرجاعها لعوامل شتى؛ فهو إما نتيجة قوانين كونية وتفاعلات قوية خفية إلا أنها لم تكتشف جلها بعد، أو استعانة بقوى روحية لمخلوقات مغايرة تفوق الجنس البشري قدرة وقوة من ذلك الأرواح الأرضية من الجن والشياطين .. ذلك الذي يحصل بأعمال من الرقى والدخن والتجريد.. أو نتيجة الترابط الغامض بين القوى الكونية من الإنسان إلى الأفلاك والنجوم والكواكب وسائر المخلوقات، أو أن السحر رياضة يبلغها مريدها بأساليب وتدريبات خاصة... إلا أن هناك فرق بين السحر الذي هو بمعنى التمويه والتخييل نتيجة لخفة اليد، والحيلة، والدهاء مما يبالغ الناس بوصفه سحرا، وبين ما هو سحر حقيقي تم وفق آلية معينة، وإن لم يكن واقعا، وهذا الأخير الذي ندعوه سحرا فإنه يلخص بنوعين (فهناك سحر يأتيه البشر بقدراتهم بسب قوى خفية كامنة أو لقدرة على استجلاب القوة والطاقة تمتلكها النفس الإنسانية بصفة ذاتية .. وسحر فيه استعانة بقوى غير البشر ..فالسحر على هذا من القوى الخفية في الكون والتي تخضع لقوانين خاصة أخرى مغايرة للعالم المادي المرئي ولكن لها تأثيرها على الإنسان)[2] . وهذا إن ظهر فإنه يشكل جدلا مع الظاهرة الدينية .

1 - ينظر محمد متولي الشعراوي، السحر والحسد، مصدر سابق، ص57- 61 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص22 .

المطلب الثاني : جدلية الدين والسحر

تنشأ جدلية السحر والدين عن مثار سؤال فحواه ما العلاقة بينهما، وأيهما أسبق في الوجود، وهل بينهما صلة أصلا أم أنهما مستقلين منذ النشأة ولهما طبيعة مغايرة ؟

فهناك من رأى أن العلاقة بين الدين والسحر موغلة في القدم، وأن الدين قد خرج من رحم السحر، وانطلاقا من فرضية الفيلسوف (هيجل) التي تقول، بأن (عصرا ساد فيه السحر قد سبق عصر الدين في تاريخ الحضارة الإنسانية، حيث خصص (هيجل) للسحر موقعا في المرحلة الأولى من مراحل الدين الثلاث التي ابتكرها، وكانت كما يلي : الأديان التي كانت فيها الطبيعة مشبعة بالأرواح، وأديان الآلهة الممجّدة الفردية فوق الدنيوية، وأخيرا المسيحية، ومن ثم كان السحر أقدم أشكال التدين، وأكثرها بدائية وبساطة)[1] .

ثم كان (سبنسر) أول من نشر نموذجا تطوريا اجتماعيا صور فيه السحر على أنه يحدد نموذجا بدائيا للدين يقوم على العلاقات المتجانسة وعبادة الأسلاف، ولكنه —كممارسة – قابل للتكيف مع تطور الدين، بحيث يستطيع الدين والسحر التعايش معا، ورأى (تايلور) الذي صكّ مصطلح (العلم الزائف) لوصف السحر، أن السحر كان موجودا في بادئ الأمر باعتباره تعبيرا عن فكرة الإحيائية، وأن السحر والفكر الإحيائي سمة للشعوب التي تحتل مراتب دنيا على مقياس الإنسانية، كما وصفه بأنه (توليفة وحشية) و(أحد أخبث الأوهام التي حيرت الجنس البشري)...[2]

ثم قام رائد الأنثربولوجيا النظرية في بريطانيا (جيمس فريزر) بصياغة نظريته المعروفة حول أصل الدين وعلاقته بالسحر، حين افترض أنه قد مرَّ على الإنسان دهر لم يعرف فيه غير السحر وعن العلاقة بينهما يقول: "... قد يتعاون الساحر مع كائنات روحانية تشبه ما لدى الدين، إلا أنه يتعامل معها بطريقته الخاصة التي تختلف عن الدين، ففي الطقوس السحرية لا يتوسل الساحر إلى هذه الكائنات بل إنه يجبرها على تنفيد مشيئته... وهنا نجد امتزاجا بين السحر والدين ضمن نظام مختلط.. إلا أن هذا التمازج ليس أصليا بل طارئ، فلقد أتى على البشرية زمن اعتمدت فيه على السحر وحده ... وبعد أن اكتشف الإنسان زيف وعقم السحر، حاول تكوين نظرية أكثر صدقا لتفسير الطبيعة وتسيير عملياتها لصالحه.. فإذا كان هذا العالم الواسع يسير في سبله غير آبه بالإنسان وطقوسه السحرية، فإن ذلك راجع ولا شك إلى أنه مسير من قبل كائنات غير منظورة.. هي التي تقوم على تدبير شؤون الظواهر التي اعتقد لفترة طويلة باعتمادها على طقوسه السحرية، وهكذا ابتدأ الإنسان تدريجيا بالتوجه إلى هذه الكائنات المبجلة معترفا بعجزه أمامها، واعتماده على قواها غير

1 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص190 .

2 - أوين ديفز، السحر(مقدمة قصيرة جدا)، مصدر سابق، ص20 ، 22.

المنظورة من أجل حياته ومعاشه... وبذلك ظهر الدين وتحول الإنسان عن السحر، وحلّ كاهن المعبد محل ساحر القبيلة". [1]

فبالنسبة لـــ(فريزر) فقد ساد السحر في بداية الإنسانية حين ظنّ الإنسان أنه بمقدوره التحكم في سير عمليات الطبيعة بواسطة تعاويذه وطقوسه السحرية، أما حينما ثبت له قصورها أمام عينيه، تأكد أن الطبيعة واقعة تحت سلطان كائنات روحانية فائقة القدرة، فما كان منه إلا أن تحوَّل إلى عبادة تلك الكائنات واستعطافها، واسترضائها بالأضاحي والقرابين... وبذلك ظهر الدين وانقلب الإنسان إليه عن السحر . فحسب (فريزر) فإما أن يكون الدين أو يتواجد السحر، وهما لا يجتمعان، بل يترتبان مرحليا، فالسحر سابق للدين، والدين إنما ينشأ بناء على اكتشاف الإنسان لزيف السحر .

وفي الأخير خلص (فريزر) إلى أن (الدين كله نوع من السحر الخصب، وفي التحريرات المتأخرة لعمله اقترح أن التاريخ البشري مر بمراحل ثلاثة مهيمنة؛ السحر والدين والعلم، والنقطة الأساسية لديه هي أن السحر يسبق الدين ..) [2]، وبهذا يميز (فريزر) تمييزا واضحا بين السحر والدين، إذ ذهب إلى أن السحر سابق للدين، وإذا كان تعريفه للدين بأنه (إيمان بقوى أعلى من قدرة البشر، ومحاولة لاسترضائها أو استعطافها)، فإنه بهذا يتعارض مع السحر الذي يفترض فيه سيطرة للبشر على القوى الروحية، ومن ثم نشأ الدين حين تم إداك فشل السحر وزيفه .

وعلى الرغم من أن الإجراءات السحرية قد تظهر كجزء من الطقوس التعبدية، وقد تستخدم بواسطة مختصين دينيين، فإنها تميز تحليليا بأنها تفترض وجود علاقة وطيدة بين السبب والمسبب بدون وساطة أو تدخل من جانب كائنات علوية، وأكثر من هذا فإنها قد تستخدم عادة بواسطة أي شخص يكون قد تعلم الصيغ المناسبة، ولقد أدى هذا بـــ(فريزر) وغيره إلى التفرقة بين السحر وبين الجوانب الأخرى من الدين، وإلى النظر إليه باعتبار أنه مناظر للعلم، مع اعتماده على قدم المساواة على افتراض بأن الكون مرتب وفق نهج معين... [3]، فـــ(فريزر) يعتبر أن السحر مناظر للعلم وليس للدين وهو الأمر الذي ذهب إليه (تايلور) في كتابه (الثقافة البدائية)، إلا أنه يرى أن (السحر نسق كاذب أو زائف للقانون الطبيعي مثلما هو موجه، مضلل للسلوك، فهو علم كاذب زائف بقدر ما هو فن عقيم) [4] . وعلى كل فإن السحر ليس عبارة عن مجموعة واحدة من الممارسات، وإنما صنوف تغطي طيف الإدراك الديني والعلمي .

وهذا الفصل الحاد بين السحر والدين هنا لا شك قائم على أساس النظرة للدين، فعند (فريزر) مثلا يأتي هذا التمييز نتيجة لفهمه الخاص لما هو ديني، إذ هو لا يرى دينا إلا إذا رأى طقوسا تتوسل إلى كائنات روحية فوق

1 – جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ج1، ص191، ص213 .

2 – أحمد محمد جاد، المناهج الأنثربولوجية في دراسة الدين، مجلة كلية دار العلوم، القاهرة، عدد خاص، 2007م، ص11 .

3 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص433 .

4 – ينظر جيمس فريزر، الغصن الذهبي، مصدر سابق، ص107 .

طبيعية، تتحكم في مظاهر الطبيعة، وأن الدين لم يبتدئ في تاريخ الإنسان إلا مع ظهور الآلهة المشخصة، فعد بذلك كل معتقد أو طقس سابق على ذلك بمثابة معتقد سحري وطقس سحري لا يمتُّ إلى الدين بصلة [1]، فالدين يشترط الاعتقاد في الكائنات الروحية أي الآلهة والأرباب بينما يتألف السحر من الأعمال والممارسات والشعائر التي تتصل بالكائنات الأخرى، ومن هنا ينشأ التعارض بين السحر والدين من منظور (فريزر)[2].

وكذلك رأى (تايلور) في (الأشكال البدائية للحياة الاجتماعية) أن فكرة الله لم تظهر إلا في مرحلة متأخرة من تاريخ الإنسانية بعد تطور طويل في التفكير الحيوي الأنيمي؛ الذي كان يرى الحياة والروح منتشرين بصورة أو بأخرى في كل الموجودات وجميع الكائنات، وعموما فقد كان التمييز بين السحر والدين وأسبقية الأول على الثاني أمرا مألوفا عند علماء الاجتماع والأنثربولوجيا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين[3]. ذلك أنهم ربطوا بداية الدين بظهور الآلهة، ولثبوت السحر قبل ذلك عندهم دون ارتباطه بآلهة، فإنهم رجحوا أسبقية التفكير السحري عن الدين .

فمنذ عصر التنوير الأوربي، والسحر ينظر إليه على أنه أمارة على البدائية، ومرحلة مبكرة من التطور البشري، وأن الدين لم ينجح إلا لما تم إدراك زيف السحر، وهنا فصل بائن بين الدين والسحر .

ولكن هناك من تصدى لمثل هذه الآراء، واعتبر أن الدين أقدم من السحر عند الإنسان، ففي مقال عن (السحر والدين) سفّه (أندرولانج)؛ وهو ناقد شرس للنظريات المتعلقة بالقوى الخارقة للطبيعة، رؤية (فريزر) بأن الدين تطور من فشل السحر، وقد فعل ذلك عن طريق هدم تفسير (فريزر) للتقارير الأثنوغرافية، والذي افترض غياب الدين بين سكان أستراليا الأصليين [4]، كما أُوخذ (فريزر) على زعمه بأن السحر باكورة للعلم، فالجذور الأولى للعلم لا تكمن في السحر، بل في المعرفة العملية المتعلقة بالعالم الخارجي، في الأساليب المألوفة المتعلقة بالمحاولة أو الخطأ، وفي اختبار الفروض بواسطة تجريب متأن أو ملاحظة منضبطة.. [5]

وكذا العالم الألماني (شميدت) الذي (رأى أن المرحلة الدينية قد سبقت المرحلة السحرية في الجماعات البشرية، واستمد من الدراسات الأنثربولوجية أدلة لدحض وجهة نظر التطورية، فهو يؤمن بأن ديانة التوحيد البدائي والإله الأسمى هي الديانة التي كانت سائدة فجر المجتمعات الإنسانية والأولية، وأن الطقوس السحرية جاءت مسخا وتشويها لتلك الديانة الفطرية التي عرفت عند أقوام أواسط أفريقيا وعند الفيجيين، وقبائل أندمانيز في آسيا الجنوبية)[6] .

---

1 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص192 .

2 – ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص36 .

3 – المصدر نفسه، ص36 .

4 – ينظر أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص23 .

5 – عبد الله الخريجي، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، 433 .

6 – ينظر أحمد الخشاب، علم الإجتماع الديني، القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة، ص16 .

وفي هذا المقام نذكر ما بسطناه سالفا من انتقادات للمنهج التطوري، متضمنة بذلك نقد تطور الدين عن السحر، خصوصا النظريات التي أثبتت التوحيد للدين البدئي، وأن السحر والشرك والوثنية.. ومختلف الأشكال الدينية لم تظهر إلا لما تدهورت العبادة الأولى، وهو ما ذهب إليه كثر... الأمر الذي قلب آراء (تايلور) و(فريزر) وغيرهما .

كما تدفقت الانتقادات لـــ(فريزر) وغيره، من أقلام علماء الاجتماع أمثال (دوركايم)؛ وبداية رفض (دوركايم) فكرة تعريف الدين من منظور ينحصر في نطاق الآلهة والكيانات الروحية، وبهذا أطاح في وقت واحد بتعريفي (تايلور) و(فريزر) للسحر، فهو إذ يرى أن الدين نظام موحد من المعتقدات والممارسات المتعلقة بأمور مقدسة، فإن الدين من منظوره يتسم بالاندماج الاجتماعي، وتشارك القيم والخبرات، وأن الكنائس تعبير عن المجتمع، في حين يهتم السحر بالمعاملات بين الأفراد، وبصفته نموذجا من نماذج الاعتقاد، فإن السحر لا يلعب أي وظيفة في التلاحم الاجتماعي، وبصفته ممارسة، فإنه يهتم بتقديم خدمة للزبائن فحسب، والسحر لا كنيسة له، ورغم أن الدين والسحر تجمعهما معتقدات وطقوس وعقائد مشابهة، إلا أن اختلاف وظيفة كل منهما الاجتماعية هو الذي فرق بينهما [1]. و(دوركايم) ينتقد مبدأ تطور الدين عن السحر الذي قال به (فريزر) و(تايلور)، ولكنه لم ير مجالا للتواصل بينهما، وعلى هذا فإنه يسوق الفروق المميزة بين السحر والدين بناء على نظرته الاجتماعية .

فـــ(دوركايم) الذي اعتبر الدين جزء ملحقا برؤيته الاجتماعية، حيث أن الأصل في الشعائر الدينية أن تؤدي في جماعة، وأن الفكرة الدينية تؤلف بين معتنقيها في وحدة معنوية، وليس كذلك السحر، الذي هو عمل فردي سري، فضلا عن أنه في الغالب ينتهك حرمة المقدسات الدينية أو بعكس أوضاعها [2]، وهذا مما يعني أن السحر نشاط خاص، وأما الدين فهو نشاط جماعي، وكما نرى فإن الفروق التي ذكرها (دوركايم) هي فروق ثانوية، لا تأخذ صفة العموم، أو الاستطراد .

وكذا (مارسيل موس)(1872-1950م)[3] الذي لم يورد اختلافا جوهريا بين الدين والسحر، وذهب إلى أن الطقوس السحرية والدينية قد تؤدى من قبل شخصيات مختلفة في ثقافات عديدة، لكن كلاهما غالبا ما يكون قائما على المفاهيم نفسها، فهناك أنواعا من السحر ارتبطت بالابتهال إلى الآلهة وبالدين، وهناك طقوسا مثل استنزال المطر تؤدى جماعيا وفي مساحات مفتوحة، ويمكن استخدام النصوص الدينية والصلوات في أغراض سحرية...بل إننا نجد (موس) يفضل استعمال مصطلح (السحر الديني) في كثير من الحالات.. وذهب

---

1 - أوين ديفز، السحر، مصدر سابق، ص23 .

2 - ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص46 .

3 - مارسيل موس : (1872-1950م) ابن أخت الإجتماعي إ (يميل دوركايم)، من مؤلفاته (نظرية عامة عن السحر) (1902-1903م) ...

هذا الأخير إلى أن الدافع الديني تطور قبل السحر، فقد كان الدين أحد أشكال التعبير عن المجتمع، ثم نشأ السحر عندما قرر الأفراد اتخاذ الطقوس والمفاهيم المرتبطة بالقدسية وملائمتها لأنفسهم [1] .

و(موس) هذا تناول بالفحص المباشر السحر وجوانب من الطقوس المقدسة التي تمارسها مجتمعات مختلفة، وخلص إلى أن الطقس السحري هو ذلك الذي لا يلعب أي دور في طائفة منظمة، لأنه شخصي وسري وغامض[2]، وما نراه أن (موس) انطلق في بحثه مما وصل إليه (دوركايم) في تعريفه للدين، لكنه انتهى إلى أنه لم ير فرقا جوهريا بين الدين والسحر، وهو لم يختلف مع (دوركايم) في رؤيته الاجتماعية التي عدت السحر نشاطا خاصا، يتصف بالسرية والغموض، وأما الدين فهو نشاط عام .

إضافة إلى الطابع الجماعي للدين، حيث يمثل الدين نسقا من الأخلاق يحكم السلوك، ولا يسود السحر أخلاق ولا تنظيم أخلاقي... وهكذا تبدو شعائر الدين واضحة ومفهومة للعيان، منتظمة في الغالب دوريا، بينما تتم شعائر السحر لأوقات وأزمات خاصة، وربما خفية.. وبهذا تشمل وظائف الدين الفرد والبناء الاجتماعي، أما السحر فتعود وظائفه على الفرد ... ومن ثم فلا مجال لاشتقاق الدين من السحر [3] .

لكن هناك من خالف ذلك كله، وذهب إلى أن الدين لم ينشأ عن السحر، كما أنه لا يمكن وضع حد فاصل بين السحر والدين وخاصة في الشعوب البدائية ، ولـــ(فراس السواح) رأي كهذا يخالف به تلك الآراء السالفة وغيرها، تلك التي تدعو إلى التمييز الواضح بين السحر والدين، يقول فيه : "الدين لم ينشأ عن السحر، لأنه لا فرق بين السحر والدين عند منابت جذور الثقافة الإنسانية، وليس الذي يدعوه (فريزر) سحرا إلا شكلا أصليا وأوليا من أشكال الدين، سابقا على ظهور الشخصيات الإلهية في المعتقدات الدينية للإنسان، فالساحر الذي يتوسط بين الأسباب ونتائجها، لا يعتمد مبدأ ميكانيكية الطبيعة وخضوع عملياتها لقوانين ثابتة، بل على مبدأ القوة السارية الذي يربط عالم الظواهر، ويكمن خلف تسلسل الأحداث في الطبيعة، والقوى التي يعتمد عليها الساحر هي قوى دينية بالمعنى الحقيقي للكلمة" [4] . مما يعني أن السحر لا يرتكز على مبدأ السببية الطبيعي وقوانينه الثابتة، وإنما هو ديني المنطلق لاعتماده القوة السارية أو القوة الخفية .

بينما يذهب (شفيق مقار) في كتابه (منشأ الدين والسحر) على غرار ما يذهب كثير من الباحثين في الأنثربيولوجيا وتاريخ الأديان إلى أن الدين والسحر نشآ كتوأمين منذ فجر التاريخ حين وقف الإنسان عاريا، جاهلا، مندهشا أمام ظواهر وغوامض الكون في سعيه إلى الذوذ عن نفسه وتأمين بقائه في عالم غير محايد تماما لا يعبأ بوجوده أو يكترث لموته أو غير دار بما يحف به من صعاب أو يتربص به من مهالك، كانت محاولات الإنسان القديم النفاذ إلى مكنونات الغوامض التي واجهه العالم بها لدرء الشر الذي أيقن أنه يتربص به من وراء

1 - ينظر أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص24 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص23 .

3 - منال جاد الله، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص100 .

4 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص192 .

تلك الحجب من قوى خفية وفوق طبيعية، بل ومحاولة الانتقال من مرحلة استرضائها ومنع أذاها إلى مرحلة ضمها إلى صفه، لتكون له لا عليه، ومن المسعى الأول نشأ الدين، ومن المسعى الثاني نشأت الكهانة... فلقد نشأ الدين والسحر كتوأمين إلا أن انفصالهما كان محتوما منذ البداية، لقد كان الرحم الذي ولد التوأمان منه رحما من خوف الإنسان وفضوله، ونزوعه إلى القوة وسعيه إلى تأمين بقائه وإشباع حاجاته، عوامل جعلته يسيد على غيره من المخلوقات، أدوات تمكنه من فرض نوع من التحكم في الظواهر الطبيعية يجعلها تعمل لصالحه وتتيح له في الوقت ذاته التعامل مع القوى الخفية التي آمن بوجودها وراء الظواهر الطبيعية ومن هنا كان من المحتم أن يفضي ظهور السحر والدين كتوأمين مع اختلافهما جذريا في نفس الوقت إلى الصراع بينهما[1] .

أما (ابن خلدون) فقد ميَّز بين السحر والدين من خلال تفريقه بين الساحر والنبي، يقول: " فنفوس الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لها خاصة تستعد بها للمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة وما يتبع ذلك في التأثير بالأكوان، أما نفوس السحرة فلها خاصية التأثير في الأكوان واستجلاب روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية أو شيطانية"2 فهو يرى أن السحر استعداد نفسي كامن لفعل السحر وتأثيره . وعلى كلٍ فإن؛ كلا من الدين والسحر طريقة لسلوك الأفراد في علاقتهم بالقوى فوق الطبيعية، لذلك فالتمييز بين السحر والدين يتم من حيث أحوال سلوك المؤمنين، التي تتراوح بين ثقة الإنسان في السيطرة على الطبيعة بصورة مباشرة بمعرفة قوانينها، وبين الاعتراف بالضعف والعجز الإنساني في السيطرة عليها بصورة مباشرة[3] .

ومن الحضارات القديمة تأتينا أغزر الوثائق عن ظهورات وتناوبات الدين والسحر، حتى ظنَّ بعضهم (السير واليس بدج)؛ –أهم دارس للديانة المصرية القديمة– أن (الإيمان بالسحر هو أقدم في مصر من الإيمان بالإله، وإنه لمن المؤكد أن عددا كبيرا من الطقوس الدينية التي كانت تؤدى في الأزمنة اللاحقة، كجزء من العبادة الروحية السامية، تضرب أصولها في المعتقدات والممارسات الخرافية.. وإن الاعتقاد بفعالية الكلمات السحرية والتعاويذ والتمائم وما إليها وأداء الطقوس المصحوبة بترديد أسماء القوة لتحقيق النتائج المرجوة، يشغل حيزا واسعا من الديانة المصرية، .. والمؤكد أن الاعتقاد بالسحر قد مارس تأثيره على عقول وفكر المصريين، وصبغه بصبغته منذ بداية تاريخهم وحتى أواخره..)[4] .

ونجد في الكتب الدينية المصرية كيف استخدم السحر كأداة للدين، ونجده في بعض الأحيان جنبا إلى جنب مع أكثر المفاهيم الروحية [5]، بل إن كبار السحرة كانوا من بين من يشغلون مناصب كهنوتية كبيرة، وقد

---

1 – شفيق مقار، السحر في التوراة والعهد القديم، لندن : دار رياض الريس،ط1، 1990، ص21 .

2– ابن خلدون، المقدمة، مصدر سابق، ص468.

3 – منال جاد الله، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص99 .

4 – فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص202 .

5 – خزعل الماجدي، الدين المصري، مصدر سابق، ص264 .

استعان الأرباب أيضا بالسحر في الصراعات فيما بينهم مثل (حورس) و(ست)، كما اختص بعض الأرباب والربات بالسحر وعمله.. وظهر بوضوح ارتباط الطقوس السحرية وتلاوة التعاويذ بالكاهن المرتل(xry hbt)، ويفترض أن هذا الكاهن هو المعلم الأول في شؤون السحر والرقى[1] .

ولكي يؤدي السحر مفعوله كانت تقرأ بعض التعاويذ الدينية، أو يقوم الشخص بحمل بعض التمائم التي أخذت أحيانا هيئة معبودات حامية حتى تستطيع أن تؤدي غرض الحماية، أو أن تشكل التمائم على هيئة بعض الرموز المقدسة، ومن ذلك التماثيل السحرية التي كانت توضع في المعابد لكي يستفيد أصحابها من الشعائر القائمة، والنصوص المرتلة... وبخلاف النصوص والتعاويذ السحرية، فقد وجدت كذلك القصص والأساطير التي حملت في مضمونها مغزى سحريا، ومن بينها عدد من الأساطير الدينية التي تتعلق بالمعبودات والسحر بين الأرباب كأسطورة (إيزيس ورع) و(عقاب إيزيس)...كما أن عبادة الكثير من الأرباب كانت قائمة على الصفات والقدرات السحرية لهؤلاء الأرباب، ومن أشهر هذه المعبودات الحامية المرتبطة بالسحر المعبودتان (إيزيس) و(نفتيس) واللتان لقبتا بـــ (عظيمتا السحر)..[32]

وبرمت ممارسة السحر خيوطها داخل نسيج الدين المصري، ويلمح ذلك في أساطير الآلهة حيث استطاعت (إيزيس) التسلط على (رع) بعد أن عرفت اسمه الخفي، وكان ذلك نوعا من السحر الإلهي، كما حاولت (إيزيس) إعادة الحياة إلى (أوزيريس) عن طريق السحر، أما الإله (ست) فقد كان رمزا للسحر الأسود، ونظر إليه كناشر للأوبئة...ويستند السحر المصري إلى فكرة أساسية هي امتلاك الساحر قوة يؤثر فيها على الطبيعة والناس والأشياء... وللسحر المصري غايتان؛ الأولى مشروعة، تهدف إلى إيصال الفوائد للأحياء والأموات، وثانية للتآمر وتنفيد الخطط وإحلال الكوارث..4

وفي بابل كان إله الماء إلها للسحر، وهو الذي يتلو الرقى للآلهة، ولهذا أتى الإله (مردوك) إليه في محنته ليعرف الطريق الذي يسلكه [5]، وكان من الطبيعي أن يتقابل الدين والسحر في أكثر من جانب من جوانب حياة المجتمع، لذا فقد تركز السحر في المعابد واعتبر علما من علوم الكهنوت الذي تخصص فيه الكهنة وحدهم، كما أن الكثير من الطقوس الدينية ارتبطت بالسحر وتعاليمه، وتداخل السحر والدين معا في كتب الموتى والمتون الدينية وعلاقة الآلهة القديمة بالبشر، وفي أبنية المعبد حيث تعد العرافة من أهم الوظائف.. قام

---

1 - إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة، مصدر سابق، ص70 .

2 - المصدر نفسه، ص142 .

3- Pinch, Magic in Ancient Egypt, p67-76 . وينظر إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة، مصدر سابق، ص206- 211 .

4 - ينظر خزعل الماجدي، الدين المصري، ط1، عمان : دار الشروق، 1999م، ص264 .

5 - سليمان مظهر، قصة الديانات، مصدر سابق، ص74 .

الكهنة بممارسة العرافة وبالأخص التنجيم، لقراءة علامات الأزمنة والإنباء بالمستقبل، وإرادة الآلهة في أوضاع الأجرام السماوية، فمهدوا بذلك الطريق لعلم الفلك الحديث[1] .

وإذا نظرنا إلى كلمة (الماجوي) المستمدة من المصادر الإغريقية للقرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، التي كانت تتخذ بوجه عام موقفا عدائيا من الطابع الديني الغريب الذي يتسمون به، فقد وصفوا بأنهم كهنة متسولون محتالون بينما تشير مصادر أخرى إلى (خدع الماجوي)، كما تصفهم المصادر بأنهم يشرفون على تقديم تضحيات من البشر والحيوانات، ويسيطرون على أرواح الموتى، ويشفون المرضى، ووفقا لما ذكره مؤرخ القرن الخامس قبل الميلاد (هيرودوت)، كانوا يشرفون على طقوس الإراقة ويفسرون الأحلام وكسوف الشمس، وكانوا يغنون الترانيم والتعاويذ للآلهة وقت شروق الشمس... [2] فما يلاحظ أن للسحرة طقوسا تقترب إلى حد كبير من الطقوس الدينية !!

ولا أصدق من القرآن حين ينبينا عن انتشار السحر في أزمنة وعهود متفرقة من دعوات الأنبياء عليهم السلام منذ القديم؛ ففي زمن نبي الله (موسى عليه السلام) { **قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** } (سورة الأعراف الآية 115-116)، وقوله تعالى {**وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ** } (سورة يونس الآية 79- 80) .

ومن بعده؛ عهد النبي (سليمان عليه السلام) { **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**} (سورة البقرة الآية 102)، يذكر (القرطبي) أن (قوله تعالى: "وما كفر سليمان" تبرئة من الله لسليمان ولم يتقدم في الآية أن أحدا نسبه إلى الكفر، ولكن اليهود نسبته إلى السحر، ولكن لما كان السحر كفرا صار بمنزلة من نسبه إلى الكفر ، "ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر" فأثبت كفرهم بتعليم السحر)[3] .

ولطالما اتهم الأنبياء وما جاؤوا به من دين بالسحر والسحرة، فعن النبي (محمد صلى الله عليه وسلم) ينبئنا القرآن الكريم بقوله تعالى{**أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ** }(سورة يونس الآية2)، وقوله { **وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**} (سورة ص الآية 4)...

ومثله النبي (عيسى عليه السلام) { **إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ**

1 - ينظر حبيب سعيد، أديان العالم، مصدر سابق، ص51 .

2 - أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص10 .

3 - ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج2، ص43 .

تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ } (سورة المائدة 110) .

وكذلك عن نبي الله (موسى عليه السلام) { **فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ** } (سورة يونس الآية76-77)، وكذلك اتهم موسى وأخيه هارون مجتمعين عليهما السلام **{قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى }** (سورة طه الآية 63) .

وبذلك أوذي نبي الله (صالح عليه السلام) { **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** } (سورة الشعراء الآية 153)، وكذا نبي الله (شعيب عليه السلام) { **قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ** } (سورة الشعراء الآية 185)... يقول (القرطبي) : ("قالوا إنما أنت من المسحرين" هو من السحر في قول (مجاهد) و(قتادة) على ما قال المهدوي ؛ أي أصبت بالسحر فبطل عقلك؛ لأنك بشر مثلنا فلِمَ تدَّع الرسالة دوننا)[1]... ولم يقتصر الاتهام على ما ذكرنا من الأنبياء فحسب، بل يخبرنا القرآن الكريم أن ذلك ديدن الأقوام إزاء أنبيائهم، نستشف ذلك من قوله تعالى {**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ** } (سورة الذاريات 52- 53)..

وما ورود السحر في مشهد اتهام الأنبياء والنبوة والرسالة – وهي ظواهر دينية مثبتة- إلا لأن السحر مخالف للدين ومضاد له، **فإذا كان الدين حقيقة من عند الله، فإن السحر في المقابل كفر، وفيه صرف واستمالة وتمويه عن الدين الحق .**

كما هو سبب في الإضرار بالناس وهو محرم يعاقب الله تعالى عليه في الآخرة { **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ** } (سورة البقرة الآية 102)، وعلى مرّ القرون اتهمت جماعات دينية بالسحر، باعتبار ذلك وسيلة لتعريف الذات وتعزيز الشرعية السياسية والثقافية، ففي المسيحية الأولى مثلا، كان هذا الوصف يرد انطلاقا من اعتبار السحر (انحرافا دينيا)، فقد كانت أنشطة المسيحيين الأوائل - رشم الصليب، وممارسة سر التناول، طرد الأرواح الشريرة، والتكلم بالألسنة، واجتماعات الصلوات الليلية- تعد ضربا من السحر في نظر السلطات الرومانية، وفي المقابل طور آباء الكنيسة الأوائل مفردات تفيد بأن السحر ينبثق على ديانات روما التي صوروها على أنها منحلة وفاسدة، وفيما بعد صارت هذه المفردات مرادفة لكل الأديان الأخرى ما عدا المسيحية، وبنظرة أكثر شمولا، دائما ما كانت الأديان التوحيدية على استعداد لرمي الديانات الشركية والإحيائية بأنها غارقة بالسحر...ومواصلة لاتهام الديانات بعضها لبعض بالسحر، فممارسة سر التناول وعبادة الثالوث المقدس

---

1 - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ج13، ص119 .

في المسيحية شكلت تربة خصبة للانتقاد والاتهام بالسحر... وفي أوربا العصور الوسطى، كانت فكرة ممارسة اليهود لشعائر سحرية فاحشة راسخة بعمق في الثقافات الشعبية[1] .

بل إن السحر قد عد معيارا لوضع حدود تفصل بين الأشكال الصحيحة والفاسدة للعقيدة داخل الدين الواحد، فقد شهدت القرون الأولى للمسيحية ظهور طوائف متعددة كالغنوصية التي اتهمت بممارسة السحر، وخلال حركة الإصلاح الديني، تضمنت عملية تعريف البروتستانتية تحديد ما كان يعتبر العناصر السحرية للكاثوليكية، إذ اتهم عدد من البابوات بممارسة استحضار الأرواح، ورفضت معجزات قديسي العصور الوسطى باعتبارها سحرا ...[2]

وفي العالم الإسلامي، تصدت دعوة (ابن تيمية) (رحمه الله) لأولئك الذين يوجهون الأمة الإسلامية بدمشق ومصر نحو الشعوذة والسحر والخرافة... بما ينتهي بهم إلى ضروب من البدع الاعتقادية الشركية...[3] ودعا المصلح (محمد بن عبد الوهاب)[4] (1703-1791م) (رحمه الله) وأتباعه مطلع القرن الثاني عشر هجري، للتطهير من التأثيرات المفسدة لتقوى المسلم، ولتطبيق شكل نقي وأصيل للإسلام، حين رأى في عصره فترة انتكاس في الفطر، وارتكاس في العقائد، وذرائع الشرك والوثنية، فجرى – تحت تأثير الوهابية– هدم الأضرحة بالمدينة ومكة وما جاورها من نجد والحجاز... وذلك إثر تفشي الأضرحة والقبور، وما يتبعها من مظاهر الاستغاثة والنذور والتمسح بالآثار والمدافن الأمر الذي شجعه شرذمة من الفرق الدينية أوائل القرن التاسع عشر...[5] مما جعلها محط اتهام بالسحر، إذ أن تلك مظاهر مهدت عادة للافتتان بالسحر وممارسته .

وفي الغالب كانت الجماعات والحركات الإصلاحية أول ما تهدف إليه اجتثاث جذور السحر في الديانات على مر التاريخ باعتبار السحر انحرافا أو شكلا مفسدا للدين إما تحت غطاء الوثنية والشرك أو ضرب من الخرافة والشعوذة ...فالدين والسحر يتواجدان في الغالب في آن واحد إلا أن كلا منهما يخدم وظائف مختلفة عن الآخر، **وفي هذه الحالة يعد السحر نمطا وشكلا من أشكال الانحرافات عن الدين الأصلي، ويعد انتقاده ومتابعته شكلا من أشكال التطهير والتنقية للمذهب الحقيقي .**

1 – ينظر أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص13 .

2 – المصدر نفسه، ص12 .

3 – ابن كثير، البداية والنهاية، ط6، بيروت : مكتبة المعارف، 1410ه، 1990م، ج14، ص37 .

4 – محمد عبد الوهاب : (1703- 1792م) مصلح ديني ومؤسس الوهابية الداعية إلى العودة إلى الإسلام الصحيح وتحريره من الشوائب، درس في المدينة، وأقام مدة في البصرة وبغداد، أثر تأثيرا واسعا في شبه الجزيرة العربية، من مؤلفاته : كتاب التوحيد فيما يجب من حق الله على العبيد، تفسير الفاتحة، كتاب الكبائر...(ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص631)

5 – ينظر عبد العزيز مصطفى، كتاب البيان (دمعة على التوحيد :حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة)، ط 3، الرياض: المنتدى الإسلامي، 1422ه، 2002م، ص201 .

عبر الباحث الألماني (أدولف إرمان) المتخصص في المصريات في كتابه (ديانة مصر القديمة) عن ذلك بقوله : " إن السحر نبت وحشي في واحة الدين ، وهو عمل يهدف إلى التغلب على القوى التي تتصرف في مصير الإنسان"[1] .

ويلاحظ مما سقناه أنه لا يمكن أن يصنف السحر على أنه مرحلة تطورية من مراحل الفكر الإنساني، فالسحر والدين لم يتحركا على نفس المستوى التطوري، ونذكر أن (ثمة نهج فكري آخر تمثل في فكرة تقول بأن السحر والدين يمكن فهمهما باعتبارهما بنيتين رمزيتين فضلا عن كونهما أداتين ثقافيتين أو مرحلتين فكريتين)[2] .

والذي يظهر من خلال مختلف الحضارات القديمة البدائية أو الحديثة؛ أن الدين والسحر تعايشا جنبا إلى جنب، ولكن رغم هذا التعايش الذي يعني إمكان تواجدهما معا دون أن يستلزم ذلك ارتباطهما ترتيبا أو عكسا، إلا أنهما مختلفان، (فعلى الرغم من الاشتراك في جنس الصلة بما فوق طبيعي أو الكائنات الروحية، تختلف الحقيقتان اختلافا كبيرا، حتى إنهما لتبدوان متعاكسان، وذلك أن القوى السرية التي يدعوها الساحر، أو الكاهن أو مناجي الأرواح لا تقع صورها في أخيلتهم على أنها شيء يعلوهم فيتطاولون إليه، بل على أنها قرن ينازلونه، أو قرين يخادعونه، وقد يرن لأنفسهم من العلو والسلطان على تلك القوى بوسائلهم الخاصة ما يستطيعون به أن يقتنصوها ويخضعونها لأوامرهم، ويسخروها لرغباتهم، كما يسخر الكيميائي عناصر الطبيعة المادية لمآربه، أما العابد فإنه يقف من معبوده موقف الخاضع المتواضع الساعي في رضى سيده، المشفق من غضبه وسخطه، فهي قوة يخضع هو لها ولا تخضع له) [3]. فالساحر حين يتوجه، فهو يتوجه إلى قوى في مستوى أفقه، وإن كانت أقدر منه إلا أنها دونه لأنها خاضعة ومنقادة لسلطانه .

فالفرق الرئيسي بينه وبين الديانات أن الاستعانة بالروح فيه استعانة استخدام وتسخير، لا استعانة عبودية وتمجيد وتقديس[4] .. يعبر عن ذلك (عبد الله دراز) قائلا : "فالفلسفة الروحية تشارك النظرة الدينية في هذا الإيمان بما وراء الطبيعة من قوة أو قوى فاعلة عاقلة، ولكنها تفارقها بأنها منقطعة الصلة الأدبية بهذه القوة، فليس بين الفيلسوف وبينها ارتباط بحقوق أو واجبات، وليس بينهما مناجاة تتبادل فيها المطالب والرغبات، أما المتدين فإنه يؤمن بهذه الصلة إلى حد أنه يجعلها جزء حيويا من كيانه النفسي، ولذلك نراه كلما حزبته حاجاته، تطلع إلى روح أشد قوة، يلتمس منها تلك الحاجات والرغبات[5] .

1-Adolf Earman, Die agyptische religion, berlin:new York puplic library,1905, p150 .

2 – أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص24 .

3 – ينظر عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص45 .

4 – المصدر نفسه، ص47 .

5 – عبد الله دراز، الدين، مصدر سابق، ص45 .

ويفرق البعض بين السحر والدين في نوعية المعتقد، فالقوة الخفية في الدين خارجية وتجسدها كائنات إلهية أو كائن إلهي، وهي التي تسيطر على الإنسان وترسم له مصيره، في حين أن القوة الخفية في السحر تكمن داخل الإنسان، وإن وجدت خارجه فإنها تظل مرتبطة به بطريقة ما... والساحر يأمر القوة الخفية، بينما يخضع المتدين لها، أي أن السحر يقوم على فكرة جوهرية أساسية، هي الاعتقاد بوجود قوة خفية في الإنسان (الساحر)، فهو يشترط وجود (قوة خفية) وليس (كائن أو كائنات خفية)، وأن هذه القوة الخفية يمكن أن تخضع لها ما حولها طالما أنها في داخل الساحر، ويمكنه السيطرة عليها، فالسحر هو اعتقاد وتقنية معا، فهو يقوم على وجود القوة الخفية والاعتقاد بها، ثم على طقوس تقنية تنفذ ذلك الاعتقاد، وهو ما يجعله مختلفا عن الدين، الذي هو اعتقاد بقوى غيبية في الكون يجب الإيمان بها والخضوع لها[1] .

فالسحر تعبير عن الغرور الإنساني، إذ يجسد اعتقاد الإنسان بأنه قادر على التحكم في ظواهر الطبيعة، وفي المقابل يعبر الدين عن التواضع الإنساني، إذ يجسد اعتقاد الإنسان بأنه أضعف وأضأل شأنا من أن يتحكم في ظواهر الطبيعة أو يستغل مرونتها وقابليتها للتعديل لصالحه بجهده الخاص، وهو اعتقاد يجعله يتنصل من غرور السحر والاكتفاء بمحاولة الوصول إلى القوى العليا بالصلاة والشعائر واسترضائها كيما تعمل تلك القوى لحسابه في التحكم في ظواهر الطبيعة فتجلب له الخير وتكف عنه أذى القوى الخفية الشريرة غير المرئية[2] .

ورغم ما سقناه من الفروق بين الدين والسحر، إلا أن الفرق بينهما قد لا يبدو واضحا في كثير من الأديان والمجتمعات البدائية، وما يشار إليه كمثال على اشتباه السحر بالدين هنا، ما مر بنا من موقف كلا من (جيمس فريزر) و(إيميل دوركايم) تجاه الطوطمية؛ فبينما رأى (فريزر) أن الاجتماعات الدورية التي تقيمها الشعائر الطوطمية، وتمارس فيها الطقوس بهدف إرضاء الطوطم، والتقرب إليه ثم ذبحه وأكل لحمه لاكتساب صفاته وخصائصه تندرج هذه الممارسات والطقوس تحت الممارسات السحرية، وتخرج بذلك عن مجال الدين لأنها لا تتعلق بكائنات روحية..في حين ذهب (إيميل دوركايم) إلى أن الممارسات الطوطمية ممارسات دينية لأنها تقدس الطوطم...

ورأى (جون بيتي)[3] أنه لا يمكن التمييز بوضوح بين الدين والسحر لأن الاختلاف بين فكرة القوة السحرية في الأشياء وفكرة الروح الشخصية في الأشياء اختلاف أكبر من أن يمثل اختلافا في الدرجة، والمعتقدات والممارسات التي نطلق عليها الطوطمية تقع عند الخط الفاصل بين السوي واللاسوي، والطوطم كما هو لدى

1 – خزعل الماجدي، بخزر الآلهة، مصدر سابق، ص34 .

2 – شفيق مقار، السحر في التوراة والعهد القديم، مصدر سابق، ص22 .

3 – جون بيتي : (Jean-Pierre) جون بيير بيتي، عالم فلك فرنسي، وله نظرية كونية .

سكان أستراليا الأصليين يمثل نوعا من القوة الروحية، وهذا هو هدف الاعتقاد الطوطمي ومن أجله تقام الشعائر والمراسم الخاصة[1] .

ويتشابك السحر والدين في نظر البعض أحيانا إلى حد عبروا عنه بالتوفيق بين المعتقدات فيما ذهبوا إليه، وهو يعني بالأساس المزج بين تقاليد دينية مختلفة داخل جماعة سكانية معينة أو دمجها، وتعتبر ديانة (الفودو) مثالا حيا عن هذه العلاقة التوفيقية فيما يتعلق بتفسيرات السحر والدين، فلما كانت (الفودو) قد تطورت وسط شعب (هايتي)، أصبحت مزيجا من الطقوس الكاثوليكية والمعتقدات الدينية، والممارسات السحرية للشعوب التي عاشت فيما يطلق عليها الآن بنين، وعلى الرغم من أنها ديانة توحيدية بالأساس، نراها تضم مجموعة من القديسين الكاثوليكيين، والآلهة الإفريقية، وأرواح الأجداد، وبهذا تتضمن طقوس الفودو عناصر يمكن وصفها بأنها سحرية أو دينية[2] .

وفسر البعض العلاقة والتشابك بين السحر والدين بأن السحر لابد أن يكون قد تشكل في صورة عقائد ذات طابع ديني، وقد ميز الباحثون ثلاثة أنواع من العقائد أو الأديان السحرية؛ كالفتيشية (fetichisme) تعتمد الفتيشية أو التميمية على بدائية سحرية تقول بأن قوة العالم أو الكون تجتمع في شيء معين بذاته، وأن تقديس هذا الشيء آت من كونه يحمل قوة كونية تشع منه وتجعله متميزا عن كل ما يحيط به من أشياء، وقد يقوم الإنسان بصنع مادة مماثلة للشيء الأصلي، ويعتقد أن هذه التميمة تجتمع فيها القوة المقدسة، وبذلك يكون الفتيش السحري، بمثابة مادة مصنوعة تدل على أصلها المقدس، ولكنها مشحونة بقوة بالغة، وبهذا فــ(الفيتيش) يعتبر بذاته مهولا مقدسا، أما التميمة فقوتها السحرية بسيطة فرعية، وقد جاءت هذه العقيدة من خلال تصور سحري للأشياء، وإضافة إلى الفيتيشية يشار إلى الأرواحية والطوطمية على أنها عقائد أو أديان سحرية، والتي قد يلتبس بعضها ببعض[3] .

ويرجح أن السر فيما لمحناه من الظهور الثنائي للدين والسحر؛ أن الأديان والثقافات جميعها لها نصيبها من الفلسفة الروحية، وبهذا يكون مفهوم الروح والروحية عنصرا ثابتا من عناصر الفكر البشري، وإن اختلفت مسمياتها، نذكر من ذلك (مصطلح (المانا) * الذي وجد منتشرا على نطاق واسع بين الجماعات التي تسكن ميلانيزيا، وبولونيزيا والفلبين، حيث يسود الاعتقاد بقوى خارقة غير مشخصة تنبث في الأشياء... وهناك

---

1 - منال جاد الله، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص99 .

2 - ينظر أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص18 .

3 - ينظر خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص47- 50 .

* - المانا : وهو مفهوم سكان جزر المحيط الهادي الذي يرى أن هناك قوة روحية كامنة في كل شيء بين البشر والكائنات غير البشرية، تشبه تماما الكهرباء أو نوع من القوة المحركة، وهي غير مادية وتختلف عن القوة الفيزيقية، قدم مصطلح المانا لأول مرة الأنثبولوجي (كوردينتغون) في كتابه عن جزر ميلانيزيا وثقافتها عام1891م .

تسميات أخرى لهذه القوة ففي الكونغو تسمي الشعوب البدائية هذه القوة (إيليما Elima)، وتسميها شعوب البامبا والدوغون بـــ(نياما Nyama)، وتسميها شعوب الكونكومبا في إفريقيا (كينا Kina)...)[1]

فبالنظر إلى مجتمعات الشعوب البدائية نجد معاني لهذه القوة الشمولية غير المشخصة عند القبائل الهندية كذلك بـــ (واكان Wakan) وهو السر المحرك للكون، وتدعى عند جماعات الهنود الحمر الأخرى (مانتو) و(زوبي Xube) و(بوها Puha)... وفي جميع الديانات الإفريقية التقليدية، هناك اعتقاد بوجود عنصر غير مادي يسكن الأشياء والكائنات مرئية أم غير مرئية، كنوع من القوة الحيوية التي تتوزع بشكل هرمي على كل عناصر الكون بهذا المقدار أو ذاك ...فكل عنصر هو متلق ومخزن ومرسل للقوة، ويفترض أن السحرة هم من يمتلك بشكل خاص مقدارا عاليا من هذه القوة، وذلك بسبب إمكاناتهم الفطرية أو المكتسبة على اجتذاب القوة واستخدامها في سبيل الخير أو الشر... [2]

وعلى غرار ذلك رأى (هوبل) [3] أن كل الأديان على اختلافها تشمل مظاهر واضحة من الأنيميزم والمانا [4] الأمر الذي أطلق عليه (فراس السواح) مصطلحي (المجال القدسي)، و(القوة السارية) [5] وبذلك أشار علماء الأنثربولوجيا والفلسفة وعلم النفس...إلى عدد كثير من المصطلحات المماثلة والمستخدمة للدلالة على الأرواح والقوى التي لها آثار خارقة ...ونراها تقترب جميعها من المفاهيم الحديثة عن عالم المادة والطاقة، ولا عجب؛ فهذا الإسلام خير الأديان يطلق وحيه القرآن العنان معلنا أن الكون بما فيه كله حي، حين يلهج بحمد الإله خالقه مسبحا، يقول جل في علاه { **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** } (سورة الإسراء الآية 44) .

وبناء على ما توصلنا إليه من أن الدين مترل من عند الخالق، وأن التدين أمر فطري غريزي، فإن ما نراه من اختلاط الدين بالسحر على مر القرون، تمظهر فيما يعرف بالأديان السحرية (كالطوطمية أو الأرواحية أو الفتيشية...) أو العقائد (السحرودينية) أو غيرها، ومع ما تحمله جلُّ الأديان من معاني مشبعة لمفهوم الروح والقوى غير المشخصة وغير المرئية.. فإن الترعة الروحية الغيبية الميتافيزيقية هي التي تجمع السحر والدين...، مما جعلنا نسلم بأن مثل تلك المفاهيم كأنها لازمة من لوازم الفكر الإنساني، طالما ثبتت فطرية الدين، مما يؤكد أن الأديان جميعها على تمايز أو تشابه رؤيتها للقوى الروحية، وعلاقة ذلك بالسحر و مختلف استخداماتها له، هي

---

1 - خزعل الماجدي، بخور الآلهة، مصدر سابق، ص51 .

2 - ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص182- 185 .

3 - هوبل : (David H. Hubel) (1926-2013م) طبيب وعالم أعصاب كندي، حائز على جائزة نوبل في الطب عام 1981م .

4 - منال جاد الله، التصوف في مصر وفي المغرب، مصدر سابق، ص102 .

5 - فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص186 .

أديان في أصلها توحيدية، انحرف مسارها لسبب أو لآخر، حتى بدت تلك الأديان كأنها بقية من السحر، أو أن في السحر شيء من الدين .

فالتباس السحر بالدين يكمن في أصل التوجه إلى القوى الروحية، ولكن شتان بين توجه العبودية والتمجيد والخضوع، و توجه الطغيان أو الإخضاع والتسخير .

وفي عالمنا المعاصر المعولم لا يزال الكثيرون يلجؤون إلى السحر ويخشونه .. وفي الغرب الصناعي بما فيه من أنظمة الرعاية الاجتماعية، ولكن تحت ستار الوثنية الجديدة، باتت ممارسة السحر ديانة في حد ذاتها، ولا يزال السحر قضية عالمية بحق [1]، ويبدو أن عصر العلم يمكن أن يكون أيضا عصر السحر في العالم الغربي الحديث، فعلى مدار العقدين الماضين ظل المؤرخون وواضعوا النظريات الثقافية يستكشفون عودة الثقافة الغربية إلى الاعتقاد بالسحر أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، حينما أثارت تجربة الحياة في المجتمعات الغربية المتجهة إلى التصنيع ردود أفعال لمواجهة اجتياح الماكنات والتمدن والتلوث، فيما يعرف بـــ(أزمة إيمان) إذ يلمس تحول عن الإيمان العقلاني، وتلهف على صلة أكثر حيوية وروحانية، وهو ما قدمه المذهب الروحاني الحديث (1848م)[2] . وبهذا عادت الظواهر العتيقة للسطح، وأعيد تأويلها، ولاقت تأييدا، لتنتقل من عالم الخرافة إلى صميم الدين، وهكذا عاد السحر إلى التحقيقات الدينية والعلمية .

فالملفت للنظر أنه مع توسع الظاهرة العلمانية في العالم الغربي الحديث واتساع مفهوم العلمانية ليشمل كل جوانب الحياة، لا زالت ظاهرة السحر وقراءة الكف والبخت ومعرفة طالع الشخص..، من السمات المرافقة والشائعة في المجتمع الغربي، فكيف يمكن تحليل هذه المتناقضة، فكيف يؤمن العلماني أصلا بما يراه خرافات أسطورية متمثلة في السحر ؟ !

ولكن لا عجب؛ ذلك أن أهم ملامح الفكر العلماني وأهدافه هو فك العلاقة بين الإنسان والدين، فبعد تراكمات فكرية في بناء مفهوم العلمانية وتصاعده، أصبح المنحى إلى إلغاء العلاقة بين الإنسان والله السمة المميزة للفكر العلماني، حيث أصبح مسعى العلمانية الحديثة أن تجعل من الإنسان هو البديل عن الإله، وتدفع بالإنسان للتدخل في قوانين الطبيعة ونواميس الكون لزحزحة الغيب المطلق (الله)، والساحر ببساطة يختزل هذا المفهوم ليقدم صورة الإنسان المتحكم في قوانين الطبيعة من خلال التعاويذ والتمائم ..، فالظاهرتان تسعيان لخلق انسان مرتبط بالمادة مؤثرا في قوانين الطبيعة عائدا إليها من خلال إلغاء الغيب المطلق، إحداهما من خلال التمائم والتعاويذ، والأخرى من خلال تسطيح التمايز بين الله والإنسان والطبيعة[3] .

ففي السحر يعمل الساحر على إجبار القوى الخفية ويقهرها، بدل أن يعمل على استمالتها وإرضائها كما الدين، فالسحر يفترض أن كل الكائنات سواء أكانت كائنات بشرية أو إلهية تخضع في آخر الأمر لتلك القوى

1 – أوين ديفيز، السحر، مصدر سابق، ص9 .

2 – المصدر نفسه، ص103 .

3 – سعدون المشهداني، أثر النص المقدس في منظومة القيم، مصدر سابق، ص57 .

اللاشخصية التي تسيطر على كل الموجودات والتي يمكن لأي شخص أن يستميلها إلى صفه إذا عرف كيف يخضعها بالطقوس والتعاويذ الملائمة، وفي الحقيقة فإن ليس أمرا جديدا ففي مصر القديمة مثلا كان السحرة يدعون لأنفسهم القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم بل إنهم كانوا يهددون الآلهة فعلا بالدمار إذا لم يستجيبوا لهم كما هددوا في كثير من الأحيان ببعثرة عظام (أوزيريس) والكشف عن قضيته المقدسة إذا أظهر الإله شيئا من العناد أو التمرد.. وفي الهند نجد أن الثالوث الهندوكي الأعظم الذي يتألف من (براهما وفيشنو وسيفا) لا يزال خاضعا لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب[1] . ففي السحر جحود وكفر وتطاول على امتيازات الآلهة ... وفي هذا فإن السحر والعلمانية يتفقان، فالسحر كما رأينا تعبير عن الغرور الإنساني، حين يجسد اعتقاد الإنسان بأنه قادر بجهده الخاص على التحكم في ظواهر الطبيعة وإخضاعها، وبفضل ذلك يلغى التمايز بين الإنسان والغيب المطلق أو الإلهي .

وعجيب أيضا أن نرى نصوصا مقدسة تستعير رموزا سحرية للدلالة على السحر ولو على نحو غير مباشر، بعدما عهدناه من تحريم للديانات لظاهرة السحر من الإسلام إلى اليهودية فالمسيحية وكذا الزررادشتية ... ومع ذلك (نجد نصوص التوراة تصف أفعالا ودلالات سحرية.. فها هي الحية تأخذ مكانتها السحرية عند اليهود، وإذ هي أعلم بمقاصد الله الخفية منذ أول الخلق فكانت أكثر نصحا وأدق إرشادا (وقالت المرأة للحية... وأما ثمر الشجرة التي وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة لن تموتا، بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر..)) [2] ويستمر الأثر السحري للحية في العقائد اليهودية (فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية فكل من لدغ ونظر إليها يحيا، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى الحية يحيا) [3]، فلقد تحولت حية النحاس إلى قوة خارقة فاعلة تشفي من يصاب بلدغة الحية الحقيقية المميتة، ونلاحظ هنا حشو لغرض تبرير شرعية وجود الحية النحاسية، أو ليس الله القادر الذي أرسل الحيات لعقاب بني إسرائيل بقدرته وبأمره يوقف الحيتان عن الفعل؟ ! فلا حاجة لحية نحاسية...إلا لأن للحية قدسية خاصة، وبها تحولت إلى إله يعبد باسم (نخشتان) في بني إسرائيل...[4]

فكانت الحية أولى الرموز والدلالات السحرية، وتبعها الدم كإحدى الدلالات القوية أيضا، ومن الطقوس الدموية؛ طقس العهد بين الرب والشعب حيث جاء في سفر الخروج (وأرسل فتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران، فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في الطسوس، ونصف الدم رشه على المذبح، وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب، فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له،

---

1 - جيمس فريزر، الغضن الذهبي، مصدر سابق، ص177 .

2 - سفر التكوين (3-7، 9، 22)

3 - سفر العدد (21: 8-9)

4 - ينظر سعدون المشهداني، أثر النص المقدس في منظومة القيم، مصدر سابق، ص58- 59 .

وأخذ موسى الدم ورشه على الشعب وقال هو ذا دم العهد الذي قطعه الرب معكم) [1] إلى غير ذلك من الطقوس التي حوتها أسفار التوراة، كطقوس رش الدم حول الحضور وحول أركان المعبد.. والتي تصبغ صفة القداسة على الممارسات الدموية[2] .

وقد تلبث العهد القديم باستخدام الدم بغزارة تعيد إلى الذهن ذكرى الديانات البدائية الوثنية، فإذا ما قارنا ذلك المشهد في العهد القديم بهذا المشهد الدموي من ديانة الأزتيك : "بعد قطع رأس الضحية، أخذ الكهنة الدم المنبجس من العنق المقطوع في وعاء ورشوا الدم على تمثال الإلهة وعلى حيطان هيكلها" [3]، بل ونلتقي على صفحات العهد القديم بأنبياء اليهود وهم في حالات من الانجذاب، يبدو أنهم كانوا يصلون إليها باستعمال البخور والمخدرات، كما نجد في سفر من أسفار العهد القديم سلسلة من حيل سحرية مسجلة بمنتهى الجدية، منها حيل مغناطيسية، وحيل مائية..كما نقرأ عن عباءة إليا التي ورثها اليشع، ونقرأ عن قرني حديد صنعهما صدقيا بن كنعنة بالسحر لنفسه، وأن شمشون تمتع بقوى تجسد الاعتقاد البدائي السحري بأن مكمن القوة في شعر الرأس... [4] فإذا ما أمعنا النظر في كل ذلك أدركنا تماما أن تلك الطقوس الدموية المنبثة في العهد القديم ما هي إلا مضامين وأفعال سحرية هي من بقايا تراكمات وثنية أسفرت فيما بعد عن طقوس وشعائر ورموز دينية للديانة اليهودية .. إلا أن لتلك النصوص ذات العمق السحري أثرها في تفشي وتعايش ظاهرة السحر في المجتمع الحديث..

وذلك ديدن الأقوام والديانات كلما انحرفوا عن دين الله الحق إلا استحالت عقائدهم وعباداتهم إلى أديان شركية وطقوس سحرية، فـــ(كما أن اليهود لما انحرفوا فأعرضوا عن كتاب الله تعالى... أقبلوا على السحر، واتبعوا ما تتلوا الشياطين كما أخبارنا الله –سبحانه- { **وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** } (سورة البقرة الآية 101-102))5 وكذلك الأمر (في فجر التاريخ المسجل المكتوب حوالي (3000 ق. م) كانت الحضارات مثقلة بأفكار كثيرة عن أرباب وشياطين وسحرة مشعوذين كثيرين.. ومع تزايد خضوع الإنسان للسحر، تزايد عدد أربابه وشياطينه ...)6 .

---

1 - العهد القديم : سفر الخروج (24: 6-7)
2 - ينظر سعدون المشهداني، أثر النص المقدس على منظومة القيم، مصدر سابق، ص60 .
3 - شفيق مقار، السحر في التوراة والعهد القديم، مصدر سابق، ص137 .
4 - المصدر نفسه، ص8، وينظر سعدون المشهداني، أثر النص المقدس في منظومة القيم، مصدر سابق، ص61 .
5 - ينظر عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مصدر سابق، ج1، ص118 .
6 - كولن ولسن، الإنسان وقواه الخفية، مصدر سابق، ص163 .

وفي هذا العصر، عصر التقدم المادي... تزداد ظاهرة السحر نفوذاً وانتشاراً، فأكثر شعوب العالم تقدماً مادياً تجري فيها طقوس السحر على نطاق واسع وبطرق متنوعة كأمريكا وفرنسا وألمانيا، بل إن السحر قد واكب هذا التطور المادي، فأقيمت الجمعيات والمعاهد لتعليم السحر سواء عن طريق الانتظام، أو الانتساب، كما نظمت المؤتمرات والندوات في هذا المجال ... إضافة إلى ذلك فإن بلاد المسلمين – عموماً – تنتشر فيها مظاهر السحر وأنواعه بسبب ضعف الإيمان بالله تعالى، وظهور الجهل بأحكام الشريعة، وسذاجة الكثير من المسلمين وجهلهم بحقيقة هؤلاء السحرة1 .

يبين الدكتور (يوسف القرضاوي) خطورة تفشي الشرك في أوساط الأمة الإسلامية قائلا : "إن الذي أفسد الحياة وأضل الناس، ليس هو الإلحاد، فقد كان الملحدون الجاحدون لوجود الله قلة لا وزن لها طوال عصور التاريخ، إنما هو الشرك، الذي جعل الناس يعبدون مع الله آلهة أخرى، يزعمون أنها شفعاؤهم عند الله، وقد غدا هذا الشرك وكرا للكهانة والدجل، ومباءة للخرافات والأباطيل، والانحطاط بالإنسان من ذرا الكرامة إلى حضيض الهوان { **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** } (سورة الحج الآية 31)2 .

ويطرح عالم الأجناس البشرية (إيفار ليسنر) [3] في كتابه (الإنسان والإله والسحر) فكرة شاملة تعد تفسيرا لذلك تقول : "أن أسلافنا البدائيين قد اعتقدوا بوجود إله واحد، ثم انحطوا بالتدريج بسبب النفوذ الشرير لسحرة القبائل وساحراتها، وتحولوا إلى عباد لآلهة متعددة"4 ...

---

1 – ينظر عمر سليمان الأشقر، عالم السحر والشعوذة، ط4، دار النفائس، 1422ه، 2002م ، ص55- 68 .

2 – يوسف القرضاوي، الحياة الربانية بالعلم (تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة)، ط1، مكتبة وهبه، 1996م، ص55 .

3 – إيفار ليسنر : باحث تاريخي أمريكي وعالم الأجناس البشرية، من مؤلفاته : (الإنسان والإله والسحر)، و(الماضي الحي : حضارة تمتد سبعة آلاف سنة)

4 – نقلا عن كولن ولسن، الإنسان وقواه الخفية، مصدر سابق، ص157 .

الباب الثالث

المقاربات المعاصرة للظاهرة الدينية

الفصل الأول : الدين والتدين والواقع المعاصر: مقاربة معرفية نقدية

الفصل الثاني : الظاهرة الدينية والفكر الإلحادي المعاصر

الباب الثالث : المقاربات المعاصرة للظاهرة الدينية

تطرقنا فيما مضى لأهم الجوانب التي تناولتها الأنتربولوجيا الدينية في أولها، تلك التي اهتمت بأصول النشأة والماهية، وما يطرأ على الظاهرة الدينية من تبدلات وانحرافات في سيرورتها التاريخية والواقعية نتيجة ما يلحق بها أو يعلق من ظواهر تبدو دينية.. ، أما المقاربات الحديثة والمعاصرة للظاهرة الدينية فإنها تقود إلى الاهتمام بموقع الدين في السياق التاريخي الحضاري، وبكيفية التعبير عنه في الحياة إيمانا وعملا، وملاحظة ما ينشأ عن ذلك في الواقع الإسلامي أو الغربي ... وهو ما يهيء لفهم واقع ومصير الظاهرة الدينية وتجاذباتها أمام التيارات العلمانية والحداثية المعاصرة، إلى جانب موجات الإلحاد المادي التي تعلو حينا وتنحصر أخرى، وملاحظة ما هو دور العلم وتفسيراته، سيما أمام ما يروج له العلمانيين والملاحدة والفلسفة المادية من تعارض وصراع بين العلم والدين، مما يجر للإفصاح عن كلمة العلم الأخيرة إزاء مبادئ الأديان وأهمية الظاهرة الدينية .

الفصل الأول

الدين والتدين والواقع المعاصر : مقاربة

معرفية نقدية

المبحث الأول : التدين في الواقع الإسلامي المعاصر

المبحث الثاني : التدين في الواقع الغربي المعاصر

الفصل الأول : الدين والتديُّن والواقع المعاصر : مقاربة معرفية نقدية

تنتقل المقاربات الحديثة والمعاصرة للظاهرة الدينية من فهم (الدين) إلى سؤال (التدين) كنتاج لكيفية تنزيل مفاهيم الدين وحقائقه على الواقع، وما ينشأ عن ذلك عمليا على مستوى الاجتماع أو السياسة أو الأيديولوجيات المعاصرة.. ولا يستثنى من ذلك الواقع الفكري العربي المسلم أو الغربي، فلكل تجاذباته وتساؤلاته في سياقه التاريخي مع المسألة الدينية .

المبحث الأول : التديُّن في الواقع الإسلامي المعاصر

نستأنف هنا بمعنى أن الدين –لا شك– يختلف عن مفاهيم التدَيُّن، فالدينُ أصل ووضع إلهيٌّ، أو هو مجموعة التصورات عن العالم والوجود وما تسنُّه من تشريعات وتعاليم نتيجة تلك التصورات، أما التدَيُّن فيظهر لنا للوهلة الأولى أنه اجتهاد والتزام إنساني رغم أن نزعة منه فطرية، كامنة في النفس البشرية.. فإذا كان الدين جوهر الاعتقاد فالتدين هو نتاج الاجتهاد... مما يعكس لنا أنماطا وأصعدة للتدين نتيجة لمدى الاتصال والتفاعل مع مختلف أطراف الظاهرة الدينية وعناصرها وتأرجح ذلك بين المبالغة والتقصير والانحراف والجحود أو الجمود...

فنرى تنوع إنساني فيما يخص أنماط التدين.. تلك التي أخذت بناصية الناس إلى نواحٍ متباعدة ومصائر مختلفة أو متناقضة، منها ما يوافق الجوهر الإلهي للدين و يتسامى بالإنسان إلى سماوات رحيبة، ومنها ما يسلب هذا الجوهر العلوي معانيه ويسطح غاياته حتى تصير مظهرًا شكلانيًّ ا، ومنها ما يجعل من الدين وسيلة إلى ما هو نقيض له .. على الرغم من أنها كلها تدعي وصلا بالدين وأنها تجسد حقائقه، فما حقيقة التدين، وما تجلياته في أعماق النفس الإنسانية ومظاهر السلوك ؟

المطلب الأول : في سؤال الدين والتديُّن

تمثل الصيغة الثنائية (الدين/ التديُّن) أهم الإشكالات المعرفية للفكر الإسلامي المعاصر، لما ينجم عن هذه المفارقة أو المطابقة من آثار ذات بال في فهم الواقع الإسلامي لما يفضي إليه ذلك من تمييز لخصائص وأحكام لكل من الدين أو التدين، فكيف إذن يميز التدين عن الدين، وما أثر ذلك في رهانات الواقع الإسلامي، بل وما أثر ذلك على بنية الدين من باب أولى ؟

في بحثنا عن التدين في الأصل اللغوي؛ كان الملفت للنظر أنه (قبل القرن الرابع الهجري لم يوجد استخدام للفظ (تدين) و(متدين)، لأن الدين سمي باسمه لا باللفظ العام، إذ قيل عن الدين (الإسلام) وعن المؤمن قيل

(مؤمنا)، أما ما يسمى متدينا في عصرنا فسمي بكل وضوح (المسلم)) [1]... فلفظة التدين باعتبارها كلمة كثر النطق بها على ألسنة الناس في العقود الأخيرة و لم يكن هناك من تعامل معها في العصور السحيقة من صدر الإسلام، أو حتى ما بعد نشوء المعاجم اللغوية القديمة أو الحديثة منها في العصور الوسطى، كما أن كل من يمعن النظر في المشهد الثقافي أو الفكري المعاصر يجد أن هذه المفردة لم تشع على ألسنة الناس إلا في العقود المتأخرة، وبالتالي يمكن القول أنها حديثة الظهور في الفكر العربي، وليس لها رسوخ قديم في التعامل في أدبياته[2].

ذلك أن كلمة (تدين) بمعناها المتداول اليوم لم تكن لفظا مطروقا في المعاجم اللغوية بهذا الشكل المألوف الآن، وعند رجوعنا إلى (لسان العرب) أو كتاب (الصحاح للجوهري)، نلاحظ أن وزن التدين وهو (متفعل) يعني (كأنما يتفعل الشيء) يتخذه أو يتحلى به أو يتكلفه، هذا هو المعنى في اللغة، فالدين هو ما يتدين به الرجل، وتدين به (أي الدين) فهو ديِّن ومتديّن [3]، أما ما ورد في (لسان العرب) مثلا هو أن المرء حينما يتدين يتخذ الدين أو الإسلام ديانة له وهذا هو المعنى اللغوي العام ليس أكثر من ذلك، والتدين هو أن تتخذ هذا الشيء دينا لك[4] . وهذا يُرى بوضوح في المعاجم الحديثة؛ فكتاب (محيط المحيط) هو أول من رسم علاقة الدين بالتشدد حين قال (تشدد في أمره) (تدين بالإسلام اتخذه دينا)، وهو أول من استخدم التدين باعتباره التشدد، وهو مقتضى وزن (تفعّل)، [5] وهذا يرشد إلى شيء مهم جدا وهو أن أصل التدين بالمعنى المألوف لدينا اليوم ليس له نبع في صدر الإسلام من حيث التداول اللغوي أو المعرفي، فلم ينصرف معنى التدين لغير تحمل الإسلام أو غيره من الديانات واعتناقه ديانة وعقيدة، ولذلك فقد رادف معنى الإيمان و لم يعقل أن نجد للتدين معنى داخل منظومة المجتمع المسلم الواحد .

أما عن القواميس الحديثة المتخصصة فهي الأخرى محتشمة في معظمها للتطرق إلى مفهوم التدين، ما عدا ما ذكره (محمد عاطف غيث) من أن التدين هو "الاهتمام بالأنشطة الدينية والمشاركة فيها..أو هو الإشارة إلى مجموع السلوك والاتجاهات التي يحكم عليها باعتبارها دينية في جماعة أو مجتمع" ثم يستدرك صعوبة وضع تعريف دقيق للتدين- لينطلق مما انتهى إليه (جيمس فريزر) في حديثه عن تعريف الدين- فيقول : "إنه من العسير وضع تعريف عام للتدين طالما أن الأديان المختلفة تؤكد على سلوك متباين وقيم متنوعة، ولهذا يمكن

---

1 – عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي(الدين والتدين)، ط 1، بيروت : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ج1، ص228 .

2 – فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص184 .

3 – إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح، تح : أحمد عبد الغفور عطار، ط3، بيروت : دار العلم للملايين، 1984م، ج5، ص2119 .

4 – ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ص339 .

5 – بطرس البستاني، محيط المحيط، مصدر سابق، ص702 .

تعريفه إجرائيا في حدود درجة مشاركة الفرد في الطقوس الدينية" [1] ، وهنا يكون التدين هنا هو ذات الطقوس والسلوكات الدينية، مما يسقط جناح الإيمان من التدين .

وفي هذا الاتجاه يرى (كلود ريفيار) [2](Clod Riveire) في التدين بصفته عبارة عن تعبيرات للخبرة الدينية بأن له في نفس الوقت عدة أشكال منها ما هو في شكل تعبيرات نظرية (اعتقادات، مذاهب، أساطير)، وتطبيقية (طقوس، احتفالات، أفعال سحرية)، وسوسيولوجية (أنواع من الروابط الاجتماعية في وسط تنظيمات دينية)، وتعبيرات ثقافية (متغيرة حسب الأشكال الاقتصادية المهيمنة : دين المحارب، المزارع، البائع)، وتعبيرات تاريخية ما دامت تؤدي إلى تحولات للحياة الدينية من خلال الحقب والفترات الزمنية[3] .

فإذا كان الدين يجيئ بأمور الاعتقاد ويقرر التشريعات العامة، فإن التدين –في الغالب– يتشكل وفق أنماط اجتماعية تؤثر فيه وتتغير وفق أحوال المجتمع .. فللبعد الاجتماعي له دوره في التخلق بالدين.. الواقع الذي يلحظ في بلد تتعايش فيه طوائف دينية متعددة [4] . فالتدين يختلف وفق السلطة الدينية والمؤسسات الدينية والطائفية التي تعمل على إرسائه بشكله الظاهري خصوصا في الطقوس والمناسبات، ونتيجة ذلك تفشت مظاهر التدين وكثرت وتعددت .

وكظاهرة اجتماعية يعرف التدين بأنه : الالتزام بعقيدة دينية أو نحلة معينة وأداء فرائضها ومناسكها وطقوسها وشعائرها وكل ما يتصل بها من العبادات نحو المعبود المعترف به من هذا الدين أو النحلة، وما يترتب على هذا الالتزام الديني من تطبيقات تتصل بالشروط الدينية لكافة العلاقات والمعاملات في المجتمع [5]، فهو الكيفية التي يعيش بها الناس معتقداتهم الدينية في حياتهم اليومية، أو هو الأبعاد التطبيقية للمعتقدات الدينية والممارسات المرتبطة بها، أو قل هو الالتزام بتطبيق التعاليم الدينية والتقيد بأحكامها[6] .

وبمعنى الالتزام والاستقامة يقترب لنا مفهوم التدين في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لقوله تعالى {**فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** } (سورة هود الآية 112)، فالتدين هو الاستقامة على ما جاء به الإسلام من

---

1 – ينظر محمد عاطف غيث، قاموس علم الإجتماع، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2006م، ص352 .

2 – كلود ريفيار : Claude Rivière ولد في 1932م، كاتب فرنسي، وهو أستاذ فخري للأنتربولوجيا بجامعة باريس، درس العلمانية والسياسة في أوربا، من مؤلفاته : مقدمة في الأنتربولوجيا، الأنتربولوجيا السياسية، أنتربولوجيا الاجتماعية . (Presses Universitaires de France – PUF – http://www.puf.com)

3 – نقلا عن فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص185 .

4 – ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، تر: محمد علي مقلد، لبنان : مركز الإنماء القومي، ص16-17 .

5 – محمد القصاص، علم الإجتماع الديني، مصدر سابق، ص48 .

6 – عبد الغني منديب، الدين والمجتمع (دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب)، المغرب : أفريقيا الشرق، 2006م، ص7 .

تعاليم؛ أوامر ونواه، ولزوم ذلك قدر المستطاع "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم" [1] ما دام ذلك يتوافق مع ما وقر في القلب من حقائق للدين، وآمن به المرء معتقدا ثبوته وصحته، وهو عموما المواضبة على عبادته تعالى ما طال عمر الإنسان أو قصر حتى يلقى ربه على ذلك مقرا له بالعبودية التامة، لقوله تعالى {**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**} (سورة الحجر الآية 99)، وخلال ذلك يسخر الإنسان كافة طاقاته وإمكاناته ليله ونهاره، سره وجهره، راحته وتعبه، خفية وجهرا، سراءه وضراءه... حياته ومماته في طاعة الله متمثلا قوله تعالى { **قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**} (سورة الأنعام الآية 162) وليس ذلك إلا اقتضاء للغاية المحبوبة لله والتي خلق لها خلقه وأرسل رسله، وبها اصطفى من اصطفاه من خلقه وقربه قال تعالى {**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**} (سورة الذاريات الآية 56)، فالتدين هو أن يسخر المسلم أمره كله في طاعة الله وعبادته، ولكن ذلك لا يكون إلا بتزكية النفس على الدوام قال تعالى {**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**} (سورة الشمس الآية 10) لأجل أن ينوّر المرء قلبه وينشرح صدره، فينطلق بعدها لله فيشعر بطعم الصلاة والزكاة والحج.. وسائر العبادات والأعمال الصالحات.. هو طعم القرب كله والاتصال بالله .

وبناء على ما سبق يمكن القول إن التدين هو ممارسة الدين وتحويله إلى تطبيق عملي، وهو تعبير عن الممارسة الإنسانية والتطبيق البشري للدين، وهو لا يختص بدين معين كالإسلام مثلا، بل هو شامل لجميع الديانات، فهو مؤشر لمدى تمسك الإنسان بعقيدة معينة والالتزام بها في سلوكه ، نتيجة الإيمان بها والخضوع لها، يظهر ذلك في الأخذ بتعاليمها، والاستقامة على سننها وهديها ، وبذلك يتفاوت الناس في ذلك قوة وضعفا، بين التشدد والتوسط والتمرد . فالتدين هو التجربة العملية للدين، وإذا كان الدين يتضمن الإيمان فإن التدين هو تفعيل دور المؤمن في التعاطي مع هذا الإيمان، وإذا كان الدين يشير إلى تلك التصورات للعالم وللوجود فإن مفهوم التدين يحيل مباشرة إلى السلوك والممارسة التي تكون بمثابة تجسيد للدين باعتباره نسقا من الرموز المنظمة للعلاقة مع الله ومع الناس .

والعلاقة بين الدين والتدين (ترجع في أصولها النظرية إلى الثنائية الكلاسيكية بين الثابت والمتغير، الفكر والممارسة، المثال والواقع، الجاهز والمعيش، النهائي واللانهائي ، يفترض الانطلاق من هذه العلاقة أنها معطى بديهي يعيه العقل الإنساني في تعاطيه مع الدين من حيث التمثل والممارسة والتجربة، كما يتعاطى مع باقي

[1] – رواه البخاري ومسلم كلاهما عن أبي هريرة، حيث رواه البخاري في كتاب (الاعتصام بالكتاب والسنة)، باب (الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (6858)، ومسلم في كتاب (الفضائل)، باب (توقير النبي وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع) (1337)، وكذلك في كتاب (الحج)، باب (فرض الحج مرة في العمر) (2380) .

نشاطاته الوجودية الأخرى غير أن الواقع المعاصر عادة ما يطابق بين الدين والتدين)1، وعلى أساس طبيعة هذه العلاقة يميز بين الدين والتدين وتقدر المسافة الفاصلة بين هذا وذاك مما يفسر وجود أنماط عدة للتدين، ومن ثم ضرورة الاعتراف بالاختلاف والتمايز والتعايش المشترك ونسبية الفاعلية الإنسانية .

وقد اضطلع لإثبات هذه المفارقة كثير من الباحثين الذين أكدوا على التمييز بين الدين والتدين، على أساس المفارقة بين الثابت والمتغير في البنية الدينية ، وذلك من خلال مقاربة جدلية لل علاقة بين الدين والاجتماع، فالتداخل بين الديني والاجتماعي يلحظ دائما في سائر الديانات خاصة إذا نظر للمسألة من زاوية التدين (فمن ناحية حضور الاجتماع في الدين، فبصورة مباشرة حضور الاجتماع في بنية التدين من خلال احتواء النصوص الدينية على اختيارات تشريعية من بنية المجتمع القائم، فالدين لا يظهر إلا من خلال التجلي في الواقع الاجتماعي، كما أن الاجتماع بنية كامنة في الوجدان الفردي الذي يتمثل هذا الدين، يتلقاه ويعبر عنه ، إذ إن الدين كمضمون يخاطب الفرد لا يظهر إلا من خلال تجليات السلوك الإنساني الذي يتمثّله، والإنسان بحكم اجتماعيته ينبصم بطبائع اجتماعياته التي يعايشها، فهو حين يتمثل الظاهرة الدينية يجر معه إرثا اجتماعيا يسهم بشكل فعال في بلورة تصوره للدين، ما يجعله ينطبع بخصوصيات الذات، فيتحول إلى تدين ، فالاجتماع هنا يطل على الظاهرة الدينية من شرفات الفرد)2 .

ومن زاوية أولى جرى التأكيد على أن (الدين من حيث يقوم على مبد أ الوحي الإلهي، يرجع إلى مصدر مفارق للإنسان؛ أي أن له وجودا ذاتيا سابقا على حضوره في الاجتماع، ومن ثمة فهو فكرة كلية مطلقة ومتعالية، غير قابلة للتغير بفعل الاجتماع)3 فإثبات المصدر الإلهي للدين في ذاته، لا يعني إنكار حضور الاجتماع في البنية الدينية الكلية، فلأنّ الإنسان هو موضوع الدين ومجاله، سيعبر المطلق الديني عن ذاته من خلال التمثل في الواقع الاجتماعي 4. فلابد إذن من ضرورة التمييز بين الدين والتدين، إذ طالما ألف العقل المطابقة بينهما، وما يمكن قوله هو أن الدين على الرغم من ربانية مصدره إلا أنه لا يتجلى إلا من خلال الواقع الاجتماعي .

من هذه المفارقة نرى أن حقيقة الدين تختلف عن حقيقة التدين فالدين هو ذات التعاليم والتشريعات الدينية، أما التدين فهو الإسقاط لتلك التعاليم، وبالتالي فهو كسب إنساني، إلا أن التداخل الطبيعي بينهما يكون لأسباب كثيرة، فكان لزاما تحديد الأصول والثوابت من الدين الأصل عن متغيراته ... إلا أن القراءة النقدية

---

1 – ينظر يونس الوكيلي، إشكالية الدين والتدين (أسئلة مقاربات نماذج)، مؤسسة مؤمنون بلا حدود،2014، ص4 .

2 – ينظر عبد الجواد ياسين، الدين والتدين (التشريع النص الاجتماع)، ط 1، بيروت : التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م، ص6 .

3 – المصدر نفسه، ص5– 6 .

4 – ينظر المصدر نفسه، ص8 .

الواعية لثنائية الثابت والمتغير نبهت إلى العواقب الشائكة لفرضية التمييز بين الدين والتدين على أساس المفارقة بين الثابت والمتغير، فإزاء ذاك يكون التدين بأشكاله ما هو إلا وجه من المعارف الإنسانية توسم با لمعرفة الدينية، وككل المعارف (فهي بناء إنساني يتطور بالضرورة وباستمرار، بحسب الفهم المتغير للعالم، وهي بهذا تمثل الجزء التاريخي المتغير العرضي في مقابل ما هو ثابت لا يتغير وهو الدين في حد ذاته، فالمتغير هو الجزء المتجدد من المعارف عامة والدينية خاصة، لأنّها مصاحبة للتحول التاريخي للمعرفة وتقود بالضرورة إلى تغيير الفهم الإنساني له والمعرفة المرتبطة به [1]. فالمعرفة الدينية حسب هذا ليست إلهية بفضل تعلقها الموضوع الديني الذي تعالجه، بل هي تاريخية كأي معرفة بشرية .

وهنا مكمن الخطر والأثر السلبي (ففي الإسلام مثلا حيث ينظر إلى التشريع بأنه الشق المتغير من الدين، فإن مما ينجم عن هذا التمييز هو توطين التشريع بالتدين، وتحويل الشرع إلى مفاهيم سكونية تهدف لا إلى ضبط الواقع المعيش بل إلى التكيف معه، وهذا يملي خضوع الدين حتما لما هو بشري، مما يفضي إلى إضعاف الشرع المتراكم بتحويله إلى مفاهيم قاموسية، تجعل من آلية إسناد الحكم شكلاً مترسباً من الماضي، يمكن تجاوزه بإرادة تشريعية)2، وبهذا يؤول التشريع إلى عرض تاريخي متحول مما يؤثر على ثبات بنية الدين بنصوصه وأحكامه، ويخضعه لنسبية الزمان والمكان .

وذهب آخرون إلى مقاربة علاقة التدين بالإيمان، (فهل التدين شرطه الإيمان أو الإظهار، فالدين غير ممكن التصور من دون متدينين يمارسونه، والتدين ممارسة اجتماعية للدين، والمشترك بين الديانات كلها هو الاعتناق والتدين، أي أن بشرا يعتنقونها ويمارسونها عبادة، والإتباع والممارسة الظاهرية هي ما يسمى بالتدين، وقد يعتبر هذا المظهر الديني من باب التقاليد، وقد يتحول في حالات إلى هوية مشتركة، أو تعصب، أو طائفية، لكن في أي حال لا يقتصر التدين على الإيمان، فالحكم على شخص بأنه متدين يكون بممارسات محددة تظهر للعيان، وتجعلنا نسمي شخصا ما متدينا من دون أن نعرف باطن إيمانه، وتجري في الحياة اليومية محاولات مستمرة للتمييز بين المتدين المؤمن فعلا، أو المتدين مظهرا وتزمتا فحسب) [3] وفي ذلك قد يتقاطع الإيمان مع التدين أو ينفصل عنه، وربما قيس الإيمان بالتدين باعتباره الجانب المقيس من الدين، ومن ذلك ما نقف عليه من استطلاعات الرأي واستبيانات لقياس درجة التدين .

ومن الناحية النظرية ينبني التدين عموما على خمسة أبعاد :

---

1 – ينظر عبد الكريم سروش، القبض والبسط في الشريعة، تر: دلال عباس، ط1، بيروت : دار الجديد، 2002م، ص21 .

2 – ينظر مصطفى لافي الحرازين، ما هو التدين؟ قراءة نقدية في ثنائية الثابت والمتغير، ندوة علمية : الدين والتدين : مقاربات معرفية في الأنماط الاجتماعية للدين، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 5، 6 أكتوبر 2013، الرباط .

3 – ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج1، ص227 .

- البعد الأيديولوجي (العقدي) : أو المعتقد الديني، ويشمل المعتقدات التي من المفترض أن يتبناها المؤمنون 1، بطبيعة الحال في مستوى التدين لا يتعلق الأمر بالعقائد ومدى صدقها، وإنما بسلوك الاعتقاد في حد ذاته وبتجارب الأفراد تجاه عقائدهم2، وهنا تطرح مسألة كيفية تمثُّل المؤمنين لمعتقداتهم ومدى اختلافها، ولا شك أن الوضع يتسم بنوع من الصعوبة في عملية الرصد، إلا بما يستطاع ملاحظته من مدى انسجام الشخص وتمثله مع مجموع المعتقدات .

- البعد الطقوسي (التعبدي) : وتشمل الممارسات الدينية الخاصة كالتعبد والصلاة والمشاركة في الاحتفالات والمأدبات..أي كل الممارسات التي يفترض أن يمارسها المؤمن 3، والتي أنتجتها التجربة العقدية، فالبعد الطقوسي عبارة عن تجسيد وإثبات للإيمان بالبعد الأيديولوجي 4، فيلاحظ مدى تناغم المسلم مع تعاليم الدين والمداومة على ممارسة الشعائر التعبدية، والكشف عن نوعية السلوك التعبدي...كانضباط الحفاظ على الصلوات الخمس5 وهل هي جماعة في المسجد أم في البيت أو العمل..، ومدى حضور شعيرة الصيام في حياة

---

1 - Steven Eric Krauss, The Muslim Religiosity-Personality Measurement Inventory (MRPI)'sreligiosity measure- ment model, Pertanika : Sosial sciences and Human Sciences, 13 (2), 2005, p 131-145, 137 .

2 - طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، (تبرير للعلاقة الايجابية بين الإسلام وعلم النفس)، مجلة التشريع الإسلامي والأخلاق، ربيع 2014م عدد 65، ص76 .

3 - Steven Eric Krauss, The Muslim Religiosity, p 131-145, 137

4 - طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر مصدر سابق، ص76 .

5 - في مباشرة عملية الاستقصاء لاستطلاع معهد "بيو للدراسات والأبحاث 2011/ 2012م" (العالم الإسلامي بين الوحدة والتنوع : قراءة في واقع التدين في العالم الإسلامي)، في دراسته للحياة الدينية عند المسلمين في أكثر من 39 دولة، انطلاقا من عينة شملت نحو(38000) ألف مستجوب بتقنية الاستمارة وجها لوجه، إذ تمثل هذه العينة ما يزيد عن 67 دولة من مجموع المسلمين باستثناء (الصين والهند والمملكة العربية السعودية وسوريا) وللإشارة فالمسلمون يقدرون حاليا بحوالي 1,6 بليون نسمة، وعن فريضة الصلاة طرح السؤال بهذه الصيغة : هل تصلي الصلوات الخمس كلها؟ أم أنك تصلي فقط بعضها؟ فكانت النتائج التالية : سجلت منطقة الساحل وجنوب الصحراء أقوى النسب، حيث سجلت أعلى نسبة بدولة غانا (91%) أما بقية الدول فهي تتراوح نسبها مابين 90% و60%، مع تسجيل نسبة منخفضة لدولة موزنبيق (32%)، تلي هذه المنطقة من حيث الأهمية، منطقة جنوب شرق آسيا، حيث سجلت نسبة (75%) عن التايلاند من الذين يؤدون جميع الصلوات، وفي منطقة جنوب آسيا نجد أفغانستان تصل بها النسبة إلى (88%) وهي أعلى نسبة في هذه المنطقة، ثم بعد ذلك تأتي منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا،حيث تتدنى النسب العامة عن المنطقتان السابقتان، وتسجل أعلى نسب في أداء الصلوات كلها في العراق (83%) تليها فلسطين (69%)، أما في منطقة وسط آسيا فإن كازاخستان تسجل بها أدنى نسبة (2%) من يؤدون الصلوات الخمس، وهي نسبة جد ضعيفة وتؤشر على ضمور البعد التعبدي في حياة مسلمي هذا البلد

المسلمين، وكذا أداء فريضة الزكاة 1، وكيفية تأديتها بطريقة فردية أم غير ذلك، والنفير للحج، وتلاوة القرآن وحجم الارتباط به...

– البعد التجريبي : أو الشعور الديني، ويشير إلى الأحاسيس والإدراكات والمشاعر التي تصاحب فعل الاتصال بالله2، وهنا نصل مستوى الشعور والإحساس المصاحبين للقناعات العقدية والممارسات الطقوسية، وهي تجربة تختلف من دين لآخر ومن فرد لآخر، فأثر البعدين الأيديولوجي والطقوسي على الحالة النفسية للفرد يتأثر بمدى قدرة البعدين على الإقناع من جهة، وبمدى قابلية الفرد للاقتناع بالمعتقد والممارسة 3 وبهذا يدخل في البعد التجريبي مفهوم الانتماء، ومجمل المواقف تجاه الانضمام إلى جماعة أو مؤسسة ذات طابع ديني، أو أي تنظيم له صبغة دينية، أو أي تيار ديني كالتيار الصوفي مثلا ...

– البعد الفكري : أو المعرفة الدينية، ويشمل كل المعارف المتعلقة بالدين، والتي من المتوقع أن يكون المؤمن على دراية بها 4، ويمثل هذا البعد المعرفة الدينية التي يمتلكها كل فرد عن دينه، وهي مرتبطة بشكل أساسي بالنص الديني، وبأسلوب التعامل معه، والمعرفة الدينية مهمة ومفيدة للتجربة الدينية للفرد، من حيث أنها تقدم للفرد المعارف اللازمة حول الأبعاد الثلاثة الأولى، فمعرفة الفرد بدينه تساهم في تقوية معتقداته، وضبط ممارساته الدينية، وتفسر له تجربته الدينية، إذن يحدد البعد الفكري نوع المعتقد ونوع الممارسة، ويؤثر في البعد

الآسيوي الذي عانى من المد الشيوعي سنين عديدة.. أما عن حركية المسلمين تجاه المسجد لأداء الصلوات اللخمس فالنتائج : أكبر نسبة سجلت للمحافظة على الصلاة في المسجد جاءت من دول الساحل جنوب إفريقيا، فغانا مثلا عبر ما نسبته (83%) عن أدائهم الصلاة في المسجد أكثر من مرة في الأسبوع، وتأتي بعدها ليبيريا (75%)...وفي التصنيف الثاني، تأتي منطقة جنوب شرق آسيا، حيث سجلت نسبة (50%)، في أندونيسيا، ممن يؤدون الصلاة في المسجد أكثر من مرة في الأسبوع، أما بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا فقد سجلت الاردن نسبة (27%)... (تقرير مركز نماء للبحوث والدراسات 28 /01/ 2013م) .

1 – وعن فريضة الزكاة، فإن قراءة استطلاع معهد "بيو" في المقارنة بين المناطق والدول، تكشف أن أندونيسيا وماليزيا وتايلاند والمغرب وافغانستان تسجل أعلى المستويات ما بين 90% و98%، وتسجل منطقة وسط أسيا أضعف النسب ككزاخستان والتي عبر فقط (36%) عن تأديتهم لهذه الفريضة، وهو ما ينسجم مع النتائج الخاصة بأداء الصلاة ...في منطقة جنوب وشرق اوربا، تسجل النسب ضعفا، باستثناء البوسنة هيرزيكوفين حيث عبر ما نسبته (81%).. وباستثناء دولتي ماليزيا وباكستان اللتين تسهر الدولة على جمع وتوزيع أموال الزكاة، فإن غالبية الدول لا زالت تعتمد على قناعات الأفراد، وهناك بعض الحالات تعمل الجمعيات الدعوية في توزيع وجمع الزكاة سواء في مقرات الجمعيات أو في المساجد... (مركز نماء للبحوث والدراسات) .

2 - Steven Eric Krauss, The Muslim Religiosity, p 131-145, 137

3 – طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، مصدر سابق، ص76 .

4 - Steven Eric Krauss, The Muslim Religiosity, p 131-145, 137

التجريبي، خاصة مع اختلاف تأويلات النصوص الدينية، وهذا ما يؤدي إلى اختلاف أشكال التدين في الدين الواحد، أي أن شكل التدين يختلف من مؤمن إلى آخر بحسب فهمه وتأويله للبعد الفكري الديني 1 .

- بعد التبعات : أو الأثر الديني، ويشمل أثر الاعتقاد والممارسة والتجربة والمعرفة على الحياة اليومية للمؤمن 2، يتعلق هذا البعد بالنتائج التي يحصل عليها الفرد في حياته اليومية، خاصة بالنسبة لعلاقاته مع الآخرين، مؤمنين وغير مؤمنين3 .

وحسب تلك الأبعاد فللتدين أنماط وأشكال عدة، وفي حياتنا نلحظ أصنافا من الممارسات الدينية : فهناك ممارسات يومية كالبسملة والحمدلة والاستغفار والتعوذ والدعاء والصلاة، وأخرى موسمية ترتبط بعاشوراء وعيد المولد النبوي ورمضان وعيد الفطر والحج وعيد الأضحى، وثالثة ظرفية تتعلق بزيارة الأضرحة والشعائر الجنائزية والختان... 4 ونُعنى هنا حين ملاحظة أشكال التدين بالملمح الظاهري، ذلك أن الجانب الباطني (كالمتعلق بالنيات مثلا) لا يمكن رصده أو قياسه، وبذلك نهتم بما يرتب بالممارسات السلوكية للأفراد ويمكن طرح ما يلي كأنماط للتدين :

والمقصود بأنماط التدين هو أنماط الممارسة التاريخية، الفردية والاجتماعية للدين، وهي أنماط مختلفة تتفاوت في داخل الدين نفسه، كما تتفاوت تاريخيا وجغرافيا وثقافيا، كما تتفاوت طبقيا .. ومن ذلك :

- التدين المعرفي (اللفظي) : ويشار به إلى مستوى المعرفة لنصوص الدين والفهم لقيمه وأحكامه، دون التزام سلوكي أو ممارساتي لدى هؤلاء الأفراد لتعاليم الدين وأحكامه، ويوصف أصحاب هذا المستوى من التدين بالمتدينين غير الممارسين 5 . فهذه المعرفة مهما بلغت إلا أنها تتوقف عند حد الجانب العقلاني لا تتعداه إلى جانب الانفعال والعاطفة أو السلوك والفعل .

- التدين الطقوسي (الشعائري) : وعند هذا النمط من التدين تكون مجموعة المظاهر الخارجية هي المشكلة للدين والمتشكلة به، مما يعني الالتزام بالطقوس والعبادات وسائر الشعائر الدينية والمحافظة على المظهر المناسب، ولكن بدون معرفة كافية بحكمها وأحكامها، ودون أن نلمس عاطفة دينية تذكي المعنى الروحي لتلك العبادات والطقوس..مما يحيلها إلى عادات اجتماعية ليس إلا، ويخليها من الغاية والأهداف المنشودة لها6 .

---

1 - طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، مصدر سابق، ص77 .

2 - Steven Eric Krauss, The Muslim Religiosity, p 131-145, 137

3 - طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، مصدر سابق، ص77 .

4 - عبد الغني منديب، الدين والمجتمع، مصدر سابق، ص9- 10 .

5 - فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص186 .

6 - ينظر المصدر نفسه، ص187 .

– التدين الموسمي : وهذا النمط يدل على حالة المد التديني المرافق لأوقات وأزمنة معينة أصبح المجتمع يدركها ويتوقعها كشهر رمضان مثلا.. وبعض حالات الشدة والخوف أيضا.. مما يشير إليه حالة الالتزام الديني، دون أن يخفي ذلك تصنع أو تكلف من المتدين ..1

– التدين الانتقائي :كأن يقبل البعض على أداء بعض الشعائر والواجبات الدينية دون غيرها من شعائر ذلك الدين ولكن ذلك يرصد بشكل دائم ومستمر مما يميزه عن التدين الموسمي الذي يحتوي على فراغات زمنية دينية بعيدة2 .

– التدين المتكامل : أما هذا النوع فهو يعبر عن تغلغل الدين في دائرة المعرفة ودائرة العاطفة ودائرة السلوك، فإضافة إلى المعرفة الدينية يملك أصحابه عاطفة دينية، عادة ما تدفعهم للاستجابة لتعاليم الدين والإخلاص في السلوك... وهنا يكون الدين بكل مستوياته هو الفكرة المركزية المحركة والموجهة لكل نشاطات هذا الشخص الخارجية والداخلية، ونجد انسجاما للقول والعمل، وتوافقا بين الظاهر والباطن3 . وهذا التدين يوصف بالتدين الأصيل الذي تطمئن معه النفس، ويلجأ صاحبه إلى نفع نفسه وغيره، لما يجده من توافق ويشعر به من توازن ورضى .

وما أسلفناه من أنماط هو بحسب ظاهر الأداء والممارسة، لا حسب الدوافع أو الغايات .. ولا ما يتعلق بالمقاصد والنيات، ولا يمكن حصر أنماط التدين أو عدها ولا شك أن بعض أنماط التدين يتداخل مع الآخر أو يجتمع معه عند المتدين ذاته، فإضافة لما سبق نجد مثلا التدين النفعي (المصلحي) لأغراض نفعية خاصة، والتدين التفاعلي (نتيجة رد فعل معين) وغالبا ما يكون عقب التوبة أو حادث مؤثر.. وكذا التدين العاطفي؛ و في يبدي الشخص عاطفة جارفة وحماسا كبيرا نحو الدين، ولكن هذا لا يواكبه معرفة جيدة بأحكام الدين ولا سلوكا ملتزما بقواعده، وهؤلاء امتلأت قلوب أكثرهم بالإيمان، غير أن وعيهم بحقائق الدين وأساليبه ومقاصده تشوبه شوائب عدة، مما ينتج عنه تدين منقوص 4.. وهذا النوع ينتشر في الشباب خاصة حديثي التدين ، وهي مرحلة يجب إكمالها بالجانب المعرفي والجانب السلوكي حتى تنضبط ولا تطيش أو تتطرف أو تنمحي...فالتدين العاطفي تدين مبني على الحماسة وله عواطف جياشة تفجر الطاقات للعمل ولكن ربما يحيد بصاحبه عن جادة الصواب إن كان على غير هدى، مما يفضي إلى مسالك الغلو...

---

1 – ينظر فضيل حضري، مستويات الدين وأشكال التدين، مصدر سابق، ص187 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص188 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص188 .

4 – ينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص، ط1، بيروت : دار الشروق، 1414ه، 1994م، ص5 .

ولذلك عُدَّ للغلو غير نوع، بل أنواع عدة، وعرف (محمد عمارة) [1] الغلو بأنه : " تجاوز الحد، الذي هو الوسطية الإسلامية الجامعة لعناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة والمتناقضة.. أقطاب غلوى الإفراط والتفريط.."[2] ولذلك رأى للممارسة والسلوك الديني نوعين من الغلو : غلو إفراط؛ ذاك الذي يدير الظهر للدنيا وطيباتها، ويجعل التدين الإسلامي صورة من الرهبانية التي ابتدعها النصارى، والتي تعذب الجسد طلبا لخلاص الروح، وهناك على النقيض من هذا غلو التفريط في الالتزام بالشعائر والروحانيات، وإطلاق العنان للغرائز الحيوانية، دونما تهذيب..بينما حد الوسطية الإسلامية الجامعة في الممارسة والسلوك الديني، هو الجمع في توازن واعتدال بين الدين والدنيا، والدنيا والآخرة، وعمران الأرض وتزكية النفس، والاستمتاع بالطيبات الدنيوية الحلال، على النحو الذي يجعل هذا الاستمتاع الآتي سبيلا للسعادة الأخروية التي هي خير وأبقى.." 3 .

وكذلك هناك من رأى أنواعا للغلو بالنظر إلى العقلانية والنقلية، كمن يفرط (ويؤله العقل وينقل قدراته من النسبي إلى المطلق.. وينكر أن يكون الوحي والنقل علما أو مصدرا.. ويقابل غلو الإفراط هذا، غلو التفريط، وهو يتنكر للنظر العقلي، ويفرط في الاحتكام إلى نعمة العقل، التي هي جوهر الإنسان، ومعيار تميزه عن غيره من المخلوقات، ولذلك يكتفي أصحاب هذا الغلو بالوقوف عند ظواهر النقل... بينما رأى البعض أن حد الوسطية الإسلامية، في هذه العقلانية، هو الموازنة بين العقل والنقل، وجمع عناصر الحق والعدل منها معا، وذلك بالتأليف بين النقل الصحيح، والعقل الصريح، على نحو يكون منهاج (العقلانية المؤمنة)، التي تقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل بالنقل، نافية تناقض النقل والعقل ...)4

وبين (أبو حامد الغزالي) من أين يأتي هذا الغلو وأنكره قائلا : "..لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول.. ومن ظن وجوب الجمود على التقليد، واتباع الظواهر، ما أتوا به إلا من ضعف العقول وقلة البصائر، وأن من تغلغل في تصرف العقل حتى صادم به قواطع الشرع، ما أتوا به إلا من خبث الضمائر، فميل أولئك إلى التفريط، وميل هؤلاء إلى الإفراط، وكلاهما بعيد عن الحزم والاحتياط، بل الواجب المحتوم في قواعد الاعتقاد ملازمة الاقتصاد والاعتماد على الصراط المستقيم، فكلا طرفي قصد الأمور ذميم، وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر؟ أو لا يعلم أنه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر

---

1 – محمد عمارة : محمد عمارة مصطفى عمارة (ولد 27 رجب 1350 هـ / 8 ديسمبر1931) مفكر إسلامي، مؤلف ومحقق وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر القاهرة، له إنتاجا إعلاميا غزيرا من التحقيق والتأليف والدراسات والمقالات من مؤلفاته : معالم المنهج الإسلامي، الإسلام والمستقبل، الغارة الجديدة على الإسلام...

2 – محمد عمارة، مقالات في الغلو الديني واللاديني، ط1، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، 1424ه، 2004م، ص8-9.

3 – المصدر نفسه، ص8-9.

4 – ينظر المصدر نفسه، ص7 .

صلى الله عليه وسلم، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه في الخبر؟ وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟..هيهات لقد خاب وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل، هذا الشتات"1 .

ولذلك ذكر (محمد عبده) للغلو أنواعا ثلاثة :

- الغلو النصوصي : الذي يقف أهله عند ظواهر النصوص وحرفيتها، مغفلين النظر في مقاصدها والحكم التي نزلت لأجلها..يقول في ذلك محمد عبده : "إن الوقوف على ظواهر النصوص، دون التفات إلى ما تقتضيه أصول الدين، قد أثمر أناسا لم يكونوا للعلم أولياء ولا للمدنية أحباء "!

- والغلو المادي (الوضعي) : الذي يقف أصحابه عند العقل والتجربة وحدهما.. وفي مصادر المعرفة عند عالم الشهادة والواقع المادي وحده، فأدركوا ما وراء مدركات الحواس، فهم الذين قذف بهم الطيش والنقص في العلم إلى ما وراء ساحل اليقين .

- الغلو الباطني (الخرافي) : غير الشرعي الذي حول أهله التصوف من علم السلوك والتهذيب للنفوس إلى بدع وشعوذات وخرافات2، وفرطوا في الدنيا لحساب الآخرة، وفي الماديات لحساب الروحانيات، فاعتزلوا الدنيا بما فيها، وزهدوا في الطيبات المباحة، ناسين أنها الطريق إلى سعادة الآخرة . وهكذا نجد التطرف والغلو كنوع من أنواع التدين ذاك الذي يصحب أحد أنماط التدين فيصيبه بالمبالغة والتشدد، نتيجة التركيز على جانب واحد من جوانب الدين أو بعد واحد أو بعدين من أبعاد التدين... فلا يتعبد الله إلا به، أو لا يفهم الدين إلا من خلاله .

إلا أن الغلو الديني –ككل ألوان الغلو- قديم قدم الفكر الإنساني، والسلوك البشري الذي تحكمه وتوجهه الأفكار والمعتقدات والعادات..فمثل الذين يغالون بالإفراط بالالتزام بالشعائر كمثل النفر الذين عزموا على صيام النهار أبدا، وقيام الليل دائما، واعتزال النساء زمن النبي صلى الله عليه وسلم ... !3 ولقد جاء في

---

1 -- أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الإعتقاد، ط1، دمشق : دار قتيبة، 1423ه، 2003م، ص2- 3 .

2 - محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تح : محمد عمارة، ط 1، القاهرة : دار الشروق، 1414ه، 1993م، ج3، ص537 .

3 - ورد في صحيح بخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال آخر أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال : "أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني" .

الحديث النبوي نهي مجمل عن سائر أنواع الغلو في الدين بقوله صلى الله عليه وسلم "إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين" 1 .

وفي حدود التطرف الديني علينا ألا ننسى أن المسألة تظل نسبية، (تختلف تبعا لظروف كل شخص وظروف المناخ المحيط به، من حيث قوة التدين أو ضعفه، ومما يروى في هذا الصدد أن الإمام (أنس بن مالك) رضي الله عنه قال لمعاصريه من التابعين : "إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات" 2...فكثير مما ينكر على من نسميهم متطرفين مما قد يعتبر من التشدد والتنطع، له أصل شرعي في فقهنا وتراثنا تبناه بعض العلماء المعاصرين..ومن هنا لا نستطيع أن ننكر على مسلم أو نتهمه بالتطرف لمجرد أنه شدد على نفسه، وأخذ من الآراء الفقهية بما يراه أرضى لربه، وأسلم لدينه، وأحوط لآخرته...ولكن من غير المقبول أن يلزم غيره بتشدده، أو أن يتهمه في دينه، وإذا كان الإسلام قد أعطى غير المسلمين الحق بالاقتناع بالدين، فحري بنا أن نرسي ذلك الفهم في العلاقة بين أبناء ديننا في أمور فرعية ليست من الأصول في شيء) 3 . فالغلو أو التطرف الديني هو في النهاية سلوك بشري تحكمه وتوجهه الأفكار والمعتقدات والعادات، وأحيانا النفوس والطباع.. وإن كان أمره يظل نسبيا قد لا يمكن الجزم والبت فيه إلا ما كان شديد المبالغة على نحو يخالف أصل الدين أو تجاوز أثره صاحبه بالاعتداء على الغير أو المجتمع .

وما نصل إليه بعد هذا؛ أن مفهوم التدين يحيل مباشرة إلى السلوك والممارسة التي تكون بمثابة تجسيد للدين الجوهري، فهو مؤشر لمدى تمسك الإنسان بدينه والالتزام به يتجلى ذلك في الأخذ بتعاليمه ونصوصه، والاستقامة على سننه وهديه، وبذلك يتفاوت الناس فيه بين الرشد والتيه قوة وضعفا، تأرجحا بين التشدد والتوسط والتمرد .

المطلب الثاني : أنماط التدين في الواقع الإسلامي المعاصر

لا يمكن للتدين أن يطابق أصل الدين تمام المطابقة في عصرنا بأية حال – فذلك لم يتح إلا في مثل النبي صلى الله عليه وسلم – ذلك أن التدين فهم وكسب إنساني كما أسلفنا، وعليه فإن الزاوية بين الدين والتدين تضيق وتنفرج بقدر الالتزام بالدين الأصل، وبتباين الفهم الصحيح له، وبين الواقع... وفي الأمة الإسلامية مترامية

---

1 – روي مرفوعا عن عبد الله ابن عباس رضي الله عنه رواه النسائي، كتاب المناسك باب التقاط الحصى، ورواه ابن ماجه، كتاب المناسك باب التقاط حصى الرمي(3028)، والإمام أحمد .

2 – رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه في كتاب الرقاق، باب ما يتقى من محقرات الذنوب، وفي مسند الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين .

3 – ينظر يوسف القرضاوي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ط3، قطر : كتاب الأمة، 1982م، ص38-39.

الأطراف نرى أشكالا وأخلاطا للتدين الصحيح أو السقيم، تتمايز فهوماتها وأوليتاتها بالنظر لدين الإسلام، والمهم فإن الاهتمام بالتدين وبنيته قد طغى في واقعنا المعاصر وإن على حساب الدين، بتحويل عقائده وقيمه إلى طقوس صماء، ويزداد الأمر سوء إذا ما تحول التدين إلى دين، ونظر إليه باعتقاد الكمال والمطابقة، ولا شك أن ذلك مما يفضي إلى التعصب والتطرف أو الانحراف ... فداخل المجتمعات تتشعب الممارسات الدينية باعتبارها أنماطا تمثل الدين الإسلامي، وحتما أن كلاًّ من ضروب التدين يدافع عن تدينه فضلا على أنه يراه صحيحا أو الأنصع ... فما حال مجتمعاتنا مع المد الإسلامي المعاصر ؟

فمما يغلب على المجتمعات كافة التدين التقليدي (الموروث) وهو القائم على محض التقليد كما هو حال أغلب الناس، وهو ذاته التدين الذي تتمسك به المذاهب والطوائف جيلاً بعد آخر، وقد تختلط معه الأعراف الاجتماعية والبدع المختلفة ويتعبد بها كدين من دون تمييز ، وهو غالبا التدين الذي يتربى فيه الفرد منذ نشأته، وغالباً ما يستمر معه حتى الممات، وهو أحيانا قد لا يصيب السواد العام من الناس فحسب، بل يتسع ليشمل العلماء غالباً، فيكون العالم وليد البيئة التي نشأ عليها، إن كان سنياً فسني، أو شيعياً فشيعي، أو مسيحياً فمسيحي، وهكذا... ولذا فإن التدين الموروث يتلائم مع المجتمع الراكد [1] ولا يبالي المرء فيه غالبا بخطأ أو صواب تدينه إلا حرصا على آثار من سبقوه وحفظا لتراث آبائه ..وهو عادة يكون من وحي الظروف والبيئة الاجتماعية، وهو وإن كان يركز ويشدد على جانب المعتقدات والشعائر، مما يظهر في الاهتمام بالشعائر والمراسيم الدينية، والطقوس المذهبية التي ينبغي الالتزام بها بالكامل وغالبا ما يكون مقياس الالتزام فيه الشكل والمظهر المتعارف عليه للتدين، فهو لا يولي جانب الفهم للدين أو لمضمونه الروحي مما ينعكس على جانب السلوك والأخلاق .. وغيرها من آثار الدين والمعاملة .

وكذلك من أبسط مظاهر التدين وأكثرها في المجتمعات الإسلامية أيضا (التدين الشعبي)، ولقد اعتاد علماء الاجتماع على تعريفه بأنه : "تلك المعتقدات والممارسات الدينية التي تستقل نسبيا عن المؤسسة الرسمية، ويتمركز حول المزارات وأضرحة الأولياء والقديسين والصالحين ممن لهم أصول في التاريخ حول شخصيات أسطورية، ومن عناصره تدرجات القداسة، والتفسيرات الرمزية، وضعف العلاقة مع علماء الدين، والتشديد على شخصنة القوى المقدسة والوسطاء بين المؤمن والله" [2] وهو تدين بسطاء الناس الذين لا يتعاملون مع الدين كنسق أيديولوجي، ليرتكز هذا النمط من التدين بالأساس على التقيد بالفرائض الدينية واحترام الطقوس والتقاليد، والتفاعل مع العادات المحلية في كل بلد، دون أن يشكل خطة أو برنامجا سياسيا أو اجتماعيا ملزم التطبيق، وهو يتأثر بالحضارة والعادات والتقاليد ويختلف من بلد إلى آخر، لتأثره بالمكان أكثر من الزمان، على

---

1 - يحيى محمد، أنماط التدين، موقع فهم الدين http://www.fahmaldin.com/index.php?id=2231

2 - حليم بركات، المجتمع العربي في القرن العشرين (بحث في تغير الأحوال والعلاقات)، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م، ص449 .

خلاف النخب التي تتأثر بالزمان أكثر من المكان، وتميل الأدبيات إلى إضفاء السيولة على التدين الشعبي، الذي يمكن له أن يتعايش مع السلطات الاجتماعية والسياسية بمختلف مشاربها فهو أكثر تلقيا وفي الوقت نفسه الأكثر استمرارية رغم قلة فعاليته، والتدين الشعبي يظهر في ممارسات ومعتقدات ذات صلة مثل زيارة الأضرحة والسحر والجن والقرابين، وطقوس المرور كالختان..[1]

وفي مقابل التدين الشعبي نجد التدين السياسي، الذي يشكل خطة أو برنامجا سياسيا ملزم التطبيق [2]، فالتدين الشعبي هو السمة الغالبة للمجتمعات الإسلامية، وهو يختلف أو يتشابه حسب المناطق والأماكن، لامتزاجه بعادات وتقاليد شعوب ومجتمعات تلك المناطق والفئات ... فالتدين الشعبي هو السمة الغالبة للمجتمعات الإسلامية، وهو يختلف أو يتشابه حسب المناطق والأماكن، لامتزاجه بعادات وتقاليد شعوب ومجتمعات تلك المناطق والفئات ...

وقد يتغلغل داخل أوساط التدين الشعبي التدين الخرافي، وذلك حين تترعرع الأساطير والخرافات، أو يغالى في مراتب العلماء والأولياء والقديسين ومعارفهم ومعجزاتهم وقدراتهم الخارقة..، وخلاصة القول يلعب المخيال* الأسطوري والروائي التاريخي دورا مهما في هذا النمط من التدين..وتشتد وطأة هذا التدين إذا مزج بالتراجيديا الدينية، وأبلغ المعاني والروايات المأساوية المخزنة المرتبطة بالأحداث والمناسبات التاريخية الدينية المفجعة..3 ولهذا المخيال قدرة فائقة على التغلغل في الواقع والتأثير البالغ في الناس لما ينتجه من أساطير ورموز وصور مهولة ومؤثرة، وما يملكه من أساليب لغوية وخطابية جاذبة وسلوكات اللباس والهيئة.. يستجيب لها الناس عادة .

وعندئذ قد يلمع لنا من خلال تلك الأنماط الشعبية والخرافية والتراجيدية.. للتدين نمط روحي عرفاني للدين، هو (التدين الروحي وهنا يخوض المتدين تجربة روحية وجدانية محضة، يفهم فيها الدين فهما نفسيا شعوريا اعتمادا على التأمل الباطني، قد تكون أحيانا تجربة خصوصية فردية) 4 ويترعرع هذا النمط في ظل القضايا الروحية للدين، كطريقة الزهاد وأصحاب الطرق الصوفية .

---

1 – عزمي بشارة وآخرون، حول الخيار الديموقراطي : دراسات نقدية (مدخل لمعالجة الديموقراطية وأنماط التدين)، رام الله : واطن، ص114- 115 .

2 – المصدر نفسه، ص114- 115 .

* – المخيال : ويقصد به مخزن الصور والرموز والأساطير التي تختزنها الذاكرة الفردية أو الجماعية في ثقافة ما .

3 – ينظر محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، ج3، ص537، وينظر Malek chebel, L'Imaginaire arabo- musulman, sosiologie d'aujourdhui, parie : Presses unverstaires de France, 1993, p329 .

4 – ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج1، ص181 .

ومناهضة للتدين الخرافي أو التراجيدي، وحتى أحيانا التقليدي، قد يبرز لنا التدين العقلاني (وهو ما يمارسه المثقفون الدينيون عادة، وذلك بالابتعاد عن الخرافة والأساطير وسائر القراءات الأصولية..تماشيا مع الإنسان المعاصر، وجعل الدين مستساغاً من الناحية العقلية ، وحينها يقوم رواده بتأويل كل ما لا يتلاءم مع التطلعات العقلية الحديثة أو المعاصرة، إذ يجعل من الحاسة العقلية النقدية أساساً للتدين، فهو لا يتقبل كل ما ينسب إلى الدين إلا بعد عرضه على هذه الحاسة، فوظيفة هذا النمط من التدين هي عقلنة الدين ، وقد يمتد مفهوم التدين العقلاني ليصل إلى فكرة (التعقل الديني)، بمعنى ما يمكن إثباته منطقيا والدفاع عنه بممارسة نقدية، يبرز ذلك من خلال نظرة المتدين العقلاني للكون والوجود، وإدراكاته وفلسفته في الحياة وضبطه لنفسه، وكل ما يحيط به..)[1]

وقد تتبلور بعض أنماط التدين إلى تدين أيديولوجي، حاملا لقضايا وطنية أو قومية أو حزبية أو نهضوية أو إصلاحية ...(وقد قامت الحركات الإصلاحية الدينية تبشر بالعودة إلى قيومية التعاليم الدينية على سلوك المسلمين، حققت نتائج هامة في الإقناع بذلك، وحركت النفوس لأن تجعل من الدين السلطان الهادي في كل عمل، وأصبح ذلك ظاهرة متنامية في العالم الإسلامي، متمثلة فيما اصطلح عليه بالصحوة الإسلامية)[2] .

ومما يعزز التدين العقلاني أو الأيديولوجي.. نجد نمط التدين الفردي، كنمط حر ومنفلت من قبضة المؤسسات الاجتماعية، كما أن للتعميم الناجم عن وسائل الإعلام وانتشارها بما فيها الفضائيات والانترنت.. وما تحمله من التواصل والإعلام التفاعلي مما أفرز حيزا عاما جديدا خصوصا في أوساط الشباب ودشن نمطا مستجدا من أنماط التدين هو التدين الشبابي، وهو مختلف جذريا عن التدين الشعبي، منفلت من قبضة السلطة، ويتعامل الفرد مع الدين بشكل يختار فيه العرض الديني المناسب له من خلال مقاييسه الخاصة [3]، فوسائل الإعلام الحديثة بما فيها التفاعلية خاصة أتاحت نمطا جديدا للتدين يتسم بالحرية، والفردانية والاختيارية، يتعاطى فيه المتدين إيجابيا ويتعامل مع المادة الدينية التي يريد وبالكيفية التي يختار... بعيدا عن المؤسسات الأيديولوجية أو الطرقية والمراتبية ..

ويصور (محمد عمارة) جانبا من حال الأمة مع المد الإسلامي المعاصر قائلا بأن : "هناك مدا تدينيا، بما فيه المد الشعبي الذي يبحث عن الحلال والحرام فيما تكسب وتعمل وتمارس، وذلك هو أكبر شرائح التدين، وهناك شريحة العمل الخيري والتطوعي المتمثلة في الجمعيات الخيرية والإغاثية، وهي أيضا ثلة كبيرة، كما أن

1- ينظر مصطفى ملكيان، العقلانية والمعنوية (مقاربات في فلسفة الدين)، تر: عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، ط1، بغداد: مركز دراسات فلسفة الدين، 2012م، ص248- 260 .

[2] – عبد المجيد النجار، في فقه التدين فهما وتنزيلا، ط1، قطر : كتاب الأمة، 1410ه، ج1، ص19 .

3- ينظر هاني عواد، التدين الشبابي بوصفه نمطا منفلتا من المؤسسة الأيديولوجية، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية (تغير أنماط التدين في الوطن العربي،، قطر : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عدد6، م1، 2012م، ص77- 78.

هناك شريحة المؤسسات العلمية الإسلامية الذين يشتغلون بالفكر والثقافة الإسلامية، كما المؤسسات الفكرية الإسلامية والمؤسسات البحثية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وعدد كبير من المثقفين والمفكرين الذين يجتهدون في إطار الفكر الإسلامي والرؤية الحضارية ويدخلون صراعات فكرية...ثم هناك الحركات بمعنى التنظيمات الإسلامية، وهي أيضا ليست شريحة واحدة...ففيها مما يغلب عليه الجمود والتقليد، ومنها من اختار طريق العنف والغضب والرفض للواقع .. وبين هذا وذاك قطاع يسعى لالتزام الوسطية..."[1]

وإلى هنا يمكن القول أن أنماط التدين هي انعكاسات للفهومات البشرية لأبعاد الدين وجوانبه، وبمقدار تفاوت جوانب ومقادير ومستويات الالتزام بالدين يكون نمط أو شكل التدين المصاغ حسب التفاوت بين الأفراد وتمايزهم أو حتى بين البنيات الاجتماعية، فالاختلاف والتدافع سنة الله في خلقه ولها يرجع تعدد أنماط التدين على أساس المرجعية الإسلامية المشتركة غير أن ذلك لا يكون على إطلاقه بدون ضوابط شرعية تقيد إيمان الفرد وأفعاله، ولذلك فإن أنماط التدين قد تقترب من معايير الدين وقيمه العليا وقد تبتعد، وما هي في الأخير إلا تعبير عن حركة الدين وسريانه في المجتمع .

وكما تتفاوت أنماط التدين من فرد إلى آخر فلا شك تتفاوت من بيئة لأخرى (ولأن عالم الإنسان لا يمكن أن يستقر على نمط واحد من دون أن تدخل عليه أدوات تبدل أحواله وتعيد تشكيل بناه وهياكله، فإن التدين في سياقه التاريخي الاجتماعي ليس فوق التطور، لكونه أحد أهم أشكال التعبير الفطري عن وعي الجماعة الأهلية أو الأفراد، وبوصفه القوة العينية التي تتمظهر في أنماطها كل الصور الواردة إليها من الجوار الجغرافي والمحيط الثقافي والفضاءات القريبة والبعيدة) [2] . فطبيعة الظروف والأوضاع التي يعيشها الأفراد والجماعات لا شك تنعكس على أنماط التدين في كل ذلك، فهو يتأثر بالتحولات التي تشهدها الفضاءات الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية ... ومن جهة أخرى فإن ما يعيشه الإنسان من ظروف بيئية وعلاقات واقعية هي في الحقيقة ما يصنع نمط تدينه ويصيغه .

كما أن تغير أنماط التدين لا يكون بالضرورة ودائما نتاج تبدل العادات من الداخل، بل غالبا ما يعكس صورة آتية من خارج الغلاف المحلي الذي يعيش فيه الإنسان، فالتقليد في لحظة معينة يشكل نقطة ضعف تتمثل في الإعجاب والانبهار بالآخر، واستنساخ ما يمكن أخذه منه للتميز النسبي عن الجماعة الأهلية [3]. فالتدين الداخلي قد يكون معرضا للتقليد الآتي من الخارج خاصة في هذا العالم المفتوح شرقا وغربا .. فكما أن التدين عرضة للتقليد الخارجي فهو أيضا عرضة للتأثير والتأثر دائما بالآخر والأخذ عنه، وتلك مسألة طبيعية سواء

---

1 – ينظر محمد عمارة، الظاهرة الإسلامية، القاهرة : المختار الإسلامي، ص25– 26 .

2 – عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مدخل عام، مجلة : عمران (تغير أنماط التدين في الوطن العربي)، مصدر سابق، ص7 .

3 – المصدر نفسه، ص7 .

كان التأثر بالآخر بأخذ القشور أو اللباب،.. وهو كذلك معرض للاضطراب والاستفزاز والانفعال والتصادم إلى أن يبلغ مرحلة الاكتمال والاستقرار.. وأنماط التدين قد تتغير وتتبدل نتيجة التلاقح الناجم عن الاحتكاك..وتلك سنة الأمم والحضارات[1] . هذا عن حال الأمة مع المد الإسلامي وانتشار أنماط التدين، ولكن حسب سبرنا لأشكال وأنماط التدين بأغلب أنواعه وأبعاده فيمكن أن يصنف التدين صنفين أحدهما ظاهري والآخر جوهري ..

ـــ **أولا : تدين ظاهري (شكلي)** : فالتدين قد يظهر في أنماط عدة للسلوك منها البسيط المتمثل في المظهر الخارجي من اللباس، والشكل والهندام وغيره من الأشكال المظهرية، إلى أسلوب العيش والتعامل مع الآخر.. وقد يظهر في أبعد من ذلك بأن يأخذ أنماطا سياسية أو أيديولوجية أو اجتماعية يتمثل في جماعات وجمعيات ودعاوى تكون في الغالب مخالفة للمألوف ومناهضة له ... 2 والمهم فإنه تغلب على المتدين آثار ظاهرية توضّح مستوى قربه أو بعده من دينه ، ولا يخفى أن للتدين ظواهر يومية مرتبطة بعموم الناس كالصلاة واللباس، اختيار الشريك، القروض المصرفية..

والجدير بالذكر أن الإسلام كدين أولى ظاهر المسلم وشكله وهندامه وهيئته عناية ذات بال .. فمن صفات المسلم التي حرص الإسلام عليها أن يكون حسن المظهر والمنظر، كأنه شامة بين الناس، متميزاً في هيئته ولباسه وهندامه، أنيق الشكل من غير مغالاة ولا إسراف، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه قادمين على أهليهم وإخوانهم من سفر : " إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحُّش"[3].

كما نفر الإسلام من سوء المنظر لتأذي الناس منه فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً عليه ثياب وسخة فقال : "أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه؟ "[4] بل نجد الإسلام يحث على تخصيص ملابس لأيام المناسبات والالتقاء بالآخرين كالجمعة والأعياد، روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ما على أحدكم إن وجد أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته "[5]، وكذا قوله تعالى **{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}** (سورة الأعراف الآية 31).

---

1 – عمران، مدخل عام، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، مصدر سابق، ص10–12 .

2 – المصدر نفسه، ص7–8 .

3 – رواه أبو داود والحاكم عن النبي صلى الله عليه وسلم .

4 – رواه الإمام أحمد والنسائي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

5 – رواه مالك عن يحي بن سعيد في السنن الكبرى، كتاب الجمعة، وسنن أبي داود في كتاب الصلاة، وموطأ الإمام مالك في النداء للصلاة ، وفي الاستذكار في كتاب الجمعة، باب الهيئة وتخطي الرقاب واستقبال الإمام يوم الجمعة .

والجسم في نظر الإسلام يجب أن يكون وضيئا، والوضاءة شيء فوق الطهارة والجمال، وأنواع الغسل التي أوجبها الدين تجعل المرء ناصع الجبين أغر الوجه، ليس على الجلد درن ولا عرق، ولا كدر، ..والكلام يطول في سنن الفطرة وحقوق الجسد، وليس في ذلك ترجيح للجسد على اللب والقلب، ولكنه اهتمام بالشخصية الإنسانية كلها[1] .

فما يلاحظ أن اهتمام الإسلام بحال المسلم الظاهر إنما يتوافق مع الفطرة الإنسانية والطبيعة السوية كالستر والحشمة والحياء وجمال الهيئة واللباس وغيرها مما يتواطؤ عليه أسوياء البشر من الصفات الآدمية المميزة للإنسان عن سائر المخلوقات والتي منَّ الله بها على عباده مما يواريهم ويجمل هيئتهم قال تعالى **{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا}** (سورة الأعراف الآية 26)، والنعم والزينة والطيبات هي مما أباحه الله لعباده قال تعالى **{ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}** (سورة الأعراف الآية 32) ولكن كل ذلك يكون في حدود الاعتدال وبعيدا عن الإسراف والمغالاة والخيلاء[2] التزاماً بقوله الله تعالى **{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا }** (سورة الفرقان الآية 67) .

كما إن من تمام اهتمام الإسلام بمظهر المسلم ولباسه تنبيهه إلى بعض المحاذير والمحضورات من أن تدخل في مظهر المسلم أو مقتنياته كبعض اللباس والزينة والأواني والهيئات..كلبس الحرير والذهب للرجال مثلا[3]... ومجمل القول إن الإسلام صبغ متدينه بما يلائم الفطرة ويريح الطباع دون مغالاة ولا خيلاء ... ولذلك انتمى لهذا الدين من أجناس العالم كثير، من دون أن يشعروا في الالتزام به مشقة أو عسرا لابتناء شريعته على الوصف الأعظم وهو الفطرة ..فلم يجدوا في تعاليمه ما يخالف فطرتهم وجبلتهم الإنسانية 4

---

1 - محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ط7، مصر : نهضة مصر، 2005م، ص40 .

2 - حديث عَمْرو بن شعيب عن أَبيه عن جَدِّه - رضيَ اللهُ عنهم- أَنَّ رسول اللهِ - صلَّى الله عليه وسلم - قال: "كلوا واشربوا، والْبسوا وتصدّقوا، في غيرِ إسراف ولا مخيلة"، رواه البخاريّ معلقا مجزوما به، ووصله جمع من الأَئمّة ، وجاء في رواية ابْن ماجه: (كلوا واشربوا، وتصَدّقوا والبسوا، ما لم يُخالطه إسراف أَو مخيلة)، وزاد أَحمد في رواية: (إنَّ اللهَ يحِبّ أَن ترى نعمتهعلى عبده)، والحديث أورده البخاري في كتاب اللباس .

3 - من ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم الوارد فيما روى أبو داود والنسائي عن علي رضي ا لله عنه قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حريراً فجعله في يمينه، وذهباً فجعله في شماله فقال "إن هذين حرام على ذكور أمتي"، وكذلك ما روى الشيخان عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "لا تَلْبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشْرَبوا في آنيةِ الذَّهبِ والفِضَّة، ولا تأكلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا- أي الكفار، ولنا في الآخِرةِ" رواه البخاري (5426) واللفظ له، ومسلم (2067)

4 - ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، قطر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425، 2004م، ج3، ص176- 187 .

ومما يملكه المسلم كذلك من صورته الظاهرة أخلاقه؛ والأخلاق الحسنة هي كذلك مما يقره العقل ويوافق السجية أيضا من سائر شمائل المروءة والبر والإحسان والعدل، بما تشهد الفطرة بسلامته وحسنه، ولذلك أخبر عليه الصلاة والسلام أنه "بعث ليتمم صالح الأخلاق" [1] لما كان عند العرب من أحسن الأخلاق وصالحها وبيان ما ضلوا عليه بالكفر أو خلط بالجاهلية مما تبقى من شريعة (إبراهيم عليه السلام) والأنبياء من قبل.. [2] فالعناية الحقيقية فجر الإسلام كانت بحسن الخُلق وليس بإظهار نمط جديد لهيئة المسلم الظاهرة ، وفي الحديث، قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم "[3]، والمتأمل في حاله –عليه الصلاة والسلام– لّما بُعث في الناس، علم أنه لم يخالف ما عليه قومه في لباسهم وهيئاتهم وعاداتهم في الزواج والضيافة والترفيه وغيرها إلا ما نهي عنه، وإنما وافقهم في المظهر العام في الغالب، واهتم بإضفاء السلوك الحسن على أفعالهم، وبشكل متدرج لا عنف فيه أو تهديد [4] . فإن كان هناك التزام شكلي في الإسلام فهو بما يوافق الفطرة ويمتثل للأخلاق السوية، وليس الغرض هو إظهار نمط شكلي جديد يختص بالمسلم في هيئته الظاهرة .

ولفرط التمظهر في عصرنا أصبح اللباس وما يوضع على الرأس من عمائم وقلنسوات وكذا العباءات... شكلاً من أشكال ال تعين باختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها ومقاساتها وكيفية لبسها !، وامتزج ما هو اجتماعي صِرف أو موروث ثقافي بما هو ديني ، ومع التقادم أضحى اللباس من موروث اجتماعي وثقافي إلى مظهر يحمل رمزية مقدسة لارتباطه بأحد مظاهر التدين الطائفية أو المذهبية، أو لاختلاف المناصب والهيئات كالعلماء والقضاة والفقهاء... ولم يُكتفَ بذلك، بل أصبحت هناك معالم للتدين تظهر على هيئة عالم الدين أو

---

1 – أخرج أحمد من حديث أبي هريرة مرفوعا بإسناد حسن (إِنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ صَالح الأَخلاق)، وفي رواية إِنَّما بُعِثتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأَخلاق)، والحديث كما أخرجه أحمد (2: 31) والبزار، أخرجه البخاري في الأدب المفرد (78)، والحاكم في المستدرك (2: 613)، والبيهقيي في الكبرى (10: 192) ... وقال الحاكم : هو صحيح على شرط مسلم .

2 – ينظر محمد الخرائطي، مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، تح : عبد الله بن مجاش الحميري، ط 1، الرياض: مكتبة الرشد، 1427ه، 2006م، ص129- 130 .

3 – أخرجه مسلم (8: 11)، وابن ماجه (4143)، وأحمد (2: 539)، والبيهقي في الأسماء والصفات..عن أبي هريرة مرفوعا .

4 – ينظر محمد الترمذي، الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تح : سيد بن عباس جميلي، ط 1، مكة المكرمة : المكتبة التجارية، 11413ه، 1993م، ص47- 56 .

رجل المذهب.. ، بخلاف العامي، والتاجر بخلاف العالم أو الطالب أو العامل... حتى أمكن استخلاص الدلالات الدينية والرتب حسب اللباس وعلاقته بالتمذهب والتراتب الديني1 .

وتطورت ألبسة النساء وألوانها وما يضعنه من حجاب وفق البيئات واختيارات المجتمع، وهذه الأحوال بدت وكأنها سمتٌ نصت عليه الأديان بشكل تفصيلي لا خلاف فيه ، كما أن هذه التنوعات الاجتماعية التي تلقتها الشعوب كمظاهر خارجية للفرد تمكنت لتصل أعماق التصورات الدينية وتصقلها، وأصبحت من أولويات الوعظ والتوجيه والإفتاء حتى ملأت تفصيلات الحجاب وكيفية لباسه والخلاف فيه مباحث الكتب الفقهية والدينية، وشكلت حضورا بالغ الأهمية في الخطابات الإسلامية والأيديولوجية.. ويتفاقم الوضع إذا ما دعت الخطابات الإسلامية إلى تمييز المسلم الملتزم عن غيره من بقية المسلمين، من خلال أولويات أحكام الهيئة الظاهرة، الأمر الذي تجلى في المنشور والمتداول من الفتاوى بحيث يرتكز بشكل مبالغ فيه على حرمة الإسبال أو حلق اللحية أو الأخذ منها، وحرمة سماع الموسيقى، وحرمة الاختلاط، وكشف الوجه للمرأة وحرمة التدخين وغيرها من مسائل فقهية فروعية إلى مَعلَم للهوية الدينية الجديدة لا يُتنازل عنه أبداً... 2

وبهذا المفهوم يختزل المجتمع إلى فئتين متدينين وغير متدينين، حين ينظر إلى المتدينين بأنهم أناس يلفهم الدين ويلتفون حوله، وإلى أناس آخرين بعيدين عن المعتقدات والممارسات المرتبطة بها، وكل ذلك وفق المظهر الخارجي، وهنا كذلك يتجاوز المظهر الخارجي معنى المظهر الجسدي، ليشمل كل التمظهرات المرتبطة بالشكل الخارجي للأفراد ويمتد ليشمل الطريقة الإرادية التي يجسد بها الجسد نفسه، ويريد أن يقدم بها ذاته للآخرين ..فلا يتوقف الأمر عند الزيّ واللباس، بما يكشفه أو يخفيه، أو ما يرتبط بذلك من حلاقة الشعر واللحى أو الاحتفاظ بها ..3 وكل ذلك مما يدفع إلى التمظهر دفعا، ومما يترتب عليه زيف التدين والاهتمام بالظاهر على حساب الباطن .

---

1 – ينظر بومدين بوزيد، اللباس الديني ..الرمزية المعرفية والاجتماعية، مجلة الدوحة (الثياب ..بيوت وشبابيك)، عدد 66، أفريل 2013م، الدوحة : وزارة الثقافة والفنون والتراث، ص 42- 43، وينظر سلمان الظفيري، علماء الشيعة والنسب الهاشمي، مجلة البيان، عدد رقم 173، محرم 1423ه، أفريل 2002م .

2 – ينظر حسن رشيق، المعرفة المشتركة في حياة الناس اليومية : اللباس والتدين، مجلة عمران، عدد 6، 2012م، قطر : الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص 85- 95- 96، وينظر بومدين بوزيد، اللباس الديني ..الرمزية المعرفية والاجتماعية، مصدر سابق، ص42- 43 .

3 – ينظر عبد الغني منديب، التدين والمظهر الخارجي في الوسط الطلابي المغربي : مقاربة سوسيولوجية، مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية، عدد2، 2012، قطر : الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص 100، وينظر Ev ERVING GOFFMAN, THE PRESENTATION OF SELF 1 IN EVERYDAY LIFE, University of Edinburgh Social Sciences Research Centre, 1956, p132 .

وإذا كانت العبادات والشرائع هي آكد ما حرص الإسلام على إرسائه وسنّه، وأن الإسلام قد بني على فرائض خمس، الشهادة والصلاة والزكاة والصوم والحج ...،إلا أن هذه الفرائض الخمس ليست كل الإسلام، وإنما هي أساس البناء الشامخ الذي يمثل الإسلام، فا لأساس لا يغني عن البناء، كما أن البناء لا يقوم بدون الأساس، إلا أن لكل فرائض الإسلام غايات ومقاصد قيمية وأخلاقية، تدور كلها حول تزكية النفس، وإقامة الصلاح في الأسرة والمجتمع والدولة التي تحرس القيم الفاضلة التي أتى بها الإسلام ، فلا يعقل أن يختزل البناء في الأسس وذلك بتدين شكلي أو مغشوش، يكتفي صاحبه من التدين بالطقوس الشكلية، مع إهمال القيم والأخلاق، التي هي المقاصد الحقيقية للعبادات، والروح الحقيقية لشعائر الإسلام [1] . فلابد من الاعتراف بأن فقه العبادات، وجوانب من فقه المعاملات اتسع في الأمة الإسلامية اتساعا أكثر من اللازم، وأن الاستبحار التشريعي كان أكثر مما يطيقه الفرد المسلم أو الجمتمع المسلم، وقليل من هذا كان يكفي الناس[2] .

يعبر الشيخ (يوسف القرضاوي) عن هذا الوضع قائلا : "الحق أن فقه الأحكام الفرعية العملية المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا ومعايش الناس، قد شغل من حياتنا وفكرنا وجهدنا حيزا كبيرا، خواصنا وعوامنا، لهذا الفقه أنشئت المجامع المحلية والعالمية، وعقدت الندوات والمؤتمرات المتخصصة، وأنشئت الكليات والأقسام، وألفت الكتب ما بين مبسوط ووجيز وبسيط..هذا بالنسبة للخواص، وبالنسبة للعوام، فقد شغلوا أنفسهم وشغلهم علماءهم بالجزئيات والتفصيلات، بل التعقيدات، حتى غدا باب الطهارة يدرس للجمهور خلال شهر رمضان كله، ثم لا ينتهون منه..هذا وقد كان الرجل يأتي النبي صلى الله عليه وسلم من باديته، فلا يمكث إلا يوما أو أياما، ثم يعود إلى قومه، وقد فقه دينه بالرؤية والمشاهدة ..(صلوا كما رأيتموني أصلي) [3].. ليس معنى هذا أن نهمل فقه الأعمال الظاهرة..ولكن التوازن بين الظاهر والباطن مطلوب .."[4]

والعقائد في الإسلام أقل كما وكيفا من الكتب التي تعرضها، ومجادلات الفراغ التي حفت بها والتي شعبت قضاياها دونما سبب..وهي تستفاد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في وقت قليل، المهم أن تتشبث بالقلب، وتتحول إلى قوة دافعة، ونور يضيء الطريق...وكذا العبادات وعلومها ليست بحرا طامّا لا

---

1 – ينظر محمد عمارة، الإصلاح بالإسلام (معالم المشروع الحضاري لمحمد عبده)، ط 1، القاهرة : شركة نهضة مصر، 2006م، ص18 .

2 – محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص100 .

3 – أورده البخاري في صحيحه عن محمد بن المثنى عن عبد الوهاب في كتاب أبواب صفة الصلاة، باب التسليم، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ" وأخرجه أصحاب السنن بسند صحيح..

4 – يوسف القرضاوي، الحياة الربانية بالعلم، مصدر سابق، ص21– 22 .

ساحل له، إنها في ديننا سهلة الفهم والأداء، وما كان سلفنا العظيم كذلك قط، كان يتعلم دينه في ساعات قلائل ثم يشق ميادين الحياة به مستنبطا روحه، منطلقا إلى أهدافه في جد وصدق...[1]

فللدين أبعاد مختلفة تستوعب جوانب الإنسان والحياة، وقد يهتم بعض المتدينين بناحية معينة من الدين ويعتبرونها الأهم فيه، وأنها تشكل عمقه وجوهره،كأن يركز البعض على الجانب العقدي ويولون قضاياه ومسائله الأهمية القصوى، باعتبار أن العقيدة هي الأصل والأساس، بينما يوجه آخرون عنايتهم نحو شعائر الدين وعباداته، كالصلاة والصيام والحج والزكاة.. لما ورد فيها من النصوص.. ويؤكد بعض على محورية تطبيق أنظمة الإسلام وقوانينه في إدارة المجتمع، لأن أسلمة الحياة العامة تجسد حاكمية الدين ونفوذه.. وكل تلك الأبعاد مهمة وأساسية..[2] إلا أن جانبا واحدا منها أو اثنين ما كان ليكفي أبدا لإقامة الدين .

فزيف التدين اليوم مؤشر على العزوف المعاصر عن الدين وجوهره النقي، فلا يستغرب أن هناك من خرج من الدين كله بسبب سوء توظيف هذا الشكل، وكما يقول الشيخ (الغزالي) : "إن انتشار الكفر في العالم يحمل نصف أوزاره متدينون بغضوا الله إلى خلقه بسوء صنيعهم أو سوء كلامهم..وما ارتاب فإن الشيوعية ما راجت في أوربا وغير أوربا إلا لأن الأحبار والرهبان أيأسوا الكادحين من عدالة السماء، وسدوا في وجوههم أبواب الرحمة، فاتجهوا إلى السراب يحسبونه العباب" 3، ولهذا يصف خطورة التدين المغشوش بأنه : "أنكى بالأمم من الإلحاد الصارخ" [4] وما حكمة النهي عن الغلو في الدين إلا لما يؤدي إليه من التعسير والتنفير [5]، فيفسد المرء بتدينه من حيث لا يشعر، ومما أثبته الواقع أنه ما من غلو إلا قوبل بغلو مثله، وما من إفراط إلا عارضه تفريط نظيره أو أعتى منه، ولأجل ذلك تفرقت الفرق بين مشبه ومعطل، وبين جبر وقدر، ومثبت ومرجئ، وبين التنزيه والإثبات، والوعد والوعيد... [6] وكل ذلك ليس إلا من استزلال الشيطان .

والمبالغة في الأخذ بجانب واحد من جوانب الدين مما قد يفضي إلى ما يناقض الدين ذاته من أحكام وحتى أصول، فما الذي (قاد أهل الكتاب إلى الكفر بالوحدانية وإلى إشراك المسيح في الربوبية مع الله تعالى إلا غلوهم في تعظيم المسيح عليه السلام، مما جرهم إلى عبادته مع الله، وهو عبد لا يملك لهم من دون الله ضرا ولا نفعا قال تعالى {يَا **أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ**

---

1 – ينظر محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص27 .

2 – ينظر حسن الصفار، التدين بين المظهر والجوهر، ط1، السعودية : دار أطياف للنشر والتوزيع، 2012 م، ص19 .

3 – محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص35 .

4 – ينظر المصدر نفسه، ص35 .

5 – ينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص، ط1، بيروت : دار الشروق، 1414ه، 1994م، ص207 .

6 – ينظر عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق (وبيان الفرقة الناجية منهم، عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها)، تح : محمد عثمان الخشت، القاهرة : مكتبة ابن سينا، ص40- 198 .

مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ } (سورة النساء الآية 171)، فغلو الإفراط، هو الذي أخرج أصحابه من النصارى عن حقيقة التوحيد والتنزيه للذات الإلهية، وكذلك حمل غلو التفريط اليهود لأن جعلهم قتلة الأنبياء ومصورين لهم فيما كتبوه بأيديهم بصور لا تليق بالبشر الأسوياء فضلا عن الأنبياء المعصومين... معتقدين خلال ذلك كله أنهم أبناء الله وأحباؤه بصرف النظر عن الصلاح والتقوى والامتثال لأوامر الله ...[1]

ومما يشبه ذلك أيضا يومنا (ما تشهده الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي من ألوان الغلو في النظر إلى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، غلو إفراط في التعظيم والتقديس، حتى أضفى هذا الغلو على بعضهم عصمة فاقت عصمة الأنبياء والمرسلين..أو غلو تفريط قاد أصحابه إلى القدح في العديد من الصحابة، بلغ أحيانا حد الإخراج من الدين)[2]، وإلى هذا اللون من الغلو أشار (أبو حامد الغزالي) : "اعلم أن للناس في الصحابة والخلفاء إسرافا في أطراف، فمن مبالغ في الثناء حتى يدعي العصمة للأئمة، ومنهم منهجهم على الطعن، يطلق اللسان بذم الصحابة، فلا تكونن من الفريقين، واسلك طريق الاقتصاد في الاعتقاد .."[3]

وفي المقابل قد يمهد زيف التدين للغلو والتطرف داخل الدين وباسمه، إذا ما تصدر الدين من يحتكر صورته ويحصرها في نمطه بخلق صورة نمطية للتدين تختزل الإسلام في مظهر خارجي معين غالبا ما يركز على مكون من مكونات الدين أو أحد أبعاد التدين ووظائفه كالتركيز على الجانب العقدي، أو النصوصي، أو الطقوسي التعبدي، أو الباطني الروحاني ... تتحقق بصورتهم النمطية تلك، الانتماء للدين من عدمه، أو على الأقل اعتبار أنه يمثل الأقرب أو الأكثر سدادا.. فيغتر بغلو العناية بالظواهر الشكلية خاصة إذا ما اقترن ببالغ الزهد والعبادة، (ولمثل هذا الأمر نبه النبي صلى الله عليه وسلم، ومثل ذلك هو مما أغرى الناس زمن الخوارج على اتباعهم لما رأوا من زهدهم، واجتهادهم في العبادة) [4] ... فقد بلغ عنهم أنهم (أهل صلاة وصوم، قرحت

---

1 - ينظر محمد عمارة، مقالات في الغلو الديني اللاديني، مصدر سابق، ص10- 11 .

2 - محمد عمارة، مقالات في الغلو الديني اللاديني، مصدر سابق، ص12 .

3 - أبو حامد الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، مصدر سابق، ص139 .

4 - جاء في سنن أبن ماجه في المقدمة، وفي صحيح مسلم في كتاب الزكاة، باب الخوارج شر الخلق والخليقة (1067) عن أبي ذر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن بعدي من أمتي أو سيكون بعدي من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه هم شر الخلق والخليقة" ، وأخرج البخاري في صحيحه (3610) عن أبي سعيد الخدري (أتاه ذو الخويصرة ، وهو رجل من بنى تميم ، فقال : يا رسول الله ! اعدل ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ويلك ! ومن يعدل إن لم أعدل ؟ قد خبت و خسرت إن لم أعدل "، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ! ائذن لى فيه أضرب عنقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، و صيامه مع صيامهم، يقرأون القرآن، لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ..." .

جباههم من أثر السجود، ولكن لم يخل اندفاع تدينهم من تعصب في الرأي وضيق الأفق وحمل الناس على آرائهم بالعنف والقسوة) [1]، فاختزلوا الإسلام في السيف والدولة والحكومة والسلطان، فتنكبوا –رغم شرف المقاصد– نهج الإسلام في التغيير، وصناعة الإنسان الصالح السوي ...[2]

فزيف التدين والمبالغة في التمظهر أو الاعتداد بأحد أطراف هذا الدين..كل ذلك مما يصد عن دين الله ويسلب جملة، أو يجعل منه دينا غريبا مجهولا لدى أبنائه أولا ثم لمن أراد أن يتعرفه، وذلك إذا ما غاب العقل المسلم والضمير المسلم، والخلق المسلم، وبالأحرى الجوهر المسلم.. فأنى يكون تدينا إذا ما كانت حياتنا الخاصة والعامة بعيدة عن جوهر الدين، وغاياته العظيمة ! ؟ وخلاصة فلا غرو أن لظاهر المسلم وهيئته نصيبه في الدين الإسلامي، إلا أنه مظهر ينبئ عن جوهر، يدخل في إطار تحقيق الغايات والمقاصد العامة للدين، لا أن يكون الشكل الظاهري غاية لذاته .

– **ثانيا : تدين جوهري (حقيقي)** : جاء عن (إريك فروم) : "إن دينا بعينه، طالما هو قادر على تحريك السلوك، ليس مجرد مجموعة معتقدات وشرائع.. لكنه إيمان مغروس بجذوره في البناء الخاص للشخصية الفردية، وطالما هو دين جماعة من البشر، فإن له جذور في الشخصية الاجتماعية أيضا... " 3 فالتدين إذن هو أثر الدين والإيمان المغروس في النفس الإنسانية، بحيث لابد أن يكون له دوره في حياة الناس أفرادا وجماعات ..

وقد لاحظنا أن للدين أبعادا مختلفة تستوعب جوانب الإنسان والحياة، عقدية وعبادية، سلوكية وأخلاقية، وتشريعية...تغري المتدينين إلى الاهتمام ببعد على حساب آخر ... غير أن هناك بعد آخر يحق لنا أن نعتبره عمق الدين، وجوهر التدين، وهو الحالة التي يستهدف الدين خلقها وإيجادها في نفس الإنسان، وهي الوازع الديني، أو ملكة التقوى حسب منطق القرآن والنصوص الدينية، وما العقيدة إلا أرضية لإنتاج هذه الحالة، فإذا لم تحصل أصبحت العقيدة مجرد معلومات مختزنة في ذهن الإنسان، غير فاعلة ولا مؤثرة في حياته، وتلك هي المشكلة، فلأن يعلم الإنسان ويعترف بالله تعالى فإن ذلك لا يكفي، وإنما المطلوب أن يثمر ذلك حالة من التقوى في النفس[4] .

والمفروض في العبادات التي شرعها الله للناس أن تزكي السرائر، وتقيها العلل الباطنة والظاهرة، وتعصم السلوك الإنساني عن العوج والإسفاف، والجور والاعتساف، وكان هذا يتم حقا لو أن العابدين تجاوزوا صور

---

1 – محمد الشهرستاني، الملل والنحل، ط 2، بيروت : دار الكتب العلمية، 1413ه، 1992م، ص107، وينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص، مصدر سابق، ص246 .

2 – ينظر محمد عمارة، مقالات في الغلو الديني واللاديني، مصدر سابق، ص12 .

3 – إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، تر : سعد زهران، الكويت : عالم المعرفة،1989م، ص128 .

4 – ينظر حسن الصفار، التدين بين المظهر والجوهر، مصدر سابق، ص19 .

الطاعات إلى حقائقها، وسجدت الضمائر والبصائر لله عندما تسجد الجوارح، وتحرك أنفس ما في الكيان وهو القلب، عندما تتحرك الألسنة، أما إذا وقفت العبادات عند القشور الظاهرة، والسطوح المزورة، فإنها لا ترفع خسيسة ولا تشفي سقاما، فالعبادات تفقد وجهتها السماوية وقيمتها الروحية ونتائجها الاجتماعية عندما تمارس كحركات بدنية وحسب [1]، فحين تخلو العبادات من الخشوع والاطمئنان والفهم لحقائقها وحضور الفؤاد فيها، تستحيل إلى حركات فاقدة لمعناها خالية من محتواها .

فعبادات الإسلام إنما هي برامج ووسائل لتمكين حالة التقوى في نفس الإنسان، فعن الصلاة مثلا يقول الله تعالى{**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** } (سورة العنكبوت الآية 45)، فهي تهدف إلى خلق هذا الوازع الديني الذي يردع عن الانحراف، وإذا لم يتحقق هذا الهدف فلا قيمة لتلك الصلاة، فالصلاة (روحها الدعاء والتعظيم وتوجه القلب إلى المعبود والخوف منه والرجاء فيه..ولذلك أمر الله إقامة الصلاة دون مجرد الإتيان بها، وإقامة الشيء هي الإتيان به مقوما كاملا يصدر عن علته وتصدر عنه آثاره.. ولذلك توعد الله الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والألفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرها فيها المؤدي إلى غايتها بقوله {**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ** } (سورة الماعون الآية 4-5) فرغم وصفهم بالمصلين توعدهم لسهوهم عن الصلاة الحقيقية، وهي توجه القلب لله تعالى المذكر بخشيته، والمشعر للقلوب بعظمة سلطانه)[2] .

والصوم حكمة تشريعه للوصول إلى درجة التقوى، يقول الله تعالى { **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** } (سورة البقرة الآية 183) ...أما عن الحج فإن الله عز وجل في الحديث عن الأضحية في الحج يشير إلى أن ما يريده منها هو زرع ملكة التقوى عند الإنسان، يقول الله تعالى في (سورة الحج الآية 37) { **لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ**}، وحتى الأنظمة والقوانين العامة في الإسلام غرضها تعزيز هذا الوازع الديني في النفوس، كما يقول تعالى حول تشريع نظام القصاص والعقوبات { **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ** } (سورة البقرة الآية 179)، إذا فالتقوى هي الجوهر والغاية والحصيلة من كل جوانب الدين : عقيدة وعبادة ونظاما [3] فلا قيمة للشعائر التعبدية إن لم تكن ثمرتها تقوى لله تعمل على خلق وازع ديني يحمل المرء على امتثال أمر الله واجتناب نواهيه..وحين ذلك تتحقق العبودية لله .

---

1 - ينظر محمد الغزالي، علل وأدوية، ط3، باتنة : دار الشهاب، 1406ه، 186م، ص48 .

2 - ينظر محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم ، ج8، ص242، وينظر محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم، ج1، ص57 .

3- حسن الصفار، التدين بين المظهر والجوهر، مصدر سابق، ص20- 21 .

فللعبادة صور كثيرة في الدين.. شرعت لتذكير الإنسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي الأعلى الذي هو روح العبادة وسرها، ولكل عبادة من العبادات الصحيحة أثرها في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه، والأثر إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا إنه منشأ التعظيم والخضوع، فإذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن عبادة، كما أن صورة الإنسان وتمثاله ليس إنسانا [1]، ولعظم هذا الأمر بين رسول الله صلى الله عليه وسلم محل الصلاح الناجم عن التعظيم والخضوع والتقوى في الإنسان قائلا "التقوى هاهنا" 2 وكشف عن سلطان الجسم وملاك ذلك كله بقوله " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب "3 ...فبفضل الوازع الديني تصل القلوب لفهم مقام الإحسان، أو رقابة الله على الضمير البشري في سلوكه كله، ليله ونهاره..هذه الرقابة هي التي ينشأ عنها الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والمحبة والورع والتوبة ومعرفة المعاصي الكبيرة التي هي أخطر من معاصي الأبدان..[4]

فالتدين الصادق يورث في نفس الإنسان وازعا دينيا، يجعله مندفعا للخير ممتنعا عن الشر، منضبطا متجاوزا ضغط الرغبات والشهوات..موثرا رضى الله وطاعته على شهواته جميعها ولنا في المؤمنين الأوائل خير مثال (فبعد أن كان شرب الخمر عادة سائدة في الجاهلية، حيث كانوا يشربون الخمر في إسراف، ويعتبرونها من المفاخر التي يتسابقون في مجالسها ويتكاثرون، ويديرون عليها فخرهم ومدحهم في الشعر، إلا أنه لما نزلت آيات تحريم الخمر سنة ثلاث للهجرة، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة (ألا أيها القوم إن الخمر قد حرمت) فمن كان في يده كأس حطمها، ومن كان في فمه جرعة مجها، وشقت زقاق الخمر، وكسرت قنانينه..وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر !!) [5] وهكذا يكون الوازع الديني حاكما على سلطان العادة والرغبة، أما إذا فقد الوازع الديني أو ضعف، فإن مجرد الإيمان بالمعتقدات، أو آداء العبادات كمظهر، فإن ذلك لا يعني تدينا حقيقيا .

كما أن القيم والأخلاق وسائر المعاملات هي ثمار العبادات الشعائرية أيضا، (فالعبادات الإسلامية ليست مجرد طقوس، وإنما هي وسائل للمقاصد التي تزكي النفس بمنظومة القيم والأخلاق، أما الذين يكتفون من التدين بالطقوس الشكلية، فإنها لن تغني عنهم شيئا، ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش)6، فإذا ما صحت العبادات واكتملت إلا أثمرت أخلاقا وسلوكا وعطاء وارتقاء بالإنسان مع نفسه ومن حوله .

---

[1] – محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم، ج1، مصدر سابق، ص57 .

[2] – روى مسلم (2564) من حديث أبي هريرة (التقوى هاهنا، وأشار إلى صدره ثلاث مرات) .

[3] – رواه البخاري (52)، ومسلم (1599) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

4 – محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص103 .

5 – سيد قطب، في ظلال القرآن، ط15، القاهرة : دار الشروق، ج5، ص97 .

6 – ينظر حسن الصفار، التدين بين المظهر والجوهر، مصدر سابق، ص22 .

وليست مكارم الأخلاق في الإسلام بمعزل عن الإيمان والتقوى ومراسيم العبادات، وفي ديننا "ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق" [1] وقد يبلغ حسن الخلق بالمرء ما تبلغه العبادات من صوم وصلاة، وقام الخلق الإسلامي على نشدان الكمال..وحين كان تدريس الأخلاق في أمم سلفت حكرا على بعض الفلاسفة يترفعون به في مجالسهم، أو كان شارة تخص المعدين لعمل معين، جاء الإسلام فجعل الخلق الفاضل كالنقد المتداول، يسود كل مجلس، ويدخل كل سوق، ويصبغ كل معاملة [2] ذلك أن الأخلاق والمعاملات هي ريح العبادات والعقائد وعطرها الفواح .

أما حين يفصل التدين العبادة عن الحياة، والإيمان عن السلوك والعمل الصالح، أو بين اللاهوت والناسوت بجدار فاصل بين الدين والدنيا هو –بلا ريب– تدين منقوص يجهض الآمال المعلقة على الظاهرة الإسلامية، حين لا يكون له رصيد في الدنيا يصب في بناء الحاضر والمستقبل، وكل ذلك وريث الفهم الأخروي الانسحابي للدين حين زرع في عقول الناس وضمائرهم..فجرت على المسلمين نواميس النمو وسننه؛ فتخلفوا ! حيث جاءت الثمار من جنس العمل[3].

ولا خير من العلم في بناء مستقبل الأمم، لذا أثر عن (محمد الغزالي) قوله : "إن كل تدين يجافي العلم، ويخاصم الفكر، ويرفض عقد صلح شريف مع الحياة هو تدين فقد صلاحيته للبقاء، التدين الحقيقي ليس جسدا مهزولا من طول الجوع والسهر، ولكنه جسد مفعم بالقوة التي تسعفه على أداء الواجبات الثقال، مفعم بالأشواق إلى الحلال الطيب من متاع الدنيا "[4] وبالعلم وما يتبعه من إرادة واختيار استحق آدم وبنيه بأن يكون خليفة الله في أرضه، بعد أن ملكه إياها وسخر له عوالمها { **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** }

(سورة البقرة الآية 30– 33)، ولقد أظهر الله بدائع حكمه وسننه وأسرار خليقته وعجائب صنعه، لما ظهر من آثار هذه الخلافة على يد الإنسان، فشوهدت عجائب فعله في البر والبحر والهواء، والنبات والمعدن وسخر لنفعه القوى الطبيعية وسائر المخلوقات ...[5]

---

1 – أخرجه أبو داوود وابن حبان، ورواه الترمذي (2002) وقال حسن صحيح .

2 – ينظر محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص3 .

3 – ينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص، مصدر سابق، ص11.

4 – ينظر محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص104 . .

5 – ينظر محمد عبده، محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ص260 .

فليس تدينا ذلك الذي يعطل العقل، ويهين الحضارة ويعيق التقدم، فالمسلمون مطالبون بتطويع الحياة لخدمة الدين وتوجيه النشاط الفردي والجماعي لخدمة الرسالة العامة وتحقيق غاياتها، وإن الكدح لله تعالى هنا يتجاوز المسجد ليتناول الحقل والمصنع والمرصد والدكان والديوان والبر والبحر وما يكتب وما يسمع.. ويتناول خطرات النفوس وأحلام النيام، فالإسلام رسالة، توجب على معتنقيها أن يجعلوا مجتمعهم أجدر بالحياة وأقدر بالنجاح[1].. ولا عجب أن قامت فجر الإسلام حضارة سامقة، حين جمعت بين العلم والإيمان، ومزجت بين الدنيا والدين، حتى إن أوربا لم تقم نهضتها العلمية إلا حين مسها قبس من نور تلك الحضارة[2] .

وليس في الإسلام اكتفاء بالعبادات العينية من صلاة وصيام وزكاة وحج وفق سلوك شديد الالتزام في ما يتصل بالضمير الفردي والسلوك الخاص، مع إهمال وتضييع الفروض العامة مع ما فيها من إرضاء لله، وحماية الأمة، والحفاظ على الدين، وإنشاء دين تصونه وتنميه ...مما أفرز في الواقع تعايش الدين مع التخلف، فإلى متى تعجز الأمة عن استخراج بركات الله من أرض الله لتؤدي رسالتها، وتعجز عن تجنيد مواهب المسلمين لإعزاز المسلمين، أو كل ما تحتاج الأمة إليه من الأعمال العامة ويرتبط قيامها به [3]؟ !

والحقيقة التي تميز الإسلام – كمنهاج كامل وشامل للحياة – هو ما جاء في القرآن الكريم من قوله تعالى **{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}** (سورة الأنعام الآية 162)، فالإنسان المسلم، إنما هو خليفة عن الله سبحانه وتعالى خالق الكون، ولذلك فإن كل تصرفات هذا الإنسان المسلم – الفردية والاجتماعية – هي تصرفات الخليفة والنائب والوكيل الملتزم بعقد وعهد الاستخلاف – وبأمر الله شريعة وحكما، وعبوديته لله هي قمة تحرره من كل طواغيت الدنيا .. وهنا يتجلى التوحيد المطلق ، والعبودية الكاملة، التي تجمع الصلاة والاعتكاف والمحيا والممات، وتخلصها لله وحده لله رب العالمين ، فالمؤمن الذي يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله يتحرى الخير والصلاح والإصلاح في كل عمل من أعماله، ويطلب الكمال في ذلك لنفسه ليكون قدوة في الحق والخير في الدنيا وأهلا لرضوان ربه في الآخرة 4 .

فالإيمان الإسلامي، لا يقف عند شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإنما هو بناء كامل وشامخ ومحيط، عبر عنه الحديث النبوي الذي يقول معناه: "الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها

---

1 – محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص3 .

2 – ينظر يوسف القرضاوي، الدين في عصر العلم، ط1، عمان : دار الفرقان، 1417ه، 1996م، ص18 .

3 – ينظر محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص 13، وينظر فهمي هويدي، التدين المنقوص، مصدر سابق، ص12 .

4 – محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، مصدر سابق، ج8، ص242- 244 .

إزالة الأذى عن الطريق "[1]، وبهذا المعنى يمتد أثر التدين إلى من حوله وينصرف مفهومه حينذاك إلى معنى الإصلاح .

ولـــ(محمد عبده) كلام يبين السبيل إلى الإصلاح الإسلامي قائلا : "إننا نريد تصحيح الاعتقاد، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب، واستقامت أحوال الأفراد، واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية —دينية ودنيوية- وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة، وسرى الإصلاح منهم إلى الأمة جمعاء " [2]، فنقطة البداية في الإصلاح الشامل هي الإيمان الذي يعيد صياغة الإنسان ليمتد الإصلاح بعد ذلك إلى الفروع والسياسات والاجتماعيات والاقتصاديات والعلاقات[3]، فإذا ما صح دين الفرد واعتقاده وبرء عقله من الشوائب، وسلمت أعماله من الخلل.. استنارت بصيرته وشاع أثر ذلك من بين يديه ومن خلفه عليه وعلى أمته جمعاء .

وفي القرآن الكريم رسم لمحمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم منهاج الرياضات، والمجاهدات الروحية التي تحقق صلاح الإنسان، والتي تفجر فيه الطاقات والإمكانات التي تجعل هذا الإنسان —وهو الجرم الصغير- العالم الأكبر، القادر على حمل المهام الثقال في مختلف ميادين الإصلاح...فبهذه الرياضات والمجاهدات التي تعيد صياغة الإنسان صياغة إسلامية، يكون هذا الإنسان — الذي خلق ضعيفا- هو الأشد وطأ والأقوم قيلا...وعلى مدى ثلاثة عشرة عاما كانت الصناعة الثقيلة التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي إعادة صياغة الإنسان، بإقامة الأصول، وتجسيدها في القلة المؤمنة..فكانت صياغة القلوب والعقول بخلق القرآن وقيم الإسلام..فلما تكون الجيل الفريد، وتبلورت الجماعة والأمة التي صنعها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، جاءت مرحلة النشر والانتشار للإصلاح في ميادين الفروع ..جاءت الدولة والسياسة والجيوش، والفتوحات والنظم والمؤسسات والقوانين والعلاقات الدولية..إلى آخر ميادين فروع الإصلاح...وكان التغيير منطقيا..وحقيقيا..وراسخا كل الرسوخ[4] .

ولا ينبغي للتدين —بعد ذلك- أن يكون محجوبا عن جمال الكون وعظمته، مشلولا عن فهم أسراره وتسخيرها لمصلحته، يستكشف صفات الله في أرجاء ملكوته...ينبني فيه السلوك على إيمان وثيق وخضوع

---

1 - أخرجه البخاري، كتاب (الإيمان)، باب (أمور الإيمان)، رقم: (9)، ومسلم، في (كتاب الإيمان)، باب (شعب الإيمان)، رقم (35)، واللفظ لمسلم .

2 - نقلا عن محمد عمارة، الإصلاح بالإسلام، (معالم المشروع الحضاري لمحمد عبده)، ط 1، القاهرة : شركة نهضة مصر، 2006م .ص16 .

3 - محمد عمارة، الإصلاح بالإسلام، مصدر سابق، ص18 .

4 - ينظر المصدر نفسه، ص20- 21 .

مطلق، مسترشدا بوحي الله استعدادا لرحلة العودة [1]، وكل ذلك إنما يدل أن الإسلام دين قام منذ بزغ فجره على احترام العقل، والدعوة إلى النظر والتفكر في الأنفس والآفاق، في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء..ولهذا هو يرفض كل دعوى بغير برهان، وينكر التبعية والتقليد، أو اتباع الظنون والأهواء وما يلحق بها من أباطيل...[2]

والإنسان إنما جاء إلى هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي ...وإذا كان الدين هو السبب المفرد لسعادة الإنسان، فإن الدين الذي يقوم على قواعد الأمر الإلهي الحق، و لم يخالطه شيء من أباطيل ما يزعمونه ولا يعرفونه..فلا ريب أنه سيكون سببا في السعادة التامة والنعيم الكامل، ويذهب بمعتقديه جواد الكمال الصوري والمعنوي، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهري والباطني ..[3] لقد ظهر الإسلام لا روحيا مجردا، ولا جسديا جامدا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب، فتوافر له من ملائمة الفطرة ما لم يتوافر لغيره، ولذلك سمى نفسه : دين الفطرة[4] .

والجدير بالملاحظة في واقعنا اليوم هو طغيان مظاهر التدين في واقعنا على روح الدين وحقائقه، لانشغال الناس بالظاهر من الدين عن أصله وحقيقته ومقاصده وغاياته المنشودة ، ويؤسف أن المبالغة في الأخذ بالظاهر والاعتناء بالطقوس عند الأفراد والمذاهب والطوائف .. من شأنه أن يورث مع طول الزمان ابتعادا عن المضمون، و الاكتفاء بالقشور على حساب الجوهر ، مما يجر إلى ذهاب الإيمان أصلا أو زعزعته تدريجيا من القلب إذا ما اقترب من حظوظ النفس وميل الهوى، ناهيك عن الخداع أو التلبيس والوقوع في شرك الشيطان ... وإن كان هناك التزام شكلي فهو بما يوافق الفطرة والأخلاق السوية، ولكن حري بالتدين المتوخى أن يورث في نفس الإنسان وازعا دينيا يكون حاكما على جميع أفعاله وأحواله .

فالإسلام رسالة شاملة في إصلاح ظاهر الفرد وباطنه، وجامعة في إصلاح دينه ودنياه، والتدين في الإسلام ينهض بإيمان المرء، إيمانا ينشد تزكية للنفس وتربية للقلب بما يهذب السلوك ويقلم الطباع، ليس فيه تعطيل للعقل أو جمود للفكر، بل فيه تفعيل للعقل وأدائه، يأبى التقليد دون وعي أو رشد، يسعى المؤمن فيه كلبنة ضمن إخوانه لتحصيل كمال خيري الدنيا والآخرة .

المبحث الثاني : التدين في الواقع الغربي المعاصر

---

1 – ينظر محمد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، مصدر سابق، ص16 .

2 – ينظر يوسف القرضاوي، الدين في عصر العلم، ط1، عمان : دار الفرقان، 1417ه، 1996م، ص12 .

3 – محمد عمارة، الإصلاح بالإسلام، مصدر سابق، ص30 .

4 – محمد عبده، الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده (الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات)، تح : محمد عمارة، ط1، بيروت : دار الشروق، 1414ه، 1993م، ج3، ص 240 .

إن الدارس لمآل الغرب [*] وأحواله من الناحية الدينية يلحظ تعقيدا كبيرا مصحوبا بتحولات واقعية عدة، ممزوجة بين توافر غالبية الفئات المسيحية وإلى جانبها عناصر دينية معتبرة أو أقلية ... في مقابل انجراف تيار العلمانية، وما نجم عنه بعد ذلك من تيارات مناقضة مناهضة متسمة بما بعد العلمانية ..، فإذا ذكرت العلمانية أيا كان نوعها أو طبيعتها فإن الأسماع تنحو إلى جعل مرجعتها غير دينية أو في مقابل ما هو ديني، ولذلك بات مؤكدا أنه لا يمكن الحديث عن التدين أو الوضع الديني وأنماطه في الغرب دون دراسة العلمانية أو العلمنة كإحدى السياقات التاريخية الهامة التي طالت شتى مجالات المجتمع الغربي، بعد تبنيه المسيحية دينا ورفعه لها شعارا ردحا من الزمن، وكصيرورة أيديولوجية طالت واقعه، لما لها من أثر على التدين وأنماطه فيه، وما أسهم به كل ذلك وأثر على تصاعد المد التديني أو انحداره في الغرب .

المطلب الأول : المسيحية والعلمانية في سياق التاريخ الغربي

بداية؛ فما من مصطلح كان هدفا للدرس والنقد، وفي نفس الوقت عرضة للاختلافات والتجاذبات كالذي لاقاه مصطلح العلمانية، ولربما ذلك لتشرذم دلالاته واختلافها وعدم استقرار معناه على حال، أو لتعدد أسباب ظهور العلمانية وتبلورها كنظرية أو كصيرورة ونتيجة تاريخية، أو لتعدد أوجه تجارب العلمانية وأسس تفعيلها على أرض الواقع ..!

جاء في المعجم الوسيط الصادر عن مجمع اللغة العربية في مادة علم ما نصه : "العَلماني: نسبة إلى العَلَم [**] أي

---

* – الغرب : أو العالم الغربي، في أصله مفهوم جغرافي في مقابل الشرق، ولكن القصد الأساس ما وراءه من معان ثقافية وحضارية، فالغرب هو عبارة عن هوية ثقافية وحضارية ما فتئت تنمو وتتطور مع الزمان، وقد حدد على النحو التالي : شبه الجزيرة الأوربية الأسيوية، بالإضافة إلى أمريكا الشمالية والجنوبية، وكذلك جنوب إفريقيا وزيلندا الجديدة وأستراليا رغم انتماء هذه الأطراف إلى جهات أخرى غير الغرب (ينظر Dictionary.Reference.com) .

** – العلَم : ومنه العلمانيّة، في العربيّة مُشتقّة من مُفردة عَلَم، وهي بدورها قادمة من اللغات السّاميّة القريبة منها، ففي السريانية تشير كلمة ܥܠܡܐ) نقحرة :عَلما) إلى ما هو مُنتمٍ إلى العالم أو الدّنيا، أي دون النّظر إلى العالم الرّوحي أو الماورائيّ، وكذلك الأمر في اللغة العبرية :עולם) نقحرة : عُولَم) والبابليّة وغيرهم؛ وبشكل عامّ، لا علاقة للمصطلح بالعلوم أو سواها، وإنّما يشير إلى الاهتمام بالقضايا الأرضيّة .

العالم، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي [*]"[1] كما ورد في معجم البستاني : "العلماني : العامي الذي ليس بإكليريكي"[2]، ولذا فإن علمانية بفتح (العين) [3] هي ترجمة للمصطلحين الفرنسي (laïcité) والإنكليزي (secularism) .

فإذا بادرنا للبحث عن الأصل اللغوي الأجنبي فـــ(في الإنجليزية كلمة علمانية ترجمة لكلمة (سكيولاريزم secularism)، وهي مشتقة من الكلمة اللاتينية (سَيكولوم saeculum) وتعني (العصر) أو (الجيل) أو (القرن)، أما في لاتينية العصور الوسطى فإن الكلمة تعني (العالم) أو (الدنيا) مقابل الكنيسة، وبالتالي لفظة (saeculum) مرادفة لكلمة (mundus) التي تعني العالم، كما هي مرادفة للكلمة اليونانية (aeon) التي تعني العصر، ولهذا أورد معجم أكسفورد معنى العلمانية متضمنا كل ما ينتمي للحياة الدنيا وأمورها وهذا العالم الآني تمييزا له عن العالم الأزلي والروحي، والعلماني يتميز في ذلك عن حياة الكنيسة والدين فهو (غير كهنوتي) (غير ديني) (غير مقدس) ... والعلمنة (سكيولارايزيشن secularization) وهي تحويل المؤسسات الكنسية والدينية وممتلكات الكنيسة إلى ملكية علمانية وإلى خدمة الأمور الزمنية..) [4] فالعلمانية ههنا إشارة إلى الماديات البحتة (المحسوسات) المتعلقة بالزمان والمكان الدنيوي وهذا العالم، مع استبعاد ما تعلق بما وراء ذلك من أمور الغيب .

أما في اللغة الفرنسية، فهناك لفظ العلمانية مترجم من الكلمة الفرنسية (lacite)، وعن المعجم الفرنسي (La Rousse) فإن الكلمة مشتقة من المصطلح اليوناني (laos)، والذي يعني (الشعب) ومن الصفة

---

* – الكهنوت : خدمة أسرار الكنيسة، وهي سريانية معربة والتاء فيها للمبالغة لا للتأنيث كتاء ملكوت وجبروت، ودرجاته ثلاث: الشماس، والقسيس، والأسقف، ومراتبه كثيرة منها: القاري، والخوري، والمطران، والبطريرك، والبابا، وفعله: كهَنَ، وتكهّن تكهُّناً فهو كاهن، جمعه كهنة .

1 – ينظر مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ط2، القاهرة : دار المعارف، 1973م، ج2، ص624 .

2 – بطرس البستاني، محيط المحيط، بيروت: مكتبة لبنان، 1987، ص628 .

3 – تؤكد المصادر الأجنبية من معاجم ودوائر للمعارف، وتعريفات للباحثين الغربيين أن العَلمانية – بفتح العين – هي الترجمة الصحيحة على غير قياس لكلمة secularism الإنجليزية أو secularit الفرنسية ، وهاتان الكلمتان لا صلة لهما بلفظ العلم ومشتقاته، فالعلم في الإنجليزية والفرنسية يعبر عنه بكلمة science والمذهب العلمي نطلق عليه كلمة scientism والنسبة إلى العلم هي scientific أو scientifique في الفرنسية والترجمة الدقيقة للكلمة هي " العالمانية " أو " الدنيوية " أو " اللادينية "، ولكن تحولت كلمة عالمانية إلى عَلمانية لأن العربية تكره تتابع الحركات وتلجأ إلى التخفف منه، وأول معجم ثنائي اللغة قدم ترجمة للكلمة بفتح العين هو قاموس "عربي فرنسي" أنجزه لويس بقطر المصري عام 1828 م، وهناك من رآها بكسر العين، ومنهم من رأى الوجهان بفتح العين أو كسرها.

4 – ينظر عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط 1، القاهرة : دار الشروق، 2002م، ج1ص53-57 .

اليونانية (Lkos)، فمن هذا الاشتقاق فإن مصطلح (Lacit) يعني خاص بالشعب، وكلمة (Laque) تعني بدورها المستقل عن كل التنظيمات الدينية 1، ومنه؛ ففي الفرنسية فإن كلمة علمانية (لائكية) تحمل معنى كل ما يتعلق بعموم الشعب .

أما عن الجذر الاصطلاحي؛ فكلمة علمانية (الفرنسية الأصل (Lacit) تعود إلى أصل لاهوتي قبل أن تلبس دلالات جديدة في إشارة إلى التمييز بين ما هو رسمي وما هو لائكي (علماني)، وهذا الأخير إشارة لإخراج الشأن الديني عن وضعيته الرسمية، والتعبير عنه في إطار عمومي، وما ذلك إلا تمييزا وخلافا للوضعية الرسمية التي يتفرغ بموجبها رجل الدين للشأن الديني داخل المؤسسة الرسمية، ولذلك قد نجد للكلمة اللاتينية (Laicus)* جذرا يونانيا ألا وهو (λαϊκός) والذي يحيل إلى معنى الشأن العمومي، أو معنى السوق الشعبية، فخروج الفكر الديني من المؤسسة الدينية الرسمية إلى إطار عمومي يفهمه عامة الناس هو ما يسمى بـــ(لائكية) أو (علمانية)) [2] فلفظ علمانية أول الأمر استعمل إشارة لما هو خارج المؤسسة الدينية الرسمية، أي علماني في مقابل الكهنوتي، وعجيب أن نراه يقتنى من قبل الكنيسة، إلا أنه اليوم عادة ما يستعمل لمعنى فصل الدين عن الدولة أو السياسة، ليتبلور إلى أيديولوجية تقدس ما هو دنيوي وتقوم أساسا على عزل ما هو ديني فكيف تأتى ذلك؟

فبعد أن اشتق لفظ علماني بمعنى كهنوتي نسبة إلى (العَلم) أو (العَالم) كدلالة كهنوتية قديمة مستمدة من بداية الحقبة النصرانية وكمرادف لـــ(العومنة) أو التعميم، حُمل اللفظ مفهوم (الدنيوية)، أو (الزمانية) الدهرية وفي الإنجليزية (secularism) نسبة إلى القرن، أو العصر.. ومن الأصول اللاتينية بمعنى (العالم) أو (الدنيا) أو (الكون) في مقابل الكنيسة، وكون ذلك موافقا لنوايا النزعة التي نادى بها (جورج جاكوب هوليوك) [3] سنة 1846م، في انكلترا مطلع القرن التاسع عشر معتدا بالحياة الدنيا دون سواها، وبأن كل الظواهر مرتبطة

---

1 - ينظر Le Petit La rousse, grand Format en coulour, paris Bordas, 1999, article laicite , p212 وينظر بويش محرز وآخرون، في سؤال العلمانية (العلمانية بين طبيعة المفهوم وتشكل التساؤلات الفلسفية)، ص229 .

* - لائكي : (Laicus) مصطلح استعمله التقليد الكنسي للتمييز بين ما هو رسمي وما هو لائكي، بين أسقف مرسوم (الإكليروس) وأسقف علماني، فالأسقف المرسوم هو بتأييد الكنيسة للدعوة الإلهية، أو للانتقاء الإلهي في حياة خادم الكنيسة، أما الأسقف العلماني فهو الذي تكون الأسقفية واحدة من المهام التي يقوم بها، وليست هي المجال الوحيد الذي يعمل فيه، فهو لا يعد جزء من الجماعة الدينية الرسمية، وقد كان مبرر الحاجة إلى هذا التمييز هو التأكيد على إمكان وجود وضعية للشأن الديني يشرف عليها من هو من الناحية الرسمية لا يعد رجل دين .

2 - ينظر معز مديوني، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص30 .

3 - جورج جاكوب هوليوك (1817-1906م) : مفكر وكاتب انجليزي، معروف بوضعه تسمية العلمانية 1846م، كما عرف عنه عداءه للكنيسة وخطاباته الشديدة حول الدين والكنيسة مما أدى إلى سجنه، من مؤلفاته الحركة التعاونية اليوم 1891م، تاريخ التعاونية في أنجلترا 1875م، وستون عام لمتمرد في الحياة 1905م ...

بالزمان وبالدنيا ولا عبرة لما وراء ذلك كجزء من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة، فكان (جوورج هوليوك) أول من صك المصطلح بمعناه الحديث، راميا به إلى إصلاح الإنسان من خلال الطرق المادية... وعد ذلك مولدا لظاهرة العلمانية في الغرب، أو للدولة القومية العلمانية التي لا تخضع لسلطة الكنيسة، ابتداء من علمنة ممتلكات الكنيسة، ومصادرتها لصالح سلطات سياسية غير دينية [1] و(هوليوك) هذا كان رجلا متدينا في بدايات حياته، إلا أنه تحول إلى معارض للكنيسة نتيجة قهرها، فاختار العلمانية كاسم للمذهب الذي تبناه[2] .

ولا شك أننا نلحظ التطور الدلالي للكلمة، واتساع مجالها، فمن لفظ لاهوتيي الاستعمال من قبل الكنيسة، إلى مصطلح أشمل ربما يعادي الكنيسة، ويقابلها، إلا أنه بدأ يكتسي أهمية أيديولوجية... وذلك (قبل قرن من دلالته على الأيديولوجية العلمانية (اللائكية) (laïcité) المعتمدة في فرنسا نهاية القرن التاسع عشر كوصف لفصل الدين عن الدولة منذ 1880م[3])، كما أن التحولات السياسية والعلمية، الاقتصادية والاجتماعية الحديثة والمعاصرة، نقلت مفهوم العلمانية إلى مجالات أوسع، فهي حسب قاموس أكسفورد (العقيدة التي تذهب إلى أن الأخلاق لابد أن تكون لصالح البشر في هذه الحياة الدنيا، واستبعاد كل الاعتبارات الأخرى المستمدة من الإيمان بالإله أو الحياة الآخرة)[4] .

وبدوره عرف معجم روبر (Robert) العلمانية على أنها عبارة عن فصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني حيث لا تمارس الحكومة أية سلطة دينية، ولا تمارس الكنيسة أية سلطة سياسية" [5]، أما (هنري بينا رويز) [6] فيعتبر في كتابه (اللائكية من أجل المساواة) (العلمانية مبدأ تنظيم دولة مؤسسة وفق مبادئ حقيقية ومثالية، كتحقيق الحرية والمساواة والتضامن، هذه المبادئ التي تعتبر من مبادئ الجمهورية، وبالتحديد حرية التفكير والعقيدة، المبنية على استقلالية الفرد ومساواة المواطنين أمام القانون، وبالتالي مشاركتهم في الحياة تاريخيا) وإذا كانت العلمانية من الناحية السياسية تعني فصل السلطة الروحية عن السلطة السياسية، فإنها من الناحية التعليمية

---

1 – ينظر عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مصدر سابق، ج1، ص53-54 .

2 – ينظر بويش محرز وآخرون، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص242 .

3 – ينظر عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مصدر سابق، ج 1، ص61، وينظر بطرس البستاني، محيط المحيط، مصدر سابق، ص628 .

4 – نقلا عن عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مصدر سابق، ج1، ص60 .

5 – نقلا عن طيبة ماهر وزادة، العلمانية والعصرانية (دراسة على ضوء الأسس الفلسفية والاجتماعية)، تر : عبد الرحمان العلوي، ط1، لبنان : دار الهادي، 2006م، ص127 .

6 – هنري بينا رويز : Henri Pena-Ruiz فيلسوف فرنسي، من أهم المتخصصين في في مجال العلمانية واللائكية، له العديد من المؤلفات، نشر آخرها في 2014م : "القاموس العاشق للعلمانية" 2014، بعد كتاب عن ماركس في 2012م "ماركس مع ذلك" ...

وكما يرى (بينا رويز) تعني (قبول المدارس التعليمية تدريس كل الأطفال بمختلف عقائدهم، ودون تفضيل عقيدة عن أخرى)[1] و(بينا رويز) ومن شاكله ممن يسلطون الضوء على إيجابيات العلمانية ومثاليتها في تجسيدها دولة القانون والحرية والمساواة بين الأفراد على اختلاف معتقداتهم وانتماءاتهم .

وإلى هنا نجد معان ورؤى كثيرة لمصطلح لعلمانية، ولعله إذا أطلق اللفظ يومئذ فإنه قد يشير إلى تلك المعاني مجتمعة، كمكون يدعو إلى إعلاء شأن الإنسان والاهتمام بدواعيه وحاجياته الدنيوية بصفة آنية، بعيدا عن الشأن الديني الخاص وتفسيراته الغيبية، مما يستدعي قبلا عزل سلطة الكنيسة أو السلطة الدينية عن السياسية، فهي تهدف اختصارا إلى عزل الدين والكهنوت عن الحياة العامة سيما السياسية والاقتصادية... (فالعلمانية بمعناها الضيق السطحي تعني فصل الدين عن الدولة، وبتصورها الأوسع لا تعني فصل الدين عن الدولة وحسب، وإنما فصل كل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية، لا عن الدولة وحسب وإنما عن الطبيعة وعن حياة الإنسان في جانبيها العام والخاص، بحيث تنزع القداسة عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية يمكن توظيفها لصالح الأقوى)[2] ولقد ارتبطت الأولى بظروف انبثاق العلمانية في الغرب في مراحلها الأولى وما تطلبه من تمايز للمجال السياسي والاقتصادي عن المجال الديني، وتبلورت الثانية مع تصاعد ظاهرة العلمنة وتفاقمها، لتتجاوز المجال السياسي والاقتصادي ...

كما أن مما يجدر الإشارة إليه هو اختلاف التجارب العلمانية ومعايير استخدامها في الدول التي اعتمدتها سياسيا وقانونيا وطبقتها، فالتجربة الفرنسية قد اعتمدت على مصطلح Lacit المشتق عن الفرنسية، والمصطلح يحمل بصمات التجربة الفرنسية في العلمنة، المرتبطة بالثورة الفرنسية، والتي أخذت شكلا حادا وقاطعا، في وضع سياسة منهجية صريحة تجاه أي مضمون ديني [3]، وكذلك التجربة الأنجلوساكسونية التي اعتمدت على مصطلح Scularisme والتجربة الإسبانية التي تعتمد على اللامركزية الثقافية والدينية واللغوية La rgionalisation والتجربة التركية الكمالية التي قامت على أساس مفهوم Lacit؛ على أن الجيش هو الحامي لها أمام ولوج التيارات الدينية الإسلامية...4

وهذا التأثير المتبادل بين طبيعة التجربة والمصطلح المعتمد يؤكد أن مفهوم العلمانية لا ينفصم عن جملة الرهانات التاريخية والسياسية والفلسفية الواقعية المحددة والتي ساهمت في صياغة التجربة العلمانية، ليظهر أن مبدأ الاستعمال هو الذي يحدد طبيعة المصطلح؛ فـــ(في فرنسا حيث كانت مؤسسة الكنيسة قوية في المجتمع الفرنسي الإقطاعي القديم، وكانت امتيازات النبلاء واضحة محددة، وحيث كان هناك تداخل شبه كامل بين

---

1 – نقلا عن بويش محرز وآخرون، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص233، 239 .

2 – عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مصدر سابق، ج1، ص16 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص58 .

4 – بويش محرز وآخرون، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص226 .

طبقة النبلاء ورجال الدين خصوصا ذوي المراتب الرفيعة، فقد كان رد فعل الثوار عنيفا، يأخذ شكل رفض النظام القديم، متمثلا في الحكومة الملكية المطلقة، ونظام الطبقات السائد، ومؤسسة الكنيسة، وكل الرموز السياسية والدينية القائمة... ووضع سياسة منهجية صريحة تهدف إلى تصفية أي مضمون ديني في التعليم أو القانون)[1] .

وكما أن هذا الاتساع في مجالات العلمانية ومفهومها شيئا فشيئا مما يفضح انطباعها بحال الواقع، ولذا فالعلمانية أو العلمنة هي – في الحق- (جزء من صيرورة تاريخية طويلة، تمتد إلى ما قبل تسميتها عملية علمنة، لتمايز المجال الديني عن غيره في مجالات المعرفة، ومن تمايز في البنى الاجتماعية، والممارسة الاقتصادية والعلمية والسياسية.. وهي تتخذ شكل انعطاف حاد عشية عصر الحداثة، وذلك بسبب الثورات العلمية والصناعية والتحولات السياسية والاجتماعية الكبرى)[2] فالنظرية العلمانية ليست وليدة لحظة، والباحث في تاريخ الحضارة الغربية وسماتها يعثر في طياتها على العديد من العناصر والأسباب التي كان لها يد في هيكلة مصطلح العلمانية، وبلورة النظرية العلمانية وتطورها .

فبعد أن كان للدين في أوروبا تأثير كبير على الحياة الفلسفية والثقافية... إضافة إلى الفنون والقانون، وإلى حد كبير عدت الديانة المسيحية الدين الرئيسي في أوروبا، حيث بدأت المسيحية في جنوب غربي آسيا إلا أنها نمت في أوربا فأصبحت أكبر الديانات من حيث عدد معتنقيها وأكثرها أثرًا ونفوذًا، ففي أوروبا يتواجد أكبر تجمع مسيحي في العالم بنسبة (76.2%[3])[4]، فلمدة طويلة لم ينظر العالم الغربي المسيحي للكون إلا بمنظار العقيدة المسيحية، فكانت بمثابة الأيديولوجية الحاكمة التي شكلت الإطار المعرفي المرجعي له في أبسط المجالات وأعقدها، ولذا فقد تلونت الحياة الغربية بتأثير وتاريخ الكنيسة المسيحية في مختلف أوجه الحياة ما يقرب قرنين من الزمن .

---

1 – ينظر عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مصدر سابق، ص58 .

2 – ينظر، عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج1، ص408 .

3 – استنادًا إلى إحصائية مركز الأبحاث الأميركي بيو لعام (19 ديسمبر) 2011 يُشكّل المسيحيون حوالي (76.2%) من سكان أوروبا ، ويصل عددهم إلى 565,560,000 أي بنسبة 25.9% من مسيحيي العالم، تأتي الكاثوليكية بنسبة 46.3%، بينما الأرثوذكس35.4% ، أما البروتستانت 17.8% .

4 – ينظر ملحق 2، الإحصائية رقم (2) ص455 قائمة البلدان العشرة الأوائل الأوروبية التي تحوي أكبر عدد من المسيحيين على اليسار: قائمة البلدان العشرة الأوائل الأوروبية التي لديها أعلى نسب مئوية للسكان المسيحيين.

وإذا أردنا التعمق في تاريخ المسيحية في الغرب فإننا نلحظ تميز الفترة التي شهدت ظهور هذه الديانة باضطهاد أنصار الدين الجديد، بل إن المسيح عليه السلام شخصيا وأتباعه قد تعرضوا كما يقول (أبو زهرة): "إلى بلايا وكوارث جعلتهم يستخفون بديانتهم ويفرون بها أحيانا ويصمدون للمضطهدين، مستشهدين أحيانا أخرى[1]، وقد بلغ الأمر لتسليم المسيح للرومان، ومحاولة صلبه لولا أن الله نجاه منهم، وانتهى الأمر برفعه إلى السماء كما ورد في القرآن الكريم **{وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}** (سورة النساء الآية 157- 158) ...

غير أن هذه الوضعية لم تستمر طويلا وانقلبت الأوضاع بتولي (قسطنطين) [2] عام 306م عرش الإمبراطورية الرومانية حين تم اعتناقه المسيحية -بعد أن ترك الوثنية- واعترافه بها كديانة رسمية وحيدة للإمبراطورية الرومانية ...غير أن ضعف الأباطرة فيما بعد من جهة، ونمو الكنيسة من جهة أخرى ونتيجة انتشار المسيحية، جعل التوازن الذي وضعه القديس (أوغسطين) من قبل يختل لصالح الكنيسة، مما دفع بالبابا غري غوري السابع (1073- 1085) إلى رفض سلطة الإمبراطور عندما أعلن أن البابا هو صاحب السلطات الأكبر في الكنيسة كلها، وهو وحده الذي يعين ويخلع الأساقفة، ولا يملك أحد سلطة إلغاء القرارات البابوية [3]... وبفضل ذلك بسطت الكنيسة سلطتها وعاد البابا يحكم من جديد بحكم السماء والسلطة الإلهية .

غير أن فساد الباباوا ت والتعسف في استخدام السلطات مهد لمناهضة المسيحية، وانتشار الروح القومية نتيجة اتصال الغرب بالحضارة الإسلامية في صقلية والأندلس.. وذلك حين بالغت الكنيسة الغربية في فرض تعاليمها على الشعب والعلماء، بل وحتى الملوك والأمراء ... وسلوكها سبيل التسلط بالقهر والعنف والطرد واللعن... وفرضها الإتاوات... وفي خضم التحولات التي عاشتها الإمبراطورية الرومانية، كان رجال الدين سباقين في المرحلة نفسها لتأسيس مؤسسة منظمة ومركبة، مما سمح بظهور سلطة كهنوتية لها مصادر قوة

---

[1] – محمد أبو زهرة، محاضرات في النصرانية، ط4، الرياض : الرئاسة العامة لإدارة البحوث العالمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1404ه، ص36 .

2 قسطنطين الأول : (272- 337م) هو (فلاڤيُس ڤاليريُس كونستانتِيُنس)أحد أشهر أباطرة الرومان، كان حكمه نقطة تحول في تاريخ المسيحية، في عام 313م أصدر مرسوم ميلانو الذي أعلن فيه إلغاء العقوبة المفروضة على من يعتنق المسيحية، كما دعا إلى تأسيس مجمع نيقية عام 325م، وبقيت العاصمة التي أسسها (القسطنطينية) عاصمة الإمبراطورية البيزنطية حتى عام 1453م (الموسوعة العربية، ج15، مصدر سابق، ص379) .

3 – علي عبد المعطي محمد، الفكر السياسي الغربي، الإسكندرية : دار الجامعات المصرية، 1974م، ص146 .

ونفوذ، أمام الوضعية التي كانت تعيشها أوربا كقبائل متناحرة.. وخلاصة فقد باتت هيمنة المؤسسة الدينية مظهرا من مظاهر أوربا القروسطية[1]...

وقد بلغ الطغيان الكنسي إلى حد مواجهة التحولات الفكرية الجديدة، بل وإلصاق تهمة الإلحاد بالعلماء ذووا النظريات العلمية إن خالفت المسموح التفكير به حسب الكنيسة، ولعل التاريخ الغربي حافل بآلاف الذين أحرقتهم الكنيسة وقتلتهم.. [2] وكما حجرت العقل وألغت التفكير فقد تحكمت في تفسير الإنجيل وسوغت مسألة العشاء الرباني، وصكوك الغفران... [3] فهذا العداء من الكنيسة للفكر والعلم، عكس بحق ضيق أفق الكنيسة، وتعصبها الديني ...كل ذلك وغيره من الأسباب ما أظهر الكثير من المصلحين [4] من داخل الكنيسة وخارجها يطالبون بالإصلاح، وأسفر عن نزعة تحررية جديدة لدى رجال السياسة والفكر [5] في أوربا تحاول إبعاد الدين عن توجيه السياسة، وتدعو لتركيز السلطة القانونية للإمبراطور كما تدافع عن سلطة الدولة واستقلالها وسيادتها[6]، وهنا بزغ مفهوم العلمانية بمعنى ((Lacit) كبداية دعوة لفصل الدين عن الدولة .

ففساد بعض رجال الدين، أو سلوك الكنيسة في احتكارها الإقطاع وتعسفها تجاه الفكر والعقل والثورة العلمية، كان له أهميته في توليد الانفجار والثورة ضد الفساد الكنسي، إلا أن ذلك ليس وحده ما أدى إلى ظهور العلمانية (فرغم خروج العلمانية بمفهومها الحديث خلال عصر التنوير الأوربي، على يد عدد من المفكرين أمثال (توماس جيفرسون)[7]، و(فولتير).. كمحاولة لإيجاد تفسير للكون ومكوناته بصورة دنيوية بحتة،

---

1 - ينظر سفر الحوالي، وباء العلمانية، ط1، البليدة : دار ابن تيمية، 1988م، ص15 .

2 -ينظر طيبة ماهروزادة، مصدر سابق، ص 42، وينظر علي عبد المعطي محمد، الفكر السياسي الغربي، مصدر سابق، ص195- 201 .

3- ينظر موسى معيرش ومجموعة مؤلفين، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص 46، وينظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص379-380 .

4 - أمثال (يوحنا هوس) وتلميذه (جيروم) ومن أفكارهما أن سر الاعتراف وصكوك الغفران خرافة تتعارض مع تعاليم المسيح، وكذلك ظهر (آرزم) الذي دعا إلى قراءة الكتب المقدسة من مصادرها، و(توماس مور) الذي ثار على طقوس الكنيسة، ثم كان (مارتن لوثر) الذي أدخل حركة الإصلاح إلى مرحلة الثورة والتمرد على نظام الكنيسة ، وسمى ثورته بثورة الإصلاح الديني .

5 - أمثال ملك فرنسا فيليب الجميل (ت 1314م) في صراعه مع البابا بونيفاس الثامن (ت 1303م) وكذلك كثير من المفكرين أشهرهم : مارسيلو البادوي (1275-1343م) ووليام الأوكامي (1295- 1350م) ...

6- ينظر موسى معيرش ومجموعة مؤلفين، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص 46، وانظر محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص379-380 .

7 - توماس جيفرسون : (Thomas Jefferson) (1743-1826م) أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، والكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال (1776) وثالث رئيس للولايات المتحدة (1801-1809) ، كان متحدثًا

إلا أنها ترجع بجذورها إلى الفلسفة اليونانية القديمة لفلاسفة أمثال (أبيقور) [1]... وعموما إلى التطور الذي عرفته الفلسفة اليونانية بالخصوص التيارات المادية والعقلية... إلى ما قبل سقراط والمذاهب السياسية التي تبناها كل من (أفلاطون) و(أرسطو)... وصولا إلى بلوغ العقلانية أوجها على يد الفيلسوف الفرنسي (رينيه ديكارت) [2] فالتطور الفلسفي أسهم في بلورة رؤى ومفاهيم سياسية جديدة احتوتها الفلسفة والعلوم، كانت جميعها تصب في مجال تكريس مبادئ العقل والإنسان في مقابل اللاهوت .

وإبان ذلك اضطلع (المذهب الإنساني في أوربا المسيحية الحديثة، بدعوته إلى تحرير الإنسان من سيطرة رجال الدين والنظام الإقطاعي، ومن بين أهم ممثليه (إراسموس الهولندي) [3] الذي كان ناقدا شديدا للطقوس والخرافات والجشع المادي الذي ميز البابوات)[4] .

وإزاء ذاك الوضع تحدث (إريك فروم) عن حال اعتناق أوربا للمسيحية قائلا أنه (كان زائفا إلى حد كبير وأنه –على أقصى تقدير– يمكن الحديث عن اعتناق محدود للمسيحية من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، وأنه في القرون التي سبقت هذه الفترة والقرون التي تلتها كان تنصير أوربا نوعا من الاعتناق الأيديولوجي مع خضوع متفاوت لسلطة الكنيسة، و لم يكن يعني تغييرا في الطبائع والأخلاق الحقيقية، أي في بنية الشخصية، باستثناء عدد من الحركات ...[5]

باسم الديمقراطية، نادى بمبادئ الجمهورية وحقوق الإنسان، وكان له تأثير عالمي في مطلع الثورة الأمريكية، وكرائد في عصر التنوير، كان جفرسون متعدد الثقافات، وشديد الاهتمام بالعلوم، الاختراع، العمارة، الأديان والفلسفة وكان عضو نشط وفي النهاية رئيسل للجمعية الفلسفية الأمريكية ...

1 – أبيقور : (341– 270 قبل الميلاد) هو فيلسوف يوناني قديم، وصاحب مدرسة فلسفية سميت باسمه (الأبيقوريّة)، من مفاهيمها : لا تخف من الآلهة، لا تخف من الموت.. وغاية الفلسفة بالنسبة لأبيقور كانت الوصول للحياة السعيدة والمطمئنة (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج1، ص150) .

2 – ينظر كارين أرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، تر : محمد الجورا، ط 1، دمشق : دار الكلمة، 2005م، ص102، وينظر بويش محرز، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص250 .

3 – دسيدريوس إراسسموس الهولندي : (1465– 1536م)(Desiderius Erasmus Roterodamus) فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، وكاتب باللغة اللاتينية، كتب في التعليم، وقد تناولت مؤلفاته التربوية معظم مظاهر التربية وقضاياها الهامة مثل الطريقة والمحتوى وآداب الطفولة وتعليم اللغة ، ونظرا لتمتع إيرازموس بشخصية مستقلة فقد عرف عنه طبعه الساخر في أبرز كتبه " مديح الحمق"، علق فيه على نصوص العهد الجديد، وحاول أن يضع مبادئ الحركة الإنسانية حسب التوجهات المسيحية، كما أراد أن يقرب بين أتباع المذهب الكاثوليكي وأتباع الحركات الإصلاحية الجديدة (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج1، ص772) .

4 – ينظر بويش محرز، العلمانية بين طبيعة المفهوم وتشكل التساؤلات الفلسفية، مصدر سابق، ص250 .

5 – إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق، ص133 .

ولذا؛ فقد استوعب التدين -آنذاك- في الغالب معظم حركات الإصلاح والتجديد في أوربا.. ومن ذلك حركة الإصلاح الديني التي نهضت لمحاربة بذخ الكنيسة وفسادها والدعوة إلى العودة إلى السلف وسيرة المسيح...)[1] والمهم فإن حال المسيحية في الغرب لم تقنع العقل الإنساني بصدق تعاليمها، فشعر الشباب الواعي ببعد تعاليم الكنيسة عن طبيعة الإنسانية، فقامت عدة دعوات للإصلاح تريد أن تعدل تعاليم الكنيسة حتى تكون مقنعة للعقل الإنساني[2]، وبذلك ساهم الإصلاح في تفتت المجمع المسيحي، و لم يعد للكنيسة البابوية هيبتها، وتخلت بموجبه عن أغلب أوربا في القرن السادس عشر[3] .

إلا أن أهم ثورات الإصلاح الفكري ما جاء من داخل الكنيسة، ومن قبل العديد من رجال الدين والمتدينين؛ ومن هنا لا يمكن إنكار دور الإصلاح الديني اللوثري [*] الذي ساهم توجهه البروتستانتي بصورة معتبرة في نشأة الرأسمالية، وبعدها لا يمكن إنكار العلاقة بين العلمنة والرأسمالية والبروتستانتية... في تلك القرون الأربعة كانت أوربا قد بدأت تنتصر، حيث حاولت الكنيسة أن تطبق المبادئ المسيحية في معالجة مشكلات الملكية والأسعار، ورعاية الفقراء، وظهر كثير من الطوائف والقادة الراديكاليين، متأثرين بالصوفية إلى حد كبير، ليطالبوا بالعودة إلى مبادئ المسيح التي تتضمن إدانة الملكية... وذلك حين كان اعتقادا واحدا يشكل كافة فروع المسيحية، ذلك هو الإيمان بأن يسوع المسيح هو المخلص الذي وهب حياته حبا لإخوانه في الخليقة، كان المسيح بطل المحبة، وكان بطلا بغير سلطة، لا يستخدم القوة، ولا يريد أن يحكم أو أن يملك أي شيء ..كان بطلا للكينونة، بطلا للعطاء والمشاركة...[4] والذي يظهر أن الإصلاح اللوثري كانت له تراكمات ودوافع عدة، حاربت أوربا من خلاله لأجل حريتها أمام أنواع وألوان الاستبداد الديني أو السياسي.. غير أن الاستبداد آنذاك -كما يلاحظ – قد ارتبط في الذهنية الأوربية مباشرة بالدين، ولذلك رفضت أوربا بعد ذلك كل أشكال الالتزام الديني واختارت العلمانية أيديولوجية بديلة وطريقا للتنوير .

وفي الحاضر (تتأسس الحضارة الغربية على أيديولوجية الحداثة التي تتبنى مفاهيم محددة ومركزية، لعل أهمها هو مفهوم التحرر من السحر (Disenchantment- Désenchantement)، والذي جاء ليجسد حركة فكرية ضاقت ذرعا بهيمنة الفكر الديني المسيحي على الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية..

---

1 - عمران، تغير أنماط التدين في الوطن العربي، مصدر سابق، ص7-8 .

2 - محمد الخطيب، مقارنة الأديان، مصدر سابق، ص 377، وينظر عبد الوهاب المسيري، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، مصدر سابق، ص58 .

3 - ينظر كلود دلماس، تاريخ الحضارة الأوربية، تر : توفيق وهبة، ط2، دار عويدات : بيروت، 1982م، ص49 .

* - الإصلاح اللوثري : نسبة إلى مارتن لوثر (1483- 1546م) الذي أسس من خلاله المذهب البروتستانتي .

4 - ينظر بويش محرز وآخرون، في سؤال العلمانية (العلمانية بين طبيعة المفهوم وتشكل التساؤلات الفلسفية)، ص 250، وينظر إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، مصدر سابق، ص132- 133 .

وأدى التحول السوسيوسياسي الحاصل في الدول الغربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بالتعاون مع فلسفة الأنوار، والفلسفة الاختزالية والمادية والطبيعية، وتفسيرات نظرية داروين التطورية، مجتمعة إلى استبدال تدريجي للمعتقدات الماورائية والدينية للنسق المعرفي، بنظرة طبيعية إلى العالم..) [1] وتفيد فكرة التحرر من السحر إلى نبذ كل ما هو ورائي غيبي، وأن العالم قد أصبح لا دين له إلا العلم .

فلقد شارك فلاسفة التنوير الألمان والفرنسيون في صياغة الدين العقلاني، وبموجب ذلك عدت الأديان الموحاة الأسطورية القديمة زيا قديما لم يعد صالحا، فطالما كان العقل هو المنطق الوحيد للحقيقة، أصبحت الأديان الأقدم المبنية على مفهوم خيالي (الوحي) نسخا ساذجة يجب رفضها، وللوصول للحقيقة المقدسة يجب تطهير المسيحية مما هو غامض، ومن الإعجازي والخارق للطبيعة، وفي مشروع التنوير يجب أن يكون للناس شجاعة كافية كي يتخلوا عن اعتمادهم على الكنائس ويعتمدوا على العقل المحض، فإعلاء شأن العقل في الغرب في تلك الحقبة مما أسهم في بوادر النزعة اللادينية وإشعال فتيلة الدولة العلمانية في العديد من البلدان البروتستانتية والكاثوليكية إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر في أوربا وفي المستعمرات الأمريكية[2] .

والحق أن ظهور التصور العلماني في الغرب مهدت له فلسفات ومواقف فكرية، فلسفية، سياسية وتاريخية اجتمعت على مناهضة المسيحية وإبعادها عن الدولة،كما الحال بالنسبة (لآراء (نيكولا ماكيافلي) [3] الذي عد سقوط روما أمرا يعود لأسباب ذاتية تتصف بها المسيحية لما تدعو إليه من تواضع ونزاهة وتفضيل الحياة الآخرة على الحياة العملية الدنيا[4]..كما أن الدارس لحياة (هوبز) وفلسفته يستخلص صراعه مع رجال الدين المسيحي بدفاعه عن النزعة المطلقة في الحكم بما يتعارض وروح الدين... إضافة إلى فلسفة التاريخ عند (هيجل)

---

1 - ينظر طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، مصدر سابق، ص66 .

2 - ينظر كارين أرمسترونج، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، مصدر سابق، ص90 – 92 .

3 - نيكولا ماكيافلي (Niccolò di Bernardo dei hiavelli) (1469- 1527م)، كان مفكرا وفيلسوفا سياسيا إيطاليا إبان عصر النهضة، والشخصية الرئيسية والمؤسس للتنظير السياسي الواقعي، والذي أصبحت فيما بعد عصب دراسات العلم السياسي، أشهر كتبه على الإطلاق (كتاب الأمير1513م)، وكان هدفهمنه أن يكتب تعليمات للحكام، نُشرَ الكتاب بعد موته، وأيد فيه فكرة أن ماهو مفيد فهو ضروري، و لذا كان عبارة عن صورة مبكرة للنفعية والواقعية السياسية، ولقد فُصلت نظريات مكيافلي في القرن العشرين عندما مدحه جان جاك روسو، وفيخته، وشهد له هيجل بالعبقرية، ويُعتبر مكيافلي أحد الأركان التي قام عليها عصر التنوير في أوروبا، فمن مقولاته :" إن الدين ضروري للحكومة لا لخدمة الفضيلة ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس" "الغاية تبرر الوسيلة"...

4 - فمما جاء في نصوص العهد الجديد (لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا في مناطقكم) (إنجيل متى 10: 9) وفي (إنجيل مرقس10: 25) (مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله) .

و(ماركس) فضلا عن نظرية (داروين) والتي تهدف كلها إلى تصفية الإرث المعرفي الكنسي، والقضاء على النظام اللاهوتي)[1].

فبعد أن نفت الكنيسة آراء (كوبرنيكوس)[2] و(برونو)[3] و (جاليليو)[4] بشكل ضمني عن كروية الأرض وقيمتها ومكانتها بالنسبة للكون، وبالتالي احتمال نزول تشريع إلهي لها دون غيرها، كانت نظرية (نيوتن)[5] تُدَمِّر فكرة وجود الإله نفسه، وتنفي أن هناك مشيئة تُسَيِّر الكون، بل إنها قوانين حركة صارمة وطبيعية، ولا علاقة لها لا بالخير ولا بالشرِّ، ولا بالإيمان ولا بالكفر ، ولم يلبث الأمر طويلاً حتى ظهر في ساحة المعركة عالم الأحياء الشهير (تشارلز داروين)، وهو الذي قاده عمله إلى القول بتطور الكائنات تبعًا لظروفها وحاجاتها المعيشية، وأنها ترتقي إلى كائنات أفضل[6]، فالصراع المرير بين الكنيسة ورجال الفكر والعلم في العصر الوسيط، ومصادرتها لآراء العلماء المخالفة وتعنفها ضدهم، مما ساعد على تقبل الآراء والنظريات العلمية التي تهاجم الكنيسة وتفند آراءها، وتعلي في المقابل من قيمة العقل والعلم ولو كانت مخالفة للحقائق العلمية أو لوجود الإله .

وعلى هذا يمكن القول إن العلمانية تآلفت مع وضعية الغرب التاريخية في صراعه مع الاستبداد الديني والطغيان السياسي المؤسس والمغلف بشكله الكنسي وكذا الاحتكار المفاهيمي الذي طال الفكر وشمل العقائد الدينية والأيديولوجيات، ولذلك تآزرت المواقف الفكرية والفلسفية لأجل مناهضة المسيحية، والدعوة إلى

---

1 – ينظر موسى معيرش ومجموعة مؤلفين، في سؤال العلمانية، مصدر سابق، ص48- 52 .

2 – نيكولاس كوبرنيكوس (1473-1543م): وُلِد في مدينة ثورن في مقاطعة بروسيا، درس في بولندا وأكمل دراسته في جامعة بولونيا الإيطالية، كان فلكيًّا ماهرًا، يُعتبر أول مَنْ صاغ نظرية مركزية الشمس وكون الأرض جرمًا يدور في فلكها.

3 – برونو (1548- 1600م): فيلسوف ورياضي وفلكي إيطالي، قال: إن الأرض ليست هي مركز الكون، حكمت عليه الكنيسة الكاثوليكية بالهرطقة، وأحرقت كتبه، عُدَّ رمزًا لحرية التفكير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

4- جاليليو (1564-1642م): عالم فلكي، وفيزيائي إيطالي، كان يُدعى مُؤَسِّس العلوم التجريبية المعاصرة، استدعته الكنيسة الرومانية مرتين للتحقيق معه في صحة مناصرته لنظرية كوبرنيكوس، وحكمت عليه عام 1633م بالسجن المؤبد (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج13، ص736) .

5 – نيوتن : سِيِّر إسحاق نيوتُن (1642- 1727م): عالم رياضيات وفلكي إنجليزي، اكتشف نظرية جاذبية الأرض، كما اكتشف أسرار الضوء والألوان، وابتكر فرعًا من الرياضيات يُسَمِّى حساب التفاضل والتكامل (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج21، ص250).

6 – ينظر مجموعة من المؤلفين، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط4، دار الندوة العالمية، 1420ه ج2، ص604، وينظر محمد راغب السرجاني، قصة العلمانية، أقلام للنشر والتوزيع، 2012م، ص15 .

سيادة الدولة واستبعاد الأخلاق عن السياسة، وعزل الدين ورجاله عن السلطة، أو جعله خادما للسياسة والدولة، باعتماد سيادة العقل وتحكيمه وحده في شؤون الحياة والكون .

وفي هذه الحال؛ كان التدين من أكثر ضحايا الثورة العلمية والعلمنة، فبدعوى التنوير برز الكثير من المفكرين والعلماء الذين تحمسوا لفكرة تحرير العالم من السحر، فباعتبار السحر والدين مرحلة سابقة ممهدة لعهد العلم والتنوير (فراحوا ينظرون لقرب أفول نجم الدين والفكر الديني، معتقدين أنه كلما ازداد توجه العالم نحو الحداثة والعلم، قل توجه الناس نحو الدين والتدين، ووفق ذلك اعتبر كثير من الباحثين أن التدين في حد ذاته حالة مرضية، تحتاج إلى علاج... وانطلاقا من تحاليله النفسية وكزعيم لمدرسة التحليل النفسي كان فرويد مصرا على اعتبار الدين وهما لا يمكن إثباته، بل صنف التدين كحالة مرضية، تحتاج إلى تدخل العلم لتصحيحها، فالدين يعوض بالعلم، وكلما تطورت المعرفة العلمية قلت حاجة الإنسان للعقائد الدينية، ومن ثم فليس هناك حاجة للدين في المستقبل.. ويمثل الطرح الفرويدي تجسيدا وفيا لأيديولوجي ة الحداثة الغربية، التي ثارت ضد هيمنة الدين ورجال الدين المسيحي على المجالات الاجتماعية المختلفة، ذهبت إلى أن العالم يجب أن لا يكون له دين إلا العلم)[1] .

ومن جهته بين (جيمس) لدى تعرضه لتحليل ومناقشة الاعتقاد الديني انطلاقا من فلسفته البراجماتية أن (الاعتقاد الديني مفيد ونافع بشرط أن يؤدي إلى نتائج عملية، وإلا فلا حاجة لنا به، ورغم ما يحدثه الاعتقاد الديني من تفاؤل .. ويقضي على القلق إلا أن الإله ليس له وجود حقيقي بل لا يخرج عن كونه من خلق الاعتقاد، وهو إن أدى إلى نتائج أفضل فليعتقد به، وإلا فلا حاجة له) [2] فالدين عند (جيمس) لا يتعدى كونه وسيلة تستغل وفقا للحاجة والمنفعة . وهكذا تكاتفت الفلسفات التاريخية والاتجاهات السياسية والفكرية والتفسيرات العلمية والنفسية على الثورة على الفكر الديني في الغرب الذي يركن إلى نوع من الاستسلام والقبول، داعيا إلى مناخ حديث وحداثي متفتح، من خلال التهليل بالحرية والعقلانية كمسار إنساني، ولكن ما قيمة هذا العالم الحداثي الحديث، وإلى أين يتجه؟ بل وما قيمة الإنسان في هذا العالم ؟ وماذا بعد العلمانية والعقلانية؟

أدت العلمانية دورها بامتياز في الفكر الغربي الحديث، فلقد استطاعت بالفعل، أن تحدث جملة من القطائع التاريخية مع الفكر الدوغمائي والخرافي، وأرجعت للعقل دوره في مجال النظر والتأمل، وخلصت المواطن من الاستبداد والظلم باسم السيد والرب، ففي فرنسا مثلا جسدت الثورة الفرنسية مبادئ العلمانية في خطابها الأول الذي كُرس على شكل شعار شهير يقول "لا نريد ربا ولا سيدا"، كما اتسم الفكر الأنواري عموما

1- ينظر سيقموند فرويد، مستقبل وهم، مصدر سابق، ص32- 33 .

2 - ينظر محمد عبد الحفيظ، الفلسفة والاعتقاد الديني (وليم جيمس نموذجا)، ط 1، الإسكندرية : دار الوفاء، 2005م، ص1- 2 .

بنزعة الحرية واستقلالية الفرد [1]. فهكذا كانت ظروف ولادة العلمانية وهكذا كان مهدها بداية ومبرراتها الأولى، ولكن هل استمر الحال على هذا النحو، وهل تواصلت هذه المبررات ؟

في الوقت الحالي يستطيع كل دارس لتاريخ أوربا القديم والحديث، بل كل علماني أن يجزم بأن ظروف ولادة العلمانية في عصر الأنوار لم تعد مواتية ولا قائمة، فالأديان لم تصبح تمتلك تلك السلطة القهرية التي مارستها الكنيسة زمن عصور الإقطاع [2]، بل عبر (كونزلن) [3] في بحثه عن صنيع العلمنة بالنصرانية.. وعن الثمرات المرة التي تعاني منها أوربا اليوم : "لقد مثلت العلمنة تراجع السلطة المسيحية، وضياع أهميتها الدينية، وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية، والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ : دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين .. لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي، وكان من نتائجها فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملا، وزوال أهمية الدين كسلطة عامة .. بل وزوال أهميته أيضا كقوة موجهة، فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس.. ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينا حل محل الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم .."[4]

وحيث أن العلمانية قامت في جوهرها على (تحرير العقل من كل خرافة وإطلاق الروح العلمية والإبداعية، ومحاولتها لإقامة الحياة الإنساني ة والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والتربوية على أساس عقلي مجرد من رواسب الدين وقائم على أسس ووقائع مادية بحتة، تقتصر فيها العقيدة وجميع نشاطات الحياة الروحية على نطاق الفرد دون أن تكون لها علاقة بالمجتمع والدولة)[5] فإنها صوّغت لنفسها عملية تحويل كل ما هو في الأصل معتقدات مسيحية إلى مفاهيم دنيوية عن البشر والعالم [6]، ولم يعد فهم العلمنة مقصورا على تراجع السلطة المسيحية بشكلها المؤسس واضمحلال نفوذ الكنيسة فحسب، وإنما صارت تمثل خطة لفهم ضياع أهمية المسيحية الدينية الأصلية، فمن منظور لاهوتي، ولا سيما بروتستانتي، فقد نشأ وضع جديد تماما بالنسبة للإنسان الحديث، ولعله لأول مرة في التاريخ نجد الإباحات الدينية في العالم فقدت معقوليتها الظاهرية، ليس

---

1 – ينظر عبد القادر بوعرفة، في سؤال العلمانية (العرب وسؤال ما بعد العلمانية)، مصدر سابق، ص193 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص194 .

3 – جوتفرايد كونزلن : قس، وعالم اجتماع ألماني، وأستاذ اللاهوت الإنجيلي والأخلاقيات الاجتماعية بجامعة القوات المسلحة ميونيخ– ألمانيا .

4 – جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية (شهادة ألمانية)، تقديم : محمد عمارة، ط1، مصر : دار النهضة، 1999م، ص22 .

5 – معيرش موسى ومجموعة مؤلفين، في سؤال العلمانية (الإشكالات التاريخية والآفاق المعرفية)، ط 1، بيروت : دار الروافد الثقافية– ناشرون، ص55 .

6 – جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، مصدر سابق، ص22 .

بالنسبة إلى قليل من المفكرين والجماعات الاجتماعية المتطرفة الأخرى فحسب، بل أيضا بالنسبة إلى السواد الأعظم من المجتمع" [1] فلم تكتف العلمنة بعزل الدين عن الدولة أو فصل ما هو ديني عن ما هو دنيوي، بل استغنت عن كل ما هو ديني واستبدلته بمفهوم دنيوي بحت، وبذلك تحولت إلى نمط وأسلوب للعيش استمرأه السواد الأعظم وقبلوا به نمط حياة ودينا في الوقت ذاته . إلا أن قيم العولمة والحداثة التي انتشرت في العالم أقرت أنه ليس هناك مطلقات يقينية، فلم تعد العلمانية ذاتها بمنأى عن النقد...هذه المقاربة النقدية للعلمانية تزامنت مع تزايد شعبية البحث عن معنى في الحياة.. فالعلمانية لا يمكنها أن تحل محل أنطولوجية الدين للإجابة عن الأسئلة الوجودية التي من شأنها أن تجعل الحياة أكثر مغزى [2]. وهنا أثبتت العلمانية عجزها وقصورها عن تلبية حاجيات الإنسان الإنسانية أين يتصدر الدين والتدين أولى النزعات الإنسانية .

فعن واقع المجتمع الأمريكي؛ هو في القمة من الحضارة المادية المعاصرة، لكن الفراغ الروحي في ذلك المجتمع، أنتج مضاعفات ومعاناة خطيرة في حياة وسلوك الأمريكيين، حيث ينتشر القلق، وتزداد حوادث الانتحار، وتتصاعد جرائم العنف، حتى على مستوى طلاب المدارس الابتدائية، كما تحدثت عن ذلك وسائل الإعلام، عن الفساد الأخلاقي المستشري.. ففي سنين ماضية تصدر قائمة الكتب الأكثر مبيعا في أمريكا، حسب صحيفة (نيويورك تايمز) كتاب عنوانه (الخروج النهائي) [*] يتحدث عن أساليب الانتحار ووسائله المختلفة بلغة إرشادية توجيهية[3] هذا الواقع المتأزم لفت أنظار المفكرين الغربيين إلى موقع الخلل في الحضارة المادية، وهو الخواء والفراغ الروحي، كما دفع بفئات من المجتمع الأمريكي والغربي، إلى البحث عن مصدر إلهام روحي، يسد ذلك الفراغ ويملأ الخواء، مما أفسح المجال لنمو التوجهات الأسطورية الخرافية[4] .

وعليه فبموجب العلمانية (قد أصبح الإنسان أكثر سلبية واستلابا، وتقلصت أبعاد وجوده في بعد واحد، يتمثل في البعد الاستهلاكي فقط، ولم تستطع العلمانية أن تجيب على أسئلة الإنسان الصميمة، ولم تقدر على حل مشكلات عصره الأكثر مأساوية) [5] ونجمل القول هنا في رأي (نيتشة) [1] ونقده للعلمانية ولروح الحداثة في

---

1 – جتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، مصدر سابق، ص26 .

[2]– Alper Bilgili, (post-Secular Society and the Multi-Vocal Religiou Sphere in Turkey European Perspectives- Journal on European PersPectives of the Western Balkans, , October2011, Vol 3 , p138.

* – كتاب (Final Exit: The Practicalities of Self-deliverance & Assisted Suicide for the Dying) تأليف الكاتب والصحفي الأمريكي (Derek Humphry) ديريك همفريسيتندر (ولد 1930م) عام 1990م .

3 – جريدة السفير، بيروت، 30 محرم، 1412ه .

4 – حسن الصفار، التدين بين المظهر والجوهر، مصدر سابق، ص13 .

5 – ينظر المصدر نفسه، 194 .

الغرب، وصدق نبوءته في (إرادة الاقتدار) أنّ "إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون (نجمهم) الذي فوقهم و يحيون حياة تافهة و ذات بعد واحد لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه" 2 . والظاهر أن روح المعرفة العلمية والفردية قد نمت نموا تطوريا على حساب العقل والروح والوجدان، وبذلك ساءت حال أوربا والغرب .. حين أخذ العقل يتدهور إلى نوع من الذكاء الخبيث، كما تدهورت الروح الفردية إلى الأنانية وآلت فترة التنوير إلى الخواء والاضمحلال والشرود مما عرض العلمانية في حد ذاتها للنقد وأسفر عن أفكار وآراء شتى كماذا بعد العلمانية؟ وإلى أين يؤول كل ذلك ؟

المطلب الثاني : الوضع الديني في الغرب

لا يختلف اثنان بأن الألفية الثالثة اشتهرت بألفية العودة إلى الدين، وخاصة بالغرب، وتعالت موجة الإحياء الديني، ولذلك أعلن (يورغن هابرماس) Jurgen Habermas [3] نهاية العلمانية إذ قال : "يوضح تطور المجتمعات الأوربية الغنية، أن نظرية العلمنة تقابل تحديا منذ عقدين بين علماء الاجتماع.. وقد كشف بوضوح عن وجهة نظر تحدثت عن نهاية نظرية العلمنة" 54، فكأن العلمانية أصبحت تعاني مأزقا حضاريا وتحديا في تقابلها مع الدين في ظل المجتمعات الغربية المعاصرة .

والحق أنه آن أوان البدء في دراسة اكتشاف الدين في أوربا، ولعل أغلب الدراسات قد نظرت لوضع الدين المعاصر في المجتمعات الغربية من زاويتين حيث توزع الدين بين منطق الفردية من جهة بحيث يتم تشجيع المواطن الغربي على نبذ جميع الطرق الدينية النائية عن ثقافته المركزية، ومنطق العولمة من جهة أخرى حين يدعوه البعض الآخر إلى اكتشاف تجربة التعرف على أديان أخرى، وفي هذا المضمار (يقرر (هابرماس) وجود حالة من الأصولية والتحجر (التي يمكن وسمها بالأرثوذكسية).. مقابل ما أرادته الحداثة من أن يرى الشخص

1- فردريك فيلهيلم نيتشه : (Friedrich Nietzsche) (1844- 1900م) فيلسوف ألماني، ناقد ثقافي، شاعر ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية، كان لعمله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج21، ص187).

2 – نقلا عن جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، مصدر سابق، ص17 .

3- يورغن هابرماس (Jürgen Habermas): (ولد1929) : فيلسوف وعالم اجتماع ألماني معاصر ، يعتبر من أهم علماء الاجتماع والسياسة في عالمنا المعاصر ، ولد في دوسلدورف، ألمانيا وما زال يعيش بألمانيا ، يعد من أهم منظري مدرسة فرانكفورت النقدية له أزيد من خمسين مؤلفا يتحدث عن مواضيع عديدة في الفلسفة وعلم الاجتماع وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي، من أعماله : التحولات البنيوية للأوضاع الادجتماعية1962م، نحو مجتمع عقلاني1967م، الوعي الأخلاقي والفعل التواصلي1983م... (ينظر جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، مصدر سابق، ص687)

4- Jurgen Habermas, Qu' est-ce qu' une société(Post- séculiere), Le Débat, Paris :Gaallimard, novembre- decembre 2008, p5

5 – نقلا عن عبد القادر بوعرفة، في سؤال العلمانية (العرب وسؤال ما بعد العلمانية)، مصدر سابق، ص195 .

نفسه من خلال عيون الآخرين؛ مما يجر للقبول بالمختلف الديني والتعددية على أساس الأخلاق الكونية، ومواجهة مبادئ الأديان المختلفة.. ولذلك فعلى الحس المشترك أن لا يعمل من أجل جماعة إيمانية واحدة، بل على شكل من التعدد الصوتي للإيمان والعقيدة) [1] وإزاء هذين الحالتين صار على الدين –أيا كان– التعريف بنفسه ومواجهة التحدي المعقد لموقعه إزاء الأديان المجاورة باندماجه، أو بالإحالة دون تغيير جوهر معتقده، ولكن كيف تتحقق هذه الصورة ما بعد العلمانية ؟

يرصد (جوتفرايد كونزلن) ظاهرة الإحياء الديني في أوربا قائلا :"... إذ إن باستطاعة المرء أن يلمس اهتماما جديدا بالدين، وذلك وسط الثقافة العلمانية الغربية الآخذة بالتزايد، فهناك ضروب جديدة من الروحانية وحركات جديدة ذات طابع ديني، وعلى علماء الدين والاجتماع أن يدركوا — وإن أدهشهم ذلك– أن نبوءة (الزمان الخالي من الدين) لم تتحقق، فهذا العالم الخالي من الدين حافل بالدين الذي لم ينشأ في معظمه داخل الكنائس الرسمية.."[2] فلا شك أن ما يفهم بوضوح هو تصاعد موجات الاستياء من العلمانية والحداثة، مما دفع بالإنسان إلى السعي إلى التحرر من سطوة العلمنة والتطرف الديني أو اللاديني، واللجوء إلى رحاب الأخلاق وفضاء الروح . وإزاء الوضع الراهن وأمام ظاهرة الوعي الديني الجديد بالغرب، حاول بعض مفكريه تطويع مفهوم العلمانية من خلال خلق بعض المفاهيم المركبة مثل "العلمانية الأخلاقية" و"العلمانية الروحية"... [3] يجمعها كلها الدعوة إلى قولبة الدين في مجال العلم، أو شق طريق بين العلم والدين، يتجاوز انفصام النموذجين الديني والعلماني، ويسعى إلى التكامل بين المادي والروحي .

ومن جهة أخرى وردا على مواقف المفكرين والعلماء الذين تبنوا موقفا سلبيا من الدين والتدين وأثره على الصحة النفسية (تبنت جمعية الطب النفسي الأمريكية (15APA) موقفا مفاده أنه من غير الأخلاقي للأطباء النفسانيين تشخيص حالة شخص بأنها مرض عقلي لمجرد اعتناقه لدين جديد..يمثل هذا الموقف بداية التحول في الدراسات النفسية حول المسألة الدينية، حيث بدأ العلماء ينظرون إلى التدين كسلوك سوي، بل هناك من اعتبره شرطا من شروط الصحة النفسية، وكان هذا التحول نتيجة إعادة النظر في مكانة الدين والتدين في المجتمع..)[4] .

ويمثل النصف الثاني من القرن الماضي بداية الصحوات الدينية المختلفة، الأمر الذي أدى بقوة إلى عودة الدين إلى الحياة الاجتماعية.. فسارت أعمال الباحثين في هذا الاتجاه، حيث نظر (كارل غوستاف يونغ) (Jung)

---

[1] – ينظر يورغن هابرماس، مستقبل الطبيعة الإنسانية، تر: جورج كتورة، ط 1، بيروت : المكتبة الشرقية، 2006م، ص124- 125، ص132-133 .

[2] – جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية، مصدر سابق، ص33 .

[3] – ينظر عبد القادر بوعرفة وآخرون، في سؤال العلمانية (العرب وسؤال ما بعد العلمانية)، مصدر سابق، ص204 .

4 – طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، مصدر سابق، ص69 .

إلى الدين كمصدر للاستقرار، وكما يمكن أن يكون الدين مصدرا للقلق يمكنه أن يكون مصدرا للأمن من القلق، وكذلك يمكنه أن يكون معينا على القبول الاجتماعي وعلى النمو وتحقيق الذات [1] . يمثل هذا الموقف أول إرهاصات التمرد على مؤسس التحليل النفسي، وأول أطروحة في نقض أطروحة (فرويد) حول عصابية الدين .

وفي رصده لـــ(الوضع الأيديولوجي الحديث) وجد (دومون) [2] أنه (اعتبارا من القرن الثالث عشر للميلاد، أدى تطور المسيحية إلى ميلاد مفهوم الذات، ليعزز ذلك من الفردانية، وينقلها من (خارج العالم) إلى (داخل العالم) لتأخذ الأيديولوجيا في الوضع الحديث منحى يعزز الذاتية، وتصب الذاتية في الوقت نفسه في فاعل جماعي يؤسس لبرامج مطلبية اجتماعية وسياسية) [3] ويقابل (دومون) مفهوم الفردانية، بالحالة التي يكون الفرد فيها منقادا عبر مركبات اجتماعية- أيديولوجية ماصة لفرديته، ويعزو دومون هذا التطور في النمط الأيديولوجي فيما يسميه بـــ (الفردانية الحديثة) إلى ما سماه (الفردانية المسيحية) ورأى أن الفردانية الحديثة هي بالفعل فردانية ذات أصول مسيحية، حيث رأى أن شيئا من الفردانية الحديثة كان حاضرا لدى أوائل المسيحيين وفي العالم المحيط بهم ومن تعليم المسيح ثم بولس فإن المسيحي —كما يقول المؤرخ وعالم الاجتماع المختص بالكنيسة (إرنست ترولش)- هو فرد في علاقة مع الله، والمسيحية الفردانية لا تعالج كائنات اجتماعية بل أفرادا أي بشرا كل واحد منهم يكفي ذاته بذاته بوصفه مخلوقا على صورة الله.. [4] . وكل أولئك إنما يعبرون عن النزوع إلى المسيحية في إطار الوضع الأيديولوجي الحديث بربطهم بين (الفردانية الحديثة) بأصول المسيحية تحت مسمى (الفردانية المسيحية)، ولذلك لجأوا لتأصيل النزعة الفردية الذاتية التي أفرزتها العولمة الحديثة ليجدوا اعتمادا لها في غضون تعاليم المسيح و المسيحية الأصولية .

وقد تناول الباحث الفرنسي (باتريك ميشيل) (Patrick Michel)[5] التدين الشبابي، ورصد تشكله بالتأثير المتصاعد للعولمة، حيث تأسست "علاقة استهلاكية بالدين، يتعامل فيها المشاهد مع الدين بشكل استهلاكي

---

1 - طيبي غماري، التدين والصحة النفسية في الجزائر، مصدر سابق، ص69 .

2 - لويس دومون : (1911- 1998م) عالم اجتماع وأنثربولوجيا فرنسي شهير، شغل لمدة طويلة مديرا للدراسات في معهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس (علم اجتماع الهند ثم علم الاجتماع المقارن) من أهم مؤلفاته (Homo aequalis, I) و (Homo hierarchicus)

3 - لويس دومون، مقالات في الفردانية (منظور أنثربولوجي للأيديولوجية الحديثة)، تر: بدر الدين عردوكي، ط1، بيروت : المنظمة العربية للترجمة، 2006م، ص24 .

4 - المصدر نفسه، ص24- 44 ، 49، 113 .

5 - باتريك ميشيل Patrick Michel) : (ولد 1970م) الأستاذ بمعهد الدراسات السياسية ومعهد الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية بباريس، والذي عرف باشتغاله على قضايا الدين والحداثة والسياسة، وإضافة لكتابه الأشهر: الدين

فيختار العرض الديني المناسب له من خلال مقاييسه الخاصة، بحيث يختار من الدين المساحة أو الفضاء والحيز المريح وغير الإجباري بعيدا عن أي نظام قيمي يحمل في طياته الإجبار، ووفق هذه العلاقة الاستهلاكية بالدين سيكون للفرد المشاهد إمكانية رفض هذا العرض الديني في حال عدم قبوله ليبحث عن عرض ديني أكثر قبولا "[1] فقد وصفت أطروحة ميشيل نمط التدين في المجتمعات الغربية بالاستهلاكية، لتعاطيه مباشرة من طرف الفرد الحديث بالقبول أو الرفض، وبهذا تميز النمط التديني الجديد بالغرب بالانفلات من المؤسسات الأيديولوجية الرسمية، واتسامه بنوع من الاستقلالية والحرية الشخصية، يفسح فيها المجال للنقد والرفض أو القبول والرد .

وقد أثرت العلمانية على فهم الدين وبالتالي على أنماط التدين (فالسياقات الاجتماعية أنجبت تعريفات علمانية المضمون لما هو ديني، وهي مطبوعة بطابع النظام الاجتماعي القائم، وفي تطبيق نظرية الخيار العقلاني (Rational Choice Theory) على الدين خير مثال، فباعتبار الدين خيارا عقلانيا، وذلك حين يعد سلوك الناس وسيلة لتحصيل أفضل مردود من وجهة نظرهم في مرحلة معينة، ويفسر الدين على أنه استثمار أو سلوك أداتي تعويضي، بمعنى أنه مختص بتحصيل ما لا يمكن تحصيله في الحياة العملية، ويمكن أن يكون التعويض في الآخرة نفسيا، أو اجتماعيا في الدنيا، ونظرا لأن الدين واحد من المعروضات في سوق تنافسية تطرح خيارات دينية عدة وبموجب نظرية الخيار العقلاني يقف الباحث إزاء فرد عاقل يبحث عن اكتفاء ديني، وينتقي خيارا دينيا من بين خيارات مطروحة، متوخيا أكبر نفع ممكن له[2] .

وقد تتمثل حالة الرجوع إلى الدين في ظل ما بعد العلمانية في ظواهر عدة منها :

- تفاقم الظاهرة الأصولية في العالم، والتي تحاول العودة إلى الجذور الإيمانية ومسلمات العقيدة 3 : وقد يظهر ذلك من خلال التردد على الكنائس [4] والمواظبة على الطقوس والخدمات المسيحية مما يرمز للنشاط الروحي والاعتراف بسلطة الكنيسة، بمزاولة الصلوات التقليدية، وقراءة الكتاب المقدس، ودرب الصليب [*] والقداس

والسياسة – التحول العظيم (1994) صدر لباتريك ميشيل أكثر من عشرة كتب تعالج هذه القضايا من أهمها: الكنيسة في بولندا ومستقبل الوطن (1981)، السياسة والدين في أوربا الشرقية (1985)، الأديان في أوربا الشرقية (1992)...

1 – هاني عواد، التدين الشبابي (مجلة عمران)، مصدر سابق، ص78 .

2 – ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ص277 .

[3]– Jurgen Habermas, Qu' est-ce qu' une société(Post- séculiere), Le Débat, numero 152, novembre- decembre 2008, Gaallimard, Paris, p5.

4 – دراسة ذي إيكونوميست 2015م : وفقًا لبيانات من المسح الإجتماعي الأوروبي (ESS) وجدت أنّ حوالي 75% من سكان أوروبا أو 585 مليون نسمى قالوا أنهم مسيحيون ومنهم حوالي 30% يترددون على الكنائس كل أحد مرة في الشهر على الأقل أي حوالي 190 مليون نسمة، ينظر الإحصائية رقم (3) للتردد على الكنائس في البلدان الغربية، ص456 .

* – درب الصليب : هو رتبة طقسية تقام في زمن الصوم الكبير، وفي أسبوع الآلام، في الكنيسة أو على الطرقات العامة، وتقرأ فيها نصوص صلب المسيح على أربع عشر مرحلة من العهد الجديد إلى جانب بعض المراحل المأخوذة من التقاليد

الإلهي..الخ، أما عن جانب المعتقدات فقد أظهرت الاستطلاعات أنه في المتوسط 52% من مواطني دول الاتحاد الأوروبي أنهم "يؤمنون بالله" و 27% يعتقدون أن هناك نوعًا من قوة روح أو حياة أو إله، بينما 18% فقط الذين لا يعتقدون بأي نوع من روح الله أو قوة الحياة[1]، وكل ذلك يدل على حضور الدين في الحياة الغربية جماعات وأفرادا..

- وكذا ظهور حركة تبشيرية واسعة النطاق، سواء في الديانات البوذية أو الوثنية، أو في الديانات التوحيدية الثلاث2 : وعجيب أن تنتشر أديان وضعية وثنية قديمة في الغرب كأمريكا وأوربا؛ هي الثقافات المجوسية*والبوذية** والهندوسية*** ... لتتفوق على الثقافة الغربية رغم منافاتها لواقع الإنسان الغربي كل المنافاة، وكل ذلك إنما يدل على اهتزاز ثقة الغربي بحضارته وثقافته ليلجأ إلى أي دين من الأديان (ف البوذية مثلا انتشرت مؤخرًا في جميع أنحاء أوروبا و هي تنمو بسرعة في السنوات الأخيرة، ليصل عدد أتباعها إلى نحو 3 ملايين، وفي أمريكا يصل العدد إلى 6 ملايين بنسبة 2 %)3،.. أما الهندوسية فيقرب عدد أتباعها في أوربا

المسيحية .وترفق كل مرحلة من المراحل بتلاوة صلاة الأبانا، وتأمل اجتماعي أو روحي معيّن. يقام درب الصليب في الكنيسة الكاثوليكية، وهناك ممارسات شبيهة لدى الطوائف الأخرى.

1 - ينظر European Commission, Discrimination in the EU in 2012(SPECIAL EUROBAROMETER 393), European Commission : November 2012, p233 .

2- Jurgen Habermas, Qu' est-ce qu' une société(Post- séculiere), Le Débat, p5.

* - المجوسية : كلمة فارسية تطلق على أتباع الديانة المجوسية، وهي ديانة وثنية ثنوية تقول بإلهين اثنين : إله للخير وإله للشر، وقد تأثروا ببعض الديانات الهندية، فقالوا بتناسخ الأرواح(الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج7، ص328) .

** - البوذية : هي فلسفة وضعية انتحلت الصبغة الدينية ، ظهرت في الهند في القرن الخامس قبل الميلاد على يد مؤسسها (بوذا)، ومن عقائدها : إنكار وجود الله، والقول بتناسخ الأرواح ... (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج2، ص785)

*** - الهندوسية : ويطلق عليها أيضاً البرهمية وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد .. وهي تضم القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادىء القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله.. ثم قالوا بوجود آلهة ثلاثة من عبد أحدها فقد عبدها جميعاً وهي براهما وفشنو وسيفا (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، ج 2، ص724)

3 - David snydrer , The complet book of Buddha s lists- Explained, u.s.a Vipassana foundation, 2006-2009 , p22 .

(1.4%) سنة 1998م1، بل إن حركات أخرى مثل الوثنية الجديدة يبلغ عدد معتقيها (40.000) في المملكة المتحدة 2... ولذلك أضحى التعدد والتنوع هو المظهر الجلي للتدين في أمريكا3 .

وكل ذلك ليس إلا تأكيدا على أن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. (ففي ظل انحسار المسيحية، انفتح باب أوربا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية، لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة من التنجيم إلى عبادة القوى الخارقة.. والاعتقاد بالأشباح، وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية...)4

وفي الواقع ظهرت سوق للفرص الدينية، فهناك على سبيل المثال ما يدعى (بالحركات الدينية الجديدة) من شتى الأصول، علاوة على ذلك ثمة أشكال غير منظمة في الغالب للتدين الحر تتميز بالتوفيقية والانتقائية التي تجمع بين مختلف التقاليد، ويعمد هذا النوع من التدين دون تشدد إلى اختيار تقاليد دينية من جميع أنحاء العالم منتقيا منها تلك العناصر ذات التجارب الشخصية الواعدة، ولا يتأتى إتباع وجهة النظر الدينية عن طريق التربية والتعليم، أو من خلال تقليد معين، أو أنماط ثقافية موروثة، بل عن طريق الاختيار الفردي، فهناك خليط من الطقوس السرية المؤمنة بالقوى الخفية، والتنجيم والاعتقاد بالأشباح، وطقوس الهنود الحمر، ونتف دينية ألمانية وهندية وصينية وتبتية...إضافة إلى مجموعة محدثة ترمي لأن تكون مملوءة بالروح القدس، ومجموعات (كاريزميق) تؤمن بالقوى الخارقة، وأصولية دينية حديثة آخذة في النشاط المتزايد على ما يبدو وهي على درجة عالية من التنظيم، مستقرة من حيث محتواها الديني وقادرة على توفير معرفة موضوعية ومتوفرة دائما للسعي نحو الخلاص ... وهذا دون أن ننسى وجود أديان عالمية أخرى لا سيما الإسلام؛ الذي يسعى ويحقق نجاحا متزايدا في احتلال موقعه أيضا في المجتمعات الغربية[5] .

وموجز القول، فإنه بالإمكان وصف الوضع الراهن بأنه متسم بالتعددية الدينية، التي يمكن أن نجد فيها شتى وجهات النظر التي تقرر نوع الحياة للناس، ومعنى ذلك بالنسبة للفئات الدينية المسيحية أنها فقدت احتكارها الديني... وهناك ولى التعارض بين المفهومات : مركزية البشرية[6] /مركزية الرب، و لم يعد من المصلحة استعادة

---

1 - Adherents.com

2 - http://www.scottishpf.org/census.html

3 - ينظر ملحق3، إحصائية رقم (4) للإنتماء الديني والنمو في أوربا 1910 و 2010م، ص456 .

4 - جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، مصدر سابق، ص18 .

5 - المصدر نفسه، ص34 .

6 - المركزية البشرية: يعتقد البعض توهما أن الإنسان هو مركز وأصل الوجود كله، بمعنى أنه هو لغاية الكبرى لكل الوجود .

مضمون الكتاب المقدس في نطاق الإيمان، السبب الذي أدى إلى محاربة الكاهن والظلامية، كما لم يعد الخطاب الديني ذو إنسانية مغلقة تخص فقط فئة المؤمنين، فقد أصبحت الكنيسة بل والمسيحية نفسها مجرد خيار واحد للسلوك الديني .. أما التعددية المعاصرة فهي سوق حافلة بالحقائق، وقوى توجيه فكري تقرر حياة الناس.. وفي سوق الحقائق لا يصمد سوى أولئك الذين لديهم حقائق ليقولوها[1]، فالإنسانية الأنوارية إنسانية مفتوحة، تدفع التعارض ولا تربط الإيمان بالرب بمضمون ومتون الكتاب المقدس، والمؤكد أنه في سوق التعددية المعاصرة لا قيمة إلا للحقائق اليقينية .

فلا يمكن بأية حال تجاهل ظاهرة العودة إلى الدين، والتي تتفاوت نسبتها من بلد لآخر، حسب طبيعة ثقافته ونظامه السياسي، ولكن ليس في مجتمع ما بعد العلمانية دعوة إلى الدين التقليدي ولا إلى ممارسة الطقوس اللاإنسانية، وإنما هو تجديد الوعي الديني لدى الأفراد والجماعات، وعودته إلى الفضاء العمومي وفق عالمية العودة إلى الدين..[2]

ونظرا لما أفرزته الأبحاث الحديثة في العالم الغربي سيما الولايات المتحدة الأمريكية، وأوربا، فبالنسبة للأبحاث الجارية عن جانب الالتزامات والاعتقادات في الولايات المتحدة الأمريكية مثلا تحوز الاعتقادات الدينية أهمية عالية في الولايات المتحدة، إذ تكشف متابعات الرقابة الاجتماعية العامة -General Social Survey- أن : ما يقارب 63% من الأمريكيين ليس لهم في الله شكّ، في حين 2،2% فقط لا يؤمنون بالله، وأن ما يقارب ثلث الأمريكيين يعتقدون أن الكتاب المقدّس هو كلام الله الحق، وأكثر من 80% يرون كونه إلهاما إلهيا، كما يؤمن 77% بالجنّة و63% بالجحيم و58% بوجود الشيطان ... ويبقى مستوى المشاركة والانتماء للمنظّمات الدينية عاليا مقارنة بدول أخرى، فتقديرات الرقابة الاجتماعية العامة تبيّن أن 61% من الأمريكيين يصرّحون بانتمائهم لجمعيات دينية، و 29% يكشفون عن ارتياد الكنيسة أسبوعيا، وبشكل عام يعلن 45% عن ذهابهم للكنيسة مرّة في الشهر على الأقل ، وقرابة 22% من الأمريكيين يشاركون في الخدمات الدينية أسبوعيا.. فالأمريكيون يقَضّون جانبا هاما من أوقاتهم في خدمة المنظّمات الدينية، كما ينفِقون نسبة معتبرة من أموالهم عليها، بمعدّل 440 دولارا سنويا للعائلة،... 3، كما أن للدين تأثير كبير على: السياسة، والأسرة، والصحّة، والرفاهية، والفضاء الحر، والرأسمال الاجتماعي[4].

---

[1] - Jurgen Habermas, Qu' est-ce qu' une société(Post- séculiere), p13-14. وينظر جوتفرايد كونزلن، مأزق المسيحية والعلمانية في أوربا، مصدر سابق، ص35 .

[2] – ينظر عبد القادر بوعرفة، في سؤال العلمانية (العرب وسؤال ما بعد العلمانية)، مصدر سابق، ص212 .

[3] – دارن شِرْكات، كريستوفر إلّيسون، رودناي ستارك، لورانس إياناكوني، السوق الدينية في الغرب، تر: عز الدين عناية، دمشق : دار صفحات، 2012م، ص15 .

4 - المصدر نفسه، ص29- 40 .

وثمة مظهر جليّ يميز التدّين الأمريكي، حيث يتنوّع الالتزام الذاتي بحسب الجماعة الدينية ، ولكون اختلاف القطاعات الدينية بشتّى التمايزات بينها، من الأمور المعتادة في مختلف أرجاء العالم، فقد دفع ذلك غالبا إلى اعتبار التعدّدية الدينية مقوّما أساسيا للدّين في الولايات المتحدة [1]، فهناك ما يزيد عن 2100 جماعة دينيّة في أمريكا، حاوية لتنوّعات شتّى من الطقوس والنحل الدينية الجديدة، وفي هذا المركّب هناك 133 جماعة تحفل بـــ 55 مليون عضو منخرط و 137 مليونا من الموالين ، وتبيّن أرقام الرقابة الاجتماعية العامة، خلال سنوات 1989-1996، أن 25% من الأمريكيين يعرّفون ذواتهم بكونهم من الكاثوليك، وتقريبا 26% هم ممن ينضوون في تجمّعات المعمدانيين والبروتستانت المحافظين (مثل تجمّع الربّ، وكنائس المسيح، وكنيسة الربّ المسيح، والناصرية، والبندكستيين) والبروتستانت المعتدلين والتحرّريين (مثل الكنائس الأسقفية، والقسّيسية، والميتوديين واللّوثريين) الذين يمثّلون 29%، وأن أكثر من 9% ليسوا متديّنين، و 2،5% من اليهود، وما يقارب 2% يصرّحون بانتمائهم لتكتّلات غير مسيحية ... مثل مختلف الجماعات المسلمة ، و بيّنت الأبحاث بشكل جلي أن الاعتقادات والسلوكيات الدينية ناشطة جرّاء عوامل الاحتضان العائلي والديني ، و أحداث الحياة والتقدّم في السنّ ...2

ولا توجد دولة تمارس فيها المسيحية تأثيرا في حياة الناس البيتية كما في الولايات المتحدة الأمريكية، وعبر التأثير في المترل وفي العائلة الأمريكية يعود الدين فيؤثر في الحيز العام وفي السياسة [3] فالدين في الولايات المتحدة الأمريكية يوصف بالحيوية نظرا لحياد الدولة وحمايتها للحرية الدينية، مما يظهر تعددية الكنائس وحيوية دورها، وبهذا تحولت الحرية الدينية إلى إحدى القيم العليا وثقافة سائدة في أوربا، على خلاف النموذج الفرنسي مثلا ! ولا يستغرب أن نلحظ هناك أنماطا للعلمنة على غرار أنماط التدين كعلمنة بروتستانتية وعلمنة كاثوليكية .. ولا وجود هناك لفرق أو كنائس منشقة، لأن الكنائس كلها عبارة عن فرق دينية.. ذلك أن العلمنة أصبحت شرطا للحياة الدينية في العالم الحديث، وليست عقبة أمام الحياة الدينية[4]، فالحرية الدينية تحولت إلى نمط حياة .

يظهر الفرق جليا هنا بين منطق حياد الدولة وحماية الحريات الدينية كما في الولايات المتحدة الأمريكية، ومنطق آخر للدولة باعتبارها صاحبة رسالة علمانية في النقاش الذي دار في بداية هذا القرن في شأن ارتداء مسلمات الحجاب في المدارس الفرنسية، الأمر الذي دفع بالدولة إلى سن قوانين مثل قانون منع ارتداء الحجاب

---

1 - ينظر ملحق2، إحصائية رقم (5) الانتماء الديني في الولايات المتحدة الأمريكي ة ما بين سنتي 2001م و 2014م، ص458 .

2 - دارن شِرْكات وآخرون، السوق الدينية في الغرب، مصدر سابق، ص19 .

3 - عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ص251 .

4 - ينظر المصدر نفسه، ج2، ص20- 21، ص252 .

في المدارس في عام 2004م[1]، وبررت هذه الخطوات بضمان المساواة بين العقائد وضمان الحرية الدينية، إلا أن ذلك لم يخف الموقف السلبي للدولة تجاه المظاهر الدينية[2] .

ففي فرنسا تثار مسألة الحجاب في كل مرة ولسنوات طويلة، منذ ظهرت أول مرة سنة 1989م، بعد طرد مسؤول بمؤسسة تعليمية لثلاث طالبات مسلمات بسبب ارتدائهن للحجاب الإسلامي باعتباره مخالفا لمبادئ العلمانية الفرنسية.. وتوالى الأمر إلى سنة 1994م باعتبار ارتداء الحجاب شارة ذات طابع بارز تمثل في حد ذاتها وسيلة من وسائل التبشير والتمييز، ورسالة إشكالية تتضمن المجاهرة بدين الشخص في مؤسسة علمانية تساوي بين المواطنين ...رغم أن ذلك يناقض مبدأ العلمانية في الإقرار بالتعدد والاختلاف، وعموما اتسم الأمر بالتحيز الواضح في تطبيق العلمانية على الأديان والمذاهب الأخرى.. [3] فحال العلمانية هنا يقوم على ادعاء المساواة بين المواطنين لا بين الديانات والمذاهب، وذلك لارتباط المد العلماني بالتعصب الفرنسي القومي، تحولت العلمانية بموجبه إلى هوية وطنية قومية فرنسية .

وليس الاحتكار فقط إزاء الأديان الأخرى، بل إنه كذلك بين أديان الطائفة الواحدة، ففي (إيطاليا الكاثوليكية--مثلا- تفرض رقابة كبيرة على النواحي الدينية داخلها، فحتى سبعينيات القرن الماضي لا يزال بإمكان الكهنة الكاثوليك فقط إجراء قداس الزواج في إيطاليا، كما ليس بإمكان البروتستانت فسخ عقود زواجهم إذا ما أقرت من الكنيسة الكاثوليكية.. والإذاعة والتلفزة الحكوميتين تبثان كل أسبوع ساعات عدة من البرامج الكاثوليكية، وبداية من سنة 1973م -فحسب-، منحت البروتستانت 20 دقيقة أسبوعية في الإذاعة، و15 دقيقة في التلفزة)[4] .

أما بالنسبة لبلجيكا التي عرفت بمحاربة الطائفة المسيحية المعروفة بـــ(شهود يهوه) [*] ففي سنة 1981م فقط سحبت الحكومة البلجيكية تحجيرها التام، عبر السكك الحديدية وعبر البريد، نقل مطبوعات شهود يهوه التي

---

1 - تبعه في عام 2011 قانون يمنع ارتداء النقاب في المجال العام، بما في ذلك الشارع لأنه يمنع التعرف إلى هوية الشخص .

2 - ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج2، 267 .

3 - ينظر شرّاد هشام، في سؤال العلمانية (النموذج العلماني الفرنسي من معاداة الكاثوليكية إلى الإسلاموفوبيا)، ص 181-183، وينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج2، ص267 .

4 - ينظر رودناي ستارك ولورانس ر. إيانا كوني وآخرون، السوق الدينية في الغرب، ص 80، وينظر .
David B. Barrett , George T. Kurian, Todd M. Johnson, World Christian encyclopedia (a comparative survey of churches and religions in the modern world), Publ 2, New York Oxford, , 2001, Vol1, p648.

* - طائفة شهود يهوه : وهي منظمة سرية تدعي أنها نصرانية لا تعترف بالطوائف المسيحية الأخرى، ويتميز إتباعها بوعظهم التبشيري الذؤوب، وعرض دروسهم البيتية في الكتاب المقدس، ورفضهم لمظاهر الاحتفالات التي يزاولها أغلب المسيحيين بميلاد المسيح، كما لا يؤمنون بالثالوث (الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصر، ج2، ص563) .

من بينها الكتاب المقدس...وفي جانفي 1991م، نقحت البرتغال قانونا كان يسمح للكاثوليك -فقط- تدريس مادة الدين، منحت بموجبه بعض الحقوق للبروتستانت أيضا ... وعن إسبانيا فإلى غاية 1970م أصدرت إسبانيا مرسوما للتسامح الديني، أجاز لغير الكاثوليك حق أداء بعض الوظائف الدينية، وفي 1992م، وسعت الحكومة الإسبانية إعفاءاتها المالية، لتشمل تكتلات الجماعات البروتستانتية الإنجيلية... [1] فهذا كأمثلة عن الاحتكارات الدينية الطائفية بالنسبة للدول الأوربية الكاثوليكية .

أما عن الاحتكارات البروتستانتية، فإن الدول في أغلب البلدان البروتستانتية الأوربية تواصل توفير الأديان بشكل مجاني، أو على الأقل الدين الذي دفع المستهلك سهمه فيه عبر الضرائب، كما تستمر تلك الدول في نصب العراقيل البيروقراطية أمام المؤسسات الجديدة... وفي بعض الدول تتوفر المساعدة لكنائس مختلفة، وفي أخرى لواحدة فقط .. وفي تلك الكنائس البروتستانتية التابعة للدولة نجد الأكليروس يوجه الأمور حسب مراده.. وتمثل اللوثرية السويدية أنموذجا للمركب الذي عليه كنيسة الدولة.. ورغم أن السويد تسمح لعقائد أخرى بالتواجد وتنعتها بالكنائس الحرة (1%) إلا أنها لا تتمتع بحرية تامة، فغالبا ما تلاقي الجماعات البروتستانتية الإنجيلية -مثلا- صعوبة للسماح لها بالتسجيل القانوني للحصول على فضاء للقاءات العامة [2] . فإذا ما كان للدولة كنيسة واحدة رسمية، غالبا ما يكون لها السلطة المطلقة في التوجيه، وحينها يعتبر تواجد الكنائس الأخرى عبثيا أو أنها تعاني من العراقيل والاحتكارات الدينية .

والجدير بالذكر أن الكنائس في أوربا الكاثوليكية أو البروتستانتية تغدو نشطة في تحريك أعضائها حين تواجه اقتصاديات دينية تعددية أو شبه احتكارية من الطائفة المخالفة المسيطرة، وبتوفر مؤسسات دينية تنافسية في السوق الدينية، في حين تكون أقل حيوية حين تقترب من الاقتصاديات الدينية الموجهة من قبل الدولة[3] .

وعموما فإن أوربا تشهد مجالا دينيا مؤطرا بسياسات مشددة أو تعسفية، تعترف خلالها الدولة بكنيسة واحدة وتعدها رسمية، أو أنها تضفي باحتكارها الشرعية على بعض الكنائس دون أخرى، أو على الأقل تساهلها مع طائفة دون أخرى، وفي المقابل وبشكل عام يعتبر إظهار الرموز الدينية في الولايات المتحدة الأمريكية جزء من حق التعبير عن الهوية الفردية أو الشخصية، أو عن حق الممارسة لشعائر دينية حين يعد المظهر الخارجي أو إظهار الانتماء أو المعتقد بالزي أو الرموز شعيرة دينية أو واجبا دينيا [4] مما يدفع إلى القول بأن التعددية الدينية، بل الارتياد الديني والانتماء -بحد ذاته- يدخل في سياق العلمنة ! .

---

1 - ينظر روداي ستارك ولورانس ر. إيانا كوني وآخرون، السوق الدينية في الغرب، مصدر سابق، ص81 .

2- ينظر المصدر نفسه، ص 82 David B. Barrett, George T. Kurian, Todd M. Johnson, World Christian, Vol1, p649.

3 - المصدر نفسه، ص86-87 .

4 - ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج2، ص269 .

ورغم ما تنعت به أوربا من العلمنة المكثفة والاحتكارات الدينية، مقارنة بما كانت عليه من الانغلاق الديني الكنسي أيام القرون الوسطى، بدعوى أن قوى الاستهلاك وطلبياته في الزمن الحديث لا تجد حاجة لا إلى الاعتقاد الغيبي ولا إلى الدين ولا إلى المؤسسات الدينية إلا أن (مؤرخي الأديان جمعوا شهادات تثبت أن العامة في القرون الوسطى كانت غير متدينة فعلا، فالفلاحون كانوا يعبدون بعض الأرواح التي عبأها الفولكلور بمدلولات مسيحية، والحضور إلى الكنيسة كان في كثير من الأحيان يتسم بالعبث واللامسؤولية، والقيام بتصرفات مخلة بالأخلاق، وبقدسية الكنيسة وهيبتها، أما الكنيسة؛ فقد كانت ظاهرة حضرية، فمن النادر مشاهدة قس في الأرياف) [1] فالاعتقاد بأن أوربا القرون الوسطى كانت تنعم بحالة عامة من الإيمان المسيحي هو اعتقاد نسبي إذ إن ذلك التدين والتجمع لم يتحقق إلا على مستوى فئة من النبلاء والكهنة ومن جاورهم، أما عن العامة فإن السلوك الديني والمشاركة الدينية بين الشعب فقد كانت محدودة، ولعل ذلك يعود لانغماس الفئة السالفة الذكر داخل الكنيسة وانشغالها بتحقيق مآربها، فقوبل ذلك باللامبالاة والابتعاد عن الكنيسة من قبل العامة مما أورث انخفاض نسبة التقى العام والورع، وإهمال الالتزام الديني وامتزاج المسيحية بالمعتقدات الأرواحية والسحر .

أما الآن وفي البلدان الأشد علمانية يشار إلى مستويات عليا من التدين المترلي، وتقديرات مرتفعة للتعميد، كما أن أغلب الزيجات تعقد في الكنيسة.. فالدين والمشاعر الدينية لم تفقد معناها في أوربا —كما الشائع- بل إن دول أوربا تشهد مستويات نامية من المشاركة الدينية والحراك الديني .

أما عن الجهد المبذول في دحض الدين الذي ينتشر في مراحل تاريخية محددة، فقد يكون جهدا عقلانيا يهدف إلى تأسيس تقليد ثقافي سياسي جديد متحرر من سيطرة الدين والمؤسسة الدينية، وجعل الإنسان أو العالم مرجع نفسه، لكنه بالتأكيد ليس جهدا تنويريا فيما يتعلق بفهم الدين ذاته، فهو لا يساعد في فهم الظاهرة الدينية، فهو —إن صح القول- موقف اجتماعي سياسي وليس نظرية معرفية [2] .. فالظاهرة الدينية ليس كما حاول التطوريون أمثال (هربرت سبنسر) إثباتها بأنها نوع من الفلسفة أو الميتافيزيق ا التي لابد تزول مع قيام ورسوخ نزعة البحث والعلم .

ونظرا إلى طغيان آثار العلمانية على الحياة العامة في الغرب، ربما يخيل لنا أن العلاقة بين الدين والدنيا (الدولة) لم تعد مثار جدل، وأن الحياة في الغرب سلمت أمرها للعلمانية وحدها، لكن بالتتبع لواقع أولئك يتبين أن الأمر غير ذلك (فالشعور بخطر العلمانية على النصرانية يزداد، وهذه القضية لا تزال تثير الجدل، والناس عنها يكتبون ويخطبون، وبسببها يتحزبون، وعلى أساس منها يصوتون..كما أن الحملة النصرانية ضد

---

1 - ينظر رودناي ستارك ولورانس ر. إيانا كوني وآخرون، السوق الدينية في الغرب، مصدر سابق، ص90- 91 .

2 - ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ص248 .

العلمانية ازدادت ضراوة وازدادت الحملة إبان الانتخابات الأمريكية [1] التي صور المحافظون فيها الحزب الديمقراطي بأنه حزب العلمانية والليبرالية، والحزب الجمهوري بأنه الحزب المناصر للدين والقيم الخلقية المتمثلة في شهود الصلاة والمناسبات الدينية..)[2] فما زالت للدين مكانة لدى فئات المتدينين بالغرب وهم ينافحون عنه ويسعون لمواجهة العلمانية مما خلف حرب الاعتقادات والقيم، كما صارت العلمانية في نظر بعض المتدينين الغربيين أيديولوجية تحد من حرية التعبير وممارسة التدين والمظاهر الدينية مثلها مثل الماركسية والفاشية سلفا.. وقد ساء المتدينين وأثار حنقهم أن الدستور الجديد للاتحاد الأوربي جاء علمانيا خالصا لا ذكر فيه للنصرانية حتى باعتبارها من المكونات التاريخية للثقافة الغربية[3] .

وبعد أن انكفأت الكنيسة الأمريكية الإنجيلية والحركات المرتبطة بها عن الفعل السياسي بين ثلاثينيات القرن الماضي وسبعينياته، عادت إلى النشاط الاجتماعي في المجال العام بقوة في العقود الأخيرة من القرن، كردات فعل على علمنة مجالات حياتية مختلفة، ولا سيما التربية والتعليم وإدخال النظرية الداروينية في المناهج ..كما نشأت الأفكار الأصولية في بداية القرن العشرين، وبعد أن استأنفت الحملات الدينية الأصولية وعظها ضد مظاهر لا أخلاقية من نوع الإفراط في شرب الخمر أو الزنا..إلى العمل من أجل سن قوانين تحظر مثل تلك الظواهر...تنتقل للتأثير المباشر في الانتخابات والسياسة لسن القوانين حين تحالفت ولأول مرة كنائس إنجيلية مع حزب جمهوري في عام 1928م.. والمهم أن ثمة موجات دينية واضحة أو دورات من الصحوة الدينية مما يؤثر على فهم معنى العلمانية ودور الدين في المجال العام، أما الكنيسة الكاثوليكية في الولايات المتحدة التي تمسكت بفصل الدين عن الدولة بمعنى الحرية الدينية أكثر من غيرها، فقد اتجهت – إضافة للإقرار بالفصل – إلى حق الكنيسة في التأثير في المجال العام، وذلك في قضايا مثل الحرب والسلام والعدالة الاجتماعية وسياسات الإجهاض[4] .

وعن الإسلام[5] فإن الغرب يتحدث عنه وكأنه عدو على الأبواب، ويصفونه بأكبر خطر يعادي الحضارة الغربية بعد سقوط الشيوعية.. ولذلك تراهم يكرسون جهدهم للدعاية ضد الإسلام وبيان خطر المسلمين ذلك أنهم يعترفون بأن للإسلام ميزة على ما يعرفونه من أديان، فهم يخافونه عقيدة ونظما اجتماعية ويخشونه

---

1 – الانتخابات الأمريكية : انتخابات الرئاسة لـــ 2008 وفيها تجلى التأثير الديني غير المسبوق في الانتخابات الأمريكية، وبدا واضحا فيها مدى قوة الارتباط بين ما هو سياسي وما هو ديني.

2– ينظر جعفر إدريس، الإسلام لعصرنا، الرياض : 1435ه، ص272– 273 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص275 – 276 .

4 – ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج2، ص270 .

5 – وفقًا لآخر إحصائية من عام 2010، قام بها معهد بيو وصل عدد المسلمين في كل أوروبا عدا تركيا إلى 44 مليون نسمة، أي ما يُشكل حوالي 6% من إجمالي سكان أوروبا (pew Research.org)

ويخشون أثره من أن يغزو دعامة حضارتهم الثقافية من المعتقدات والقيم خاصة لما لاحظوه من التأثير الإسلامي على ثقافتهم وقيمهم، خاصة أن رجل ما بعد الحداثة لم يعد يؤمن بهوية تعتمد على دين أو وطن، الأمر الذي أشار إليه المفكر الأمريكي المشهور (فوكوياما) خاصة مع عامل هجرة المسلمين إلى أوربا[1].

وحتى في الولايات المتحدة الأمريكية يصعب تحديد نتيجة التحريض المتواصل على الإسلام بعد 11 أيلول / سبتمبر 2001م، حيث انتشرت في الثقافة النخبوية والشعبية أجواء معادية للإسلام والمسلمين، بما في ذلك في الكونغرس ودوائر صنع القرار وفي الإعلام أيضا، وأثر المزاج العام الشعبي والشك الأمني في المسلمين في حرية ممارستهم شعائرهم الدينية على الرغم من عدم اتخاذ أي خطورة رسمية ضد الحرية الدينية، أو في ما يتعلق باللباس الديني وبناء المساجد وفتح المدارس... [2] ولا يزال العداء يتجدد إلى يومنا هذا؛ ففي ((30 سبتمبر 2005م) نشرت إحدى الصحف الدانمركية (بولاندس بوستن) رسوما (كاريكاتورية) مسيئة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت هذه الرسوم ثمرة لمسابقة أجرتها الصحيفة بين رسامي (الكاريكاتور) ليتخيلوا ويرسموا رسول الإسلام، في الصورة التي رسمتها في مخيلتهم الثقافة الغربية وتراثها عن رسول الإسلام، وكانت الحصيلة اثني عشر رسما، منها ذلك الرسم الذي يصور رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم معمما بعمامة في شكل قنبلة، ولقد صنعوا ذلك في حملة صحفية منظمة لمواجهة ما أسموه (الخوف من نقد الإسلام) !!..[3] .

ورغم تصوير الصحيفة والتراث الغربي لرسول الرحمة والتوحيد الخالص على أنه إرهابي، نشر دينه بالدم والسيف، إلا أن الحكومة الدانماركية عدت ذلك الفعل من حرية التعبير، ولم يخرج عن حدود القانون).. ولذلك فقد كان رد الفعل الغربي في الإعلام وفي مؤسسات الإتحاد الأوربي، والحكومات الغربية سلبيا، بل ومعاديا، إذ إن صحفا كثيرة في فرنسا وإيطاليا، وألمانيا وهولندا، وبلجيكا والبرتغال وأسبانيا وأستراليا وسويسرا وأمريكا والنرويج وروسيا – فضلا عن إسرائيل– قد أعادت نشر الرسوم المسيئة إلى رسول الإسلام مجددا[4] . والواقع أن مثل هذه الإهانات لمقدسات الإسلام، وفي المقدمة منها رسوله العظيم، وقرآنه الكريم هو عداء وافتراء له تاريخ، وإن تاريخ الغرب في اقتراف مثل هذا الصنيع سابق حتى على علمنة الفكر الغربي والمجتمعات الغربية، بل إن هذا الموقف الغربي من الإسلام إنما يعود إلى ظهور الإسلام، وقد قالها الجنرال الانجليزي (جون باجوت)[5] : "إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط، أي مشكلة الغرب مع الشرق الإسلامي، إنما

---

1 – ينظر جعفر شيخ إدريس، الإسلام لعصرنا، مصدر سابق، ص473– 477 .

2 – ينظر عزمي بشارة، الدين والعلمانية في سياق تاريخي، مصدر سابق، ج2، ص 276 .

3 – ينظر محمد عمارة، الإسلام والغرب...افتراءات لها تاريخ، ط 1، مصر : مركز الإعلام العربي، 1427، 2006م، ص1– 15 .

4– ينظر المصدر نفسه، ص15 .

5 – جون باجوت : (جاتوب باشا) (1897– 1986م)، والذي سبق وعمل قائدا للجيش الأردني حتى عام 1956م،

يعود إلى القرن السابع للميلاد، أي إلى ظهور الإسلام !" وقد سجلت السيرة النبوية تلك الحقيقة باعتبارها سنة من سنن التدافع بين الحق والباطل {يريدون} (سورة الصف الآية8) [1]، فلا يظن ظان أن مثل هذا الافتراء على الإسلام حديث أو إنه نتاج العلمنة، بل هو قديم له جذور، وهو من الحقائق المؤكدة .

إلا أن الغرب ليس كتلة واحدة ولا موقفا واحدا إزاء الإسلام، فلابد من التمييز بين الإنسان الغربي الذي لا هم له ولا شأن مع الإسلام والمسلمين، وبين مؤسسات الهيمنة الغربية والتي لها تاريخ طويل في الاعتداء على بلاد الإسلام والمسلمين، والغريب أن (في الغرب من ينظر لمثل حالة العداء هذه، فقد قام (فرانسيس فوكوياما) بنشر كتابه (نهاية التاريخ)، يقول فيه: "إن الرأسمالية الحالية المسيطرة على العالم هي أفضل وأكمل نموذج لحياة البشر، وهي المحطة النهائية في مسيرة التاريخ؛ لذا يجب التخلُّص من أصحاب الأفكار والنظريات الأخرى كالإسلام"2 ومن بعده نشر (صمويل هنتنجتون)[3] كتابه: (صدام الحضارات)، يذكر فيه أن الأصل في التعامل بين البشر هو الصراع والصدام ")4 . إلا أن تلك الممارسات والافتراءات على مقدسات الإسلام، وما جرته من معاداة للمسلمين في الغرب والتضييق على عباداتهم، والأهم من ذلك هاجس التخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا)[5]..وغير ذلك مما قاد إلى مراجعة التفكر في أمر دين الإسلام خاصة داخل المجتمعات الغربية، وفي أمر الدين والتدين عامة، مما يدفع إلى تفحص الأديان والسؤال عن أيها يعد الدين الصحيح؟

ومن هنا فإن ما يمكن قوله لتفسير التدين في الواقع الغربي إنه رغم اتسام الولايات المتحدة الأمريكية بالتعددية في مجال الأديان لتحقيقها للحرية الدينية نسبية أكثر من غيرها من دول الغرب مما جعل الخيارات الدينية تعرض كأنها خيارات للتسويق والمنافسة الأمر الذي أدى إلى الحيوية والانتشار، إلا أن أوربا وسمت بشيء من الاحتكارية رغم رفعها لشعارات العلمانية وحرية المعتقدات وذلك لاحتفاظ الكنيسة بطابعها الرسمي مما أورث الجمود والتعصب، **إلا أن المؤكد هو اتجاه الغرب عموما نحو التدين، مما يبدد الأوهام السائدة حول انحسار الظاهرة الدينية أو اندثارها وإخلائها المجال أمام مد العلمنة والتنوير، وكل ذلك يؤكد مجتمعا أنه لا فكر التنوير ولا العلمنة أو العلمانية وما جرته من تيارات بقادرة على إلغاء فطرة التدين في الكيان البشري .**

---

[1] – ينظر محمد عمارة، الإسلام والغرب، مصدر سابق، ص7

2 نقلا عن راغب السرجاني، المشترك الإنساني، ط1، مصر : مؤسسة إقرأ، 2010م، ص10 .

3 – Samuel Philips Huntington (1927–2008) كان عالما سياسيا وأمريكيا، وبروفيسورا بجامعة هارفاد الأمريكية لمدة 58 عاما، صاحب أطروحة (صدام الحضارات) ومن مؤلفاته : الموجة الثالثة، الجندي والدولة ..(Corydon Ireland, Samuel Huntington,81,Harvard News Office,Februarry5, 2009)

4 – ينظر راغب السرجاني، المشترك الإنساني، مصدر سابق، ص10 .

5 – الإسلاموفوبيا (Islamophobia) : مصطلح مستحدث عام 1997م، ويعني الخوف والكراهية الموجهة ضد الاسلام كقوة سياسية تحديدا، والتحامل والتمييز ضد المسلمين (ينظرOxford University Press, Oxford EnglISH)

الفصل الثاني

الظاهرة الدينية والفكر الإلحادي المعاصر

المبحث الأول : الدين والعلم والفكر الإلحادي المعاصر

المبحث الثاني : أدلة الفكر الإلحادي المعاصر ودحضها

الفصل الثاني : الظاهرة الدينية والفكر الإلحادي المعاصر

تبدى لنا خلال الفصل المنصرم أن الغرب والعالم أجمع يتجه وفق تيار تديني، كما أسفرت عن ذلك الإحصائيات المتعددة، وربما يظهر من التناقض أن نتحدث عن الإلحاد [1] في خضم هذا الوضع الراهن ... إلا أن الدارس للتاريخ العقائدي سيلمس أن للإلحاد شرة وفترة، ويرى أنه يمر على شكل أمواج تعصف بالمجتمع البشري بين الفينة والأخرى، على أنه لكل موجة من تلك الموجات الإلحادية خصائص وسمات تشترك وتختلف مع موجات إلحادية أخرى ... ففي مقابل العودة إلى التدين التي تشهدها الدول التي تحلحلت عن قبضة الشيوعية خاصة؛ الأمر الذي أظهرته كثر من الإحصائيات، في المقابل أيضا موجة إلحادية جديدة تكتسب أنصارا وتشهد تمددا في دول أخرى كثيرة .. فمن تداعيات حادثة (الحادي عشر من سبتمبر) أثرها في تحريك مجموعات إلحادية للدعوة والتبشير برؤيتهم الإلحادية، مما يستدعي منا قدرا من الفحص والوقوف عندها .

المبحث الأول : الدين والعلم والفكر الإلحادي المعاصر

يمكن القول إن الإلحاد المعاصر صناعة أوربية حديثة، وإن إنكار الوجود الإلهي كما يفعل الملاحدة المعاصرون، قد كان نادرا قبل العصر الحديث [2]، ولعل ذلك يعود لما تأتى من التقدم المبهر من قبل العلم الطبيعي والنظريات المعرفية الحديثة، وقد بات السؤال واضحا، فإلى أي مدى ستصمد فكرة وجود الإله في عصر العلم؟ إلا أنه من المفارقات التي أوقفنا (أن بعض رجال الدين في نهاية العصور الوسطى وقفوا في وجه العلم لأنه يهدد إيمانهم بالإله، وفي القرن العشرين يقاوم البعض ما توصل إليه العلم، لأنه يمهد للإيمان بالإله)[3] !

---

[1] – الإلحاد : في أصل وضعه اللغوي يدل على معنى الميل والانحراف .

2 – عمرو شريف، خرافة الإلحاد، ط1، مصر الجديدة : مكتبة الشروق الدولية، 1435ه، 2014م، ص19 .

3 – نقلا عن المصدر نفسه، ص19 .

المطلب الأول : الإلحاد المعاصر؛ مقاربة في تاريخ المفهوم وسماته

الإلحاد ببساطة هو إنكار وجود الإله؛ حيث يعتبر زعيم الإلحاد المعاصر (ريتشارد دوكتر) [1] "أن الإيمان بالإله هو أكبر الشرور في العالم، لذلك ينبغي التخلص منه كما تم التخلص من الجذري من قبل، وقد كان يدعو لتخيل العالم بدون دين [2] فالدين على ما يرى يقف وراء التفجيرات، والانتحارات، والحروب الصليبية، والمذابح، واضطهاد اليهود ...

فالإلحاد؛ ظاهرة غربية استقطبت قطاعا من الفلاسفة والمفكرين الغربيين، وشرائح من الجماهير، منذ الجاهلية اليونانية وحتى عصرنا هذا، .. ويعود دارسوا الفلسفة القديمة بظاهرة الإلحاد إلى الفيلسوف اليوناني (ديموقريطس الأبديري) [3] الذي أرجع تولد العوالم وموتها إلى الضرورة .. دون أن يخلقها إله .. ولذا وصف كارل ماركس ديموقريطس بأنه (أول عقل مسوعي بين اليونانيين)، وقال عنه لينين (إنه ألمع دعاة المادية في العالم القديم)... وامتدادا لفلاسفة اليونان والإغريق، تبلور الإلحاد في عصر التنوير الأوربي كحالة أيديولوجية، وتمدد مقترنا بالشيوعية... واليوم يطالعنا حضوره المتجدد والمتنامي في المشهد العقدي العالمي [4] ...

لا يوجد تاريخ محدد يمكن من خلاله إثبات بداية زمنية للإلحاد، فهو ظاهرة طفيلية عبر الزمان، لا توجد لها جذور حتى عند السوفسطائيين اليونانيين القدامى، وحتى (أبيقور) مؤسس مذهب المتعة

---

1 – ريتشارد دوكتر : (Richard Dawkins) ولد في 1941م بكينيا، عالم بيولوجيا تطورية وإثولوجيا، وكاتب أدبيات علمية بريطاني، من أبرز أعماله التأكيد على الدور الرئيسي للجينات كقوة دافعة للتطور، برز ذلك في أول كتبه (الجين الأناني) في 1976م، ومن أبرز منتقدي نظرية الخلق، ونظرية التصميم الذكي، يقدم دوكيتر نفسه على أنه ملحد، إنساني، علماني، شكوكي، وعقلاني علمي، ومن أهم كتبه الإلحادية : وهم الإله، صانع الساعات ...

2 – Richard Dawkins, The God Dulusion, London : Bantam Press, 2006, p1.

3 – ديموقريطس الأبديري : (حوالي 460– 370ق.م) فيلسوف يوناني، و يلقب بفيلسوف الذرة لكونه من أصحاب النظرية الذرية للكون، والذرة عنده غير متناهية العدد، متناهية الصغر، وهي الجزء الذي لا يتجزأ من المادة، وهي أزلية ومتحركة بذاتها، والنفس عنده مادية، وتتألف من ذرات كروية .. (الموسوعة العربية، مصدر سابق، ج9، ص560)

4 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد (مدخل لفهم الإلحاد الجديد)، ط 2، لندن : تكوين للدراسات والأبحاث، 1435ه، 2014م، ص 17، وينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد (مقدمة محمد عمارة)، الأزهر، 1435ه، 2013م، ص3 .

كان رواقيا ساميا؛ عاش ومات على مذهب أهل الأديان في تبني الأخلاق... وأما (فولتير) الذي كان ربوبيا، فقد كان يشرح فلسفته الإلحادية لزملائه، وفي ذات الوقت يشرح الأخلاق في إطار الدين لخدامه،[1] ففي التاريخ لم تكن هناك جذور للإلحاد كظاهرة مستقلة، وإنما كانت هناك فلسفات تمت للإلحاد المعاصر بصلة .

أما في العصر الحديث؛ فيصعب بشدة ضبط تاريخ محدد لظهور الإلحاد المعاصر، لكن أغلب الغربيين يؤرخون لبداية الإلحاد في أعقاب ثورة 1917م بوصول البلاشفة للحكم في روسيا، وقد حارب البلاشفة الدين حربا شعواء، إلا أن إلحاد البلاشفة لم يكن إلحادا علميا أو فلسفيا أو فكريا بقدر ما كان إلحادا سياسيا، يشكل الإقتصاد البنية التحتية الوحيدة للمجتمع الماركسي، بينما الدين هو أحد البنى الفوقية، بما في ذلك الفكر والإجتماع والسياسة والتقاليد والقيم [2] فالإلحاد في بدايته انطبع بالبعد السياسي الشيوعي .

ولكن الأمر لم يظل على ذلك النحو، فرغم تأكيد السجل البشري أن الإلحاد كان على الدوام ظاهرة طارئة فإن اليوم أمر مختلف، (فلا شيئ يشفع للوجود الإلحادي بطابعه التبشيري الذي يشهده اليوم عند دعاته، كما أن للملاحدة اليوم وجودهم الحقيقي في الخارطة العقدية البشرية، وحجمهم ليس بالضآلة التي يتصورها البعض، فبحسب كتاب حقائق العالم يشكل الملاحدة 2,01% من مجموع الجنس البشري، ويمثل اللادينيون 9,66 % وذلك بحسب الإحصائيات 3 4فلم يعد الإلحاد تلك الحالة الاستثنائية أو الطارئة في المشهد العقدي، أو تلك الحالة المقترنة بالشيوعية تتمدد بظهورها، وتتقلص بانحسارها، بل إن أوربا تشهد مدا إلحاديا ملحوظا، ولا شك أن لهذا الغمار الجديد أهدافه ووسائله وسماته الخاصة .

وعن أصول الإلحاد المعاصر؛ فإننا نرى أنه حتى خمسمائة عام مضت، كان المصدر الرئيسي للمعرفة في أوربا هو الكتاب المقدس،.. وانطلاقا من ذلك كون إنسان العصور الوسطى صورة عن العالم

---

1 – ينظر وول ديوانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ج38، ص214 .

2 – ينظر هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، ط1، مصر : دار الكاتب، 2014م، ص12 .

3 – ينظر ملحق 2، إحصائية رقم (4) للإنتماء الديني والنمو في أوربا 1910 و2010م، ص457، وحسب إحصائيات (يوروبارومتر 2010م يمثل الملاحدة في أوربا 20% من مجموع الأوربيين، ويرتفع الرقم نسبيا في فرنسا بنسبة 40%، وفي بريطانيا 25%، ونسبة الذين لا يؤمنون بالله في كندا 23%، وفي أمريكا التي تعد أكر تدينا9%) .

4 – ينظر هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص13، وينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص12 .

مستقاة من آراء (أرسطو) و(بطليموس) [1] العلمية حول الكون والعلوم الطبيعية [2]، وذلك لتبنى رجال الكنيسة الكاثوليكية تلك المفاهيم والآراء وإلحاقها بمفاهيمهم المقدسة [3] وعموما فقد اتسمت نظرة انسان العصور الوسطى للكون بالتفسير الغائي للظواهر؛ الذي يرى غاية لخلق الكون وجميع ما فيه[4] .

فالأتوقراطية الرقابية التي اعتبرتها الكنيسة حقا لها لم تقم على أي أساس كتابي، ولكنها قامت على افتراض خاطئ نشأ في القرن الثاني من تعاليم عالم الفلك والرياضيات الإغريقي (بطليموس) الذي قال بأن الأرض تقع مركز الكون، وأن الشمس والقمر وسائر الكواكب تدور حولها، وكانت السلطة الكنسية آنذاك تؤيد نظريات علم الكون الأرسطية البطليمية هذه بما توصلت إليه من نتائج باعتبارها متفقة مع النظرة الكتابية، إلا أن الكتاب في الواقع لم يقل أي شيء من هذا القبيل[5] .

فما شكله عمل (جاليلو) من تهديد حقيقي لعقلية عامة الناس لم يكمن في إخضاع الكون المادي للدراسة العلمية، ولا في رفض النموذج البطليمي الذي يقول بمركزية الأرض، ولكن الخطورة هي ما أعقب اكتشاف (جاليلو) من رفض الكثيرين لمعقولية أشياء معينة كالصلاة، وتدخل الله في الكون الذي أصبحت له تفسيرات آلية بحتة تغنينا عن الإله باعتباره علة ما يحدث في الكون، وظلت تطبيقات هذه الفكرة في تصاعد مستمر.. [6] كل ذلك من تأثيرات اكتشاف (جاليلو) العميقة، والتي جعلت سلطة الكنيسة موضع شك وارتياب، وتحول النظرة للكون من النظرة الغائية إلى الآلية .

---

1 – بطليموس : عالم الفلك والرياضيات الإغريقي السكندري، عاش في القرن الثاني للميلاد، طور النظرية الجيوسنترية في مذهب رياضي .

2 – تتلخص الصورة القروسطية عن العالم في (النظرية الجيوسنترية) أي أن الأرض تقف ثابتة في مركز الكون، وتدور حولها الشمس والقمر وبقية الكواكب، وقد خلق الإله العالم من عدم عام 4004 قبل الميلاد، وحتى تتوسط حياة المسيح حياة تاريخ العالم سيكون يوم القيامة عام 4004م ..والعالم يسير طبقا لخطة إلهية محكمة، فكل شيء في الكون له هدف وغاية، أنه العالم نظاما أخلاقيا تكفل الإله فيه بتحديد الخير والشر، وكذلك فإن رجال الكنيسة هم الواسطة بين الإله وبين الناس في التوبة والغفران والدخول إلى الجنة (ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، ص9-10) .

3 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص22 .

4 – ينظر ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، تر : إمام عبد الفتاح، ط 1، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1998م، ص11 .

5 – رافي زكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، تر : ماريانا كتكوت، رؤية للطباعة،2004م، ص24 .

6 – ينظر المصدر نفسه، ص 26 .

وحسب ما مر بنا فقد (كان للثورة العلمية أثر مدمر للمسيحية في أوربا، إذ أعقبها مباشرة نزعة شكية إلحادية كبرى، جعلت من القرن الثامن عشر أكبر عصر للشك في التاريخ الحديث، فما تعرض له العلماء من اضطهاد وتنكيل على يد الكنيسة، قد أدى إلى تبني العلماء والمفكرين موقفا عدائيا من الدين انعكس على مواقف العامة، وبذلك تلاشت نظرة الكنيسة بأن الإله خلق (آدم) والكون منذ ستة آلاف سنة) [1] !مما أدى إلى فقدان الثقة في فكرة تدخل الله في االعالم . .. (إلا أن (جاليلو)، لم يكن التحدي الوحيد الذي واجهته الكنيسة، فقد جاءت نظرية (داروين) التي سرت كموجة صدمة بين أوصال العالم المسيحي، وذلك لأن فكرة نشوء البشر من عالم الحيوان عن طريق عملية الانتخاب الطبيعي، وضعت الفأس على رأس شجرة الاعتقاد الديني الذي كان يتشبث بجذر الإيمان بالله الخالق)[2] .

وعبر تطور الحضارة الغربية أصبح الإلحاد مذهبا فلسفيا بلغ ذروته بالماركسية بماديتها الجدلية والتاريخية التي هيمنت على أحزاب وحكومات ومجتمعات مثلت أكبر ظواهر الإلحاد في التاريخ الإنساني .. الأمر الذي دفع بـــ(ماركس) لأن يهدي كتابه (رأس المال) لـــ(تشارلز داروين)، نظرا لابتهاجه بأطروحته، فقد رأى (ماركس) نفسه أن الدين أفيون الشعوب، وتأوّه المقهورين، والشمس الوهمية الوحيدة التي تدور حول الإنسان ... ولا شك أن (ماركس) رأى أن الفرضية الداروينية توفر البنية التحتية العلمية التي تدعم بنيته الأساسية الاقتصادية التي مكنته من بناء صرحه المثالي للمدينة الفاضلة التي من صنع الإنسان، فالدين على حسب (ماركس) أفسح المجال للطبقية التي ما كان لها أن توجد لولا الدين ... ورغم سقوط الماركسية، فلقد ظلت ظاهرة الإلحاد ملحوظة بل ومتزايدة في المجتمعات الغربية، بسبب سيادة الفلسفة الوضعية المادية، وبسبب العلمانية التي نزعت القداسة عن المقدسات[3] .

وبذلك وجهت الضربة الملتحمة من اكتشافات (جاليلو)، والاستنتاجات الداروينية، والافتراضات الماركسية الاقتصادية التي تقوم على الإلحاد، إضافة إلى تحليلات (فرويد) التي جعلت من الدين مجرد وهم عصابي .. ثم جاء أحدهم ليأخذ على عاتقه تسديد ضربة قاسية للفكر الإيماني، ونبذ فكرة الإيمان بالله تماما؛ فقد احتقر (نيتشه) الدين بوجه عام، والمسيحية بوجه خاص، وباعتباره أكثر المتحدثين باسم الإلحاد في العصر الحديث، فقد سيطر على عقل القرن العشرين فلسفيا وفكريا، وكان

---

1 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص23 .

2 – ينظر رافي زاكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص26 .

3 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، ص 4، وينظر رافي زاكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص26– 27 .

بفلسفته المسؤول الرئيسي عن إعلان (موت الإله) [1] .. وبالتالي فقد نجح العلم في قمع الإيمان والفكر الديني .

وذلك حين نجح العلم في تفسير الظواهر الطبيعية بآليات لا تحتاج إلى غاية أو هدف، كما نجح في التنبؤ بالظواهر الطبيعية، كالخسوف والكسوف والعواصف.. وخلاصة اعتقد رجل عصر العلم باختفاء الغائية عن خلق الكون .. وانتشرت فكرة آلية الكون انتشار النار في الهشيم، فقام العلماء والفلاسفة في أوربا بتفسير كل شيء من خلال منظور الآلية حتى إن (توماس هوبز)؛ فيلسوف الإلحاد البريطاني شبه أجهزة جسم الإنسان بمجموعة من الآلات التي تحكمها القوانين الفيزيائية ... ورغم إقرار (نيوتن) بأن الإله يتدخل من حين لآخر لتعديل الانحرافات والشذوذ في مسارات الكواكب... جاء (ماركيز لابلاس) [2] ليثبت غير ذلك، وبأن الانحرافات تصحح نفسها، وتلغي بعضها بعضا بعد فترة كافية من الزمان .. وبالتالي تلاشت الحاجة إلى الدين وإلى الإله، وبدخول القرن العشرين ظهرت مقولة (الدين أفيون الشعوب) التي أطلقها (كارل ماركس)،كما شاعت مقولة فردريك (نيتشه) التي ألقاها آخر القرن التاسع عشر (هل مات الإله؟) [3] .

وبتعالي طوفان العلم تراجع التفسير الميتافيزيقي، ورفض كل ما ليس له تفسير غيبي، مما أرسى دعائم الفلسفة الوضعية المنطقية في القرن العشرين (التي ترى أن مفاهيم الإله والروح والتدين والإلحاد لا تعني شيئا؛ إذ لا يمكن إثبات خطئها أو صحتها تجريبيا أو رياضيا..) [4] .

وخلاصة فقد شكلت الأشواط التي قطعها العلم وتفسيراته الآلية للظواهر الطبيعية والكونية، وما حققه من إنجازات علمية وحضارية، عصبا مهما في منشأ الإلحاد لما هيأته من نظرة مادية بحته لا تؤمن بغير المحسوس، ولكن لا يضن من هذا أن الإلحاد قد بني أساسا على مناقضة العلم أو رفضا لتنبؤاته، وإنما هو رفض للنظرة الدينية الكنسية القديمة للوجود، وكنتيجة لتلاشي لتفسيراتها الغيبية تلاشت الحاجة للدين وللإله .

---

1 – ينظر رافي زاكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص29 .

2 – ماركيز لابلاس : (1719– 1827م) الفلكي الفرنسي، كان واحدا من الذين ابتكروا الفرض السديمي الشهير (بقوله أن النظام الشمسي نشأ عن سديم غازي)، وهو صاحب رأي الحتمية التي تعني خضوع الكون برمته لقوانين الطبيعة .

3 – ينظر ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، مصدر سابق، ص88، وينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص22 – 25 .

4 – رافي زاكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص29 .

أما عن البنية التحتية للإلحاد في عصرنا، فقد ارتبط ظهوره ههنا بظهور الفكر المادي ارتباطا وثيقا، حتى يمكن القول أن الإلحاد هو الابن الشرعي لهذا الفكر .. خير من عبر عن ذلك؛ (عبد الوهاب المسيري) الذي رأى أن : (إخفاقات الحضارة المادية الحديثة لا تقل عن إنجازاتها الضخمة (من تكنولوجيا، علم، سيطرة على العالم..)، ومن أهم تلك الإخفاقات : الأزمة البيئية، الحروب العالمية، فقدان الإتجاه، إذ لم يعد الإنسان يدري إلى أين هو ذاهب، وظهور العبثية، فلم يعد للعالم معنى إذ لم يعد هناك من يتحكم فيه.. ويكفي بعد ذلك ما أنجزته الحضارة المادية من فكر مادي يقف العقل فيه موقفا محايدا لا علاقة له بالأخلاق، أو بالأسئلة الكبرى من منشئه ومآله وغاية وجوده .. وخلاصة فلم يعد للعقل مهمة إلا اختزال كل شيء في جانبه المادي بما في ذلك الإنسان، حين ترده إلى طينته وتترع عنه قداسته[1] .

ففي القرن التاسع عشر شاع بين الفلاسفة نظرة مادية محضة في تفسير ظواهر انسانية وكونية، وقد ارتكزت هذه النظرة على فيزياء (نيوتن) الكلاسيكية، ونظرية (دالتون) عن الذرة، ثم نظرية (داروين)، عن أصل الإنسان، بحيث يبدو للمراقب وكأن العلم وما يقدمه من اكتشافات مجرد وسيلة لإثبات منظور مادي قديم . ويومئذ (يصر الماديون على النظر إلى الحياة نظرة مادية، ويرجعون نشأتها إلى الصدفة، وينطلق الماديون في نظرتهم من (المنهج الاختزالي) الذي يحدد الكائنات الحية إلى مكوناتها الأولية (أعضاء- أنسجة- خلايا- جزيئات- ذرات- جسيمات تحت ذرية) وفي النهاية نصل إلى مجالات الطاقة العشوائية، عندها يقول الماديون لم نجد إلا مادة تتفكك إلى طاقة عشوائية)[2] .

والمنظور المادي ليس جديدا في تاريخ البشر، فقد كان حاضرا في الحوار العلمي والفلسفي أي من خلال حوار الإنسان مع الطبيعة، وذلك منذ الفكر اليوناني وحتى عصرنا الحاضر، ولكنه لم يشهد اتساعا وزخما بمثل ما شهده في القرن التاسع عشر، فقد كانت الفيزياء الكلاسيكية، ونظرية (دالتون)، ثم أخيرا نظرية التطور مواد خصبة بما تطرحه من تصورات نظرية ومفاهيم لبناء فكر مادي يبدو في ظاهره وكأنه على درجة من التماسك المنهجي [3] . فمن أهم المجالات التي يتكأ عليها الملاحدة، وينطلقون منها في رسم فلسفتهم الوجودية المادية العلوم الطبيعية التجريبية، فرؤيتهم للكون والحياة تقوم على فلسفة مادية مجردة لا تؤمن إلا بها، وما يمكن إثباته تجريبيا وفق المنهج العلمي، ويؤمنون بأن العلم والمعرفة لا سبيل إلى تحصيلها إلا عبر هذا السبيل [4] ...والمغالاة في العلوم الطبيعية

---

1 – ينظر عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ط2، دمشق : دار الفكر، 2003م، ص20 .

2 – عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص72 .

3 – حمد المرزوقي، أفي الله شك (بحث في علاقة العلم بالإيمان)، ط1، بيروت: بيسان، 2004،1م، ص31 .

4 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد الجديد، مصدر سابق، ص83 .

والتجريبية ليست سمة مختصة بالظاهرة الإلحادية الجديدة، ولكنها باتت أوضح، وأشد مغالاة، تمثل ذلك في العدائية لكل من خالف هذه الطبيعة العلموية الضيقة (Scientism) .

وإذا كان عصر (نيوتن) هو عصر الآليه حين سعى لإثبات أن الكون ساعة صنعها الإله، فإن القرن التاسع عشر شهد انتقالا من الآلية إلى الرؤية العضوية في عالم عضوي اختفى فيه الإله إذا ما عاد الإنسان لأصول أسلافه القردة العليا ومن قبلها الزواحف ! أما مع (فرويد) فيفترض أن غابة القردة تقع داخل الإنسان في شكل واعي مظلم وغرائزه متفجرة .. وأخيرا يقارن (فوكوياما)؛ فيلسوف ما بعد الحداثة الإنسانية ببعض الأشكال التي خطت على الرمال، ثم تمحوها الأمواج![1].

وفي كتابه (الدين والعقل الحديث) يقول (ولتر ستيس) [2] (Walter Stace) :"كان (نيوتن) مسيحيا خاشعا للغاية، يأخذ اللاهوت مأخذ الجد أكثر من العلم، ولابد أنه كان سيصاب بالهلع لو أنه تصور أن ما قام به طوال حياته، سوف يقوض أركان الإيمان الديني، فقد كان رأيه الخاص هو أن ما قام ستكون له نتيجة مضادة تماما، بل إنه افترض أن نظامه عن الميكانيكا السماوية سوف يزودنا ببرهان على وجود الله"[3] ودالا على دقة النظام الإلهي وذلك أجدر، إلا أن الواقع أفضى إلى غير ذلك من تسخير الآلية لخدمة فيزيائية حتمية لا خلاص للكون منها .

وقد امتدت تأثيرات الفكر المادي من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين، حيث انتشر اليأس والتشاؤم والقلق والأمراض ..ذلك أن الفكر المادي يخالف طبيعة الإنسان وفطرته التي فطره الله عليها، فما تركته النظريات المادية من آثار سلبية على الحضارة الإنسانية لا حصر له وفي مجالات الحياة كافة، فبدلا من أن يكون العلم في القرن التاسع عشر أداة نهضة ورقي للإنسان، ها هو يعزز نزعة إلحادية مادية، تقود إلى صدام مع طبيعة الإنسان وفطرته.. [4] وعلى الرغم من انتشار تيارات مضادة، كالتيار العقلي، والتيار الرومانسي الذي حارب ما تعنيه المادية من جفاف وبؤس أخلاقي وإيكولوجي.. فإن الفكر المادي لم يتراجع إلا في القرن العشرين، وخصوصا في ربعه الأخير كنتاج

---

1 – ينظر عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، مصدر سابق، ص20 .

2 – ولتر تونس ستيس : (1886 – 1967م) فيلسوف أنجليزي المولد أمريكي الجنسية، من كتبه : تاريخ نقدي للفلسفة اليونانية 1920م، وفلسفة هيجل 1924م ..

3 – ولتر ستيس، الدين والعقل الحديث، مصدر سابق، ص، 93 وحمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص26 .

4 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص37 .

لتطور العلوم، وبالذات علوم الفيزياء والفلك والأحياء -كما سنرى- [1]، وبصفة عامة؛ فإن العلم بدلا من أن يسخر لخدمة الإنسان، حولته النظرة المادية إلى قيمة مضافة لجهد الفكر المادي .

ويوم قبل المذهب الفلسفي (المادة فقط باعتبارها الشرط الوحيد للحياة الطبيعية والبشرية، فقد رفض الإله بوصفه شرطا من شروط الحياة، كما رفض الإنسان نفسه إن كان متجاوزا للنظام الطبيعي /المادي، ولذا فالفلسفة المادية ترد كل شيء في العالم إلى مبدأ واحد هو القوة الدافعة للمادة والسرية في الأجسام والكامنة فيها، والتي تتخلل في أثنائها وتضبط وجودها، فهو قوة لا تتجزأ ولا يتجاوزها شيء ولا يعلو عليها أحد، وهي النظام الضروري والكلي للأشياء، وهو ليس فوق الطبيعة وحسب بل فوق الانسان أيضا)[2] .

وبذلك اختفى الغيب والإنسان المتعالي المتسامي عن عالم المادة، ليحل محله الإنسان المادة وابن الطبيعة، بل لم يعد الإنسان إلا مجرد شيء كغيره من أشياء الطبيعة المتصارعة، لا وعي له بذاته بل هو خاضع لحتمية الطبيعة، وبذلك أزاحت الفلسفة المادية الإنسان من مركزه، لتختزله في عنصر مادي لا خلاق له إلا المنفعة المادية، وفي الحقيقة فإن (الملاحدة حين يؤسسون لنظرتهم العلمية هذه يبنونها على استبعاد مغال لفكرة وجود الله تعالى، ولا يتعاملون مطلقا بالجدية الكافية ولو مع مجرد احتمال أن يكون ثمة خالق فعلا خلق هذا الكون على هذه الطبيعة، أو أنه سبب وجود الحياة، أو أنه مصدر هذه السنن والقوانين والثوابت..)[3]

إلا أن العقل المادي يعاني من صمت مطبق وجهل كلي أمام أسئلة الوجود الكبرى، المنبثقة عن وعي الإنسان ومكانه في العالم، لذا يقول الفيزيائي الملحد (ستيفن هوكنج) : "مهما تقدمنا في العلم سوف نظل مع سؤال لماذا، يبدو أن هناك معضلة متأصلة، لن يتمكن العلم من اجتثاثها"[4]، والواقع أن النزعة التي يتيحها العقل المادي الغربي، نزعة تجعل كل شيء مقصور على المادة، وذاك سبب شقاء العقل وبؤس المعرفة، وعقم الأجوبة، تلك الأجوبة الوجودية التي لا يتاح الإجابة عنها إلا باستقاء ما وراء المادة .

والإلحاد على ما هو عليه في الواقع ليس مرتبة وموقفا واحدا، بل هو على حسب موقفه الإلحادي من مبدأ وجود الله والإيمان به فهناك إذن (إلحاد صلب يؤمن صاحبه بعدم وجود الخالق، فلا يتدين بدين، وهناك لا أدري (إلحاد سلبي) لا يؤمن صاحبه بوجود الخالق، لكنه لا يؤمن أيضا بعدم وجوده،

---

1 - ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص38 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص16- 17 .

3 - عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد الجديد، مصدر سابق، ص87 .

4 - هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص26 .

إذ لا يملك دليلا لوجوده أو لعدم وجوده–على ما يزعم–، أما الربوبية فهو موقف عقدي يؤمن صاحبه بوجود الخالق، لكنه ينكر صلة هذا الخالق بهذا الكون..) [1] ... فما الرؤية الربوبية النيوتونية – مثلا– إلا تمسك بالنماذج الميكانيكية لعقلانية عصر التنوير، وكأن الكون شيء آلي تركه الله يعمل من غير أن يتدخل فيه، فهو معرض ومتعال عنه بالكلية، والقضية هنا هي سيطرة النموذج الميكانيكي على العقل، حيث ترى المادة شيئا مستحقرا أرضيا، بينما الروح شيء متسامي، لا اتصال بينهما، لكن واقع الأمر أن الله خالق المادة والروح .. [2]

ولذا يدخل ضمن صنوف الإلحاد؛ علماء وفلاسفة تبنوا الإلحاد ووجدوا في نظرية التطور الداروينى حجتهم العلمية الكبرى، وكذلك شيوعيون؛ أرادوا تحويل المجتمعات البشرية إلى مستعمرات من النمل والنحل، ولن يمكن تحقيق ذلك في وجود المعتقدات الدينية، ولذا ينبغي القضاء عليها ولو بالقوة، كما ينخرط ضمن صفوف الإلحاد أفراد غير متخصصين غير مأدلجين، وجدوا في القول بالإلحاد هروبا من قيود الدين، أو إثباتا لذواتهم، أو تحقيقا لمصالح أخرى، كما يدخل في ذلك كل من لديهم شك غير أنهم صامتين لا يطرحونه للنقاش، وسبب شكهم تأثرهم بأصحاب الرأي القوي من الملاحدة، أو نتيجة الأسلوب المغلق الذي تلقوا به دينهم الذي يرفض أي منطق أو علم مخالف ... [3]

وإثر هذه الصنوف نلمح فكرا إلحاديا قويا، يمثله أولئك الذين ينكرون وجود الإله، ويؤسسون النظريات ترويجا لإلحادهم.. وبذيل هؤلاء يتعلق ذووا الفكر الإلحادي الضعيف الذي لا يقوى على الترويج للإلحاد دون أن يقنع بما في حوزته للتدليل على وجود الإله [4]، فالملفت هو تنوع صنوف الإلحاد وتزايدها في السياق الفكري الحضاري، فبعد أثبتت الفلسفة الوضعية تناقضها وآلت إلى الزوال .. (تعالت موجة التدين العقلاني من جديد لتثبت أن التدين فطري، ولابد من ضرورة الوجود الإلهي .. وذلك حين أعلن السير (أنتوني فلو) [5] (Antony Flew) على مجلة تايم الأمريكية سنة

---

1 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص19– 20 .

2 – ينظر هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص34 .

3 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص27 .

4 – ينظر المصدر نفسه، ص26 .

5 – أنتوني فلو : (Antony Garrard Newton Flew) (1923– 2010م) فيلسوف بريطاني اشتهر بكتابته في فلسفة الأديان، ومن أهم المنظرين للإلحاد في العالم، فقد ألف في ذلك العديد من الكتب تجاوزت الثلاثين كتابا، غير أنه في أواخر حياته ألف كتابا ينسخ جميع كتبه السابق بعنوان (هناك إله) ... وتحول من الإلحاد إلى الفكر الربوبي لاقتناعه بحجة التصميم الذكي .

1980م عن وجود الإله، وفتح الباب لمناقشة مفاهيم المتدينين، ولكن ارتدت الضمائر مرة أخرى نحو المفاهيم الوضعية، ليطل الإلحاد من جديد تحت مسمى (الإلحاد الجديد)* .

والآن، تجتاح المجتمعات الغربية [1] موجة إلحادية جديدة، اشتهرت في الدوائر الفكرية والثقافية والعقدية بمسمى الإلحاد الجديد، (ففي إثر مقالة نشرت في مجلة (وايرد) البريطانية عام 2006م بعنوان (كنيسة غير المؤمنين) ظهر في الغرب مصطلح (الإلحاد الجديد)، و لم يكتف الإلحاد الجديد بإحياء مفاهيم الفلسفة الوضعية المنطقية بما فيها من نظرة مادية، بل رفض التعايش بين الإلحاد والدين، و لم يكتف بنقض الألوهية والمفاهيم الدينية وطرحها للتحليل العلمي والموضوعي، لكنه تبنى أسلوب الهجوم والانتقاض والسخرية التي قامت على مفاهيم عدائية ظهرت في كتابات أمريكية وبريطانية ظهرت بين عامي 2004 و2007 م لمجموعة من الملاحدة)[2] .

ولا شك أن وراء الإلحاد الجديد أبعادا سياسية أسفرت عن وجهها في السنوات الأخيرة، أهمها الترويج للخوف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) إذ تتبنت أفكارا عن صراع الحضارات، وقد أسفر زعيم الملاحدة الجدد (ريتشارد دوكنز) عن هذا الوجه القبيح للإلحاد حين أعلن في (2012م) أن أحداث (11سبتمبر 2001م) قد حولته من ملحد مسالم إلى ملحد أصولي ضد الإسلام، كما صرح أن المسيحية قد تكون الحصن الأخير ضد شر أشد منها، ولذلك صرح (دوكنز) وأتباعه بأنهم ليسوا (لادينيين)** بل هم (ضد الدين)*** فالدين بالنسبة لهم يسمم كل شيء، ويركز الملاحدة الجدد على إظهار أن كل مصائب العالم وحروبه كانت من الدين، على الرغم أنه لا يمكن إخفاء ما كلفته الشيوعية الملحدة من أكثر من تسعين مليون قتيل[3] .

---

* – الإلحاد الجديد : (The New Atheism) استخدم هذا الاصطلاح لأول مرة، من قبل جيري وولف في مقالة نشرتها مجلة شبكة المعلومات(Wired Magazine) عدد نوفمبر2006، بعنوان (كنيسة غير المؤمنين) وهي مجلة بريطانية شهيرة، تهتم بطرح تأثيرات التكنولوجيا على الثقافة والسياسة والاقتصاد .

1 – أما في العالم العربي، فليس هناك إحصائيات دقيقة، لكن الانطباع العام أن المشكلة أقل من الغرب، بالرغم من ظهور موجة إلحادية في السنوات الأخيرة، زاد ارتفاعها وحدتها مع ثورات الربيع العربي، لما أتاحته من جو الحريات، وعموما فما زال صوت الملاحدة منخفضا، وما زال معظمهم مختبئين .

2 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص20 .

** – لادينيين : (Atheists) يعني لفظ اللاديني من لا يؤمن بدين، وليس بالضرورة أن يكون منكرا للإلوهية .

*** – ضد الدين : (Antitheist) هو الملحد الذي يتخذ موقفا عدائيا من الإله والدين والمتدينين .

3 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص28– 29 .

والمهم فإن الإلحاد الجديد هو بالفعل؛ جديد لما يتميز به عن غيره من أنماط الإلحاد بجملة من الخصائص والسمات والرموز والمؤلفات... (فأول سمات الإلحاد الحماسة والحرص الشديد على الدعوة للإلحاد، فبعد أن كان الإلحاد في سياقه التاريخي إجمالا يمثل خطابا ميالا نسبيا إلى قدر من الحيادية من الموقف الديني، و لم يكن لديه تلك الحماسة الكبيرة للدعوة والتبشير بقضية الإلحاد، بل كانت قضية الإيمان بالنسبة للملحد قضية شخصية متعلقة بالأفراد[1]، فكيف استحال الأمر ؟

فالإلحاد الجديد يحمل همَّ التبشير بالدوجما الجديدة، وجدول دعاته مليئ بالزيارات التبشيرية في كل مكان، لقد صار الدين الخفي الأحدث ! يملك سمات الدين المتخفي، يقدم أجوبته الجاهزة لكل الأسئلة، وتتعالى سلطته عن النقد، ويتجاوز حالة التبشير ليظهر عدائية صريحة تجاه كل ما هو ديني[2] ... فالعدائية لما هو ديني، وتجاه دعاة الأديان، أهم سمات الإلحاد الجديد؛ (بل يعادي الإلحاد الجديد كل المؤمنين، باعتبار الدين يسمم كل شيء، ويدعو أكثر الملحدين حديثا عن الأخلاق (سام هاريس)[3](Samuel Harris)، إلى استئصال شأفة المسلمين)[4]، فمن لحظة أحداث ببرج التجارة العالمي ترسخ في وعي كثير من الملاحدة أن قضية الإيمان والتدين باتت مهددا حقيقيا للبشرية، وأن التزام ذلك الهدوء والحيادية من الدين لم يعد خيارا صائبا، وأنه من المتعين على الملاحدة اليوم السعي جديا في استئصال مبدأ التدين من الحياة البشرية، وإحلال قضية الإلحاد كخيار منقذ[5] .

فمنذ ذلك التاريخ ابتدأ مسلسل الإصدارات الإلحادية انطلاقا من كتاب (نهاية الإيمان) الذي صرح صاحبه (سام هارس) أحد أقطاب الإلحاد، أنه ابتدأ تأليفه في اليوم التالي من الحادثة مباشرة ..لتتلو الكتاب إصدارات إلحادية أخرى تمثل النواة المركزية لظاهرة الإلحاد الجديد.. وإلى جانب (سام هارس) ها هو (ريتشارد دوكنز) داعية الإلحاد، يكتب مقالته بعد أربعة أيام من حادثة 11 سبتمبر يقول في آخرها :"إن ملء عالم بالدين، أو بأديان كالإبراهيمية، هو تماما كملأ الشوارع بالمسدسات المحشوة بالرصاص، لا تتعجب إذا ما تم استعمالها".. والموقف نفسه من بقية رموز الإلحاد، الأمر الذي

---

1 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص21 .

2 – ينظر هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص13 .

3 – سام هاريس : (Samuel Benjamin Harris) ولد عام 1967م، كاتب وفيلسوف أمريكي، من دعاة الملاحدة والمشككين، من كتبه : هل هناك روح، لنتأمل فكرة الخالق، نهاية الإيمان، هل الدين مصدر جيد للأخلاق ...

4 – ينظر عبد الله العجيري ، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص22 .

5 – ينظر المصدر نفسه، ص21 .

أسفر عن السمات والملامح الخاصة للإلحاد الجديد [1]، فحادثة 11 سبتمبر كانت القطرة التي أفاضت كأس الإلحاديين وولدت فيهم ردة فعل ضخمة وشجعتهم على القيام بدور تبشيري ضخم بالمضامين الإلحادية .

وأول ما اسقطب اهتمام الملاحدة في تدعيم قاعدتهم (الكتب والمؤلفات التي اتسمت كلها بسهولة وبساطة اللغة إضافة لسحر العبارة، ومباشرة الطرح ووضوح الأفكار مما نقلها إلى الإطار الشعبي العام بدل أن كانت حبيسة دوائر نخبوية ضيقة نسبيا، لاشتهارها بالكتابة الشعبية في مجال الطبيعية.. الأمر الذي أسفر عنه تجاوز سقف مبيعاتها مئات الآلاف من النسخ والملايين، حضي مؤلفوها بجوائز متنوعة في مجال الكتابة بعد ترجمتها للغات عدة [2] . شكلت تلك المؤلفات، والكتب المنهمرة القوة الدافعة للإلحاد الجديد، ونواته الصلبة، ومع ازدياد بساطتها وسهولتها تمكنت الظاهرة من اختراق فئات مجتمعية أوسع مختلفة الوعي ومتنوعة الثقافة، تصلح لجميع الشرائح، ولا أدل على ذلك من الأوراق المبسطة للصغار وأدلة المبتدئين ناهيك عن السلسة الشهيرة للأغبياء (For Dummies) ... [3] وكل ذلك ترويجا للفكر الإلحادي، والبعد عن الإيمان، في ادعاء لبعث الفكر العقلاني الحر، وسعي ذؤوب لكشف الحقيقة وفك سحر الغموض ولغز الكون والإنسان ..!

كانت تلك الكتب هي البدايات للظاهرة الإلحادية الجديدة، ساهمت في بزوغ رموزها، غير أن الأمر لم يقف هنا، يضاف إلى ذلك البرامج الإذاعية والفضائية التي تتغلغل لتمرير الجرعات الإلحادية، (حيث أنتج الملاحدة عددا غير قليل من البرامج الإعلامية المتنوعة ما بين برامج حوارية، وأفلام تعليمية ووثائقية، بل إن عددا كبيرا من الأفلام والمسلسلات الترفيهية [4] تشكل فيها الفكرة الإلحادية فكرة شديدة المركزية أو على الأقل تحوي مشاهد ذات خلفية إلحادية ..كما ثمة أفلام كرتونية [5] للأطفال ..)[6] ولا يخفى على أحد حجم تأثير مثل هذه الأفلام في تشكيل عقول وقناعات كثير من الناس .

---

1 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص20 – 23 .

2– ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، 28 – 29، وينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، ص23–24 .

3 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص28– 29 .

4 – من تلك الأفلام الحديثة نسبيا : (رجل من الأرض)، (اتصال) ، (أي شيء قابل للعمل)، (الغروب المحدود)، (كوكب القردة)، (طريق الخلاص)، (الخلق)، (الحافة) ..

5 – كالفلم الكرتوني : (الأقدام السعيدة)، (كايينا ..النبوءة)، وغيرها .

6 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص30– 31 .

وإذا كانت الأفلام الترفيهية وسائل لتسريب المضامين الإلحادية فإلى جانبها أفلاما وثائقية وتعليمية تعالج ملفات الإلحاد بشكل مباشر، وبعضها لرموز الإلحاد الجديد؛ كـــ(ريتشارد دوكتر) الذي شق طريقه في الإبانة عن عبقرية (تشارلز داروين)، وخطر المدارس الدينية، وفيروسية الإيمان ووهم الإله والدين ...[1] و لم يعد العمل الإلحاد عملا عشوائيا يعتمد على الجهود الذاتية الفردية فقط، بل ثمة مؤسسات إلحادية[2] ذات همّ عالمي، معنية بالدعوة إليه، ورعاية الملحدين، ودعم المؤسسة العلمانية ..كما ثمة مواقع إلحادية كثيرة جدا على شبكة الانترنت تمارس دورا دعويا للفكر الإلحادي.. منها ما هو مدونات، ومنها المواقع العامة، ومنها صفحات على شبكة التواصل الاجتماعي .. كما أن منها مواقع مصممة للأطفال، وشرذمة للمراهقين،، و منها توجيهات وإرشادات للوالدين ...[3]

ومواصلة لتطبيق منهج الملاحدة الجدد وخطة عملهم التي رسمها زعيمهم المتمثلة في تأليف الكتب[4] والمقالات وإلقاء المحاضرات، وعقد المناظرات والظهور في البرامج التلفزيونية والفضائيات، والحديث عبر شبكة المعلومات.. وتفعيل الإعلانات الكبيرة عبر اللوحات الدعائية في الشوارع وفي المحطات العامة، وعلى الباصات، وعلى مختلف السلع .. وعقد المؤتمرات سعيا منها لتعزيز الروابط الاجتماعية وتغذية نزعة الانتماء كما الأديان، فمما يستطرف أن تكون هناك كنائس إلحادية، وكذلك الاحتفاليات والأعياد والمناسبات الإلحادية..[5] [6] .

وعموما فإن الملاحظة العامة لظاهرة الإلحاد الجديد، بل أهم صفاته؛ تلك اللغة شديدة العدائية للدين، ولمبدأ التدين، ولقضية الإيمان بالله، حتى تم توصيفها في بعض الدوائر الفكرية الغربية بـــ

---

1 – عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص34 .

2 – من المؤسسات الإلحادية الشهيرة : التحالف الدولي للملاحدة، رابطة الملاحدة، مؤسسة ريتشلرد دوكتر لدعم العقل والعلم، الاتحاد الدولي للاتجاه الإنساني والأخلاقي، الرابطة الدولية لغير المتدينين والملحدين ...

3 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص37 .

4 – من ذلك كتاب (نهاية الإيمان) لسام هارس المتخصص في مجال علوم الأعصاب، وكتابه أيضا (الإرادة الحرة)، وكتاب (وهم الإله) للبيولووجي الدارويني تشارلز دوكتر، وكذا كتابه (أعظم عرض على الأرض ...برهان التطور)، وكتابه أيضا (سحر الحقيقة)، وكتاب (كسر السحر ..الدين كظاهرة طبيعية) للفيلسوف الأمريكي دانييل دينت ...

5 – كعيد ميلاد داروين، ويوم الإلحاد العالمي، بل ويوم الزندقة والكفر والتجديف، وهذا الأخير تم الإعلان عنه في 2009 م، ويصادف 30 من سبتمبر وكان سبب اختيار هذا اليوم خصيصا لأنه اليوم الذي نشرت فيه الصحف الدانماركية الرسوم المسيئة للنبي عليه الصلاة والسلام .

6 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص 28، وينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص33– 36 .

(ميليشيات الإلحاد)، وذلك بسبب النمط العدائي الشديد والعصبية التي اتسم بها خطابه، والاحتقان الشديد تجاه ضد مختلف المظاهر والشعائر، والتوهين من المسألة الدينية، ونزع مفهوم القداسة عنها، وأشد ما يستغرب حالة الإقصاء التي تمارس في المؤسسات الأكاديمية لمخالفي نظرية (داروين) أو المشككين فيها[1]!

وفي خطابه العدائي لم يكتف الإلحاد بالنقد البريء المهذب، وإنما هي السخرية والاستهزاء والاحتقار والازدراء والاستفزاز، تأصيلا لمبدأ إهانة الأديان [2]، والهزء والسخرية منها، وبصفة خاصة؛ دين الإسلام بالطعن فيه بلغة لاذعة، و التهجم على النبي صلى الله عليه وسلم، وهي تلقى حفاوة كبيرة من رموز الإلحاد الجديد، بل ودعما ماديا ومعنويا.. وبعد أن كان الإلحاد في السياق الغربي سجالا بين الإلحاد والنصرانية، وذلك بحكم الحاضنة المجتمعية، فبعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر، وربط الحدث بالإرهاب، والإرهاب بالإسلام، انتقل الإسلام من كونه قضية على هامش اهتمام الملاحدة الغربيين، ليكون في فوهة مدفع الإلحاد الجديد، وليحضى بموقع شديد التقدم في حرب الملاحدة، الجدد على الأديان .. فلقد بات الإسلام وتمثلاته في الواقع هاجسا حقيقيا شديد الحضور في الذهنية الإلحادية الجديدة، وباتت المصطلحات العربية (الله، محمد، الشريعة، القرآن، الحديث، العلماء، التوحيد..) وغيرها ذات حضور حقيقي في الكتابة الإلحادية، ولقد كشف (ريتشارد دوكنز) صراحة عن موقفه من الإسلام قائلا : "أعتقد أن الإسلام هو أعظم قوة للشر في عالم اليوم" [3]، ناعتا إياه غير مرة بالعدو المتوحش[4].

فالإلحاد الجديد يرى نفسه في حرب مع الإسلام، وتحديدا مع الرؤية للحياة التي يحددها القرآن لكل المسلمين، ولابد من حماية الحضارة الإنسانية من هذا العدو، وفي الحقيقة فإن الإلحاد الجديد قد كشف عن بغضه الحقيقي لمظاهر الإسلام.. وبالأحرى فقد صارت تلك أخص سماته[5] .

ودون إطالة فلا يخفى على أحد أن أساليب السخرية والهزء لم تكن إلا وبالا على ظاهرة الإلحاد ذاته، أما عن تلك العدائية للدين وتصويره بأنه عدو الإنسانية، (فالتاريخ شاهد على هشاشة الادعاء، فظهور النظام الرأسمالي، الذي يفخر به دعاة الإلحاد الجديد لم يكن إلا على يدي الحركة

---

1 – ينظر عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص48 – 49.

2 – كفلم (الخضوع)، وفلم (فتنة)، ومقالة بعنوان (حق الإهانة) للمرتدة الملحدة الصومالية (آيان هرسي علي) .

3 – نقلا عن عبد الله العجيري، ميليشيا الإلحاد، مصدر سابق، ص70 .

4 – ينظر المصدر نفسه، ص48، 56، 69 .

5 – ينظر المصدر نفسه، ص72 .

البروتستانتية الدينية، كذلك لم يكن انحسار العصور المظلمة في أوربا إلا على يد الإسلام، ولذا قرر البعض أن أصول القوانين الدولية مستمدة من التشريعات الإسلامية)[1] .

ويتبنى الفكر الإلحادي المعاصر عدة مفاهيم، تدور معظمها في فلك : نشأة الكون تلقائيا، ونتيجة لأحداث عشوائية، وأن الحياة ظهرت ذاتيا من المادة، عن طريق قوانين الطبيعة وأن ليس الإنسان إلا جسدا ماديا، يفنى تماما بالموت، فليس هناك بعث بعد الموت، ولا هناك مفهوم لوجود الروح كنفخة إلهية، وبالتالي فالفرق بين الحياة والموت هو فرق فيزيائي بحت، سيتوصل إليه العلم يوما ما [2] وغيرها من المفاهيم التي تؤول في معظمها أو تعزز القول بعدم الحاجة إلى إله صانع . وعموما، تصب سمات الإلحاد الجديد كلها في ميدان أن الدين وهم خطير نتيجته التطرف والحروب، ينبغي التخلص منه واستبداله بالعلم، وتفند الإيمان والأديان وتجعل منها قصصا خرافية وهمية، وينبغي أن لا يغفل أن أهم أهدافها التطبيع لحضور الإلحاد في مجتمع وأقلمته مع الواقع ليصبح مسألة عادية لا خوف منها أو ريب .

المطلب الثاني : العلم بين الدين والإلحاد

يهرب الفكر الإلحادي المادي من الدين ليحتمي بالعلم بل ويطرحه بديلا عنه، مؤتملا منه الصدق المطلق، في مقابل الدين الذي يتضمن الوحي، وما يخبر به فهو يدخل في دائرة الغيب والميتافيزيقا، لأنه لا يخضع لقابلية الاختبار والتجريب ... منذ القرن السابع عشر بدا للمعرفة في أوربا سبيلا آخر غير مفاهيم رجال الدين والفلاسفة؛ هو العلم، ويروج الملاحدة وكثير من المتدينين أن هناك تعارضا وصراعا بين العلم والدين، بل ويدعي الملحدون أن الصراع قد انتهى بالفعل لصالح العلم [3] ! ولنرى مدى صحة ذلك :

يهدف العلم إلى التوصل إلى القوانين التي تربط بين وقائع معينة، وتكون قادرة على تفسير حدوث ظاهرة ما على نحو محدد، وليس على نحو آخر، بل والتنبؤ بتطور هذه الظاهرة مستقبلا [4] وإنه لمن أكبر أخطاء الثقافة الغربية في القرن التاسع عشر (قرن الإلحاد) هو ارتباط هذه الثقافة بمنظور وتصور للعلم يخرجه عن سياقه الإنساني والأخلاقي، وتقديمه كبديل جديد للدين، فكأن العلم ديانة جديدة تهدي البشرية الحائرة، ويفضي إلى سعادتها[5] .

---

1 – ينظر هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص14 .

2 – عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق ص26 .

3 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص36 .

4 – عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص47 .

5 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص38 .

يتمسح الإلحاد المعاصر في العلم، لزعمه أنه (إلحاد علمي)، ويردد الملاحدة أن كل اكتشاف علمي يفسر ظاهرة من ظواهر الطبيعة يسحب من رصيد الألوهية، لذلك على البشرية أن تقبل أن العلم قد قضى على أي مبرر للاعتقاد بوجود سبب أول، ونفى كذلك وجود غائية من الوجودات، (و(برتراند راسل) ذلك الفيلسوف الكبير كرائد لمنهج العلمية (Scientism) يرى أن أي معرفة لابد أن تحصل بالعلم، وما لا يستطيع العلم اكتشافه لا يستطيع الإنسان معرفته، وعلى هذا يكون العلم هو الطريق الوحيد للحقيقة، باعتبار قدرته اللامحدودة على تفسير كل شيء، وكنتيجة لذلك يكون أي حديث عن الإله أو الدين أو التجارب الروحية يقع خارج نطاق العلم، ومن ثم ليس حقيقيا، ولا يختلف عن الحديث عن الغول أو التنين... [1] وكامتداد لذاك روج حادي الإلحاد (ريتشارد دوكنز) لعالم لا دين فيه، في تقديم كتابه (وهم الإله) في دعوته للاستمتاع بجمال الوجود دون ضرورة تفكير بوجود الإله : "ألا يكفي النظر لجمال الحديقة، دون الاعتقاد بأن هناك خلفها جنيات أيضا"[2] .

ينظر الفكر المادي بمنظور متفائل للعلم، وكيف لا وهو الذي يرتكز على حقائق يقينية، أو هو منظومة مبادئ ثابتة تتميز بالموضوعية والصرامة المنهجية، فالمعرفة العلمية معطى مستقل عن الذهن، وهي ليست تركيبا عقليا، وفي الوقت نفسه يتميز الباحث بالحياد المطلق في الوصف أو التفسير، أو صياغة القانون أو النظرية[3] . هذا ما أمله الفكر الإلحادي من العلم، وجعله يسلم أمره له نهائيا، ولكن هل هذا ما يؤكده العلم ذاته؟!

فالمتأمل لتاريخ العلم يراه يتضمن أخطاء جوهرية ظلت لقرون على أنها حقائق علمية، كما إن هناك نظريات كبرى سادت الساحة المعرفية وسيطرت على المشهد العلمي حقبا من الزمن، ثم اكتشف ثغرات أو أخطاء فيها، أو جاءت نظريات بديلة، وتحولت الأولى إلى مجرد تاريخ للعلم [4]، وإذا كان العلم هو المصدر الوحيد للحقيقة والمعرفة، فأين هو من الفلسفة والأدب والفن والموسيقى وعلم الأخلاق؟ ! فكيف يحكم العلم على إبداع أو فنية أو جمالية أدوات تلك العلوم من قصائد ولوحات ومقطوعات .. أبالإحصاء أو بالعد؟ ! [5] وكرد على ثقة (راسل) المطلقة في العلم يقول آخر

---

1 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص56 .

2 – ينظر دون ترقيم الصفحة, Richard Dawkins, The God Dulusion

3 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص71 .

4 – المصدر نفسه، ص73 .

5 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص57 .

آخر : "إن أكثر الأسئلة أهمية وإثارة تقع خارج قدرات العلم" [1] فهل للكون غاية أو هدف؟ و لم خلق الإنسان؟ وما حقيقة حياته أو موته؟... كل ذلك مما عجز المخبر والمعمل عن فهمه وتفسيره .

أما أهم ما يمتاز العلم به؛ فهو قدرته على التنبؤ، فمعرفة متغيرات محددة، واكتشاف العلاقات التي تربطها، والظروف المحيطة بها، ينشأ عنها بالضرورة توقع نتائج محددة، وتمثل مساهمة (نيوتن) في اكتشافه قوانين الحركة انتصارا في تاريخ العلم، وبها أمكن التنبؤ بمستقبل الجسم المتحرك إذا توافرت معلومات دقيقة عن أحواله الإبتدائية، من سرعته الابتدائية واتجاهه الأصلي.. كما من شأن المعلومات الحالية لجسم متحرك أن تكشف عن أوضاعه الماضية أيضا [2] ولذلك اعتقد المعتقدون بالفيزياء النيوتونية بقدرتها على التنبؤ بماضي الكون من لحظة نشوءه إلى مستقبله، مما قاد إلى تصور حتمي جبري للكون، فكل ما جرى ويجري قد تقرر في مطلع الأزمان، وما الكون إلا آلة جبارة تعمل بدقة وفق العوامل الأولى التي أطلقت حركتها، ووفق قوانين دقيقة تحكم الأجسام والأجرام سواء .

وقد كان من نجاح النظريات العلمية، وخاصة نظرية (نيوتن) عن الجاذبية، أن أدى ذلك بالعالم الفرنسي (الماركيز لابلاس) إلى أن يحاج في بداية القرن التاسع عشر بأن الكون محتم بالكامل، واقترح (لابلاس) أنه ينبغي أن يكون ثمة مجموعة من القوانين التي تسمح لنا بالتنبؤ بأي شيء سيحدث في الكون.. فالفكر المادي أشاع مفهوم الحتمية لكي يؤكد على الطبيعة الميكانيكية للكون، وعلى قدرة الإنسان على التنبؤ بالأحداث والوقائع والسيطرة عليها، وذهب (لابلاس) بعيدا حتى افترض أن ثمة قوانين حتمية تحكم سلوك الإنسان أيضا .. غير أن الفكر العلمي الحديث أعاد النظر بالمفهوم، فاليقين القاطع الذي تبشر به الحتمية تقابله بالعلم الحديث (نظرية الاحتمال) [*] وقد صار مبدأ عدم اليقين عند

---

1 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص58 .

2 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص333 .

* – نظرية الاحتمال : إذ يحتمل حدوث (ب) في حالة تواجد (أ)، ويحتمل أيضا أن ينتج (ب) و (ج) و (د) عن (أ)، وهكذا، في حين أن الحتمية تحصر العلاقة بين متغيرين في صيغة رباط ميكانيكي، ومن خلال نواتج لمقدمات غير قابلة لخيارات أو احتمالات أخرى .

(هايزبرج) (Werner Karl Heisenberg)1 هو خاصية أساسية للعالم لا مفر منها، مما أعطى نهاية لحلم (لابلاس) [2].

فالملاحظ أن السببية في حقيقتها، إنما تبرز فكرة النظام في الكون، أي أنها تؤكد السنن الإلهية أو القوانين الطبيعية، إلا أن (الحتمية العلمية) [3]، قد بالغت فجانبت الصواب، فبحسب التصور المادي لا مجال للحدس ولا للتأسيس الذهني ولا للخيال، وإنما وقائع وحقائق ترتدي طابع اليقين المطلق، والهدف هو الوصول إلى الحقيقة المطلقة، وعبر التجريب وحده، يمكن للعالم الحصول على معرفة ذات طبيعة يقينية[4]، والتجريب هو وحده المعيار لقبول النتائج أو رفضها، فالسببية تؤكد السنن الإلهية، أما الحتمية المادية فتؤكد أن للكون مسارا أوحدا وقانونا صارما لا يمكن تجاوزه .

ويرتبط بمفهوم الحتمية العلمية مفهوم الموضوعية، إلا أن أول مشكلات العلم هو خضوعه تحت رحمة التحيز المذهبي أو الفلسفي (فالعلم كثيرا ما يتبع الأيديولوجية وليس العكس ! ...فهذا عالم المناعة (جورج كلين) [5] (George Klein) يصرح بأن إلحاده ليس منطلقا من العلم، بل كان إيمانا مسبقا اكتسبه في صباه، ويؤكد نفس المعنى عالم الوراثة (ريتشارد ليونتن) [6] (Richard Lewontin) بتبنيه القناعات المادية كعقائد مسبقة قائلا : "إن المادية هي المطلق، ولن نسمح للألوهية أن تقترب من الباب"..ولذا فهؤلاء وأمثالهم يقبلون تفسيرات علمية لا سبيل للعقل المنصف لقبولها) [7] .

وإذا كانت الآلية هي مجال العلم ونطاقه، فمؤكد أنه لا قبل للعلم بالغاية من الموجودات أو حكمتها، وهنا تبدأ سقطة الإلحاد الكبرى، فبإلغائه الغائية لاكتفائه بالآليات، لا يحل مشكلة علوم

---

1 – فيرنر كارل هايتربرج : (1901– 1976م) فيزيائي ألماني وحائز على جائزة نوبل عام 1932م، اكتشف أحد أهم مبادئ الفيزيلء الحديثة وهو مبدأ عدم اليقين، ن مؤلفاته : الجزء والكل والفلسفة والفيزياء والطبيعة في الفيزياء .

2 – ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، مصدر سابق، ص57، 58، وحمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص76 .

3 – وبها قال : (لابلاس)، و (بيرنار) .

4 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص72 ، ص80 .

5 – جورج كلين : (George Klein) بيولوجي سويدي، مهتم بأبحاث السرطان، له كتب في الإلحاد أهمها (الملحد والمدينة المقدسة)، ولد عام 1925 .

6 – ريتشارد ليونتن : (Richard Lewontin) عالم وراثة أمريكي مهتم بالتطور، ولد عام 1929 م .

7 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص61 .

البدايات، فالعلة الغائية تقع خارج نطاق العلم، ولا يستطيع أن يخبرنا بها إلا العلة الفاعلة، ولما كان العلم لا يتعامل مع العلة الغائية، أسقطها الماديون واعتبروا أن القول بها معاد للعلم[1] .

لكن قصور العلم عن التعامل مع العلة الغائية لا يلغي أن للعقل دورا فيها، فإذا كان العقل يعجز عن التوصل إلى الغاية بذاته، فإن ذلك لا يلغي أبدا دوره في فهم الغايات والحكم عليها إذا ما أخبرنا الله بها ! فالقول بالإله لا يعطل العقل ولا المنطق .. فكان من أخطر سقطات العلماء (وليس العلم) تصورهم أن فهمنا للآليات الفيزيائية التي تعمل في الطبيعة، ينفي وجود إله خلق ويدير الكون، أي أنهم خلطوا بين الآلية والسبب الأول، وإذا كان من الخطأ إسباغ القداسة على موجودات الكون ومظاهره، إذ هو أمر –لا شك– يعيق تقدم العلم؛ فإذا تمسكنا بطرح الفلسفات اليونانية القديمة أو غيرها من أن الرعد والأمراض والكوارث الطبيعية وغيرها هي تعبير عن غضب الإله، لما درست تلك الظواهر ولما عرفت آلياتها، فلم يتقدم العلم في اليونان القديم إلا بعد أن نزع بعض مفكريه القداسة عن الكون، إلا أنه من الخطأ أن يفهم أن الإلحاد ضروري لممارسة العلم الحقيقي، كما اعتقد الملاحدة، فنزع القداسة عن الكون[2] لا يليه نزع القداسة عن خالق الكون .

فما يقوم عليه العلم الحديث هو فاعلية الأسباب، وذلك ما يتمسك به الماديون ويلغون من خلاله وجود الإله! فهل اكتشاف (إسحاق نيوتن) الآليات التي تتحرك بها الأجرام السماوية من قوانين الحركة والجاذبية، يعني أنه لا داعي لوجود الإله، بل زاده ذلك إعجابا بالإله الذي صمم تلك الآليات المحكمة ... فوجود الآليات الفيزيائية لا يتعارض مع وجود مخترع له غاية من الإيجاد، بل إن ذلك من البديهيات العقلية ... فانتظام الوجود ومصداقيته بالثبات الذي تترجمه القوانين الطبيعية وكما يقول

---

1 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص40 .

2 – نزع القرآن الكريم القداسة عن موجودات الكون، يظهر ذلك بوضح شديد في قصة خليل الله إبراهيم عليه السلام، حين رفض أن تكون الشمس والقمر والكواكب آلهة، ونفس المعنى بينه نبينا الكريم في موت ابنه إبراهيم، وصاحب ذلك خسوف الشمس في قوله (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته، لكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده) (رواه البخاري) .

عالم الفيزياء النظرية (ستيفن هوكنج) [1] : "كلما ازدادت معرفتنا بالكون تأكد يقيننا بأنه محكوم بالقوانين"[2] .

فالافتراض بأن مهمة العلم يسيرة في هذا الكون بما يحويه من مخلوقات وسنن إلهية، ووقائع مركبة ومعقدة افتراض لا يخلو من السذاجة، بل إن (أينشتاين) يقول : "إن ما يبدو غير قابل للفهم هو أن يكون العالم قابلا للفهم"، كما عبر (بوانكريه) [3] (Poincar) عن حيرة العلماء حين قال : "إن العلم يهدف إلى فهم الطبيعة، لكن حقيقة الطبيعة تبقى خفية علينا دوما، إذ كلما اقتربنا منها ابتعدت عنا"[4] . فقوانين العلم وآلياته من صميم عمل الإله، ذلك أن الله بحكمته ارتضى أن يكون فعله من خلال الأسباب، وهو الذي لا يحتاج فعله إلى أسباب، وكل ذلك راجع لحكمته جل في علاه ودائر في فلك قوله تعالى **{كُن فَيَكُونُ }** (سورة يس الآية 82) وكيف لا وهو مخرج الكون من العدم إلى الوجود!5

ثم ما الذي يمكن أن يضيفه العلم فوق اكتشافه للقوانين وآليات الكون، فليس الأمر كما يعتقد الربوبيون كـــ(أرسطو وغيره من أن الله خلق الكون وتركه يعمل وفق الآليات التي وضعها فيه، بل هو إله قيوم على الكون يقوم بإمداده بالإيجاد وبتفعيل قوانين الطبيعة في كل لحظة ولا يغفل عنه سبحانه وهذا معنى قوله تعالى **{اللهُ لآ إِلهَ إلاَّ هو الحيُّ القيُّوم لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ }** (سورة البقرة الآية **255**) فالله هو السبب الأول وراء كل الآليات التي يكتشفها العلم، فالكون وكل ما فيه منظم مترابط، يخضع لقوانين واحدة، وقابل للتنبؤ، وبدون هذه الحقيقة، وبدون استيقاننا بها ما كان للعلم أن يقوم[6] فكأن الموجودات وعظيم صنعها ودقة ضبطها ليست وحدها دليل على قدرة الصانع

---

1 – ستيفن هوكنج : (Stephen Hawking) ولد عالم الفيزياء النظرية والرياضيات التطبيقية بإنجلترا عام 1942م، وهو مشهور بأبحاثه في الكون خاصة الثقوب السوداء، ويعتبر كتابه (تاريخ موجز للزمن) في 1988م أكثر الكتب مبيعا في التاريخ بحوالي 500 نسخة، إضافة لكتبه : الثقوب السوداء والأكوان الناشئة، التصميم العظيم... ألزمه الشلل كرسيه طيلة العشرين سنة الأخيرة من عمره، توفي في2018 .

2 – نقلا عن عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص49، وستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، ص146.

3 – بوانكريه : (Jules Henri Poincaré) (1854– 1912م) أحد أمهر العلماء الفرنسيين في مجال الرياضيات والفيزياء النظرية، وميكانيك الأجرام السماوية، وعرف بوانكاريه بأنه من قدم للنظرية النسبية العامة الحديثة .

4 – نقلا عن محمد عابد الجابري، المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، ط 2، بيروت : دار الطليعة، 1982م، ج2، ص74 .

5 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص40– 44 .

6 – ينظر المصدر نفسه، ص45، 48 .

القادر، بل إن انتظام الكائنات وتناغم حركتها الذائبة، وجريان قوانينها وسريانها وثباتها لأوكد إعجازا . فـــ(قد يستطيع الإنسان أن يفسر ما كان غامضا عليه، في بعض الظواهر والأشياء عن طريق اكتشاف القوانين التي تحكمها، لكن الإنسان عاجز على أن يسن تلك القوانين، فهي من صنع الله وحده، بل إن كل قانون يكشفه الإنسان يزيده قربا من الله)[1] .

يرجع (ملفن كالفن)[2] (Melvin Calvin) الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء هذا الانتظام، وكذا قناعتنا ويقيننا ومصداقيتنا بوجوده إلى الإيمان بالإله الواحد الذي أنشا الكون ويديره بنظام وتناغم، ومن ثم يصبح القول بالتوحيد هو الأصل التاريخي لاستشعار انتظام الكون وانضباطه قال تعالى **{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}** (سورة الأنبياء الآية 22) فالشمس –مثلا– تظهر من الشرق منذ وعينا، ونحن نجزم أنها ستفعل ذلك غدا ونتصرف على أساسه، بالرغم من عدم وجود دليل علمي قاطع على حتمية ذلك، ومن هنا فإن مبدأ انتظام الطبيعة يقوم على الإيمان، فلولا الإيمان لما قام العلم، ولما توافرت أساسياته من مصداقية وقابلية للفهم والتنبؤ..[3] مما دفع (أينشتاين) لأن يقول: "يدرك كل إنسان يهتم بالعلم بصورة جادة أن قوانين الطبيعة تعكس وجود روح كلي أسمى كثيرا من روح الإنسان"[4] ومن ثم يصبح التوحيد والإيمان هو أساس العلم الحديث .

وأما تمسك الملحد بالعلم فناجم عن لجوئه للمطالبة بالدليل الحسي، إذ يعتمد العلم على ما تمدنا به الحواس، فكل معرفة غير محسوسة، ولا تخضع للتجريب ليست معرفة علمية؛ والدليل الحسي إنما يعتمد على إدراك الحواس خاصة البصر والسمع واللمس، لاعتقادهم –خطأ– أنه أقوى الأدلة، وقد خفي على هؤلاء أن الدليل الحسي ضعيف جدا، فاعتمادنا على الحواس؛ إذا يعني تضليلنا بسهولة ! أي أننا قد نعتبر الادراكات الحسية التي ليس لها أي صلة مادية بالواقع أشياء حقيقية..، فالبصر يعتبر السراب ماء .. ولا شك أن حواس الإنسان عاجزة عن إدراك حقيقة الوجود المحيط بنا، فقدرة الحواس على الاستقبال محدودة للغاية ![5].. بل إن الإنسان يرى في أحلامه أحداثا وأناسا ومواقف ..

---

1 – نخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، مصدر سابق، ص109 .

2 – ملفن كالفن : (Melvin Calvin) (1911– 1997م)، هو عالم كيمياء حيوية أمريكي، تحصل على جائزة نوبل في الكيمياء سنة1961 .

3 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص48– 49 .

4 – نقلا عن المصدر نفسه، ص49 .

5 – فإذا مثلنا الموجات المحيطة بنا بخط يبلغ طوله 150 مليون كيلو متر، فإن عيوننا تبصر منه 1,5 متر فقط .

تبدو واقعية تماما، ولكنها في الحقيقة ليست سوى إحساسات تدركها المراكز الحسية بالمخ لا أكثر، فكل من الأحلام والواقع الخارجي نشهده في العقل ![1]

بل إن ما نراه وما نسمعه ونلمسه بوصفه " المادة" و"العالم"و "الكون" بأسره هو عبارة عن إشارات كهربائية[2] يتلقاها المخ، ونحن لا نستطيع على الإطلاق أن نصل إلى حقيقة المادة خارج عقولنا، ولكنه بإمكاننا أن نرى ونسمع ونتذوق العالم الخارجي كما تشكل في أذهاننا [3]، فما نعرفه عن هذا العالم المادي يتكون من بضعة إدراكات حسية، ولا يمكن الوصول إلى حقيقة المادة التي لا نراها سوى في خيالنا ولا يمكننا الوصول إليها في واقعنا الخارجي .

فقد ثبت أن الموضوعي أو المادي، لا يتكون إلا مما تركبه عقولنا الذاتية، وانتهى العلماء إلى القول، بأن المادة غير موجودة إلا في العقل، فهو الذي تصور المادة، فجعل الحواس تعرب عنها، وكما قال (برتراند راسل): "فالمادة ليست إلا صيغة معقدة، لحوادث تجري في الفضاء المطلق"، فالمادة جزء من الحركة الكونية تعمل في حيز تدركه حواسنا، ونسميه عالم المادة" [4] وهنا اقتربت الفيزياء عينها من المذهب العقلي، وابتعدت عن المجال الحسي .

فالمنكرين لوجود الله لا يتخذون إلا رأيا مسبقا يتصل بماهية المادة وخصائصها، ولقد ربط أكثر الناس حقيقة الأشياء بما نراه بأعيننا من العالم المادي، واعتبروا أن الحقيقة هي المادة نفسها، غير أن العلم الحديث قد تصدى لهذا الرأي ... وإذا كان كل المعلومات التي نعرفها عن العالم الذي نعيش فيه تصل إلينا عن طريق حواسنا الخمس، فإن العالم الذي نعرف يتكون مما نراه بأعيننا، وما تلمسه أيدينا، وتسمعه آذاننا.. ولذا قد يخطر لنا أن العالم الخارجي يمكن أن يحتوي على خلاف ما تنقله لنا حواسنا الخمس إذ أننا نعتمد عليها من نعومة أظافرنا ..إلا أن أهم ما أثبتته الدراسات والأبحاث التي أجريت في فروع العلم المختلفة يشير إلى أن العالم الخارجي كما نعرفه في أذهاننا هو ردود فعل

---

1 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص71، وينظر

Harun Yahya, Atlas of creation, translated Carl Nino Rossimi, Ronald Evans, Istanbul Global Publishing, V2, p768.

2 – فعما نبصره أو نسمعه مثلا، يصدر الجسم حزمة ضوئية أو موجات صوتية، ويتحول الضوء أو الصوت إلى إشارات كهربائية، تنقلها الخلايا العصبية إلى نقطة مظلمة صغيرة جدا هي مركز الإبصار أو السمع أو الشم ..في المخ ، فيحول المخ الإشارات الكهربائية إلى صورة كاملة أو رائحة أو ذوق أو صوت .. .

3 – Harun Yahya, Atlas of creation, V2, p767.

4 – ينظرحمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص65 .

تتكون في أدمغتنا نتيجة إشارات كهربائية فحسب، فالأشياء جميعها تتكون من إشارات كهربائية في أدمغتنا فقط لا غير[1] . فنحن لا نعرف عن العالم الخارجي إلا بما في داخلنا وما يتشكل في أذهاننا .

وقد ناقش المفكر (بيركلي) Berkeley [2] هذه الحقيقة بقوله : "في بداية الأمر كان الاعتقاد الشائع هو أن الألوان والروائح .. توجد بالفعل في العالم الخارجي، ولكن وجهات النظر هذه تم التخلي عنها فيما بعد، فقد ثبت أن وجوها متوقف على إحساساتنا" [3] . ويمكن القول أن المخ هو المسؤول عن تفسير إشارات المادة، وبالتالي فهو القيم على إعطاء معنى للعالم الخارجي، وليس هذا فحسب، فالأهم؛ أنه ما دامت المادة عبارة عن إدراك فحسب ، فلابد من مصدر لهذا الإدراك أي أنه قد خلق، ولابد لعملية الخلق هذه أن تكون مستمرة، فإن لم تكن كذلك، فما نطلق عليه المادة سوف يختفي[4] .

والمعرفة العلمية المعاصرة شاهد على أن هناك الكثير من الظواهر التي لا يمكن للإنسان أن يتمثلها تجريبيا أو يشعر بها حسيا، ومع ذلك يؤمن بها، وهي إما أن تكون مسلمة، أو فرضا يقاس بآثاره، أو كينونة لازمة الوجود، ولكنها غير معروفة الطبيعة [5] . فليس للمادي منكر بالغيب في عصرنا، أن يشترط معرفة يتمثلها للعيان و لا يمكن إدراكها إلا ضمن إطاره الحسي . فالنتيجة التي نصل إليها هي إن علم الإنسان بالعالم الخارجي محدود جدا ... فكيف يندهش الملاحدة من أن إلهنا لا تدركه الأبصار، ويطالبون بأدلة حسية على وجود الله عز وجل !!

والملاحدة في حجتهم التي تجاوزها الزمن، يشبهون بعض من سبقهم منذ آلاف السنين حين طالب بعضهم موسى عليه السلام{ **فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** }(سورة النساء الآية 153) . ولذا فـــ(عدم معرفة جوهر الشيء لا يعني انتفاء وجوده، والإنسان يستطيع الإيمان بالأشياء المجردة والمطلقة، دون القدرة على الإحاطة التامة بها، فالعقل الإنساني يستطيع الوصول إلى حتمية وجود قوة إلهية خارجة عن أبعاد الكون التي يعهدها، وأغلب البشر يؤمنون بالله تبعا للفطرة الداخلية، دون إعمال كثير

---

1 - Harun Yahya, Atlas of creation, V2, p768.

2 - بيركلي : (George Berkeley) (1685- 1753م) كان فيلسوفا بريطانيا وأسقفا أنجليكانييا، من أهم مساندي الرؤية الجوهرية في القرن الثامن العشر الميلادي، (أ ن العقل الإنساني، هو جوهر، وهو أكثر علوا ورقيا من مجرد وظائف دماغية)، ادعى بيركلي أنه لا يوجد شيء اسمه مادة على الإطلاق، وما يراه البشر ويعتبرونه عالمهم المادي لا يعدو أن يكون مجرد فكرة في العقل بفعل الإدراك وبغياب الإدراك تغيب المادة .

3- Harun Yahya, Atlas of creation, p766.

4 - المصدر نفسه، ص 768 .

5 - حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص123 .

عقل)[1] فأنى للإنسان أن يدرك عظمة الإله، وهو مخلوق لم يقدر على معرفة جوهر المادة ذاتها حتى الآن !

فما بشر به الفكر المادي في القرن التاسع عشر من سيادة لمنطق العلم، وقدرته على التوصل إلى الحقيقة، ادعاء يعزوه التواضع ويفتقر إلى برهان من تاريخ النظرية العلمية نفسها، فالثورة العلمية مطلع القرن العشرين، جاءت لتعطل القول بالحتمية المادية، فعلى عكس الفيزياء النيوتونية لا نستطيع من حيث المبدأ أن نعرف ما يكفي عن الوضع الراهن لعناصر الحادثة الفيزيائية، لنستطيع التنبؤ بأوضاعها المستقبلية، وكل ما يستطيع العلم أن يفصح عنه في الفيزياء الحديثة [2] هو الحالات التي لا حصر لها، والتي يمكن أن تتبع الأخرى، وأنه يتحدث دائما عما يحتمل، وأما اليقين فأمره غيب [3]، فالعلم لا يعطينا منظومة يقينية مبنية بناء صحيحا، ولا يمكن التوصل إلى اليقين المطلق إلا على مستوى تجاربنا الذاتية المتعلقة بالاقتناع الذاتي الأمر الذي أسفر عنه وأكده الربع الأخير من القرن العشرين .

فالنظرة المتفائلة للعلم، باعتباره مصدر يقين مطلق للمعرفة، اصطدمت بحقائق وعوائق منهجية لم تكن في حسبان الفكر المادي، فنحن نرى تراكما معرفيا هائلا في القرن العشرين، كشف عن حد طبيعي للمعرفة الإنسانية.. وما بشر به الفكر المادي من قيم معرفية مثل (الموضوعية) جاءت الفيزياء الحديثة وخصوصا الميكروفيزياء –كما سنرى– لتؤكد مقدار تأثير الذات على الموضوع[4] .

وما طرحته العلوم الحديثة من مفاهيم الاحتمال والارتياب، لا يقلل من شأن العلم، أو يعني أن الكون يسير على نحو احتمالي، وإنما عجز الإنسان عن التنبؤ ومعرفة النتيجة هو الذي جعل قوانينه الاحتمالية أقرب إلى الحقيقة من قوانينه الجازمة، مما يعني أن الاحتمال خاصية من خصائص النظريات العلمية، وليست بالضرورة خاصية من خصائص الظواهر الطبيعية، فالعجز يكمن في القيود المفروضة على التصورات والمقدرات البشرية، وبين واقع الحال في الظواهر الطبيعية[5] .

كما كشف ما انتهى إليه العلم حديثا، عن عمق الهوة بين النظرة المادية للكون ذات الطبيعة الميكانيكية، والنظرة العلمية في عصرنا، وهي ذات طبيعة إيمانية، فكلما ازداد العلم عمقا اقترب من

---

1 – هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص 31 .

2 – سنتطرق لعنصر (الفيزياء الحديثة) فيما بعد .

3 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص 334، وعمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص82 .

4 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص72 .

5 – ينظر المصدر نفسه، ص83 .

الله، و لم يعد العلم يطرح كبديل للدين، بل هو يتحول إلى سند ومؤيد لحقائق الدين [1]، فسواء السببية أو الحتمية أو التجاذب بين الذاتية والموضوعية، جل ذلك يصب في أن الكون يسير وفق سنن كونية طبيعية إلا أنها إلهية، ولا تعارض في ذلك، بل ذلك ما تعززه الشواهد العلمية، أما ما يظهر من احتماليات والعجز عن الوصول إلى اليقين المطلق، فيجر إلى الاعتراف بقدرات الإنسان المحدودة، ويلجئه إلى التسليم بالغيب إلى جانب السعي في سبر أغوار هذا الكون البديع .

فلا أحد ينكر أهمية ما حققه العلم من إنجازات رائعة ومدهشة على الصعيد النظري والتطبيقي، لكن هذا الإعجاب لا يخفي حقيقة بسيطة، هي أن الإنسان بقدر ما يتوغل في الأعماق المجهولة لهذا الكون، يكشف صعوبة مهمة الاكتشاف وحجم التحديات، وفي الوقت نفسه يزداد إيمانه بالخالق سبحانه، فالكتاب المفتوح يتضمن فصولا يمكن للعلم أن ييسر قراءتها، لكن فصولا أخرى من هذا الكتاب هي من علم الغيب، لا يمكن للإنسان معرفتها، وفي هذا العالم موجودات كثيرة، وأبعاد لموجودات كثيرة لم نتمكن من إدراكها، وحتى وإن وصلنا إلى أبعد نقطة في هذا العالم فستظل معرفتنا ناقصة والعالم الكبير يزداد تواضعا بقدر تعمقه في بحوثه [2]، لعلمه بأن العلم وإن ظل، فهو اجتهاد بشري، لا استغناء له عن يقين الدين وحقائقه المطلقة، ذلك أن الإنسان لا يحصل على العلم إلا بمقدار ما يأذن به الله تعالى .

فالعلم والدين لا يتعارضان، ولكنهما يتكاملان، فالإله يقف وراء قصة العلم كلها؛ النظام المدهش، الانضباط، المصداقية، القابلية للفهم والتنبؤ...ولهذا فإن معظم كبار العلماء الذين قامت على أكتافهم الثورة العلمية التي نقلت أوربا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة كانوا من المؤلهة [3] .. و كذلك الأمر بالنسبة لمؤسسي الفيزياء الحديثة [4] [5]، فالعلم وما توصل إليه يبحر باتجاه ما قالت به الكتب السماوية، وهو أن الكون وما فيه من صنع الخالق البديع .

والحقيقة التي لا مراء فيها؛ هي أسبقية الرؤية الإلحادية على معطيات العلم الخام، حيث تم تسليط الأولى على الثانية، ليظهر التوظيف المؤدلج للعلم... ولطالما حذر أرباب الإلحاد الجديد أنفسهم من إنشاء أية صلة بهذا العالم الميتافيزيقي، إلا أن الإلحاد الجديد في رؤيته للحياة والكون والوجود يرتكز على أدلة ميتافيزيقية، غير مدعومة بمنطق أو عقل أو حجة أو سند علمي، وهو لم يقدم أي حل

---

1 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص114 .

2 – ينظر هارون يحيى، أطلس الخلق، ص767 وينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص72.

3 – كأمثال جاليلو، ونيوتن، وباسكال، وبويل، وفاراداي، ومندل، وباستور، وماكسويل ..

4 – أمثال أينشتاين، وماكس بلانك، وهيزبرج، ووشرودنجر، ..

5 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص58 .

لظاهرة الوجود الإنساني .. وبعد أن نبت الإلحاد في الغرب بدواعي سياسية حينا وانتقامية أحيانا هاهو اليوم يعد قالبا جاهزا لكل من يمر بأزمة نفسية أو مادية، أو شبهة .. وهو يولد باستمرار من رحم حب الظهور والسخط على الوضع الاجتماعي والسياسي [1] وكمخرج لتناقضاته العقلية، وإشكالاته المعرفية، وعجزه عن أسئلة النشأة وسؤال الغاية، وحكمة الوجود، جعل الكل بلا قيمة ولا معنى .

ولطالما نبه المفكرون العظماء على مر العصور إلى أن الافتراق عن الله يعري البشر ويقتل المعنى، وإنكار الله وموت المعنى صنوان لا يفترقان، رغم محاولات الفصل بينهما بالتعليم والتعلم والنشاط الزائد للبشر في عصر ما بعد الحداثة، ولكن الابتعاد عن الله يحط من قيمة الإنسان [2] . ورغم أن العلم قد قوض أركان الفكر المادي، إلا أن الغرب لم يتوصل إلى إجابة مقنعة حول علاقة الإنسان بالدين، وذلك يعود إلى خصوصية العلاقة المعقدة بين المؤسسة الكنسية في الغرب، وما خلفته من تراكمات مؤذية وبالذات للعلم ورجاله، ومن هنا نشأت مخاوف من عودة الهيمنة الكنسية مرة أخرى من خلال كهنوت يتسلط على البشر تحت دعاوى من القدسية غير المبررة[3] .

وما نخلص إليه بعدئذ، هو أن الله بحكمته حين خلق الكون أجرى فيه سننه وفعل فيه قوانينه، لتكون تلك الآليات والقوانين سننا وعلامات نهتدي بها إليه، بل هي ألغاز وأمارات لا يؤول حلها إلا إلى الإيمان به سبحانه، ومن ثم يسهل على الإنسان قيامه بمهمته في الأرض من الاستخلاف والإعمار ... وسواء أإنطلق الإنسان من العلم أو من الدين فلن يصل لغير الإيمان بالله، فالخالق المدبر خلق الكون وهو من بث فيه سننه وقوانينه، كما أن إيماننا بثبات قوانين الطبيعة ومصداقيتها ينبئ عن وجود الخالق الحكيم، وما قدرة عقولنا على فهم ذلك الوجود بل والتنبؤ بما فيه إلا لانسجام بيننا وضعه خالقنا، **فالتوافق بين الدين والعلم توافق عميق يفضي لأن يكمل أحدهما الآخر ويخدمه، وإن صح القول فإن الرسوخ في العلم لا يخلف إلا إيمانا عميقا .**

---

1 – ينظر هيثم طلعت، العودة إلى الإيمان، مصدر سابق، ص15– 17 .

2 – رافي زكرياس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص88 .

3 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص147 .

المبحث الثاني : أدلة الفكر الإلحادي المعاصر ودحضها

جهد الملاحدة أنفسهم في صياغة فرضياتهم على هيئة نظريات علمية، إلا أنها لم تصمد طويلا أمام النقد والتفنيد، وهنا نأتي إلى أهم القضايا والمفاهيم العلمية التي يستند إليها الماديون في إلحادهم، لنرى كيف يتم دحضها بالبراهين والإثباتات العلمية في المقابل، وعن أهم تلك القضايا نجد :

- نشأة الكون والحياة ومعناها .
- التطور البيولوجي والداروينية .

المطلب الأول : نشأة الكون والحياة ومعناها .

أولا : نشأة الكون وبنيته :

تعد مسألة نشأة الكون وبنيته من القضايا التي لها صلة مباشرة بأسئلة الوجود والخلق والخالق، إلا أن أقصى ما التجأ إليه الملاحدة في التدليل على هذه المسألة المحورية ليس إلا مفهوم الصدفة، وأزلية الكون..، فهل الكون قديم أم حادث؟ إن ما يمكن أن يدور حول مسألة وجود هذا الكون يذهب إلى احتمال أن يكون هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم، وإما أن يكون أبديا ليس لنشأته بداية، وإما أن يكون له خالقا ... وفي عدم وجود الإله يقدم الملاحدة أطروحات عدة ...

فأما القول أن الكون قد شكل ذاته ! وأن هذا العالم بما فيه من مادة وطاقة، قد نشأ هكذا وحده من العدم! فلا شك أن هذا الطرح يعارض نفسه، فيستحيل أن يمارس سبب ما تأثيرا قبل أن يوجد، فهو رأي سخيف وليس موضعا للنظر والمناقشة[1] .

أما عن مفهوم (أزلية الكون) فقد فقدَ بريقه هو الآخر، إذ يرتكز على أرضية هشة، بمقياس عقلي وعلمي، فالقول بأن الكون لا بداية له، أي أنه أزلي، يفترض أن المجرات الهائلة وما تحتويه من شموس ونجوم وسنن ومخلوقات، ما علم فيه وما لم يعلم، وجد هكذا منذ الأزل، كون نفسه بنفسه، وقدر المسافات بين المجرات.. وأوجد كل شيء بمقدار، كل ذلك بمنطق الفكر المادي وجد منذ الأزل من دون تدخل قوة عظمى [2] . .. فحين ا قترحت الفلسفة المادية وجود الكون منذ الأزل، كان المفهوم الأساسي الذي ينطلق منه الملاحدة هو أن الكون موجود وعلينا فقط دراسته وأنه إذا كان لكل

---

1 – نخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، تر: الدمرداش عبد المجيد سرحان، بيروت : دار القلم، ص 11- 12، وينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص111 .

2 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص 117 .

سلسلة بداية، فسلسلتهم تبدأ بوجود الكون ! على أن فكرة أزلية الكون قديمة، وقد ظهر في القرون السابقة بعض الإيحاءات من علم الفيزيا ء أو الكونيات ما يؤدي إلى نظرة ميكانيكية للكون، تقود في النهاية إلى القول بأزليته، وتلك الإيحاءات لم تستند إلى معطيات علمية، فلكية أو فيزيائية، وإنما هي مجرد تخمينات حيكت لتنسجم مع المنظور الميكانيكي[1] .

أما قولهم بأن الطبيعة هي السبب الأول في نشأة الكون، وقد ثبت أنها حادثة وليست أزلية، وينبغي في السبب الأول أن يكون سابقا على الزمان (أزلي)، ولا يحده المكان، وليس بطاقة ولا مادة، لأنه منشؤها جميعا، كما ينبغي أن له القدرة ليقطع العدم ويخرج الوجود، وأن يكون مطلق المعرفة..هذه الصفات هي الحد الأدنى التي ينبغي أن تتوافر في السبب الأول موجد الكون، إلا أنها لا تتوافر في الطبيعة ولا يتصف بذلك إلا الله الخالق القادر[2] .

كما أرجع ملاحدة آخرون نشأة الكون إلى قوانين الطبيعة، وهذا خبل ! فالنظريات والقوانين تصف مسار الكون لكنها لا يمكن أن تخرج شيئا للوجود، فقوانين (نيوتن) للحركة مثلا يمكن أن تصف مسار الكرة، ولكنها لا تحركها، وبدون العناصر الأربعة (المادة- الطاقة-المكان- الزمان) لا تستطيع القوانين أن تعمل، بل لن تكون هناك قوانين، كما أن أبسط القوانين وهو 1+1=2 غير قادر على إيجاد شيء على الإطلاق [3]، ورغم هشاشة هذا الرأي من بدايته، فهو مما يرتكز عليه الماديون في تفسيرهم لنشأة الكون ووجوده . وجملة فـــ(الأدلة الكونية على أن الكون حادث كثيرة ومتضافرة، منها ما يقوم على أساس أن الكون متغير، وعلى ذلك فإنه لا يمكن أن يكون أبديا، وكذلك الأدلة التي تبنى على إدراك الحكمة، فتقوم على أساس أن هناك غرضا معينا أو غاية وراء هذا الكون، ولابد لذلك من حكيم، أو مدبر)[4]..

وبعد أن كان معظم الناس يؤمنون بكون هو في جوهره استاتيكي وغير متغير، فمسألة إذا كان أو لم تكن له بداية كانت في الواقع مسألة ميتافيزيقية أو لاهوتية، وفق نظرية أن الكون قد وجد دائما أو نظرية أنه قد بدأ حركته في وقت ما متناه على نحو يجعله يبدو كأنه قد وجد دائما، إلا أن (إدوين هابل)5 أجرى في 1929م مشاهدة تعد علامة طريق هي أنك حيثما وجهنا بصرنا، نجد المجرات

---

1 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص117 .

2– ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص64 66 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص64 .

4 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص131 .131 .

5 – أدوين هابل : (Edwin Hubble) (1889- 1953م) أمريكي، أحد أشهر علماء الفلك في القرن العشرين، له الفضل في الاهتمام بالمجرات الأخرى غير مجرتنا .

تتباعد سريعا عنا، وبكلمات أخرى فإن الكون يتمدد، ويعني هذا أن الأشياء كانت في الأوقات السالفة أكثر اقترابا، ويبدو أنه كان ثمة وقت منذ حوالي عشرة أو عشرين ألف مليون سنة، حيث كانت الأشياء كلها في نفس المكان بالضبط، وكان الكون صغيرا بما لا نهاية لصغره، بكثافة لا متناهية، وهذا الاكتشاف هو الذي أتى في النهاية بمسألة بداية الكون إلى دنيا العلم [1]. فأول الأدلة لبداية الكون، هو إثبات (أدوين هابل) أن الكون يتمدد .

بل إن قوانين الطبيعة التي يعتز بها الماديون، تفند الرأي بأزلية الكون؛ يقول عالم الطبيعة البيولوجية (فرانك ألن) : "إن افتراض أن هذا الكون أزلي تنتقضه قوانين الديناميكا الحرارية التي تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيا، وأنها سائرة حتما مع مضي الوقت إلى يوم تصير فيه درجة حرارتها تحت (الصفر المطلق)، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة، .. أما الشمس المستعرة اليوم والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون يرتبط بزمان بدأ في لحظة معينة، فهو إذا حدث من الأحداث، ومنه فلابد لأصل الكون من خالق أزلي ليس له بداية" [2] فبقاء كوننا للآن مما يعني بدايته، ولو كان أزليا لفني وتلاشى بفعل وصوله إلى العدم الحراري .

وفي ضوء ما سلف تبين أن مفهومي (الصدفة) و(أزلية الكون) لا مكان لهما الآن في مناقشة العلماء، مما يكشف خلل المذهب الملحد، (فالإلحاد عندما يفترض عدم وجود الله يرتكب على الفور خطأ أحمق ألا وهو النفي المطلق، وهو ما يتناقض مع نفسه، لأنني إن أردت الإبقاء على الاعتقاد بعدم وجود إله لابد أن أبين أني أتمتع بمعرفة غير محدودة تؤكد عدم وجود كائن غير محدود) [3] ولا داعي للدخول في هذه الحلقة المفرغة ... فالمفاهيم التي روج لها الفكر الإلحادي المادي، فقدت معناها خاصة بفضل التقدم العلمي، والأدلة العلمية المؤدية إلى الإيمان بالله الخالق لا حصر لها، (وإذا قارنا بين الشواهد التي يستدل بها المؤمنون على وجود الله، وتلك التي يستند إليها الملحدون في إنكار الذات الإلهية، لاتضح أن وجهة نظر الملحد تحتاج إلى تسليم أكثر.. فإيمان المؤمن يقوم على البصيرة، وعلى العقل فعلا.. أما الملحد فيقيم إيمانه على العمى) [4] .

فلا يخفى على المؤمن، أو الملحد ذلك الضبط للكون وبنيته؛ فيما عبر عنه العلماء بـــ (برهان الضبط الدقيق) حيث يخبر الفيزيائيون وعلماء الفلك المعاصرون أن ثوابت الكون الفيزيائية تم ضبطها

---

1 – ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، مصدر سابق، ص20 .

2 – نخبة من العلماء الأمريكيين، الله يتجلى في عصر العلم، مصدر سابق، ص12 .

3 – رافي زاكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص40 .

4 – نخبة من العلماء الأمريكيين (فران ألن)، الله يتجلى في عصر العلم، مصدر سابق، ص88 .

بدقة متناهية بحيث يتلائم بعضها مع بعض بالهيئة التي سمحت بنشأة الكون، ومن هذه الثوابت؛ سرعة تمدد الكون، توزيع المادة في فراغ الكون، مقدار الجاذبية بين الأجرام السماوية، كتلة وسرعة وشحنة مكونات الذرة[1]، مقدار الطاقة والروابط الكهربائية بين مكونات الذرة، مقدار سرعة الضوء وغيرها كثير ... وقد أثبت العلماء أن أدنى تغير في مقدار هذه الثوابت ولو بجزء من مليار جزء، ما كان ليسمح بنشأة الكون واستقراره[2]، فذلك التناغم العجيب، والدقة في بنية الكون إنما يدل على وجود الإله الحق .

وليس الكون بتلك الدقة والضبط عامة بحيث تسمح لنشأة الكون واستقراره فحسب، بل ثبت أنه ضبط بحيث يسمح بظهور الحياة على كوكب الأرض، بل لظهور أسمى الكائنات الإنسان، فيما يعرف بالمبدأ البشري وهو ما يعرف في ديننا الإسلام بـــ(مفهوم التسخير) [3] فالكون مهيأ لما يناسب الإنسان ويحقق غاياته السامية، فلا يدل الكون وبنيته على وجود الخالق فحسب، بل إن كل ما فيه.. بل أدق ما فيه من مادة أو قوانين إنما يسوقنا إلى الخالق العظيم، ويردنا إليه، وحينئذ يذكرنا بالغاية العظمى التي خلق لأجلها الإنسان من العبودية لله ثم التعمير والاستخلاف { **اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا** }(سورة الطلاق الآية 12) .

ثانيا : نشأة الحياة ومعناها :

ظاهرة الحياة ظاهرة شديدة التعقيد، ووحدة الحياة هي الخلية الحية، ويطرح الملاحدة في تفسير ظهور الخلية الأولى على الأرض ادعاءات تدندن معظمها حول مفهوم الصدفة، أي أن ما في هذا الكون من كائنات حية، على اختلاف ألوانها وهيئاتها.. كل ذلك حدث بالصدفة عبر تراكم الزمن !

تتميز الخلية الحية عن الموجودات غير الحية، كالماء والعصا..أنها موجود ذكي يمارس عددا من النشاطات التي تمارسها الكائنات الحية، وتعتبر قدرة الخلية الحية على الاحتفاظ بالمعلومات ومعالجتها أهم نشاطات الخلية التي تعكس كونها منظومة ذكية .. وتفوق آلية التشفير التي تتعامل بها الخلية أدق آليات التشفير التي ابتكرها الإنسان، ويستخدمها في أحدث اختراعاته كالكمبيوتر.. وهذه السمة هي الصخرة التي تتكسر عليها تفسيرات الماديين لظاهرة الحياة[4] .

---

1 – مكونات الذرة : (الإلكترونات ، النيوترونات، البروتونات) .

2 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص62– 63 .

3 – المصدر نفسه، ص63 .

4 – ينظر المصدر نفسه، ص 73، 75 .

وقد تعمقت تكنولوجيا القرن العشرين في أصغر جسيمات الحياة، وكشفت أن الخلية هي أكثر النظم التي واجهتها البشرية تعقيدا، ونحن اليوم نعلم أن الخلية تحتوي على محطات لتوليد الطاقة، ومصانع للأنزيمات والهرمونات، وبنك لتسجيل المعلومات، ونظم وأنابيب نقل ... وأبسط نوع من أنواع الخلايا يشكل آلية أعقد بكثير من أية آلة صنعها الإنسان حتى الآن، ولا يتسنى لمستوى التكنولوجيا مهما بلغ أن ينتج خلية صناعية واحدة[1] .. وتفوق الخلية الحية في تعقيدها مدينة ضخمة، بحيث تقوم الكائنات وحيدة الخلية (كالبكتيريا) بجميع الوظائف البيولوجية التي يقوم بها جسم الإنسان بخلاياه المجتمعة (والتي تبلغ مائة ألف مليار خلية) .. فهي تتكاثر وتتغذى وتهضم وتتنفس وتخرج .. وتتكون الخلية البكتيرية الواحدة من مائة مليار ذرة[2] .

وحسب (مايكل بيهي)[3](Michael Behe) فإن الخلية كانت بالنسبة إلى (داروين) ومعاصريه صندوقا أسودا بالفعل، ونواة الخلية لوحدها تعرف كنظام معقد للغاية، إنها مدينة بكاملها من الآلات الجزيئية المتعاضدة المتكاملة..فمع اهتزازها أو التفافها أو زحفها المتواصل في أرجاء الخلية، تقطع وتلصق وتنسخ جزيئات جينية، وتقوم بنقل المغذيات من مكان إلى آخر، أو تحولها إلى طاقة.. وكل جزيئ له وظيفته التي يختص بها ويقوم بها بكفاءة وتعقيد معجز.. [4] تعقيدا ينهار على صخرته اختبار (داروين) الذي وضعه في كتابه (أصل الأنواع) : "إذا كان من الممكن إثبات وجود أي عضو معقد لا يرجح أنه قد تشكل عن طريق العديد من التعديلات المتعاقبة والطفيفة، فسوف تنهار نظريتي تماما"[5] .

وتحافظ الخلية الحية على بقائها، من خلال التعاون المتناغم بين العديد من الجزيئات العضوية (organelles)، وإذا تعطل أي من هذه الجزيئات العضوية عن العمل لا يمكن أن تظل الخلية على قيد الحياة، إذ لا تملك الخلية فرصة انتظار حدوث آلية لاإرادية مثل الانتقاء الطبيعي أو الطفرة

1- ينظر هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص686 .

2- ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص71 .

3 - مايكل بيهي : (Michael Behe) عالم كيمياء حيوية أمريكي، مؤلف ومناصر للتصميم الذكي، وجاءت شهرته بسبب حجته التعقيد غي القابل للاختزال، لتأكيده أنه من قبل مصمم ذكي، لا يمكن تفسيره من قبل آليات التطور .

4 - ينظر مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، (تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور)، تر: مؤمن الحسن، أسامة إبراهيم، زيد الهبري وآخرون، ط1، مصر: دار الكتاب، 2014م، ص7 .

5 - تشارلز داروين، أصل الأنواع، مصدر سابق، ص189 .

للسماح لها بالنمو [1]! فأوج ما يميز الخلية الحية هو أنها موجود ذكي، يظهر ذلك في معالجتها الكم الهائل من المعلومات، وتحكمها الذاتي في وظائفها، والأجمل أنها تعمل كوحدة واحدة من أجل تحقيق أهداف متأصلة في بنيتها، مما يؤكد بالضرورة امتلاك الخلية الأولى كل الجزيئات العضوية والوظائف اللازمة لبقائها ونموها .

وتطرح فكرة (التصميم الذكي والتعقيد غير القابل للاختزال) * كحجة للتصميم في النظم الحيوية على مستوى الكيمياء الحيوية والبيولوجيا الدقيقة، ذلك التعقيد الذي لا يمكن اختزاله، والتي يستلزم وجودها تدخلا ذكيا [2]، إذ كل الآليات الجزيئية في الخلية تحتاج إلى أجزاء عديدة لتعمل، وبسبب الحاجة إلى أجزاء متعددة من الصعوبة جدا أن نتصور بشكل مقبول كيف يمكن نشوء أنظمة كالأهداب والأسواط البكتيرية وسلسلة تخثر الدم من أنظمة أبسط عبر تعديلات صغيرة ومتوالية ومتراكمة كما تخيل (داروين) [3] .

وباعتبار الخلية وحدة الحياة، فقد أجهد العلماء أنفسهم في اكتشاف سرها، ورغم أن ((داروين) لم يدع فهم أصل الحياة، غير أنه توقع أنها بدأت في بعض البرك الدافئة، إلا أن النظريات والتجارب توالت لتصور المراحل الأولى لنشأة الحياة، وظلت تلك التجارب فروضا غير مختبرة، حتى أوائل عقد الخمسينات حين اضطلعت تجربة (يوري وميلر) [4] لإثبات خدعة التطور بإنشاء (ستانلي ميلر) ظروف مقاربة لجو الأرض المبكر في تجربة 1952م ..ثم قام (ميلر) بإنتاج بعض وحدات البناء الكيميائية

---

1 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص686 .

* – التصميم الذكي : أو (التعقيد غير القابل للاختزال) وأول ما استعمل المصطلح كان لإلقاء الضوء على مشكلة كبيرة في التطور، عرف مايكل بيهي التعقيد غير القابل للاختزال بأنه نظام مفرد يتألف من عدد من الأجزاء المتوافقة والمتفاعلة المساهمة في وظيفة أساسية، وعند إزالة أحد هذه الأجزاء يؤدي ذلك إلى توقف فعلي لوظيفة النظام، فذلك مما يقف أمام التدرجية الداروينية .

2 – مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، مصدر سابق، ص6 .

3 – المصدر نفسه، ص191 .

4 – تجربة يوري وميلر : تجربة قام بها طالب أمريكي آنذاك (ستانلي ميلر) (Stanley Miller) (1930-2007م) (وهو عالم الكيمياء والأحياء) مع المشرف على رسالته للدكتوراه (هارولد يوري) (Harold Urey)(1893- 1981م) (كيميائي أمريكي حائز على جائزة نوبل 1934م)، وهي اختبار عملي لصحة فرضية (أوبارين وهالدين) وهما العالمين الروسي (Oparin) والبريطاني (Haldane)، اللذين اقترحا عام 1920م، أن البرق في الجو الأولي للأرض عمل تلقائيا على تكوين وحدات البناء الكيميائية للخلايا الحية، وذلك في جو أرضي هيدروجيني، تكون بصفة أساسية من (الهيدروجين والميثان، والأمونيا وبخار الماء)، وخال تماما من الأكسجين!

للحياة (أحماض أمينية)، بتمرير شرارة كهربائية عبر خليط غازات اعتبره محاك للجو البدائي للأرض)![1]، ليثبت ادعاءه بأن مجرد تركيب أجزاء الجهاز معا، فإن صناعة الأحماض الأمينية يصير أمرا هينا، وبذلك يقدم اكتشافا يبين بأن الأحماض الأمينية التي هي وحدات بناء البروتينات يمكن أن تكون قد ظهرت بالصدفة على الأرض .

ورغم التبسيط الشديد لصورة النشأة الأولى إلا أن التجربة (أثارت شغف المجتمع العلمي بأكمله، وسرعان ما أقحمت في كتب علم الأحياء، وإلى الآن نجدها منتشرة في الكتب المدرسية ولا تزال تتصدر الوثائق العلمية كإحدى أيقونات التطور، رغم أن علماء الجيوكيمياء دحضوها منذ عقود ، وأكدُّو فشلها[2] في محاكاة الظروف الأولية للحياة وتفسيرها، أو أنها لا تقدم تفسيرا أصلا [3] . وكما يعجز علم الماديين عن تفسير نشوء الخلية، يعجز عن تفسير نشوء وحدات بناء الخلية، ذلك أن تكوين أي بروتين في ظل الظروف الطبيعية –ولو كان بروتينا واحدا من بين آلاف الجزيئات البروتينية المعقدة التي تتكون منها الخلية– يعد أمرا غير ممكن[4]!

فالبروتينات عبارة عن جزيئات عملاقة ، تتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية، وإذا تآلفت ذراتها بطريقة غير التي تتآلف بها عادة، تصبح غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموما، وقد عدَّ العلماء الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئيات البسيطة من البروتينات، فوجدوا أن عددها يبلغ الملايين، وعلى ذلك فإنه من المحال عقلا أن تتآلف كل هذه المصادفات لكي تبني جزيئا بروتينيا واحدا)[5] فأي صدفة تلك التي تجعل (غياب حمض أميني واحد من

---

1 – ينظر جوناثان ويلز، أيقونات التطورعلم أم خرافة، تر : أحمد ماحي، مؤمن الحسن، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية، ص5، وينظر هارون يحي، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص697 .

2 – حيث أعد الطالب (ستانلي ميلر) جهازا زجاجيا مغلقا في مختبر أستاذه (يوري)، وفرغه من الهواء ووضع فيه بدلا من الهواء مزيج من الميثان والأمونيا والهيدروجين والماء،(لو بقي الهواء لحدث انفجار)، ثم سخن (ميلر) الماء وجعل خليط الغازات يمر على شرارة كهربية قوية تحاكي البرق، وبعد أسبوع من استمرار التجربة، كانت معظم نواتج التفاعل مودا عضوية بسيطة لا تتوفر في الكائنات الحية، نشر ميلر نتائج تجربته المبدئية عام 1953م، وبإعادة تجربته أمكن من الحصول على مردود ضئيل من معظم الأحماض الأمينية الهامة حيويا، بالإضافة لبعض المركبات العضوية، وهكذا صارت التجربة تأكيدا لفرضية (أوبارين وهالدين) حول الظروف الأولية لنشأة الحياة .

3 – ينظر جوناثان ويلز، أيقونات التطور علم أم خرافة، مصدر سابق ص4، وينظر , Jonathan Wells Icons of Evolution which refute the Darwinism, .https://www.youtube.com

4 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص688 .

5 – نخبة من العلماء الأمريكيين (فران ألن)، الله يتجلى في عصر العلم، مصدر سابق، ص16 .

الأحماض الموجودة في البروتين، أو إضافته، أو استبداله، يحوّل البروتين إلى كومة جزيئية عديمة الفائدة)[1] فلا مجال إذن للتكوين العرضي للأحماض الأمينية، وبالتالي للبروتين الواحد .

ومن حسن الحظ أنه في عصر العلم لم يعد من السهل التفوه بالمفاهيم عشوائيا، فتقدم العلم ساعد على ضحد شبهة الصدفة، وعلاقتها بنشأة الحياة، وكيف يستحيل ذلك من خلال ما تؤكده حقائق العلم الرياضي ذاته، وفق نظرية الاحتمالات، وبها أمكن معرفة ما يمكن أن يكون صدفة وكذا ما يستحيل حدوثه صدفة، فبالاحتمالات البسيطة نلاحظ أنه (لا يوجد غير ترتيب واحد فقط من نحو (10 أس 300) احتمال لترتيب الأمينات الذي يشكل جزيئ البروتين المطلوب، واحتمال حدوث هذا البروتين مستحيلا علميا، ففي الرياضيات يعد الاحتمال الذي يقل عن (10 أس 50) بوصفه احتمالا يساوي صفرا) [2]. فالاحتمالية لتكوين بروتين واحد بالصدفة تساوي صفرا...فكيف باتحاد ملايين البروتينات اتحادا صحيحا، من أجل تكوين خلية حية واحدة، .. فلا تستطيع تجربة (ميلر) ولا أية محاولة أخرى لدعاة الإلحاد أن تجيب على السؤال الخاص بكيفية ظهور الحياة على الأرض، وجميع البحوث تبين استحالة ظهور الحياة بمحض الصدفة .

إلا أن تجربة (ميلر) دفنت الحقيقة عميقا، وحلت العقيدة محل العلم التجريبي (فنجاح تجربة (ميلر ويوري) في تصنيع جزيئات عضوية لا يغير من أن القضية لم تكن حول إمكانية تصنيع المركبات معمليا، فالكيميائيين يصنعونها بالفعل منذ سنين .. ورغم جدل الجيوكيميائيين واختلافهم حول قضية تواجد الأكسجين قديما، إلا أنهم أجمعوا تقريبا على أن الجو الأولي للأرض كان مختلفا تماما عن الجو الذي صنعه (ميلر)[3]، مما يعني قصور تجربة (ميلر) وأن مكوناتها لا يمكن أن تنتج شيئا .

لم يستطع الباحثون في مجال أصل الحياة إخفاء عجزهم عن شرح كيفية الخطوة الأولية لأصل الحياة على سطح الأرض –فبعد فشل تجربة تركيب البروتينات– أمن جزيئ الـــ(ADN)* ذاك الذي يحتاج إلى كم معقد من البروتينات لينسخ نفسه، أم من (ARN) الذي لم يفسر إنسان كيف وجد قبل

---

1 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص688 .

2 – المصدر نفسه، ص688 .

3 – ينظر جوناثان ويلز، أيقونات التطور علم أم خرافة، مصدر سابق، ص8 – 9 .

* – الحمض النووي (ADN) :يسمى بالمادة الوراثية، ويوجد في نواة الخلايا الحية، حيث يأخذ شكل سلم لولبي مزدوج مكون من شريطين، مشكلا الكروموسومات التي تحمل الصفات الجسمية والخَلقية للكائنات الحية ، وتضم الكروموسومات ما يسمى "الجينات" التي يحمل كل واحد أو مجموعة منها معلومات وراثية محددة ، فهو المسؤول عن تخزين وترجمة المعلومات الوراثية في الكائنات الحية ، ويوجد منه نوعان : الحمض النووي الرايبوزي المنقوص الأكسجين (DNA)، والحمض النووي الرايبوزي (RNA) .

وجود الخلايا الحية التي يصنع فيها... وخلاصة فلن يحصل الكيميائي على خلية واحدة، بالرغم من توافر إمكانية خلط كل الوحدات الجزيئية في أنبوب اختبار[1] . وفي النهاية فإن البروتينات التي هي من المركبات الأساسية في كل الخلايا الحية، ليست إلا مواد كيماوية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئا، فالله وحده هو الذي أغدق عليه سر الحياة[2] ولا شك أن أصل الحياة سيظل بالنسبة للعلم لغزا .

وقد لخص لنا زعيم الملاحدة (ريتشارد دوكنز) عجز الماديين والملاحدة عن تفسيره لكيفية نشأة الحياة بقوله : "ثم حدثت المعجزة، وظهر الجزيئ السحري، (يقصد ADN) فدبت الحياة في المادة غير الحية" [3]!! فالمعجزة فعلا هي التي بعثت الحياة في الكائن، غير أنها لا تتمثل في العشوائية أو الصدفة، وإنما هي المعجزة الإلهية، فاتحاد جميع المواد الضرورية للحياة لا يكفي أبدا لكي تبدأ الحياة، وحتى إذا جمعت كل البرتينات الضرورية، ووضعت في أنبوب اختبار فإن ذلك لن ينتج خلية حية واحدة، وذلك ليتأكد الملحد أن الإجابة المنطقية للحياة، ليس هو الخلط العشوائي، ولا يفسر وجود الحياة سوى وجود خالق حي قيوم .

المطلب الثاني : التطور البيولوجي والداروينية

سعت الفلسفة المادية التي ترى أن الكون موجود منذ الأزل، ولا تقبل بوجود شيء غير المادة، لنحت أساس علمي فلم تجد غير تمثال التطور والداروينية، فظن الفكر الإلحادي المادي أنه وجد ضالته في نظرية (داروين) والفكر التطوري، واستساغها كنظرية علمية تسد ثغرته في عدم الاعتراف بالخالق، وتخطي مسألة أصل الوجود، والترويج لفكرة أن الحياة بدأت عشوائيا على سطح الأرض، وأفصح من عبر عن احتفاءه بنظرية التطور حادي الإلحاد (تشارلز دوكنز) بقوله : " الداروينية هي قصة تحرير الإنسان من الوهم القائل بأن مصيره مرتبط بقوة أعلى منه"[4] .

ولابد من فهم أن الداروينية غير مفهوم التطور، ولا يظن أن (داروين) هو أول من اقترح نظرية التطور، إلا أنه ومنذ طرح (تشارلز داروين) نظريته عام 1859 في كتابيه (أصل الأنواع)، ثم (أصل

---

1 – ينظر جوناثان ويلز، أيقونات التطور علم أم خرافة، مصدر سابق، ص11 .

2 – المصدر نفسه، ص16 .

3 – نقلا عن عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص78 .

4 – تشارلز دوكنز، وهم الإله، مصدر سابق، ص9 .

الإنسان)، والضجيج حول النظرية لا يهدأ [1] فعلى الرغم من أن (داروين) نفسه كان مؤمنا بوجود الإله، إلا أن نظريته عن أصل الحياة كانت المبرر والمنفذ العلمي لمفهوم التطور .

ويستخلص فرض (داروين) الرئيسي –ولعله الأغرب– في (انحدار الإنسان من شكل أدنى منه، بتطور وحيد الخلية عبر مراحل متعددة إلى أن ينتهي به المطاف إلى الإنسان، إلا أن بين وحيد الخلية والإنسان مراحل زمنية سحيقة تعد بملايين السنين) [2]! ولذا عرفت جريدة (هوستن بوست) التطور بـــ"إنه يعني ارتقاء الحياة من جهاز عضوي ذي خلية واحدة، إلى أعلى درجات الارتقاء، وهو بالتالي؛ التغير الذي طرأ على الإنسان نتيجة حلقات من التغيرات العضوية" [3] فأهم ما طرحته الداروينية أن الإنسان نشأ تطورا، وبذلك رأى كثيرون أنه ليس للإنسان علاقة مباشرة بالكون، وإن وجدت علاقة فهي غير مباشرة وبعيدة جدا .

والتطور سنة إلهية، فقد تتحول بعض الكائنات وفق قانون إلهي وبمشيئة إلهية، وقد لاحظ الإنسان ومنذ فجر التاريخ وجود سمات مشتركة لها طابع فريد بين أفراد كل نوع حيواني، وتم تصنيف الحيوانات إلى فئات وحتى درجات في سلم التطور، فالقول بذاك نوع من التطور لا يتنافى مع الإيمان بالله، غير أن السياق الذي كشف عنه (داروين) يختلف كثيرا[4] .

يؤكد (داروين) أن الحياة بدأت بخلية مفردة، أوجدها الإله الخالق، ثم تطورت الأجيال المتتابعة من هذه الخلايا، فنشأت منها الكائنات عديدة الخلايا، وتميزت إلى كائنات نباتية وأخرى حيوانية .. ووفق احتمالات (داروين) فإن جميع الكائنات الحية –بما فيها الإنسان–نشأت تطورا من الخلية الحية الأولى .. وهذا ما يعرف بمفهوم التطور..حيث يبدأ تطور أي كائن بحدوث تغيرات في شفرته الوراثية صدفة، هي الطفرات العشوائية، ويحافظ التكاثر على الطفرات العشوائية المفيدة دون غيرها وفق آلية الانتخاب الطبيعي..[5] فالتطور يعني نشأة جميع الكائنات الحية تطورا من الخلية الحية الأولى،

---

1 – ينظر هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص 608، وينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص79 .

2 – تشارلس داروين، نشأة الإنسان والانتقاء الجنسي، تر: مجدي محمود المليجي، ط 1، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 2005م، ج1، ص50- 51، ص91 .

3 – نقلا عن فريق من المؤلفين، خلق لا تطور(الإنسان ابن آدم وليس ابن قرد)، تر :إحسان حقي، دار النفائس، تر: إحسان حقي، دار النفائس، ص13 .

4 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص100 – 101 .

5 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص 80 وينظر هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص10 .

مرورا بالكائنات الحيوانية، إلى الإنسان، ولذا فالنظرية ترى أن للحيوان سلفا مشتركا يجمعه بالإنسان.

فالبيولوجيا التطورية تدعي حدوث أمرين؛ أما الأول فيدور حول التاريخ الطبيعي، ويعرف بالسلف المشترك، وإليه ترجع إليه كل سلالات الكائنات الحية، أما الادعاء الثاني فيؤكد على أن التغيرات التطورية تتم بآليات مادية خالصة، ولا تفتقر إلى توجيه، وإثر ذلك تعتبر كل العمليات التي أنتجت سائر الكائنات الحية بالصدفة والضرورة، ودون غاية مدركة، وباعتماد آليات الانتخاب الطبيعي العاملة على التنوعات العشوائية، ومنه فهي المادة الخام للابتكار البيولوجي، وهي القوة المحركة التي تزيد الهوة بين التنوعات، وتحفظ الكائنات التي تملك تنوعات تؤمن لها أفضلية التكاثر، في حين تقوم باستبعاد بقية الكائنات الأخرى ![1]

لم تستطع البيئة التي ظهر فيها (داروين) أن تكشف خور ادعاءاته ..إذ لم يكن هناك وجود لعلم الوراثة والكيمياء الحيوية والرياضيات الإحيائية .. فتمكنت النظرية من أن تجد لها أنصارا وأتباعا، فتلقت الأوساط المادية نظرية التطور مغمضة العينين لرفضها فكرة الخلق، وأعلنت أن نظرية النشوء والارتقاء هي الأساس في دنيا العلم، واجتهدت في إيجاد أدلة لها [2]، وكانت المادية هي الدعاية الأساسية للداروينية، وباعتماد الداروينية تسنى لأنصار التطور القفز من العلم إلى الإلحاد، فكان من سقطات الإلحاد هو تخطيه عبر العلم من النشوء والارتقاء إلى العلل .

ويعتبر معظم البيولوجيين مفهوم التطور حقيقة علمية، ومن ثم يرون بالأصل المشترك لجميع الكائنات الحية، واستقوا أدلتهم من علم الحفريات، وعلم الأجنة، وعلم الجينات...أما عن آلية التطور التي افترضها (داروين)؛ فهي بمثابة قانون علمي، ولا شك أن البقاء للأفضل وللأصلح [3] فالعلماء يعتبرون التطور أمرا واقعا سواء أكان التطور بالصدفة، أو بإله، والمهم أنهم يسوقون الأدلة العلمية لإثباته .

وجد الماديون في الداروينية والتطور فرصة لرفض القول بالإله، فباستبعاد الإله تحل الطبيعة والمادة كل لغز .. وبعد أن كان التطور فرضية تحول إلى مبدأ غيبي إلحادي ..وقد وصل شغف الماديين بالداروينية، حتى صرنا نسمع عن الفلسفة الداروينية، والاجتماع الداروييني،... وامتد أثرها إلى الدين والقيم الإنسانية..[4]، وبعد قرابة نصف قرن من طرح (داروين) لنظريته نجحت بيولوجية التطور بقوة

---

1 – ينظر ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص22 – 28 .

2 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ج2، ص13 .

3 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص81 .

4 – المصدر نفسه، ص88 .

في تعليل أنماط الحياة التي نراها حولنا، ويظهر بالنسبة لكثيرين أن انتصارها تام ..) [1]. ويعتقد معظم العلماء ولأكثر من قرن بأن الحياة كلها نجحت افتراضيا عن طريق الاصطفاء الطبيعي على الاختلاف العشوائي ... ومن المعلوم للباحثين أن (داروين) لم يكن يطيق الإلحاد، وكذلك الأمر لدى بعض كبار منظري التطور.. ولكن بعد أن كان علماء التطور يقولون بوجود خالق يحرك آلية التطور، وأن التطور سنة الخالق السببية في إخراج أشكال الحياة من العدم إلى الوجود.. فإن أكثريتهم في أيامنا هذه يقولون؛ بأن الحياة نشأت من مادة غير حية ومن غير أي تدخل إلهي... [2]

يقدم أنصار النظرية الداروينية التطور لا كنظرية يمكن مناقشتها والحوار بشأن أدلتها، وإنما كمسلمة أو حقيقة لا ينكرها إلا جاهل أو متعصب [3]، ورغم أن النظرية لا تدعمها أي اكتشافات علمية، فإنها تلقى تأييدا أعمى باسم الفلسفة المادية حتى (صار التشكيك في الداروينية في الغرب يفتح طاقة من جهنم لا يفتحها أي سؤال علمي آخر)! [4] .

إلا أن شجرة الحياة التي هيأها (داروين)، والنموذج المتفرع الذي يزعم فيه أن كل الكائنات أتت من سلف مشترك في الأصل، يظل مجرد فكرة نظرية، ودليل الحفريات كمثال يظهر أنها ليست نموذجا شجريا، فعندما يُنظَر لمجموعة الحيوانات الأساسية نجدها ظهرت تقريبا في وقت واحد، وليست متفرعة من سلف مشترك [5] .

وقد صادف علماء الحفريات ـــ الذين أجروا دراسات على طبقات القشرة الأرضية ـــ حفريات على قدر كبير من الأهمية ، وكانت هذه الأحياء ـــ التي عُثر عليها في الطبقات الحفرية البالغ عمرها ملايين السنين ـــ هي نفسها عناكب عصرنا الراهن وذبابه وضفادعه وسلاحفه وأسماكه، وقد عاشت هذه الكائنات ـــ التي يتعين وفقاً للتطور أن تبدي تغيراً خلال الحقبة الزمنية التي تقدر بملايين السنين ـــ بأعقد أحوالها في أقدم عصور التاريخ، ووصلت إلى عصرنا الراهن دون أن يبدو عليها أي تغير

---

1 - ينظر مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود ص 21 ، وينظر ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص13 .

2 -ينظر عبد الله بن سعيد الشهري، ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، ط 1، مركز نماء، 2014م، ص103 .

3 - ويليام ديمبسكي، جوناثان ويلز، تصميم الحياة (اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية)، تر : موسى إدريس، مؤمن الحسن، محمد القاضي، ط1، مصر : دار الكاتب، 2014م، ص8 .

4 - عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص87 .

5 -Jonathan Wells , Icons of Evolution which refute the Darwinism, https://www.youtube.com .

على الإطلاق، أي أنها لم تتطور، وأن ثمة ثبات في السجلات الحفرية ما كان ينبغي أن يكون موجوداً طبقاً لوجهة نظر التطوريين [1] . وهذا الثبات في الأحياء يفند زعم نظرية التطور في اعتمادها على الطفرات الوراثية في تحول كائنات حية إلى كائنات حية أخرى، فلا وجود لحفريات تدل على مراحل بينية، وقد أثبت العلم كذب ذلك، إذ لو سلمنا بأن الأجناس تشتق وتتخلق تدريجيا من الأجناس الأخرى، فلماذا إذن لم تقابلنا أشكالا في طور التشكيل؟ [2] ففي هذه الطبيعة لا مكان للفوضى، بل يسير كل وفق نظام محكم ولا وجود للفترات الانتقالية ولا لصلات الوصل المفترضة.

ولعالم الأحياء قانون لا تستطيع الكائنات تجاوزه، وقد أكدته العلوم تأكيدا قاطعا، ..وتتمثل الحياة في أشكال لا عداد لها، ونسل كل شكل من هذه الأشكال مثله، جيلا بعد جيل ..وقد دلت الأبحاث الجدية التي استمرت قرنا من الزمن، في ميدان التصنيف، على أن كل ما يشاهد من شكل جديد هو ليس في الواقع جديدا، بل هو فرد من جماعة ظهرت داخل نوع من الأنواع الكبيرة..والعلم يسير في طريقه إلى اكتشاف كنه أسرار عجائب المادة الوراثية..تلك الشيفرة السرية للخلق هي التي تجعل الانتقال والاصطفاء الطبيعي، وغيرها من العوامل التي يقدمها دعاة التطور، غير قادرة على تكييف شكل مخلوق موجود في الحياة بغير شكل والديه، الأمر الذي يفسر الهوة العميقة بين مختلف الأجسام[3].

والحق أنه (وبينما كانت أصداء كتاب (داروين) مدوية، اكتشف عالم النبات النمساوي (مندل) قوانين الوراثة سنة 1865م، ليكشف عن تركيب جزيئ (ADN) الذي يحتوي على المعلومات الوراثية، وينبئ عن التعقيد المدهش للحياة)[4] مما أوقع نظرية التطور في مأزق .

وليس الثبات وحده ما يسد الطريق أمام الداروينية، بل إن (مؤشرات السنوات الأخيرة تؤكد أنه عند دراسة طبقات الأرض وسجل المتحجرات، يتضح أن الكائنات الحية قد ظهرت في وقت واحد، أي ليس لها أسلاف سابقون، وتعج المتحجرات التي اكتشفت في الصخور الكامبرية قواقع وحيوانات، ثلاثيات الفصوص، وإسفنجيات وديدانا أرضية، وأسماكا هلامية.. وغيرها من اللافقاريات المعقدة، وقد ظهر هذا الخليط الواسع والعدد الكبير من الكائنات الحية المعقدة بشكل

---

1 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص38 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص631 .

3– ينظر مجموعة من المؤلفين، خلق لا تطور، مصدر سابق، ص63– 85 .

4 – ينظر هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص627 .

فجائي جدا لدرجة أن هذا الحدث المدهش يشار إليه في الأدبيات الجيولوجية باسم الانفجار الكامبري * (cambrian Explsion)[1] .

فالظهور الفجائي للكائنات الحية وبشكل كامل، ودون أي حلقات وصل لما يربك دعاة التطور، وبالفعل فقد أبدى (داروين) ذاته منذ أكثر من مئة سنة، اضطرابه من شهادات المستحاثات، حيث قال في (أصل الأنواع) ما يلي : "هناك صعوبة، ولكنها أخطر شأنا... وأعني بذلك الظهور المفاجئ لأنواع تعود إلى التقسيمات الرئيسية لعالم الحيوان، في صخور أقدم المستحاثات التي نعرفها.."[2] فالعصر الكامبري يعد ضربة قاتلة للارتقاء بالانتخاب، ويوجز القول بأن الكائنات الحية قد خلقت .

فما تتميز به الخلية البشرية من تعقيد لا يقبل الاختزال لا يمكن لفكرة التطور البيولوجي أن تفسره، فقد زعم (داروين) أن العين البشرية تطورت من عين أبسط، ولكنه تجاهل السؤال الجوهري المختص بأصل العين، فالتغييرات الكيمياوية التي تحدث لتوليد البصر، هي عبارة عن سلسلة من ردود الأفعال الكيمياوية التي يستحيل حدوثها وفقا لآلية التطور، وتتم بدء من لحظة سقوط الفوتون (وحدة ضوئية) على الشبكية، وانتهاء باختلال اتزان الشحنة الذي يسبب انتقال التيار عبر العصب البصري إلى المخ، مما ينتج الإبصار..مما يكشف استحالة (الماكروتطور) وخطأ الداروينية[3] .

وإزاء هذا التصميم والتعقيد الذي يحقق غاية ووظيفة معينة لم يجد زعيم الإلحاد ذاته (دوكتر) بدا من الاعتراف بأثره ليصفه بالمظهر الطاغي :"..ومع هذا فإن نتائج الاصطفاء الطبيعي تؤثر فينا بعمق عبر مظهر التصميم، وكأنها من السيد صانع الساعات، وتؤثر فينا عبر وهم التصميم والتخطيط"[4] فهو لا ينكره غير أنه يعزوه لخاصية الاصطفاء الطبيعي الداروينية، وينعت المخطط بصانع الساعات !

وعن تاريخ الجنس البشري، تقوم الرواية التطورية على تطور البشر والقرود من سلف مشترك قديم شبيه بالقرود، وعدم افتقار هذا التطور إلى توجيه، ولذا يعتقد أن قرد الشامبانزي هو الأقرب تطوريا للبشر من بين القرود الحية اليوم [5] ! .. ولكي يسهل دعاة التطور على الناس هضم هذه الفكرة، يقولون بأن التطور لا يحصل فجأة، ولا يتم في جيل أو جيلين أو بضعة أجيال بل يحتاج إلى ملياري سنة، وإذا ما علمنا أننا لا نستطيع أن نعود بوسائلنا التاريخية إلى أكثر من ستة آلاف سنة، وبوسائلنا

---

* – الإنفجار الكمبري : في العصر الكامري : (Cambrian) قبل حوالي 550 مليون سنة .

1 – ينظر هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدرسابق، ص640 .

2– ينظر شارل دارون، أصل الأنواع، مصدر سابق، ص523 .

3 – رافي زكرارياس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص44 .

4 – نقلا عن مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، مصدر سابق، ص233 .

5 – فريق من المؤلفين، خلق لا تطور، مصدر سابق، ص30 .

العلمية إلى أكثر من عشرين أو ثلاثين ألف سنة، ونظل على شبه يقين بما نقول، أدركنا أننا نعيش فيما وراء ذلك على فرضيات، لا بل وتخرُّصات يختلف العلماء بشأنها اختلافا كبيرا[1] .

فعامل الزمن هو ما تلجأ إليه النظرية الدروينية، في زعمها أن له الدور الأهم في عملية التطور، إلا أن هذا الفرض مضاد بالنسبة للجماد مثلا، فالزمن عامل هدم يؤدي بالنسبة للجماد إلى الانحلال والتفكك، ويسبب انقراض المعادن وتفتت الصخور، وبهذا ينقلب الزمن إلى عدو للتطور [2] ونحن إن وضعنا قطعا من الفولاذ والزجاج والنحاس والمطاط وغيرها من المواد، ثم وضعناها في برميل، وحركنا البرميل آلاف المرات، أو ملايين المرات، فهل تتحول هذه المواد إلى شيء آخر كسيارة أو خزانة مثلا؟ ! فلابد -إذن- من صانع ومصنع وعقل يخطط وينفذ .. فالهوة التي تفصل بين الخلية الحية، وبين العناصر غير الحية هوة عميقة، حتى إن أحسن المختبرات تجهيزا غير قادرة على خلق خلية بسيطة من الجماد[3] وهذا عن الخلية الحية فماذا بشأن الإنسان؟!

يقول الماديون إن الإنسان هو الحيوان الكامل (Lhomme Machine) وأن الفرق بين الإنسان والحيوان إنما هو فرق في الدرجة وليس في النوع، فليس هناك جوهر إنساني مميز، الذي يوجد فحسب فكرة تاريخية واجتماعية محددة عن الإنسان.. فالإنسان كغيره من النظم الطبيعية يخضع بدوره لقوانين الطبيعة الحتمية وعلى رأي (إيفان بافلوف) (Ivan Pavlov)[4] .. فلقد أخذ (داروين) هذا الإنسان اللاشخصي بين يديه، ووصف تقلبه خلال عملية الاختيار الطبيعي حتى أصبح إنسانا قادرا على الكلام، وصناعة الأدوات، يمشي منتصبا.. ![5] إلا أن التمحيص في البيانات الحقيقية والحجج المقدمة على ذلك يغدو تطور الإنسان مبهما؛ فبداية من دليل السجل الأحفوري * فإنه

---

1 - فريق من المؤلفين، خلق لا تطور، مصدر سابق، ص9 .

2 - المصدر نفسه، ص35 .

3 - المصدر نفسه، ص37 .

4 - إيفان بتروفيتش بافلوف : (Ivan Petrovitch Pavlov) (1849 – 1936م) هو عالم وظائف أعضاء روسي، حاصل على جائزة نوبل في الطب لعام1904م، ومن أشهر أعماله نظرية الاستجابة الشرطية .

5 - ينظر علي عزت بيجوبيتش، الإسلام بين الشرق والغرب، تر: محمد يوسف عدس، ط 1، بيروت: مؤسسة العلم الحديث، 1414ه، 1994م، ص48 .

* - السجل الأحفوري : الأحافير أو "المتحجرات"، أو"المستحاثات"؛ هي بقايا حيوان أو نبات محفوظة في الصخور أو مطمورة تحت تحللها خلال الأحقاب الزمنية، والحفائر تظهر لنا أشكال الحياة بالأزمنة الماضية وظروف معيشتها وحفظها خلال الحقب الجيولوجية المختلفة، ومنها يمكن تحديد أصول وعمر الإنسان والحيوان والنبات خلال الحقب التاريخية والجيولوجية التي تعاقبت فوق الأرض .

(يحتوي على عدة أنواع منقرضة ضمن جنس (الهومو) * ، أقربهم إلينا إنسان (نيادرتال) ** يليه الإنسان المنتصب ثم الإنسان الماهر (أي المستخدم للأدوات)..فلا يوجد دليل واضح يظهر تطور الإنسان الماهر إلى الإنسان المنتصب ومن ثم إلى إنسان نيادرتال وصولا إلى الإنسان العاقل...) [1] فكلها افتراضات تحتاج إلى إثبات .

فعن الدليل الجيني الذي أظهرته نظرية التطور، فإنه وكان (التشابه يصل بين تسلسلات (DNA) الإنسان والشامبانزي إلى (98%) لتؤخذ المعلومة كدليل قاطع على تطور الإنسان من القرود، إلا أن التشابه بتلك النسبة قد يعني اختلافا كبيرا في وظيفة هذه التسلسلات، نظرا لما تعنيه التغيرات العشوائية في ال[2]ADN حتى ولو كانت قليلة معزولة من تغيرات جذرية في الوظيفة .. فنظرا للطرق المعقدة التي تتخذها الخلية عند قراءة المعلومات الجينية، فإن تغيرات جينية طفيفة قد تعني تغيرات وظيفية وحيوية كبيرة..لا يمكن كشف تفاعلاتها الشبكية عالية المستوى بمجرد دراسة التسلسلات وتحليلها)[3] كل ذلك مما يعني أن القول بالتشابه الجيني بنسبة (98%) قول مضلل، بل إن ما تكتسيه تلك التغيرات الدقيقة إن ثبتت –وإن ضؤلت– من الأهمية في الأنظمة البيولوجية لتؤكد صدور النظام الجيني عن عليم خبير . فما يدعمه حماة التطور من أن التماثل والتقارب في عدد الكروموزومات بين الأجناس دليل على علاقة إرتقائية زعم باطل، ولو صح؛ فإن البطاطا أكثر قربا للإنسان من القرد ! فلكل من الإنسان والبطاطا نفس عدد الكروموزومات[4] .

وعن المخ والعقل البشري، فإن المنظور المادي الداروينى يرجع كل ما يتمتع به الإنسان من خصوصية عقلية تميزه عن باقي الكائنات إلى الزيادة في الفوارق الكمية، أي أنها زيادة في مقدار الوظائف التي تمارسها تلك الكائنات بالفعل، ويرجع الماديون هذه الزيادة لعمليات تطورية عشوائية أدت إلى زيادة حجم وتعقيد القشرة المخية لدى الإنسان، ومن ثم يعتبرون أن العقل نشاط مباشر للمخ يقوم به كما تقوم الكلى بإفراز البول، وكما تفرز الكبد الصفراء .. [5] ! فهؤلاء يرون ارتباطا

---

* – جنس الهومو Homo : هو جنس يظن أنه يندرج تحت الفصيلة الأَناسِيّة، (القردة العليا) في علم التصنيف الحيوي، ويتفرع منه الإنسان الحديث والأنواع الحيوية المرتبطة به .

** – إنسان نيادرتال : كان يعتبر سابقا تحت نوع من الإنسان العاقل، ولكن تترسخ القناعة الآن أنه نوع منفصل .

1 – جوناثان ويلز، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص30 .

2 – والتي تشبه الأخطاء العشوائية في شيفرة الكومبيوتر .

3 – ينظر جوناثان ويلز، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص34 .

4 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ص729 .

5 – عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص247 .

وثيقا بين القدرات الإدراكية وحجم الدماغ، الأمر الذي يفسر تميز الإنسان عن سائر الحيوانات سيما (القرود)، ولا ضير أن تلك الزيادة تعزى للانتخاب الطبيعي، والقدرة على الاستمرارية والبقاء..أو للصدفة التطورية التي أنتجت صنفا هو الأكثر ذكاء عن بقية الكائنات هو الإنسان ! .

وببساطة؛ يعتبر أنصار التطور أن التطور قد أنتج أدمغة أكبر، فبمجرد الوصول إلى الأدمغة الأكبر يصبح من المسلم به ظهور القدرات الإدراكية المدهشة، وسينتج النظام العصبي المعقد-بنفسه- بطرق الصدفة ، عبر القوى الطبيعية، لكن السؤال كيف يحدث ذلك بالضبط؟ [1] فلا يشك أحد أن دماغ الإنسان ذو قدرات خاصة، ولذلك لا يملك علماء التطور تفسيرا علميا لكيفية تطوره، بل كلها محض تكهنات وتخرصات، وهروبا للاحتجاج بالطفرة العشوائية، ولو كان التطور ينتج دماغا أكبر وقدرات أفضل، فكيف يمكن تفسير تمايز البشر أنفسهم في القدرات الإدراكية، وإذن لاحتاج أذكيائهم إلى أدمغة أكبر دائما، وحينها إلى أي حد نحتاج أدمغة أكبر ليكون الذكاء أفضل؟

إن الإنسان ظاهرة غامضة، يقف العلم الحديث عاجزا حيال معظم مفرداته الإنسانية التي نرصدها ملاحظة وتجريبا، وكلا من التشابه والتباين الشديدين بين الإنسان والحيوان له دلالته الهامة في فهم حقيقة العقل الإنساني، وتشهد الدراسات المتخصصة كل يوم بوجود أصول أخرى لـــ (الظاهرة الإنسانية) غير الأصل الحيواني، وفي نفس الوقت يعجز العلم المعاصر عن تحديد تلك الأصول[2] .

أبدى المحرر العلمي (إسحاق عاسيموف) منذ ثلاثة عقود مضت اندهاشه الكبير من التعقيد المنظم جدا للدماغ البشري، لدرجة أنه كتب أن لدى الإنسان دماغ يزن 3 باوندات، ولكنه العضو الأكثر تعقيدا وترتيبا في الكون كله، ولا تزال التحقيقات العلمية تكشف المزيد من التعقيد في الدماغ البشري..وعند المقارنة وجد أن الحاسوب لا يشبه الدماغ البشري في شيء، ولا وجود لأي دليل يشير إلى إمكانية اختزال الوعي والذكاء إلى عمليات حاسوبية، وكل ما وجده علماء الأعصاب هو العلاقة بين الدارات العصبية المعقدة وبين الذكاء، ولكن ما ينقص هو تفسير كيفية توليد الدارات العصبية المعقدة للذكاء[3] .

فإذا كان المخ جهازا ماديا يتكون من شبكات من الخلايا العصبية بالغة التعقيد والتفاعل، تتعامل كلها بلغة واحدة هي النبضة الكهروكيماوية، فهل يرجع النشاط العقلي وشعورنا بذواتنا (الواعي) إلى كهرباء وكيمياء المخ، التي هي في النهاية أيونات صوديوم وبوتاسيوم في حركة دائبة عبر جدار الخلية العصبية؟! كيف تمكننا حركة هذه الأيونات من أن نبني الحضارة المعاصرة، بما فيها من إنجازات

---

1 – ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص38 .

2 – عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص248 .

3 – ينظر ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص37- 38 .

علمية وإبداعات فنية هائلة، بل كيف تمكننا حركة هذه الأيونات من أن ندرك (المفاهيم المجردة) [1].
ولذا هب العلماء بقولهم : "ليس هناك أي مكون سحري في الدماغ يسبب القدرات الإبداعية فيه – كالحدس والعبقرية– فالدماغ مكون من عدد محدود من الخلايا المشتركة مع بعضها بدرجة محدودة من التعقيد "[2] .

إن الفرق بين المخ والعقل كالفرق بين نطق الكلمة ومعنى الكلمة، فالنطق آلية من عالم الطبيعة المادية.. أما المعنى قد يكون تعبيرا عن حب أو إعلانا عن حرب..فمعنى الكلمات شيء خارج عن هذه الآليات وتركيب مكوناتها المادية .. [3] ولذا فإن قدراتنا الإدراكية لا تقتصر في إنتاجها على الدماغ المادي فحسب، ولا يمكن أن يكون الارتباط بين حجم الدماغ والذكاء والقدرات العقلية ارتباط ضرورة سببية [4]. فالذات الإنسانية ذات واعية، وبغياب الوعي تتعطل قدرات العقل الإنساني، وذلك ما يميزه عن أقرب الرئيسيات إليه، ويقف وراء هذا النشاط ملكات عقلية عديدة، والوعي هو القدرة على التأمل فيما حولنا وفيما بداخلنا، إنه يقف وراء الأحاسيس والأفكار والمشاعر، والرغبات والمعتقدات، وحرية الاختيار، إنه ما يجعلنا نشعر أننا أحياء ... [5] مما يفوق قدرة التفوق الدارويني، لتصبح دليلا على التصميم الذي يحتاج لخالق مدبر .

وإن وجدت الداروينية ضالتها في الأدمغة الأكبر لتفسير القدرات الإدراكية للإنسان، فماذا عن الأخلاق والإيثار والطيبة، فأين هي نظرية التطور إزاء هذه الأفعال؟ [6] وماذا عن أهم الملكات العقلية للإنسان، وأخص نشاطاته التي يمارسها من لغة، وتذوق جمال، وقدرة على التسامي الروحي.. وحرية الإرادة والقدرة على الاختيار، واسترجاع الماضي وتوقع المستقبل والتخطيط له وتصور البدائل... [7] فأنى للقردة أن تدرك ذلك ولو مكثت بلايين السنين .

ولأننا مسلمون؛ لن نجهد أنفسنا كثيرا في البحث في معضلة الوعي، ولقد كفانا ديننا ذلك حين قال الله في كتابه العزيز { **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**} (سورة الإسراء الآية 85) (فلا شك أن ظاهرة العقل الواعي تجد الإجابة عنها في سلاسة

---

1 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص249 – 251 .
2 – نقلا عن ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص37 .
3 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص249 – 251 .
4 – ينظر ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص53 .
5 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص250 .
6 – المصدر نفسه، ص46 .
7 – ينظر المصدر نفسه، ص251 – 257 .

ويسر في الديانات، وتتمثل في كلمة واحدة هي (الروح)) [1]، ووحدهم المنصفون من العلماء الذين يقرون بعجزهم عن تفسير كيف تنبثق القدرات العقلية بالذات عن المخ المادي، فما بالك بالإدراك خارج الحس من الرؤى والأحلام وغيره ...إذ كيف تفسر تلك النبضة الكهروكيماوية التي هي لغة المخ الظواهر غير المادية.. [2] الأمر الذي حير العلماء مما يستدعي استحضار تفسيرات غير مادية، واللجوء لتفسيرات غيبية .

والهجوم على نظرية التطور، لم يكن من مناوئي النظرية ومنتقدي منهج التطور فحسب، بل هو من قبل المنتظمين في سلكها أيضا، فهذا التطوري (وليم بروفاين) [3] (William proovine) يعتقد أن : : "الانتخاب الطبيعي لا يعمل على أي شيئ، فهو لا ينتخب لصالح شيئ أو ضده، ولا هو يقهر، ولا يكثر، ولا يخلق، ولا يعدل، ولا يشكل، ولا يشغل، ولا يقود، ولا يصطفي، ولا يحافظ على شيء، ولا يدفع، ولا يكيف، فالانتخاب الطبيعي لا يقوم بشئ" ![4] بل إن بعضا من التطوريين الملحدين [5] لم لم يجدوا بدا من تخطئة (داروين) رأسا والتصنيف في شأن تهافت نظرية الانتخاب الطبيعي [6] .

فالقول بنظرية التطور يعادي ما قام عليه الفكر المادي من الإعتداد بالمنهج التجريبي وحده، فهي لا تقوم إلا على مجرد تخمينات أركيولوجية (إذ تعتمد على قراءة ما قبل التاريخ، وما تضمنته من فروض لا يمكن اختبار معظمها بمقاييس تجريبية، وخصوصا تلك المقاييس التي يضعها الفكر المادي كشروط لصدق التجربة) [7] وهنا يمكن ملاحظة حجم المأزق الذي وقعت إليه الداروينية لمناقضتها مبادئها الأساسية ... فصورة تطور القرد إلى إنسان؛ تحتوي على الكثير من التخمينات الفلسفية، ولغرض إقناعنا بأن التطور عشوائي ليس له موجه، ولا هدف..تساق الأدلة على الافتراضات الفلسفية لتبدو

---

1 – عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص252 .

2 – المصدر نفسه، ص262 .

3 – وليم بروفاين : (William proovine) عالم البيولوجيا التطورية والوراثة السكانية الأمريكي، من كتبه : أصول علم الوراثة السكانية، سيوال رايت والبيولوجيا التطورية ..

4 – نقلا عن ويليام ديمبسكي، تصميم الحياة، مصدر سابق، ص10 .

5 – أمثال الداروئيين الملحدين : جيلري فودور وماسيمو بياتيلي بالماريني في تصنيف كتابهما : (الأمر الذي أخطأ فيه داروين) .

6 – ينظر المصدر نفسه، ص10 .

7 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص 113 .

أكثر وكأنها افتراضات علمية، وأيقونة تطور الإنسان إلى قرد؛ هي محاولة لتصوير الإنسان على أنه ليس إلا مجرد حيوان، ولا شيء من هذه الإدعاءات عليه دليل[1] .

فالتشابه في أطراف الفقاريات، مثلا كشكل عظام يد وذراع الإنسان، حين تقارن بزعانف الحوت، أو جناح طائر أو خفاش ... نلاحظ تشابهات كبيرة في بنية العظام، تلك التي اعتبرها داروين دليلا للسلف المشترك، إلا أن الناس قبل داروين قد لاحظوا نفس الشيء وعزوه لمصمم مشترك، والحقيقة التي أكدها العلم؛ هو أن بنية العظام نفسها لا تعطينا النتيجة النهائية، أما عن رسومات (إرنست هكل) (Ernst Haeckel)[2] للأجنة التي أريد منها إظهار أن الفقاريات تتشابه مع الأجنة السابقة لها، وبالتالي فهي دليل للسلف المشترك، فالحقيقة هي أن الرسوم غير متشابهة، و(هاكل) قد زيف أدلة الأجنة لأجل الداروينيين ![3]

ومع توفر الأدلة بدت استحالة فرضية أن القرد هو جدُّ الإنسان، فهناك مستحاثات تعود لإنسان اليوم، قيل أنها تعود إلى ما قبل التاريخ، ويتظاهر أكثر علماء التطور بجهلهم لهذه المستحاثات الإنسانية، لأنها لا تتفق مع فكرتهم بشأن تحول الحيوان الجلف إلى إنسان ... وهناك كثير من المستحاثات التي ليست في الواقع، إلا أنواعا من الإنسان العاقل تعرض في الصور والمتاحف بأشكال حيوانات ..[4] وهكذا فإن علماء التطور يستعينون بالعلم لكي يعطوا المستحاثات خلاصة ما نسجوه بأوهامهم .

وكما أن النقاد لم يسمحوا للكنيسة أبدا بنسيان خطئها المرتبط بحادثة (جاليلو)، وعكفوا على اتهامها بافتقاد المصداقية الأكاديمية.. فعلى الجانب الآخر لم يسلم مؤيدوا الفلسفة المادية التي لا تؤمن بوجود الله من التوصل إلى نتائج استنباطية معيبة، وكما سقطت الكنيسة في حادثة (جاليليو)، سقط الماديون في خدعة (إنسان بيلتداون) [*] تأييدا لنظرية النشوء والارتقاء [1] . فليس الإنسان امتدادا

---

1 -Jonathan Wells , Icons of Evolution which refute the Darwinism, https://www.youtube.com .

2 - إرنست هكل : (Ernst Haeckel) (1834- 1919م) فيلسوف وعالم أحياء ألماني، ومكتشف علم البيئة، قام بتقديم نظريات تشارلز داروين في ألمانيا و طور نظرية حول أصل الإنسان .

3 -Jonathan Wells , Icons of Evolution which refute the Darwinism, https://www.youtube.com .

4 - فريق من العلماء، خلق لا تطور، مصدر سابق، ص، 109، 110، 111 .

* - إنسان بلتداون : (فك غوريلا وجسم إنسان) تتلخص هذه الخدعة في اكتشاف حفريات لأجزاء من جمجمته عثر عليها في (ساكس) (Sussex) بإنجلترا عام 1913م، اعتقد أنها ترجع إلى نصف سنة إلى الوراء، واعتبر

للحيوان، بنية ولا آلية ووظيفية، بل هو مخلوق كرمه الله بالعقل، وحلاه بحلية الإيمان، وزينة العلم، وحبب إليه القيم والأخلاق ... و(داروين) نفسه كان أحسن حالا من أتباعه حين قرر أن : (الدين قضية عقلية محترمة، يتبعها عقلاء ومفكرون عبر كل العصور، وهو يرى أن وجود حاكم للكون مما دانت به جموع من أعظم العقول)[2] .

ليس هناك أي برهان علمي يبقي على حياة نظرية التطور، وتبين هذه الحقيقة مجدداً أن الأسباب التي تدعم الداروينية، ليس ت أسبابعلمية، وإنما هي أيديولوجية ، وموضوعية العلم تستوجب أن تُطرح الفرضية أولاً، ثم يتم إثباتها بالأدلة وتتحول إلى نظرية ، غير أن هذا لم ينطبق على نظرية التطور، فالنظرية لم تُؤيد ولو بدليل واحد، ورغم هذا فلا يزال يحتفظ بها في الكتب الدراسية، وتُقدم في وسائل الإعلام بأكثر الأخبار غشاً وخداعا، وهي تُحمى بالقانون، وعادة ما يُحافظ عليها بمنطق " أنه لا يمكن تغييرها، ولا يمكن اتخاذ قرار مناوئ بشأنها "، والسبب الوحيد وراء هذا، هو أن نظرية التطور ليست أطروحة علمية، وإنما هي عقيدة دوغماتية مُسلَّم بها ، ولا تزال السجلات الحفرية تكذّب مزاعم (داروين)، وتثبت حقيقة الخلق[3] فليس من رابط يصل الداروينية بالعلم .

وعلاوة على ما خلفته الداروينية من خدمة للمادية الطبيعية وللإلحاد بترسيخها مبدأ أن الإنسان عبارة عن حيوان أتى للوجود بمحض الصدفة، لما يتمخض عنه من تخلية الإنسان من كافة التبعات الإيمانية والأخلاقية، وتجريده من مبدأ الغاية من الوجود.. فإنها باعتمادها على آلية التطور بفعل الانتخاب الطبيعي، تكرس مبدأ البقاء للأصلح، ولا يخفى أثر انتشار هذا المفهوم، وما يخلفه من دعم للأيديولوجيات العنيفة، والعنصرية، والهمجية، والصراع من أجل البقاء، والتراع الأبدي لأجل المصالح وترسيخ قانون الغاب.. وما ينجم عن ذلك كله من قهر واستغلال، واضطهاد للمستضعفين .

وفي هذا المبحث استعرضنا عددا من المفاهيم العلمية، منها نشأة الكون وبنيته، نشأة الحياة ومعناها، تطور الكائنات الحية، بنية المخ البشري.. التي يقدمها الماديون أدلة على الإلحاد المادي، وقد أثبتنا أن كل تلك المفاهيم **تتجاوز الإيجاد العشوائي، وقدرة التطور الدارويني، مما يقف الجميع أما حقيقة واحدة وهي وجوب الإيمان بالله القادر الحكيم .**

العلماء أنها تدلل على وجود نوع معين من القردة العليا، وشاع الاعتقاد أنها تمثل أقدم بقايا بشرية للإنسان الأوربي، ولكن بعد أربعين سنة ثبت أنها مجرد خدعة، فلم يكن إنسانا بدائيا، بل هو مجموعة من جمجمة إنسان اليوم، وفك قرد !مما تسبب في إحراج كبير للمجتمع العلمي .

1 – ينظر رافي زاكرايس، الوجه الحقيقي للإلحاد، مصدر سابق، ص24 .

2 – ينظر تشارلز داروين، أصل الإنسان، مصدر سابق، ص31 .

3 – هارون يحيى، أطلس الخلق، مصدر سابق، ج1، ص17 .

المبحث الثالث : أدلة الخلق والإيمان

على الرغم أن الله عز وجل أكد في كتابه الكريم أن أحدا من الجن أو الإنس لم يشهد خلق السماوات والأرض، ولا خلق نفسه { **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا** } (سورة الكهف الآية 51)، فهو يؤكد على ضرورة التفكر في خلق السماوات والأرض، وخلق الحياة، إذ ذلك من أعظم دلائل طلاقة القدرة الإلهية، وكمال الصنعة الربانية... وقد أبقى الخالق لنا في أديم الأرض، وفي صفحة السماء، من الشواهد الحسية الملموسة ما يمكن أن يعين المتفكرين المتدبرين من بني الإنسان على إدراك حقيقة الخلق، وعلى استنتاج حتمية الإفناء والبعث، بالرغم من محدودية قدراته الذهنية والحسية، واتساع الكون وضخامة أبعاده وتعقيد بنائه .. وفي ذلك قوله تعالى **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** (سورة العنكبوت الآية 20) .. [1]

المطلب الأول : قصة خلق الكون (نظرية الانفجار الأعظم*)

كانت دعوى المتشككين والماديين والملحدين ومن شابههم من الماضي وإلى يوم الدين تقوم على إنكار قضيتي الخلق والبعث بعد الإفناء ... وقد تبنى الملاحدة عبر التاريخ –كما رأينا– آراء متعددة تركز على أزلية الكون، لتسقط الحاجة إلى الإله، وفي حين لم يمتلك الملاحدة أدلة علمية لأزلية الكون يمكن طرحها، وأنى لهم ذلك، ففي المقابل فإن الأدلة العلمية تتضافر ويؤازر بعضها بعضا في شتى الميادين العلمية، لتؤكد أن للكون بداية، ومنه فهو مخلوق، وأهم حدث علمي جاء لكي يلغي فكرة أزلية الكون، ما يعرف الآن بنظرية الانفجار العظيم .

إن صورتنا الحديثة عن الكون يرجع تاريخها فقط إلى 1924م، عندما برهن (إدوين هابل) (Edwin Hubble) على أن مجرتنا ليست المجرة الوحيدة، والحقيقة أن هناك مجرات كثيرة أخرى، بينها قطع فسيحة من فضاء خاو، وحتى يثبت ذلك فقد احتاج إلى تحديد المسافات إلى تلك

---

1 – زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي (السماء) في القرآن الكريم، ط 3، بيروت : دار المعرفة، 1426ه، 2005م، ج1، ص75، ص81 .

* – الانفجار الأعظم : (Big Bang) بداية الكون التي تم تقديرها بين عشرة وعشرين بليون سنة، حيث تم فيها خلق الفضاء، الزمن، الطاقة والمادة، ومن الخطأ النظر إليها على أنها عبارة عن انفجار كبير، ولو أن هذا ما انغرس في عمق تفكيرنا، ولكنها فترة تم تشكل الكون فيها بفعل الانفجار بعد أن كان معدوما . (ريتشارد هاموند، من الكواركات إلى الثقوب السوداء، ص292) .

المجرات...ونحن الآن على علم بأن مجرتنا ليست إلا واحدة من مجرات يناهز عددها مائة ألف مليون مما يمكن رؤيته باستخدام الوسائل الحديثة[1] .

وانطلاقا من حقيقة أن الكون يتمدد، فإذا رجعنا إلى الوراء يوما قبل يوم نجد أن الكون كان أصغر وأصغر، وهكذا حتى نصل إلى يوم كان الكون مجرد نقطة، تحمل كتلة الكون كله، وطاقة الكون كله، ..أطلق العلماء على النقطة التي بدأت منها نشأة الكون اسم (المفردة Sangularity) وفي يوم لا أمس له انفجرت المفردة، فأطلقت كل ما في الكون من طاقة، ومع تمام نواتج الانفجار بردت، فتكثف بعض من طاقة الكون إلى ما تكونت منها مجرات الكون بما فيها من نجوم وكواكب.. منها كوكبنا الأرض[2]، وقبل وجود المفردة لم يكن إلا عدم مطلق، وبانفجارها نشأت الطاقة والمادة، كما بدأ الزمان ونشأ المكان ولذا أطلق عليها نظرية الانفجار الكوني الأعظم .

تعتبر هذه النظرية أكثر النظريات قبولا لتفسير نشأة الكون، إذ تقف وراءها أدلة قوية تضعها في مصاف الحقائق العلمية، وقبل انصرام القرن العشرين، أصبح علماء الكونيات يمتلكون أربعة أدلة قاطعة على أن للكون بداية، وأصبح هذا المفهوم بمثابة الحقيقة العلمية البديهية، وهذه الأدلة :

- ما ذكرناه من أنه في عام 1929م، توصل عالم الفضاء الأمريكي (أدوين هابل) إلى أن مجرات الكون تتباعد، وقد تم تفسير ذلك كنتيجة طبيعية لاتساع الكون [3]، وهذا يعني أن للكون بداية بدأ منها هذا التمدد، ويعد اكتشاف أن الكون يتمدد إحدى الثورات الثقافية العظيمة في القرن العشرين .
- تتناقص حرارة الكون تدريجيا، ولو كان أزليا لوصل إلى العدم الحراري، مما يعني فناء الكون، لذلك فبقاء كوننا حتى الآن يعني أنه ليس أزليا .
- نجح العلماء في تسجيل الضجيج الكوني[4] الذي صاحب الانفجار الأعظم الذي أنشأ الكون، فاكتشاف إشعاع موجات الميكرويف بواسطة (بتزيانس وويلسون) في 1965م، قد بين أيضا أن الكون كان ولابد أكثف كثيرا في الماضي[1] .

---

1 – ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، (من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء)، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص44 .

2 – ينظر عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، 103- 104 .

3 – ريتشارد هاموند، من الكواركات إلى الثقوب السوداء (مساءلة الكون)، تر: ضحى الخطيب، ط1، بيروت : المنظمة العربية للترجمة، 2009م، ص283 .

4 – مصدر التشويش الكوني الثابت : لقد كان الكون البكر ساخنا جدا ومتوهجا إلى درجة البياض نتيجة للانفجار الهائل الذي بدأت به نشأة الكون، وكان ينبغي أن يصلنا هذا التوهج (ضوء) من جميع أجزاء الكون، ولما

– يثبت وجود العناصر الخفيفة (الهيدروجين والهيليوم) وتوزيعها بشكل متساوي في مختلف أرجاء الكون، أن الكون نشأ من حادث واحد مهول منتج للحرارة، وهو الانفجار الكوني الأعظم، وليس بأحداث متكررة متشابهة في أماكن مختلفة[2] .

وبالتالي فقد قال العلم كلمته الأخيرة في تفسيره لنشأة الكون، والتي تنبئ أن الكون حادث له بداية، وانتقل المفهوم من الشك إلى اليقين .

يتوقف العلم ها هنا، و لم يعد بإمكانه تجاوز هذه النقطة، (فلا يمكن للعلم تفسير مصدر المفردة التي ظهرت في العدم المطلق، وكانت تحمل طاقة ومادة الكون كله ! كما لا يمكن للعلم من التنبؤ بالكثافة الهائلة اللانهائية لتلك المفردة وصغر حجمها اللامتناهي لحد يفوق ويتجاوز قوانين الطبيعة الفيزيائية السائدة لدينا... وكذا الأمر لسرعة تمدد الكون [3] بل لماذا انقطع العدم المطلق ليبدأ الوجود في هذه المرحلة بالذات، فما هو العامل المرجح الذي قرر ذلك؟)[4] .

وغيرها من الأسئلة التي تتبادر للذهن عن ما قبل البداية، وهنا نسوق ما قاله (ستيفن هوكنج) [5] :" إذا كنا نعلم بعض ما قد حدث منذ الانفجار الكبير، وتزداد معرفتنا مع تقدم العلم، فإننا لا نستطيع تحديد ما كان قبل ذلك، فالأحداث ما قبل الانفجار الكبير، لا يستطيع المرء استخدامها لتحديد ما سيحدث بعدها، لأن القدرة على التنبؤ تنهار عند الانفجار الكبير ! "[6] فما قبل الانفجار لا يشكل أي جزء من تصورنا العلمي للكون وهي ليست من الأسئلة التي يتناولها العلم، ولذا أقر (تشارلز تاونز) (Charles Townes)[7]: "لا شك أن السؤال عن بداية نشأة الكون سيظل دون إجابة

كان الكون يتمدد، فإن الضوء اعترته إزاحة حمراء كبيرة، حتى وصل إلينا على هيئة أشعة ميكروية (تشويش) بدلا من الضوء المرئي، وهو دليل علمي على أن الكون متماثل، يتمدد، يبرد، فاستحق عليه صاحباه جائزة نوبل عام 1978م .

1 – ستيفن هوكنج، موجز تاريخ للزمان، مصدر سابق، ص53 .

2 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص59 .

3 – التي تجاوزت سرعة الضوء بمليارات المرات، بينما الثابت أن سرعة الضوء هي أعلى السرعات في الطبيعة .

4 – ينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص60– 61 .

5 – صاحب كتاب (تاريخ موجز للزمن)، (تاريخ أكثر إيجازا للزمن)، وقوله هذا قبل أن يلحد .

6 – ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، مصدر سابق، ص52 .

7 – تشارلز تاونز : (Charles Townes) (ولد عام 1915م) مكتشف الـ Maser الذي مهَّد لاكتشاف أشعة الليزر .

علمية، لذلك أعتقد أن هناك حاجة إلى التفسيرات الدينية الغيبية، ومن ثم فإنني أؤمن بالإله الذي خلق الكون"[1] .

وعلى الرغم أنه لا تزال هناك العديد من الثغرات التي لم يسدها العلم عن كيف نشأ الكون، من تلك المفردة، وما يكشفه العلم يوميا قد يغير من تفاصيل نظرية الانفجار ..، إلا أن هناك حقائق أربع أساسية اعترت نشأة الكون الوليد تثبت حجية نظرية الانفجار الأعظم؛ هي التمدد والتبرد، والتكثف، والتطور الذكي للكون من المفردة إلى الطاقة إلى المادة وتكوين الذرات، مما يؤكد أن للكون بداية[2] بل إن نظرية (أينشتاين) عن النسبية العامة، هي في ذاتها تتنبأ بأن المكان- الزمان يبدأ عند مفردة الانفجار الكبير، وسوف يصل إلى نهايته عند مفردة الانسحاق الكبير بالتقلص ثانية[3] .

ونظرية الانفجار الأعظم هي الأكثر قبولا عند علماء الفلك وعلماء الفيزياء الفلكية والنظرية في تفسير نشأة الكون[4]، وربما ثمة بعض من يرفض ما تقره نظرية الانفجار الكبير؛ لما ينجر عنها (من الذين لا يحبذون فكرة أن الزمان له بداية، وربما كان ذلك لأن فيها مجالا لتدخل ميتافيزيقي، وهكذا كان هناك عدد من المحاولات[5] لتجنب استنتاج أنه كان ثمة انفجار كبير)[6] .

وفي القرآن الكريم تأكيد على ما في السماوات والأرض من أدلة الخلق والإفناء والبعث، وهو مفعم بالأدلة التي تنطق بطلاقة القدرة الإلهية في خلقهما وإبداعهما، كما تنطق بحتمية إفنائهما، وإعادة خلقهما من جديد ونظرية الانفجار الأعظم تؤكد في منتصف القرن العشرين ما أورده القرآن الكريم في إعطائه الصورة الكلية الجامعة لخلق السماوات والأرض من قبل ألف وأربعمئة من السنين وذلك في خمس من آيات القرآن الكريم[7] :

1 - ففي قوله تعالى : **{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }** (سورة الذاريات الآية 47) إشارة إلى حقيقة توسع هذا الكون وتمدده منذ اللحظة الأولى لخلقه، وباستمرار إلى أن يشاء الله، فالمجرات من حولنا تتراجع متباعدة عنا .

---

1 - نقلا عن عمرو شريف، خرافة الإلحاد، مصدر سابق، ص103 .

2 - ينظر المصدر نفسه، ص104 - 106 .

3 - ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، مصدر سابق، ص105 .

4 - ينظر زغول النجار، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ط 4، القاهرة :مكتبة الشروق الدولية، 2002م، ص38 .

5 - كنظرية استقرار الحال التي طرحت في 1948م (ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، ص52) .

6 - ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، مصدر سابق، ص53 .

7 - زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي، مصدر سابق، ص38 .

وقد (ثبت علميا أن الكون الذي نحيا فيه يتسع باستمرار، حيث تتباعد المجرات عنا وعن بعضها بسرعات تقترب أحيانا من سرعة الضوء [1]، يقول الدكتور (زغلول النجار) [2] في تعليقه على الآية الكريمة **{والسماء بنيناها}** (سورة الذاريات الآية 47) : "انظر إلى الصيغة المصدرية الراقية باسم الفاعل (لموسعون) التي تشير إلى اتساع الكون منذ نشأته، وإلى استمرارية هذا الاتساع إلى وقتنا الراهن، وإلى أن يشاء الله، هذا الاتساع دفع العلماء إلى القول الصحيح بأننا إذا عدنا بهذا الاتساع إلى الوراء مع الزمن فلابد أن تلتقي مادة الكون المنظور في جرم واحد، هذا الجرم لابد من أن تكون كل من الكثافة والطاقة فيه عالية للغاية؛ (تتوقف عندها كل قوانين الفيزياء المعروفة) تجعله في حالة حرجة، ينفجر هذا الجرم بأمر من الله، ويتحول إلى غلالة من الدخان، يخلق من هذا الدخان الأرض وباقي أجرام السماء،)"[3].

2 - وفي قوله تعالى **{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا }** (سورة الأنبياء الآية30) تشير الآية إلى :

- ابتداء خلق الكون من جرم أولي واحد هي (مرحلة الرتق[*]) .
- فتق هذا الجرم الأولي أي انفجاره؛ وهي مرحلة (الفتق[**]الأول) .

3 - **{ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }** (سورة فصلت الآية11) : تشير الآية إلى: (مرحلة الدخان) وهي تحول الجرم الأول عند فتقه إلى دخان، ثم مرحلة : (الإتيان بكل من الأرض والسماء) وهي خلق كل من الأرض والسماوات من الدخان الكوني.

4 - **{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ }** (سورة الأنبياء الآية 104) تشير الآية إلى :

---

1 - سرعة الضوء : تقدر بثلاثمئة ألف كيلومتر في الثانية تقريبا .

2 - زغلول النجار : داعية إسلامي يركز على الإعجاز العلمي في النصوص المقدسة الإسلامية، وباحث جيولوجيا مصري، وأحد مؤسسي الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ولد سنة 1933م .

3 - ينظر زغول النجار، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ط 4، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، 2002م، ص38 .

[*] - الرتق : في اللغة عكس الفتق، لأن الرتق هو الضم والالتحام والالتئام سواء كان ذلك طبيعيا أو صناعيا، يقال رتقت الشيئ فارتتق أي فالتأم والتحم .

[**] - الفتق : هو الفصل والشق والانشطار .

- ❖ حتمية عودة الكون بكل ما فيه ومن فيه إلى جرم ابتدائي واحد مشابه للجرم الأولي الذي ابتدأ منه الخلق وهي (مرحلة الرتق الثاني وطي السماء والسحق الشديد للكون) .
- ❖ ثم حتمية فتق هذا الجرم الثاني أي انفجاره (مرحلة الفتق الثاني للجرم).
- ❖ حتمية تحول الجرم الثاني بعد فتقه إلى غلالة من الدخان الكوني .

5 - قوله تعالى **{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}** (سورة إبراهيم الآية 48) تشير إلى إعادة خلق أرض غير أرضنا الحالية وسماوات غير السماوات التي تظلنا اليوم، وبداية رحلة الآخرة [1] . هذه الحقائق الكونية الكبرى عن خلق السماوات والأرض، لم يستطع الإنسان الوصول إلى إدراك شيء منها إلا في منتصف القرن العشرين أو بعد ذلك، حين تبلورت نظرية الانفجار الكوني الأعظم .

فمنذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، لخص لنا ربنا عز وجل في صياغة كلية شاملة عملية خلق السماوات والأرض، وإفنائهما وإعادة خلقهما من جديد، في خمس آيات من القرآن الكريم، وفق مراحل؛ هي الرتق، والفتق، والدخان، والإتيان بالسماوات والأرض، وتوسع السماء ثم طيها، تعطينا كليات مراحل الخلق والإفناء، والبعث دون الدخول في التفاصيل، وهذه الحقائق القرآنية، لم يستطع الإنسان إدراك شيء منها إلا في أواخر القرن العشرين [2] .

إلا أن (الحدود الطبيعية لمعرفة الإنسان هي التي جعلت العلماء يسلمون في ضوء نظرية الانفجار الكبير، بأن ما حدث خلال الدقائق الثلاث الأولى في خلق الكون تتعطل فيه قوانين الفيزياء) [3] فلابد من خالق فاطر رجح بمشيئته الوجود من العدم إلى الوجود .

---

1 - ينظر زغلول النجار، من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، مصدر سابق، ص38، وينظر عمرو شريف، وهم الإلحاد، مصدر سابق، ص69- 70 .

2 - ينظر زغلول النجار، من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، مصدر سابق، ج1، ص82 .

3 - ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص54 .

المطلب الثاني : الفيزياء الكوانتية ونقد مفهوم المادة (تعزيز فكرة الغيب)

فبعد أن شاعت النظرة المادية للكون والطبيعية خلال القرن التاسع عشر، وأسس الإلحاد لذاته من خلال المنظور العلمي المادي مستغلا النظريات الفيزيائية الثلاث (نظرية (نيوتن)، ونظرية (دالتون [1]) عن الذرة، ثم نظرية (داروين) عن (أصل الإنسان والأنواع)، (إلا أن تطور العلم بنية ومفاهيما ونظريات في القرن العشرين أدى إلى وأد المنظور المادي من خلال وأد أسسه التي يرتكز عليها) [2]؛ فما هي نظرة الفيزياء الحديثة (الكوانتية) للمادة التي هي معول اعتزاز الفلسفة الإلحادية، وما قولها إزاء مبادئها من مبدأ الموضوعية، ومفهوم الحتمية والسببية، والاعتزاز بالمنهج التجريبي ..؟

فرض ميكانيك الكم نفسه على المسرح العلمي في بداية القرن العشرين بشكل تلقائي، وتطور تدريجيا عندما وجد الفيزيائيون أنفسهم أمام ظواهر لا يمكن تفسيرها بالرجوع إلى مبادئ الفيزياء النيوتونية التقليدية.. والكم Quantum في أصله اللغوي اليوناني كمية من شيء ما، مما يعني دراسة حركة الكمات أو الكموم، وذلك حين عجزت الفيزياء النيوتونية عن دراسة وتفسير العالم الصغري Microcosm؛ عالم الذرة 3 والجسيمات الدقيقة المكونة لها، للتوغل في أعماق المادة، وفهم حركة ذراتها، والإفادة من طاقة هذه الذرات [4] .

فمنذ عصر اليونان والحديث عن الذرة يحتل حيزا مهما في الفكر الفلسفي، وظل عالم الذرة عالما افتراضيا، منذ أن طرح بعض فلاسفة الإغريق، وبعض حكماء الشرق، تصورهم لبنية المادة على أنها مكونة من ذرات متراصة متماثلة هي اللبات الأولى، أو الوحدات الأساسية التي لا يمكن تجزئتها إلى وحدات أصغر.. وقد اشتهر الفيلسوف اليوناني (ديموقريطس) كأبرز المنظرين للذرة كعنصر أولي للمادة، وغير قابل للتجزئة أو الانقسام ... بيد أن عصر النهضة الأوربية لم يتحمس كثيرا لحوار بدا وكأنه غير معقول، حتى جاء عالم الكيمياء الشهير (جان دالتون) ونشر في عام 1808م نتائج أبحاثه التي رتبت لتصور جديد لمفهوم الذرة، وفي ضوء نظريته الذرية ترد المادة ابتداء إلى عناصر أولية صلبة،

---

1 – دالتون : (John Dalton) (1766- 1844م) كيميائي بريطاني، يعتبر دالتون أبا للكيمياء الحديثة وذلك بعد أن اقترح النظرية الذرية للمادة حوالي العام 1803، توصل إلى وضع فكرة الأوزان الذرية النسبية للعناصر الكيميائية، وكان الرائد في تحديد العمى اللوني ودراسته علمي ا، من أهم كتبه : نظام جديد للفلسفة الكيميائية سنة 1808م .

2 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص37 .

3 – الذرة : (Atom) الوحدة الأساسية للمادة العادية، وتتكون من نواة دقيقة، محاطة بالإلكترونات تدور من حولها (ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن) .

4 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص 331- 332 .

تتكون بدورها من جزيئات صغيرة هي الذرات، وذرات العنصر الواحد لابد أن تكون متكافئة من جميع الوجوه.. وظن الإنسان أنه أصبح بإمكانه معرفة القسيمة الأولية للمادة والسيطرة عليها.. فإذا كان نيوتن مؤمنا بالله فإن (دالتون) كان ماديا في الأساس، ومن هنا تمت صياغة نظريته في سياق يعزز فيه منظوره المذهبي[1] .

ولم يتحول الافتراض إلى واقع تجريبي حتى القرن التاسع عشر، عندما بدأ الفيزيائيون يلاحظون آثار ونتائج الظاهرة الذرية، وأكثر من ذلك فقد لاحظ الفيزيائيون في الوقت ذاته، أن هذه الذرات ليست هي الوحدات الصغرى النهائية المكونة للمادة، وإنما تتألف الذرة بدورها من وحدات أصغر منها تم حصرها مبدئيا في ثلاثة هي؛ البروتون والنيوترون والإلكترون فدعو هذه المكونات بالجسيمات الأولية، اعتقادا منهم بأنها اللبنات الأساسية للذرة وللمادة برمتها [2]، وبذلك بدأت المفاهيم الطبيعية النيوتونية في التلاشي .

وبعد أن كانت الفيزياء الكلاسيكية ترى العالم مكونا من مادة وإشعاع، إذ تتكون المادة من ذرات والإشعاع من موجات، فإن (بلانك) [3](Max Planck) ومن خلال تجاربه المختبرية توصل إلى جملة مفاهيم ومقولات أدت إلى قطيعة علمية مع الفيزياء الكلاسيكية، فكانت نظريته في (الكوانتم) [4] أو (الكم) قفزة نوعية في تاريخ العلم، لإعادتها النظر في مبادئ ومفاهيم وتصورات سادت لقرون [5]! وإذا كان (بلانك) قد أعاد النظر في قوانين الحركة، وتأثرا بنظريته أعاد (أينشتاين) النظر في علاقة

---

1 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص 29، وفراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص 332 .

2 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص332 .

3 – بلانك : (Max Planck) (1858– 1947م)، عالم فيزياء ألماني، يعتبر مؤسس نظرية الكم التي تعد ثورة في فهم الإنسان لطبيعة الذرّة وجسيماتها، وأحد أهم فيزيائيّ القرن العشرين، حاصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1918م .

4 – نظرية الكوانتم : أبرز ما قدمته من مراجعات : أولا : القول بانفصال الطاقة وليس اتصالها كما الحال في الفيزياء الكلاسيكية، وأما ثانيا : فلم يعد الضوء طبقا لنظرية الكوانتم مجرد موجات، بل هو عبارة عن حبات من الطاقة، وثالثا : فإن الضوء والأشعة، وغيرها من الموجات لا يمكن أن تنبعث بمعدل عشوائي أو اعتباطي، بل في حزمات تزداد كلما ارتفع تردد الموجات، رابعا : مصدر الإشعاع هو وجود المتذبذبات التي تؤدي اهتزازاتها إلى انبعاث الطيف الإشعاعي .

5 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص47 .

الكتلة بالطاقة، ونسبية الزمان والمكان، فصاغ نظرية النسبية [1] فإن العالم الألماني (هايتربج) قد أعاد النظر في قوانين الحركة بطرحه مبدأ اللايقين، ما نتج عنه التفسير الإحصائي للكون 2، فبفضل نظرية (بلانك)، ونظرية (أينشتاين)، وبإضافة لنظرية (هايتربرج) تبلورت الفيزياء الحديثة في القرن العشرين لتشكل النظريات الثلاث الأسس لها والأركان .

وقد أدى هذا التناول في العشرينيات من هذا القرن بإعادة صياغة الميكانيكا في نظرية جديدة سميت ميكانيكا الكم، تتأسس على مبدأ عدم اليقين، والجسيمات في هذه النظرية لم يعد لديها بعد مواضع وسرعات منفصلة واضحة التحدد يمكن ملاحظتها، وبدلا من ذلك فإن لديها حالة كم، هي توليفة بين الموضع والسرعة، وعموما فإن ميكانيكا الكم لا تتنبأ بنتيجة وحيدة لمشاهدة ما، وبدلا من ذلك فإنها تتنبأ بعدد من النتائج الممكنة المختلفة، وتخبرنا بمدى احتمال كل واحدة منها [3] .

وقد مثل مبدأ اللايقين أو ما يسمى بعلاقات الارتياب، ثورة في المفاهيم العلمية الحديثة حيث أسقط مفهوم (الموضوعية) وكذا مفهوم (الحتمية والسببية) وما تعودنا عليه في عالمنا الحسي، ووفق مبدأ اللايقين لا يمكن أن يتأكد المرء قط بالضبط من كل من موقع الجسيم [4] وسرعته معا، وكلما عرف واحدا منها بدقة أكبر قلت دقة ما يمكن معرفته عن الآخر.. وهنا نرى استحالة قياس موقع الإلكترون[5] وسرعته بدقة تامة، في اللحظة نفسها، مما يعطي مواقع وسرعات مختلفة في كل مرة ! [6]

وأفضل ما نستطيعه هو تحديد احتمال للمواقع فقط، وليست المسألة متعلقة بضعف التقنيات أو معدات غير كافية، وإنما هي تتعلق بالحد الأساسي الخاص بمقدار المعلومات الموجودة، وذلك سبب كاف للقول بأن الطبيعة احتمالية وليست حتمية [7]، وهنا يؤكد عالم الفيزياء (ستيفن هوكنج) ما آلت آلت إليه الفيزياء الحديثة من احتماليات في كتابه (تاريخ موجز للزمن) قائلا : "في ضوء قوانين

---

1 – النسبية الخاصة في 1905م، والنسبية العامة في1917م، حيث برهنت هذه النظرية على الصفة النسبية للزمان والمكان والارتبط بينهما الذي تجسد في ثبات سرعة الضوء، وبذلك جاوزت مفهوم الزمان المطلق، كما ألغت النظرية النسبية الفرق بين الكتلة والطاقة، فالكتلة ليست في الحقيقة إلا طاقة .

2 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص48– 49 .

3 – ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، مصدر سابق، ص59 .

4 – جسيم : جسيم أولي يعتقد أنه لا يمكن انقسامه لما هو أصغر .

5 – الإلكترون : (elctron) جسيم له شحنة كهربائية سالبة، يدور حول نواة الذرة . (ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن) .

6 ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، مصدر سابق، ص 165، وانظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص50 .

7 – ينظر ريتشارد هاموند، من الكواركات إلى الثقوب السوداء، مصدر سابق، ص157، 158 .

ميكانيكا الكم، لا يكون للجسيمات أي مواقع منفصلة أو محددة جدا، أو سرعات لا يمكن شاهدها، بل بدلا من ذلك، يكون لها وضع كمي، هو توليف بين الموقع والسرعة"[1]، ومن المؤكد أنه لن لم يعد بإمكان التنبؤ بالمستقبل ما لم يتمكن من قياس الوضع الحالي للكون بدقة .

وما ينجم عن ذلك أن (ما يؤكده العلم الآن أنه لا يمكننا التنبؤ بالأحداث المستقبلية بدقة، ولا سيما أننا لا نستطيع حتى قياس الوضع الحالي للكون بدقة) [2] مما وضع حدا لحلم (لابلاس) وغيره من أنصار الحتمية العلمية الصارمة.. وتلاشت النظرة المتفائلة للعلم، التي تعطيه الإمكان اللامحدود، بل ثبت أن هناك سقفا للعلم، أو حدودا طبيعية للمعرفة فيما عرف بـــ (ثوابت بلانك)[43] .

كما تؤكد ميكانيكا الكم على ازدواجية بين الموجات والجسيمات، فإذا كان فرض (بلانك) يخبرنا أن موجات الضوء من بعض الوجوه تسلك وكأنها مكونة من جسيمات، فبالمثل فإن مبدأ عدم اليقين عند (هايتربرج) يدل على أن الجسيمات تسلك من بعض الوجوه مثل الموجات ..إضافة إلى التداخل بين مجموعتين من الموجات والجسيمات... ولذا فنظرية ميكانيكا الكم تتأسس على نوع جديد بالكلية من الرياضيات الحديثة، فلم يعد العالم الحقيقي يوصف بحدود من الجسيمات والموجات؛ فمشاهدات العالم وأغراضه هي وحدها التي توصف ذلك [5] . وظاهرة التداخل هذه وإزدواجية موجة / جسيم كانت حاسمة في فهمنا لتركيب الذرات، سيما أنها الوحدة الأساسية لصنع الكائنات جميعا، فالوضع الكمومي يخيرنا بين معرفتنا لسرعة الجسيم أو موضعه، الأمر الذي يستدعي تدخل العالم واختياره المسبق، فلا معنى الآن ولا محل لمبدأ الموضوعية .

وبهذا أعلنت الفيزياء الحديثة بنفسها عن موت المذهب التجريبي الذي طالما نظر للوقائع باعتبارها معطى خارجي مستقلا عن الذهن، فالعلماء يدركون الآن، أن لا سبيل لموضوعية مطلقة فالذات (الراصد)، والموضوع (ما يقاس) يتعاونان بالضرورة على صنع الشيء الخارجي، فالجسم هو مزيج من الذاتية والموضوعية[6] فالعلاقة بين الذات والموضوع أعقد وأعمق مما يظن، والظواهر الخارجية لا

---

1 – ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، مصدر سابق، ص76 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص75 .

3 – ثوابت بلانك : حيث رسمت الفيزياء الحديثة الحد الأقصى لكل قسيمة ممكنة (طول بلانك، وزمن بلانك، وأصغر كم للطاقة موجودة في عالمنا الطبيعي أي حد قابلية الإشعاع للانقسام).. (حمد المرزوقي، أفي الله شك، ص54)

4 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص53 .

5 – ينظر ستيفن هوكنج، موجز تاريخ للزمان، مصدر سابق، ص59 .

6 – ينظر المصدر نفسه، ص54 .

تنفك في وصفها عن الذات الدارسة لها، فلطالما حارب الفكر المادي علاقة الخيال بالعمل العلمي، ولكن العلم الآن يعطي الخيال أهمية كبرى في صياغة النظرية العلمية، وما ذلك إلا إيذانا بموت التجريبية[1] .

فبعد أن كان اتكاء الإلحاد التام على العلم وثقته التامة في موضوعيته وحتميته، ها هي الفيزياء الحديثة تفصح عن عجز عن التنبؤ واحتمالية لا يمكن تفاديها في مجال العلوم، ويمكننا أن نفهم بعد ذلك (مدى تأثير نظرية ميكانيكا الكم على مسار الفكر المادي، ووضعه بين قوسين ليعاني صعوبات لا حصر لها، بعد أن تم تجريده من السلاح العلمي الذي كان يدعيه في القرن التاسع عشر... وعلاوة على أنها كانت سببا في تقويض الفكر المادي، بل في شيوع الإيمان بالله بين كبار علماء الفيزياء والفلك في الربع الأخير من القرن العشرين)[2].

وحينئذ علينا التسليم بأن الواقع يتوقف على الطريقة التي نقرر أن نراه من خلالها، وأن الجواهر الأولية التي تكونه يمكنها أن تكون شيئا، وفي الوقت نفسه شيئا آخر ! ما أفصح عنه ازدواجية المادة من (جسيم وموجة)[3] وذلك مما ينبئ عن واقع لا متناهي تمحي فيه الرؤية المادية للأشياء . وإلى هنا اتضحت العلاقة بين المادة والطاقة، ولأن (الذرة قابلة للقسمة إلى غير نهاية، فإن المادة تتحول إلى طاقة، فنراها إشعاعا، وهذا الإشعاع يمكن أن يعود مادة، فهناك انتقال بين لطاقة والمادة، فالمادة ليست إلا طاقة محصورة في نواة الذرة، والطاقة ليست إلا مادة منطلقة من عقال الذرة)[4].

والأهم من ذلك؛ مما أفرزته الفيزياء الحديثة (الفيزياء النووية)؛ هو التغير الجوهري في (مفهوم المادة، فلم تعد مكونة من ذرات صلبة غير قابلة للانقسام، وأن عناصرها أو قسيمتها الأولية ملموسة، أو محسوسة، أو مرئية وبعد أن استقرت الشكوك حول الذرة بأنها غير قابلة للانقسام، ليكشف العلم عن بنيتها داخلية لها ذات نواة يدور حولها عدد من الإلكترونات، على أن تحوي النواة برتونات مع اكتشاف جسيم آخر هو النيوترون... وحتى ما يقرب عشرين سنة كان يظن أن البروتونات والنيوترونات هي جسيمات أولية، إلا أن تجارب اصطدام البروتونات بسرعات كبيرة بالبروتونات الأخرى أو الالكترونات بينت أنها في الحقيقة قد صنعت من جسيمات أصغر، سميت بالكواركات[5] .

.

---

1 – ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، مصدر سابق، ص76 .

2 – المصدر نفسه، ص52 .

3 – ينظر المصدر نفسه، ص77، وينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص54 .

4 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص65 .

5 – ينظر ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمان، مصدر سابق، ص64 .

فالقسيمة الأولية للمادة الآن هي (الكوارك) [*]، وهي غير ملموسة وغير محسوسة وغير مرئية) [1]، وحيث كنا نظن فيما مضى أن الذرات تشكل أحجار بنيان المادة، وقد اتضح أن ذلك كان خطئا، ثم ذهبنا في اعتقادنا إلى أن النيوترونات والبروتونات والإلكترونات هي التي تشكل أحجار البنيان في المادة، ولكنا نرى الآن خطأ ذلك، فالنيوترونات والبروتونات هي مؤلفة من كواركات [2].. والآن اتضح أن الفكرة التي تكونت عن المادة حسب معطيات القرن التاسع عشر كانت فكرة بسيطة جدا، فهي لم تكن سوى ذرات غير قابلة للانقسام.. ولا شك أن ما طرأ من تغير قد انعكس سلبا على الفكر المادي .

فلم تعد الذرة جسما صلبا غير قابل للانقسام، بل صار ينظر لها كبنية، مما يعني أنها تلاحظ من خلال قراءة (علاقات) بدلا من (العناصر)، وأعدادا بدلا من الأوزان، و لم تعد الذرة قسيمة أولية للمادة، كما يزعم الفكر المادي، فبالعلم الحديث تنحل الذرة إلى (نواة) [**] و(إلكترونات)، ونواة تنحل في النهاية إلى (كوارك)، وهو مجرد تصور نظري غير محسوس، وغير مرئي، أما الإلكترون؛ لم تجب التجربة عن حجمه ولا عن شكله، لأنه لا يمكن قياس حجمه إلا بواسطة نقاط نعاين المسافات الفاصلة بينها في سلم مقياس معين، فهذا الذي لا هوية له ولا حجم بل لا جوهر له لأنه –كما يقول العلماء– يتكون من صفاته ولا شيء غير صفاته ![3] وهنا ابتعدت الفيزياء عن العالم المادي المحسوس بعد نفيها المادة عن القسيمة الأولية، فأنى للإنسان أن يفهم سلوك (الإلكترون) أو يسيطر عليه، ما فاته أن يدرك هيكله وجوهره .

ويمكن القول أن (الجسيمات الأولية في العالم ما دون الذري، لا يمكن مقارنتها من حيث طبيعتها بحبات الملح أو نثرات الغبار، لأن هذه النثرات أو الحبات في العالم الكبري هي (أشياء) أو

---

* – الكوارك : (quark) جسيم أولي افتراضي من مكونات الهيدرونات (كالبروتون، والميزون، والنيوترون...) فالبروتونات والنيوترونات، يتكون كل منهما من ثلاث كواركات، ولذا فشحنته ثلث شحنة الإلكترون، موجبا أو سالبا حسب نوعيته (ريتشارد هاموند، من الكواركات من الثقوب إلى السوداء) و (ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، ص164) .

1 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، 65 .

2 – ريتشارد هاموند، من الكواركات إلى الثقوب السوداء، مصدر سابق، ص194 .

** – النواة : الجزء المركزي للذرة، تتألف من (بروتونات) و(نيوترونات) تتماسك معا بالقوة القوية، و(النيوترون)؛ جسيم بلا شحنة، مشابه جا للبروتون، ومسؤول عما يقارب نصف جسيمات النواة في أغلب الذرات، وأما (البروتون) فمؤلف من (كوارك) و (الكوارك) جزءان؛ سالبا وموجب، ولكنه مجرد تصور نظري لم يستطع أحد رؤيته . (ستيفن هوكنج، تاريخ موجز للزمن، ص163) .

3 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص61-62 .

(موضوعات) ذات كيان محدد، أما الجسيمات المدعوة بالأولية، فلا تمتلك وجودا من هذا القبيل، بل إنها تنحو لأن تكون موجودة، ومقدار ميلها إلى الوجود يمكن حسابه بواسطة الاحتمالات) ![1]

وبتعبير آخر يمكن القول أن (الوحدات الأساسية المكونة للمادة ليست لبنات مادية، بل هي كموم موجود لا ندري كنهها، وقد أظهرت التحليلات الدقيقة لعمليات الرصد على المستوى الصغري، أن الجسيمات ما دون الذرية لا يمكن فهمها ككيانات مادية مستقلة عن بعضها، وإنما كنوع من النسيج الموحد الذي تشكله العلائق المتبادلة لا الوحدات المادية الصغرى.. وحوادث ذرية لا تأخذ مجراها على وجه التأكيد في أزمنة محددة، وإنما تظهر ميلا للحدوث) [2] وإزاء هذا آلت المادة وقوانيها وما يعتد به المذهب المادي ويعتز إلى تجريدات ذهنية ليس لها وجود حقيقي إذا ما غاص المرء في أعماقها.

وما اقترحه (لوي دوبروري) : ([3]L.Debrogile) بأن للمادة أيضا أمواجا مرافقة لها... كان ضربة قاصمة للفيزياء التقليدية ![4] .. وتفتح سلسلة الاكتشافات أفقا جديدا كل يوم، صار من الجهل المطبق الجزم بحدود معينة لمعلوماتنا عن المادة، بل تلاحقت الاكتشافات لتكشف عن عالم آخر جديد سمي بـــ (مضادات المادة) [*]، ومن كل شيء خلق الخالق زوجين، فلدى كل كوارك كواركا مضادا له، ولكل النيوترينوات نيوترينوات مضادة وهكذا ... [5] وهو أفق جديد وخطير بمقياس علمي وميتافيزيقي معا .

---

1 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص337 .

2 – ينظر المصدر نفسه، ص337، 339 .

3- لوي دوبروري : (Louis Victor de Broglie) (1892- 1987م) فيزيائي فرنسي، تلميذ وصديق آينشتاين، حصل على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1929م، ساهم في نظرية الكم، وهو صاحب الافتراض مثنوية موجة–جسيم للإلكترون، وقد وصل لهذا الافتراض عام 1924م على أساس أعمال (أينشاتين) و(ماكس بلانك) .

4 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص347 .

* – مضادات المادة : كل نوع من جسيمات المادة له مضاد جسيم مناظر له، وعندما يصطدم جسيم بمضاده فإنهما يفنيان ولا يتخلف إلا الطاقة، افترض عالم الفيزياء الشهير (ديراك) وجود زوج من (الإلكترونات) أحدهما موجب، والآخر سالب، واكتشف جسيما له كتلة الالكترون نفسها لكن شحنته موجبة هو (البوزترون)، وأثبت العالم الكبير (أندرسون) نظرية ديراك تجريبيا، كما اكتشفت جسيمات أخرى مضادة مثل الجسم الضاد للبروتون، واكتشف (الديترون المضاد)...إلخ

5 – ريتشارد هاموند، من الكواركات إلى الثقوب السوداء، مصدر سابق، ص213، وينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص65 .

فلابد أن التفكير المادي لم يعد بقادر على أن يسعف الإنسان في فهمه للكون، فالعلم يقول هناك إلكترون له جوهر غريب، ونواة للذرة تنحل في النهاية لمفهوم نظري غير مدرك، غير محس هو (الكوارك).. ومن كل زوج خلق الخالق سبحانه اثنين، فهناك المادة، ومضادات المادة، وإذا أحلنا الجزيء الأولي إلى (إلكترون)، فنحن نتحدث عن (كهيرب) أو (كهرباء)، فإذا ما أحلنا ذلك إلى مفهوم مجرد (الكوارك) فنحن نتحدث عن ميتافيزيقا ![1]وعلى هذا قال (كارل يونغ) :"إن عالم المادة قد تبخر واندثر"[2] فلابد من البحث عن حلول فيما وراء المادة .

فهل الذرات إذن هي التي ترى الصور أو تسمع، وهي ذرات عمياء صماء، لا وعي لها ولا إدراك.. ولماذا اكتسبت بعض الذرات هذه الخاصية، و لم تكتسبها غيرها من الذرات؟ وهل كل ما نفعله من فهم وتفكير وإدراك، وتذكر وشعور بالسعادة أو الحزن يتكون من تفاعلات كهربائية ميكانيكية بين هذه الذرات ؟ ..

وبعد أن اعتقد معظم الناس بأن الفيزياء تدور حول أشياء لا تتمتع بصفة الحياة، وذلك بعكس الكائنات العضوية الحية، غير أن هذا التمييز بين الحي والجامد، قد صار اليوم أكثر مرونة..حيث تبدو الجسيمات في التجارب وكأنها تعالج المعلومات وتتصرف وفق قراراتها الخاصة، التي تستند بدورها إلى قرارات تتخذها جسيمات أخرى بعيدة عنها.. بل بينت بعض التجارب أن تبادل المعلومات بين الجسيمات يجري بشكل آني، لا يستغرق أدنى زمن، ويخرق المطلق الوحيد في عالم الفيزياء؛ ألا وهو سرعة الضوء.. وانتقال المعلومات بتلك السرعة والكيفية، عزاه الفيزيائيون إلى أن للجسيمات وعيا من نوع ما ![3] وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لأبسط الحوادث الكوانتية؛ من حركة الجسيم، فكذلك الأمر إلى سائر حوادث الكون، فلابد من وعي يعزى إليه السير التفصيلي لعمليات الكون وترابطاتها بإحكام .

وهكذا تعمق العلماء في أجزاء الذرة، وهم يعلمون يقينا أن هذه الأجزاء ليست نهاية المادة في الصغر، وكلما أعطوا للمادة تعجيلا أكبر في المعجلات، كلما ظهرت لهم جزيئات أخرى، ولا نهاية للتعجيل إلا بسرعة الضوء المستحيلة (حاليا)، وفي سرعة الضوء تصير أحجام المادة مهما كانت عظمتها؛ صفرا، وتتعدى وقتها عن الزمان والمكان وعن علمنا، لتبقى —من قبل ومن بعد، وفي كل

---

1 – ينظر حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص65 .

2 – نقلا عن المصدر نفسه، ص65 .

3 – ينظر فراس السواح، دين الإنسان، مصدر سابق، ص340 .

أحوالها المادية واللامادية – في علم الله [1]، وهكذا فالعلم الآن، بما توصل إليه من اكتشافات يعزز الإيمان بالخالق سبحانه، عن طريق تعزيز الطبيعة الميتافيزيقية للكون[2]

فحقيقة أن العالم الخارجي أو الواقعي هو في الحقيقة عالم ميتافيزيقي، حقيقة تضافرت عليها الحقائق العلمية،والماديون إن أنكروا وجود الخالق، لم يعد لهم من قشة يتعلقون بها بعد اتضاح حقيقة المادة التي يرجؤون لها سر الخلق .

فلقد جددت الفيزياء الحديثة نظرتنا إلى الكون، بأن قادتنا إلى أن الجسيم الأولي للمادة لا وجود له ولا جوهر، وما الجسيمات الذرية وما دونها إلا عمليات جارية تتفاعل فيما بينها، وليست كائنات مستقلة كما نتوهمها، مما أسفر عن ترابطية في بنية المادة وأجزائها كلها، وبالتالي الترابط الكلي والشامل بين أجزاء الوجود.. وفوق ذلك فإن كل تلك البنيات والترابطات هي تفاعلات احتمالية، لا نفهمها إلا من خلال توصيفنا لها، فما القوانين التي نضعها لفهم الطبيعة إلا طريقتنا في فهم الطبيعة وتصورنا لها، ولا يمكن بأي حال عزل الوعي الإنساني في دراسة الوجود، وكيف ذلك وقد تبدى لنا أن الكون لا يقفز إلى معنى الوجود أو يفهم إلا من خلال عتبة الوعي الإنساني، إذ بزوال الوعي يستحيل الكون إلى أنماط احتمالية متراكبة لا مفهوم لها.. مما يخبر عن كلانية بين الإنسان والكون .

وبعد ما مضى يتأكد أن الإلحاد والكفر لا يهضمه عقل، وأن الإيمان والتدين بما يعنيه؛ الاعتقاد بكائن أعلى يدبر الكون وتنحني له الجباه، أمر جوهري ليعيش الإنسان في تناغم واتزان مع ذاته، ويتجاوب مع الكون والحياة جميعا، ذلك أن الكون بما فيه مرهون بوعي الإنسان به، ووعي الإنسان مرهون بإمداد الله له، فلولا تلك النفخة الربانية لما وعى الإنسان ذاك الكون بما حوى، ولبقي الكون برمته ألغازا متراكبة لا يعلم كنهها إلا الله .. وبعد هذا أيكتفي الإنسان بظاهر من الدنيا؟ وهو الذي لا يعلم من هذا الوجود إلا ما أطلعه الله عليه مما يخدم الغاية من وجوده تصديقا لقوله تعالى **{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}** (سورة الذاريات الآية 56) .

---

1 – رابح جابه، القرآن والعلم (فلسفة حتمية إيمان العالم)، الجزائر: دار المعرفة،2008م، ج2، ص218 .

2 – حمد المرزوقي، أفي الله شك، مصدر سابق، ص67 .

خاتمة

خاتمة

من خلال تعرضنا للظاهرة الدينية من أوجه وزوايا عدة منها الفلسفي، والاجتماعي والأنتربولوجي، والعلمي..، لأجل الإلمام بها أكثر ووضع الظاهرة الدينية في إطارها الحقيقي، تبين لنا أن الانسان دائم في سعيه للدين، ودلت الآثار الحجرية، ثم الكتب السماوية، أن الدين رافق الانسان منذ وجوده، مما يعني بأن الانسان وجد متدينا، و أن الدين-بالفعل- ظاهرة لازمة للإنسانية، وليست متعالية عن الزمان والمكان أو خارجهما..، الأمر الذي يفسر التصاعد البياني للمدّ الديني، والعودة المفاجئة والمتزايدة للدين، دون التقليل من قيمة الحداثة، وما أفرزته من المظاهر الإلحادية في واقعنا المعاصر .

وقد سعيت في هذه الدراسة ما أمكنني الإحاطة بالظاهرة الدينية من أغلب وأهم جوانبها، فتطرقت بداية لماهيتها وأهم الاتجاهات التفسيرية لنشأتها وأصولها، والتنقيب عن امتدادها في نوازع النفس الإنسانية وكذا الشواهد الكتابية والأركيولوجية، ثم كان مني التعرض لبنية الظاهرة الدينية أركانا ومكمّلات، وكذا التعريج على أهم ما يعلق ويشتبه بالظاهرة الدينية من علائق، ثم تسليط الضوء على أبرز المقاربات المعاصرة للظاهرة الدينية، وانتهت هذه الدراسة جملة من النتائج هي :

- ظهر الاختلاف الواسع في تعريف الدين وبدا التمايز والتعدد جليا في زوايا الدراسة والنظر إليه، ومن خلال تقصينا لألوان شتى من تعريفات الدين لدى علماء وفلاسفة الغرب أو المسلمين تبدى لنا أن عمومها وصم بالعوز والقصور والتحيز للدين أو المذهب أو الاتجاه العلمي أو الفكري .. أو مناهضة لكل ذلك ومناقضته، و لم يحط بالظاهرة الدينية من منظار شمولي.. إلا أن ما تجتمع عليه هو دندنتها جلها حول دائرة الغيب الذي تهفو له القلوب ولا تدركه العيون، ولعل ذلك ما يجر إليه البحث في علل الكائنات ومآلها، الأمر الذي لامسته كافة الأديان حقا أو باطلا .
- إن أهم الاتجاهات التفسيرية لنشأة الدين اتجاهين؛ أولها اتجاه إنساني بما يشمله من المذاهب العقلية، الاجتماعية، النفسية، الأخلاقية، والطبيعية..، تحيل الظاهرة الدينية للإنسان وعالمه الحسي، وباتفاقها على أن الانسان هو مصدر الأديان ومخترعها، فإن ذلك جرَّها إلى القول

بالتطور في بزوغ الظاهرة الدينية، وتدرج الانسانية في اهتدائها إلى التوحيد، عبر تطورها الحضاري والفكري المتعاقب .. وفي وجه الاتجاه الإنساني يقف الاتجاه التأليهي؛ الذي يرجئ الدين إلى مصدر إلهي علوي، فطر البشر على التدين والتوحيد، وما اهتدى أولاء لهذا إلا لما رأوه من بقايا فكرة الألوهية لدى كافة الأمم وبالأخص أكثر الشعوب البدائية... ولذا فإن مما يعاب على تلك النظريات التأليهية قصور منهجها في البحث عن الدين الأول، وكذا اتسامها بالغموض بخصوص التعريف بماهية التوحيد البدئي بنسبته لأي كائن أعلى أنى وجد .

- الأمر الذي ثبت أن الدين حتم ثابت ثبوت النفس الإنسانية ، ويمثل التدين حالة من حالات الإنسانية المقوِّمة لحقيقة الإنسان، ذلك أن الله خالق الإنسان هو من أودع فيه فطرة الإتجاه نحوه، فمقدرة الفطرة على الاهتداء إلى الخالق كامنة، وأمور خارجية كثيرة توقظها وتحركها وتنميها.. بل إن نزعة التدين تلك وفطرته الملحة دائما، تجعل الإنسان يتعطش دوما ليس إلى الدين فحسب، بل إلى الدين الصحيح الذي يروي هذا الضمأ ويشفي هذا الغليل على الوجه الأمثل والأكمل، والطريق الأسلم والأنسب، وعلى هذا يكون للدين موردان أولها داخلي ينبعث من باطن الإنسان، إذ هو مركوز في سريرته، وآخر خارجي يترله الخالق على عباده لغرض الهداية والرشاد، وإجمالا؛ فإن مصدر الدين هو الخالق جل وعلا، فهو خالق الإنسان وهو من أودع فيه فطرة التدين، وهو وحده يعلم بما يناسبه من الدين والعبادة . وبالنسبة للقرآن الكريم؛ فإن الإنسان لم يبدأ ملحدا ولا جاهلا، بل خلقه الله عالما عابدا، مدركا لذاته (عابدا مستخلفا)، ولخالقه (المعبود المتفرد)، ورسالته في الحياة (عبادة الله وحسن الإستخلاف في الأرض)، بل ومصيره بعدها .
- إضافة لكون الدين فطرة بشرية فهو ضرورة اجتماعية، وأحد مقومات الحياة الإنسانية التي لا غنى عنها للفرد والمجتمع، فهو سبب لتكامل الإنسان وانسجامه الفكري والروحي والنفسي.. وفي الوقت ذاته تتوزع وتتنوع وظائفه الأخلاقية والاجتماعية والسياسية... على الأمة والعمران والمجتمعات، ولاعتباره أقوى وسائل الضبط الاجتماعي فهو خير ضمان لأمن المجتمع وعدالته وتكافله واستقراره ..، فرغم كون النزعة الدينية أبعد غورا وأشدُّ التصاقا بالنفس الإنسانية، إلا أنها أعظم تأثيرا وحيوية في حياة الشعوب والأفراد، وبالتالي فالدين هو بوصلة لحياة الإنسان ورسالته في هذا الكون .

- بناء على أصالة نزعة التدين في النفس الانسانية ، فإن الاعتقاد بها كذلك هو ما يميز الانسان عن غيره، فالعقيدة أول أركان الدين، بل هي لبه ومحوره، وتنتظم السلوكات والممارسات في المقام الثاني من التسلسل الهرمي لدى معظم الأديان.. فالدين على ذلك يميزه جانبان؛ جانب إيماني يتعلق بسائر العقائد والقضايا والأفكار التي تبلور رؤية الانسان لذاته وللكون والحياة... وأوكد ما حرصت عليه عقائد الأديان هو اتصالها بالمقدس الغيبي، متمثلا في عالم الإلهيات والمترهات.. وآخر عملي لتنظيم مسيرة الفرد وفق الرؤية العقدية السالفة ويتم ذلك من خلال سن العبادات والطقوس والشعائر والأخلاق والشرائع والأحكام .. وتختلف الأديان وتتفاوت في تغليبها جانبا على آخر أو في غاية تحقيقها للتوازن بين الجانبين . ولا يخفى أن الكتب والنصوص المقدسة هي الرحم لكل ذلك بما تحويه وتشرحه وتفصله بداية من أصول الحياة وتعاليم عقائدية وفلسفية، ونهاية إلى تصانيف الطقوس والشعائر والأخلاق والقيم، بل وحتى التاريخ والتقويم والأيام في بعض الأحيان، ولما ثبت من التلازم بين الكتب والعقائد وتداعياتها بالنسبة للفرد والمجتمع، متجليا ذلك في الأخلاق والشرائع والقيم والتابوهات..، كان لابد للكتب والعقائد أن تكون صادقة في وضع أسس للمبادئ والقيم، قادرة منظومتها على أن تغرس في النفوس، علاوة على موافقتها للفطرة البشرية، مبينة للمكان الصحيح الذي تتبوأه الأخلاق ضمن المنظومة الدينية، مع علاقتها بالعقيدة وصلتها بها، وانسجامها فيما بينها ومع النصوص الكتابية المصدرة لها... وكل ذلك مما يهيء للانسان لأن يأتلف مع بني جنسه، ومع النظام الكوني بأكمله، بل ويأهله للعروج للمقام العلي إذا ما التزم المنهج الرباني .
- الظاهرة الدينية لا تنفك عن علائق تعكر صفو صورتها الأولى-وإن بدت في ظاهرها دينية- تبلورت في صور وأشكال شتى منها الأساطير الوثنية، والخوارق السحرية، وفنون العرافة والتنجيم...، تجتمع كلها على أنها جعلت لله ندا وشريكا ثان وثالث..، فحادت بالإنسان عن جبلته الأصلية، وأحالت الدين الحق أديانا وملا شتى، بل ولا زالت تتربص بالدين الحق، تفسد عليه عقيدته، والجدير بالذكر، هو ارتباط أصناف الوثنية وتداعيها، وإن اختلفت.. الأمر الذي أثبته تشابه وتشاكل أغلب الديانات الوثنية قديمها وحديثها، بل وكذلك التشابه والتطابق أحيانا في أدق مظاهر الوثنية وأعقدها من التثليث والتجسد والصلب والخلاص والتشبيه والتجسيم والاتفاق على تأليه مظاهر الطبيعة ... فالوثنية واحدة وإن اختلفت دواعيها وآثارها . وإذا كان

الدين الحق هو الإستسلام لله تعالى والإنقياد له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، وهو بحق فطرة الله التي فطر الناس عليها من التوحيد الخالص وإفراد العبودية لله وحده، فإن الوثنية هي كل زيغ أو ميل أو نكوص عن هذه الفطرة ... وإذا كان الدين –كذلك– حقيقة من عند الله، فإن السحر في المقابل صرف واستمالة وتمويه عن دين الله .. وبهذا ترتبط الوثنية والسحر وما شابههما بسائر الإملاءات والإيحاءات الشيطانية، ذلك أن العبودية الحقة لها أثرها الفعلي، وإلاّ تحولت العبادات لمجرد طقوس وطلاسم .

- يقود الاهتمام بالظاهرة الدينية حديثا إلى السؤال عن موقع الدين في السياق الحضاري، وبكيفية التعبير عنه في الحياة إيمانا وعملا، فيما يعرف بالتدين، وملاحظة ما ينشأ عن ذلك في الواقع الإسلامي أو الغربي، ويحيل مفهوم التدين إلى السلوك والممارسة التي تكون بمثابة تجسيدا للدين، فهو مؤشر لمدى تمسك الإنسان بدينه والالتزام به يتجلى ذلك في الأخذ بتعاليمه ونصوصه، وبذلك يتفاوت الناس فيه قوة وضعفا . والتدين في الإسلام رسالة شاملة في إصلاح ظاهر الفرد وباطنه، وجامعة في إصلاح دينه ودنياه .
- يعد التدين في الغرب ضحية الثورة العلمية والعلمنة، أين تآزرت المواقف الفكرية والسياسية، والاتجاهات الفلسفية والتاريخية، والتفسيرات العلمية والنفسية .. لأجل بلورة النظرية العلمانية، ومهدت لتأسيس الحضارة الغربية على أيديولوجية الحداثة، إلا أنه وبموجب العلمانية آلت فترة التنوير إلى الخواء والاضمحلال والشرود ... وفي الوقت الراهن لم يعد بالإمكان تجاهل ظاهرة الإحياء الديني بسبب تصاعد موجات الإستياء من العلمانية والحداثة، وما رافقه من الوعي الديني الفردي والجمعي، مما نادى بعودة الدين وتفعيل دوره في الحياة الإجتماعية، بل إن انتشار قيم العلمانية والعولمة والحداثة في العالم بدعوتها إلى اكتشاف الآخر ومواجهة مبادئ الأديان الأخرى وتعرفها، كان مما جرَّ للقبول بالمختلف الديني، وأسفر عن تعددية دينية على أساس الأخلاق الكونية ..فسعى الغربي من جديد للتحرر من سطوة العلمنة، واللجوء إلى رحاب الأخلاق وفضاء الروح ... ورغم تفاوت الدول الغربية في تحقيق الحرية الدينية إلا أن المؤكد هو اتجاه الغرب عموما نحو التدين، مما يبدد الأوهام السائدة حول انحسار الظاهرة الدينية أو اندثارها وإخلائها المجال أمام مد العلمنة والتنوير، وكل ذلك يؤكد مجتمعا أنه لا فكر التنوير ولا العلمنة أو العلمانية وما جرته من تيارات بقادرة على إلغاء فطرة التدين في الكيان البشري .

- تتعالى الموجات الإلحادية في الغرب بين الفينة والأخرى في مقابل العودة إلى التدين، والإلحاد المعاصر يعلن العدائية للأديان، ويهدف لاستئصال مبدأ التدين من الحياة البشرية وتأصيل مبدأ أن كل مصائب العالم وحروبه مبعثها الدين... وعلى وجه الخصوص يتصدر الإسلام كدين –عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر– فوهة مدفع الإلحاد الجديد . وعن أصول الإلحاد المعاصر فقد شكلت الأشواظ التي قطعها العلم وتفسيراته الآلية للظواهر الطبيعية والكونية، وما حققه من إنجازات علمية وحضارية، عصبا مهما في منشأ الإلحاد لما هيأته من نظرة مادية بحته لا تؤمن بغير المحسوس، وتختزل الإنسان في طينته المادية، وهي رؤية استمدت جذورها من آلية (نيوتن)، وذرية (دالتون) وتطور (داروين) في القرن التاسع عشر، وامتدت للقرن العشرين ليختفى معها الغيب، والإله، والدين وجوهر الإنسان ... لكن الذي ثبت أنه سواء أإنطلق الإنسان من العلم أو من الدين لن يصل لغير الإيمان بالله، فالتوافق بين الدين والعلم توافق عميق يفضي لأن يكمل أحدهما الآخر ويخدمه، وإن صح القول فإن الرسوخ في العلم لا يخلف إلا إيمانا عميقا .
- مفهوم الصدفة وأزلية الكون هو أقصى ما ذهب إليه الملاحدة في صياغة تخميناتهم على هيئة نظريات علمية، والتي يدور أغلبها حول نشأة الكون وبنيته وعن الحياة ومعناها، إلا أن الأدلة الكونية على أن الكون حادث كثيرة ومتضافرة، وأما عن الحياة ومعناها فلم يسطع الباحثون إخفاء عجزهم عن شرح أصل الحياة، ولا شك أن ذلك سيظل بالنسبة للعلم لغزا . وحين سعت الفلسفة المادية الأزلية لنحت أساس علمي لم تجد غير تمثال التطور الداروييني، وبه تسنى لأنصار التطور القفز من العلم إلى الإلحاد، وانتهاز فرصة لاستبعاد الإله لتحل الطبيعة والمادة كل لغز، إلا أن ما ربط الداروينية والتطور بالعلم ظل خيطا وهميا، ومهما قدَّم الماديون من أدلة فقد تجاوز العلم الإيجاد العشوائي بمحض الصدفة، وقدرة التطور الداروييني، بل إن الأدلة العلمية في شتى الميادين تتضافر ويؤازر بعضها بعضا، وتدفع العلماء طوعا أو كرها للجوء للتفسير الغيبي لنشأة للكون .كما أن في القرآن الكريم تأكيد على ما في السماوات والأرض من أدلة الخلق والإفناء والبعث، وهو مفعم بالأدلة التي تنطق بطلاقة القدرة الإلهية في خلقهما وإبداعهما، كما تنطق بحتمية إفنائهما، وإعادة خلقهما من جديد ونظرية (الإنفجار الأعظم) تصدق في منتصف القرن العشرين ما أورده القرآن الكريم . فبعد أن شاعت النظرة المادية للكون والطبيعة خلال القرن التاسع عشر، وأسس الإلحاد لذاته من خلال المنظور العلمي المادي مستغلا النظريات العلمية إلا

أن تطور العلم بنية ومفاهيما ونظريات في القرن العشرين أدى إلى وأد المنظور المادي.. فكون عالمنا هو في الحقيقة عالم ميتافيزيقي، حقيقة تظافرت عليها الحقائق العلمية، والماديون إن أنكروا وجود الخالق، لم يعد لهم من قشَّة يتعلقون بها بعد اتضاح حقيقة المادة التي يرجؤون لها سر الخلق، وهكذا فالعلم الآن، بما توصل إليه من اكتشافات يعزز الإيمان بالخالق سبحانه، عن طريق تعزيز الطبيعة الميتافيزيقة الغيبية للكون .

وههنا تبزغ الظاهرة الدينية حين تنبينا عن سر التقارب بين المادة والوعي، بين الجسم والروح.. بين الفيزيائي والماورافيزيائي.. وتؤكد بصفة جلية أصالة كلا من الحس والغيب في أعماق الذات الإنسانية وتكاملهما، وأن لا مجال لطغيان أحدهما على حساب الآخر؛ الأمر الذي أرست دعائمه كافة المعتقدات الدينية بمختلف أشكالها ومظاهرها، فكلها تتفق على حقيقة بسيطة تقسم الوجود إلى مستوى ظاهري ينبثق عن مستوى غيبي له وجود غريزي حقيقي باطنَ النفس الإنسانية .

وختاما، عسى الله أن يتقبل عملي هذا وينفع به، ويجعله في ميزان حسناتي ووالديّ . وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الملاحق

الملاحق

ملحق1 : آثار أركيويوجية لإنسان ما قبل التاريخ : وثيقة رقم 1، بعض الرسوم الجدارية[1]

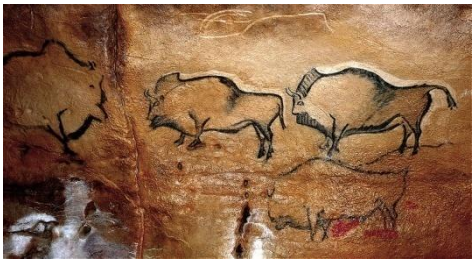

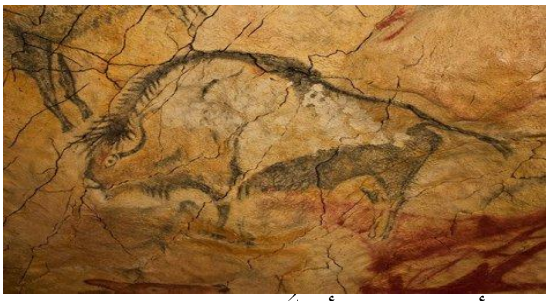

وثيقة رقم 2 : كسر لمنحوتات أنثوية بدون رأس[2]

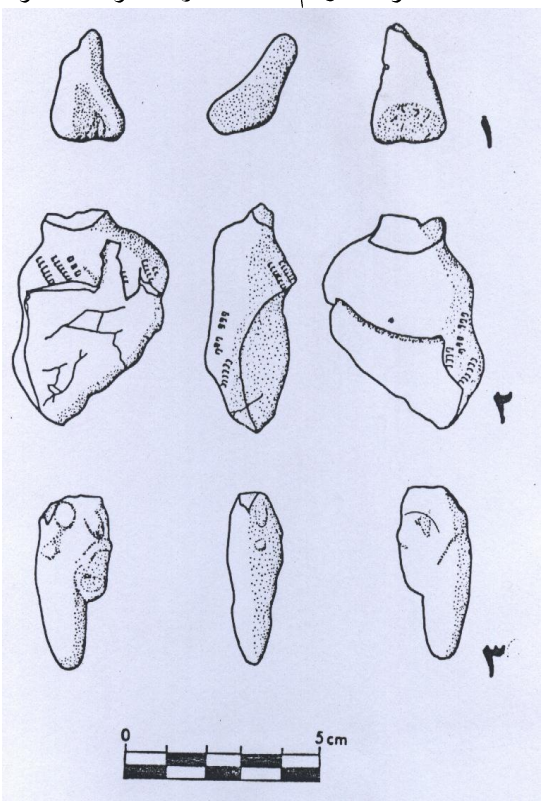

[1] - https://encrypted-tbn0.gstatic.com/images?

[2] - https://upload.wikimedia.org/wikipedia/ar

ملحق 2 : الانتماء الديني في العالم : إحصائية (1) لعدد أتباع الديانات في العالم 2014[1]

	الديانة	عدد الأتباع	النسبة المئوية إلى عدد السكان
1	المسيحية	2.1مليار نسمة	32%
2	الإسلام	مليار نسمة 1.5	20%
3	اللادين(علماني، ملحد غيرديني)	1.1 مليار نسمة	14%
4	الهندوسية	مليون نسمة900	13.5%
5	البوذية	376 مليون نسمة	5.7%
6	الديانات الصينية التقليدية	394 مليون نسمة	3.6%
7	ديانات بدائية	150 مليون نسمة	2.4%
8	ديانات إفريقية تقليدية	100 مليون نسمة	1.5%
9	السيخية	23 مليون نسمة	0.36%
10	الجوتشي[2]	19مليون نسمة	0.3%
11	الروحانية	15مليون نسمة	0.22%
12	اليهودية	14مليون نسمة	0.22%
13	البهائية	7 مليون نسمة	1%
14	الجينية	4.2مليون نسمة	0.06%
15	الشنتوية	4مليون نسمة	0.06%
16	كاو داي	4مليون نسمة	0.04%
17	تن ريكيو	2.4مليون نسمة	0.03%
18	الوثنية الجديدة	1مليون نسمة	0.01%
19	وحدة الوجود	800ألف نسمة	0.01%
20	راستافارية	600 ألف نسمة	0.01%
21	الفكر العلمي	500ألف نسمة	0.009%
22	الزرادشتية	150 ألف نسمة	0.002%

1- http://www.adherents.com/religions

2 – الجوتشي : ديانة جديدة، ظهرت في كوريا الشمالية، وكلمة جوتشي باللغة الكورية تعني الاعتماد على الذات، ويصنفها البعض بأنها نوع من المبادئ الشيوعية الماركسية، ممزوجة بالفلسفة الأخلاقية وليست ديانة .

23	ديانات أخرى (تفوق 33 ديانة)	327.35مليون نسمة	5.2%
	الإجمالي	6.3مليار نسمة تقريبا	100%

إحصائية رقم (2) على اليمين : قائمة البلدان العشرة الأوائل الأوروبية التي تحوي أكبر عدد من المسيحيين، وعلى اليسار: قائمة البلدان العشرة الأوائل الأوروبية التي لديها أعلى نسب مئوية للسكان المسيحيين [1].

الرتبة	دولة	عدد المسيحيين	نسبة المسيحيين	دولة	نسبة المسيحيين	عدد المسيحيين
1	روسيا	105,220,000	73.6%	الفاتيكان	100.0%	800
2	إيطاليا	55,070,000	91.1%	مولدوفيا	98.3%	3,503,000
3	ألمانيا	58,240,000	70.9%	اليونان	98.0%	11,080,000
4	المملكة المتحدة	45,030,000	72.6%	مالطا	98.0%	408,000
5	أوكرانيا	41,973,000	91.5%	رومانيا	97.5%	20,930,000
6	بولندا	36,526,000	95.7%	سان مارينو	97.0%	31,000
7	إسبانيا	35,568,000	78.6%	بولندا	95.7%	36,526,000
8	فرنسا	35,014,000	63.5%	جزر فارو	94.0%	46,000
9	رومانيا	20,930,000	97.5%	كرواتيا	92.6%	4,107,000
10	اليونان	11,080,000	98.0%	جمهورية أيرلندا	92.3%	4,116,000

[1] - https://ar.wikipedia.org/wikpsf المسيحية حسب دول العالم

إحصائية رقم (3) نسبة التردد على الكنائس بشكل أسبوعي في دول مختلفة من العالم الغربي (معهد فالوب 2010م)[1]

الدولة	الحضور	الدولة	الحضور	الدولة	الحضور	الدولة	الحضور
النمسا	18%	بلجيكا	7%	كندا	20%	الدنمارك	3%
قبرص	25%	جمهورية التشيك	11%	إستونيا	4%	فنلندا	5%
فرنسا	12%	اليونان	27%	المجر	12%	آيسلندا	10%
جمهورية أيرلندا	54%	إيطاليا	31%	لاتفيا	7%	ليتوانيا	29%
مالطا	75%	النرويج	3%	بولندا	63%	البرتغال	29%
سلوفاكيا	33%	سلوفينيا	18%	إسبانيا	21%	السويد	5%
المملكة المتحدة	14%	الولايات المتحدة	43%	كرواتيا	70%	رومانيا	65%

إحصائية رقم (4) للانتماء الديني والنمو في أوربا 1910 و 2010م[2] .

	1910م	1910م	2010م	2010 م	التغير% (1910 – 2010م)	التغير% (1910 – 2010م)
	الأتباع	%	الأتباع	%		
مجموع السكان	427,154,000	100.0	730,478,000	100.0	+0.03	100.0

[1] - https://ar.wikipedia.org/wiki/

[2] - Christianity in Europe - 1910-2010, http://www.atlasofglobalchristianity.org/images/samplepages_4.pdf

المسيحية	403,687,000	94.5	585,739,000	80.2	+0.37	+0.23
الكاثوليكية	189,056,000	44.2	275,820,000	37.7	+0.38	+0.07
الأثوذكسية	111,391,000	26.0	201,197,000	27.5	+0.59	+0.35
البروتستانتية	64,557,000	15.1	67,703,000	9.2	+0.05	-0.29
أنجليكانية	26,384,000	6.1	26,219,000	3.5	-0.01	-0.04
كنائس مستقلة	87,200	0.0	10,703,000	1.4	+4.93	+1.76
توحيدية	115,000	94.5	4,212,000	0.5	+3.67	+1.08
لا أدرية	1,642,000	0.4	81,027,000	11.1	+3.98	-1.30
الإسلام	10,021,000	2.3	41,082,000	5.6	+1.42	+0.62
الإلحاد	219,000	0.1	15,166,000	2.1	+4.33	-1.68
اليهودية	10,460,000	2.4	1,844,000	0.3	-1.72	-0.25
البوذية	428,000	0.1	1,833,000	0.3	+1.47	+0.64
الوثنية	662,000	0.2	1,144,000	+0.2	+0.55	-0.44
الهندوسية	65	0.0	1,008,000	0.1	+10.13	+1.47

السيخية	0	0.0	510,000	0.1	+11.45	+2.31
ديانة صينية	0	0.0	416,000	0.1	+11.22	+1.89
ديانات جديدة	24,800	0.0	377,000	0.1	+2.76	+0.66
الروحانية	10,600	0.0	146,000	0.0	+2.66	+0.71
البهائية	220	0.0	144,000	0.0	+6.70	+0.72
الجانية	0	0.0	18,900	0.0	+7.84	+1.62
الكونفوشيوسية	0	0.0	18,600	0.0	+7.82	+0.61
الزرادشتية	0	0.0	5,800	0.0	+6.57	+0.72

إحصائية رقم (5) الانتماء الديني في الولايات المتحدة الأمريكية ما بين سنتي 2001م و 2014 م[1].

الأديان	% من تعداد السكان2001-2014م
المسيحية	70.6 -59.9
اللاأدريين	22.8- 15.0
اليهوذية	1.9 - 1.3
الإسلام	0.9- 0.5
البوذية	0.7 - 0.9
الهندوسية	.0.7 - 0.4
التوحيديين	0.3
الويكان/ الباقان/الشامانية	0.1
الروحانية	0.05
ديانات أمريكا الأصلية	0.05
البهائية	0.04

[1] - http://www.pewforum.org/2015/05/12/americas-changing-religious-landscape/pr

ملخصات

ملخص البحث باللغة العربية

سعى البحث الموسوم بـــ : (**الظاهرة الدينية في الفكر المعاصر**) لمعالجة منهجية لماهية الدين بصورته الكلية وذلك بتسليط الضوء على الأديان والمظاهر الدينية في عموميتها من منطلق كونها ظاهرة إنسانية، بهدف التأصيل لترعة التدين وإثبات خلودها وتوأمتها للإنسان، واستقراء خصائصها العامة، ثم ملاحظة صيرورتها ومساراتها الفكرية والحضارية في واقعنا المعاصر .

وعالج البحث جملة من الإشكالات الراهنة المتمثلة في الإحاطة بماهية الظاهرة الدينية وتفسير نشأتها ثم ما التجاذبات بين الظاهرة وانفتاح العولمة والحداثة وما بعدها.. وما أفرزه كل ذلك من حواجز بين العلم الحديث والقضايا الغيبية والغائية.. مما كان له بالغ الأثر في إقصاء البعد الروحي للإنسان المعاصر، ويستدعي التساؤل عن مصير الدين.. وأبعاده إزاء تناقضات العودة الجامحة إلى الدين والتدين في مقابل موجات التيار التحرري الإلحادي الجديد ..

فاقتضت الدراسة تقسم البحث إلى ثلاثة أبواب تضمنت سبعة فصول، توخت الوصول إلى نتائج ذات بال، حيث تناول الباب الأول **ماهية الظاهرة الدينية** ومفهومها وكذا دراسة اتجاهات نشأتها، ثم تقصي مصدر الدين بالكشف عن مصدر الدين الأول وذلك لإثبات أصالة الترعة الدينية .

ويليه الباب الثاني؛ وخصص لـــ : **أنثربولوجيا الظاهرة الدينية** بالتعرض في شقه الأول لبنية الدين وما يحتاجه من أركان وعناصر لاستكمال وجوده كظاهرة، وفي الشق الثاني حديث عما يعلق بالظاهرة الدينية من مظاهر وعلائق .. بغرض تبرئة الظاهرة الدينية مما قد يعلق بها من شوائب .

وأما الباب الأخير فهو جوهر البحث؛ لتعزيزه مبدأ الإيمان بالغيب وهو ما تقوم عليه الظاهرة الدينية، وتأكيد تجلياته وآثاره في الواقع، وتضمن الباب **المقاربات المعاصرة للظاهرة الدينية** ، بتناول مقاربة للدين والتدين وأوضاعه في الواقع المعاصر سواء على الصعيد الإسلامي أو الغربي، كما تضمن مقاربة للظاهرة الدينية والفكر الإلحادي المعاصر لأجل تقويض دعائم الفلسفة المادية والفكر المادي في تفسير الظواهر الإنسانية أو الكونية، بنقد مضامين الإلحاد وجذوره الواهية، و إزالة الحواجز بين العلم الحديث والبُنى الفكرية الدينية ، ثم مقابلة المفاهيم والأدلة الإلحادية أخيرا بأدلة الخلق والإيمان وطرح أحدث النظريات والاكتشافات في ذلك . وتوّجت الدراسة بخاتمة حوصلت نتائج البحث .

Summary

The research, entitled "The Religious Phenomenon in Contemporary Thought", seeks to systematically address the nature of religion in its holistic form by shedding light on religions and religious manifestations in its generality from the logic of being a human phenomenon in order to root for religiosity and to prove its immortality, And then note the emergence of cultural and intellectual paths in our contemporary reality.

The research dealt with a number of current problems, namely, the understanding of the phenomenon of religious phenomenon and the interpretation of its origin, and then the interactions between the phenomenon and openness of globalization and modernity and beyond ... And what produced by such barriers between modern science and the issues of obscure and metaphysical .. which has had a profound impact on the exclusion of the spiritual dimension of modern man, and calls to question the fate of religion .. and its dimensions to the contradictions of the return to the religion and the religion in exchange for the waves of the current liberal and neo-atheist.

The first chapter dealt with the phenomenon of religious phenomenon and its concept, as well as the study of the trends of its origin and then the source of religion to reveal the source of the first to prove the authenticity of the religious trend followed by the second section And devoted to: The anthropology of the phenomenon of religious exposure in the first apartment of the structure of religion and the needs of elements and elements to complete its existence as a phenomenon, and in the second part talk about what is attached to the phenomenon of religious manifestations and the purpose of defamation of religious phenomenon, which may be attached to the impurities.

And the last part is the essence of research to strengthen the principle of faith in the unseen and is based on the phenomenon of religious and confirm the manifestations and effects in reality, and included the door approaches to the contemporary phenomenon of religious approach to address the religion and religion and its situation in contemporary reality, both on the Islamic or Western, It also included an approach to the contemporary religious phenomenon and thought to delegate the foundations of material philosophy and material thought in the interpretation of human or cosmic phenomena by criticizing the contents of atheism and its faulty roots and removing the barriers between modern science and religious intellectual structures and then interviewing concepts and unilateral evidence. Good evidence of creation and faith and the introduction of the latest nectar and discoveries in it, and culminated in the study concluded the conclusion of the search results.

Résumé

La recherche, intitulée «Le phénomène religieux dans la pensée contemporaine», cherche à aborder systématiquement la nature de la religion dans sa forme holistique en mettant en lumière les religions et les manifestations religieuses dans sa généralité de la logique d'être un phénomène humain pour la religiosité et de prouver son immortalité, Et puis noter l'émergence de chemins culturels et intellectuels dans notre réalité contemporaine.

La recherche a abordé un certain nombre de problèmes actuels, à savoir la compréhension du phénomène de phénomène religieux et l'interprétation de son origine, puis les interactions entre le phénomène et l'ouverture de la mondialisation et de la modernité et au-delà ... barrières entre la science moderne et les questions de l'obscur et métaphysique .. qui a eu un impact profond sur l'exclusion de la dimension spirituelle de l'homme moderne, et appelle à remettre en question le sort de la religion .. et ses dimensions aux contradictions du retour à la religion et religion en échange des vagues de l'actuel libéral et néo-athée.

Le premier chapitre portait sur le phénomène du phénomène religieux et son concept, ainsi que l'étude des tendances de son origine et ensuite la source de la religion pour révéler la source de la première pour prouver l'authenticité de la tendance religieuse suivie par la seconde section Et consacré à: L'anthropologie du phénomène de l'exposition religieuse dans le premier appartement de la structure de la religion et les besoins d'éléments et d'éléments pour compléter son existence en tant que phénomène, et dans la deuxième partie parler de ce qui est attaché au phénomène des manifestations religieuses et le but de la diffamation du phénomène religieux, qui peut être attaché aux impuretés.

Et la dernière partie est l'essence de la recherche pour renforcer le principe de la foi dans l'invisible et est basée sur le phénomène religieux et de confirmer les manifestations et les effets dans la réalité, et inclus les approches du phénomène contemporain de l'approche religieuse pour aborder le Elle incluait également une approche du phénomène religieux contemporain et la pensée de déléguer les fondements de la philosophie matérielle et de la pensée matérielle dans l'interprétation des phénomènes humains ou cosmiques en critiquant la religion et la religion. le contenu de l'athéisme et ses racines défectueuses et en supprimant les barrières entre la science moderne et les structures intellectuelles religieuses, puis en interrogeant les concepts et les preuves unilatérales. Une bonne preuve de la création et de la foi et l'introduction des derniers nectars et découvertes en elle, et a abouti à l'étude a conclu la conclusion des résultats de recherche

فهارس

فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
{مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}	الفاتحة الآية 3	23، 24، 26، 42
{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}	البقرة الآية 30- 34	152،348
{ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ }	البقرة 35- 39	153، 156
{وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ}	البقرة الآية42	228
{وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}	البقرة الآية 101- 102	287،288،295، 297،307، 308،310، 316
{ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا }	البقرة الآية 148	179
{ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا }	البقرة الآية 170	180
{وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}	البقرة الآية 179	346
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}	البقرة الآية 183	346
{كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}	البقرة الآية 211	156،228،264
{وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا }	البقرة الآية 217	27

{فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ}	البقرة الآية 251	223
{اللهُ لآ إِلهَ إِلاَّ هو الحيُّ القيُّوم لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ }	البقرة الآية 255	403
{فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}	البقرة الآية 258	221
{ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ}	آل عمران الآية19	27
{ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}	آل عمران الآية 24	27
{إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ}	آل عمران الآية 45	275
{وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}	آل عمران الآية 78	228
{أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ}	آل عمران الآية 83	27، 28
{وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ }	آل عمران الآية 85	28
{ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}	آل عمران الآية 103	180
{وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}	آل عمران الآية169	179
{وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ}	النساء الآية82	226
{إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا}	النساء الآية105	227
{ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ }	النساء الآية 125	27
{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ}	النساء الآية 136	219
{ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ}	النساء الآية 146	27
{فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً }	النساء الآية 153	406
{رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}	سورة النساء الآية156	181
{ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}	النساء الآية 157- 158	275، 358
{وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا}	النساء الآية 163	218، 223
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ}	النساء الآية 171	27،344
{يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ	المائدة الآية 15	228

وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}		
{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ}	المائدة الآية 44	221،218
{وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}	المائدة الآية 45	219
{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا}	المائدة الآية 48	227،179
{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}	المائدة 110	308
{أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ}	الأنعام الآية 90	180
{ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}	الأنعام الآية99	179
{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}	الأنعام الآية153	184
{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}	الأنعام الآية162	349،324
{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ}	الأنعام الآية165	153
{يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا}	الأعراف الآية 26	339
{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ}	الأعراف الآية 31	338
{قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ}	الأعراف الآية 32	339
{فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ}	الأعراف الآية 64	294
{وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ}	الأعراف الآية 65	273
{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ	الأعراف الآية 107-120	290،287، 294،288، 299

تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ}		
{وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ}	الأعراف الآية145	218
{الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ}	الأعراف الآية 157	232
{قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا}	الأعراف الآية158	227
{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}	الأعراف الآية 172-174	177،171،170
{وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ }	الأنفال الآية 24	180
{وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ }	التوبة الآية 29	27
{هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}	التوبة الآية 33	28
{أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}	يونس الآية2	307
{وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا}	يونس الآية 19	156
{فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ}	يونس الآية76-77	308
{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ }	يونس الآية 79-80	307
{وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ }	يونس 90- 92	20، 274
{وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ}	هود الآية37	294،27
{فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}	هود الآية 112	323
{مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ }	يوسف الآية 76	20، 21، 27، 38
{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ	الرعد الآية 2- 4	176

وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَاب وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}		
{ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ}	الرعد الآية7	179
{الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ}	إبراهيم الآية1	156
{يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}	إبراهيم الآية 48	436
{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ }	الحجر الآية 9	227
{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ}	الحجر الآية 99	324
{وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ }	النحل الآية 36	234
{فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}	النحل الآية 63	285،233
{إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا}	الإسراء الآية 9	156
{وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}	الإسراء الآية23	240
{وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}	الإسراء الآية 32	240
{وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ}	الإسراء الآية 44	313
{ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا}	الإسراء الآية67	174
{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا }	الإسراء الآية 85	427،180
{مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}	الكهف الآية 51	431
{ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا}	الكهف الآية110	217
{إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}	طه الآية 12-14	273،221
{قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى }	طه الآية 63	308
{يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى}	طه الآية 66	296،288،287
{ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا }	طه الآية 85- 86	274
{قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}	طه الآية 123-124	156

{لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا}	الأنبياء الآية 22	404
{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَافَاعْبُدُونِ}	الأنبياء الآية 25	281
{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا}	الأنبياء الآية30	435،
{وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}	الأنبياء الآية 51	221
{إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ}	الأنبياء الآية 52	273
{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ}	الأنبياء الآية 104	
{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}	الحج الآية 17	277،3
{وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ }	الحج الآية 31	317
{لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ}	الحج الآية 37	346
{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}	النور الآية2	29، 240
{يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ}	النور الآية 25	26
{وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا}	الفرقان الآية5	244
{وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا}	الفرقان الآية 67	339
{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ }	الشعراء الآية 153	308
{قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ}	الشعراء الآية 185	308
{ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ}	الشعراء الآية196	234
{هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ}	الشعراء الآية221	287
{ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}	النمل الآية 62	174،153
{ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ}	القصص الآية 68	180
{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ}	العنكبوت الآية 13	257
{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}	العنكبوت الآية 20	431
{إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}	العنكبوت الآية 45	346
{ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}	الروم الآية 30	169

{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ }	سبأ الآية 15- 16	274
{قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ}	سبأ الآية 46	180
{وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}	فاطر الآية 24	234
كُن فَيَكُونُ	يس الآية 82	403
{بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ}	الصافات الآية 37	234
{أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ}	الصافات الآية 53	26
{وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}	الصافات الآية 123-125	268
{وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ}	ص الآية 4	307
{إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ}	ص الآية 71- 72	171،172
{ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ }	الزمر الآية 11	27
{قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي }	الزمر الآية 14	27
{فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ}	الزمر الآية 17-18	180
{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}	الزمر الآية42	179
{ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }	فصلت الآية11	435
{شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ}	الشورى الآية 13	28
{أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}	ق الآية6	179
{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ }	الذاريات الآية47	434،435
{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ}	الذاريات 52- 53	308
{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}	الذاريات الآية 56	21،71، 172، 215،324،445
{أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى}	النجم الآية 19-20	278
{ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى}	النجم الآية24-25	180

{إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ}	القمر الآية27	294
{ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ}	الواقعة 86	26
{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}	الطلاق الآية 12	414
{ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ}	الإنفطار 17	26
{ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}	البروج الآية21– 22	227
{ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}	الأعلى الآية 18–19	218
{وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}	الشمس الآية 7–10	324،180
{وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ}	البينة الآية 5	27، 28
{فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ}	الماعون الآية 4-5	346
{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}	الكافرون الآية 6	29
{وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ}	الفلق الآية 4	288

فهرس الأحاديث النبوية والآثار

رأس الحديث	الراوي	الصفحة
"الكيس من دان نفسه...	الترمذي	17
"كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة هل ترى فيها من جدعاء؟ " .	البخاري	170
"ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدا حلالا، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا".	مسلم	263،171
"أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره"	البخاري	199
"كنت نبيا وإن آدم لمجندل في طينته"	البخاري والطبري، وابن حبان	232
"بعث ليتمم صالح الأخلاق"	أحمد، مسلم، والبخاري	341،235
"إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"	أحمد والبخاري	340
"رأيت عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف أبو خزاعة أبا بني كعب هؤلاء يجر قصبه في النار"	البخاري ومسلم	278
"الْكُفْرُ كُلُّهُمْ مِلَّةٌ لا نرثهم ولا يرثونا"	أبو يوسف القاضي، أبي حنيفة	285
"ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم"	البخاري ومسلم	325
"إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين"	أحمد والنسائي، وابن ماجه	333
"أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني"	البخاري	333
"إنكم لتعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر، وكنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات"	البخاري وأحمد	334
"إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم وأحسنوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش"	أبو داود والحاكم	338

"أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه"	أحمد والنسائي	338
"ما على أحدكم إن وجد أن يتخذ ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبي مهنته"	مالك وأبي داود	338
"كلوا واشربوا، والْبسوا وتصدّقوا، في غيرِ إسراف ولا مخيلة"	البخاري	339
"إن هذين حرام على ذكور أمتي"		
"لا تَلْبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهبِ والفِضَّة، ولا تأكلوا في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا- أي الكفار، ولنا في الآخِرةِ"	أبو داوود والنسائي	339
"إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم"	البخاري ومسلم	340
"صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ، فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ"	مسلم وابن ماجه، وأحمد والبيهقي	342
"إن بعدي من أمتي أو سيكون بعدي من أمتي قوم يقرءون القرآن لا يجاوز حلاقيمهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية ثم لا يعودون فيه هم شر الخلق والخليقة"	البخاري	344
"دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، و صيامه مع صيامهم ، يقرأون القرآن ، لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ..."	ابن ماجه، ومسلم	345
"التقوى هاهنا"	مسلم	347
"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب"	البخاري ومسلم	348
"ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق"	أبو داوود، وابن حبان، والترمذي	348
"الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إزالة الأذى عن الطريق"	البخاري ومسلم	350
"إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا حياته، لكنهما آيتان من آيات الله تعالى يريهما عباده"	البخاري	402

فهرس الأعلام

اسم العلم	الصفحة
آدم عليه السلام	161، 263، 285، 388
إبراهيم عليه السلام	220، 265، 273، 277، 279، 299
أبيقور	360
أبيلار (بيار)	100
إراسسموس الهولندي (دسيدريوس)	360
أرسطو	2، 100، 361، 387
أركون (محمد)	8
إرمان (أدولف)	98، 311
اسبينوزا (باروخ)	99، 158
إسماعيل عليه السلام	273
إسماعيل (محمد الحسيني)	46
أفلاطون (ارستوكليس بن ارستون)	2،3 ، 100، 246 361
إقبال (محمد)	45
ألن (فرانك)	413
إلياد (مرسيا)	8، 248، 250
أنجلس (فردريك)	134
أوتو (رودلوف)	3، 32 52، 166، 167
أوغسطين	8، 19،32
أينشتاين	404، 438، 439
أبوالبقاء الكفومي(أيوب بن موسى الحسيني)	8، 44
أبو عبيده (معمر بن المثنى)	41
أبو زهرة (محمد)	234
ابن أبي طالب (الإمام علي)	17
ابن أنس	333
ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني)	309
ابن الحجاج (الإمام مسلم)	170
ابن جبير (أبو محمد سعيد الأسدي)	154
ابن حمار المجاشعي (عياض)	170
ابن حيان (جابر)	41
ابن خلدون (عبد الرحمن)	18، 58،59، 191، 287، 305
ابن دعامة السدوسي (قتادة)	154
ابن زيد (عبد الرحمن)	154
ابن عاشور (محمد الطاهر)	25، 27
ابن عباس (عبد الله)	29، 154

ابن عبد الوهاب (محمد)	309
ابن عربي (أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد العربي)	19، 42
ابن عزرا (إبراهيم بن منير)	158
ابن فارس (أحمد)	15
ابن كثير (أبو الفداء إسماعيل بن عمر)	26
ابن كعب (أبي)	155
ابن كلثوم (عمرو)	21
ابن لحي الخزاعي (عمرو)	277
ابن مسعود (أبو عبد الرحمن عبد الله)	254
ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم)	16، 18
ابن نبي (مالك)	192
الأبديري (ديموقريطس)	384، 437
الأعشى الحرمازي (عبد الله بن الأعور)	17
الأندلسي(ابن حزم)	3
البيضاوي (ناصر الدين أبو سعيد)	23
التهانوي (محمد بن علي القاضي)	43
الجرجاني (علي بن محمد علي الشريف)	42، 47
الجزائري (أبو بكر جابر)	199
الرازي (فخر الدين)	24، 29، 288، 289
الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر بن أحمد)	16
السواح (فراس)	45، 127، 130، 132، 138، 144
الطبري (محمد بن جرير)	24، 28
العدواني (ذو الأصبع)	20
الغزالي (محمد)	343
الغزالي (أبو حامد)	331
الفارابي (أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرحان)	47
الفيروزآبادي (أبو الطاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم الشيرازي)	18
القرضاوي (يوسف)	317، 342
الكودريتغون (روبرت هنري)	104
النجار (زغلول)	435
الهاشمي (طه)	115
باجوت (غلوب جون)	380
بافلوف (إيفانبتروفيتش)	424
براون (رادكليف)	55، 111
برجسون (هنري)	77، 94، 128، 150
بينوف (إيميل لويس)	55، 67
بروفاين (وليم)	428

برونو	363
بريل (ليفي)	250
بريل (ميشيل)	77
بريسيه (سلفان)	57
بريتشارد (إيفانز)	151
بطليموس	387
بلانك (ماكس)	437، 440
بوانكريه (جلاس هنري)	402
بوذا	229
بيتي (جون)	311
بيركلي (جورج)	406
بينا رويز (هنري)	355، 356
بيهي (مايكل)	414
تاونز (تشارلز)	433
تايلور (إدوارد)	54، 72، 73، 74، 76، 116، 119، 121، 302،255، 305
ترولش (إرنست)	370
جاليليو (جاليلي)	363، 386،385
جويوه (ماري)	57
جيفرسون (توماس)	357
جيمس (ويليم)	64، 117، 167، 365
حمصي (حسن)	46
داروين (تشارلز)	73، 116، 117، 122،118، 364، 387، 397، 414، 415، 418، 419، 142،437،430،422
داوود عليه السلام	223، 224
دراز (محمد عبد الله)	4، ، 19، 23، 43، 69، 108، 151، 185، 188، 310
دالتون (جوهان)	437
دوبروري (لوي)	443
دوركايم (إيميل)	60 ، 61، 65، 67، 83، 84، 85، 103،88، 105، 107، 109، 111، 110، 111، 114، 183، 250، 304، 311،312
دوكتز (ريتشارد)	384، 393، 394، 396، 423
دومون (لويس)	369
دي توفيل (أليكس)	211
ديكارت (رينيه)	95، 130،129
ديورانت (ويليام جيمس)	74، 97، 270
راسل (برتراند)	399، 405
رافيل (ماكس)	66، 67
رايناخ (س)	86
رشيد رضا (محمد)	289، 295

رودنسون (ماكسيم)	66
روسو (جون جاك)	101،181
ريفيار (كلود)	323
ريفيل (ألبرت)	55، 66
زرادشت	230،171
زينوفون	253
ساباتييه (أوجيست)	93، 106، 108، 128
سبنسر(هربرت)	53، 66، 75، 119،300، 302، 377
ستراوس (كلود ليفي)	252، 292
ستيس (ولتر تونس)	391
سقراط2،165	2، 165
سليمان عليه السلام 223	، 269، 301، 309
سميث (روبرت)	111
سميث (روبرتسون)	246
سيمون (جول)	99
شاتل (فرانز فرديناند)	57، 67
شارون (بيير)	99
شريدر	89
شميدت (ويليام)	89، 92، 111، 126،302، 304
شيشرون (ماركوس توليوس)	3، 30 ، 31، 32 ،49، 100
شيلنغ (فريديش)	90
صالح عليه السلام	264، 295، 301
صليبيا (جميل)	47
طه عبد الرحمن	163، 165، 173
ظاظا (حسن محمد توفيق)	223
عبد الجبار (القاضي المعتزلي)	4
عبد الرازق (مصطفى)	22
عبد المطلب (شيبة الحمد)	16
عبده (محمد)	44، 175، 332، 350
عمارة (محمد)	331، 336
غيث (محمد عاطف)	322
عيسى عليه السلام	224،228،276،308
فروم (إريك)	62، 161، 167، 345، 361
فرويد (سيغموند)	62، 63، 86، 94، 121، 128، 129، 166، 256، 387
فريزر (جيمس)	31، 54، 67، 72، 81، 85، 86، 112، 116، 119، 290، 291، 301، 305، 291، 292،300، 313، 322
فلو (أنتوني)	392

فولتير (فرونسوا ماري أرويت)	98، 99، 132، 384
قايين (قابيل ابن آدم)	161
قسطنطين الأول (فلاڤيُس ڤاليريُس)	358
كارليل (ألكسيس)	168
كالفن (ملفن)	404
كامبل (جوزيف)	31
كانط (إيمانويل)	29، 56، 64، 65، 67، 96، 101، 29 ،130
كلين (جورج)	401
كوبرنيكوس (نيكولابلاس)	363
كورهان (أندريه لوروا)	142،143،144،150
كونت (أوجست)	59، 60، 64، 65، 120، 180
كونزلن (جوتفرايد)	365، 368
كونفوشيوس	241
كوهن (ألبرت)	77
لابلاس (ماركيز)	387، 399
لانج (أندرو)	89، 91 ، 112، 126، 256، 302
لوك (جون)	99
لوكريتيوس (كاروس تيتوس)	175
لونج (جي)	84
ليسنر (إيفار)	317
لينان (ماك)	85، 87
لينتون (راليف)	132
ليونتن (ريتشارد)	401
ماخير (شاپر)	51، 66
ماكيافيلي (نيكولا)	362
مالينوفيسكي (برونسيلاف)	183، 247 ، 250
ماركس (كارل)	193، 364، 387
ماي (ميشيل)	56
محمد صلى الله عليه وسلم	232 ، 233، 234، 275، 310
مرنفتاح (بن رعمسيس الثاني)	273
مصطفى (فاروق محمد أحمد)	213
مظهر (سليمان)	123
مورغان (لويس هنري)	84، 116
مسلم (بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري)	170
موس (مارسيل)	303، 304
موسى عليه السلام	222،230،274،296،297، 299، 310
موللر (فردريك ماكس)	4، 32، 66، 34، 53، 77، 78، 79، 108، 226، 254

مونتاغو (آثلي)	125
ميرتون (روبرت)	183
ميشال (باتريك)	396
ميلر (ستانلي)	415
ميلينان (جوهان فريجيسون)	121
مينا (الملك)	269
نوح عليه السلام	256، 257، 263،295
نيتشه (فردريك فيلهلم)	367، 386، 387
نيوتن (إسحاق)	363، 365 409،399،389، 436
هابرماس (يورغان)	367، 365
هابل (أدوين)	410، 411 ،430، 431
هابيل	161
هاربر (توم)	31
هاريس (سام)	394
هايتزبرج (فيرنر كارل)	401، 439
هكل (إرنست)	429
هكسلي (جوليان سوريل)	133
هوبز (توماس)	50، 388
هوبل (دافيد) 313	313
هود عليه السلام	264، 273
هوفيدنج (هارلد)	128، 151
هوكنج (ستيفن)	391، 403، 433، 439
هولويوك (جورج جاكوب) 354	354
هوميروس	2، 245، 253، 271
هيجل (فريدريك)	51، 120، 181،300، 329، 363
هيرودوت	2
هيرودوس الأول	209
هيرونيموس	242
هيك (جون)	199
هيلر (سانت)	174
هيوم (دافيد)	100، 130
ولسن (كولن هنري)	292
وهبه (مراد)	49
ووش (جاكوم)	205
يونج (كارل جوستاف)	18، 63، 166، 442
يونس (عليه السلام	274

فهرس المصطلحات

أثاني278
إخوان الصفا43
أرض أور 221، 265
أستاذ العالم233
الأسطبات208
الإصلاح اللوثري 361
الإلحاد الجديد393
الإلحاد383
الإلكترون (lctron) 439
الآلهة الأم الكبرى 148، 271
أنثربولوجيا الدين 195
الإنسان العاقل138
إنسان بلتداون 429
إنسان نيادرتال 425
الإنفجار الأعظم (Big Bang) 431
أهرمن2، 238
أهورامزدا238، 271
أوتانابشتي258، 259
أور سالم223
البابية 280
الباراسيكولوجية 293
الباليوليت الأعلى 103، 138
الباليوليتي 138
البهائية280
البوذية192، 371
البوذية مهايانا 208
التابو (Taboo) 236
تجربة يوري وميلر 415
التحنيط 202
التصميم الذكي 415
التلمود البابلي222
تمثال شتال حيوك148
ثمود 264
ثوابت بلانك 440
جسيم 439
جنس الهومو (Homo) 425
الجوتشي 454
الحمض النووي (ADN) 417
الحنيفية 276
الدراونة 92
درب الصليب 370
الدرباء 233
الدمى العشتارية 145
دمية عشتار لاوسيل 145
دمية ليسبوغ 146
دمية ويلندوروف 146
دهن الميرون المقدس 208
الذرة (Atom) 437
الرتق 435
الزقورات 201

زيسودرا
(Zisudra)
258، 259
الزيولوجي 117
السجل الأحفوري
424
السنسكريتية33
ضد الدين393
طائفة شهود يهوه
375
الطوطم 80
عاد 264
العشاء الرباني214
العصر الكمبري
423
العصر النيولوتي
141
العلَم 352
الغرب 352
الفتشة (الفتشية)
120
الفتق 435
الفضائل
الكونفوشيوسية
242
الفطرة 164
القاديانية 280
القرابين 212
القوانين 65
الكنيس 208
الكهنوت 353
الكوارك 442
لادينيين 393
لائكي 354
المانا 312
المحامد 233
المجوسية 372
المخيال 335
مسلي 233
المشنا222
مضادات المادة
443
المعاني 65
الميثولوجيا 244
الميلانزيون 103
نظرية الاحتمال
400
نظرية الكوانتم
438
نظرية النسبية الخاصة
والعامة
النواة 442
النيادرتال139
النيرفانا201
الهندوسية 371
هيكل203
الولي 295

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس .
- ابن الأثير (الجزري) : أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط1، دار ابن حزم، 1433ه، 2012م .
- أرمسترونج (كارين) :
- النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، تر : محمد الجورا، ط1، دمشق : دار الكلمة، 2005م
- تاريخ الكتاب المقدس، تر: محمد صفار، ط1، مصر الجديدة: مكتبة الشروق الدولية، 1431ه، 2010م .
- اسبينوزا (باروخ) : رسالة في اللاهوت والسياسة، تر: حسن حنفي، ط4، بيروت: دار الطليعة، 1997م .
- إسماعيل (محمد الحسيني) : الإنسان والدين ولهذا هم يرفضون الحوار، ط 1، القاهرة : مطبعة وهبه، 1424ه، 2004م .
- إقبال (محمد) : تجديد الفكر الديني في الإسلام، تر: عباس محمود العقاد، ط2، در الهداية، 2000م .
- الأشقر (عمر سليمان) : عالم السحر والشعوذة، ط4، دار النفائس، 1422ه، 2002م .
- الأصفهاني (أبي الفرج) : كتاب الأغاني، القاهرة : مطبعة دار الكتب المصرية، 1935م .
- الأصفهاني (الراغب) : المفردات في غريب القرآن، تح : محمد خليل غيتاني، ط 1، بيروت : دار المعرفة، 1998م .
- ألفا (روني إيليا) : موسوعة أعلام الفلسفة، مؤسسة الرسالة، 1422ه، 2001م .
- إلياد (مرسيا) :
- البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، تر: سعود المولى، ط 1، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م .
- المقدس والعادي، تر : عادل العوا، بيروت : دار التنوير، 2009م .
- مظاهر الأسطورة، تر : نهاد خياطة، دمشق، 1987م .
- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تر: عبد الهادي عباس، ط1، دمشق : مطابع الشام، 1986 .
- إمام (محمد) : معجزات الأنبياء، القاهرة : الحرية للنشر والتوزيع .
- أوتو (رودلوف) : فكرة القدسي، ط1، دار المعارف الحكمية، 1431ه، 2010م .
- بارندر (جفري) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والأدب، 1993م .
- باقر الصدر (محمد) : المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر، بيروت : دار التعارف، 1990م .
- بايه (ألبير) : أخلاق الإنجيل (دراسة سوسيولوجية)، تر: عادل العوا، دمشق : دار الحصاد .

- بركات (حليم) : المجتمع العربي في القرن العشرين (بحث في تغير الأحوال والعلاقات)، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م .
- بشارة (عزمي) وآخرون :
- حول الخيار الديموقراطي : دراسات نقدية (مدخل لمعالجة الديموقراطية وأنماط التدين)، رام الله : واطن .
- الدين والعلمانية في سياق تاريخي(الدين والتدين)، ط1، بيروت : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
- البغدادي (عبد القاهر) : الفرق بين الفرق (وبيان الفرقة الناجية منهم، عقائد الفرق الإسلامية وآراء كبار أعلامها)، تح : محمد عثمان الخشت، القاهرة : مكتبة ابن سينا .
- بوكاي (موريس) : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، تر: حسن خالد، ط3، بيروت : المكتب الإسلامي، 1411ه، 1990م .
- بونز (جورج) : معجم الحضارة المصرية القديمة ، ترجمة : أمين سلامة ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م .
- بيجوبيتش (علي عزت) : الإسلام بين الشرق والغرب، تر: محمد يوسف عدس، ط 1، بيروت : مؤسسة العلم الحديث، 1414ه، 1994م .
- البيروني (محمد) : العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، تح: محمد الشرقاوي، القاهرة : دار الصحوة للنشر .
- بيهي (مايكل) : صندوق داروين الأسود، (تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور)، تر: مؤمن الحسن، أسامة إبراهيم، زيد الهبري وآخرون، ط1، مصر: دار الكتاب، 2014م .
- بيومي (محمد) : علم الاجتماع الديني، الإسكندرية : دار المعرفة، 1981م .
- إلياد (مرسيا) :
- البحث عن التاريخ والمعنى في الدين، تر: سعود المولى، ط 1، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م .
- المقدس والعادي، تر : عادل العوا، بيروت : دار التنوير، 2009م .
- مظاهر الأسطورة، تر : نهاد خياطة، دمشق، 1987م .
- تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية، تر: عبد الهادي عباس، ط1، دمشق : مطابع الشام، 1986 .
- إمام (محمد) : معجزات الأنبياء، القاهرة : الحرية للنشر والتوزيع .
- أوتو (رودلوف) : فكرة القدسي، ط1، دار المعارف الحكمية، 1431ه، 2010م .
- بارندر (جفري) : المعتقدات الدينية لدى الشعوب، تر: إمام عبد الفتاح إمام، الكويت : المجلس الوطني للثقافة والأدب، 1993م .
- باقر الصدر (محمد) : المجموعة الكاملة لمؤلفات السيد محمد باقر الصدر، بيروت : دار التعارف، 1990م .
- بايه (ألبير) : أخلاق الإنجيل (دراسة سوسيولوجية)، تر: عادل العوا، دمشق : دار الحصاد .

- بركات (حليم) : المجتمع العربي في القرن العشرين (بحث في تغير الأحوال والعلاقات)، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية، 2000م .
- بشارة (عزمي) وآخرون :
- حول الخيار الديموقراطي : دراسات نقدية (مدخل لمعالجة الديموقراطية وأنماط التدين)، رام الله : واطن .
- الدين والعلمانية في سياق تاريخي(الدين والتدين)، ط1، بيروت : المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- بوكاي (موريس) : التوراة والإنجيل والقرآن والعلم (الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة)، تر: حسن خالد، ط3، بيروت : المكتب الإسلامي، 1411ه، 1990م .
- بونر (جورج) : معجم الحضارة المصرية القديمة ، ترجمة : أمين سلامة ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م .
- بيجوبيتش (علي عزت) : الإسلام بين الشرق والغرب، تر: محمد يوسف عدس، ط 1، بيروت : مؤسسة العلم الحديث، 1414ه، 1994م .
- البيضاوي (ناصر الدين) : أنوار التنزيل وأسرار التأويل (تفسير البيضاوي)، بيروت : دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي .
- بيهي (مايكل) : صندوق داروين الأسود، (تحدي الكيمياء الحيوية لنظرية التطور)، تر: مؤمن الحسن، أسامة إبراهيم، زيد الهبري وآخرون، ط1، مصر: دار الكتاب، 2014م .
- بيومي (محمد) : علم الاجتماع الديني، الإسكندرية : دار المعرفة، 1981م .
- الترمذي (محمد) : الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية، تح : سيد بن عباس جميلي، ط 1، مكة المكرمة : المكتبة التجارية، 11413ه، 1993م .
- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم) : العبودية، ط1، القاهرة : دار أضواء السلف المصرية، 1431ه، 2010م
- الجابري (محمد عابد) : المنهاج التجريبي وتطور الفكر العلمي، ط2، بيروت : دار الطليعة، 1982م .
- جابه (رابح) : القرآن والعلم (فلسفة حتمية إيمان العالم)، الجزائر: دار المعرفة، 2008م .
- جاد الله (منال عبد المنعم) : التصوف في مصر والمغرب، الإسكندرية : منشأة المعارف .
- الجرجاني (عبد القاهر) : معجم التعريفات، تح : محمد صديق المنشاوي، القاهرة: دار الفضيلة .
- الجزائري (أبو بكر جابر) : عقيدة المؤمن، ط1، باتنة : دار الشهاب .
- جعفر (محمد كمال) : في الدين المقارن، الإسكندرية : دار الكتب الجامعية، ص1970م .
- الجهني (مانع حماد) : الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، ط4، دار الندوة العالمية، 1420ه.
- الجوزية (ابن القيم) : هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، بيروت: دار الكتاب العربي، 1426ه، 2005م .

- الجوهري (إسماعيل بن حماد) : الصحاح، تح : أحمد عبد الغفور عطار، ط3، بيروت : دار العلم للملايين، 1984م .

- جيمس (ويليام) :

- إرادة الاعتقاد، تر: محمود حب الله، مصر: دار إحياء الكتب العربية، 1365ه، 1946م .

- حركات (إبراهيم) : المغرب عبر التاريخ، ط1، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة، 2009م .

- حلمي (مصطفى) : الإسلام والأديان (دراسة مقارنة)، ط 1، بيروت : دار الكتب العلمية، 424ه، 2004م .

- حمداوي (جميل) : الديانة عند الأمازيغيين، شبكة الألوكة .

- حمصي (حسن) : الإيمان بالله (سلسلة شعب الإيمان)، دمشق : دار الرشيد، 1395ه، 1975م .

- الحوالي (سفر) : وباء العلمانية، ط1، البليدة : دار ابن تيمية، 1988م .

- خان (وحيد الدين) :

- الإسلام يتحدى (مدخل علمي إلى الإيمان)، تر: ظفر الإسلام خان، تح : عبد الصبور شاهين، الكويت: المختار الإسلامي، 1974م .

- الدين في مواجهة العلم، تر: ظفر الإسلام خان، ط4، بيروت: دار النفائس، 1407ه، 1987م .

- الخرائطي (محمد) : مكارم الأخلاق ومعاليها ومحمود طرائقها، تح : عبد الله بن محاش الحميري، ط 1، الرياض: مكتبة الرشد، 1427ه، 2006م .

- الخريجي (عبد الله) : علم الاجتماع الديني، ط2، جدة : رامتان، 1410ه، 1990م .

- الخزرجي (عصام) : نبوءات الكتب المقدسة في ضوء اعترافات اليهود والنصارى، ط 1، بيروت: دار المقتبس، 1435ه، 2014م .

- الخشاب (أحمد) : علم الاجتماع الديني، القاهرة : مكتبة القاهرة الحديثة .

- الخشاب (مصطفى) : أوجست كونت، ط1، مطبعة لجان البيان العربي .

- الخطيب (محمد) :

- الإثنولوجيا، دراسة عن المجتمعات البدائية، دار علاء الدين للنشر والتوزيع .

- مقارنة الأديان، ط1، عمان : دار المسيرة، 1428ه، 2008م .

- الخطيب (محمد شحات) : أصول التربية الإسلامية، الرياض : دار الخريجي، 1995م .

- ابن خلدون (عبد الرحمن) : المقدمة، بيروت : دار الفكر، 1431ه، 2001م .

- الخلف (سعود) : دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ط1، الرياض: أضواء السلف، 1418ه، 1997م .

- خليفة (فريال) : الدين والسلام عند كانط، ط1، القاهرة : مصر العربية للنشر والتوزيع، 2001م .

- دارن شِرْكات، كريستوفر إلّيسون، رودناي ستارك، لورانس إياناكوني : السوق الدينية في الغرب، تر: عز الدين عناية، دمشق : دار صفحات، 2012م .
- داروين (تشارلس) : نشأة الانسان والانتقاء الجنسي، تر: مجدي محمود المليجي، ط 1، القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة، 2005م .
- دراز (محمد عبد الله) : الدين (بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان)، الكويت : دار القلم .
- دغيم (سميح) : أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ط1، بيروت : دار الفكر اللبناني، 1995م.
- دلماس (كلود) : تاريخ الحضارة الأوربية، تر : توفيق وهبة، ط2، دار عويدات : بيروت، 1982م .
- دومون (لويس) : مقالات في الفردانية (منظور أنثر بولوجي للأيديولوجية الحديثة)، تر: بدر الدين عردوكي، ط1، بيروت : المنظمة العربية للترجمة، 2006م .
- ديدات (أحمد) : عتاد الجهاد والرد على خصوم الإسلام بالحجج والبرهان، تر: علي الجوهري، القاهرة : دار الفضيلة .
- ديفز (أوين) : السحر(مقدمة قصيرة جدا)، تر: رحاب صلاح الدين، ط 1، القاهرة : مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2014م .
- ديمبسكي (ويليام)، وويلز (جوناثان) : تصميم الحياة (اكتشاف علامات الذكاء في النظم البيولوجية)، تر : موسى إدريس، مؤمن الحسن، محمد القاضي، ط1، مصر : دار الكاتب، 2014م.
- ديوانت (وول) : قصة الحضارة (نشأة الحضارة)، تر: زكي نجيب محمود، بيروت: دار الجيل .
- الذهبي (محمد بن أحمد) : سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، 1422ه، 2001م .
- راتب النابلسي (محمد) : موسوعة النابلسي، (السحر وأنواعه)، 25- 07-2004م، www.nabulsi.com/blue/ar/art.php?art=6048
- الرازي (فخر الدين) : التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ، ط1، بيروت : دار الفكر، 1401ه، 1981م .
- الرازي (محمد) : مختار الصحاح، مكتبة لبنان، 1986م .
- رسلان (صلاح الدين بسيوني) : السياسة والاقتصاد عند ابن خلدون، WWW .Kotobàrabia.com .
- رشيق (حسن) : المعرفة المشتركة في حياة الناس اليومية : اللباس والتدين، مجلة عمران، عدد6، 2012م .
- رضا (محمد رشيد) : تفسير المنار ط 2، القاهرة : دار المنار، 1367ه، 1947م .
- الزحيلي (محمد) : وظيفة الدين في الحياة وحاجة الناس إليه، ط 1، دمشق : جمعية الدعوة الاسلامية العالمية، 1991م .
- الزركلي (خير الدين) : الأعلام، ط15، دار العلم للملايين، 2002 .

- الزمخشري (أبو القاسم جار الله محمود) : أساس البلاغة، تح : محمد بابل عيون السود، ط 1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1419ه، 1998م.
- زكرايس (رافي) : الوجه الحقيقي للإلحاد، تر : ماريانا كتكوت، رؤية للطباعة، 2004م .
- زكريا (إبراهم) : كانط أو الفلسفة النقدية، القاهرة : مكتبة مصر، 1972م .
- زكريا الأنصاري) : حاشية خاتمة الشرقاوي على شرح التحرير، ط3، التركي، دار عالم الكتب، 1417ه
- أبو زهرة (محمد) : محاضرات في النصرانية، ط 4، الرياض : الرئاسة العامة لإدارة البحوث العالمية والافتاء والدعوة والارشاد، 1404ه .
- الساموك (سعدون) : هدى علي الشمري، الأديان في العالم، عمان : دار المناهج، 2014م .
- ستيس (ولتر) : الدين والعقل الحديث، تر : إمام عبد الفتاح، ط1، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1998 .
- السرجاني (محمد راغب) : قصة العلمانية، أقلام للنشر والتوزيع، 2012م .
- سروش (عبد الكريم) : القبض والبسط في الشريعة، تر: دلال عباس، ط1، بيروت : دار الجديد، 2002م
- السعدي (طارق خليل) : مقارنة الأديان (دراسة في عقائد مصادر الأديان السماوية والوضعية)، ط 1، بيروت : دار العلوم العربية، 1425، 2005م .
- السعدي (عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله) :
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي)، تح : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط 1، مؤسسة الرسالة، 1423ه، 2002م .
- أصول العقائد الدينية، ط1، القاهرة : دار ابن الجوزي، 1424ه .
- سعيد (حبيب) : أديان العالم، القاهرة : دار النشر للكنيسة الأسقفية، 1977م .
- أبو السعود (صلاح) : قصة الطوفان (في نصوص الأسطورة والتوراة والقرآن)، ط 1، مصر: مكتبة النافذة، 2010م .
- السواح (فراس) :
- الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثيلوجيا والديانات المشرقية)، ط2، دمشق: دار علاء الدين .
- دين الإنسان (بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني)، ط4، دمشق : دار علاء الدين، 2002م.
- لغز عِشتار (الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة)، ط1، دمشق : دار علاء الدين، 1985م.
- الشرقاوي (محمد عبد الله) : في مقارنة الأديان (بحوث ودراسات)، ط 2، بيروت: دار الجيل، 1410ه، 1990م .
- شتراوس (كلود ليفي) : الأنثربولوجيا البنيوية، تر: مصطفى صالح، دمشق : منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1977م .
- شريف (عمرو) :

- خرافة الإلحاد، ط1، مصر الجديدة : مكتبة الشروق الدولية، 1435ه، 2014م .
- وهم الإلحاد (مقدمة محمد عمارة)، الأزهر، 1435ه، 2013م .
- الشعراوي (محمد متولي) : السحر والحسد، أخبار اليوم (مكتبة الشعراوي الإسلامية) .
- معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، تح : أحمد الزغبي، ط1، دار القلم .
- شعراوي (عبد المعطي) : أساطير إغريقية، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982م .
- الشنقيطي (محمد الأمين) : تفسير القرآن بالقرآن من أضواء البيان، ط 1، السعودية : دار الفضيلة، 1426ه، 2005م .
- الشهرستاني (محمد) : الملل والنحل، ط2، بيروت : دار الكتب العلمية، 1413ه، 1992م .
- الشهري (عبد الله بن سعيد) : ثلاث رسائل في الإلحاد والعلم والإيمان، ط1، مركز نماء، 2014م.
- الصابوني (محمد علي) : النبوة والأنبياء، بيروت : المكتبة العصرية، 1432ه، 2011م .
- الصفار (حسن) : التدين بين المظهر والجوهر، ط1، السعودية : دار أطياف للنشر والتوزيع، 2012 م .
- صليبيا (جميل) : المعجم الفلسفي، لبنان : دار الكتاب اللبناني،1982 م .
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) : جامع البيان في تأويل القرآن، تح : أحمد ومحمود شاكر، دار المعارف.
- طرابشي (جورج) : معجم الفلاسفة (الفلاسفة، المناطقة، المتكلمون، اللاهوتيون، المتصوفون)، ط3، بيروت : دار الطليعة، 2006م) .
- طلعت (هيثم) : العودة إلى الإيمان، ط1، مصر : دار الكاتب، 2014م .
- الطويلة (عبد الوهاب) : الكتب المقدس في ميزان التوثيق، ط2، القاهرة: دار السلام، 1423ه، 2002م .
- ماهر وزادة (طيبة) : العلمانية والعصرانية (دراسة على ضوء الأسس الفلسفية والاجتماعية)، تر : عبد الرحمان العلوي، ط1، لبنان : دار الهادي، 2006م .
- العامري (سامي) : محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب المقدسة عند النصارى واليهود والهندوس والصابئة والبوذيين والمجوس، القاهرة : مركز التنوير الاسلامي، 2006م .
- عاشور (محمد) : الختان في الشرائع السماوية والوضعية، دار الإتحاد العربي للطباعة .
- ابن عاشور (محمد الطاهر) :
- مقاصد الشريعة الإسلامية، قطر : وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1425، 2004م .
- تفسير التحرير والتنوير، تونس : الدار التونسية للنشر، 1984م .
- عبد الباقي (زيدان) : علم الاجتماع الديني، الفجالة : مكتبة غريب.
- عبد الحفيظ (محمد) : الفلسفة والاعتقاد الديني (وليم جيمس نموذجا)، ط 1، الإسكندرية : دار الوفاء، 2005م .
- عبد الرازق (مصطفى) : الدين والوحي والإسلام، القاهرة: مؤسسة هنداوي، 2014 .

- عبد الرحمان (خليل) : أفستا الكتاب المقدس للديانة الزرادشتية، ط 2، دمشق : رواد الثقافة والفنون، 2008م .
- عبد الرحمن (طه)، روح الدين(من ضيق العلمانية إلى سعة الإئتمانية)، ط 2، لبنان : بيروت، المركز الثقافي العربي، 2012م .
- عبد الله (حسين نور) : الإنسان والأديان (من علة الآخر؟) .
- عبد الملك (بطرس)، جون ألكسندر، إبراهيم مطر وآخرون : قاموس الكتاب المقدس، القاهرة: دار الثقافة، 1995م.
- عبد الوهاب (أحمد): الإسلام والأديان الأخرى(نقاط الاتفاق والاختلاف)، مكتبة التراث الإسلامي .
- المسيري (عبد الوهاب) : العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، ط1، القاهرة : دار الشروق، 2002م.
- عبده (محمد) :
- الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده (الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات)، تح : محمد عمارة، ط1، بيروت : دار الشروق، 1414ه، 1993م .
- عبده (محمد) :
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، ط2، مصر القديمة : مطبعة المنار، 1350ه .
- رسالة التوحيد، تح : محمد عمارة، ط1، القاهرة : دار الشروق، 1414ه، 1994م .
- ابن عثيمين (محمد) : القول المفيد على كتاب التوحيد، ط1، الرياض : دار العاصمة، 1415ه .
- عجيبة (أحمد علي) : دراسات في الأديان الوثنية القديمة، ط1، القاهرة : دار الآفاق العربية، 2004م .
- العجيري (عبد الله) : ميليشيا الإلحاد (مدخل لفهم الإلحاد الجديد)، ط 2، لندن : تكوين للدراسات والأبحاث، 1435ه، 2014م .
- ابن عربي (محيي الدين) :
- الفتوحات المكية، تح: عثمان يحي، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1405ه، 1985م .
- شرح فصوص الحكم من كلام الشيخ الأكبر ابن عربي، تح: محمود محمود الغراب، مطبعة زيد بن ثابت، 1405ه/ 1985م .
- أبو العطا (فرج الله عبد الباري) : نشأة الدين والتدين بين التوحيد والتطور، ط 2، كفر الشيخ : مكتبة الأزهر الحديثة بطنطا، 1422ه، 2002م .
- ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب) : المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت : دار بن حزم، 1423ه .
- العسقلاني (ابن حجر) :
- الإصابة في تمييز الصحابة، تح : علي محمد بجاوي، ط1، بيروت : دار الجيل، 1412ه.

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد : دائرة المعارف العثمانية، 1349ه .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الريان للتراث، 1407ه، 1986م .
- العقاد (عباس محمود) : الله (كتاب نشأة العقيدة الإلهية)، منشورات المكتبة العصرية .
- علي (جواد) : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (أديان العرب قبل الإسلام)، ط 2، بيروت : 1413ه، 1993م، ج6 .
- عمارة (محمد) :
- الإسلام والغرب...افتراءات لها تاريخ، ط1، مصر : مركز الإعلام العربي، 1427ه، 2006م .
- الإصلاح بالإسلام (معالم المشروع الحضاري لمحمد عبده)، ط 1، القاهرة : شركة نهضة مصر، 2006م .
- مقالات في الغلو الديني واللاديني، ط1، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، 1424ه، 2004م .
- الظاهرة الإسلامية، القاهرة : المختار الإسلامي .
- الغزالي (أبو حامد) : الاقتصاد في الاعتقاد، ط1، دمشق : دار قتيبة، 1423ه، 2003م .
- الغزالي (محمد) :
- علل وأدوية، ط3، باتنة : دار الشهاب، 1406ه، 186م .
- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ط7، مصر : نهضة مصر، 2005م .
- غيبة (حيدر) : هكذا تكلم العقل (المفهوم العقلاني للدين)، ط2، بيروت : دار الطليعة، 2003م.
- غيث (محمد عاطف) : قاموس علم الاجتماع، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 2006م .
- الفارابي (أبو نصر محمد) : كتاب الملة ونصوص أخرى، تح : محسن مهدي، ط 2، بيروت : دار المشرق، 1991م .
- ابن فارس (أبو الحسن أحمد) : معجم مقاييس اللغة، تح : محمد هارون، دار الفكر، 1979م .
- فرالن (ألن) (ونخبة من العلماء الأمريكيين) : الله يتجلى في عصر العلم، تر: الدمرداش عبد المجيد سرحان، بيروت: دار القلم .
- فروم (إريك) :
- الإنسان بين الجوهر والمظهر، تر : سعد زهران، الكويت : عالم المعرفة، 1989م .
- الدين والتحليل النفسي، تر : فؤاد كامل، الفجالة : مكتبة غريب، 2003م .
- فرويد (سيغموند) :
- مستقبل وهم، تر: جورج طرابيشي، ط1، بيروت: دار الطليعة، 1973م .
- موسى والتوحيد، تر : جورج طرابيشي، بيوت : دار الطليعة، 1986م .
- فريزر (جيمس) : الغصن الذهبي (دراسة في السحر والدين)، تر : أحمد أبو زيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971م .

- فريق من المؤلفين :

- خلق لا تطور(الإنسان ابن آدم وليس ابن قرد)، تر :إحسان حقي، دار النفائس، تر: إحسان حقي، دار النفائس .

- فيبر (ماكس) : الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، تر: محمد علي مقلد، لبنان : مركز الإنماء القومي .

- الفيروزآبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب) : القاموس المحيط، تح : محمد نعيم العرقسوسي، ط 8، الرسالة، 1426ه، 2005م .

- القرافي (شهاب الدين) : الفروق، تح : عمر حسن القيام، ط 1، بيروت : مؤسسة الرسالة ناشرون، 1424ه، 2003م .

- القرضاوي (يوسف) :

- الحياة الربانية والعلم (تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة)، مكتبة وهبة، 2007م .

- الدين في عصر العلم، ط1، عمان : دار الفرقان، 1417ه، 1996م .

- القرطبي (شمس الدين) : الجامع لأحكام القرآن، تح : عبد الله التركي، ط 2، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384ه، 1964م .

- القصاص (مهدي محمد) : علم الاجتماع الديني، القاهرة : دار نيوز، 2014م .

- قطب (سيد) : المستقبل لهذا الدين، ط14، القاهرة : دار الشروق، 1993م، 1413ه .

في ظلال القرآن، ط15، القاهرة : دار الشروق .

- قطب (محمد) :

- دراسات في النفس الإنسانية، القاهرة : دار الشروق : 2005م .

- مذاهب فكرية معاصرة، ط1، دار الشروق، 1403ه، 1983م، ص272 .

- القمني (سيد) : قصة الخلق، ط2، المركز المصري لبحوث الحضارة، 1999م .

- كانط (إيمانويل) : الدين في حدود مجرد العقل، تر: فتحي المسكيني، ط 1، بيروت: الجداول للنشر والتوزيع، 2012م .

- ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) :

- تفسير القرآن العظيم، ط1، بيروت : دار الكتب العلمية، 1419ه، 1998م .

- البداية والنهاية، ط6، بيروت : مكتبة المعارف، 1410ه، 1990م .

- الكفومي (أبو البقاء) : الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، ط 2، بيروت : الرسالة ناشرون، 1419ه، 1998م .

- ابن الكلبي (أبو المنذر هشام بن محمد) : الأصنام، تح : أحمد زكي باشا، ط 3، القاهرة : دار الكتب المصرية، 1995م .

- كوتل (آرثر) : قاموس أساطير العالم، تر : سهى الطريحي، دمشق : دار نينوى، 1430ه، 2010م .

- كونج (إيفان) : السحر والسحرة عند الفراعنة، تر: فاطمة عبد الله محمود، ط 1، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1999م .

- كونزلن (جوتفرايد) : مأزق المسيحية والعلمانية (شهادة ألمانية)، تقديم : محمد عمارة، ط 1، مصر : دار النهضة، 1999م .

- الكيلاني (شمس الدين) : من العود الأبدي إلى الوعي التارخي (الأسطورة .الدين.الإيديولوجيا. العلم)،ط 1، بيروت : دار الكنوز الأدبية، 1998م .

- لاغريه (جاكلين) : الدين الطبيعي، تر: منصور القاضي، ط 1، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1993م .

- لايتون (أندريه) : إدغار ويند، وكارل غوستاف يونغ : الأصول الوثنية للمسيحية، تر: سميرة عزي الدين، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية .

- لوقا (نظمي) : الله (أساس المعرفة والأخلاق عند ديكارت)، القاهرة : المطبعة الفنية الحديثة، 2003م.

- الماجدي (خزعل) :

- أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، ط1، عمان (الأردن) : دار الشروق، 1997م .

- الآلهة الكنعانية، ط1، عمان : دار أزمنة، 1999م .

- الدين المصري، ط1، عمان : دار الشروق، 1999م .

- بخور الآلهة (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين)، ط1، لبنان : الأهلية للنشر والتوزيع، 1998م

- مبيض (يسر) : اليوم الآخر في الأديان السماوية والديانات القديمة، ط 1، الدوحة : دار الثقافة، 1412ه، 1992م .

- مجمع اللغة العربية : المعجم الوسيط، ط4، القاهرة : مكتبة الشروق الدولية، 2004م .

- مجموعة من العلماء : الموسوعة العربية العالمية، ط2، مؤسسة أعمال الموسوعة، 1999م .

- مجموعة من العلماء : الموسوعة العربية الميسرة، ط1، بيروت : المكتبة العصرية، 1431ه، 2010م .

- مجموعة من العلماء : الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، بيروت : دار الطليعة، 1983م .

- محمد (علي عبد المعطي) : الفكر السياسي الغربي، الإسكندرية : دار الجامعات المصرية، 1974م.

- مراد (سعيد) : المدخل في تاريخ الأديان، الهرم : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، 2000م

- المرزوقي (حمد) : أفي الله شك (بحث في علاقة العلم بالإيمان)، ط 1، بيروت: بيسان، 2004م .

- مركز نون للتأليف والترجمة : لا بديل عن الدين (دروس من فكر الشهيد مطهري- تلخيص وتحرير)، ط1، 1424ه، 2004م، www .al maaref.org، 1424ه، 2004م .

- مزروعة (محمود) : مذاهب فكرية معاصرة (عرض ونقد)، ط1، 2004م .

- المسيري (عبد الوهاب) : الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، ط2، دمشق : دار الفكر، 2003م .
- المشهداني (سعدون) : أثر النص المقدس في منظومة القيم، ط 1، الأردن : دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، 1010م .
- المغلوث (سامي عبد الله) :
- أطلس تاريخ الأنبياء والرسل، ط6، الرياض : مكتبة العبيكان، 1426ه، 2005م .
- أطلس الأديان، ط1، الرياض: مكتبة العبيكان، 1428ه، 2007م .
- الموحي (عبد الرزاق) : العبادات في الأديان السماوي (اليهودية- المسيحية- الاسلام) ، ط 1، دمشق : الأوائل، 2001م .
- مسلان (ميشال) : علم الأديان (مساهمة في التأسيس)، تر: عز الدين عناية، ط 1، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1430ه، 2009م .
- مصطفى (عبد العزيز) : كتاب البيان (دمعة على التوحيد :حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة)، ط 3، الرياض: المنتدى الإسلامي، 1422ه، 2002م .
- مظهر (سليمان) : قصة الديانات، القاهرة : مكتبة مدبولي، 1415ه، 1995م .
- مقار (شفيق) : السحر في التوراة والعهد القديم، ط1، لندن : دار رياض الريس،ط1، 1990 .
- ملكيان (مصطفى) : العقلانية والمعنوية (مقاربات في فلسفة الدين)، تر: عبد الجبار الرفاعي وحيدر نجف، ط1، بغداد : مركز دراسات فلسفة الدين، 2012م .
- منديب (عبد الغني) : الدين والمجتمع (دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب)، المغرب : أفريقيا الشرق، 2006م .
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين) : لسان العرب، ط5، بيروت: دار صادر .
- مهران (محمد بيومي) : دراسة حول قصة الطوفان بين الآثار والكتب المقدسة، السعودية : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الإجتماعية، عدد5)، 1395ه، 1975م .
- موسوعة لاروس : (ديانات العالم)، تر: أنطوان الهاشم، بيروت : عويدات للنشر والطباعة، 2009م .
- موسى (معيرش) ومجموعة مؤلفين : في سؤال العلمانية (الإشكالات التاريخية والآفاق المعرفية)، ط 1، بيروت : دار الروافد الثقافية- ناشرون .
- ناي (مالوري) : الدين : الأسس، تر: هند عبد الستار، ط 1، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2009م.
- بن نبي (مالك) :
- الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبور شاهين، ط1، الجزائر: دار الوعي، 1434ه، 2013م .
- شروط النهضة، سورية : دار الفكر، 2009م .

- النجار (زغلول) : السماء في القرآن الكريم (من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، ط 3، بيروت : دار المعرفة، 1426ه، 2005م .

- النجار (عبد المجيد) : في فقه التدين فهما وتنزيلا، ط1، قطر : كتاب الأمة، 1410ه .

- نجيب (عمارة) : الإنسان في ظل الأديان، ط5، القاهرة : المكتبة التوفيقية، 1976م .

- الندوي (أبو الحسن) : رسالة سيرة النبي الأمين إلى إنسان القرن العشرين، ط1، لكناؤ (الهند): المجلس الإسلامي العلمي، 1417ه، 1996م .

- النشار (علي سامي) : نشأة الدين (النظريات التطورية والمؤلهة)، مصر: مكتبة الخانجي، 2005م .

- النووي (يحيى بن شرف) : صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة : دار الخير، 1416ه، 1996م.

- الهاشمي (طه) : تاريخ الأديان وفلسفتها، ط1، بيروت : دار مكتبة الحياة، 1963م .

- ابن هشام (عبد الملك الحميري) : السيرة النبوية، جدة : مؤسسة علوم القرآن .

- نعمة (حسن) : ميثولوجيا أساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة، بيروت : دار الفكر اللبناني، 1994 .

- هابرماس (يورغن) : مستقبل الطبيعة الإنسانية، تر: جورج كتورة، ط 1، بيروت : المكتبة الشرقية، 2006م .

- هاموند (ريتشارد) : من الكواركات إلى الثقوب السوداء (مساءلة الكون)، تر: ضحى الخطيب، ط 1، بيروت : المنظمة العربية للترجمة، 2009م .

- هشام (شراد) : في سؤال العلمانية (النموذج العلماني الفرنسي من معاداة الكاثوليكية إلى الإسلاموفوبيا) .

- هوبز (توماس) : اللقياثات (الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة)، تر: ديانا حرب وبشرى صعب، ط1، أبو ظبي : دار الفارابي، 1432ه، 2011م، هبة أبو ظبي للثقافة والتراث .

- هوتسمان، أرنئولد، باسيت وهارتمان : دائرة المعارف الإسلامية، تح: إبراهيم خورشيد، أحمد الشنتاوي وآخرون، ط1، الشارقة: مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1418ه، 1998م .

- هوكنج (ستيفن) : تاريخ موجز للزمن، (من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء)، تر: مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- هويدي (فهمي) : التدين المنقوص، ط1، بيروت : دار الشروق، 1414ه، 1994م .

- هيجل (فردريك) : محاضرات فلسفة الدين (مدخل إلى فلسفة الدين)، تر: مجاهد عبد المنعم، ط 1، القاهرة : دار الكلمة، 2001م .

- وافي (علي عبد الواحد) :

- الطوطمية أشهر الديانات البدائية، القاهرة : دار المعارف، 1995م .

- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، القاهرة : دار النهضة ، 1984م .

- وصفي (عاطف) : الأنتربولوجيا الثقافية، بيروت : دار النهضة العربية .

- الوكيلي (يونس)، بن مصطفى (عكاشة)، الجيلاني (محمد): إشكالية الدين والتدين (أسئلة مقاربات نماذج)، مؤسسة مؤمنون بلا حدود، 2014 .

- ولسن (كولن) : الإنسان وقواه الخفية (دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للصول إلى ما وراء الحاضر)، تر: سامي خشبة، ط2، بيروت : دار الآداب، 1978 .

- وهبه (مراد) : المعجم الفلسفي، ط1، القاهرة : دار قباء الحديثة، 2007م .

- ويلز (جوناثان) : أيقونات التطور علم أم خرافة، تر : أحمد ماحي، مؤمن الحسن، مركز براهين لدراسة الإلحاد ومعالجة النوازل العقدية .

- ياسين (عبد الجواد) : الدين والتدين (التشريع النص الاجتماع)، ط 1، بيروت : التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 2012م.

- يونغ (كارل غوستاف) : الدين في ضوء علم النفس، تر: نهاد خياطة، دمشق، 1988م .

الدوريات :

- جريدة السفير : 30 محرم، 1412ه .

- مجلة البيان : سلمان الظفيري، علماء الشيعة والنسب الهاشمي، ، محرم 1423ه، أفريل 2002م، عدد رقم 173 .

- مجلة البيان، 1422-2002م .

- مجلة التشريع الإسلامي والأخلاق : عدد65، ربيع 2014م .

- مجلة الدوحة : عدد 66، أفريل 2013م، ص42- 43 ،

- مجلة الواحات للبحوث والدراسات : عدد11، 2013م .

- مجلة عالم الفكر : عدد1، 1972م .

- مجلة عمران للعلوم الاجتماعية والإنسانية : عدد6، م1، 2012م .

- مجلة كلية دار العلوم : عدد خاص .

ندوات : – لافي الحرازين (مصطفى)، لوكيلي (يونس)، منديب (عبد الغني)، أحجيج (حسن)، الغيلاني (محمد)، بن عكاشة (مصطفى)، فازيو (نبيل)، إدالكوس (عبد الله)، راجعي (مصطفى)، أعراب (عبد الهادي)، الغرابلي (فؤاد) : ندوة علمية بعنوان : الدين والتدين: مقاربات معرفية في الأنماط الاجتماعية للدين (مداخلة : ما هو التدين؟ قراءة نقدية في ثنائية الثابت والمتغير)، قسم الدراسات الحداثية للدين، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، الرباط، المغرب، 5- 6 أكتوبر 2013 .

المصادر والمراجع الأجنبية :

- A Dictionary of the Bible. W. R. F. Browning. Oxford University Press, 1997.

-Adolf Earman : Die agyptische religion, berlin:new York puplic library,1905 .
-Alper Bilgili : (post-Secular Society and the Multi-Vocal Religiou Sphere in Turkey European Perspectives- Journal on European PersPectives of the Western Balkans, , October2011 .
- Andrewlang, Myth retual and religion, New york : Cosimo, 2005
-Chatel : le code de l' hmanite ou l' huminite' ramenee' a la connaisance de vrai Dieu et veritable socilisme, 1 edition , paris chez l'auteur, 1838 .
-David snydrer : The complet book of Buddha s lists- Explained, u.s.a Vipassana foundation, 2006-2009 .
-David B. Barrett : George T. Kurian, Todd M. Johnson, World Christian encyclopedia (a comparative survey of churches and religions in the modern world), Publ 2, New York Oxford, , 2001.
-Edward Tylor : Primivite Culture, Researches into the devlopment, London : John Murry, Albemariestreet, 1871 .
-Emile Durkheim : les Formes elementaires de la vie religieuse, paris : lespresses de France, 1968 .
-European Commission : Discrimination in the EU in 2012(SPECIAL EUROBAROMETER) European Commission : November 2012 .
-Evans-Pritchard : Theories of Primitive Religions, London : Oxforduniversity press, 1965 .
-Friedrich shleir macher : Discours sur la religion, paris, 1799 .
-Geoffery parrinder : wordd religions : from ancient history to the present, 1985 .
-GOFFMAN : THE PRESENTATION OF SELF 1 IN EVERYDAY LIFE, University of Edinburgh Social Sciences Research Centre, 1956.
-Guyau : L'irréligion de l'avenir (étude sociologique), 1887 .
-Harbert spencer : First principles, london : williams and norgate, 1910 .
-Harper Dougl : Online Etymology Dictionary, www.etymonline. com , 2001,2015,"religion".
-Harun Yahya : Atlas of creation, translated Carl Nino Rossimi, Ronald Evans, Istanbul Global Publishing .
-Hershel Edelheit : Abfaham J. Edelheit, History of Zionism (A Handbook and Dictionary), Boulder, CO: Westview Press, 2000 .
-James Allen : The Ancient Egyptian Pyramid texts, Society of Biblical Litterature, 2005 .
-James Frazem : The Golden Bough : Astadyin magic andreligion, wildsidebpriss : 2010.
-Totemism and Exogamy, london : Macmillan, 1910 .
- Jurgen Habermas : Qu' est-ce qu' une société(Post- séculiere), Le Débat, Gaallimard, Paris :novembre- decembre 2008 .
- Kuroda toshio : trs :jacquelline, The Imperial Law and the Buddhist law, Japanese Journal of Religious Studies, 1996 .
-Le Petit La rousse : grand Format en coulour, paris Bordas, 1999, article laicite .
-Malek chebel : L'Imaginaire arabo- musulman, sosiologie d'aujourdhui, parie : Presses unverstaires de France, 1993 .
-Max Muller : Comparative Mithilogynanessay , london :Routledge, 1909 .
- Natural Religion, london : longmans green and Co,1898 .
- Origineet Devloppement de la religion, paris : creinrald, 1879 .
-Max Muller: physicul religion, (The Gifford Lectures), London : Longmons, Green and Co, 1891 .

- the science of thought, london : longmans, Green and Co, 1887 .
- The science of religion, London :new spattis woode , 1870.
-Maxime Rodinsone : Lislam Poliique et croyance, librairie artleme fayard, 1993.
-Oxfor University Press : Shorter Oxford English Dictionary, 6th Edition, 2007.
-Peter Harrison : The Territories of Science and Religion, London : University of Chicago Press, 2015 .
-Pinch: Magic in Ancient Egypt, London : 1994.
-Richard Dawkins : The God Dulusion, London Bantam Press, 2006.
-Robert henry codrington : Melanesians (their Anthropology and Folklore), Ed7, James Hastings ,1915 .

-Salamomon Reinack : Orpheus hestoire Grenerale des religion, paris : alcidepicard, editeur, 1902 .
-Sigmund Freud : Totem and Taboo , london , new york : ISBN .
-Steven Eric Krauss : The Muslim Religiosity-Personality Measurement Inventory (MRPI)'sreligiosity measure- ment model, Pertanika : Sosial sciences and Human Sciences, 13 (2), 2005.
-The American heritage : Dicctionary of the english of the engllish language , 5 edion , houghton mifflin, harcourt, 2014.
-The editions of encyclopedia britannica, 2014, www, Britannica com .
-Tom harpur : The Pagan Christ(recovering the lost light), Toronto: Thomas allen, Wikipedians, Religion, http://en.wikipedia.org/w/boo:religion. 2004 .
-Vincent goosaert,david palmer : linvention des religion en chine moderne, pari :gallimard filioessais, 2007 .
-william james : the varieties of religion experience, the library of America Longmans,Gream &Co, 1902.
-Winston King : Encyclopedia of Religion. Ed. Lindsay Jones, First Edition, Religion Vol. 11. 2nd ed. Detroit: Macmillan Reference USA, 2005 .
Youtube : -Jonathan Wells : Icons of Evolution which refute the Darwinism, https://www.youtwube.com.

مواقع إلكترونية :

- http :www. youtube.com/watch?v=rFbr_Qz9Xc0
- http://www.adherents.com/religions
- http://www.pewforum.org/2015/04/02/religious-projections-2010-2050

- Adherents.com
- http://www.amtb.org.tw/jkfs/jkfs.asp?web_choice=7&web_amtb_index=31
- http://www.scottishpf.org/census.html

يحيى محمد، أنماط التدين، موقع فهم الدين http://www.fahmaldin.com/index.php?id=2231

فهرس المواضيع

الموضوع ..... الصفحة
المقدمة 1

الباب الأول : ماهية الظاهرة الدينية

الفصل الأول : مفهوم الدين لغة واصطلاحا.....15
المبحث الأول : مفهوم الدين في اللغة 15
المطلب الأول : مفهوم الدين في اللغة العربية والقرآن 15
المطلب الثاني : دلالة الدين في اللغات الأجنبية 30
المبحث الثني : المفهوم الإصطلاحي للدين 41
المطلب الأول : المفهوم الإصطلاحي للدين عند علماء المسلمين 41
المطلب الثاني : مفهوم الدين عند علماء الفلسفة والأنتربولوجيا 47
المطلب الثالث : مفهوم الدين عند علماء الاجتماع وعلم النفس 58

الفصل الثاني : في نشأة الظاهرة الدينية.....71
المبحث الأول : الاتجاهات الحديثة في منشأ الدين 72
المطلب الأول :الاتجاه التطوري في منشأ الدين 72
المطلب الثاني : الاتجاه التأليهي والاتجاهات الثانوية في نشأة الدين.....88
المبحث الثاني : نقد الاتجاهات الحديثة في منشأ الدين 102
المطلب الأول : نقد النظريات التطورية 102
المطلب الثاني : تقويم الاتجاه التطوري التقدمي في نشأة الأديان 116
المطلب الثالث : نقد الاتجاه التأليهي والاتجاهات الثانوية في نشأة الدين 126

الفصل الثالث : مصدر الدين وأصالة التدين 137
المبحث الأول : في مصدر الدين 137
المطلب الأول : المعطيات الأركيولوجية 137
المطلب الثاني : الشواهد الكتابية 152
المبحث الثاني : أصالة النزعة الدينية ووظائفها 163
المطلب الأول : الدين والفطرة 163

المطلب الثاني : دوافع الفطرة ومنبهاتها 173
المطلب الثالث : وظائف الدين 182

الباب الثاني : أنثربولوجيا الظاهرة الدينية

الفصل الأول : بنية الظاهرة الدينية 196
المبحث الأول : أركان الدين (العناصر الأساسية).....197
المطلب الأول : المعتقدات والمقدسات 197
المطلب الثاني : العبادات (الشعائر الدينية) 210
المطلب الثالث : الكتب والنصوص المقدسة 217
المبحث الثاني : العناصر المكملة في الدين 235
المطلب الأول : الأخلاق والشرائع 235
المطلب الثاني : الأسطورة 243

الفصل الثاني : الدين وعلائقه 262
المبحث الأول : الدين ومظاهر الوثنية 262
المطلب الأول : الوثنية في العالم القديم 263
المطلب الثاني : الوثنية في العالم قبيل الإسلام (في شبه الجزيرة العربية) 275
المبحث الثاني : الدين والسحر 286
المطلب الأول : حقيقة السحر وأنواعه 286
المطلب الثاني : جدلية الدين والسحر 300

الباب الثالث : المقاربات المعاصرة للظاهرة الدينية

الفصل الأول : الدين والتدين والواقع المعاصر : مقاربة معرفية نقدية 321
المبحث الأول : التدين في الواقع الإسلامي المعاصر 321
المطلب الأول : في سؤال الدين والتدين 321
المطلب الثاني : أنماط التدين في الواقع الإسلامي المعاصر 333
المبحث الثاني : التدين في الواقع الغربي المعاصر 352
المطلب الأول : المسيحية والعلمانية في سياق التاريخ الغربي 352

المطلب الثاني : الوضع الديني في الغرب 367

الفصل الثاني : الظاهرة الدينية والفكر الإلحادي المعاصر 382
المبحث الأول : الدين والعلم والفكر الإلحادي المعاصر 382
المطلب الأول : الإلحاد المعاصر؛ مقاربة في تاريخ المفهوم وسماته 383
المطلب الثاني : العلم بين الدين والإلحاد 397
المبحث الثاني : أدلة الفكر الإلحادي المعاصر ودحضها 405
المطلب الأول : نشأة الكون والحياة ومعناها 409
المطلب الثاني : التطور البيولوجي والداروينية 417
المبحث الثالث : أدلة الخلق والإيمان 430
المطلب الأول : قصة خلق الكون (نظرية الانفجار الأعظم) 430
المطلب الثاني : الفيزياء الكوانتية ونقد مفهوم المادة (تعزيز مبدأ الغيب) 436

خاتمة 445
الملاحق 452
الملخصات 459

فهارس

فهرس الآيات القرآنية 463
فهرس الأحاديث النبوية والآثار 472
فهرس الأعلام 474
فهرس المصطلحات 479
فهرس المصادر والمراجع 481
فهرس الموضوعات 498